نفحات الولاية

شرح نهج البلاغة

شرح عصري جامع

لسماحة آية الله العظمى
الشيخ ناصر مكارم الشيرازي

الجزء التاسع

من رسالة ١ إلى ٣١

طبعة منقحة ومزيدة

دار جواد الأئمة (ع)

www.haydarya.com

بسم الله الرحمن الرحیم

سماحة آية الله العظمى الشيخ ناصر مكارم الشيرازي دام ظله

نفحات الولاية

شرح عصري جامع لنهج البلاغة

من رسائل الدار ٣١

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم/ ١١٥٤١١
التاريخ/ ٢٩/٦/٢٠١٢

الجزء التاسع

بمساعدة مجموعة من الفضلاء
إعداد: عبد الرحيم الحمراني

دار جواد الأئمة (ع)

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الاولى
1432هـ - 2011 م

دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور
ت: 73 73 13 / 03 - 12 29 69 70 00961

مكتبة الروضة الحيدرية
النجف الأشرف

القسم الثاني من نهج البلاغة

رسائل أمير المؤمنين عليه السلام

مقدّمة

القسم الثاني والمهمّ من نهج البلاغة يتضمّن رسائل وكتب الإمام أميرالمؤمنين إلى الأولياء، الأعداء، الأُمراء، قادة الجيش وبعض أبنائه، والتي تختزن في مضمونها مسائل في غاية الأهمية عن بناء الذات، التقوى، إدارة البلاد، النصيحة للأعداء وفتح المجال لهم للعودة إلى أحضان الحق، ومسائل مهمة أخرى من هذا القبيل.

ومحتوى هذه الرسائل بدرجة من الحيوية والحركة، كأنّها صدرت من الإمام في هذا العصر ومن أجل المخاطبين في زماننا هذا.

وهذه الرسائل، التي بإمكانها أن تكون درساً لمختلف شرائح المجتمع وينتفع بها جميع الأفراد، تعتبر من الكنوز الغالية للتراث الإسلامي ولسيرة أميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام، وليت جميع السياسيين في العالم يلتفتوا إلى أهميتها ويعملوا على استثمارها لإصلاح الوضع العالمي والمجتمع البشري، وليت أنّ هذه الرسائل قد وصلت إلينا كلّها.

وممّا يجدر ذكره أنّ عهد الإمام لمالك الأشتر الوارد في نهج البلاغة «وهو الدستور العملي الذي أرسله الإمام عليّ عليه السلام لواليه على مصر مالك الأشتر وورد في

نهج البلاغة برقم (٥٣) من رسائل الإمام» قد ترجم إلى بعض اللغات الأجنبيّة وقد تمّ وضعه في هيئة الأمم المتحدة كسند تاريخي، و وقع مورد إعجاب وثناء لنواب وممثلي الدول المختلفة في الأُمم المتحدة.

وهناك الكثير من أمثال هذه الرسالة التاريخية في نهج البلاغة من بين ٧٩ رسالة وكتاب للإمام علي عليه السلام، رغم أنّ كلّ واحدة منها تهدف لغرض خاص.

ومن الرسائل المهمّة في هذا الصدد وصية الإمام عليه السلام لابنه الإمام الحسن المجتبى عليه السلام التي تتضمن مسائل عرفانية، أخلاقية، وتعاليم لتهذيب النفس، وكذلك رسالة الإمام عليه السلام المعروفة لعثمان بن حنيف التي يعترض فيها الإمام عليه السلام على واليه لحضورة وليمةً لطبقة الأغنياء والأشراف، ورسالة الإمام عليه السلام المعروفة لشريح القاضي، ورسالة الإمام عليه السلام إلى «حارث الهمداني»، ورسالة الإمام عليه السلام لأهل مصر التي أرسلها مع مالك الأشتر، وهناك رسائل متعددة كتبها الإمام عليه السلام لمعاوية بن أبي سفيان وحذّره من العواقب الوخيمة لأعماله الشنيعة، وجميع هذه الرسائل تعتبر من الوثائق التاريخية التي قلّ نظيرها في تراثنا الإسلامي.

ﮩﮩ

رسائل أمير المؤمنين عليه السلام

باب المختار من كتب مولانا أمير المؤمنين علي عليه السلام ورسائله إلى أعدائه وأمراء بلاده

ويدخل في ذلك ما اختير من عهوده إلى عماله ووصاياه لأهله وأصحابه

١

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إلى أهلِ الكُوفَةِ، عِنْدَ مَسيرِهِ مِنَ المَدينَةِ إلَى البَصْرَةِ[١]

نظرة إلى الرسالة

الحقيقة أنّ الغرض من كتابة هذه الرسالة يتمثّل في ثلاثة أمور:

١. إنّ الإمام عليّ عليه السلام أراد في كتابه هذا أن يبيّن أنّ طلحة والزبير وعائشة الذين اتخذوا من قتل عثمان ذريعة لإثارة الناس ضدّه عليه السلام وتحركوا لتهيئة مقدّمات حرب الجمل مع عائشة، أنّهم شركاء في قتل عثمان، في حين أنّ الإمام عليه السلام كان قد دافع عنه بالمقدار الممكن.

---

١. سند الرسالة:

طبقاً لنقل ابن أبي‌الحديد وما ورد في الروايات أنّ الإمام عليّ عليه السلام عندما تحرك من المدينة باتجاه البصرة وصل في مسيره إلى منطقة الربذة، وهناك أرسل محمد بن جعفر بن أبي طالب و(أمّه أسماء بنت عميس) مع محمد بن أبي بكر بهذه الرسالة إلى أهل الكوفة، وقد وردت بعض الاضافات في ذيل هذه الرسالة وفقاً لنقل ابن أبي‌الحديد حيث يشير إلى وجود مصدر آخر لهذه الرسالة.

وأورد (ابن قتيبة) في كتاب «الإمامة والسياسة» هذه الرسالة مع بعض الإضافات، ونقلها الشيخ المفيد في كتاب «الجمل» الذي تمّ تأليفه قبل السيد الرضي، ولكنه قال: إنّ الإمام عليّ عليه السلام أرسل هذه الرسالة بواسطة الإمام الحسن عليه السلام وعمار بن ياسر إلى أهالي الكوفة.

وذكرها المرحوم الشيخ الطوسي أيضاً في الأمالي مع بعض التفاوت، ومن الواضح أنّ السيد الرضي لم ينقل جميع ما ورد في الرسالة، بل اقتطف منها ما ذكره في كتابه (انظر: مصادر نهج‌البلاغة، ج٣، ص ١٩٤).

٢. إنّ جميع الناس قد بايعوا الإمامعليه السلام طواعية ورغبة وبدون أيّ شكل من أشكال الجبر والإكراه وإنّ المسلمين قد قبلوا بخلافته على الأُمّة الإسلاميّة.

٣. نظراً لما وقع من فتنة طلحة والزبير وعائشة، فإنّهم يتوجّب على أهل الكوفة أن يهبّوا لنصرة الإمام وإطفاء نار الفتنة من خلال الالتحاق بجيش الإمام.

٭٭٭

القسم الأول

مِنْ عَبْدِاللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ وَسَنَامِ الْعَرَبِ. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّىٰ يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ. إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ، فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ. وَكَانَ مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ غَضَبٍ، فَأُتِيحَ لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ، وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ.

الشرح والتفسير

حقيقة ما وقع في حادثة قتل عثمان

بدأ الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرسالة، وطبقاً لما كان متداولاً في ذلك العصر، بالتعريف بكاتب الرسالة والمخاطبين له، حيث قال: «مِنْ عَبْدِاللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِالْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ أَهْلِ الْكُوفَةِ، جَبْهَةِ الْأَنْصَارِ[1] وَسَنَامِ الْعَرَبِ».

ومن البيّن أنّ مراده من كلمة الأنصار هنا ليس أنصار النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في المدينة الذين يقعون في مقابل المهاجرين، لأنّه لم يكن هناك في الكوفة جبهة للأنصار وأخرى للمهاجرين، بل المراد من الأنصار هنا أنصار الإمام عليّ عليه السلام والتعبير بـ «جبهة» إشارة إلى شرفهم وعلو مكانتهم، لأنّ الجبهة تعتبر من أشرف

---

١. «الجبهة» في الأصل بمعنى أعلى الوجه، وما بين الجبينين، وبما أنّ هذا المكان يعدّ من الأعضاء الشريفة والبارزة في البدن فتطلق هذه الكلمة على الجماعة القوية الذين يتحركون لجلب الخير أو دفع الشر، وكذلك تطلق على رئيس الجمعية.

أعضاء الإنسان.

كلمة «سنام» رغم أنّها في الأصل بمعنى أعلى مكان في ظهر الجمل، إلّا أنّها تطلق على كلّ شيء متميز وكلّ شخص ذي مكانة عالية في المجتمع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام قال في رسالته: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُخْبِرُكُمْ عَنْ أَمْرِ عُثْمَانَ حَتَّىٰ يَكُونَ سَمْعُهُ كَعِيَانِهِ».

هنا يثار هذا السؤال: لماذا اهتمّ الإمام عليه السلام في هذه الرسالة قبل كلّ شيء بالبحث عن جذور حادثة مقتل عثمان؟

من المعلوم أنّ الإمام عليه السلام قد كتب هذه الرسالة إلى أهل الكوفة في زمن إرهاصات معركة الجمل، ونعلم أنّ مسألة الطلب بثأر عثمان كانت ذريعة استخدمها المخالفون وقوى التمرّد «طلحة، الزبير، عائشة، وأنصارهم» وعندما يبيّن الإمام عليه السلام تفاصيل هذه المسألة بشكلّ واضح فإنّ ذلك من شأنه أن يدفع بأهل الكوفة للاشتراك مع الإمام من موقع الوضوح في الرؤية.

ثم أضاف الإمام عليه السلام: «إِنَّ النَّاسَ طَعَنُوا عَلَيْهِ».

وقد ذكر جميع المؤرخين وعامّة المحقّقين تقريباً أنّ اعتراض الناس على عثمان يعود إلى أمرين: التقسيم غير العادل لبيت المال، والعطايا والمواهب الجزيلة لأقربائه وأرحامه، والآخر وضع المقاليد الحساسة للحكومة الإسلاميّة بيد أشخاص غير كفوئين من أقربائه وأتباعه.

ثم أضاف الإمام عليه السلام: «فَكُنْتُ رَجُلاً مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أُكْثِرُ اسْتِعْتَابَهُ[1]، وَأُقِلُّ عِتَابَهُ، وَكَانَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ أَهْوَنُ سَيْرِهِمَا فِيهِ الْوَجِيفُ[2]، وَأَرْفَقُ حِدَائِهِمَا الْعَنِيفُ[3]. وَكَانَ

---

١. «استعتاب» من مادة «عتبى» بمعنى اللوم والتوبيخ، وبهذا المفهوم نعاتب الطرف الآخر حتى يرضى، ثم استعمل بمعنى طلب الرضا.

٢. «وجيف» من مادة «وجف» على وزن «وقف» تعني الاضطراب والاهتزاز، وبما أنّ الإنسان بمسيره السريع يواجه حالة من الاهتزاز والاضطراب في حركته، استعملت هذه المفردة بمعنى السرعة أيضاً.

٣. «حِداء» وكذلك «حُداء» على وزن «دعاء» بمعنى اطلاق الصوت في مسير القافلة لتسريع حركة الابل ثم ☜

مِنْ عَائِشَةَ فِيهِ فَلْتَةُ[1] غَضَبٍ، فَأُتِيحَ[2] لَهُ قَوْمٌ فَقَتَلُوهُ».

ويحتمل أيضاً في تفسير عبارة «أُكثر استعتابه»[3] أنني كنت أطلب من عثمان دائماً أن يهتمّ بكسب رضا الناس.

ثم أضاف عليه السلام: «وَبَايَعَنِي النَّاسُ غَيْرَ مُسْتَكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ، بَلْ طَائِعِينَ مُخَيَّرِينَ».

وفي الحقيقة أنّ الإمام عليه السلام بهذه العبارة الوجيزة والعميقة المعنى أشار إلى ثلاث نقاط ليتيح للناس الحكم على المتمردين بوضوح:

١. إنّ الإمام عليه السلام كان من المدافعين عن عثمان وكان يريد له الصلاح والسير في الطريق القويم واطفاء نار الفتنة.

٢. إنّ طلحة والزبير هما اللذان أشعلا نار الفتنة، وبالرغم من أنّ الانتفاضة ضد عثمان كانت عامّة وشاملة، ولكنّ طلحة والزبير كانا ينفخان في هذه النار ويمدّونها بالوقود، وكذلك الحال مع عائشة التي أثارت المهاجرين والأنصار في مسجد النبيّ على عثمان بجملة قصيرة عندما رفعت بيدها قميص النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ونعله كما ورد في الرواية: «ولمّا بَلَغَ عائِشَةَ ما صَنَعَ عُثْمانُ بِعَمّارٍ فَغَضِبَتْ وأخْرَجَتْ شَعْراً مِنْ شَعْرِ رَسولِ اللهِ صلى الله عليه وآله وَنَعْلاً مِنْ نِعَالِهِ وَثَوْباً مِنْ ثِيَابِهِ، وقَالَتْ: مَا أَسْرَعَ مَا تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَهذا ثَوْبُهُ وشَعْرُهُ وَنَعْلُهُ لَمْ يَبْلَ بَعْدُ»[4].

اطلقت على كلّ ما يبعث على التحرك لأداء عمل معين.

«عنيف» من مادة «عنف» وتعني الغلظة والشدّة في الاسلوب والعمل.

١. «فلتة» تعني صدور العمل بشكلّ عفوي وبدون تدبير مسبق، و«فلتات اللسان» الكلام الذي يصدر من الإنسان من موقع الغفلة والعفوية بدون تأمل.

٢. «أُتيح» من مادة «تيح» على وزن «شيء» بمعنى الاستعداد لأداء عمل معين، وجملة «فاتيح له قوم» تعني أنّ جماعة من الناس استعدوا لقتل عثمان.

٣. وفي هذه الصورة يكون ضمير «اسْتِعْتَابَه» ضمير للفاعل ومفعوله محذوف، يعني «اسْتِعْتَابَهُ مِنَ النَاسِ» في حين على التفسير الأول يكون الضمير مفعولاً ويتناسب أكثر مع الجملة اللاحقة.

٤. بحار الأنوار، ج ٣١، ص ١٩٤.

٣. إنّ البيعة التي بايعني فيها المسلمون «وخلافاً للبيعة مع الخليفة الأول والثاني والثالث» بيعة عامّة وشاملة ولم يجبر أحد على بيعتي.

ومن هذا المنطلق بيّن الإمام عليه السلام معالم الحقيقة ليعلم الناس أنّه على الحق وأنّ المتمرّدين والمناوئين له في معركة الجمل، على باطل.

تأمّلان

١. حكاية أبي موسى وتعبئة أهل الكوفة لنصرة الإمام عليه السلام

سبق وأنّ تعرّضنا في الأقسام السالفة وبشكل وافٍ إلى وقائع خلافة عثمان والأخطاء الكبيرة التي ارتكبها في مجال إدارة الحكومة الإسلاميّة والتي أدّت بالتالي إلى ثورة الناس عليه وانتهت بقتله، وكذلك تقدّم الكلام عن نقض طلحة والزبير لبيعتهم للإمام عليّ عليه السلام وتمرّدهم على خلافته، وكذلك واقعة بيعة الناس العامّة لأميرالمؤمنين عليه السلام[1].

أمّا قصة كتابة رسالة إلى أهل الكوفة من قِبل الإمام عليه السلام فهي ذات تفاصيل متشعبة وقد أشار ابن أبي‌الحديد في شرح نهج‌البلاغة بشكل موجز إلى هذه الحكاية، ويمكن الإشارة إلى خلاصة ما ورد في كلامه:

---

١. إنّ قصة قتل عثمان ومعركة الجمل وأبعادها وعواملها وتداعياتها تعتبر قصة ذات تفاصيل وفروع كثيرة ومطولة، وقد سبق أن استعرضنا في الأجزاء السابقة لهذه المجموعة بعض الأبعاد المهمّة لهذه الواقعة التاريخية، وهنا نذكر قائمة للقراء الأعزاء لمصادر هذه الواقعة في هذا الكتاب يتسنى لهم مراجعتها والإحاطة بكافّة أبعاد وخفايا هذه الواقعة:

أ) عوامل ثورة المسلمين ضد عثمان، ج ١، ص ٣٧١ إلى ٣٧٦.

ب) حوادث معركة الجمل، ج ١، ص ٣٨٩ إلى ٣٩١.

ج) قتل عثمان وعدم مشاركة الإمام عليّ عليه السلام ودور طلحة والزبير في تحريك الجمهور، ج ٢، ص ٣٠.

د) تحليل آخر حول قضية مقتل عثمان، ج ٢، ص ٢٣٢ تا ٢٤١.

هـ) دور طلحة والزبير في معركة الجمل، ج ٢، ص ٢٥١.

و) الأعمال التي قام بها عثمان وأدت إلى سخط الناس عليه، ج ٢، ص ٤٨٨.

ز) بحث آخر حول دور طلحة وتحريك الناس على قتل عثمان، ج ٦، ص ٥٢٧.

ينقل ابن أبي‌الحديد عن محمد بن إسحاق أنّ الإمام عليّاً عليه السلام أرسل محمد بن جعفر ومحمد بن أبي بكر إلى الكوفة، ولمّا قدما الكوفة استنفرا الناس، فدخل جماعة منهم على أبي موسى الأشعري ـ وكان والياً على الكوفة في زمن خلافة عثمان، وبعد مقتل عثمان أبقاه الإمام في منصبه ـ ليلاً فقالوا له: أشِر علينا برأيك في الخروج مع هذين الرجلين إلى عليّ عليه السلام، فقال أبوموسى الأشعري ـ والذي كان رجلاً خبيثاً في سريرته وقد تجلى خبثه في هذا الموقع ـ: «أمّا سبيل الآخرة فالزموا بيوتكم، وأمّا سبيل الدنيا فاشخصوا معهما» فمنع بذلك أهل الكوفة من الخروج لنصرة الإمام عليه السلام.

وبلغ المحمَّدَين ذلك فأغلظا لأبي موسى الأشعري، فقال أبوموسى: «والله إنّ بيعة عثمان لفي عنق عليّ وعنقي وعنقكما، ولو أردنا قتالاً ما كنّا لنبدأ بأحدٍ قبل قتلة عثمان»، فخرجا من عنده فلحقا بعليّ عليه السلام فأخبراه الخبر، فكتب الإمام عليه السلام رسالة لأبي موسى الأشعري، ولكنّ أبا موسى هدّد رسول الإمام بالقتل، وكتب الإمام رسالة أخرى لأبي موسى وأرسلها مع عبدالله بن عباس ومحمد بن أبي بكر وعزله من منصبه.

ولكنّ أبا موسى الأشعريّ استمرّ في مخالفته لأوامر الإمام عليه السلام، ثم إنّ الإمام عليّ عليه السلام أرسل مالك الأشتر، فشخص الأشتر نحو الكوفة، فأقبل حتى دخلها والناس في المسجد الأعظم، فجعل لا يمرّ بقبيلة إلّا دعاهم وقال: اتبعوني إلى القصر، حتى وصل القصر، فاقتحمه وأبوموسى يومئذٍ يخطب الناس على المنبر ويثبّطهم، وعمّار يخاطبه، والحسن عليه السلام يقول: اعتزل عملنا وتنحّ عن منبرنا، لا اُمّ لك! فصاح به الأشتر: «**أُخْرُجْ مِنْ قَصْرِنا لا أُمَّ لَكَ أَخْرَجَ اللهُ نَفْسَكَ فَوَاللهِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُنافِقِينَ قَدِيماً**».

فلمّا رأى أبو موسى الأشعري ضعف موقعه واهتزاز مكانته قال: أجّلني العشيّة، قال: لقد أجّلتك ولا تبيتنّ في القصر.

وفي هذه الواقعة استطاع رُسل الإمامعليه السلام من تعبئة اثني عشر ألف رجل من أهل الكوفة لنصرة الإمامعليه السلام وتوجّهوا إلى البصرة[1].

٢. عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان

من المعلوم أنّ غالبية أهل السنّة يذهبون إلى تنزيه الصحابة، يعني أنّ جميع الصحابة بدون استثناء هم أشخاص مؤمنون وعادلون وسيرتهم نقيّة، وقد أفرط البعض في هذا الأمر وسلك سبيل المبالغة إلى درجة أنّه ذهب إلى أنّ المخالف لأحد الصحابة هو زنديق وكافر، ومن هؤلاء ما ذكره «ابن حجر العسقلاني» في كتابه «الإصابة» نقلاً عن أبي زرعة الرازي قال: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحد أصحاب رسول اللهصلى الله عليه وآله فاعلم أنّه زنديق وذلك أنّ الرسول حقّ والقرآن حقّ وما جاء به حقّ، وإنّما أدّى إلينا ذلك كلّه الصحابة وهؤلاء يريدون أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنّة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة»[2].

عندما يواجه هؤلاء المؤرّخون الحوادث التاريخية المسلّمة من قبيل واقعة الجمل وأنّ طلحة والزبير وعائشة قد أشعلوا نار الحرب أمام خليفة المسلمين الذي بايعه المسلمون من المهاجرين والأنصار وقتل في تلك الواقعة أكثر من عشرة آلاف رجل وعلى رواية قتل سبعة عشر ألف فسوف يصاب بالحيرة والتردّد في الجواب لتبرير هذا العمل، وكذلك عندما يرى أنّ معاوية بن أبي سفيان وقف بوجه خليفة المسلمين الإمام عليّ بن أبي طالبعليه السلام وما ترّتب على ذلك من حرب صفّين وتداعياتها المؤلمة ومقتل عشرات الأُلوف من المسلمين وحتّى قتل بعض الصحابة، كعمّار بن ياسر على يد أتباع معاوية، فسوف يجد نفسه في ورطة ومتاهة عجيبة.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٤، ص ٨-٢١.

٢. الإصابة، ج ١، ص ١٧.

هؤلاء لا يستطيعون إنكار الحقائق التاريخية المسلّمة من جهة، ومن جهة أخرى لا يستطيعون التخلّي عن مقولة تنزيه الصحابة، ولذلك يتمسّكون بمنطق غريب.

فتارة يقولون: إنّنا لا ينبغي لنا أن نتحدّث عن الصحابة لأنّه ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾[1] بهذه الطريقة يوصدون نوافذ الفهم والإدراك على عقولهم، فهل يستطيع أيّ إنسان عاقل أن يغضّ بصره أمام الحقائق التاريخية التي تتضمّن بيان الكثير من المسائل التي نحتاجها في عالمنا المعاصر؟

وتارة أخرى يقولون: إنّ الصحابة مجتهدون كلّهم، وإنّ كلّ فرد منهم قد عمل باجتهاده، فالإمام عليّ عليه السلام عمل باجتهاده وطلحة والزبير وعائشة ومعاوية عملوا أيضاً باجتهادهم ولذلك هم معذورون أمام الله تعالى.

هؤلاء غفلوا عن أنّ الاجتهاد يتعلق بالمسائل النظرية التي تقع مورد الشك والتردد، وأمّا المسائل البديهية والمسلّمة فلا مجال للإجتهاد فيها، فهل يستطيع الشخص أن يقلب باجتهاده الليل إلى نهار أو النهار إلى ليل؟ إنّ مسألة حرب الجمل أو صفّين والتي تعتبر ثورة ضدّ الحكومة الإسلاميّة المقبولة لدى المسلمين، وسفك دماء المسلمين بدوافع دنيوية ونوازع نفسانية وحبّ المقام والمنصب، لا مجال للشك والتردد في حرمته، فلا يقال حينئذٍ أنّ مثل هذا الشخص مجتهد في ارتكاب هذا الفعل الشنيع، وإن أخطأ في اجتهاده فهو معذور ومغفور!

لماذا لا يتخلّى هؤلاء الإخوة عن التعصّب ويعترفوا بأنّ صحابة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله حالهم حال سائر الناس من وجود الصالح والطالح فيهم؟

لقد تحدّث القرآن الكريم في سورة البقرة، التوبة، الأحزاب، المنافقين وفي موارد عديدة، عن المنافقين وذمّهم، فمن هؤلاء المنافقون؟ إنّ تعريف الصحابة المذكور ينطبق عليهم بشكل كامل، فلماذا يقول الإنسان شعراً يعجز عن الإتيان بالقافية كما يقول المثل؟

---

١. سورة البقرة، الآية ١٣٤.

أليس من الأفضل القول بوجود جماعة في زمان النبيّ الأكرمﷺ من المنحرفين والفاسقين، وجماعة أخرى من الصالحين، والصالحون بدورهم على قسمين: فجماعة منهم استقاموا في خط الصلاح والخير والإيمان حتى بعد رحلة النبيّ الأكرمﷺ، وجماعة منهم انحرفوا عن جادّة الصواب والحقّ بسبب الأطماع الذاتية، وقد أُصيب العالم الإسلامي من جرّاء ذلك بمصائب كبيرة، أجل هؤلاء لم ينجحوا في الامتحان الإلهّي بعد النبيّ الأكرمﷺ وسقطوا في متاهات الضلالة وحبّ الدنيا.

وهكذا قيل: عند الامتحان يكرم المرء أو يهان[١].

۞

١. ورد في تنزيه الصحابة توضيحات أخرى في ذيل الخطبة الثالثة، ج ١، ص ٣٧٦ وما بعدها وفي ج ٤، ص ٣٢٠ وذيل الخطبة ٩٧، و ج ٥، ص ٥١٨ وذيل الخطبة ١٣٥، وكذلك ورد في كتاب «الشيعة تجيب»، بحث مفصل ووافي حول هذا الموضوع.

القسم الثاني

وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ جَيْشَ الْمِرْجَلِ، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ، فَأَسْرِعُوا إِلَىٰ أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

الشرح والتفسير

يستطرد الإمام في هذا القسم من الخطبة في بيان ماهية المتمرّدين في البصرة والموقدين لنار الفتنة ويطلب من أهل الكوفة أن يستعدّوا لنصرة الإمام ومواجهة هذا العدوان وإطفاء نار الفتنة، ولذلك ومن أجل تحريضهم وإيجاد حافز لهم يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ دَارَ الْهِجْرَةِ قَدْ قَلَعَتْ بِأَهْلِهَا وَقَلَعُوا بِهَا، وَجَاشَتْ[1] جَيْشَ الْمِرْجَلِ[2]، وَقَامَتِ الْفِتْنَةُ عَلَى الْقُطْبِ[3]».

والإمام عليه السلام يشير هنا إلى اعتراضه على جلوسهم غير مكترثين بما يدور في عاصمة الإسلام المدينة المنوّرة التي عاشت الغليان والتقلّبات الكبيرة وقد تحرّك المؤمنون في المدينة معي لإطفاء نار الفتنة التي أوقدها المناوئون في البصرة.

ثم يضيف الإمام عليه السلام: «فَأَسْرِعُوا إِلَىٰ أَمِيرِكُمْ، وَبَادِرُوا جِهَادَ عَدُوِّكُمْ، إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

---

١. «جاشَتْ» من مادة «جيش» على وزن «حيف» بمعنى الغليان والهيجان.

٢. «مِرْجَل» بمعنى القِدر سواء كان مصنوعاً من الفخار أو من النحاس وما إلى ذلك، ولذلك عندما يسيطر الغضب والحدّة على الإنسان يقال: «جاشت مراجله».

٣. «قطب» في الأصل بمعنى الحديدة التي توضع في وسط حجر الطاحونة كمحور لدوران الحجر العلوي حوله، ثم اطلق على كلّ أمر يكون له دور محوري في قضية معينة.

وكما أسلفنا قبل قليل أنّ المراد من «دار الهجرة» المدينة المنورة التي كانت معروفة بهذا الاسم، وقد عاشت أكبر هجرة في تاريخ الإسلام وهي هجرة المسلمين والنبيّ من مكة إلى المدينة، وأمّا ما ذكره بعضهم من احتمال أن يكون المراد الكوفة أو كلّ بلاد الإسلام فهو احتمال بعيد جدّاً.

أمّا تشبيه المدينة بالقدر الموضوع على المرجل وفي حال الغليان فهو بسبب ما عاشته المدينة في تلك الظروف من حوادث عصيبة وتداعيات خطيرة في أواخر خلافة عثمان وبعد مقتله.

والتعبير بكلمة «قامت الفتنة على القطب» إشارة إلى فتنة طلحة والزبير وعائشة، الذين خططوا لعزل الإمام عليّ عليه السلام عن مركز الخلافة أو تجزئة بلاد الإسلام بحيث تكون المدينة والحجاز بيد الإمام عليّ عليه السلام، ويكون العراق والكوفة والبصرة بيد طلحة والزبير وعائشة، والشام من حصة معاوية، وهذه هي الفتنة العظيمة التي حذّر منها الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرسالة.

إنّ هذه الرسالة القصيرة الغزيرة المعنى أثّرت أثرها في أهل الكوفة فخرج منها أكثر من اثني عشر ألف رجل لنصرة الإمام عليه السلام في معركة الجمل وتوجّهوا إلى البصرة، وكان لذلك دور مؤثر في انتصار جيش الحقّ على المنافقين والناكثين في معركة الجمل.

واللافت أنّ الطبري ينقل في تاريخه عن أحد الرواة ويدعى أبوالطفيل قال: قال عليّ عليه السلام: «يأتيكم من الكوفة اثنا عشر ألف رجل ورجل، فقعدت على نجفة ذي‌قار وأحصيتهم فما زادوا رجلاً ولا نقصوا رجلاً»[1].

تأمّل

مصير الناكثين

إنّ كلّ مؤرخ ومحقّق، بل كلّ إنسان عارف بوقائع معركة الجمل، يعلم أنّ الإمام

---

١. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٥١٣.

عليّ عليه السلام مضافاً إلى كونه منصوباً للخلافة بأمر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، فإنّ جماهير المسلمين بايعوه للخلافة وقد استلم زمام الأمور ومقاليد الحكومة الإسلاميّة برصيد شعبي أقوى من الخلفاء السابقين، ولكن الطامعين بالثروة والمقام انتفضوا عليه وسفكوا في سبيل تحقيق نوازعهم الذاتية دماء كثيرة، ومعلوم أنّ جميع هؤلاء المتمرّدين على الإمام من العصاة والمذنبين ولا يقبل لهم أيّ عذر في محكمة العدل الإلهي.

ولكن الملفت للنظر أنّ ابن أبي‌الحديد في «شرح نهج‌البلاغة» يتحدّث في هذا المجال ويقول: «اختلف المتكلّمون في حالها، أي عائشة، وحال من حضر واقعة الجمل، فقالت الإماميّة: كفر أصحاب الجمل كلّهم الرؤساء والأتباع، وقال قوم من الحشوية والعامة: إجتهدوا فلا إثم عليهم ولا نحكم بخطئهم ولا خطأ عليّ عليه السلام وأصحابه.

وقال قوم من هؤلاء: بل نقول: «أصحاب الجمل أخطأوا ولكنّه خطأ مغفور، وكخطأ المجتهد في بعض مسائل الفروع عند مَن قال بالأشبه، وإلى هذا القول يذهب أكثر الأشعرية»[١].

وقال أصحاب المعتزلة «وابن أبي‌الحديد منهم»: «كلّ أهل الجمل هالكون إلّا من ثبتت توبته منهم، قالوا: وعائشة ممّن ثبتت توبتها، وكذلك طلحة والزبير، أمّا عائشة فإنّها اعترفت لعليّ عليه السلام يوم الجمل بالخطأ، وسألت العفو، وقد تواترت الرواية عنها بإظهار الندم، وأنّها كانت تقول: ليته كان لي من رسول الله صلى الله عليه وآله بنون عشرة كلّهم مثل عبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وثكلّتهم، ولم يكن يوم الجمل! وأنّها كانت تقول: ليتني متّ قبل يوم الجمل، وأنّها كانت إذا ذكرت ذلك اليوم تبكي حتى تبلّ خمارها. وأمّا الزبير فرجع عن الحرب معترفاً بالخطأ، لمّا ذكّره علي عليه السلام بما ذكّره، وأمّا طلحة فحاله أيضاً حال الزبير...»[٢].

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٤، ص ٢٤.
٢. المصدر السابق، ج ١٧، ص ٢٤.

وهنا يطرح هذا السؤال على ابن أبي‌الحديد وأمثاله، وهو أنّه إذا صدر عمل معيّن من شخص وأدّى إلى سفك دماء جماعة المسلمين، فهل يكفي إظهار الندم والتوبة أمام حقّ الناس العظيم أو ينبغي جبران هذا الحقّ؟

ജ്ഞ

٢

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إِلَيْهِمْ، بَعْدَ فَتْحِ الْبَصْرَةِ[1]

نظرة إلى الرسالة

تقدّم آنفاً في بحث سند هذه الرسالة أنّها تمثّل مقطعاً صغيراً من رسالة مطوّلة كتبها الإمام عليّ عليه السلام بعد معركة الجمل، وتتضمّن تقدير أتعابهم وما بذلوه للإسلام وأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله في قبولهم دعوة الإمام واشتراكهم معه في قمع المتمرّدين من أصحاب الجمل والثناء عليهم من موقفهم واستقامتهم في هذا السبيل.

١. سند الرسالة:
إنّ ما أورده السيّد الرّضي في هذه المقام يمثّل مقطعاً من رسالة مطوّلة نسبياً أرسلها الإمام عليه السلام بعد فتح البصرة إلى أهالي الكوفة: «مِنْ عَبدِ اللهِ علي بن أبي طالب إلىٰ قُرظَةَ بن كَعب (أحد صحابة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله المشهورين الذي ارسل إلى الكوفة) وَمَنْ قِبلِهِ مِنَ المَسلِمِينَ سَلام عَليكُم فإنّي أحمد إليكمُ اللهَ الذي لا إله إلّا هُو...».
وقد كتب هذه الرسالة كاتب الإمام عليه السلام عبيدالله بن رافع في سنة ٣٦ من الهجرة، وقد أوردها الشيخ المفيد في كتابه «النصرة» من كتاب «الجمل» للواقدي (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩٥).
وقد جاء في كتاب نهج البلاغة الكامل، ص ٧٨٨، أنّ الإمام عليه السلام أرسل هذه الرسالة بعد فتح البصرة مع «زحر بن قيس الجعفي» إلى أهالي الكوفة ومطلع الرسالة: «مِنْ عَبدِ اللهِ علي بن أبي طالبِ أميرالمُؤمنين إلى أهل الكوفة».

وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ.

الشرح والتفسير

إظهار الإمام عليه السلام رضاه عن أهل الكوفة

يتبيّن من هذه العبارة أنّ الإمام يدعو بها لأهل الكوفة ويشكر قيامهم وأتعابهم ويثني على مواقفهم ويصفهم بعدّة أوصاف مهمّة ويقول: «وَجَزَاكُمُ اللهُ مِنْ أَهْلِ مِصْرٍ عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أَحْسَنَ مَا يَجْزِي الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ، وَالشَّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ، فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأَطَعْتُمْ، وَدُعِيتُمْ فَأَجَبْتُمْ».

وبديهيّ أنّ المخاطب في الرسالة هم أهل الكوفة كما ذكر ذلك المرحوم السيد الرضيّ في عنوان هذه الخطبة وتؤيّد ذلك القرائن الحالية أيضاً، فإنّ أهل البصرة انضمّوا في غالبيتهم إلى جيش طلحة والزبير وقد ذمّهم الإمام عليه السلام في خطب أخرى في نهج البلاغة[1]، ولكن أهل الكوفة هم الذين استجابوا لدعوة الإمام عليه السلام ونصروه في هذه المعركة الحاسمة وبذلك استحقّوا الشكر والثناء.

أضف إلى ذلك أنّ المستوحى من مجموع الرسائل، كما سيأتي في بحث الملاحظات نقلاً عن بعض مصادر أخرى، أنّ المخاطبين بهذه الرسالة هم أهل الكوفة.

وعبارة: «عَنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ» إشارة إلى أنّ قيامكم هذا لا يعتبر نصرة للإسلام والقرآن فحسب، بل نصرة لأهل البيت عليهم السلام أيضاً، وهذا يستوجب الثواب المضاعف لكم.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٣ و ١٤.

ويصف الإمام عليه السلام أهل الكوفة في هذه الرسالة بخمس صفات استحقّوا على أثرها دعاء الإمام لهم:

الأولى: العمل بطاعة الله عزّ وجلّ.

الثانية: أداء شكر نعمائه.

والثالثة: الاستماع لأوامره.

والرابعة: إطاعة أمره.

والخامسة: إجابة دعوته، وهذه كلّها في الحقيقة تعبيرات مختلفة عن حقيقة واحدة.

تأمّل

النصّ الكامل لرسالة الإمام عليه السلام لأهل الكوفة

لقد أورد المرحوم السيّد الرضي، وطبقاً لمنهجه الانتقائي الذي اتّبعه في «نهج البلاغة»، مقطعاً صغيراً جدّاً من رسالة الإمام عليه السلام إلى أهل الكوفة، في حين أنّ هذه الرسالة غزيرة المحتوى وعميقة المضمون، ومن الجدير أن يستعرضها كلّها في هذه الفقرة، لأنّها تتضمّن فنوناً من البلاغة إضافة إلى نكات حساسة ومصيرية للمسلمين.

وقد أورد المرحوم العلّامة المجلسيّ في «بحار الأنوار» نصّ هذه الرسالة نقلاً عن كتاب «الكافية في ابطال توبة الخاطئة» (للشيخ المفيد) نقلاً عن أبي مخنف: ورد كتاب أميرالمؤمنين عليه السلام مع عمر بن سلمة الأرجيّ (الأرحبيّ) إلى أهل الكوفة، فكبّر الناس تكبيرة سمعها عامة الناس واجتمعوا لها في المسجد، ونودي بالصلاة جامعة فلم يتخلفّ أحدٌ وقرأ الكتاب و فيه:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِاللهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إلى قُرْظَةَ بْنِ كَعْبٍ (والي الكوفَةِ) وَمَنْ قِبَلَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللهَ الَّذي لَا إلٰهَ إلّا هُوَ.

أمّا بَعْدُ، فَإنّا لَقِينا القَوْمَ النّاكِثينَ لِبَيْعَتِنا وَالمُفارِقِينَ لِجَماعَتِنا، البَاغِينَ عَلَيْنا فِي أُمَّتِنا، فَحَجَجْناهُمْ فَحاكَمْناهُم إلىٰ اللهِ فأدالَنا عَلَيْهِم، فَقُتِلَ طَلْحَةُ والزُّبَيْرُ وقَد تَقَدَّمْتُ إلَيْهِما بالمَعْذِرَةِ وأقْبَلْتُ إلَيهِما بالنَّصِيحَةِ واسْتَشْهَدْتُ عَلَيْهِما صُلَحاءَ الأُمَّةِ فَما أطاعا المُرْشِدِين وَلا أجابا النّاصِحِينَ.

وَلاذَ أهْلُ البَغْيِ بِعائِشَةَ فَقُتِلَ حَوْلَها مِنْ أهْلِ البَصْرَةِ عالَمٌ جَسِيمٌ وَضَرَبَ اللهُ وَجْهَ بَقِيَّتِهِم فأدْبَروا فَما كانَتْ ناقَةُ الحَجَرِ بأشْأمَ عَلَيْهِم مِنْها علىٰ أهلِ ذٰلِكَ المِصْرِ مع ما جَاءَتْ بِه مِنَ الحَوْبِ الكَبيرِ فِي مَعْصِيَتِها رَبَّها ونَبِيَّها واغتِرارَها في تَفْرِيقِ المُسْلِمينَ وسَفْكِ دِماءِ المُؤمِنِينَ بِلا بَيِّنَةٍ وَلا مَعْذِرَةٍ وَلا حُجَّةٍ ظاهِرَةٍ.

فَلَمّا هَزَمَهُمُ اللهُ أمَرْتُ أنْ لا يُتْبَعَ مُدْبِرٌ وَلا يُجازَ (وَلا يُجهَزَ) علىٰ جَرِيْحٍ وَلا يُكْشَفَ عَوْرَةٌ وَلا يُهْتَكَ سِتْرٌ ولا يُدْخَلَ دارٌ إلّا بإذْنٍ وآمَنْتُ النّاسَ.

وقَدِ اسْتُشْهِدَ مِنّا رِجالٌ صَالِحونَ ضاعَفَ اللهُ حَسَناتِهِم ورَفَع دَرَجاتِهِم وأثابَهُم ثَوابَ الصّادِقِينَ الصّابِرِينَ.

وجَزاكُمُ اللهُ مِن أهْلِ مِصْرٍ عَنْ أهْلِ بَيْتِ نَبِيِّكُمْ أحْسَنَ جَزاءِ العامِلِينَ بِطاعَتِهِ والشّاكِرِينَ لِنِعْمَتِهِ فَقَدْ سَمِعْتُمْ وَأطَعْتُمْ وَأجَبْتُمْ إذا دُعِيتُم فَنِعْمَ الإخْوانِ والأعْوانِ علىٰ الحَقِ أنْتُمْ والسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ»[1].

---

١. بحار الانوار، ج ٣٥، ص ٢٥٢، ح ١٩٨.

٣

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لشريح بن الحارث قاضيه[1]

وَرُوِيَ أَنَّ شُرَيْحَ بْنَ الْحَارِثِ قَاضِيَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، اشْتَرَىٰ عَلَىٰ عَهْدِهِ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، فَبَلَغَهُ ذَلِكَ، فَاسْتَدْعَى شُرَيْحاً، وَقَالَ لَهُ:

نظرة إلى الرسالة

تعتبر هذه الرسالة فريدة في حدّ ذاتها، وتبيّن موقف الإمام عليّ عليه السلام من أحد قضاته المعروفين حين اشترى له داراً غالية الثمن نسبيّاً، ومضمون الرسالة أنّ الإمام عليه السلام بعد أن يوبّخ شريح على شرائه لهذه الدار، يكتب له سنداً ووثيقة لها، ولكنّ هذا السند ليس كالأسناد المتداولة للدور والعقارات، بل سند زاخر بالعبر والدروس ويتضمّن تغيّر الدنيا وعدم الوثوق بها، ويشير إلى غفلة الناس عن هذا الأمر واغترارهم بزخارفها وأنّهم بعيدون عن حقيقة الأمر، ولو أنّ شريح القاضي

---

١. سند الرسالة:

لقد نقل المرحوم الصدوق في «الأمالي» (قبل نهج البلاغة) قصّة هذه الرسالة، ولا تختلف عمّا ورد في «نهج البلاغة» إلّا بتفاوت يسير، والأشخاص الذين أوردوا هذه الرسالة بعد السيّد الرضيّ نقلوها مع بعض الاختلاف ممّا يشير إلى وجود مصادر أخرى لهذه الرسالة قبل «نهج البلاغة» للسيّد الرضيّ ومن ذلك ما أورده سبط ابن الجوزي في «تذكرة الخواص»، وكذلك القاضي القضاعي في «دستور معالم الحكم»، والشيخ البهائي في كتاب «الأربعين» (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ١٩٩).

اطّلع على هذا السند الأخلاقيّ قبل شرائه الدار كما يقول الإمام عليه السلام فسوف يصرف النظر عن شرائها.

والسؤال الذي يفرض نفسه: لماذا اتّخذ الإمام عليه السلام هذا الموقف المتشدّد من شريح القاضي؟ هل أنّ شريح قد اشترى تلك الدار من مال الحرام ومن الرشاوي؟ نستبعد هذا الاحتمال في حين أنّ الإمام عليه السلام قد جعله قاضي الكوفة وهو بهذا الحال، أو يقال: إنّ الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرسالة يريد أن يقول أنّ الشخص إذا تولّى منصب القضاء بما فيه من ولاية على نفوس وأموال وأعراض الناس، فلابدّ أن يعيش بعيداً عن زخارف الدنيا والتكالب على مطامعها، ويكون قدوة للناس في هذا المجال.

☙❧

القسم الأول

بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، وَأَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً.

فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ. قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:

يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّىٰ يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَىٰ قَبْرِكَ خَالِصاً. فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَدَارَ الْآخِرَةِ! أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَىٰ هَذِهِ النُّسْخَةِ. فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ.

الشرح والتفسير

من أين لك هذه الدار؟!

بعد أن استدعى الإمام عليه السلام شريح القاضي قال له: «بَلَغَنِي أَنَّكَ ابْتَعْتَ دَاراً بِثَمَانِينَ دِينَاراً، وَكَتَبْتَ لَهَا كِتَاباً، أَشْهَدْتَ فِيهِ شُهُوداً».

فَقَالَ لَهُ شُرَيْحٌ: «قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ».

قَالَ (الراوي): فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمُغْضَبِ ثُمَّ قَالَ لَهُ:.

«يَا شُرَيْحُ، أَمَا إِنَّهُ سَيَأْتِيكَ مَنْ لَا يَنْظُرُ فِي كِتَابِكَ، وَلَا يَسْأَلُكَ عَنْ بَيِّنَتِكَ، حَتَّىٰ يُخْرِجَكَ مِنْهَا شَاخِصاً، وَيُسْلِمَكَ إِلَىٰ قَبْرِكَ خَالِصاً».

وفي الحقيقة أنّ الإمام عليه السلام يريد أن يقول ـ في كلامه هذا ـ لشريح: إنّك وإن دعيت لتثبيت هذه الدار باسمك ومن خلال السند والوثيقة لئلا يزاحمك عليها شخص آخر، ولكن عندما يأتي إليك ملك الموت فإنّه لا يعتني بهذه الوثائق، بل يأخذك رغماً عنك ويخرجك من هذه الدار، لأنّ هذه الأسناد والمستمسكات إنّما تنفعك في أمور الدنيا لا في أمر الآخرة، فلا تنفع الإنسان عندما يحين أجله ويتوجه إلى العالم الآخر.

وعبارة «شاخص» من الشخوص، بمعنى المسافر، ومفهوم الجملة هو: أنّك سوف تخرج من الدنيا إلى العالم الآخر كالمسافر.

واحتمل البعض أنّ كلمة «شاخص» تعني الشيء البيّن والظاهر للعيان، والإنسان عندما يرحل من هذا الدنيا يُحمل على الأكّف بشكل ظاهر للناس حيث يساق إلى قبره، ويحتمل أيضاً أنّ أحد معاني هذه الكلمة هو الشخوص وتركّز البصر على شيء معيّن، وهذا يشير إلى أنّ الكثير من الناس عندما يحين أجلهم تشخص أبصارهم وتبقى مفتوحة بدون حركة وكأنّه ينظر إلى نقطة معينة، ولكنّ المعنى الأوّل أنسب من الجميع.

وجملة: «وَيُسْلِمَكَ إِلَى قَبْرِكَ خَالِصاً» إشارة إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الإنسان لا يحمل من أمواله ودنياه إلى القبر سوى الكفن.

وطبعاً هذا كلّه في حال أنّه قد اشترىٰ الدار من ماله الحلال والطيب والطاهر، ولكن إذا كان قد اشتراها من مال حرام ومشبوه، فإنّ المصيبة أعظم، ولذلك يشير الإمام عليّ عليه السلام في كلامه إلى هذه النقطة ويقول: «**فَانْظُرْ يَا شُرَيْحُ لَا تَكُونُ ابْتَعْتَ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ غَيْرِ مَالِكَ**[1]**، أَوْ نَقَدْتَ الثَّمَنَ مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ! فَإِذَا أَنْتَ قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا وَ دَارَ الْآخِرَةِ**».

---

١. ورد في بعض النسخ «مِنْ غَيْرِ مَالِكِهَا» وهو إشارة إلى عملية الغصب، ولكن مع الالتفات إلى جملة «مِن غَيْرِ حَلَالِكَ» يبدو أنّ الكاف في «غَيْرِ مَالِكَ» للخطاب.

وفي مقام الفرق بين جملة«مِنْ غَيْرِ مَالِكَ» وجملة «مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ» مع أنّهما متّحدان في المعنى والمضمون ظاهراً، إلّا أنّه يمكن القول أنّ الجملة الأُولى إشارة إلى المال الذي لا يعتبر من أموال الشخص ظاهراً، مثلاً يكون شريح قد اشترى هذه الدار ودفع ثمنها من بيت المال، وهذا المال ليس ماله ظاهراً وواقعاً، أمّا جملة: «مِنْ غَيْرِ حَلَالِكَ» فهي إشارة إلى الأموال التي تعتبر من ماله ظاهراً وتحت تصرّفه، ولكنّه قد اكتسبها من طريق الرشوة وغيرها من الطرق المشبوهة والمحرمة.

وجملة: «قَدْ خَسِرْتَ دَارَ الدُّنْيَا» ربّما تشير إلى أنّ المال الحرام يترتّب عليه آثار وضعيّة خطيرة ويؤدّي إلى شقاء الإنسان وايقاعه في المهالك، كما ورد هذا المعنى في الكلمات القصار لأميرالمؤمنين عليه السلام حيث يقول: «اَلْحَجَرُ الْغَصْبُ فِی الدَّارِ رَهْنٌ عَلیٰ خَرابِها»[1] أو أنّه إشارة إلى أنّك ياشريح لو اشتريت هذه الدار من المال الحرام فإنّك عمّا قريب سوف تفتضح وتخسر الدنيا مضافاً إلى خسرانك الآخرة.

ثم إنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يشير إلى نقطة مركزية في هذا المقام ويقول:

«أَمَا إِنَّكَ لَوْ كُنْتَ أَتَيْتَنِي عِنْدَ شِرَائِكَ مَا اشْتَرَيْتَ لَكَتَبْتُ لَكَ كِتَاباً عَلَىٰ هَذِهِ النُّسْخَةِ، فَلَمْ تَرْغَبْ فِي شِرَاءِ هَذِهِ الدَّارِ بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ».

وجملة: «بِدِرْهَمٍ فَمَا فَوْقُ» يمكن أن يقصد بها أنّ الثمن درهم أو أكثر منه في القلّة كما ورد في تفسير الآية الشريفة: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[2]. فهنا يقصد من هذا المثال الموجودات الصغيرة ظاهراً كالبعوض وما هو أصغر منها.

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٢٤٠.
٢. سورة البقرة، الآية ٢٦.

القسم الثاني

وَالنُّسْخَةُ هَذِهِ:

«هَذَا مَا اشْتَرَىٰ عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَىٰ مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ، وَخِطَّةِ الْهَالِكِينَ. وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي الآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي، وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ. اشْتَرَىٰ هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا الْمُزْعَجِ بِالْأَجَلِ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ، فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَىٰ مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ فَعَلَىٰ مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَىٰ وَشَيَّدَ، وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ، إِشْخَاصُهُمْ جَمِيعاً إِلَىٰ مَوْقِفِ الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الْأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ شَهِدَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَىٰ وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا».

الشرح والتفسير

وثيقة عديمة النظير

في سياق ما ورد في القسم الأول من هذه الرسالة، وطبقاً لبعض الروايات فإنّ شريح القاضي طلب من الإمام عليه السلام وثيقة هذه الدار فأوصاه الإمام عليه السلام بأن يكتب

هذه الوثيقة بهذه العبارة: «هَذَا مَا اشْتَرَىٰ عَبْدٌ ذَلِيلٌ، مِنْ مَيِّتٍ قَدْ أُزْعِجَ[١] لِلرَّحِيلِ، اشْتَرَىٰ مِنْهُ دَاراً مِنْ دَارِ الْغُرُورِ، مِنْ جَانِبِ الْفَانِينَ، وَخِطَّةِ[٢] الْهَالِكِينَ».

والجدير بالذكر أنّ المتداول في تنظيم الأسناد والمستمسكات لزوم رعاية ستّ جهات:

١. اسم البائع والمشتري.

٢. عنوان الدار أو العقار مورد المعاملة.

٣. الحدود الأربعة لها وموقع الباب الرئيسي.

٤. الثمن والقيمة.

٥. تعيين المسؤول في حالة انكشاف الغشّ والخلل.

٦. الشهود.

هنا نرى أنّ الإمام عليّ عليه السلام في هذه الوثيقة التي كتبها لشريح يبدأ بذكر صفات المشتري والبائع ثم يشير إلى عنوان محلّ الدار كما ذكر في العبارة أعلاه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام أشار إلى الجهة الثالثة: يعني تعيين حدود الدار الأربعة وقال: «وَتَجْمَعُ هَذِهِ الدَّارَ حُدُودٌ أَرْبَعَةٌ: الْحَدُّ الْأَوَّلُ يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي[٣] الْآفَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّانِي يَنْتَهِي إِلَىٰ دَوَاعِي الْمُصِيبَاتِ، وَالْحَدُّ الثَّالِثُ يَنْتَهِي إِلَى الْهَوَى الْمُرْدِي، وَالْحَدُّ الرَّابِعُ يَنْتَهِي إِلَى الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي[٤]، وَفِيهِ يُشْرَعُ[٥] بَابُ هَذِهِ الدَّارِ».

وبما أنّ الإنسان يعيش في هذه الدنيا محاطاً بأربعة عوامل خطيرة: أحدها: ما يصيب الإنسان من آفات وبلايا، ومن السيل والأمراض والحروب التي تفرض على

---

١. «أزعج» من «إزعاج» يعني دفعه ورفعه لتحريكه.

٢. «خطّة» في الأصل بمعنى الأرض التي يختارها الإنسان ويضع لها علامات وحدوداً للدلالة على حيازتها، وهي في الأصل من مادة «خطّ»، ثم استخدمت بمعنى المنطقة والناحية، وجاءت في الجملة أعلاه بهذا المعنى الأخير.

٣. «داوعي» جمع «داعية» بمعنى السبب والعلّة.

٤. «المغوي» اسم فاعل من «الإغواء» بمعنى المضلّ.

٥. «يشرع» من مادة «شرع» وتستخدم في هذه الموارد بمعنى الانفتاح.

الإنسان نفسها، والآخر: المصائب التي يبتلى بها الإنسان في داخله، من قبيل فقدان بعض أعضاء البدن أو موت الأعزّة والأقرباء وأمثال ذلك من مصائب الدنيا، ومن جهة ثالثة ورابعة، ما يواجهه الإنسان من إفرازات الأهواء والشهوات التي تضغط على الإنسان من داخله وتقوده إلى مهاوي الرذيلة، والشيطان الذي يوسوس للإنسان من خارجه كما يقول الإمام عليه السلام عنه: «الشَّيْطَانِ الْمُغْوِي».

هذه العوامل الأربعة تحيط بالإنسان من كلّ الجهات، ويستطيع الإنسان من خلال تهذيب النفس والسيطرة على الأهواء والنوازع النفسانية وكبح جماح الشهوات وبالتصدّي بحزم لوساوس الشيطان أن يخلّص نفسه من هذين العاملين الآخرين، ولكنّ الآفات والمصائب التي تصيب جميع الناس بلا استثناء غير قابلة للاجتناب، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في مورد آخر عن الدنيا أنّها: «دَارٌ بِالْبَلَاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»[1].

والتعبير بـ «دَوَاعِي» فيما يخّص الآفات والمصائب، إشارة إلى الأسباب التي تحيط بالإنسان وتنغّص معيشته.

والتعبير بـ «الْهَوَى الْمُرْدِي» إشارة إلى الأهواء والشهوات التي تقود الإنسان في خطّ الضلالة والهلكة المادّية والمعنويّة، لأنّ «ردىٰ» بمعنى الهلكة أو الأهواء والنوازع النفسانية التي تسوق الإنسان نحو هاوية السقوط، لأنّ اتباع هوى النفس يؤدّي إلى أن يهوي الإنسان من مقام الإنسانية السامي ويسقط في أعماق جهنّم.

وجملة: «وَفِيهِ يُشْرَعُ بَابُ هَذِهِ الدَّارِ» إشارة إلى أنّ طريق نفوذ الشيطان يكمن في باب هذه الدار الخطيرة، رغم أنّ سائر العوامل الأخرى تؤثّر بدورها في زعزعة استقرار الإنسان وسوقه في خطّ الرذيلة والسقوط المعنويّ.

وفي سياق هذا الكلام يبيّن الإمام عليه السلام القسم الرابع من هذه الوثيقة ويقرّر أنّ المشتري لهذه الدار مَن يتّصف بالصفات التالية: «اشْتَرَىٰ هَذَا الْمُغْتَرُّ بِالْأَمَلِ، مِنْ هَذَا

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٦.

الْمُزْعَجِ بِالأَجَلِ، هَذِهِ الدَّارَ بِالْخُرُوجِ مِنْ عِزِّ الْقَنَاعَةِ، وَالدُّخُولِ فِي ذُلِّ الطَّلَبِ وَالضَّرَاعَةِ[١]».

أي أنّ ثمن الدار هو أن يخرج الإنسان من عزّ القناعة ويرتدي لباس الذّل والحرص وحبّ الدنيا.

إنّ عبارات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة وأشكال التجانس والتضادّ الموجود في هذه الجمل مثيرة للإنتباه: «خروج» و «دخول»، «عزّة» و «ذلّة»، «قناعة» و «حرص».

وفي العبارات أعلاه نشاهد كلمات من الجناس المطلوب مثل: «آفات» و«مصيبات» و «مردي» و «مغوي».

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشرع في بيان النقطة الخامسة المتعلّقة بسند ملكيّة هذه الدار وتعيين المسؤول في مقابل كشف الخلل والضرر والخسارة الناشئة منها ويقول: «فَمَا أَدْرَكَ هَذَا الْمُشْتَرِي فِيمَا اشْتَرَىٰ مِنْهُ مِنْ دَرَكٍ فَعَلَى مُبَلْبِلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ، وَسَالِبِ نُفُوسِ الْجَبَابِرَةِ، وَمُزِيلِ مُلْكِ الْفَرَاعِنَةِ، مِثْلِ كِسْرَىٰ وَقَيْصَرَ، وَتُبَّعٍ وَحِمْيَرَ، وَمَنْ جَمَعَ الْمَالَ عَلَى الْمَالِ فَأَكْثَرَ، وَمَنْ بَنَىٰ وَشَيَّدَ، زَخْرَفَ وَنَجَّدَ، وَادَّخَرَ وَاعْتَقَدَ، وَنَظَرَ بِزَعْمِهِ لِلْوَلَدِ».

إنّ روح كلام الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة يقرر أنّه إذا اكتشف الإنسان غشّاً وفساداً أو عيباً ونقصاً في المعاملة، فينبغي أن يكون أحدهم مسؤولاً عن هذا الضرر والعيب، وكذلك إذا تبيّن أنّ المتاع أو البضاعة مغصوبة ومن أملاك الغير، فيجب العمل طبقاً للعقد المكتوب في المعاملة، وهنا يقول الإمام عليه السلام: ينبغي التوجّه بالمسؤولية وجبران هذه النقائص إلى عزرائيل ملك الموت الذي بيده قبض أرواح الملوك وهدم الحكومات، والمزيل لملك الفراعنة والقياصرة وأمثالهم من الجبابرة الذين قصروا همّتهم على جمع الأموال وبناء القصور وتشييد المنازل الفخمة

---

١. «ضراعة» تعني الذلّة (ولها معنى مصدري وكذلك اسم المصدر)؛ وهذه المفردة تعني أيضاً التواضع.

والإكثار من استملاك الضياع والعقار، فهؤلاء كلّهم محكومون بالفناء والزوال من واقع الحياة.

«مبلبل» من مادة «بلبلة» على وزن «مزرعة» ولها معانٍ متعدّدة، فأحياناً تأتي بمعنى التشويش والاضطراب، وأحياناً أخرى تأتي بمعنى الفرقة والتشرذم، و«ثالثة» بمعنى الفساد، وفي هذه العبارة الأنسب هو المعنى الأخير وهو الفساد والمرض الذي يترتّب على سلب النفوس من جراء زوال الملك الوارد في العبارة أعلاه.

وينبغي الالتفات إلى أنّ مفردة «كسرى» الواردة في كلام الإمامعليه السلام هي في الأصل من «خسرو»، ولها مفهوم عامّ يشمل جميع ملوك الفرس كما أنّ مفردة «قيصر» تستعمل لجميع ملوك الروم، أمّا «تبّع» فتستعمل لملوك اليمن وحِمير (وكذلك لبعض الملوك في اليمن) وكلّها تأتي بمعنى الملك والسلطان رغم تنوّع التعبير لكلّ قوم من الأقوام.

وجملة: «مَنْ بَنَىٰ وَشَيَّدَ» يحتمل فيه معنيان نظراً لوجود كلمة «تشييد» التي تأتي معنى تقوية البناء وكذلك علوّه وارتفاعه، ولا مانع من الجمع بينهما، أي الأشخاص الذين يشيدون الأبنية والعمارات المرتفعة والقويّة.

وعبارة: «زَخْرَفَ وَنَجَّدَ» كل واحدة منها تشير إلى نوع من أشكال الزينة، «زخرف» إشارة إلى تزيين البناء والعمارة، و«نجّد» إشارة إلى تزيين الوسائل والأدوات من قبيل الفرش والأثاث والستائر وأمثال ذلك.

جملة: «اعتقد» التثبت والتركيز والاهتمام بدقّة في حفظ وتنظيم الأسناد والمدارك حيث يسعى طلّاب الدنيا بوسواس كبير في حفظ ذخائرهم وأموالهم من خلال هذه الأسناد وحفظها من عدوان الآخرين وإبعادهم عن ممتلكاتهم وهم يظنون أنّها باقية لأبنائهم من بعدهم.

ثم إنّ الإمامعليه السلام في سياق هذه الوثيقة يقول: «إِشْخَاصُهُمْ[1] جَمِيعاً إِلَىٰ مَوْقِفِ

---

١. «إشخاص» بمعنى إحضار، إرسال وسوق، وفي العبارة أعلاه الأنسب هو المعنى الأول.

الْعَرْضِ وَالْحِسَابِ، وَمَوْضِعِ الثَّوَابِ وَالْعِقَابِ: إِذَا وَقَعَ الأَمْرُ بِفَصْلِ الْقَضَاءِ ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾[١]».

وكلمة: «إشخاصهم» طبقاً للتفسير أعلاه يقع مبتدأ، و«إِلَىٰ مَوْقِفِ الْعَرْضِ» بمنزلة الخبر[٢] ولكن جمع من مفسّري «نهج البلاغة» ذهبوا إلى أنّ (إشخاص) مبتدأ مؤخّر، وجملة: «فَعَلَىٰ مُبَلْبَلِ أَجْسَامِ الْمُلُوكِ ...» خبر مقدّم، وعلى ضوء ذلك يكون مفهوم الجملة: إنّ ملائكة الموت التي تزلزل أجساد الملوك والسلاطين وتقبض أرواحهم وتزيل سلطانهم هم المسؤولون عن كشف الخلل والفساد في الأملاك الدنيوية يوم القيامة وعند موقف العرض والميزان الأعمال.

أجل، إنّ جميع أشكال القدرة والهيمنة معرّضة للزوال، وجميع الثروات والأموال ستبقى بعد رحيل الإنسان من هذه الدنيا، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ...﴾[٣] ويحضرون إلى الحساب وينالون جزاءهم من الثواب والعقاب.

وفي ختام هذه الوثيقة يشير الإمام عليه السلام، كما في الأسناد والمدارك الدنيوية، إلى الشهود لهذه المعاملة المعنوية، ويقول: «شَهِدَ عَلَىٰ ذَلِكَ الْعَقْلُ إِذَا خَرَجَ مِنْ أَسْرِ الْهَوَىٰ وَسَلِمَ مِنْ عَلَائِقِ الدُّنْيَا».

وبما أنّ الشاهد يجب أن يكون عادلاً وثقة فإنّ الإمام عليه السلام يقول في هذا الصدد: إنّ العقل يمكنه أن يكون شاهداً على هذا الأمر إذا خرج عن أسر الأهواء النفسانية وتخلّص من العلائق المادية والدنيوية التي من شأنها تكبيل العقل وحجبه عن درك الحقيقة.

---

١. سورة غافر، الآية ٧٨.

٢. من جملة القرائن المؤيدة لهذا الرأي وجود قرينتين:

أ) ورد في الرسالة أعلاه في كتاب دستور معالم الحكم لابن سلامة، ص ١٣٧ أنّها تنتهي إلى «وتبع وحمير» بدون جملة «إشخاصهم...» في حين أنّ الرسالة متواصلة.

ب) ورد في كتاب حلية الأولياء، ج ٨، ص ١٠٢ جملة «إشخاصهم» بهذه الصورة: (وأشخصهم...) والذي يشير إلى أنّها جملة منفصلة عن الجملة السابقة.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

وعلى هذه الأساس يبيّن الإمام عليّ عليه السلام بأجمل صورة وأبلغ بيان، الأركان السّتة لهذه السند المعنويّ.

تأمّلان

١. الباعث لكتابة السند

هذا السند العجيب الذين كتبه الإمام عليّ عليه السلام لأحد قضاته يستحقّ الدراسة والتمعّن من عدّة جهات:

الأولى: إنّ ثمانين ديناراً لهذه الدار لم يكن بالثمن الباهض للدار، ولكن بما أنّ المشتري لهذه الدار أحد القضاة، ومعلوم أنّ القاضي يقع دائماً في دائرة الاتّهام والوساوس النفسانية، فمن هذه الجهة لم يرتضِ الإمام عليه السلام لشريح دفع هذا الثمن من المال للدار.

أضف إلى ذلك فنحن نعلم أنّ عصر حكومة وخلافة الإمام عليه السلام جاءت بعد سنوات مريرة وخطيرة من خلافة عثمان التي اقترنت بمظاهر الإسراف والتبذير بشكل واسع لبيت المال، وتوجّه بعض رموز المجتمع الإسلاميّ للحياة المرفّهة، والتوغّل في التجمّل والثراء، ومن أجل أن يتصدّى الإمام لهذه الظاهرة الخطيرة ويوقف هذا التيار عند حدّه، كان يكثر في خطبه وكتبه الواردة في «نهج‌البلاغة» من التحذير من زخارف الدنيا وبريقها الخادع واتّخذ لنفسه أيضاً حياة الزهد والتقشّف، وفي حين أنّه يقف على رأس الحكومة الإسلاميّة لم يكن مستعدّاً أبداً أن يعطي لأخيه عقيل شيئاً ـ ولو قليلاً ـ من بيت المال، وعندما أُخبر بأنّ واليه على البصرة (عثمان بن حنيف) استجاب لدعوة أحد أثرياء تلك المدينة وجلس على مائدة يستطاب فيها أنواع الأطعمة وقد دعي معه طبقة من الأشراف والأغنياء ولم يدعَ إليها الفقراء، اغتمّ لذلك بشدّة وكتب إليه رسالة شديدة اللهجة يوبّخه فيها على عمله واستجابته لدعوة الأغنياء.

كلّ ذلك من أجل أن يغيّر الإمام عليّ عليه السلام تلك الثقافة الخاطئة والمنافية للتعاليم الإسلاميّة، ويعيد المسلمين إلى ثقافة الإسلام الأصيلة التي عاشوها في عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، ومعلوم أنّ شراء القصورالفخمة والبيوت المجلّلةالباهضة الثمن و التـي ربّما تكون أغلى بكثير من دار شريح، كان متداولاً بين الطبقة المترفة من المسلمين، ولكن هذه الرسالة كانت بمثابة إنذار للجميع أن يأخذوا حذرهم ويحسبوا حسابهم وخاصة من المنتسبين للحكومة الإسلاميّة ليكونوا على فـاق تـامّ مـع تـوجّهات الحكومة الإسلاميّة.

ومعلوم أيضاً أنّ هذه الرسالة قد انتشرت في ذلك الوقت بين النـاس مـن يـد لأخرى وقد اطّلع الكثير على مضمونها وأنّ الإمام عليه السلام كتب رسالة بهذه المضمون إلى شريح القاضي، وبالتالي انتبه البعض إلى تطّلعات الإمام عليه السلام وربّما أدّى بالبعض الآخر أن يوفّق مسيرته وسلوكياته مع تعاليم الإمام عليه السلام خوفاً من اعتراض الناس.

هذه الرسالة لا تخّص ذلك العصر والزمان، بل تمتدّ بـمضمونها وفـحواهـا إلى عصرنا هذا والمستقبل، وتصدّق على جميع الأجيال والعصور ولا تختصّ بـطائفة معيّنة أو شريحة خاصّة من الناس.

نحن اليوم نرىٰ بعض الأشخاص يبذلون الكثير من الأموال لبناء الدور الفخمة ويتعبون أنفسهم في تشييدها بأغلى الزينة ويشترون لها الكثير من الأثاث وغـير الأثاث واللوازم غير الضرورية ويجلبون لها من التحف والزخارف والأمور النفيسة من شتّى بقاع العالم وأحياناً ينفقون عمرهم لبناء هذه الدار وربّما ينتهي عـمرهم دون أن ينتهي البناء، وغنيّ عن البيان أنّ مثل هـذه النـفقات البـاهضة لا يـمكن للإنسان توفيرها من طريق مشروع، وبالتالي يكون وزرها وإثمها على عاتقه، بينما يستفيد منها الآخرون.

٢. من هو شريح؟

شريح بن الحارث، أبوأميّة من قبيلة «بني‌كندة» وما ذكره البعض من كونه شريح

بن هاني فهو خطأ، ولكن هناك بحث بين المؤرّخين هل أنّ شريح من الصحابة أم لا؟ فقد ورد في كتاب «أُسد الغابة»: أنّ شريح أدرك عصر رسول الله ﷺ ولكنّه لم يحضَ بلقائه، وقال بعضهم: إنّه لقي النبيّ الأكرم ﷺ وأسلم على يده وقال شريح: يارسول الله! أنا من أُسرة كثيرة العدد في اليمن، فقال النبيّ الأكرم ﷺ: فاتِ بهم. ولكنّه عندما أتى بأُسرته إلى المدينة كان النبيّ قد رحل من هذه الدنيا.

يقول ابن الأثير في «اسدالغابة»: كان عمر بن الخطّاب قد نصبه قاضياً للكوفة وبقي على هذا المنصب إلى زمان أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وقد أبقاه الإمام في منصبه لسابقته في هذا العمل، ولكن طبقاً للرواية المعتبرة الواردة في كتاب «وسائل‌الشيعة»: أنّ الإمام عليه السلام اشترط عليه أن لا يصدر حكماً دون اطّلاعه وإعلامه: «لَمّا وَلّىٰ أميرُالمُؤْمِنينَ شُرَيْحاً القَضاءَ إشْتَرَطَ عَلَيْه أنْ لا يُنْفِذَ القَضاءَ حَتّى يَعْرِضَهُ عَلَيْهِ»[1].

وبقي شريح في هذه المنصب إلى زمان الحجّاج.

وذهب جماعة من المؤرّخين أنّ شريحاً كان ذكياً وبارعاً، ولكنّ هذا لا يعني أنّه لم يتركب بعض الأخطاء الفاحشة في أمر القضاء والتي وردت موارد منها في كتب الحديث[2].

كتب الدميري صاحب كتاب «حياة الحيوان»: قيل للشعبيّ (وهو من التابعين) يقال في المثل «إنَّ شُرَيْحاً كانَ أدْهىٰ مِنَ الثَّعْلَب وأخْيَل»، فما هذا؟

فقال: خرج شريح أيّام الطاعون إلى النجف، فكان إذا قام يصلّي يجيء ثعلب فيقف تجاهه ويحاكيه ويخيّل بين يديه ويشغله عن صلاته. فلما طال ذلك عليه نزع قميصه فجعله على قصبة وأخرج كميّه وجعل قلنسوته عليها. فأقبل الثعلب فوقف بين يديه على عادته فأتاه شريح من خلفه وأخذه بغتة فلذلك يقال: «إنَّ شُرَيْحاً كانَ

١ . وسائل‌الشيعة، ج ١٨، ص ٦، ح ١، الباب ٣ من أبواب صفات القاضي.

٢ . الكافي، ج ٧، ص ٣٨٥، ح ٥.

أدهىٰ مِنَ الثَّعْلَب وأحْيَل»[١].

ويرى ابن خلكان أنّ شريحاً كان من التابعين رغم أنّه أدرك عصر الجاهلية وقال ابن خلكان: إنّ شريحاً جلس على كرسي القضاء خمس وستين عاماً وفي طيلة هذه المدة لم يترك القضاء سوى ثلاث سنوات في زمن فتنة عبدالله بن الزبير، وقد استقال من منصبه في زمان الحجّاج ولم يمارس القضاء إلى آخر عمره.

وذكر المؤرخون أنّه كان أمرداً.

أمّا فيما يخصّ عمره فهناك خلاف، حيث ذهب بعض إلى أنّه بلغ من العمر مائة وعشرين سنة، وذهب آخرون إلى عمره مائة وعشر سنوات، بينما ذكر آخرون أقلّ من هذا وأكثر.

ولا شكّ أنّ شريحاً قد أُصيب في خاتمة عمره بسوء العاقبة، وأحد الشواهد على ذلك القصّة التي يذكرها الطبري في تاريخه عن أبي مخنف، يقول: حدّثني الصقعب ابن زهير عن عبدالرحمن بن شريح قال: سمعته يحدّث إسماعيل بن طلحة، قال: دخلت على هاني بن عروة (في زمن إمارة ابن زياد على الكوفة) فلمّا رآني قال: يا لله، يا للمسلمين أهلكت عشيرتي فأين أهل الدين وأين أهل المصر، إيّاي يخلّون وعدوّهم وابن عدوّهم، والدماء تسيل على لحيته، إذ سمع الرجّة على باب القصر، وخرجت واتبعني فقال: يا شريح إنّي لأظنّها أصوات مذحج وشيعتي من المسلمين، إن دخل عليّ عشرة نفر أنقذوني، قال: فخرجت إليهم ومعي حميد بن بكر الأحمريّ ـ أرسله معي ابن زياد ـ وكان من شرطته وممّن يقوم على رأسه، وأيم الله لولا مكانه معي لكنت أبلغت أصحابه ما أمرني به، فلمّا خرجت إليهم قلت: إنّ الأمير لمّا بلغه مكانكم ومقالتكم في صاحبكم أمرني بالدخول إليه، فأتيته ونظرت إليه فأمرني أن ألقاكم وأن أُعلمكم أنه حيّ وأنّ الذي بلغكم من قتله كان باطلاً، فقال عمرو وأصحابه: فأمّا إذ لم يقتل فالحمد الله، ثم انصرفوا[٢].

---

١. منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، ج ١٧، ص ١٥٨؛ سفينة البحار، مادة شرح.

٢. تاريخ الطبري، ج ٤، ص ٢٧٤ في باب حوادث سنة ٦٠ هـ.

فلمّا انصرف الناس أقدم ابن زياد على قتل هاني، وفي الحقيقة أنّ شريحاً كان يعلم أنّ هاني في خطر، فلماذا أمر أصحابه وأنصار بالعودة والانصراف وقدّم رضا ابن زياد على رضا الله عزّ وجلّ؟! إنّ المواقف غير المسؤولة أو السكوت المشبوه في مقابل استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وأسر ذرّيته وأهل بيته والمجيء بهم إلى الكوفة، كلّها شواهد أخرى على خبث طبعه وضعف نفسه واهتزاز إيمانه، فلو أنّ شريحاً لم يأمر قبيلة بني مذحج بالعودة عندما أحاطوا بدار الإمارة، فإنّه من الممكن أن تتغيّر أوضاع الكوفة وتنقلب الموازين ضدّ قوى الكفر والانحراف ويكون مصير ثورة الإمام الحسين عليه السلام بشكل آخر[١].

يستفاد من رواية أبي مخنف في كتابه (مقتل الحسين) أنّ المختار عندما ولي أمر الكوفة عزل شريحاً من منصبه بسبب تقصيره في أمر نصرة الإمام الحسين عليه السلام[٢].

٭٭٭

١. انظر: الاصابة في معرفة الصحابة، ج ٢، ص ٧٠، ترجمة حال الحسين بن علي عليه السلام.

٢. يستفاد من التواريخ أنّ شريحاً عاد بنفسه في زمان الحجاج، ولكنّه استقال من منصبه بعد ذلك ووافق الحجاج على استقالته. ولمزيد من التوضيح راجع: الاستيعاب، ص ٥٩٠ و شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ص ٢٨ و ٢٩.

٤

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إلىٰ بَعْضِ أُمَراءِ جَيْشِهِ[1]

نظرة إلى الرسالة

إنّ مضمون هذه الرسالة بيّن وجليّ، فالإمام عليّ عليه السلام يأمر فيها أحد قادة جيشه الذي كان يواجه فئة من المنحرفين والعصاة أن يأخذهم بالنصيحة والعودة إلى خطّ الطاعة والإيمان، فإن لم يقبلوا فيجب عليه استخدام القوّة في سبيل إسكات هـذا التمرد وإطفاء نار الفتنة.

وكما سنشير لاحقاً أنّ المخاطب لهذه الرسالة هو عثمان بن حنف والي البصرة والذي كان في ذلك الوقت قائداً لجيش الإمام عليه السلام في تلك المنطقة، ومن هنا عبّر السيّد الرضيّ في عنوان هذه الرسالة أنّها: «إلىٰ بَعْضِ أُمَراءِ جَيْشِهِ».

---

١. سند الرسالة:

هذه الرسالة التي أوردها الشريف الرضي تمثّل مقطعاً من الرسالة التي أرسلها الإمام عليه السلام لبعض أمراء جيشه وقد ذكرها سبط ابن الجوزي في كتاب تذكرة الخواص بشكل موسع ومختلف، ومن الواضح تماماً أنّه اقتبسها من مصدر آخر غير نهج البلاغة، ولكن ابن الجوزي في أول الباب السادس من كتابه يقول: كل كلام أنقله عن علي ابن أبي طالب في هذا الكتاب نقلاً باسنادي المتصل إلى الإمام عليه السلام نفسه. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٠١).

فَإِنْ عَادُوا إِلَىٰ ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَى الشِّقَاقِ وَالْعِصْيَانِ فَانْهَدْ بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَىٰ مَنْ عَصَاكَ، وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ عَنْكَ، فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ مَغِيبُهُ خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَىٰ مِنْ نُهُوضِهِ.

الشرح والتفسير

يجب إقالة الضعفاء

قبل البحث في تفسير هذه الرسالة لابدّ من الالتفات إلى شأن صدورها، فقد ذكر المرحوم الشيخ المفيد في كتاب الجَمَل:

«لمّا تمّ أمر البيعة لأميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام واتّفق على طاعته عامّة بني هاشم و وجوه المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان، وأيس طلحة والزبير ممّا كانا يرجو انه بقتل عثمان من بيعة الناس لأحدهما بالإمامة، وتحقّقت عائشة بنت أبي بكر تمام الأمر لأميرالمؤمنين عليه السلام واجتماع الناس عليه وعدو لهم عن طلحة والزبير و كانت تعلم أن كثيراً من الناس يميل لها لمكانها عن رسول الله صلى الله عليه وآله وأنها من أمّهات المسلمين، و....

ولمّا عرف طلحة والزبير من حالها وحال القوم، عملا علىٰ اللحاق بها والتعاضد علىٰ شقاق أميرالمؤمنين عليه السلام وسارا إلى مكّة خالِعَيْنِ الطاعة ومفارِقَين الجماعة، فلما وردا إليها فيمن تبعهما من أولادهما وخاصتهما، طافا بالبيت طواف العمرة وسعيا بين الصفا والمروة، وبعثا إلىٰ عائشة عبدالله بن الزبير وقالا له: إمضِ إلىٰ خالتك فاهدِ

إليها السلام منّا وقل لهـا: إنّ طـلحة والزبـير يـقرء انك السـلام ويـقولان لك: إنّ أميرالمؤمنين عثمان قتل مظلوماً، وأنّ علي بن أبي طالب ابتزّ الناس أمرهم وغلبهم عليه بالسفهاء الذين تولّوا قتل عثمان ونحن نخاف انتشار الأمر به، فإن رأيتِ أن تسيري معنا، لعل الله يرتق بك فتق هذه الأمّة ويشعب بك صدعهم ويلمّ بك شعثهم ويصلح بك اُمورهم، فأتاها عبدالله فبلّغها ما أرسلاه بـه، فـأظهرت الامـتناع مـن إجابتهما إلىٰ الخروج عن مكة وقالت: يا بني لم آمر بالخروج لكني رجعت إلىٰ مكة لأعلم الناس ما فعل بعثمان إمامِهم....

فقال لها عبدالله: فإذا كان هذا قولك في عليّ يا اُمّه، ورأيك في قاتلي عثمان فما الذي يقعدك عن المساعدة علىٰ جهاد عليّ وقد حضرك من المسلمين من فيه غنىً وكفاية فيما تريدين! فقالت: يا بنيّ اُفكّر فيما قلتَ وتعود إليّ... ولما كان الغد أجابت إلى الخروج....

إن عائشة وطلحة والزبير لما ساروا من مكة إلىٰ البصرة أغذّوا السير مع من اتبعهم من بني اُميّة وعمال عثمان وغيرهم من قريش حتىٰ صاروا إلىٰ البصرة فنزلوا حفر أبي موسىٰ، فبلغ عثمان بن حنيف وهو عامل البصرة يومئذٍ وخليفة أميرالمؤمنين عليه السلام».

فكتب عثمان بن حنيف كتاباً لأميرالمؤمنين عليه السلام يعلمه فيه بدخول عائشة وطلحة والزبير البصرة ويطلعه على مجريات الأمور فيها، فكانت هـذه الرسـالة ـ مـورد البحث ـ جواباً على رسالة عامله عثمان بن حنيف، يأمره فيها والمخلصين له من أهل البصرة بالوقوف بوجه المتمردين وقتالهم[1].

والآن نأتي إلى شرح هذه الرسـالة، فـالإمام يـقول فـيها: «**فَـإِنْ عَـادُوا** ـأي المتمرّدين الذين لم يمتثلوا الأوامر في جـيش طـلحة والزبـير، فـعليكم بـتقديم النصحية لهم ـ**إِلَىٰ ظِلِّ الطَّاعَةِ فَذَاكَ الَّذِي نُحِبُّ، وَإِنْ تَوَافَتِ**[2] **الْأُمُورُ بِالْقَوْمِ إِلَـى**

١. الجمل، ص ١٢٢.

٢. «توافت» من مادة «وفا» وتعني المصافحة والاجتماع والتلاقي، والمراد من الجملة أعلاه أنّه إذا اجتمعت الحوادث وتظافرت فيما بينها واستمر المخالفون على تمردهم.

الشِّقَاقِ والْعِصْيَانِ فَانْهَدْ[١] بِمَنْ أَطَاعَكَ إِلَىٰ مَنْ عَصَاكَ وَاسْتَغْنِ بِمَنِ انْقَادَ مَعَكَ عَمَّنْ تَقَاعَسَ[٢] عَنْكَ).

والتعبير بـ «ظِلِّ الطَّاعَةِ» تعبير لطيف ويشير إلى أنّ العصيان والتمرّد ومخالفة أوامر الحاكم الإسلاميّ حالها حال الشمس المحرقة، بينما الطاعة والسكينة وامتثال أوامر القادة العدول بمثابة الظلّ الوارف الذي يعمّ خيره المجتمع الإسلاميّ.

والفرق بين الشقاق والعصيان، أنّ الشقاق بمعنى الفرقة والانفصال، وأمّا العصيان والتمرّد فشيء أعلى وأشدّ من مجرّد الافتراق عن جماعة المسلمين.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير في ختام هذه الرسالة إلى الدليل على أمره هذا ويقول: «فَإِنَّ الْمُتَكَارِهَ[٣] مَغِيبُهُ[٤] خَيْرٌ مِنْ مَشْهَدِهِ، وَقُعُودُهُ أَغْنَىٰ مِنْ نُهُوضِهِ».

وهذا هو ما ذكر القرآن الكريم عن بعض المنافقين في سورة التوبة وقال: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[٥].

فالعناصر الضعيفة التي تخاف من النزول إلى ساحة القتال وتكره مواجهة الأعداء لا تزيد الجيش الإسلاميّ إلّا ضعفاً، وبالتالي فإنّ غيابهم وعدم حضورهم أفضل من مشاركتهم في المواجهة الحاسمة.

تأمّلان

١. جرائم الناكثين في معركة الجمل

يستفاد من تاريخ الطبري وبعض الكتب الأخرى وكذلك في خطبة ١٧٢ التي

---

١. «انهد» صيغة أمر من «النهود» بمعنى الظهور والارتفاع والقيام بأداء عمل معين.

٢. «تقاعس» من مادة «قعس» على وزن «فحص» وبمعنى التماهل والتواكل وإلقاء المسؤولية على الآخرين والتراجع عن القيام بالوظيفة والتكليف أو الحرب.

٣. «المتكاره» تعني الشخص الذي يكره القيام بعمل معين ويعيش حالة السخط وعدم الرضا منه، وهي من مادة «كره».

٤. «مغيبة»: «مغيب» و «مشهد» مصدر ميمي بمعنى الغيبة والحضور.

٥. سورة التوبة، الآية ٤٧.

سبق وأن شرحناها بالتفصيل أنّ عثمان بن حنيف بعد ورود طلحة والزبير وجيشهما إلى البصرة جاء إلى هذه المدينة ومعه أمر من الإمام عليّ عليه السلام بمواجهة المتمرّدين وعناصر الشغب في البصرة إلى أن يأتي إليها الإمام عليه السلام بنفسه، ولكنّ أهل البصرة انقسموا إلى فئتين: فئة تقول بوجوب نصرة الإمام عليّ عليه السلام ضد مناوئيه، وفئة أخرى تؤيّد المخالفين والمتمرّدين وتقول بوجوب نصرة عائشة زوجة النبيّ وأنصارها، وكانت هناك بعض المناوشات بين هاتين الفئتين، والجدير بالذكر أنّ (جارية بن قدامة) وهو أحد رؤساء قبائل البصرة جاء إلى عائشة فقال: ياأمّ المؤمنين، والله فإنّ قتل عثمان بن عفّان أهون من خروجكِ من بيتكِ على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، إنّه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتي ستركِ وأبحتي حرمتكِ، إنّه من رأى قتالك فإنّه يرى قتلكِ، إن كنتِ أتيتنا طائعة فارجعي إلى منزلكِ وإن كنتِ أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس.

وعلى أيّة حال، فإنّ طلحة والزبير وأتباعهم كانوا قد لبسوا الدروع تحت لباسهم وجاؤوا إلى المسجد عند الفجر لإقامة صلاة الصبح، وجاء عثمان بن حنيف إلى المسجد وهو لا يعلم بمجريات الأمور ليصلّي بالناس أيضاً، فجاءه أنصار طلحة والزبير وسحبوه من ردائه وقدّموا الزبير للصلاة، وكانت طائفة من حراس بيت المال يدعون «السبابجة» أخرجوا الزبير من المسجد ووضعوا عثمان مكانه، ولكنّ أنصار الزبير هجموا عليهم ودفعوا عثمان بن حنيف وأتباعه من موقعهم، واستمرّ هذا التدافع والمناوشات إلى طلوع الشمس، فصاحت جماعة: ياأصحاب محمّد اتّقوا الله فإنّ الشمس قد أوشكت على الطلوع فكيف الصلاة؟ وأخيراً تغلّب الزبير وأنصاره وأقام الزبير صلاة الصبح بالناس، وبعد الصلاة هجم الزبير مع أنصاره المسلّحين على عثمان بن حنيف وأتباعه وقبضوا عليه وضربوه حتى كاد أن يموت ونتفوا شعر رأسه ولحيته وأهدابه، وعذّبوا جماعة من أنصاره وقتلوهم.

وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام في الخطبة ١٧٢ إلى هذه القضيّة وقال: «فَوَٱللّٰهِ لَوْ لَمْ

يُصِيبُوا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ إلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحَلَّ لِي قَتْلُ ذٰلِكَ ٱلْجَيْشِ، كُلِّهِ»[١].

وطبعاً فإنّ هذه المناوشات غير ما حدث من تنازع واختلاف بين طلحة والزبير على مسألة إمامة الصلاة، حيث كان كلّ منهما يريد إمامة الجماعة فتوسّطت عائشة بينهما وتقرّر أن يصلّي بالناس عبدالله بن الزبير.

وقد ارتكب أتباع طلحة والزبير وعائشة في هذة المدّة جرائم عجيبة. منها أنّهم قتلوا «السبابجة» الذين كان عددهم سبعين رجلاً وقيل: أربعة نفر، وقطعوا رؤوسهم بأمر من عائشة، وقد استمرّت هذه الأوضاع الدامية إلى أن جاء الإمام عليّ عليه السلام وجيشه وسحقوا المتمرّدين والناكثين في معركة الجمل وقتل طلحة والزبير وأرسل الإمام عليه السلام عائشة مع جماعة من الحرس إلى المدينة، وعاد الهدوء والأمن إلى البصرة[٢].

٢. على مَن يمكن الاعتماد؟

وقد أشار الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرسالة إلى نقطة مهمّة جديرة بتدبّر واهتمام جميع القادة والعسكريين، وهي أنّه لا ينبغي الاعتماد على العناصر المهزوزة وضعيفة الإرادة في حسابات المعركة، ولا ينبغي تحشيدهم لمجرّد تكثير السواد في ميدان القتال، لأنّ ضررهم وخطرهم أكثر من نفعهم، فعدم حضور هؤلاء المزيّفين، في ميدان القتال يوجب السكينة والطمأنينة في قلوب المجاهدين وبالعكس فإنّ حضورهم ومشاركتهم تؤدّي إلى اهتزاز الموقف وتشويش النوايا واضطراب الدوافع.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يشبه هذا المعنى كما أسلفنا في معركة تبوك (وكذلك معركة أُحد) وفي المورد الأول يقول القرآن الكريم: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٧٢.

٢. ولمزيد من التوضيح انظر: تاريخ الطبري، ج ٣ في باب حوادث سنة ٣٦ و شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٩، ص ٣٠٥ إلى ٣٢٣.

زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[١]. والفتنة هنا العمل على إيجاد الفرقة والنفاق وتمزيق الصف.

وبالنسبة لغزوة أُحد تقول الآية الشريفة بعدها: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[٢] أي أنّ هؤلاء كان قد سبق أن طلبوا الفتنة وتشويش الأمور في معركة أُحد.

وخلاصة الكلام، أنّ الآيات الشريفة أعلاه تبيّن لجميع المسلمين درساً مهمّاً وهو أنّه لا ينبغي لهم الاهتمام بزيادة عدد الجيش وكثرة الجنود، بل ينبغي الاهتمام بكسب واختيار الأشخاص الذين يتمتّعون بروح الإيمان والإخلاص مهما كان عددهم قليلاً، كما يظهر ذلك من الآيات الشريفة التي تتحدّث عن قصّة بني اسرائيل وطالوت وجالوت: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ﴾[٣].

—

١. سورة التوبة، الآية ٤٧.
٢. سورة التوبة، الآية ٤٨.
٣. سورة البقرة، الآية ٢٤٩.

(٥)

ومن كلام له عليه السلام

إلى الأشعث بن قيس عامل أذربيجان[1]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة تشير في الأساس إلى نقطة واحدة، وهي أنّ المقامات والمناصب في الحكومة الإسلاميّة ليست وسيلة للوصول إلى المال والثروة وما إلى ذلك، بل هي أمانات إلهيّة يجب مراعاتها بدقة والالتزام بلوازمها من موقع الوعي والإيمان، ولهذا السبب لا ينبغي استخدام وسائل الإكراه ومنهج الاستبداد في إدارة الأمور وكذلك لزوم الاحتياط التام في التعامل مع بيت المال.

---

١. سند الرسالة:

من جملة الأشخاص الذين أوردوا هذه الرسالة: نصر بن مزاحم في كتاب صفين، نقل هذه الرسالة من مطلع كلام الإمام عليه السلام، ومع الأخذ بالحسبان أنّ نصر بن مزاحم كان يعيش قبل السيّد الرضيّ بقرنين من الزمان تقريباً، مضافاً إلى أنّه ذكر هذه الرسالة بشكل كامل، فيتبيّن من ذلك أنّه نقلها من مصادر أخرى.

ونقلها أيضاً «ابن عبد ربّه» مع بعض الإضافات وابن قتيبة في كتابه الإمامة والسياسة باختصار يسير بالنسبة لما أورده نصر بن مزاحم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٠٢).

وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ وَلٰكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ. لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ فِي رَعِيَّةٍ، وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ، وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ، وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ، وَالسَّلَامُ

الشرح والتفسير

المناصب الحكوميّة في الإسلام أمانة إلهيّة

كما أشرنا آنفاً أنّ السيد الرضي الذي أورد هذه الرسالة نقل مقطعاً من رسالة مفصلة وردت في كتاب وقعة صفين، ويستفاد من هذه الرسالة أنّ الأشعث بن قيس وبسبب السوابقه السيئة كان يشعر بالقلق على موقعه بعد استلام الإمام عليّ عليه السلام مقاليد الخلافة فربّما عزله الإمام عليه السلام عن إمارة آذربايجان وبذلك اتّخذ من معركة الجمل وقتل عثمان ذريعة للتمرّد على حكومة الإمام عليه السلام، ومن أجل ذلك والحيلولة دون وقوع الفتنة، كتب له الإمام عليه السلام هذه الرسالة ليتدارك أمره وقد ذكر في بدايتها:

«بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِاللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الأَشْعَثِ بْنِ قَيْسٍ أَمَّا بَعْدُ، فَلَوْ لَا هَنَاتٌ وَهَنَاتٌ كُنَّ مِنْكَ لَكُنْتَ الْمُقَدَّمَ فِي هٰذَا الأَمْرِ قَبْلَ النَّاسِ وَلَعَلَّ آخِرَ أَمْرِكَ يَحْمَدُ أَوَّلَهُ، وَيَحْمِلُ بَعْضُهُ بَعْضاً، إِنِ اتَّقَيْتَ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام، في سياق هذه الرسالة، أشار إلى قتل عثمان وبيعة الناس له وتمرّد طلحة والزبير ونقضهم البيعة له وأضاف: أنّهما أخرجا عائشة من بيتها إلى البصرة وأنّي قد سرت إليهم مع ثلّة من المهاجرين والأنصار حتىٰ اصطفّ الجيشان

وتقابل جيش الحقّ مع زمرة المتمرّدين والمخالفين وطلبت منهم الكفّ عن التمرّد والعناد والعودة إلى البيعة والوفاء بالعهود، وقد أتممت عليهم الحجّة ولكنّهم لم يقبلوا إلّا بالقتال، وما كان من أمر المعركة ما كان ودارت عليهم الدائرة وجرح بعضهم وفرّ الآخرون، وقد أمرت أن لا يجهز على المجروحين ولا يتمّ تعقيب الهاربين وكل من ألقى سلاحه على الأرض ورجع إلى داره وأغلق بابه عليه فهو آمن[١].

ثم إنّ الإمام عليه السلام في هذه المقطع من الرسالة الذي ينقله السيّد الرضيّ يقول محذّراً بجملتين ذات معنى عميق: «**وَإِنَّ عَمَلَكَ لَيْسَ لَكَ بِطُعْمَةٍ**[٢] **وَلَكِنَّهُ فِي عُنُقِكَ أَمَانَةٌ، وَأَنْتَ مُسْتَرْعًى لِمَنْ فَوْقَكَ**».

التعبير أعلاه يبيّن رؤية الإسلام للمناصب الحكومية والمسؤوليات التي تقع على عاتق أصحاب الشأن السياسي، ومن وجهة نظر الإسلام أنّ رئيس الحكومة، الوزراء، الأمراء، والولاة، ليسوا سوى أُمناء يتولّون إدارة أمور المجتمع الإسلاميّ ويتحمّلون الأمانة الإلهيّة في هذا الشأن، فلا ينبغي استخدام هذه المناصب وسيلة لاحراز التفوق وتغليب المصالح الشخصية والتوصّل إلى المآرب الذاتية والفئوية بل ينبغي مراعاة هذه المسؤولية كالشخص الأمين الذي يجب عليه إعادة الأمانة سالمة إلى أهلها.

وقد ورد هذا المعنى في روايات عديدة في تفسير الآية الشريفة: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا**﴾[٣]. فإنّ هذه الأمانة هي الولاية وحكومة الأولياء الصالحين[٤].

وطبعاً أنّ تفسير هذه الآية لا يعني أنّ مفهوم الآية ينحصر في أمر الحكومة

---

١. نهج البلاغة الكامل، ص ٨٠٣؛ وقعة صفين، ص ٣٠.

٢. «طعمة» تعني الشيء المطعوم والمأكول، ولكن تأتي على سبيل الكناية، مثلاً يقال عن الشخص الفلاني خبيث الطعمة، يعني أنّ كسبه وعمله غير مشروع، وفي الرسالة أعلاه وردت بمعنى ما يعتاش به الإنسان.

٣. سورة النساء، الآية ٥٨.

٤. انظر: تفسير نور الثقلين، ذيل الآية المذكورة؛ والكافي، ج ١، ص ٢٧٦ باب أنّ الإمام يعرف الإمام الذي يكون من بعده.

والإمامة، بل هي من المصاديق البارزة والمهمّة لهذا المفهوم الأخلاقي الواسع.

ثم إنّ الإمام عليه السلام بعد أن يتقدّم للأشعث بهذا الإنذار يبيّن ثلاث وظائف له بوصفه والياً، فيقول أوّلاً: «لَيْسَ لَكَ أَنْ تَفْتَاتَ[١] فِي رَعِيَّةٍ[٢]».

بل يجب عليك العمل وفق الموازين الإلهيّة وما ورد في تعاليم الإسلام عن حقوق الله، لا أن تتصرّف كما يحلو لك، وتتعامل مع الرّعية كما يتعامل السيّد مع عبيده.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يقرّر الأمر الثاني ويقول: «وَلَا تُخَاطِرَ إِلَّا بِوَثِيقَةٍ». أي أنّه لا ينبغي لك في الأعمال المهمّة والخطيرة أن تتسرّع وتقدم عليها بدون اطمئنان من النتائج.

ومع الالتفات إلى أنّ جملة «وَلَا تُخَاطِرَ» من مادة خطر، وأنّ كلمة خطير تستخدم للأمور المهمّة بسبب الأخطار المترتبة عليها، فيكون مراد الإمام عليه السلام من هذه العبارة هو اجتناب الإقدام على أيّ عمل مصيريّ للناس والمجتمع إلّا بعد التأمل والدقّة والمشورة، وإذا لزم الأمر يجب الاستئذان من الإمام والقائد الأعلى، لأنّه من أجل حفظ الأمانات المهمّة لابدّ من الامتناع من أي عمل خطير، وعلى ضوء ذلك فإنّ مفردة «وثيقة» تستوعب في مضمونها التفكر والتأمل وكذلك المشورة والاستئذان من الإمام عند اللزوم.

وفي الأمر الثالث الذي أكّد عليه الإمام عليه السلام فيما يتّصل بحفظ الأموال وبيت المال،

---

١. «تفتات» في الأصل من مادة «فوت»، التي تأتي أحياناً بمعنى فقد الشيء وأخرى بمعنى السبق، وطبقاً للمعنى الثاني عندما تأتي من باب افتعال تعني الاستبداد والتزمت بالرأي، وكأنّه يسبق الآخرين في اختيار مقصوده، ويحتمل أيضاً أنّ هذه المفردة من مادة «فأت» (بالهمزة)، وتأتي أيضاً بمعنى التفرد والاستبداد.

٢. «رعية» صفة مشبهة بمعنى المراعاة، من مادة «رعى» وهي في الأصل تعني رعي الأغنام والذي يقترن عادة بالمراعاة والمحافظة عليها، وهذا التعبير يشير إلى أنّ الدولة في الحكومة الإسلاميّة مكلّفة بخدمة الناس والمحافظة عليهم ومراعاة حقوقهم، وقد ورد في الحديث النبوي المعروف: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» وهو إشارة إلى هذا المعنى، أي أنّ جميع الناس يجب أن يرعى أحدهم الآخر ويتعامل معه من موقع المسؤولية ومراعاة الحقوق والواجبات، والحديث المذكور ورد في بحار الأنوار و جامع الأخبار وفي كتب أهل السنّة صحيح البخاري و مسند أحمد ومصادر أخرى).

قال عليه السلام: «وَفِي يَدَيْكَ مَالٌ مِنْ مَالِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنْتَ مِنْ خُزَّانِهِ حَتَّىٰ تُسَلِّمَهُ إِلَيَّ».

وفي نهاية هذه الرسالة يثير الإمام عليّ عليه السلام في نفس واليه الطمأنينة بأنّه إذا سار في الخطّ السليم وحفظ هذه الأمانة الإلهيّة ورعى شؤون هذه المسؤولية فالإمام عليه السلام لا يتعرّض له بأيّ مكروه وسيكون في أمان من المؤاخذة، يقول: «وَلَعَلِّي أَلَّا أَكُونَ شَرَّ وُلَاتِكَ لَكَ وَالسَّلَامُ».

وبديهيّ أنّ هذا التعبير زاخر بالتواضع ومفعم بالأُبوّة.

تأمّلات

١. دستور كامل

اللافت أنّ الإمام عليه السلام في هذا المقطع القصير من الرسالة بيّن جميع ما ينبغي عمله لمسؤول سياسيّ في الحكومة الإسلاميّة، ففي البداية بيّن حقيقة منصبه وماهيّة هذه المقام ليعيش الوالي الوعي الكامل بمقتضيات هذا المقام وأنّه ليس سوى أمين لا حاكم متسلّط على رقاب الناس.

ثمّ يلفت الإمام عليه السلام النظر إلى أوّل شيء يصيب الولاة في عمليّة الحكم وهو مسألة الاستبداد بالرأي وترجيح الرغبات الشخصية والرؤى الذاتية على منافع الناس ومصالح الأُمّة، وخاصّة أنّ الإمام عليه السلام استخدم في هذه العبارة مفردة «الرعيّة» التي توحي بمفهوم ضرورة مراعاة هذه الطبقة ولزوم النظر في مصالحهم وتقديم النفع الجمعي في سلّم الأوليات.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يأمر واليه بأن لا يحسب الأمور الاجتماعية المهمّة كالأمور الشخصيّة، فلا ينبغي أن يتسرّع في اتّخاذ التدابير الخطيرة بدون النظر إلى أبعادها وآثارها في المجتمع، وأن لا يتصرّف من دون الاطمئنان والنظر إلى عواقبها وتداعياتها.

وأخيراً أشار الإمام عليه السلام إلى أحد العوامل التي تؤدّي إلى فساد وانهيار الحكومات وهي مسألة الأموال والثروات العامّة واعتبر هذه الأموال «مال الله» وهذا هو التعبير

الذي ورد في القرآن الكريم عندما تحدّث عن العبيد الذين تحرّروا من ربقة الرّق والأمر الشرعي بإعطائهم المال الكافي لمزاولة العمل والكسب وأداء ديونهم فقال تعالى: ﴿وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[١].

ثم إنّ الإمام عليه السلام يأمر واليه بوصفه أميناً وخازناً لمال الله ويأمره بالمحافظة على هذا المال إلى أن يصل بيد الإمام ويتمّ توزيعه على مستحقيّه.

وفي ختام الرسالة يثير الإمام عليه السلام الاطمئنان في نفس واليه أنّه لو لم ينحرف عن جادّة الصواب ومسير الحق فإنّه سيكون في أمان من المؤاخذة والعقوبة، ولكنّ الإمام عليه السلام في ذات الوقت يحذّر من مغبّة عدم العمل بالنصائح الثلاث المذكورة لهذه الرسالة وأنّه ينبغي للأشعث أن ينتظر العواقب السّيئة من جرّاء عدم امتثال الأوامر.

وممّا يجدر ذكره أنّ نصر بن مزاحم يذكر في كتاب «صفّين»: «لمّا كتب عليه السلام إلى الأشعث مع ماضيه الأسود، قال الأشعث لأصحابه: قد أوحشني وهو آخذني بمال آذربايجان، وأنا لاحق بمعاوية. فقالوا: الموت خير لك من ذلك، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذَنَباً لأهل الشام، فسار حتّى قدم عليه عليه السلام». فانتبه الأشعث إلى خطئه وجاء أخيراً إلى الإمام عليه السلام وسكن في الكوفة»[٢].

٢. من هو الأشعث بن قيس؟

تقدّم في الجزء الأول من هذه الدورة وفي ذيل الخطبة ١٩ أنّ الإمام عليّ عليه السلام كتب رسالة شديدة اللهجة للأشعث بن قيس، وكتبنا شرحاً وافياً عن حال الأشعث واسمه الحقيقي، معدي كرب وبسبب شعره الجعد سمّي بالأشعث بحيث غلب على اسمه الأصليّ وبقي هذا الاسم الثاني متداولاً ومعروفاً بين الناس.

وللأشعث ماضٍ أسود وسوابق سيئة كثيرة، فقد ارتكب الكثير من الجرائم في

---

١. سورة النور، الآية ٣٣.

٢. شرح نهج البلاغة العلّامة التستري، ج ٨، ص ٧.

عصر الجاهلية وتمّ أسره من قِبل أعداء قومه واضطرّ قومه إلى دفع مبلغ كبير كفدية لتحريره من الأسر.

أمّا تاريخه المظلم فيشير إلى أنّه كان من المنافقين، وكان في زمان حكومة الإمام عليّ عليه السلام ـ كما يذكر ذلك بعض المؤرّخين ـ الأساس والأصل لجميع المفاسد والخلل في المجتمع الإسلاميّ، وقد عمل مع عمرو بن العاص في حرب صفّين لإيجاد النفاق والبلبلة في صفوف جيش الإمام عليه السلام.

وقد نُصّب الأشعث بن قيس والياً على آذربايجان، وبعد ذلك أبقاه الإمام عليه السلام في منصبه ـ طبقاً لرواية ـ مداراة له لئلاّ يتوجّه إلى الشام ويلتحق بمعاوية.

واللافت أنّ أبابكر زوّج أُخته أم فروة للأشعث ليأمن خطره، ولدت له هذه المرأة ثلاثة أبناء أحدهم محمّد الذي كان أحد قادة جيش ابن زياد في كربلاء لمواجهة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه، وكانت للأشعث بنت تسمى جعدة، ونعلم جميعاً أنّها زوجة الإمام الحسن عليه السلام وقد أقدمت على قتل الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بالسّم، ومعلوم أنّ الأشعث أيضاً كان من الأشخاص الذين اشتركوا في قتل أميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام [1].

ونختم هذا الكلام بحديث عن أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام حول الأشعث حيث قال عليه السلام مخاطباً الناس: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الأَشْعَثَ لَا يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ وَإِنَّهُ أَقَلُّ فِي دِينِ اللهِ مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ**» [2].

والجدير بالذكر أنّ الأشعث أصبح والياً على آذربايجان في عهد خلافة عمر ابن الخطاب وبقي في هذا المنصب في عهد عثمان وكذلك بقي فيه لمدّة معينة من خلافة الإمام عليّ عليه السلام.

---

١. انظر: الكافي، ج ٨، ص ١٦٧، ح ١٨٧.

٢. بحار الانوار، ج ٢٩، ص ٤٢٠ ولمزيد التوضيح في ترجمة الأشعث راجع الجزء الأول من هذا الكتاب، ذيل الخطبة ١٩.

٣. آذربايجان في خارطة البلاد الإسلاميّة سابقاً

يستفاد من كتاب «فتوح البلدان» للبلاذري و «تاريخ الطبري» و «معجم البلدان» للحموي بشكل إجماليّ أنّ منطقة آذربايجان تمّ فتحها في عام ٢٠ للهجرة تقريباً ودخلت في دائرة البلاد الإسلاميّة، ولكن لم تمض فترة وجيزة حتّى قامت جماعة من الأقوام المعادية واستولت على تلك المنطقة، فبعث الخليفة الثاني الأشعثَ بن قيس واستطاع فتحها مرّة ثانية وبقي الأشعث والياً على تلك المنطقة.

أمّا حدود آذربايجان في ذلك الوقت فكانت أوسع من آذربايجان الحالية حيث كانت تضمّ مضافاً إلى مدينة تبريز، خويى سلمان وأُرومية وأردبيل ومناطق من كيلان ومازندران أيضاً وكانت تمتد من جهة الغرب إلى الحدود الرسمية الحالية، يقول الحموي: «تعتبر هذه المنطقة مملكة عظيمة وتتمتع ببركات كثيرة وهي منطقة خضراء وفيرة المياه وفيها عيون كثيرة» ويقول اليعقوبي في تاريخه: «إنّ معاوية كان يستلم في كلّ عام ثلاثين ألف ألف درهم من خراج آذربايجان، وهذا يشير إلى وسع تلك المنطقة ووفرة خيراتها»[1].

١. انظر إلى كتاب تاريخ اليعقوبي، ج ٢، ص ٢٣٣ و تاريخ الطبرى في حوادث سنة ٢٢ وكذلك معجم البلدان الحموي، ج ١، ص ١٢٨ وفتوح البلدان للبلاذري، ج ٢، ص ٤٠٠.

٦

ومن كلام له عليه السلام

إلىٰ مُعاوِيَة[1]

نظرة إلى الرسالة

كان الإمام عليّ عليه السلام يهدف من خلال هذه الرسالة إلىٰ إتمام الحجّة على معاوية من خلال عدّة أمور:

الأول: إنّ بيعته من قِبل المهاجرين والأنصار حالها حال بيعة الناس للخلفاء السابقين (بل أفضل منها من جهات معيّنة) وعلى هذا الأساس لا يحقّ لأيّ شخص مخالفة هذه الحكومة الشرعية ويجب على الجميع الامتثال والطاعة والعمل على التنسيق معها لإدارة الأمور.

الثاني: إنّ الأشخاص الذين يقطنون في المناطق البعيدة من منطقة البيعة يجب عليهم حال وصول خبر بيعة المهاجرين والأنصار لشخص معيّن أن يبايعوا بدورهم

---

١. سند الرسالة:

تمثّل هذه الرسالة مقطعاً من رسالة مطوّلة أرسلها الإمام عليه السلام لمعاوية وبعثها مع «جرير بن عبدالله البجلي» وفي جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضي، نصر بن مزاحم في كتاب صفين، ابن قتيبة في الإمامة والسياسة، وابن عبد ربه في العقد الفريد. مضافاً أنّ الطبري في تاريخه ينقل هذه الرسالة ويذكر قصّة مفصّلة عنها في الجزء الثالث من تاريخه في حوادث سنة ٣٦. وابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق في شرح حال معاوية (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٠٩).

كما بايعوا في الماضي.

الثالث: إنّ كلّ شخص إذا أراد الخروج من دائرة هذه البيعة يجب إعادته إلى الطاعة، فإن امتنع وقاوم وتمرّد على الحكومة الشرعية فيجب على المسلمين التصدي له ومقاتلته.

الرابع: إنّ جعل قتل عثمان ذريعة للتمرّد وعدم البيعة أمر غير صحيح وغير معقول، لأنّ الإمام عليّ عليه السلام لم يتدخّل إطلاقاً في قتل عثمان.

وفي الختام وطبقاً لما ورد في كتاب نهج البلاغة، يدعو الإمام عليّ عليه السلام معاوية أن يبايع رسوله ووكيله جرير بن عبدالله ويعمل على إطفاء نار الحرب والفتنة بهذا العمل.

إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَىٰ مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ، وَإِنَّمَا الشُّورَىٰ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذٰلِكَ لِلّٰهِ رِضًا، فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَىٰ قَاتَلُوهُ عَلَى اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللهُ مَا تَوَلَّىٰ. وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّىٰ؛ فَتَجَنَّ مَا بَدَا لَكَ! وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

تقدّم في بيان سند هذه الرسالة أنّ ما أورده السيّد الرضيّ من هذه الرسالة يمثّل مقطعاً من رسالة مطولة أرسلها الإمام عليّ عليه السلام بعد واقعة الجمل إلى معاوية بيد جرير بن عبدالله البجلي وهو من مشاهير الصحابة.

وفي بداية هذه الرسالة كما أوردها صاحب نهج‌البلاغة الكامل رقم الكتاب ٢٩ ولم ينقله السيّد الرضيّ، جاء فيه أنّ الإمام بعد الحمد والثناء قال: «إِنَّهُ بَايَعَنِي الْقَوْمُ الَّذِينَ بَايَعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ عَلَىٰ مَا بَايَعُوهُمْ عَلَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَخْتَارَ، وَلَا لِلْغَائِبِ أَنْ يَرُدَّ».

واللافت أنّ الإمام عليه السلام لم يشر في هذا المورد لا إلى مسألة الغدير ولا إلى وصيّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في حقّه والروايات الكثيرة الواردة في إمامته وولايته على المسلمين، لأنّ معاوية يستطيع، إنكار كلّ هذه النصوص الجليّة، ولكنّ مسألة خلافة

الخلفاء السابقين لم تكن مسألة قابلة للانكار، وفي الحقيقة أنّ استدلال الإمام عليه السلام استدلال جدليّ كما في الاصطلاح، حيث يتّخذ المتكلّم مسلّمات ومقبولات الطرف المقابل ويستدلّ بها ضدّه، ومن هذا المنطلق بما أنّ معاوية كان يرى نفسه من ولاة الخلفاء السابقين أبوبكر، عمر، وعثمان، فإنّه لا يستطيع إنكار مشروعية خلافتهم وكيفية وصولهم إلى سدّة الحكم والخلافة، وهذا الأمر هو ما وقع أيضاً للإمام عليّ عليه السلام في خلافته بصورة أكمل وأتمّ، فإنّ عموم المهاجرين والأنصار بايعوا الإمام عليّ حتى طلحة والزبير اللذين نكثا البيعة بعد ذلك كانا من أوائل المبايعين للإمام في أمر الخلافة، وكانت السنّة جارية في ذلك العصر أنّ المهاجرين والأنصار في المدينة إذا اختاروا شخصاً للخلافة فيجب على الغائبين والبعيدين عن المدينة أن يتّبعوا المهاجرين والأنصار في مركز الخلافة، وعلى هذا الأساس لا يمكن لمعاوية أن يعترض على استدلال الإمام عليه السلام في هذا الأمر.

ومن هنا فإنّ الإمام عليّ عليه السلام يقول في هذا السياق: «**وَإِنَّمَا الشُّورَىٰ لِلْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، فَإِنِ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ رَجُلٍ وَسَمَّوْهُ إِمَاماً كَانَ ذٰلِكَ لِلّٰهِ رِضاً**».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستنتج من ذلك ويقول: «**فَإِنْ خَرَجَ عَنْ أَمْرِهِمْ خَارِجٌ بِطَعْنٍ أَوْ بِدْعَةٍ رَدُّوهُ إِلَىٰ مَا خَرَجَ مِنْهُ، فَإِنْ أَبَىٰ قَاتَلُوهُ عَلَىٰ اتِّبَاعِهِ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلَّاهُ اللهُ مَا تَوَلَّىٰ**».

وكما أسلفنا أنّ هذا الاستدلال يتّسم بالمنهج الجدليّ والاستفادة من مسلّمات الطرف المقابل في دحض حجّته، فلا ينبغي استنباط هذا المفهوم وهو أنّ الإمام عليه السلام ترك مسألة الإمامة المنصوبة وذهب إلى أنّ الإمامة هي من اختيار الناس لا من شؤون الباري تعالى وليست بوسيلة التنصيب الإلهيّ كما تصوّر ذلك بعض شرّاح نهج البلاغة، بل إنّ الطريق الوحيد للاستدلال في مقابل معاوية لا يمكن بغير هذا المنهج الجدلي، ونرى كثيراً من قبيل هذا النحو من الاستدلال في القرآن الكريم فيما يخصّ المجادلة مع المشركين.

وفي مقطع آخر من هذه الرسالة يذكر الإمام عليه السلام مسألة قتل عثمان التي جعلها

معاوية ذريعة للتمرّد في مقابل الإمام عليه السلام كما سبقه بذلك طلحة والزبير أيضاً. يقول الإمام عليه السلام: «وَلَعَمْرِي، يَا مُعَاوِيَةُ، لَئِنْ نَظَرْتَ بِعَقْلِكَ دُونَ هَوَاكَ لَتَجِدَنِّي أَبْرَأَ النَّاسِ مِنْ دَمِ عُثْمَانَ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنِّي كُنْتُ فِي عُزْلَةٍ عَنْهُ إِلَّا أَنْ تَتَجَنَّى[1]. فَتَجَنَّ[2] مَا بَدَا لَكَ، وَالسَّلَامُ».

إنّ من القضايا العجيبة في تاريخ صدر الإسلام أنّ جماعة كانوا في زمن خلافة عثمان قد رفعوا لواء المخالفة الشديدة له، وحتى كان لهم دور مباشر أو غير مباشر في قتله، ولكن بعد مقتل عثمان تغيّر مسارهم فجأة وأخذوا يطالبون بدمه وبالثأر له ويذرفون عليه وعلى مظلوميته دموع التماسيح، ومثل هذا التغيير في المسار لا يعدّ أمراً عجيباً في أمر السياسة، ولكن كيف يمكن تبرير مثل هذه السلوكيات عندما تصدر ممّن يدّعون الإسلام ويعتبرون أنفسهم من قادة المسلمين؟

إنّ حادثة قتل عثمان والعوامل التي أدت إلى إثارة الناس ضدّه وكذلك الحوادث التي وقعت في هذه القضية التاريخية، وكذلك مسألة إجبار الثوّار عثمان على التوبة واعتزال الخلافة وقبول عثمان للتوبة وعدم قبوله الاعتزال عن مقامه وكذلك دفاع أميرالمؤمنين عليه السلام عنه ومنع الثوّار من قتله لئلاّ تتّسع دائرة الفتنة وتعمّ جميع مناطق البلاد الإسلاميّة، وأيضاً كيفية قتل عثمان والحوادث التي وقعت بعد مقتله كلّها تعدّ من المسائل المهمّة في تاريخ الإسلام، التي تستدعي الدقّة والتمعّن لاكتشاف الحقائق الكامنة في طيّات التاريخ لهذه الواقعة.

وقد أسلفنا في البحوث السابقة بعض الأمور عن حقيقة ما جرى في هذه الواقعة في الجزء الأول من هذه المجموعة في شرح الخطبة الشقشقية وكذلك الجزء الثاني ذيل الخطبة الثلاثين، وكذلك ذيل الخطبة ٤٣ أيضاً.

---

١. «تتجنى» في الأصل من ال «جناية»، وإذا كانت من باب تفعّل فإنّها تعني أنّ شخصاً يريد أن يلقي بالجريمة على الآخر في حين أنّ ذلك الشخص لم يرتكبها وهذا هو معنى التهمة.

٢. «تجنّ» هذه المفردة فعل أمر من «تجنّى» كما سبق ذكره ومفهوم الجملة أنّك يا معاوية تعلم بأنّ انتساب قتل عثمان إليّ مجرّد تهمة فإذا كان الأمر كذلك فقل ما شئت وتحدّث بما بدا لك.

تأمّل

لماذا استدلّ الإمام عليه السلام بالشورى والبيعة؟

نعلم أنّ المسلمين قد اختلفوا في مسألة الإمامة والخلافة بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله على رؤيتين: فطبقاً لعقيدة الشيعة فإنّ الإمامة والخلافة بالنصّ، أي أنّ تعيين الإمام والخليفة بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يكون بالنصّ الإلهيّ من خلال بيان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وهناك آيات قرآنية تؤيّد هذه الرؤية وكذلك الأحاديث الشريفة الواردة في هذه المجال من قبيل حديث الغدير، المنزلة، حديث الثقلين، مضافاً إلى أنّ الشيعة يقيمون أدلّة عقليّة على هذه المسألة ليس هنا مجال لاستعراضها[1].

ولكن أهل السنّة ذهبوا إلى مقولة الشورى حيث يعتقدون بأنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ترك تعيين الخليفة بعده للأمة وقد تمّ تعيين الخليفة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله من خلال شورى المهاجرين والأنصار وبيعة المسلمين وقد اتّخذ أبوبكر لهذا المقام في سقيفة بني ساعدة بحضور ثلّة قليلة من المهاجرين والأنصار، وأمّا عمر بن الخطاب فقد أصبح خليفة بتعيين من أبي بكر وانتخب عثمان بالخلافة بأربعة آراء من أعضاء الشورى الستّة الذين اختارهم عمر لهذا الغرض، وأمّا الإمام عليّ عليه السلام فقد بويع بعد مقتل عثمان من قِبل المهاجرين والأنصار وجمهور المسلمين عامة.

أمّا أنصار مدرسة الشورى فإنّهم عندما يصلون إلى الخطبة الشقشقية التي تثير علامات استفهام على خلافة الخلفاء الثلاثة الأوائل، فإنّهم يعترضون تارة على سند الرواية وأخرى على دلالتها، ولكن عندما يصلون إلى الرسالة السادسة المذكورة أعلاه، يشرحون صدرهم لها ويستقبلون ما ورد فيها ويعتبرونه دليلاً على حقّانية مذهبهم ورأيهم في مسألة الخلافة في حين أنّ كلّاً من هذه الرسالة وتلك الخطبة للإمام عليّ عليه السلام.

والنقطة المهمّة هنا هي أنّه لابدّ من الأخذ بنظر الاعتبار المخاطب للكلام

---

١. ولمزيد من هذه الأدلة القرآنية والروائية والعقلية راجع نفحات القرآن، ج ٩.

والنصّ، لأنّ عقائد المخاطب وأفكاره وتوجّهاته مؤثّرة كثيراً في كيفية بيان المتكلّم، ففي الخطبة الشقشقية نرى أنّ المخاطب لها عموم الناس، ولكن المخاطب لهذه الرسالة هو معاوية نفسه.

كيف يمكن للإمامعليه السلام أن يستدلّ في هذه الرسالة على حقّانيته في مقابل معاوية بالنصّ، وهذا هو الشيء الذي يخالفه معاوية من الأساس، لابدّ من الاستفادة من دليل يعجز من إنكاره، ويجد نفسه مضطرّاً للتسليم أمامه، وليس ذلك سوى مسألة الشورى، أي الشورى التي انتخب على أساسها الخلفاء السابقون الذين نصبوا معاوية في زمن خلافتهم على الشام.

وهذا هو الشيء الذي يعبّر عنه في علم المنطق بفنّ الجدل، وهو بأن يتمسّك المستدلّ بمسلّمات الخصم ويستدلّ بها ضدّه وإن كان لايعتقد بها أو ليست مسلّمة لديه.

وهذا من قبيل أن نستدّل بالتوراة والإنجيل الحاليين في مقابل اليهود والنصارى، وأنّه طبقاً لما ورد في الآية الفلانية في السفر الفلاني من كتابكم المقدّس فإنّ العقيدة التي تعتقدون بها في هذا الشأن باطلة، مثلاً نقول: أنتم أيها المسيحيون تعتقدون بأنّ عيسىعليه السلام صلب ومات ودفن، وبعد عدّة أيّام بعث من قبره ورفع إلى السماء، وطبقاً لهذه العقيدة يجب القبول بمسألة رجعة الإنسان إلى هذه الحياة الدنيا رغم أننا لا نعتقد بمقتل المسيحعليه السلام.

وقد ورد في القرآن الكريم مثل هذا النمط من الاستدلال، من قبيل ما ورد في قصة إبراهيم عندما وقف أمام عبدة النجوم والقمر والشمس وقال لهم: ﴿هٰذٰا رَبِّي﴾ أو ﴿هٰذٰا رَبِّي هٰذٰا أَكْبَرُ﴾[1]، فقد وافقهم ظاهراً على ما يعتقدونه وما هو من المسلّمات لديهم، ولكن عندما أفلت هذه الكواكب استدلّ إبراهيمعليه السلام من أُفولها وغروبها على أنّها حادثة ومخلوقة، وبذلك أبطل حجّتهم وأجهض مزاعمهم.

ومن العجيب أنّ ابن أبي‌الحديد بالرغم من أنّه سلك مسلك الاعتدل في الكثير

---

١. سورة الأنعام، الآيتان ٧٧ و ٧٨.

من المسائل، عندما يصل إلى هذه الرسالة يقول: «إعلم أنّ هذا الفصل دالّ بصريح العبارة على كون الاختيار طريقاً إلى الإمامة كما يذكره أصحابي المتكلّمون (أهل السنّة...) فأمّا الإماميّة فتحمل هذا الكتاب منه عليه السلام على التقيّة وتقول: إنّه ما كان يمكنه أن يصرّح لمعاوية في مكتوبه بباطن الحال ويقول له: أنا منصوص عليَّ من رسول الله صلى الله عليه وآله، ومعهود على المسلمين أن أكون خليفة فيهم بلا فاصلة، فيكون في ذلك طعن على الأئمّة المتقدّمين....»[1].

إنّ خطأ ابن أبي‌الحديد هو أنّه أوّلاً: لم يلتفت إلى مخاطب هذه الرسالة أبداً، وهو معاوية.

وثانياً: أنّه خلط بين مسألة الجدل ومسألة التقيّة، فالشيعة لا يقولون إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قد سلك مسلك التقيّة في مقابل معاوية، بل يقولون: إنّه استدلّ بما لا يمكن لمعاوية إنكاره ومخالفته، أي أنّ الإمام استدلّ بالأمور المسلّمة لدى معاوية ضدّه، وقد ورد في نهج‌البلاغة عبارات أخرى شبيهة أيضاً بما ذكر أعلاه، ويتبيّن جواب الجميع ممّا قلنا آنفاً ولا حاجة للتكرار.

ﮋﮊ

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٤، ص ٣٦ و ٣٧.

٧

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إلَيْهِ أيْضاً[1]

نظرة إلى الرسالة

تقدمّ في بيان مدرك هذه الرسالة أنّها وقعت جواباً على رسالة كـتبها مـعاوية للإمام عليه السلام في أواخر معركة صفين وكانت رسالة معاوية تـتضمن الوقـاحة وعـدم رعاية الأدب وتشير إلى نقاط مـختلفة أهـمها عـدم الاعـتراف بـبيعة المسـلمين للإمام عليه السلام بذريعة أنّ أهل الشام لم يحضروا هذه البيعة ولم يوافقوا عليها، وقد أجاب الإمام جواباً حاسماً على كلّ هذه التقوّلات والكلمات اللامسؤولة[2].

---

١. سند الرسالة:
من جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضيّ ابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح والمبرد في الكامل ونصر بن مزاحم في كتاب صفين، هؤلاء نقلوا الرسالة مورد البحث بتفاوت يسير، وهـذه الرسـالة فـي الحقيقة رسالة جوابية أرسلها الإمام عليه السلام إلى معاوية جواباً على رسـالته المليئة بـالعبارات الوقحة والكـلمات المنكرة في أثناء معركة صفين، بل كتبها في أواخر هذه الحرب (مصادر نهج البلاغة، ج٣، ص ٢١١).

٢. سيأتي ذكر رسالة معاوية في نهاية هذا البحث.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ، نَمَّقْتَهَا بِضَلَالِكَ، وَأَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ، وَكِتَابُ امْرِئٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَىٰ فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ لَاغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً.

وَمِنْهُ: لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُثَنَّىٰ فِيهَا النَّظَرُ، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْخِيَارُ. الْخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي فِيهَا مُدَاهِنٌ.

الشرح والتفسير

موعظة الضالّين!

بما أنّ معاوية قد تمسّك في رسالته للإمام عليه السلام ببعض الآيات القرآنية ليعض الإمام عليه السلام بالتقوى والورع!! منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1] وهذه الآية كما هو معلوم ليس لها أيّ إرتباط بادّعاءات معاوية الباطلة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في مطلع رسالته له:

«أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَتْنِي مِنْكَ مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ[2]، وَرِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ[3]، نَمَّقْتَهَا[4] بِضَلَالِكَ،

---

١. سورة الزمر، الآية ٦٥.

٢. «موصّلة» تعني أمور متنافرة وغير مرتبطة تمّ جمعها في مورد واحد، وهي من مادة «وصل» أي ربط.

٣. «محبّرة» وتعني تزيين الشيء من مادة «حبر» على وزن «ابر» وتعني بفتح الأول التزين و «حبر» بكسر الأول تعني الجمال.

٤. «نمّق» من «التنميق» بمعنى التزيين؛ ولكن الثلاثي لها «نمق» على وزن «نقد» تعني الكتابة، وعندما تأتي من باب التفعيل تعني التزيين.

وَأَمْضَيْتَهَا[١] بِسُوءِ رَأْيِكَ».

والتعبير بـ (مُوَصَّلَةٌ) إشارة إلى عدم التجانس المشهود في رسالة معاوية حيث يتمسّك ببعض الآيات القرآنية التي ليس لها أيّ علاقة بالمقصود، ومن جهة أخرى يتهمّ الإمامعليه السلام بشقّ عصا المسلمين وإيجاد الاختلاف بين الأُمّة، في حين أنّ كلماته وعباراته تعتبر مصداقاً بارزاً لإثارة الخلاف وإيجاد الفتنة في المجتمع الإسلامي.

وعبارة (رِسَالَةٌ مُحَبَّرَةٌ) (مع الالتفات إلى أنّ «محبّرة» تعني التزيين والتنميق) إشارة إلى أنّ معاوية كان يسعى بأيّ وسيلة ممكنة إلى إظهار أنّ الحقّ بجانبه، فأحياناً يتحدّث عن يوم القيامة والعذاب الإلهيّ، وأخرى عن مصالح المسلمين، وثالثة يتمسّك بالآيات القرآنية للدفاع عن مواقفه المتهرّئة.

وجملة: (نَمَّقْتَهَا بِضَلَالِكَ) إشارة إلى أنّ العبارات الجميلة في الظاهر هي ذاتها العبارات والكلمات التي كان يتوصّل بها المنافقون الضالّون لإظهار إيمانهم في مقابل النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله، وجملة (أَمْضَيْتَهَا بِسُوءِ رَأْيِكَ) إمّا أن يكون المقصود بها أنّ إمضاء مثل هذه الرسالة لا يصدر إلّا من الإنسان المنحرف والسائر في خطّ الضلالة والجهالة، أو يكون المعنى فيما لو أخذنا الإمضاء بمعنى الإرسال فيكون مفهومها أنّ فكرك المنحرف والباطل أجاز لك كتابة هذه الرسالة الوقحة للإمام وقائد المسلمين.

وفي سياق كلام الإمامعليه السلام في رسالته، يبيّن الإمام مضمون رسالة معاوية وشخصيته الانتهازيّة في عبارات قصيرة وزاخرة بالمعنى ويقول: «وَكِتَابُ امْرِيٍ لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ، قَدْ دَعَاهُ الْهَوَىٰ فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ، فَهَجَرَ[٢] لَاغِطاً[٣]، وَضَلَّ خَابِطاً[٤]».

---

١. «أمضيت» من «الإمضاء» وتعني الإرسال والإجراء والتنفيذ لشيء، وبما أنّ إمضاء السند أو الوثيقة يعتبر نوعاً من إنفاذها وإجرائها، فهذه المفردة تطلق على هذا العمل.

٢. «هجر» من مادة «هجر» على وزن «زجر» وتعني الهذيان.

٣. «لاغط» من مادة «لغط» على وزن «وقت» بمعنى إثارة الفوضى واللغو والشغب.

٤. «خابط» من مادة «خبط» على وزن «وقت» وتعني المتحير والسائر بدون هدف معين.

والملفت للنظر أنّ الإمام عليه السلام في هذه الجمل الثلاث استفاد من التجانس بين الثنائيات بشكل لازم وملزوم، فيقول في الجملة الأولى: (لَيْسَ لَهُ بَصَرٌ يَهْدِيهِ، وَلَا قَائِدٌ يُرْشِدُهُ) وقال في الجملة الثانية التي تعتبر نتيجة لما سبق: «قَدْ دَعَاهُ الْـهَوَىٰ فَأَجَابَهُ، وَقَادَهُ الضَّلَالُ فَاتَّبَعَهُ» وفي الجملة الثالثة التي تعتبر نتيجة للجملة الثانية يقول: «فَهَجَرَ لَاغِطاً، وَضَلَّ خَابِطاً»، أي يتحدّث في خبط وهذيان بسبب الضلالة والسير في متاهة الحيرة، والحقيقة كذلك، لأنّ نور الهداية إمّا أن ينبع من باطن الإنسان أو يحصل عليه الإنسان من خارجه من خلال التمسّك بالقادة الإلهيين والمرشدين الصالحين، وفي غير هذه الصورة فإنّ الإنسان يعيش الظلمات الباطنية والضلالة الخارجية التي تنشأ بسبب مشورة الأشخاص المنحرفين والانتهازيين، وهكذا ينحدر الإنسان في هوّة الضلالة ومنزلقات الجهالة، فلا يملك حينئذٍ كلاماً منطقيّاً ولا تسير أعماله وفق التخطيط العقلاني المدروس.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يشير في رسالته الجوابية إلى أحد اشتباهات معاوية الكبيرة التي ذكرها في رسالته، فقد كتب معاوية في رسالته أنّ بيعة المسلمين للإمام عليه السلام لم تكن صحيحة، لأنّ أهل الشام لم يقبلوا بها، فيقول الإمام في مقام الجواب: «لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يُثَنَّىٰ فِيهَا النَّظَرُ[1]، وَلَا يُسْتَأْنَفُ فِيهَا الْـخِيَارُ. الْـخَارِجُ مِنْهَا طَاعِنٌ، وَالْمُرَوِّي[2] فِيهَا مُدَاهِنٌ[3]»، يعني أنّ بيعة الخلافة لا تقع سوى مرّة واحدة غير قابلة للتعديل ولا للتجديد.

وفي الحقيقة أنّ الإمام عليه السلام استدلّ في هذا المقطع بإحدى المسلّمات في مسألة الخلافة عند معاوية، لأنّه يعتقد بأنّ خلافة الخلفاء السابقين قامت على أساس آراء

---

١. «النظر» تعني هنا التأمل والتدبر، يعني أنّ البيعة بعد انعقادها غير قابلة للتأمل والتشويه (هذا في صورة أن تكون «في» متعدية.

٢. «مروي» الشخص الذي يشك ويتردد في أمر ويفكر ويتأمل فيه وهي من «التروية»، وتأتي أحياناً بمعنى شرب الماء وإزالة الظمأ، وأخرى بمعنى المطالعة والتأمل في شيء.

٣. «مداهن» تعني المتملق والمنافق والمتزلف.

المهاجرين والأنصار وأنّ الأشخاص الذين كانوا يعيشون بعيداً عن المدينة يجب عليهم احترام آراء المهاجرين والأنصار في المدينة وإتّباعهم والقبول بمن اختاروه لهذه المقام، هكذا كانت سنّة الخلفاء السابقين، والإمام عليه السلام يقول: كيف تقبل برأي المهاجرين والأنصار وأهل الحلّ والعقد بالنسبة لما يتّصل بالخلفاء السابقين، ولكنّك تشكّك في بيعتهم الآن مع أنّها أوسع وأشمل وأكثر امتداداً في الوسط الجماهيري من بيعة الخلفاء السابقين؟ أمّا عدم قبول أهل الشام فهذا يشير إلى أحد أمرين: إمّا أنّك ترى بطلان منهج الخلفاء السابقين، أو حالك حال المنافقين الذين يقبلون أحياناً بشيء وينكرونه أحياناً أخرى حسب المصالح وما تمليه عليهم مطامعهم الشخصية بعيداً عن واقع الإيمان وتعاليم الرسالة.

فلو وجب انتخاب جميع المسلمين في مختلف مناطق البلاد الإسلاميّة لقبول حكومة الإمام عليّ عليه السلام وتحقّق مشروعيتها فيلزمك أن تعتقد ببطلان حكومة الخلفاء السابقين وبالتالي فإنّ حكومتك تقتبس مشروعيتها منهم فستكون باطلة أيضاً.

وأشار الإمام عليه السلام في جملة «لِأَنَّهَا بَيْعَةٌ وَاحِدَةٌ ...» إلى حقيقة حاسمة ومسلّمة في التاريخ الإسلامي وهي أنّ البيعة كالبيع اللازم لا خيار فيه للفسخ ولا التكرار، فإذا وقعت البيعة فإنّها تقع مرّة واحدة وللأبد.

تأمّل

رسالة معاوية لأميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام

مع الالتفات إلى أنّ رسالة الإمام عليه السلام المذكورة آنفاً ناظرة لرسالة سابقة أرسلها معاوية للإمام عليه السلام، ومن هنا لزم نقل نصّ رسالة معاوية المذكورة في كتب التاريخ رغم أنّها وقحة جدّاً وخالية من الأدب، ولذلك نعتذر قبل ذلك للقرّاء الكرام وخاصّة من الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام على إيراد مثل هذه الرسالة والكلمات اللامسؤولة فيها:

«مِنْ عَبْدِاللهِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ:

أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إِنِّي أُحَذِّرُكَ اللهَ أَنْ تُحْبِطَ عَمَلَكَ وَسَابِقَتَكَ بِشَقِّ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَتَفْرِيقِ جَمَاعَتِهَا فَاتَّقِ اللهَ وَاذْكُرْ مَوْقِفَ الْقِيَامَةِ وَاقْلَعْ عَمَّا أَسْرَفْتَ فِيهِ مِنَ الْخَوْضِ فِي دِمَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «لَوْ تَمَالَأَ أَهْلُ صَنْعَاءَ وَعَدَنٍ عَلَى قَتْلِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ لَأَكَبَّهُمُ اللهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ» فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ قَتَلَ أَعْلَامَ الْمُسْلِمِينَ وسَادَاتِ الْمُهَاجِرِينَ بَلْهَ مَا طَحَنَتْ رَحَى حَرْبِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ وَذَوِي الْعِبَادَةِ وَالْإِيمَانِ مِنْ شَيْخٍ كَبِيرٍ وَشَابٍّ غَرِيرٍ كُلُّهُمْ بِاللهِ تَعَالَى مُؤْمِنٌ وَلَهُ مُخْلِصٌ بِرَسُولِهِ مُقِرٌّ عَارِفٌ فَإِنْ كُنْتَ أَبَا حَسَنٍ إِنَّمَا تُحَارِبُ عَلَى الْإِمْرَةِ وَالْخِلَافَةِ فَلَعَمْرِي لَوْ صَحَّتْ خِلَافَتُكَ لَكُنْتَ قَرِيباً مِنْ أَنْ تُعْذَرَ فِي حَرْبِ الْمُسْلِمِينَ وَلَكِنَّهَا ما تَصِحَّ لَكَ أَنَّى بِصِحَّتِهَا وَأَهْلُ الشَّامِ لَمْ يَدْخُلُوا فِيهَا فَقَدْ وَاللهِ أَكَلَتْهُمُ الْحَرْبُ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ إِلَّا كَالثَّمَدِ فِي قَرَارَةِ الْغَدِيرِ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ»[1].

هذه الرسالة المسيئة وغير المؤدّبة من جهة، والسخيفة من جهة أخرى، تبيّن سوء طويّة معاوية وبطلان رأيه لأنّها أوّلاً: تتمسّك بآية حبط الأعمال بسبب الشرك، في حين أنّه لا يوجد في الموضوع أدنى كلام عن الشرك، وبالنسبة لشقّ عصا المسلمين وإيجاد الفرقة بينهم على فرض أن يكون صحيحاً لا يرتبط بمسألة الشرك، وهذا هو ما وصفه الإمام عليه السلام بأنّه: «مَوْعِظَةٌ مُوَصَّلَةٌ» أي أنّه كلام متشتّت وغير متجانس في مضامينه وعباراته.

ثانياً: إنّ الإمام عليه السلام في جوابه على هذه الرسالة والذي لم يذكره السيد الرضي في نهج‌البلاغة يقول: إنّك أمرتني بالتقوى وأنا أرجو أن أكون من أهل التقوى ولكنني

---

١. مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢١١ ونقل ابن أبي‌الحديد هذه الرسالة أيضاً مع اختلاف يسير في: ج ١٤، ص٤٢.

أعوذ بالله أن أكون ممّن يأمر الناس بالتقوى وفي ذات الوقت يجرّهم إلى المعصية وطلب الدنيا (وأنت من هؤلاء).

ثالثاً: يقول الإمام عليه السلام في مقام الجواب عن مسألة حبط الأعمال وسابقته في الإسلام: إذا كنت قد خرجت مع ا لخارجين على عثمان فجدير بك هذا التحذير لي، ولكنّي أرى الله تعالى يقول: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾[1]. فيجب عليك النظر بعقلك دون هواك لتعرف من هم أهل البغي هل نحن أم أنتم؟ وبديهيّ أنّ أهل البغي هم أنت وجماعتك، لأنّ بيعتي وقعت في المدينة من قِبل المهاجرين والأنصار وهي ملزمة لكم في الشام، كما أنّ بيعة عثمان في المدينة كانت ملزمة لكم أيضاً، في حين أنّك كنت والياً على الشام من قِبل عمر بن الخطاب، وكما أنّها ـ بيعة عمر ـ كانت ملزمة لأخيك يزيد في حين أنّه كان والياً على الشام من قِبل أبي بكر.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يجيب عن هذه النقطة التي ذكرها معاوية، وهي مَن هو المسؤول عن شقّ عصا المسلمين؟ ويقول: يجب أن أُحذّرك وأنهاك عن هذا العمل، فقد أمرني رسول الله صلى الله عليه وآله بجهاد أهل البغي وخاطب أصحابه قائلاً: إنّ منكم من يجاهد على تأويل القرآن كما جاهد على تنزيله، وأشار إليّ في كلامه هذا وكنت أوّل شخص أطاع رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا الأمر.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستعرض الجواب عمّا تبقّى من الرسالة وهو المقطع الذي ذكره السيّد الرضيّ في «نهج البلاغة» وسبق أن شرحناه.

وعلى ضوء ذلك يتبيّن صدق الإمام عليه السلام وصراحته في موقفه من معاوية وكذلك، تتبيّن وقاحة وحمق معاوية من جهة أخرى.

وقد تمسّك الطغاة على امتداد التاريخ بهذا المنطق المتلوّن، وقد أورد القرآن الكريم ببيان جليّ ذلك في قصة موسى عليه السلام وفرعون وذلك عندما دعا موسى عليه السلام الفراعنة للتوحيد وترك الظلم والجور وقال فرعون: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ

١. سورة الحجرات، الآية ٩.

يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾[1]، في حين أنّ المفسد الحقيقيّ في الأرض هو فرعون نفسه الذي كان يقتل حتّى الأطفال الأبرياء ويشقّ بطون الحوامل.

وفي ختام البحث يفرض علينا هذا السؤال نفسه، وهو أنّ معاوية مع علمه بكذبه في محتوى رسالته، وأنّه هو الذي شقّ عصا المسلمين وأثار الغبار حول إجماع المسلمين على البيعة، وهو الذي سلك طريق الانحراف والتمرّد والطغيان على الحكومة الإسلاميّة، وإن كان له عمل صالح في الماضي فقد أحبطه بما ارتكبه من حرب طاحنة ضد أميرالمؤمنين عليه السلام، وأنّه هو وأصحابه شركاء في قتل عثمان لا الإمام عليّ عليه السلام، إذن فلماذا يتّخذ لنفسه شخصيّة محقّة ويكتب للإمام تلك الرسالة الزاخرة بالأكاذيب والدجل؟

ويتبيّن الجواب عن كلّ هذه الاستفهامات إذا عرفنا هذه الحقيقة، وهي أنّ معاوية لم يكتب في الواقع هذا الكتاب للإمام عليّ عليه السلام بل كتبه لاستغفال أهل الشام وخلط الأوراق، وبذلك يريد أن يقول لهم إنّني إنسان صالح وأرفع لواء الصلح والعدالة، ولكن عليّ بن أبي طالب عليه السلام لا يستمع لكلامي ولا يرضخ لواقع العدل والحقّ، وفي الحقيقة أنّ عمله هذا يشبه ما قام به من رفع المصاحف على الرماح في معركة صفّين، ولم يكن معاوية وأصحابه يريدون تحكيم القرآن قطعاً، بل كانوا يريدون أن يخدعوا أهل الشام من جهة، ومن جهة أخرى العمل على إيجاد الفرقة والنفاق في جيش الإمام عليّ عليه السلام.

---

١. سورة غافر، الآية ٢٦.

٨

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلام

إلىٰ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِاللهِ الْبِجَلِيّ لَمّا أرْسَلَهُ إلىٰ مُعَاوِيَة[1]

نظرة إلى الرسالة

إنّ مضمون هذه الرسالة بيّنٌ وجليّ تماماً، فالإمام عليه السلام يريد من رسوله جرير أن يتمّ الحجّة على معاوية وأخذ البيعة منه، إذا أراد البيعة للإمام عليه السلام، وإن لم يكن مستعدّاً للبيعة، فعليه أن يكون مستعدّاً لقتاله.

---

١. سند الرسالة:

من الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيّد الرضيّ، نصر بن مزاحم في كتاب صفين وابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١١).

أَمَّا بَعْدُ، فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ، أَوْ سِلْمٍ مُخْزِيَةٍ، فَإِنِ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ إِلَيْهِ، وَإِنِ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

حلّ المشكل بآليات الصلح

جاء في المصادر التاريخية أنّ أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالبعليه‌السلام أرسل جرير إلى معاوية لأخذ البيعة منه بهذا الكتاب، وقد أوصل جرير هذا الكتاب لمعاوية، أخذ معاوية يسوّف بالأمر ويتباطأ في الجواب إلى أن ظنّ أصحاب أميرالمؤمنينعليه‌السلام به سوءً واتّهموه بالتعاطف والتعاون مع معاوية، حتّى قال الإمامعليه‌السلام عنه: إنّ جريراً لبث عند معاوية طيلة هذه المدّة فإمّا أن يكون مذنباً أو مخدوعاً.

ومن هنا كتب الإمامعليه‌السلام هذه الرسالة لجرير حتّى لا يطيل المسألة ويوصد بذلك باب المماطلة على معاوية وطلب منه أن يلزم معاوية بأحد أمرين: فإمّا البيعة أو الحرب، فالإمام يقول في هذه الرسالة:

«أَمَّا بَعْدُ - بعد الحمد والثناء الإلهيّ - فَإِذَا أَتَاكَ كِتَابِي فَاحْمِلْ مُعَاوِيَةَ عَلَى الْفَصْلِ[1]، وَخُذْهُ بِالْأَمْرِ الْجَزْمِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ بَيْنَ حَرْبٍ مُجْلِيَةٍ[2]، أَوْ سِلْمٍ

---

١. «الفصل» في الأصل بمعنى الفرقة والانفصال، ويطلع على الحكم القطعي الذي يصدر من القاضي وغير القاضي، لأنّه يفصل بين المتخاصمين ويميّز المسائل المشتبه بها.

٢. «مجلية» من «الإجلاء» بمعني إخراج من الوطن وأصله من «جلاء» بمعنى الوضوح والظهور، ولذلك يطلق

مُخْزِيَةٍ[١]، فَإِنِ اخْتَارَ الْحَرْبَ فَانْبِذْ[٢] إِلَيْهِ، وَإِنِ اخْتَارَ السِّلْمَ فَخُذْ بَيْعَتَهُ، وَالسَّلَامُ».

وعندما وصلت هذه الرسالة لجرير في الشام سلّمها بيد معاوية ونهض من مكانه وخطب بالناس وذكّرهم بقضية عثمان وأنّ جميع المسلمين بايعوا الإمام عليّ عليه السلام بدون تردّد، يعني أننا لو خلّينا ومسألة الخلافة لم نكن نختار غير الإمام عليّ عليه السلام.

تأمّل

من هو جرير بن عبدالله؟

يعتبر جرير بن عبدالله من مشاهير الصحابة، ومن قبيلة بجيلة من قبائل اليمن، وبجيلة اسم امرأة معروفة في تلك القبيلة حيث سمّيت قبيلتها باسمها، وتارة يسمّى الشخص بجليّاً لانتمائه إلى هذه القبيلة، وقد جاء جرير في السنة العاشرة للهجرة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله على رأس جماعة من مائة وخمسين رجلاً من قبيلة بجيلة، وأسلموا على يد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فاستقبله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بكلّ احترام، وعندما مدّ يده للبيعة قال: أقبل بيعتك بشرط أن تشهد بالتوحيد وتؤمن بالنبوّة وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتحب الخير للمسلمين وتصوم شهر رمضان وتطيع إمام المسلمين.

وسأله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عن أوضاع منطقته، فقال جرير: لقد ظهر الإسلام في هذه المنطقة وكسر الناس الأوثان، فقال: وما حال صنم «ذوالخلصة»؟

فقال: هذا صنم كبير بقي لحاله.

☜ على الخروج من المدينة وكأنّ الشخص كان مختفياً فيها ومع خروجه يظهر ويبرز إلى العيان، و «الجلاء» بمعنى تلميع الشيء وصقله، وكذلك نوع من ظهور اللون الحقيقي المستور تحت الصدأ.

١. «مخزية» من مادة «خزي» من باب افعال و «الخزي» تعني الفضيحة والذلة، ولعل أصلها من الفضيحة التي تسبب الذلة، وذهب جماعة من أرباب اللغة إلى أنّ جذره الأصلي سوء حال النتائج من وقوع البلاء والفضيحة والذلّة.

٢. «فانبذ» من مادة «نبذ» على وزن «نصر» في الأصل بمعنى القاء الشيء بعيداً لعدم اعتباره أو لكونه غير ذي قيمة، وأحياناً تأتي بمعنى الاعلام وكأنّ المتكلّم يطرح الكلمات إلى الطرف المقابل سواء كان هذا امضاء لعهد أو اعلاناً لحرب أو شيئاً آخر، وفي الجملة أعلاه ورد بمعنى إعلان الحرب.

فأمر النبيّ الأمر بتحطيم هذا الوثن، فتوجّه جرير مع مائتي نفر من قبيلته وبعد عدّة أيّام رجع إلى النبيّ وقال: والله لقد حطّمته وأحرقته أمام أعين عابديه.

وقد اشترك جرير مع قبيلته بجيلة في معركة القادسيّة، وكان سهمه كبيراً ومؤثراً في الفتح، وبعد ذلك نصبّه عثمان والياً على منطقة همدان، وبعد قتل عثمان ووصول كتاب أميرالمؤمنين عليه السلام إليه دعا جرير الناس للبيعة للإمام عليّ عليه السلام، وبعد مدّة جاء إلى الكوفة، ولمّا كان يتمتّع بشهرة لدى أهل الشام اختاره الإمام عليه السلام لإيصال رسالته إلى معاوية وبعثه إلى الشام، ولكنّه لم يستطع أداء مهمّته بشكل صحيح وعاد إلى الكوفة فظنّ به أهل العراق سوءً واتّهموه بالتواطؤ مع معاوية، فاستاء جرير من ذلك وعزم على التوجّه إلى جزيرة قرقيسا واختار العزلة هناك وترك النشاط السياسي والاجتماعي.

٩

ومن كلام له عليه السلام

إلى معاوية[1]

نظرة إلى الرسالة

بما أنّ هذه الرسالة بمثابة جواب على رسالة معاوية الوقحة والمهينة والمليئة بالخبث والشيطنة فإنّ رسالة الإمام عليه السلام هذه تجيب على شيطنة معاوية وخبثه وناظرة إلى الكشف عن زيف مدّعياته وأباطيله.

في أحد مقاطع هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما قام بالدعوة ونشر الرسالة الإلهيّة همّت جماعة من المشركين من قريش بقتل النبيّ، إلّا أنّ الله تعالى أنقذه منهم ومنع عتاة قريش من إجهاض الرسالة،

---

١. سند الرسالة:

يقول مؤلف كتاب مصادر نهج البلاغة بعد بيان كيفية كتابة هذه الرسالة، هذه القصّة مشهورة في كتاب صفين لنصر بن مزاحم، وأمّا ما ذكره السيد الرضي فيمثّل قسماً ختامياً للرسالة، ثم أضاف: وقد نقل هذه الرسالة كتّاب آخرون أيضاً في كتبهم، ومنهم:

١. ابن عبد ربه في العقد الفريد.

٢. البلاذري في كتاب انساب الأشراف.

٣. الشيخ المفيد في كتاب الفصول المختارة وقد أورد مقطعاً منها.

٤. الخطيب الخوارزمي في كتاب المناقب (والجدير بالذكر أنّ الثلاثة المتقدمين كانوا يعيشون قبل السيد الرضي) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢١٧).

وأنّ قريش كانت تتصدّر المتمرّدين والمخالفين لهذه الدعوة الجديدة.

وفي قسم آخر من الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة وهي أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله كان يجعل أهل بيته في ميدان القتال في الخطّ الأول للمواجهة، وبذلك يحفظ أصحابه من الخطر من خلال تضحية وجهاد أهل بيته وأرحامه، والشاهد على ذلك استشهاد حمزة وجعفر وآخرين من بني هاشم في ميادين الجهاد ضدّ قوى الكفر والباطل، وهذا الكلام في الحقيقة جواب على ادّعاء معاوية في رسالته أنّ غير بني هاشم كالخليفة الأول والثاني كانوا من أكثر الناس تحرّقاً للدعوة الجديدة واستعداداً للتضحية والفداء في سبيل الإسلام.

وفي المقطع الثالث من الرسالة يظهر الإمام عجبه الشديد كيف أنّ الدهر جعله في صفّ معاوية الذي لم يقدّم أيّ خدمة للإسلام ولا يملك أيّ سابقة في الدين؟

وأخيراً وفي القسم الرابع من الرسالة يتحدّث الإمام عليه السلام عن عدم قبوله لطلب معاوية فيما يخصّ تحويل قتلة عثمان، لأنّه إذا تقرّر محاكمة وإنزال العقوبة بقتلة عثمان، فهذا من شأن الحكومة الإسلاميّة لا من شأن شخص متمرّد على الحكومة.

والجدير بالذكر أنّ لمعاوية في رسالته وجواب الإمام عليّ عليه السلام عليها حكاية مثيرة ولا بأس من استعراضها من أجل الكشف بشكل أفضل عن مضمون رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية، والحكاية كالتالي:

«كان أبو مسلم الخولاني وهو من أهل اليمن قد أدرك عصر الجاهلية ولكنّه لم يؤمن بنبيّ الإسلام أبداً وكان يعيش في الغالب في الشام، وقد جاء إلى معاوية مع جماعة من أهل الشام قبل حركة الإمام عليّ عليه السلام باتجاه صفّين وطلب منه أن يجتنب قتال عليّ بن أبي طالب الذي يتمتّع بمقام شامخ ومنزلة كبيرة من جهة قرابته للنبيّ وسابقته في الإسلام وهجرته، وقال له بأنّك لا تملك مثل هذا الموقع الاجتماعي والديني الممتاز.

وفي مقام الجواب عن كلامهم توسّل معاوية بهذه الذريعة، وهي أنّ عليّ بن

أبي طالب قد أجار قتلة عثمان فلو أنّه دفعهم إليه ليقتصّ منهم فإنّه سيمتنع من قتاله، فطلب أبومسلم وأتباعه أن يكتب هذ الطلب إلى الإمام عليّ عليه السلام في رسالة ويبعثها إليه، فكتب معاوية رسالة بهذه المضمون وسلّمها إلى أبي مسلم ليوصلها إلى أميرالمؤمنين عليه السلام.

فجاء أبو مسلم بالرسالة إلى الإمام عليّ عليه السلام وسلّمها له بحضور جماعة من أصحابه ثم نهض واقفاً وتوجّه للإمام بالقول: إنّني لا أُحبّ أن تكون ولاية أُمور المسلمين بيد غيرك، ولكنّ عثمان قتل بغير حقّ، فادفع قتلته إلينا، فإن خالفك أحد فنحن سنكون في اختيارك.

فأجابه الإمام عليه السلام: ائتني غداً لتستلم جواب الكتاب، فجاء أبو مسلم في اليوم التالي لاستلام جواب الرسالة، فرأى المسجد حاشداً بالناس وكلّهم ينادي: نحن جميعاً اشتركنا في قتل عثمان.

واللافت أنّ اجتماع هذا الجمهور الغفير في المسجد كان بدافع أنّ الناس تصوّروا أن يقوم الإمام عليه السلام بتسليم قتلة عثمان إلى معاوية ليزيل أيّة ذريعة يمكن لمعاوية التمسّك بها، ومن هنا اجتمع أنصار الإمام عليه السلام وأتباعهم في المسجد ليؤكّدوا أنّ قاتل عثمان لا يمثّل شخصاً واحد أو عدّة أشخاص معدودين، ومع أنّ الإمام عليه السلام لم يكن يقصد أبداً تسليم بعض الأشخاص لمعاوية، فإنّ مثل هذا العمل ليس بالأمر الممكن عملاً.

وفي هذا الموقع سلّم الإمام عليه السلام جواباً مكتوباً لأبي مسلم لينقله إلى الشام ويسلّمه إلى معاوية، فقال أبو مسلم في نفسه: «الْآنَ طَابَ الضِّرابُ»[1] أي حان الأوان للقتال طلباً للثأر بدم عثمان.

وتبيّن من ذلك أنّ أبا مسلم وأتباعه كأنّهم لم يكونوا قد أدركوا هذه الحقيقة وهي أوّلاً: أنّ قتل عثمان وقع بعد انتفاضة شعبية عارمة ضدّه بسبب أعماله وتصرّفاته

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ٧٣ إلى ٧٥.

السلبية في إدارة الأمور، فلم يكن عمل شخص واحد أو عدد من الأشخاص.

وثانياً: على فرض أنّ الحكومة الإسلاميّة أرادت محاكمة قتلة عثمان والاقتصاص منهم، فإنّ هذه العمل لا يرتبط بشخص متمرّد كمعاوية بل هو من شأن رئيس الحكومة الإسلاميّة الذي انتخب من قِبل المهاجرين والأنصار وبايعه الناس.

*****

القسم الأوّل

فَأَرَادَ قَوْمُنَا قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَاحَ أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ وَفَعَلُوا بِنَا الْأَفَاعِيلَ، وَمَنَعُونَا الْعَذْبَ، وَأَحْلَسُونَا الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ، وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ، فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ، مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ.

الشرح والتفسير

بنو هاشم حماة الإسلام الأوائل

كما تقدّمت الإشارة إليه فإنّ هذه الرسالة تمثّل جواباً على رسالة معاوية، وبما أنّ معاوية في بداية رسالته قد ارتدى قناع الصلاح والإيمان وأخذ يتحدّث عن الإسلام وعظمة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأعوانه وأنصاره، وسعى لرفع مكانة الخلفاء الثلاثة زيادة عن الحدّ من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ والد معاوية هو أبو سفيان العدوّ الأول للإسلام الذي أشعل نار الحروب ضد الإسلام والمسلمين، فالإمام في هذا المقطع من الرسالة يقول:

«فَأَرَادَ قَوْمُنَا ـ قريش ـ قَتْلَ نَبِيِّنَا، وَاجْتِيَاحَ[1] أَصْلِنَا، وَهَمُّوا بِنَا الْهُمُومَ[2] وَفَعَلُوا بِنَا

---

١. «اجتياح» تعني الإهلاك، وهدم وتخريب، وأصلها من «جوح» على وزن «قوم» وتأتي بهذا المعنى المذكور.

٢. «هموم» جمع «همّ» بمعنى الأحزان، وأشكال القلق والاضطراب، التخطيط والتدبير، وهنا وردت بمعنى التآمر من قِبل قريش ضد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وهو يفضي إلى الغم والحزن الشديد، وأصل هذه المفردة بمعنى القصد، وبما أنّ القصد في كثير من الموارد يقترن بالقلق والحزن، فجاء بمعنى القلق والحزن أيضاً.

الْأَفَاعِيلَ[١]، مَنَعُونَا الْعَذْبَ[٢]، وَأَحْلَسُونَا[٣] الْخَوْفَ، وَاضْطَرُّونَا إِلَى جَبَلٍ وَعْرٍ[٤]، وَأَوْقَدُوا[٥] لَنَا نَارَ الْحَرْبِ».

هذه العبارات إشارة إلى مقطع مهمّ وعظيم من تاريخ الإسلام يبيّن فيها الإمام عليه السلام سلوك الأعداء وخاصة قبيلة قريش تجاه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهيّة، فقد واجه النبيّ والمسلمون في مكة صنوف الأذى من قريش والقذف بالحجارة والاستهزاء والتعذيب بمختلف الأشكال، وأخيراً عندما شعروا بالخوف من تقدّم الإسلام وامتداده في القبائل العربية حوالي مكة، عزموا على محاصرة المسلمين الذين كانوا ثلّة قليلة، اجتماعياً واقتصادياً وكتبوا ذلك الكتاب المعروف بأن لايتواصل أيّ شخص من قريش وسائر العرب مع المسلمين ولا يبيعونهم شيئاً ولا يشتروا منهم ولا يتزوّجوا منهم ولا يزوّجوهم، وختموا هذا العهد ووضعوه داخل الكعبة تأكيداً منهم على الالتزام بهذا الميثاق، والتجأ المسلمون إلى شعب أبي طالب[٦] الذي كان وادياً موحشاً ومليئاً بالأحجار وعاشوا هناك ثلاث سنوات من الحرمان الشديد تحت طائلة الحصار الاقتصادي، فكانت تلك الأيّام من أصعب الأيّام التي عاشها المسلمون مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله إلى درجة أنّ أصوات بكاء الأطفال والجائعين كانت تسمع من خارج الشعب، وأخيراً عندما أخبرهم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله

---

١. «الأفاعيل» جمع «أفعال» وهو جمع «فعل»، وفي هذه الموارد وردت بمعنى الأعمال الكبيرة وأشكال التآمر والدسيسة.

٢. «العذب» بمعنى الرواء الهنيء، وتارة يقصد به البعد الظاهري، والبعد الباطن والمعنوي.

٣. «احلسونا» أصلها «حلس» على وزن «حرص» وتعني القماش الناعم الذي يوضع تحت أقتاب الإبل، وفي الحقيقة يلتصق ببدن الإبل، ثم اطلق على كل شيء يلازم شيئاً آخر، مثلاً، يقال: فلان حلس البيت؛ يعني أنّه لا يخرج من بيته، والجملة أعلاه «أَحْلَسُونَا الْخَوْفَ» تعني أنّ الأعداء فرضوا علينا حالات الخوف والرعب الدائم.

٤. «وعر» الأرض الصعبة والمليئة بالأحجار وغير المعبدة.

٥. «اوقدوا» أصلها من «الإيقاد» بمعنى اشعال النار وهي من «الوقود» بمعنى إشعال الشيء.

٦. خلافاً لما يتوهم البعض من أنّ شعب أبي طالب هو محل قبر أبي طالب الذي يقع الآن على مقربة من جسر الحجون، لأنّه تفصله فاصلة كبيرة مع المسجد الحرام والكعبة، وشعب أبي طالب كان وادياً إلى جانب جبل أبي قبيس، ولذلك ورد في التواريخ أنّ صوت بكاء أطفال المسلمين من شدّة جوع والآلام الآخرى كان يسمع ليلاً في المسجد الحرام من ذلك الوادي.

بواسطة أبي طالب أنّ الأرضة قد أكلت وثيقة العهد في الكعبة سوى كلمة البسملة، فشعر الأعداء بالخوف الشديد واعتنق جماعة منهم الإسلام وطلب جماعة منهم أن يحرّروا المسلمين من هذا الحصار الآثم، وهكذا كسر طوق الحصار المضروب على المسلمين.

وجملة: «وَأَوْقَدُوا لَنَا نَارَ الْحَرْبِ» إشارة إلى حياة المسلمين في المدينة الذين خاضوا حروباً عديدة شنّها كفّار قريش عليهم. وعلى رأس قوى الكفر والشرك كان أبو سفيان والد معاوية، وكان الإمام عليّ عليه السلام في جميع هذه الحروب يمثّل أبرز المضحّين والمجاهدين الذين دافعوا عن النبيّ والإسلام في معركة بدر وأُحد والأحزاب وما إلى ذلك، وفي المقابل كانت أُسرة معاوية لها النصيب الوافر في إشعال نار هذه الحروب ضدّ النبيّ ورسالته السماوية، ومع كلّ ذلك يتحدّث معاوية عن عظمة الإسلام والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وعن أعوانه وأنصاره ويثني عليهم غاية الثناء ويذكر الإمام عليّ عليه السلام بوصفه حاسداً له ولأمثاله على مواقفهم المخزية.

وفي سياق هذه الرسالة يتقدّم الإمام عليه السلام لإبطال مزاعم معاوية الواهية في الدفاع عن الإسلام والمسلمين ويأخذ بيده إلى الماضي من تاريخ الإسلام والحوادث الواقعة فيه ويقول له: عندما تحرّك أعداء الإسلام ضدّ النبيّ والرسالة وحشدوا جميع قواهم لإجهاض الدعوة الجديدة، فإنّ الله تعالى أراد الدفاع عن رسالته بواسطتنا «فَعَزَمَ اللهُ لَنَا عَلَى الذَّبِّ[1] عَنْ حَوْزَتِهِ، وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ». (وفي ذلك الوقت كان بنوهاشم على مجموعتين وطائفتين، فطائفة منهم المؤمنون والأخرى الذين لم يلتحقوا بالإيمان والإسلام، وكلا الطائفتين هبّوا للدفاع عن الدين الحنيف «مُؤْمِنُنَا يَبْغِي بِذَلِكَ الْأَجْرَ، وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الْأَصْلِ» أي يدافع عن عشيرته وعن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بخلفيات عشائرية وبدافع الرحم.

وجملة: «وَالرَّمْيِ مِنْ وَرَاءِ حُرْمَتِهِ» كناية عن حفظ حريم الإسلام والنبيّ

١. «ذب» بمعنى دفع وأبعد ودافع.

الأكرمﷺ، لأنّ الرماة عادة يقفون خلف المتاريس للدفاع عن الجيش وحفظ أفراده، وعلى حدّ تعبير العلّامة المجلسي كلمة «وراء» في هذا المورد ربّما تشير إلى معنى المقدّم والأمام لأنّ الوراء أحياناً تأتي بهذا المعنى، وربّما تأتي بمعنى الخلف كما أنّ الرماة بحسب اللزوم والموقع الذي يفرضه ميدان المعركة يقبعون أحياناً خلف الجيش وأحياناً أخرى يتقدّمون الجيش.

وجملة «وَكَافِرُنَا يُحَامِي عَنِ الأَصْلِ» ذهب جماعة من مفسري نهج‌البلاغة أنّ هذه العبارة إشارة إلى بعض رموز بني هاشم مثل العباس، أبوطالب، وحمزة وأمثالهم الذين اشتهروا بالدفاع عن الإسلام والنبيّ الأكرمﷺ حتى قبل اعتناقهم الإسلام بدافع الوفاء للقيم القبلية وعواطف الرحم والقرابة.

والملفت للنظر أنّ بعض المحقّقين ذهب إلى أنّه عندما فرضت قريش الحصار الاقتصاديّ على النبيّ الأكرمﷺ والمسلمين في شعب أبي طالب كان بعض الأفراد من بني هاشم ممّن لم يعتنق الإسلام لحدّ الآن كالعباس، وعقيل بن أبي طالب وأخيه طالب بن أبي طالب ونوفل بن الحارث بن عبدالمطّلب وابنه الحارث وأخيه أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطلب (هو غير أبي سفيان بن حرب) كانوا يعيشون مع المسلمين في ذلك الشعب في حين لم يعتنقوا الإسلام بعد[1].

وطبعاً ذهب البعض إلى أنّ أبا طالب وحمزة كانوا قد اعتنقوا الإسلام قبل ذلك بمدّة إلّا أنّهما أخفيا إسلامهما لأسباب معيّنة.

هذا كلّه في حين أنّ أُسرة معاوية وأبي سفيان ومن لفّ لفّهم وكانوا يتآمرون على الإسلام والمسلمين جهاراً وخفية، وكأنّ معاوية قد نسي أو تناسى كلّ هذه القضايا التاريخية المسلّمة في رسالته وأخذ يتبجّح بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ويدّعي بأنّ بعض الأشخاص الذين لم يكونوا في ميدان الجهاد والدفاع أنّهم من زمرة المدافعين عن الإسلام والنبيّ الأكرمﷺ.

---

١. منهاج البراعة في شرح نهج‌البلاغة، ج ١٧، ص ٣٦٥.

ولذلك يضيف الإمام عليه السلام: أمّا سائر أفراد قريش من غير بني هاشم، ممّن أسلم فلم يكونوا في دائرة الخطر ولم يواجهوا ما واجهنا نحن من مصاعب لأنّهم كانوا يعيشون في إطار التحالفات والمعاهدات «وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قُرَيْشٍ خِلْوٌ[1] مِمَّا نَحْنُ فِيهِ بِحِلْفٍ يَمْنَعُهُ، أَوْ عَشِيرَةٍ تَقُومُ دُونَهُ، فَهُوَ مِنَ الْقَتْلِ بِمَكَانِ أَمْنٍ».

وعلى هذا الأساس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة وهي أنّ حماة الإسلام الحقيقيين هم بنوهاشم الذين آمنوا بالله ورسوله ودافعوا بأرواحهم ونفوسهم عن الإسلام والنبيّ، وحتّى من لم يسلم منهم كان يذبّ عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله احتراماً لمقامه ودفاعاً عن شرفه، أمّا سائر مكوّنات قريش من القبائل العربية ومنهم الخلفاء الثلاثة، الذين استعرض معاوية خدماتهم وتضحياتهم للإسلام، فلم يكونوا في صفّ المدافعين عن النبيّ والإسلام أبداً.

وطبعاً لم يكن معاوية غافلاً أو جاهلاً بتاريخ الإسلام، بل كان يتغافل عن الوقائع التاريخية لتبرير رؤاه وأفكاره.

---

١. «خلو» بمعنى خواء الشيء وكونه عارياً.

القسم الثاني

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ ـ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ، وَأَحْجَمَ النَّاسُ، قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَىٰ بِهِمْ أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ وَالْأَسِنَّةِ، فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ، وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ، وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ، وَمَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ. فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي أَحَدٌ بِمِثْلِهَا، إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ. وَالْحَمْدُ لِلّٰهِ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ.

الشرح والتفسير

حماة الإسلام الأوائل

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة بالتفصيل ما أجملَ بيانه سابقاً ويبيّن من هم الأشخاص من بني هاشم الذين بذلوا نفوسهم دفاعاً عن الإسلام وشربوا كأس الشهادة في سبيل التصدّي لقوى الكفر والشرك، في حين أنّ أشخاصاً ممّن ذكرهم معاوية بوصفهم قادة الإسلام ومن روّاد الدفاع عن الرسالة الإلهيّة لم يصلوا إلى هذا المقام، يقول:

«وَكَانَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ[1] وَأَحْجَمَ[2] النَّاسُ قَدَّمَ أَهْلَ بَيْتِهِ فَوَقَى بِهِمْ

---

١. «البأس» في الأصل بمعنى الشدّة والقوّة والقدرة، وتأتي بمعنى المشكلات الكبيرة والحرب، وجملة «لا بأس به» أي «لا مشكلة فيه» وجملة أعلاه «احمرّ البَأس» إشارة إلى شدّة ضراوة الحرب.

٢. «أحجَم» أصلها من «حجم» على وزن «رجم» بمعنى الامتناع عن عمل معين، وجملة «أحجَمَ النّاس» بمعنى أنّهم امتنعوا من الدخول إلى ميدان الحرب.

أَصْحَابَهُ حَرَّ السُّيُوفِ الأَسِنَّةِ[1]».

جملة: «احْمَرَّ الْبَأْسُ» إشارة إلى اشتعال نار الحرب، وبما أنّ الحرب تشبّه عادة بالنار التي تحمرّ في حال اشتدادها واستعارها، فلذلك استخدمت هذه الكناية، وقيل أيضاً أنّ الإحمرار هنا كناية عن كثرة سفك الدماء عند اشتداد المعركة والقتال.

إنّ العبارات المذكورة تشير إلى أنّ النبيّ الأكرمﷺ وخلافاً للقادة العسكريين في عالمنا المعاصر الذين يحتفظون بأبنائهم وأقربائهم في الخطوط الخلفية عند مواجهة الخطر ويبعثون الغرباء إلى الصفوف الإماميّة من المعركة، يقدّم النبيّ أعزّ أرحامه وأقربائه إلى الصفّ الأوّل من جبهات الحرب والقتال ليثبت أنّه على يقين من رسالته وأنّه يسلك في هذا السبيل حالات الانسجام التام بين أهدافه وسيرته ومستعدّ دوماً للتضحية في سبيل الغايات الإلهيّة التي يصبو إليها ويهدف لتحقيقها في واقع الحياة والمجتمع.

ثم إنّ الإمامعليه السلام في سياق كلامه يذكر ثلاثة أشخاص من أقربائه وأرحامه الذين شاركوا في الحروب وتصدّوا لقوى الكفر والانحراف ونالوا درجة الشهادة، أولهم «عبيدة بن الحارث» (وهو ابن عمّ النبيّ الأكرمﷺ الذي استشهد يوم بدر)، والثاني «حمزة بن عبدالمطلب» عمّ النبيّ الأكرمﷺ الذي استشهد يوم أُحد، والثالث «جعفر بن أبي طالب» ابن عمّ النبيّ الأكرمﷺ أيضاً الذي نال وسام الشهادة في معركة مؤتة، يقول الإمامعليه السلام: «فَقُتِلَ عُبَيْدَةُ بْنُ الْحَارِثِ يَوْمَ بَدْرٍ وَقُتِلَ حَمْزَةُ يَوْمَ أُحُدٍ وَقُتِلَ جَعْفَرٌ يَوْمَ مُؤْتَةَ».

«بدر» اسم بئر تقع بين مكة والمدينة وهي أقرب إلى المدينة، وسمّيت بهذا الإسم لأنّه اسم الحافر لها، وأمّا قصة استشهاد عبيدة بن الحارث على يد «عتبة ابن ربيعة» وأحد المشركين فهي:

عندما تقابل جيش المسلمين في معركة بدر مع جيش الكفر والشرك نزل للبراز

---

١. «أسنة» جمع «سنان» بمعنى رأس الرّمح.

ثلاثة أشخاص من شجعان المشركين، وفقاً لما كان متداولاً في ذلك الزمان كمقدّمة للقتال والحرب، وهم عتبة وأخيه شيبة وابنه وليد، وطلبوا من المسلمين أن يبرز إليهم من يقاتلهم، فتطوّع لهذه المهمّة بعض الأنصار وتوجهوا إلى الميدان لمقابلة هؤلاء المشركين الثلاثة، ولكنّ المشركين قالوا: نحن نريد أكفاءنا من قريش، فالتفت النبيّ الأكرمﷺ إلى حمزة وعبيدة والإمام عليّعليه السلام وقال: استعدّوا وتوجّهوا إلى هؤلاء الأعداء، فبرز عبيدة إلى عتبة وحمزة إلى شيبة وعليّ إلى الوليد، أمّا الإمام عليّعليه السلام فقد استطاع الإجهاز على الوليد بعد مناوشات قليلة، وأمّا حمزة فقد صرع شيبة، ولكن عبيدة الذي كان مسنّاً تقريباً بقي يقاتل عتبة، وأخيراً سقط عبيدة على الأرض وهو بالنزع الأخير وجيء به إلى النبيّ الأكرمﷺ، فعندما رأى النبيّ قال: هل أنا شهيد، فقال له النبيّﷺ: نعم أنت شهيد في سبيل الله.

أمّا حمزة بن عبدالمطلب فقد استشهد في معركة أُحد التي وقعت بعد واقعة بدر في السنة الثالثة للهجرة، وقتله شخص يدعى «وحشيّ» وهو اسم على مسمّىً، وأمّا أسباب هذه المعركة فقد ذكر المؤرخون: إنّ المشركين بعد هزيمتهم في معركة بدر رجعوا إلى مكة وأقسموا فيما بينهم (بقيادة أبي سفيان) أن يبيعوا بعض إبلهم ويجمعوا الأسلحة والعدّة للهجوم مرّة أخرى على المسلمين وكانت النتيجة أنّ المشركين استطاعوا من تحشيد ثلاثة آلاف نفر داخل وخارج مكة ومعهم مائتي فرس وثلاثة آلاف بعير وسبعمائة درع واستعدّوا للتوجّه إلى المدينة لمواجهة جيش الإسلام.

وقصة هذه الحرب فيها تفاصيل كثيرة، وإجمالاً نعلم أنّه بسبب اشتباه بعض المسلمين وتمرّدهم على أوامر النبيّ الأكرمﷺ انتهت هذه المعركة بانكسار وهزيمة الجيش الإسلامي وجرح فيها النبيّ وكسرت رباعيته بحجر رماه به «عتبة ابن أبي وقاص» واستشهد حمزة بطل الإسلام وعمّ النبيّ الأكرمﷺ، وجاءت هند زوجة أبي سفيان وأُم معاوية ومعها جماعة من النسوة إلى الميدان في نهاية المعركة

وأخذت تمثّل بشهداء المسلمين، فكانت تقطع آذان وأُنوف هؤلاء الشهداء وتجعل منها عقداً لها، ثم إنّها جاءت إلى جسد حمزة وبقرت بطنه وأخرجت كبده ولاكته بأسنانها بقصد أكله ولكنّها لم تتمكّن من ذلك، فقذفت به خارجاً، ومن هنا كان المسلمون يطلقون على هند «آكلة الأكباد» ويسمّون معاوية «ابن آكلة الأكباد».

أمّا «جعفر بن أبي طالب» فقد استشهد في غزوة مؤتة، وهذه المعركة وقعت في منطقة مؤتة على مقربة من الشام (الحدود الشمالية من جزيرة العرب) في السنة الثامنة للهجرة وكانت بداية هذه الحرب أنّ النبيّ الأكرمﷺ أرسل رسولاً من قِبله يدعى «الحارث بن عميرة» إلى حاكم «بُصرى» ودعاه إلى الإسلام، فعندما وصل منطقة مؤتة أمر حاكم بصرى بقتله، وهذا العمل يمثّل خرقاً للتقاليد الموجودة والعرف المتداول في ذلك الوقت بالنسبة للرسل والمبعوثين، وهذه السنّة جارية لحدّ الآن في الثقافات البشرية، وهذه المصيبة ثقلت على المسلمين بحيث أنّ النبيّ الأكرمﷺ جهّز جيشاً من ثلاثة آلاف رجل بقيادة زيد بن حارثة وأمره بمواجهة أهل الشام.

وقد أمر النبيّ الأكرمﷺ أنّه إذا استشهد زيد بن حارثة فإنّ جعفر هو الذي يتولى قيادة الجيش ويكون صاحب اللواء، وإذا استشهد جعفر بن أبي طالب، فصاحب اللواء عبدالله بن رواحة، وإذا استشهد عبدالله بن رواحة فإنّ على المسلمين أن يختاروا من بينهم رجلاً لقيادة الجيش.

وتحرّك الجيش الإسلاميّ حتّى وصل المحلّ الذي قتل فيه رسول النبيّ الأكرمﷺ ودعوا أُولئك القوم إلى الإسلام، ولكن عندما اطّلع الأعداء على مجيء جيش الإسلام قاموا بتحشيد جيش عظيم بلغ عدده مائة ألف رجل، ولكن المسلمين لم يتردّدوا أو يجبنوا أمام هذا العدد الكبير من جيش الأعداء الذي لا يقارن مع قلّة عدد المسلمين، وبدأت الحرب، وخاض المسلمون معركة صعبة في هذه المنطقة، وكما توقّع النبيّ الأكرمﷺ فقد استشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبدالله بن رواحة واحداً بعد الآخر وقطع الأعداء يدي جعفر، ولذلك

عندما أخبروا النبيّ الأكرمﷺ بالحدث بعد ذلك قال: «**إنّ الله قَدْ عَوَّضَهُ جَناحَيْنِ يَطِيرُ بِهِما في الجَنَّةِ**» فسمّي جعفر الطيار.

وأخيراً أخذ المسلمون يتداركون الأمر وأظهروا للأعداء أنّ هذا العدد من الجيش الإسلاميّ وهو ثلاثة آلاف رجل ما هو إلّا مقدّمة لجيش الإسلام العظيم الذي سيصل عمّا قريب، وعلى ضوء ذلك رأى الأعداء أنّ الانسحاب أفضل وعاد المسلمون بخسائر محدودة إلى المدينة من دون أيّة هزيمة تفرض عليهم من الأعداء، وفي الحقيقة أنّ هذه الحرب انتهت بدون انتصار العدوّ على المسلمين.

وممّا تقدّم أعلاه يتبيّن بجلاء صدق كلمات الإمامعليه السلام في رسالته، وكيف أنّ النبيّ الأكرمﷺ كان يقدّم أهل بيته وأرحامه من بني هاشم في المعارك الطاحنة بين قوى الإيمان وقوى الكفر والشرك، بينما كان يعيش الآخرون في الصفوف المتأخّرة خلافاً لما ذكره معاوية في رسالته.

ويستمرّ الإمامعليه السلام في رسالته مستخدماً أسلوب الكناية، والكناية أبلغ من التصريح في إشارة إلى نفسه المباركة وأنّه أيضاً مشتاق إلى الشهادة في سبيل الإسلام، ولكنّ الله تعالى لم يشأ له ذلك ولم يحن أجله ويقول: «**وَأَرَادَ مَنْ لَوْ شِئْتُ ذَكَرْتُ اسْمَهُ مِثْلَ الَّذِي أَرَادُوا مِنَ الشَّهَادَةِ وَلَكِنَّ آجَالَهُمْ عُجِّلَتْ وَمَنِيَّتَهُ أُجِّلَتْ**».

وهذه العبارة تؤكد على الأمر الذي كثيراً ما ذكره الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام وأنّه يشتاق إلى الشهادة كشوق الطفل الرضيع إلى لبن أمّه كما قال: «**وَ اللّٰهِ لَابْنُ أَبِي طَالِبٍ آنَسُ بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ**»[1]. أو ما ورد في الأحاديث الشريفة بعد انتهاء معركة أُحد عندما جاء الإمام عليّعليه السلام للنبيّ الأكرمﷺ وهو مهموم وقال: لقد استشهد جماعة من المسلمين (ومنهم عميّ حمزة) ولكنّي حرمت من الشهادة فقال له النبيّﷺ: «**يا عَليُّ أَبْشِرْ فَإنّ الشَّهادَةَ مِنْ وَرائِكَ**»[2].

---

١. نهج‌البلاغة، الخطبة ٥.

٢. المصدر السابق، الخطبة ١٥٦.

وبعد أن بيّن الإمام عليه السلام بأدلّة وشواهد قويّة دفاعه ـ هو وأهل بيته ـ المستميت عن الإسلام والنبيّ وأفضليّتهم على الآخرين، شرع بإظهار التعجّب ممّا أوقعه فيه الدهر، بمعنى أهل الدهر والناس الذين لم يدركوا هذه الحقائق وأنّه هو وأهل بيته مع كلّ هذه الفضائل قد جعلوه في عرض من ليست له مثل تلك الامتيازات والسوابق في تاريخ الإسلام، ولم يكن يملك أدنى امتياز في الشخصية والإيمان والجهاد: فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ! إِذْ صِرْتُ يُقْرَنُ بِي مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ كَسَابِقَتِي الَّتِي لَا يُدْلِي[1] أَحَدٌ بِمِثْلِهَا».

وقد تصوّر البعض من هذه العبارة أنّها إشارة إلى أنّ الناس كانوا يقارنون بين الإمام عليّ عليه السلام ومعاوية في حين أنّ مقصود الإمام عليه السلام يختلف عن هذا المعنى، فمراده في الحقيقة ناظر إلى رسالة معاوية وما ذكره من أنّ الخلفاء الثلاثة السابقين كانت لهم من الفضائل والسوابق في الإسلام حيث أخذ معاوية يتبجّح ويتفاخر بفضائل هؤلاء الخلفاء في مقابل الإمام عليه السلام. وإلّا فإنّ معاوية لم يشر في رسالته إلى سوابقه الإسلام، لأنّه أساساً لم يكن يملك أيّة سابقة حسنة في تاريخ الإسلام وإن كانت له سابقة فهي سابقة سوء في العداء للإسلام والمسلمين هو وقبيلته وآل بيت أبي سفيان.

وعلى أيّة حال فإنّ الإمام عليه السلام أبدىٰ تعجّبه من أهل زمانه ومنهم معاوية كيف أنّهم يقرنونه مع الخلفاء السابقين عليه، وهذا الكلام في الحقيقة يتناغم مع ما ورد في الخطبة الشقشقية حيث يقول: «مَتَى اعْتَرَضَ الرَّيْبُ فِيَّ مَعَ الْأَوَّلِ مِنْهُمْ حَتَّى صِرْتُ أُقْرَنُ إِلَى هَذِهِ النَّظَائِرِ». أي أعضاء شورى عمر بن الخطاب الذين جعلهم عمر بعده لاختيار الخليفة وجعل معهم الإمام عليّ عليه السلام كواحد من الشورى.

ولعلّ الأشخاص، الذين تصوّروا أنّ كلام أميرالمؤمنين عليه السلام هنا ناظر إلى مقارنته

---

١. «لا يدلي» من «الإدلاء» وتعني الاظهار والاعلان، ويقال: «أدلى برأيه» يعنى أظهر رأيه، وهي في الأصل من مادة «دلو»، وعندما تأتي من باب الإفعال تكون بمعنى ارسال الدلو إلى البئر لسحب الماء، ثم اطلقت على أي اظهار للرأي.

مع معاوية، كانوا تحت تأثير عبارة أخرى من كلام الإمام عليه السلام وردت في مورد آخر، ولكن إذا تمعّنوا في هذه النقطة اللطيفة، وهي أنّ رسالة الإمام عليه السلام في الواقع جواب على رسالة معاوية له، وفي تلك الرسالة تحدّث معاوية عن أفضليّة الخلفاء السابقين على الإمام عليه السلام، لزال هذا التوهّم، ومن هذا المنطلق يتبيّن أنّ مقصود الإمام عليه السلام هو ما ذكرناه آنفاً.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستمرّ في كلامه بالكناية البليغة أيضاً ويقول: «**إِلَّا أَنْ يَدَّعِيَ مُدَّعٍ مَا لَا أَعْرِفُهُ، وَلَا أَظُنُّ اللهَ يَعْرِفُهُ**»، أي أن يدّعي أحد بعض الفضائل لهؤلاء لا توجد لديهم في الواقع ولست مطّلعاً عليها ولا أتصوّر أنّ الله تعالى أيضاً مطّلع عليها لأنّها أساساً غير موجودة لديهم.

وهذا يشبه ما ورد في الآية الشريفة ١٨ من سورة يونس حيث يقول تعالى: ﴿**قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾، أي أنّ المشركين الذين يعبدون غير الله تعالى، ما لا يضرّهم ولا ينفعهم يقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، فيردّ عليهم القرآن الكريم بأنّ الله تعالى لا يعلم أنّ له مثل هؤلاء الشفعاء، لا في السموات ولا في الأرض.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في خاتمة الرسالة وبعد أن بيّن سوابق أهل البيت ومخالفيهم، يشكر الله تعالى ويقول: «**وَالْحَمْدُ لِلهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ**».

وجملة: «**فَيَا عَجَباً لِلدَّهْرِ**» لا تعني أنّ الإمام عليه السلام يعلم بمصائر الناس وبأنّ الدهر يملك تأثيراً في الحوادث الواقعة كما يعتقد الدهريون، بل مراده من الدهر هنا هو أهل الدهر الذين لم يعرفوا ولم يقدّروا مقام الإمام عليه السلام وما يقتضيه ويفرضه عليهم، حيث جعلوه قريناً لأشخاص لم يقدّموا أيّ شيء في سبيل الإسلام ولم يكن لديهم أيّ امتياز في تاريخهم، وعلى هذا الأساس كان عتب الإمام عليه السلام ناظر إلى أهل الزمان والدهر وإن كان الكلام متوجّهاً ظاهراً إلى الدهر نفسه.

وبعبارة أخرى أنّ حسن الدهر وقبحه يتمّ تشخيصه من خلال حسن الناس

وسوء أخلاقهم وسلوكهم كما يقول الشاعر:

يَعيبُ النّاسُ كُلُّهُمُ زَمَاناً وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْباً سِوَانَا

نَعيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيبُ فِينَا وَلَوْ نَطَقَ الزَمَانُ بِنَا هَجَانَا

ومفهوم جملة: «مَنْ لَمْ يَسْعَ بِقَدَمِي» أنّ مثل هؤلاء الأشخاص لم يتقدّموا بخطوة كما تقدّمت أنا في خطّ الرسالة والإيمان والحقّ، وهذا كناية عن أنّ الآخرين لم يقدّموا أيّة خدمة للإسلام كما قدّمت من تضحيات في سبيل الدفاع عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة.

ﮩﮪ

القسم الثالث

وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَىٰ غَيْرِكَ، وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ وَشِقَاقِكَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، وَلَا جَبَلٍ لَا سَهْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ.

الشرح والتفسير

ما أنت وقتلة عثمان؟!

نعلم أنّ معاوية كان قد طلب في كتابه من الإمام عليه السلام أن يسلّم إليه قتلة عثمان، وهذا الطلب غير معقول وبعيد عن المنطق، لأنّه لو تقرّر أن يقدّم شخص إلى المحاكمة والقصاص بسبب قتله لإنسان بريء فإنّ هذا العمل من شأن إمام المسلمين وخليفتهم الشرعيّ، ويتمّ ذلك بموافقة أولياء الدم، لا شخص متمرّد ولا يعتبر من أولياء الدم، هذا في صورة ما إذا ثبت أنّ المقتول كان بريئاً وأنّ القاتل أو القتلة مذنبون، ولذلك يقول الإمام في مقابل طلب معاوية هذا: «**وَأَمَّا مَا سَأَلْتَ مِنْ دَفْعِ قَتَلَةِ عُثْمَانَ إِلَيْكَ، فَإِنِّي نَظَرْتُ فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَلَمْ أَرَهُ يَسَعُنِي**[1] **دَفْعُهُمْ إِلَيْكَ وَلَا إِلَىٰ غَيْرِكَ**»، لأنّه لا علاقة لك بهذا الأمر، فلا أنت وليّ الدم ولا الحاكم الإسلاميّ ليكون طلباً مشروعاً ومعقولاً.

وبديهيّ أنّ مسألة طلب الثأر بدم عثمان لم تكن سوى ذريعة لرفع لواء الفرقة والشقاق ضدّ الإمام عليه السلام والإمتناع من البيعة له، وهذه المسألة من ناحية تاريخية إلى

---

١. «يسعني» من «الوَسع» بمعنى القدرة على عمل معين، وإمكانية العمل.

درجة من الوضوح بحيث كان يضرب بها المثل بين الناس عندما يريدون أن يقولوا بأنّ فلاناً يتمسّك بشيء لتبرير سلوكه أو لدعم وجهة نظره في مقابل المخالف، فيقال: «إنّ فلان جعل من القضية كقميص عثمان» ومعلوم أنّ الإمام عليّ‏عليه السلام لو سلّم لمعاوية بعض الأشخاص المتّهمين بقتل عثمان فإنّ معاوية لم يكن يقنع بذلك، بل سيستمر بالمطالبة بآخرين ويتذرّع دوماً بمثل هذه الذريعة والحجّة لدعم وتقوية أركان حكومته في الشام، وهذه الحالة تمثّل منتهىٰ الخسّة والانتهازية في مقابل إمام المسلمين.

أضف إلى ذلك فهناك الكثير من الأدلّة والشواهد التي تدلّ على أنّ معاوية ليس له الحقّ بأن يطلب من الإمام‏عليه السلام مثل هذا الطلب، والإمام‏عليه السلام بدوره لا ينبغي أن يهتمّ بمثل هذه الطلب، وعلاوة على ذلك أنّ مثل هذا الطلب لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع لأنّ انتفاضة المسلمين ضدّ عثمان كانت انتفاضة عامة وشاملة والشاهد على هذا الكلام القصّة التي يرويها الشارح البحراني في «شرح نهج‌البلاغة» حيث يقول:

«كما روي أنّ أباهريرة وأبالدرداء أتيا معاوية فقالا له: علام تقاتل عليّاً وهو أحقّ بالأمر منك لفضله وسابقته، فقال معاوية: لست اُقاتله لأنّي أفضل منه ولكن ليدفع إليّ قتلة عثمان، فخرجا من عنده وأتيا عليّاً، فقالا له: إنّ معاوية يزعم أنّ قتلة عثمان عندك وفي معسكرك، فادفعهم إليه فإنّ قاتلك بعدها علمنا أنّه ظالم لك، فقال عليّ‏عليه السلام: إنّي لم أحضر قتل عثمان يوم قتل ولكن هل تعرفان من قتله؟ فقالا: بلغنا أنّ محمّد بن أبي بكر وعمّار بن ياسر وعديّ بن حاتم وعمر وبن الحمق وفلاناً وفلاناً ممّن دخل عليه.

فقال عليّ‏عليه السلام: فامضيا إليهم فخذوهم.

فأقبلا إلى هؤلاء النفر وقالا لهم: أنتم من قتلة عثمان وقد أمر أميرالمؤمنين بأخذكم. قال: فوقعت الصيحة في المعسكر بهذا الخبر فوثب من عسكر عليّ أكثر

من عشرة آلاف رجل في أيديهم السيوف وهم يقولون: كلّنا قتلته، فبهت أبوهريرة وأبوالدرداء، ثم رجعا إلى معاوية وهما يقولان: لا يتمّ هذا الأمر أبداً، فأخبراه بالخبر، فإذا كان القائلون والمتعصبون لهم بهذه الكثرة فكيف يمكنه عليه السلام تسليمهم وتمكين أحد منهم؟»[1].

عندما يكون قتلة عثمان بهذا العدد من الكثرة فهل يستطيع الإمام عليه السلام أن يسلّمهم جميعاً أو يسلّم أحدهم إلى معاوية على فرض أنّ معاوية وليّ دم عثمان وأنّه يريد إقامة الحقّ والعدالة؟

ولكن بما أنّ معاوية في ختام رسالته هدّد الإمام عليه السلام بالقتال والحرب، فقد أجابه الإمام عليه السلام على هذا التهديد بالمثل وكتب في ختام رسالته عبارة شديدة اللهجة زاخرة بأنواع الفصاحة والبلاغة وقال: «وَلَعَمْرِي لَئِنْ لَمْ تَنْزِعْ عَنْ غَيِّكَ[2] شِقَاقِكَ[3] لَتَعْرِفَنَّهُمْ عَنْ قَلِيلٍ يَطْلُبُونَكَ، لَا يُكَلِّفُونَكَ طَلَبَهُمْ فِي بَرٍّ وَلَا بَحْرٍ، لَا جَبَلٍ وَلَا سَهْلٍ، إِلَّا أَنَّهُ طَلَبٌ يَسُوءُكَ وِجْدَانُهُ، وَزَوْرٌ[4] لَا يَسُرُّكَ لُقْيَانُهُ[5]، وَالسَّلَامُ لِأَهْلِهِ».

وهنا يذكّر الإمام عليه السلام بهذه العبارة الحكيمة معاوية بأنّ قتلة عثمان ليس كما تحسب أنّهم نفر قليل (على فرض أن يكونوا في جيشي) بل هم جماعة عظيمة سيأتونك سراعاً فلا تكلّف نفسك جهد البحث عنهم، أجل فعمّا قليل سيأتونك تباعاً وسيواجهونك في ميدان القتال وستعرف منهم ضربات السيوف والرماح وسوف تدور الدائرة عليك فلا تستطيع أن تتمسّك بعد ذلك بهذه الذريعة الواهية.

والواقع أثبت صحّة هذا الكلام ولولا بعض السذّج والمخدوعين في جيش

---

١. ترجمة شرح نهج‌البلاغة ابن ميثم، ج ٤، ص ٦٢٨، ومثل هذه الرواية وردت بتفاوت يسير في كتاب الفتوح لابن أعثم الكوفي، ج ٣، ص ٦١، ونقلنا عن أبي‌مسلم الخولاني مثله.

٢. «غيّ» و «غواية» بمعنى ضلال وإضلال بمعنى الوقوع في المتاهة.

٣. «شقاق» بمعنى الفرقة والنفاق وعدم الانسجام، وهي بالأصل الشق وانفصال الجانبين في الشيء.

٤. «زَور» تارة تأتي بمعناها المصدري وتعني اللقاء والملاقاة، وأحياناً تأتي بمعنى الزائر، وفي الجملة وردت بالمعنى الأول.

٥. «لقيان» و «لقاء» مصدر بمعنى الملاقاة.

الإمام عليّ عليه السلام الذين انطوت عليهم حيلة عمرو بن العاص في رفع المصاحف على الرماح؛ لكان الإمام عليه السلام قد انتهى من معاوية وحكومته في الشام وأزاح هذه الفتنة من واقع الأُمّة الإسلاميّة وأراح المسلمين منها.

تأمّل

كلام عن قتلة عثمان

بالرغم من أنّنا بحثنا أكثر من مرّة عن واقعة قتل عثمان والعوامل التي أدّت إلى انتفاضة المسلمين ضدّه، نرى من اللازم أيضاً الإشارة إلى نقطة أخرى في هذا المجال بشكل موجز.

إنّ من بين أصحاب الإمام عليّ عليه السلام مَن شهد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لهم بالجنّة، وكانوا ممّن يرون أنّ عثمان يستحقّ القتل بسبب البدع التي اختلقها في أيّام خلافته.

يقول نصر بن مزاحم في كتابه (صفين): إنّ عمّار بن ياسر وقف في أحد الأيّام في معركة صفين بين أصحابه وقال: امضوا معي عباد الله إلى قوم يطلبون فيما يزعمون بدم الظالم لنفسه، الحاكم على عباد الله بغير ما في كتاب الله، إنّما قتله الصالحون المنكرون للعدوان، الآمرون بالإحسان، فقال هؤلاء الذين لا يبالون إذا سلمت لهم دنياهم ولو درس هذا الدين: لم قتلتموه؟ فقلنا: لإحداثه. فقالوا: إنّه ما أحدث شيئاً، وذلك لأنّه مكّنهم من الدنيا، فهم يأكلونها ويرعونها ولا يبالون لو سقطت عليهم الجبال، والله ما أظنهم يطلبون دمه إنّهم ليعلمون أنّه الظالم، ولكن القوم ذاقوا الدنيا فاستحبّوها واستمرأوها وعلموا لو أنّ صاحب الحقّ لزمهم لحال بينهم وبين ما يأكلون ويرعون فيها، ولم يكن للقوم سابقة في الإسلام يستحقّون بها الطاعة والولاية، فخدعوا أتباعهم بأن قالوا: قتل إمامنا مظلوماً ليكونوا بذلك جبابرة وملوكاً، وتلك مكيدة قد بلغوا بها ما ترون»[1].

---

١. صفين، ص ٣١٩.

وعندما يقرّ مثل هذا الرجل العظيم وهو عمّار بن ياسر الذي هو من أهل الجنّة بمشاركته بقتل عثمان ويستدلّ لذلك بما اختلقه عثمان من البدع الخطيرة في الإسلام، فمن البديهيّ أنّ الإمامعليه السلام لا يسمح لنفسه بتسليم مثل هؤلاء الأشخاص من المهاجرين والأنصار والتابعين، إلى معاوية ليقتلهم.

إنّ الباعث على ثورة الناس ضدّ عثمان يمكن بيانه في خمسة أمور:

١. تعطيل الحدود والموازين الإلهيّة في أيّام خلافة عثمان.

٢. تقسيم بيت المال بين بني أُميّة.

٣. تعيين أفراد من بني أُميّة في المناصب الحسّاسة في الحكومة الإسلاميّة.

٤. ضرب وجرح أصحاب النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله كعبدالله بن مسعود وعمّار بن ياسر.

٥. تبعيد ونفي الشخصيّات الإسلاميّة الكبيرة كأبي‌ذرّ، مالك الأشتر، صعصعة ابن صوحان وأخيه، وعمرو بن الحِمَق الخُزاعي.

إنّ أمواج المخالفة والاعتراض ضدّ عثمان اتّسعت واشتدّت إلى درجة أنّ أفراداً كعبدالرحمن بن عوف الذي كانت له يد الطولى في نصب عثمان واستلامه الخلافة في مسألة الشورى الستّة الذين نصبهم عمر بن الخطاب لتعيين الخليفة من بعده، اعترض عليه وأصبح من مناوئيه، وينقل المؤرخون أنّ عبدالرحمن ـ لهذا الأسباب المتقدّمة ـ قطع علاقته مع الخليفة الثالث ولم يتحدّث معه إلى نهاية عمره، وحتى عندما جاء عثمان لعيادته وهو في حال مرضه أعرض بوجهه عن الخليفة ولم يتحدّث معه بكلمة[1].

ومن بين هؤلاء المعترضين على عثمان كانت عائشة زوجة النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله تعترض أكثر من الآخرين على أعمال عثمان، وعندما أمر عثمان بضرب عمّار ابن ياسر أخرجت عائشة ثوب النبيّ ونعله وقالت: أيّها الناس! هذا ثوب النبيّ ونعله لم

١. انساب الأشراف البلاذري، ج ٥، ص ٥٧؛ تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١١٣؛ العقد الفريد، ج ٢، ص ٢٥٨ و ٢٦١ و ٢٧٢.

يجفّا بعد وقد نسيتم سنّته.

وقد ذكر المؤرّخون عبارة مشهورة لعائشة في حقّ عثمان حيث كانت تقول: «اقْتُلُوا نَعْثَلاً قَتَلَ اللهُ نَعْثَلاً»[1] وتقصد به عثمان بن عفّان.

ومن جملة المعترضين والمخالفين لعثمان، طلحة والزبير اللذان كانا ينتقدان سياسة عثمان وتصرّفاته كثيراً، ومن العجيب أنّ هذين الرجلين خرجا بعد ذلك ومعهما عائشة للطلب بدم عثمان في مواجهة الخليفة الحقّ يعني أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام الذي بايعاه قبل ذلك وكان من أمر خروجهما ومعركة الجمل ما كان.

على أيّة حال فإنّ الأشخاص الذين حرّكوا الناس ضدّ عثمان بأقوالهم وبتحريضهم وبذلك مهّدوا الأرضية لقتل عثمان؛ أكثر من أن نحصيهم في هذا المقال.

إنّ العوامل الخمسة المذكورة أعلاه جعلت الكثير من المسلمين في المراكز الإسلاميّة كالكوفة والبصرة ومصر يتوجّهون إلى المدينة لأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويجتمعون إلى أنصارهم ومؤيّديهم لبحث الأزمة في مركز الخلافة ويجبروا الخليفة على التوبة والعودة إلى تعاليم الإسلام أو يعتزل سدّة الحكم ويفوّض أمر الخلافة إلى غيره، وبذلك حاصرت الجماهير بيت الخليفة وطلبوا منه التوبة بإرسالهم رسالة إليه.

وقد سعى عثمان الذي لم يكن يعلم بعمق الاعتراض الجماهيري والسخط الشعبيّ إلى إنهاء الاضطرابات من خلال تعيين بعض الأشخاص من ذوي السعة كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص في مركز الخلافة والقرار، ولكنّ الناس لم يقبلوا بهما ورفعوا نداء الاعتراض ضدّهما.

وبعد اشتداد الأزمة بدأ عثمان يتوسّط لدى أميرالمؤمنين عليه السلام لتخفيف وتهدئة الأوضاع المضطربة، وكان الإمام عليه السلام في كل مرّة يعمل على تهدئة الأوضاع بتدابيره الحكيمة، ولكن للأسف كان عثمان فاقداً للإرادة القوية وكان خاضعاً بشكل تامّ

---

١. النهاية لابن الأثير الجزري، ج ٥، ص ٨٠ و شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٧٧ و ج ٦، ص ٢١٥.

لإرادة عناصر فاسدة في جهاز الحكومة كمروان بن الحكم حيث كان يستشيره في كل مرّة ولا يعمل بنصائح أميرالمؤمنين عليه السلام ولا يقيم لسعيه الإصلاحيّ وزناً.

وأخيراً قام المعترضون والثوّار بمحاصرة دار الخليفة ومنعوا عنه الماء في هذه المرّة، وفي هذه الأثناء قام أميرالمؤمنين عليه السلام وبطلب من الخليفة ومساعدة بني هاشم بنقل الماء بالقربة إلى دار الخليفة عثمان، حتى أنّ بعض أفراد بني هاشم في خضّم هذا الصراع أُصيبوا بجراح من قِبل الثوّار والجمهور الذي يحاصر دار عثمان.

وقد كتب عثمان في أيّام الحصار هذه رسالة إلى معاوية وطلب منه أن يرسل له المدد والعون ولكن معاوية لم يهتمّ لرسالة عثمان ولم يرتّب عليها أثر يذكر وكان يقول: إنني لا أُخالف صحابة النبيّ، ولم يكن هدف المحاصرين بيت الخليفة قتله، بل كانوا يريدون استسلام عثمان وأعوانه ورضوخهم لمطالبهم من خلال منع الماء والطعام عنهم، ولكن سوء تدبير مروان بن الحكم الذي قتل أحد الثوّار أدى إلى تفاقم الأزمة وهجومهم على دار الخليفة.

وكانت شدّة الهجوم إلى درجة بحيث إنّ بني أُمية الذين كانوا يحرسون الدار ويدافعون عن الخليفة وأعوانه، فضّلوا الهرب من الميدان، حيث قامت أُم حبيبة زوجة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وبنت أبي سفيان «وكانت أيضاً من بني أُميّة بإخفائهم في دارها»، ولكن ثلاثة أشخاص من أعوان الخليفة الذين لم يتمكّنوا من الفرار قتلوا على يد المهاجمين، وأخيراً قتل عثمان أيضاً على أيديهم، وفي هذ المجال كان لبعض الأفراد دور كبير في هذه النهاية الدامية ومنهم: محمد بن أبي بكر وكنانة ابن بُشر التجيبي وسودان بن حمران المرادي وعمرو بن الحَمِق الخُزاعيّ وعمير ابن الصابي[1].

---

١. تاريخ الطبري، ج ٥، ص ١١٨ وما بعدها وكامل لابن الأثير، ج ٣، ص ٧٠ وما بعدها. لتحقيق أكثر انظر إلى كتاب فروغ ولاية عن الاستاذ جعفر السبحاني، ص ٣٢٧-٣٣٥ و شرح نهج‌البلاغة لابن أبي لحديد، ج ٢، ص١٢٩ تا ١٥٨، ذيل الخطبة ٣٠.

١٠

ومن كلام له عليه السلام

إليه أيضاً[1]

نظرة إلى الرسالة

تتألف هذه الرسالة من أربعة أقسام:

القسم الأوّل ينصح الإمام عليّ عليه السلام معاوية ويحذّره من المصير الأليم يوم القيامة والعواقب الوخيمة المترتّبة على تصرّفاته المعادية والمغرضة، رغم أنّ الإمام عليه السلام يعتبره أسير الشيطان وأنّه لا أمل في هدايته.

والقسم الثاني يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة، وهي أنّ معاوية كيف يستطيع إدارة أمور الأُمّة الإسلاميّة وتولّي شؤونها في حين أنّه لا يملك أيّة سابقة محمودة في تاريخ الإسلام ولا ينتمي إلى أُسرة شريفة ومؤمنة؟!

وفي القسم الثالث منها يبيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقة وهي أنّه يدعو معاوية إلى

---

١. سند الرسالة:

نقل هذه الرسالة نصر بن مزاحم في كتاب صفين قبل السيّد الرضيّ، وبعد السيد الرضي ذكرها ابن عساكر في كتاب تاريخ دمشق في شرح حال معاوية، وما ذكره السيّد الرضيّ في نهج البلاغة لا يمثّل جميع هذه الرسالة، فالرسالة تبتدىء بمقدّمة وردت في كتاب مصادر نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٢٠).

والرسالة المذكورة لها خاتمة وردت في كتاب نهج البلاغة الكامل.

ترك الناس وعدم إقحامهم في الحرب وأن يأتي هو بنفسه إلى الميدان ليواجه الإمام عليه السلام بمفرده ويحسم بذلك مصير الأُمّة ويعيد إلى الأذهان ما مضى من تاريخ الإسلام حيث كان المسلمون يقاتلون إخوانهم وآباءهم وبني عمومتهم على الإسلام والإيمان.

وأخيراً في القسم الرابع من هذه الرسالة يطرح الإمام عليه السلام ذريعة معاوية في الطلب بدم عثمان ويقول: إنّك تعلم جيداً من هو القاتل لعثمان، فلماذا لا تتوجّه إليه وتترك المسلمين وشأنهم؟ وفي نهاية الرسالة يقول: إنني أرى عمّا قريب صراخك وصراخ جيشك في ميدان الحرب وسوف تلحق بك الهزيمة بعد الهزيمة وتضطرّ أخيراً إلى اللجوء إلى كتاب الله في حين أنّك لا تؤمن به.

القسم الأول

وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ تَبَهَّجَتْ بِزِينَتِهَا، وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا. دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، وَقَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا. وَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَىٰ مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ، فَاقْعَسْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ مِنْ سَمْعِكَ، وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، وَجَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ.

الشرح والتفسير

نظرة إلى الأفق الغائم

رأينا آنفاً أنّ هذه الرسالة تبتدىء بكلمات لم يذكرها السيّد الرضيّ في «نهج البلاغة». فالإمام عليه السلام في بداية هذا الكتاب بعد الحمد والثناء على الله تعالى أشار إلى سرعة انقضاء الدنيا وزوال الحياة وخاطب معاوية بالقول: يا معاوية أنت تدّعي شيئاً لست من أهله، لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا تملك الدليل على إثبات مدّعاك (جدارتك بالحكومة والخلافة على المسلمين) وليس لديك شاهد من القرآن الكريم أو من الأحاديث النبويّة الشريفة. ثمّ إنّ الإمام عليه السلام أخذ ينبّه معاوية على عواقب التكالب على الدنيا وزخارفها ويحذّره من الوقوف أمام الله تعالى يوم القيامة لعلّه ينتبه لخطئه ويرعوي عن سلوكه ويتحرّك في الصراط المستقيم، يقول الإمام عليه السلام: «وَكَيْفَ أَنْتَ صَانِعٌ إِذَا تَكَشَّفَتْ عَنْكَ جَلَابِيبُ[1] مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ دُنْيَا قَدْ

---

١ . «جلابيب» جمع «جلباب» على وزن «مفتاح» (وهذه المفردة ترد بكسر الجيم وفتحها وتعني العباءة، قطعة القماش التي تغطّي جميع البدن، وتطلق على الثوب الواسع والطويل).

تَبَهَّجَتْ[١] بِزِينَتِهَا وَخَدَعَتْ بِلَذَّتِهَا».

ثم يضيف الإمام عليه السلام: إنّ هذه الدنيا هي التي دعتك وخدعتك إلى بريقها وزخارفها وقد أجبتها وأسرعت إليها وسلّمت إليها قيادك وعقلك: «دَعَتْكَ فَأَجَبْتَهَا، قَادَتْكَ فَاتَّبَعْتَهَا، وَأَمَرَتْكَ فَأَطَعْتَهَا».

والإمام عليه السلام في هذه العبارات يطرح تشبيهات رائعة للدنيا وبريقها ويشبّهها بالملابس البرّاقة والملوّنة التي يلبسها المرء ويزهو بها أمام الآخرين، أو بمثابة الجلباب الذي يغطّي به الإنسان رأسه، وزخارف الدنيا تخدع الإنسان ولذّتها تجذبه إلى خطّ الهاوية والضلالة، فالأشخاص الذين يتحرّكون في خطّ الأهواء والشهوات والذين لا يعرفون حقيقة الدنيا سيقعون في فِخاخِها سريعاً ومن أجل الاستفادة من زينتها ولذّاتها سيجدون أنفسهم مضطرّين لاتّباع أوامرها والامتثال لمطالبها، وبذلك يبتعدون عن طريق الحقّ والإيمان ويتحرّكون في متاهات الضلالة ومنزلقات الخطيئة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى عاقبة هذا المسار المنحرف ويقول: «وَإِنَّهُ يُوشِكُ[٢] أَنْ يَقِفَكَ وَاقِفٌ عَلَىٰ مَا لَا يُنْجِيكَ مِنْهُ مِجَنٌّ[٣]، فَاقْعَسْ[٤] عَنْ هَـذَا الْأَمْرِ، وَخُذْ أُهْبَةَ[٥] الْحِسَابِ، وَشَمِّرْ[٦] لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ، وَلَا تُمَكِّنِ الْغُوَاةَ[٧] مِنْ سَمْعِكَ».

---

١. «تبهّجت» من مادة «بهج» و «بهجة» بمعنى الجمال والطراوة، و «والتبهّج» بمعنى الشعور بالفرح بسبب رؤية الجمال.

٢. «يوشك» من مادة «وشك» على وزن «كبت» تعني الإسراع في المشي، وعليه فإنّ كلمة «يوشك» تدلّ على أنّ الأمر الفلاني سرعان ما يتحقق (والصحيح «يوشِك» بكسر الشين، وتارة تأتي بفتحها).

٣. «مجنّ» بمعنى الدرع.

٤. «أقعس» صيغة أمر من مادة «قعس» على وزن «نفس» وفي الأصل بمعنى بروز الصدر إلى الأمام وانبعاج الظهر، ثم اطلقت على كل تكاسل واهمال في عمل معين، وجاءت في العبارة أعلاه بهذا المعنى، يعني: يجب عليك يامعاوية أن تتراجع عن الخلافة.

٥. «أهبة» بمعنى تهيئة وسائل العمل.

٦. «شمّر» من ال«تشمير» وأصلها من «شمر» على وزن «تمر» بمعنى جمع الأمور وقطف الثمار والاستعداد لقدوم قادم، وتعني في التهيؤ لأداء عمل معين.

٧. «غواة» جمع «غاوي» المضل.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في هذه العبارات عن جذور الإنحرافات التي وقع فيها معاوية وكذلك يشير إلى طريق الحلّ والعلاج حيث يقول: إنّ أفضل طريق لنجاتك من هذه المتاهة هو أن تعزل حكومة الشام وتأخذ الأهبة للحساب الإلهيّ.

وجملة «شَمِّرْ لِمَا قَدْ نَزَلَ بِكَ» إمّا إشارة إلى الحوادث الأليمة والوخيمة التي ستصيب معاوية وأعوانه في هذه الدنيا، أو إشارة إلى الحوادث والعاقبة الأليمة التي ستلحق بهم في الآخرة (والاحتمال الثاني أنسب في المقام) وعلى أية حال بما أنّ هذه الحوادث حتمية الوقوع فإنّ الإمام عليه السلام ذكرها بصيغة الماضي.

ثم إنّ الإمام عليه السلام في سياق كلامه لمعاوية يستعمل لغة التهديد ببعض الأمور المعنوية ويقول: إنّك إن لم تعمل بما أمرتك به وأرشدتك إليه فذلك لأنّك تعيش الغفلة عن العاقبة الوخيمة التي تنتظرك، وأنّ السبب في ذلك طغيانك وغرورك بالنعمة «وَإِلَّا تَفْعَلْ أُعْلِمْكَ مَا أَغْفَلْتَ مِنْ نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ مُتْرَفٌ[1] قَدْ أَخَذَ الشَّيْطَانُ مِنْكَ مَأْخَذَهُ، وَبَلَغَ فِيكَ أَمَلَهُ، جَرَى مِنْكَ مَجْرَى الرُّوحِ وَالدَّمِ».

وقد ذهب بعض المحقّقين إلى أنّ «إِلَّا تَفْعَلْ ...» إشارة إلى أنّ الإمام عليه السلام يهدد معاوية في هذه العبارة بالحرب، ومراده من إعلامه هو الإعلام العمليّ، ولكن مثل هذا المفهوم لا يستوحى من أيٍّ من العبارات والجمل المذكورة قبل هذه الجملة وبعدها، بل إنّ مجموعة هذه الكلمات والعبارات توحي بالنصيحة وتثير في المخاطب اليقظة والانتباه.

واللافت أنّ معاوية قد هدّد الإمام عليه السلام في رسالته بالحرب، ولكن الإمام عليه السلام هدّده بسيطرة الشيطان عليه ووقوعه في شباكه وحذّره من هذا المصير السيّء.

---

١. «مترف» هو الشخص الذي يملك نعماً ومواهب كثيرة، وبما أنّ ذلك قد يسبب غالباً الطغيان فالمترفين هم الأشخاص الأثرياء الذين يعيشون حالة الطغيان والتمرّد.

القسم الثاني

وَمَتَىٰ كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ. وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ الْأُمْنِيَّةِ، مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ.

الشرح والتفسير

حذارِ من الغفلة

في هذا المقطع من الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى حقيقة عدم صلاحيّة معاوية وبني أُمية لاستلام أمر الحكومة ومقاليد السلطة على الأُمّة الإسلاميّة حتى الحكومة على جزء من البلاد الإسلاميّة، لأنّه يعلم أنّ مسألة الطلب بدم عثمان وأمثالها ليست سوى ذريعة بيد معاوية لإيهام الناس واستغفالهم، بينما الغرض الأصليّ منها أن يفرض حكومته وسيطرته على أهل الشام بوصفه حاكماً إسلامياً، يقول الإمام عليه السلام: «وَمَتَىٰ كُنْتُمْ يَا مُعَاوِيَةُ سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ، وَوُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ؟ بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ، وَلَا شَرَفٍ بَاسِقٍ[1]».

صحيح أنّ أُسرة بني أُمية وأسلافهم كانوا حكّاماً في ما مضى على قريش، ولكنّ هذا الأمر يتعلّق بزمان الجاهلية وعصر الكفر والشرك، وعبارة «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تبيّن أنّ مقصود الإمام عليه السلام هو عصر ظهور الإسلام، لأننا نعلم أنّ بني أُمية وعلى رأسهم أبي سفيان كانوا عند ظهور الإسلام يقفون في الجبهة المخالفة للرسالة الجديدة وكانوا يدافعون عن الشرك والكفر ويسيرون في خطّ الضلالة.

---

١. «باسق» بمعنى المرتفع من «البسوق» على وزن «طلوع».

وعبارة «سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ» و «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» يمكن أن تكون من قبيل العطف والتفسير وأنّ كلا هاتين الجملتين إشارة إلى الحكومة الإسلاميّة، ولكن يحتمل أيضاً أنّ عبارة «سَاسَةَ الرَّعِيَّةِ» تتعلّق بمرحلة ما قبل الإسلام، وعبارة «وُلَاةَ أَمْرِ الْأُمَّةِ» تتعلّق بما بعد ظهور الإسلام في جزيرة العرب، لأنّ بني أُمية قبل الإسلام لم يكونوا سوى ولاة أمر قبيلتهم فقط، في حين أنّ كلمة الرعيّة توحي بالمعنى الواسع للكلمة، وبعبارة أخرى إنّ أهل مكة كانوا تحت زعامة عبدالمطلب وبعده تحت زعامة أبي طالب.

والإمام عليه السلام في عبارته «بِغَيْرِ قَدَمٍ سَابِقٍ ...» يشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الحكومة ومسألة قيادة وزعامة الأُمّة الإسلاميّة تستلزم توفّر الشروط والضوابط ومنها أن يكون الشخص ذا سابقة في الإسلام ويكون شريف النسب، في حين أنّ معاوية هو ابن أبي سفيان الذي كان يقف في خطّ المواجهة مع النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله إلى آخر لحظة، وقصّة تلوث أُم معاوية معروفة ومشهورة في كتب التاريخ.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يحذّر معاوية في ثلاث جمل ويقول أولاً: «وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ لُزُومِ سَوَابِقِ الشَّقَاءِ».

هذه الجملة يحتمل كونها إشارة إلى أنّ معاوية، وبسبب العوامل الوراثية السلبية الصالحة التي انتقلت إليه من أبيه وأمّه، (أبي سفيان وهند آكلة الأكباد) وحركته في خطّ الباطل والشرك ومواجهة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهيّة مع أبيه، قد وفّر الأرضية لنفسه للشقاء والانحراف والتوغّل في خطّ الضلالة، وهذا ما لا يمكن الخلاص منه إلّا بتهذيب النفس والسعي الجادّ في تغير المسار.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يذكر في الجملة الثانية «وَأُحَذِّرُكَ أَنْ تَكُونَ مُتَمَادِياً فِي غِرَّةِ[1] الْأُمْنِيَّةِ[2]»، أي أنّ الغفلة الناشئة من الآمال والطموحات الموهومة تقود صاحبها في

١. «غرّة» بمعنى الغفلة والجهل وعدم الاطلاع والغرور.

٢. «الأمنيّة» بمعنى الأمل، وأصلها «منى» على وزن «رمي» بمعنى التقدير والفرض ويطلق على الآمال تمني

طريق الشيطان والتمرّد على الحقّ.

وهذه الجملة ناظرة إلى ما أشارت إليه الروايات الإسلاميّة مراراً، وهو أنّ الآمال العريضة والطموحات البعيدة من شأنها إبعاد الإنسان عن طريق الحقّ وعن الإيمان بالله واليوم الآخر بحيث يغفل الإنسان حتّى عن واقعه وما يصلحه في هذه الدنيا: «وَأَمّا طَولُ الأمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»[1].

وفي الجملة الثالثة يقول الإمام عليه السلام: إنّي أُحذّرك أن تكون ممّن يختلف ظاهره عن باطنه، وتظهر للناس الإسلام والإيمان، ولكنّك تبطن الشرك وعقائد الجاهلية (مُخْتَلِفَ الْعَلَانِيَةِ وَالسَّرِيرَةِ).

وهذه الجملة إشارة إلى نفاق معاوية الذي يطالب بدم عثمان ويدافع عن مقام الخلافة في الظاهر ولكنّه في الباطن ليس له هدف سوى الحكومة على الشام، ونعلم أنّ حالة النفاق والازدواجية في الشخصيّة لدى المنافقين هي أشدّ خطراً من الشرك، لأنّ المسلمين يعرفون تكليفهم الشرعيّ في مقابل المشركين وأعداء الإسلام في حين أنّهم لا يعرفون الموقف الصحيح من المنافقين بسبب تسترّهم بقناع الإسلام والإيمان الظاهريّ وطعنهم الإسلام من ورائه.

☜ والأُمنية بسبب أنّ الإنسان يقدر لنفسه الكثير من الأمور في عالم الخيال ويتعلق بها قلبه، ومفردة أُمنية تأتي غالباً في موارد الطموحات والأمال البعيدة والتي لا تتحقق في الواقع العملي.

١. الكافي، ج ٢، ص ٣٣٥، ح ٣.

القسم الثالث

وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَىٰ قَلْبِهِ وَالْمُغَطَّىٰ عَلَىٰ بَصَرِهِ! فَأَنَا أَبُو حَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذٰلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذٰلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَىٰ عَدُوِّي، مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً. وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ.

الشرح والتفسير

أنا أتحرّك دوماً في خطّ الحقّ والهداية

يبيّن الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة جواباً آخر على ما ذكره معاوية في رسالته، حيث هدّد معاوية الإمام عليه السلام بكلمات وقحة وغير مسؤولة بالحرب واتّهم الإمام عليه السلام بأنّه قد غطّى على عينه بحجاب الأنانية وأمّا قلبه قد أصابه الصدأ والرين!! وما يثير العجب أنّ شخصاً من بقايا عصر الجاهلية وابن لأشدّ أعداء الإسلام والمسلمين يتحدّث بهذا الكلام مع من قد ملأ الإيمان قلبه وعاش منذ طفولته إلى نهاية عمره في خدمة الإسلام والدفاع عن المسلمين ويعدّ أشجع العرب على الإطلاق.

وعلى أية حال، يقول الإمام عليه السلام: «وَقَدْ دَعَوْتَ إِلَى الْحَرْبِ، فَدَعِ النَّاسَ جَانِباً وَاخْرُجْ إِلَيَّ، وَأَعْفِ الْفَرِيقَيْنِ مِنَ الْقِتَالِ، لِتَعْلَمَ أَيُّنَا الْمَرِينُ عَلَىٰ قَلْبِهِ، وَالْمُغَطَّىٰ عَلَىٰ بَصَرِهِ».

وهكذا نرى الإمام عليه السلام في هذه العبارة بدون أن يخاطب معاوية بمثل العبارات التي خاطبه بها، يجيب على تهديد معاوية جواباً حاسماً وقاطعاً بأنّك إذا كنت

صادقاً في تهديدك بالحرب، فبدلاً من سفك دماء المسلمين من كلا الطرفين ينبغي عليك أن تأتي إلى الميدان بمفردك وتقف أمامي للنزال، ومعلوم أنّ معاوية لا يجد جواباً على مثل هذه الاقتراح، لأنّه لم يكن يوم من الأيّام رجل الميدان ولا يجد في نفسه الشجاعة الكافية لمواجهة الإمام عليه السلام في مواقع الخطر.

ويذكر الشيخ مغنية في كتابه الإمامة والسياسة نقطة ملفتة للنظر، وهي أنّ هذه الرسالة عندما وصلت معاوية قال عمرو بن العاص لمعاوية: هل تخشى على نفسك من مواجهة عليّ بن أبي طالب، فوالله لأذهب إليه حتّى لو قتلت ألف مرّة، وبذلك برز عمرو بن العاص في حرب صفّين في مقابل الإمام عليه السلام فما كان من الإمام إلّا أن ضربه بقناته فسقط على الأرض ولم يجد عمرو بن العاص شيئاً ينقذه من الهلكة المحتومة سوى أن ينزع عنه لباسه ويبدي عورته، لأنّه يعلم أنّ الإمام يستحي من ذلك ويعود من حيث أتى، ويسلم بذلك عمرو من الهلكة.

ولهذا السبب قال معاوية بعد ذلك لعمرو بن العاص: أمران قد أنقذاك من الهلكة، الأول عورتك، والثاني حياء عليّ بن أبي طالب.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام قال تأييداً لكلامه «**فَأَنَا أَبُوحَسَنٍ قَاتِلُ جَدِّكَ وَأَخِيكَ وَخَـالِكَ شَدْخاً يَوْمَ بَدْرٍ، وَذَلِكَ السَّيْفُ مَعِي، وَبِذَلِكَ الْقَلْبِ أَلْقَىٰ عَدُوِّي**».

ونعلم أنّ «عتبة بن ربيعة» والد هند أمّ معاوية قتل في غزوة بدر في مقابل «عبيدة بن الحارث» ابن عمّ الإمام عليّ عليه السلام، فقد هبّ الإمام لمساعدة عبيدة في هذه الواقعة وقتل عتبة، وكان «شيبة بن أبي سفيان» أخو معاوية قد بارز في هذه المعركة حمزة عمّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وقد أعان الإمام عليه السلام حمزة على قتله، وأمّا خال معاوية «الوليد بن عتبة» فقد بارز الإمام عليه السلام في هذه الواقعة وقتله الإمام عليه السلام.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كلمة «شدخ» بمعنى كسر الشيء الأجوف، فتعبير الإمام عليه السلام هذا يبيّن هذه الحقيقة، وهي أنّ جدّ وخال وأخا معاوية قتلوا في معركة بدر وأنّ جماجمهم كانت فارغة من العقل والتفكير السليم.

وبالرغم من أنّ معاوية استخدم في رسالته كلمات نابية وشديدة إلّا أنّها كانت خاوية وفاقدة للمحتوى، بينما استخدم الإمام عليّ عليه السلام عبارات أكثر انسجاماً وقوّةً، وعميقة المعاني، وبينما كان معاوية يدعو إلى الحرب بين طائفتين، كان الإمام عليّ عليه السلام يدعوه إلى القتال منفردين، أي يطلب المبارزة بينه وبين معاوية وجهاً لوجه.

ورأينا أنّ معاوية يتحدّث في رسالته عن مدّعيات خاوية دون إسنادها بالمدارك التاريخية، بينما نرى أنّ الإمام عليّ عليه السلام أخذ بيد معاوية إلى الماضي من صدر الإسلام وبيّن له سوابقه التاريخية في معركة بدر وأنّه هو عليّ بن أبي طالب الذي قتل جدّه وأخاه وخاله وأئمّة الكفر والشرك من قبيلته، وأنّ سيفه هو ذلك السيف الذي مرّغ به أُنوف عتاة المشركين والمردة من قوى الكفر، وأنّ قلبه هو ذلك القلب الشجاع الذي كان يقاتل به المشركين في معارك صدر الإسلام.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة أخرى وهي ثباته واستقامته في خطّ الإسلام والإيمان ويقول: لم أبتدع في الدين شيئاً ولا اخترت نبيّاً غير نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله فأنا أتحرّك في الطريق القويم والصراط المستقيم: «مَا اسْتَبْدَلْتُ دِيناً، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً. وَإِنِّي لَعَلَى الْمِنْهَاجِ الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ، وَدَخَلْتُمْ فِيهِ مُكْرَهِينَ».

وهذه إشارة إلى أنّ أباسفيان وأذنابه وأعوانه دخلوا الإسلام مكرهين يوم فتح مكّة والشواهد التاريخية الإسلاميّة تشير إلى أنّهم لم يعتنقوا الإسلام أبداً، ولم يؤمنوا طواعية، ولذلك بعد استلام بني أُمية أزمّة الحكم ومقاليد السلطة في زمان الخليفة الثالث، سحق الكثير منهم أصول الإسلام وسنّة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله تحت أقدامهم ونهبوا بيت مال المسلمين واستأثروا بفيئهم وحرموا بذلك الطبقة المستضعفة والمحرومة ممّا يستحقونه من هذه الأموال.

وقد تبيّن ممّا ذكر آنفاً أنّ مراد الإمام عليه السلام من قوله: «الَّذِي تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ»، يتعلّق بموقفهم بعد قبولهم الإسلام ظاهراً، أي أنّهم في البداية قبلوا بالإسلام مكرهين، ثمّ عندما استلموا مقاليد السلطة نقضوا سنن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله واحدة بعد

الأخرى، والشاهد على هذا الكلام أنّ الإمامعليه السلام قـال: «مَـا اسْـتَبْدَلْتُ دِيـناً، وَلَا اسْتَحْدَثْتُ نَبِيّاً» أيّ أنّني لم أغيّر ولم ابتدع في الدين شيئاً، وعلى ضوء ذلك فإنّ ما ذهب إليه جمع من شرّاح نهج بالبلاغة في جملة «تَرَكْتُمُوهُ طَائِعِينَ» وأنّها تعود إلى عدم قبولهم للإسلام قبل فتح مكة، لا يبدو تفسيراً صحيحاً نظراً لما ذكره الإمامعليه السلام عن نفسه، وخاصّة أنّ مفردة «ترك» تقال في مورد يكون الإنسان قد قِبل شيئاً قبل ذلك أو ذهب إلى مكان معيّن وتركه بعد ذلك.

تأمّلان

١. مقارنة شجاعة الإمامعليه السلام بالأعداء

من النقاط الملفتة للنظر ما ذكره أصحاب السير والتواريخ عن مقدار شـجاعة معاوية وعمرو بن العاص، فالمؤرّخ المعروف «الواقـدي» وطـبقاً لمـا نـقله ابـن أبي‌الحديد عنه في شرح نهج‌البلاغة يقول:

«قال معاوية يوماً ـ بعد استقرار الخلافة له ـ لعمرو بن العاص: يـاأباعبدالله لا أراك إلّا ويغلبني الضحك، قال: بماذا؟ قال: أذكر يوم حمل عليك أبـو تـراب فـي صفّين فأزريت نفسك فرقاً من شبا سنانه، وكشفت سـوءتك له. قـال عـمرو بـن العاص: أنا منك أشدّ ضحكاً، إنّي لأذكر يوم دعاك إلى البراز فانتفخ سحرك وربـا لسانك في فمك، وغصصت بريقك، وارتعدت فرائصك، وبدا منك ما أكره ذكره لك، فقال معاوية: لم يكن هذا كلّه، وكيف يكون ودوني عكّ والأشـعريّون!، قـال: إنّك لتعلم أنّ الذي وصفت دون ما أصابك، وقد نزل ذلك بك ودونك عكّ والأشعريون، وكيف كانت حالك لو جمعكما مأقط الحرب. فقال: ياأبا عبدالله خض بنا الهزل إلى الجدّ «إنَّ الجُبنَ وَالفِرارَ مِنْ عَلِيٍّ لاَ عَارَ عَلَىٰ أَحَدٍ فِيهِمَا»[١].

---

١. ومن النقاط التاريخية الملفتة للنظر ما وقع نظير هذه القصة عن بسـر بـن ارطـاة الذي يـعتبر مـن شـجعان ☜

٢. هل كان معاوية حاضراً في معركة بدر؟

يقول ابن أبي‌الحديد: سألت النقيب أبا زيد (استاذه) عن معاوية، هل شهد بدراً مع المشركين؟ قال: نعم، شهدها ثلاثة من أولاد أبي سفيان: حنظلة، عمرو ومعاوية، قتل أحدهم وأُسر الآخر، وأفلت معاوية هارباً على رجليه وقد انتفخ رجلاه وورمت ساقاه، فعالج نفسه شهرين حتى بریء.

قال النقيب أبوزيد: ولا خلاف عند أحد أنّ علياًعليه السلام قتل حنظلة وأسر عمراً أخاه ولقد شهد بدراً وهرب على رجليه من هو أعظم منهما ومن أخيهما، عمرو ابن عبدودّ فارس يوم الأحزاب، شهدها ونجا هارباً على قدميه وهو شيخ كبير وارتثّ جريحاً، فوصل إلى مكة وهو وقيذ فلم يشهد أُحداً، فلما بریء شهد الخندق فقتله قاتل الأبطال، والذي فاته يوم بدر استدركه يوم الخندق.

ثم قال لي النقيب «رحمه الله»: أما سمعت نادرة الأعمش ومناظرته فقلت: ما أعلم ما تريد؟ فقال: سأل رجل الأعمش وكان قد ناظر صاحباً له: هل معاوية من أهل بدر أم لا؟ فقال له: أصلحك الله، هل شهد معاوية بدراً، فقال: نعم من ذلك الجانب.

ويشير الإمامعليه السلام أيضاً في أحد كتبه إلى قصّة فرار معاوية ويقول: وأذكر ما لست له ناسياً يوم قتلت أخاك حنظلة وجررت برجله إلى القليب، وأسرت أخاك عمراً وجعلت عنقه بين ساقيه رباطاً، وطلبتك، ففررت ولك حصاص فلولا أنّي لا أتبع فارّاً، لجعلتك ثالثهما[1].

العرب، فينقل ابن عبد البر في كتابه الاستيعاب (ج ١، ص ١٦٤) أنّ بسر كان حاضراً مع معاوية في صفين، فشجعه معاوية على قتال أميرالمؤمنين وقال: «كان بسر من الأبطال الطغاة وكان مع معاوية بصفين، فأمره أن يلقى علياًعليه السلام في القتال، وقال له: إنّي سمعتك تتمنّى لقاءه، فلو أظفرك الله به وصرعته حصلت على الدنيا والآخرة، ولم يزل يشجعه ويمنّيه حتى رأى علياًعليه السلام في الحرب، فقصده والتقيا فصرعه عليعليه السلام، وعرض له معه مثل ما عرض له مع عمرو بن العاص في كشف السوأة» (شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٦، ص ٣١٦ و ٣١٧).

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ٨٤- ٨٥.

القسم الرابع

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً، فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ ضَجِيجَ الْجِمَالِ بِالْأَثْقَالِ، وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَى كِتَابِ اللهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ.

الشرح والتفسير

المستقبل المظلم والأفق المشؤوم للعدو!

وفي آخر قسم من رسالة الإمام عليه السلام لمعاوية يتحدّث الإمام عليه السلام مرّة أخرى عن قصّة قتل عثمان التي جعلها معاوية ذريعة لتمرّده ومخالفته للإمام عليّ عليه السلام وطلب بالثأر لدم عثمان فيقول الإمام: «وَزَعَمْتَ أَنَّكَ جِئْتَ ثَائِراً[1] بِدَمِ عُثْمَانَ. وَلَقَدْ عَلِمْتَ حَيْثُ وَقَعَ دَمُ عُثْمَانَ فَاطْلُبْهُ مِنْ هُنَاكَ إِنْ كُنْتَ طَالِباً».

وهذا إشارة إلى أنّه إذا أردت من شارك بدم عثمان فاطلبه من أصدقائك طلحة والزبير، وإذا كنت تطلب الأشخاص الذين تركوه وحيداً ولم يمدّوا له يد العون ويغيثوه، فأنت الذي كتب إليك عثمان يطلب منك ولم تجبه، لم تتقدّم خطوة في هذا السبيل، وعليه فأنت لست صادقاً بدعواك بطلب الثأر لدم عثمان، وإن كنت صادقاً لزمك أن تسلك غير هذا المسلك.

---

١. «ثائر» بمعنى المطالب بدم المقتول، وهي من مادة «ثأر» على وزن «سأل»، وعندما تطلق هذه الكلمة على بعض المعصومين عليهم السلام، «يا ثارالله» يعني الشخص الذي ينتقم لله لا لفرد معين أو قبيلة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يرسم مستقبل معاوية وأعوانه والحرب ضدّهم ويتنبّأ له بالأفق المظلم ويقول: «فَكَأَنِّي قَدْ رَأَيْتُكَ تَضِجُّ مِنَ الْحَرْبِ إِذَا عَضَّتْكَ[1] ضَجِيجَ الْجِمَالِ[2] بِالْأَثْقَالِ».

وكما هو معلوم فإنّ هذه النبوءة قد تحقّقت على أرض الواقع في معركة صفّين عندما ضيّق جيش الإمام الخناق على جيش معاوية، ووصل مالك الأشتر على مقربة من سرادق معاوية، ولم يبق إلّا القليل ليصل إليه ويقتله، وفي ذلك الوقت ارتفع صراخ معاوية وأتباعه طالبين إنهاء القتال برفع المصاحف.

وفي تنبّؤ آخر يقول الإمام عليه السلام: «وَكَأَنِّي بِجَمَاعَتِكَ تَدْعُونِي جَزَعاً مِنَ الضَّرْبِ الْمُتَتَابِعِ، وَالْقَضَاءِ الْوَاقِعِ، وَمَصَارِعَ بَعْدَ مَصَارِعَ، إِلَىٰ كِتَابِ اللهِ، وَهِيَ كَافِرَةٌ جَاحِدَةٌ، أَوْ مُبَايِعَةٌ حَائِدَةٌ[3]».

وهذا التنبّؤ وقع أيضاً بشكل كامل عندما رأى جيش الشام أنّهم عاجزون عن مجابهة أنصار الإمام عليّ عليه السلام وعاشوا المحنة والقتل المتتابع في صفوفهم، رفع جماعة منهم مع عمرو بن العاص المصاحف على رؤوس الرماح وقالوا: إننا نسلّم أمرنا إلى كتاب الله ونحتكم إليه في هذا الأمر، في حين أنّ هذه الجماعة من أهل الشام لا يعتقدون بكتاب الله ويكفرون بما أنزل الله، لأنّهم لم يبايعوا إمام الحقّ، وفيهم جماعة أخرى ممّن بايع الإمام عليه السلام ولكنّهم نكثوا بيعتهم خلافاً لجميع الأصول والمبادىء الإسلاميّة المعروفة والتقاليد العربية، والتحقوا بمعاوية وأعداء الإمام في هذه الواقعة.

وطبعاً ربّما يثير البعض هذا السؤال، وهو أنّ تعبير الإمام عليه السلام هذا يفتح المجال أمام استغلال الأعداء لكتاب الله عندما يشاهدوا نهايتهم المخزية على الأبواب،

---

١. «عضّ» من «العضّ» بمعنى الامساك بالأسنان.

٢. «جمال» جمع «جمل» بمعنى الإبل؛ مثل «جبال» جمع «جبل».

٣. «حائدة» بمعنى المائلة عن الطريق المستقيم من مادة «حيد» على وزن «صيد» أي الميل إلى أحدى الجهات، وهذه المفردة تأتي بمعنى نقض البيعة.

ولكنّ هذا الكلام غير صحيح، لأنّ الإمامعليه السلام أشار بشكل مجمل إلى هذه الواقعة بحيث لم تكن هذه الإشارة المجملة مفهومة لدى معاوية وأتباعه، لأنّ هذا الكلام يتحدّث عن الدعوة إلى كتاب الله فقط، رغم أننا اليوم نعرف تفاصيل الواقعة التاريخية وما حدث في معركة صفّين من استغلال المصاحف لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من فلول جيش الشام، فهذه الإشارة في كلام الإمام تعتبر إشارة معبّرة.

تأمّل

التنبّؤات الواقعة

إنّ تنبؤات الإمام عليّعليه السلام في هذه الرسالة التي كتبها لمعاوية قد تحقّقت على أرض الواقع بشكل تام، لأنّ القتال بدأ على أشدّه في صباح يوم الثلاثاء من العاشر من شهر صفر سنة ٣٧ للهجرة بعد صلاة الصبح، فتقاتل الجيشان ودارت بينهما رحى الحرب، فكانت الدائرة على جيش الشام الذين تزعزعت مواقعهم وأحسّوا بالضعف والانهيار أمام جيش الإمامعليه السلام الذي كان يتقدّم بقيادة مالك الأشتر في أرض المعركة، ولم يبق من انهيار جيش الشام وقتل معاوية أو أسره إلّا القليل، يقول عمّار بن ربيعة: كان مالك الأشتر واقفاً بين أنصاره وأتباعه ويقول: «فداكم أُمّي وأبي وجميع عشيرتي، اهجموا عليهم هجمة واحدة ويفرح الله لكم وأُعزّوا بذلك دينه، فانظروا إليَّ حين أهجم عليهم فاهجموا بدوركم معي».

وهكذا كان مالك الأشتر غارقاً في صفوف الأعداء يقاتل ببسالة وهو حاسر الرأس وقد وضع مغفره على قربوس السرج، وهو ينادي: اصبروا يامعشر المؤمنين فقد حمي الوطيس... يقول ابن أبي‌الحديد: لله من أُمّ قامت عن الأشتر لو أنّ إنساناً يقسم أنّ الله تعالى ما خلق في العرب ولا في العجم أشجع منه إلّا استاذه عليّعليه السلام لما خشيت عليه الإثم.

وأخيراً استطاع مالك الأشتر وأنصاره من تدمير صفوف جيش الشام وتحطيم

كلّ مقاومة أمامهم وقتلوا حملة الألوية، فوصلوا إلى الخيام، وقد استمرّ القتال حتّى تلك الليلة التي سمّيت «ليلة الهرير»[١].

وفي هذه المعركة كان مالك الأشتر قائداً على ميمنة الجيش، وابن عباس على الميسرة، والإمام عليّ عليه السلام بالقلب وقد لاحت بوادر النصر المؤزّر على ضدّ جيش الشام، وبلغ معاوية الخبر فطلب عمرو بن العاص وقال له: ياعمرو إنّما هي الليلة حتّى يغدو عليّ علينا بالفيصل، فماترى؟ قال: إنّ رجالك لا يقومون لرجاله، ولست مثله، هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره، أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء، وأهل العراق يخافونك إن ظفرت بهم، وأهل الشام لا يخافون عليّاً إن ظفر بهم، ولكن إلقِ إلى القوم أمراً إن قبلوه اختلفوا، وإن ردّوه اختلفوا، إدعهُم إلى كتاب الله حكماً فيما بينك وبينهم، فإنّك بالغ حاجتك في القوم، وإنّي لم أزل أُؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه.

فعرف معاوية ذلك وقال له: صدقت.

وهكذا وقع ما كان يخشى منه ممّا أسلفنا بيانه[٢].

١. «هرير» في اللغة بمعنى عواء الكلب عند التألم، وهذا إشارة إلى أنين أهل الشام وصراخهم في تلك الليلة.

٢. انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٢، ص ٢٠٥-٢٥٦.

١١

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

وَصّىٰ بِهَا جَيشاً بَعَثَهُ إلَى العَدُوِّ[١]

نظرة إلى الرسالة

نقرأ في شرح سند هذه الرسالة أنّها تمثّل قسماً من رسالة أرسلها الإمام عليه السلام إلى رجلين من قادة جيشه عندما تحرّك الجيش نحو صفّين، وتقدّم أنّ الإمام عليه السلام جعل مالك الأشتر أميراً على هذين الرجلين.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الرسالة عن جميع الأمور الهامّة التي تتعلّق بأساليب القتال والدفاع في مواجهة العدوّ وكيفية الاستفادة من الفرص وتجنب الوقوع في كمين الأعداء وكيفية حماية أفراد الجيش في الليل عند استراحة المقاتلين، وغير

---

١. سند الرسالة:

لقد أورد هذه الرسالة نصر بن مزاحم الذي كان يعيش ٢٠٠ سنة قبل السيد الرضي في كتابه صفين، والحسن ابن شعبة الحرّاني في تحف العقول والدينوري في كتاب الاخبار الطوال. وابن ميثم البحراني الذي يعد أحد شرّاح نهج البلاغة أورد هذه الرسالة مع إضافات مهمّة وهذا يشير إلى وجود مصادر غير نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٢٤).

وصرّح صاحب المصادر إلى أنّ هذه الرسالة تمثّل قسماً من رسالة مطولّة أرسلها الإمام عليه السلام إلى زياد بن النضر الحارثي وشريح بن هانيء من قوّاد جيش الإمام عليّ عليه السلام. وقد وردت هذه الرسالة أيضاً في كتاب نهج البلاغة الكامل برقم ١ من رسائل الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في ص ٩٤٥.

ذلك من المسائل الدقيقة التي تتّصل بمسؤوليات القيادة العسكرية، والحقيقة أنّ دقة نظر الإمام‌عليه السلام هنا إلى درجة من العمق بحيث أنّ هذه التوصيات والتعليمات للإمام‌عليه السلام يمكن الاستفادة منها في الجيش الإسلامي في كلّ عصر وزمان.

٭٭٭

فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ، فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ، أَوْ سِفَاحِ الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ الْأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ رِدْءاً، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً. وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ، وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ الْهِضَابِ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ. وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ. وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً، وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً.

الشرح والتفسير

الاستعداد الصحيح للجيش

يبيّن الإمامعليه السلام في هذه الرسالة والتوصية العسكرية سبعة تعاليم وتوصيات عسكرية مهمّة، وكيفية المواجهة الدقيقة لجيش الأعداء، وضمان النصر على العدوّ، وهذا يبيّن دقّة نظر الإمامعليه السلام في المسائل التي تتّصل بقيادة الجيش وترتيب وضعه العسكري في ميادين القتال. يقول الإمامعليه السلام: «فَإِذَا نَزَلْتُمْ بِعَدُوٍّ أَوْ نَزَلَ بِكُمْ فَلْيَكُنْ مُعَسْكَرُكُمْ فِي قُبُلِ الْأَشْرَافِ[1]، أَوْ سِفَاحِ[2] الْجِبَالِ، أَوْ أَثْنَاءِ[3] الْأَنْهَارِ، كَيْمَا يَكُونَ لَكُمْ

---

١ . «أشراف» جمع «شرف» على وزن «هدف» بمعنى المكان المرتفع والتعبير بـ«قبل الأشراف» يعني أمام المرتفعات.

٢ . «سفاح» في الأصل معنى انهمار الماء وجريانه، ثم اطلق على جانب الجبل، لأنّ الماء ينهمر منه، وتأتي هذه المفردة كناية عن الزنا.

٣ . «اثناء» جمع «ثنى» على وزن «صنف» بمعنى الملتوي والمطاوي، وهذه المفردة «اثناء» تأتي بمعنى وسط الشيء.

رِدْءاً[١]، وَدُونَكُمْ مَرَدّاً[٢]».

ويبيّن الإمام عليه السلام الغرض من هذه التوصية ويقول بأنّ الجيش إذا كان يتّخذ مواقع إلى جانب مرتفعات أو سفوح الجبال أو شواطيء الأنهار، فمن البعيد أن يستطيع العدوّ محاصرة الجيش الإسلامي أو يباغته بالهجوم عليه من الخلف، وبذلك يستطيع الجيش المحافظة على استعداده الكامل وعدم حدوث الخلل والاهتزاز في صفوفه.

ويبيّن الإمام عليه السلام في هذا التوصية نقطتين في مقام الاستدلال، الأولى أنّ مثل هذا الموقف يساهم في تقويتكم ورصّ صفوفكم، والأخرى أنّه يعيق هجوم العدوّ عليكم، ومفهوم الجملة الثانية واضح لأنّ العدوّ في مثل هذه الظروف لا يستطيع أن يهجم على الجيش من الخلف، وأمّا مفهوم الجملة الأُولى فربّما يكون المراد أنّ الجيش إذا اتّخذ موقعاً إلى جانب المرتفع وسفح الجبل، فإنّ حركته باتّجاه العدوّ ستكون أسهل وأيسر، وحركة العدوّ باتّجاه الجيش الإسلامي ستكون أصعب وأعسر، وطبعاً مثل هذا الكلام إنّما يصدق في موارد الأراضي الجبلية والتي تكثر فيها المرتفعات.

ويحتمل أيضاً في معنى كلمة «مردّاً» أن يكون المراد منها محل العودة إذا أرادت مجموعة منكم العودة والتقهقر أمام العدوّ لفترة معينة لغرض الاستراحة واستعادة القوّة فإنّ سفوح الجبال وأمثالها سيكون محلاً مناسباً لهذا الغرض والتهيؤ للهجوم مرّة أخرى على العدوّ.

ولا ينبغي الغفلة عن هذه النقطة، وهي أنّ اتّخاذ مثل هذا الموضع العسكري يتمتّع بميزة ثالثة، وهي أنّ الأفراد الجبناء من الجيش قلّما يستطيعون العثور على مهرب للفرار من الزحف لوجود المانع الطبيعي خلفهم، فلا يجدون بدّاً من الصمود والمواجهة.

---

١. «ردء» بمعنى المعين والنصير.

٢. «مردّ» تأتي تارة بمعنى المانع وأخرى بمعنى محل العودة، في الجملة أعلاه كما ذكرنا في الشرح، تأتي بكلا المعنيين.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام يشير إلى التوصية الثانية، ويقول: «وَلْتَكُنْ مُقَاتَلَتُكُمْ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ أَوِ اثْنَيْنِ».

فتعدّد الجهات ومحاور القتال من شأنه إضعاف قوّة الجيش وبعثرة طاقاته فيكون من اليسير إيجاد ثغرة في صفوفه، ولهذا السبب فإنّ أحد فخاخ العدو في الماضي والحاضر لكسر مقاومة المخالفين، السعي لإيجاد جبهات متعدّدة في الميادين العسكرية أو السياسية لإضعاف قوّة الخصم وتشتيت طاقاته، وربّما لا يكون المراد من جبهتين مختلفتين بأن تكون جبهة واحدة إلى الشرق أو إلى الغرب مثلاً، بل يتمّ التحرّك على جبهتين بشكل دائرة تذهب مجموعة من جهة يمين العدو ومجموعة أخرى من جهة الشمال لمحاصرة العدوّ بشكل تامّ.

ثم إنّ الإمامعليه السلام يشير إلى التوصية الثالثة ويقول: «وَاجْعَلُوا لَكُمْ رُقَبَاءَ فِي صَيَاصِي[1] الْجِبَالِ، وَمَنَاكِبِ[2] الْهِضَابِ، لِئَلَّا يَأْتِيَكُمُ الْعَدُوُّ مِنْ مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ».

يشير الإمامعليه السلام في هذه التوصية إلى أمرين مهمّين لابدّ من الأخذ بهما بالحسبان، أحدهما قمم الجبال والأخرى أعالي الهضاب والمرتفعات، لأنّ هذه المواقع تتمتّع بإشراف كامل على جميع الجهات، فالشخص الناظر من هذا الموقع يستطيع رؤية جميع النقاط التي يتحرّك فيها الجيش.

والتعبير بـ «مَكَانِ مَخَافَةٍ أَوْ أَمْنٍ» ناظر إلى احتمال هجوم الأعداء بغتة، ويكون من المنطقة المتوقعة منها، وعلى ضوء ذلك يجب على المراصد أن ترى جميع هذه النقاط.

ويشير الإمامعليه السلام في التوصية الرابعة إلى إحدى التقسيمات المهمّة للجيش التي

---

١. «صياصي» جمع «صيصية» أو «صيصة»، وهو في الأصل بمعنى المشط الذي يستخدمه الحائك لتعديل وتنظيم القماش، أو الظفر الزائد في أقدام بعض الطيور، ثم اطلق على القلاع المحكمة على قمم الجبال وكذلك تطلق على قمّة الجبل، وفي العبارة أعلاه وردت بمعنى الأخير.

٢. «مناكب» جمع «منكب» على وزن «مغرب» بمعنى الأكتاف، بالنظر إلى أنّ الهضاب جمع هَضَبَة (على وزن عَقَبَة) تأتي بمعنى الجبال المسطحة التي تفتقد القمم، فإنّ «مناكب الهضاب» تعني الأقسام العليا من هذه التلال المرتفعة والتي هي بمثابة الاكتاف للجبل.

تشكّل المكوّنات الأساسية له، يقول: «وَاعْلَمُوا أَنَّ مُقَدِّمَةَ الْقَوْمِ عُيُونُهُمْ، وَعُيُونَ الْمُقَدِّمَةِ طَلَائِعُهُمْ».

وقد كان متداولاً في الماضي أنّ الجيش لا يتحرّك كلّه مرّة واحدة، بل تتحرّك مجموعة من الصفوة أمام الجيش بوصفها مقدمة له، ومن بين أفراد هذه المجموعة الشجعان وأكثر القوم خبرة بأُمور الحرب، واطّلاعاً على مسيرة الجيش بوصفهم مخبرين وطلائع الجيش الذين يمثّلون في الواقع القوى المعلوماتية والاستخباراتية لمركز القيادة، وبمجرّد الاطّلاع على وضع العدو ومكان تواجده يخبرون القيادة بذلك لاتّخاذ الموقف المناسب.

وفي التوصية الخامسة يحذّر الإمام عليه السلام بشدّة من الفرقة والاختلاف ويقول: «وَإِيَّاكُمْ وَالتَّفَرُّقَ: فَإِذَا نَزَلْتُمْ فَانْزِلُوا جَمِيعاً، وَإِذَا ارْتَحَلْتُمْ فَارْتَحِلُوا جَمِيعاً».

وبما أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه التوصيات والتعاليم العسكرية إلى «زياد بن النضر الحارثي» و «شريح بن هانىء» اللذين يمثّلان مقدّمة الجيش وطلائعه، فمراده من هذا الكلام هو أنّ مقدّمة الجيش يجب عليها اجتناب التسرّع ولزوم العمل من موقع الانسجام والتجانس لئلاّ يدبّ فيهم الضعف والفتور.

ويبيّن الإمام عليه السلام في التوصية السادسة نمط وكيفية الاستراحة الليلية للجيش ويقول: «وَإِذَا غَشِيَكُمُ اللَّيْلُ فَاجْعَلُوا الرِّمَاحَ كِفَّةً[1]» أي بصورة دائرية حول الجيش بحيث يكون الجيش في الوسط.

وهذا هو الشيء المتداول في التعاليم العسكرية في العالم المعاصر، سواء في ميدان القتال أو في غيره، بحيث يستدعى بعض أفراد الجيش ليقوم بواجب الحماية الليلية ومهمّة الخفر والعمل على مراقبة الأوضاع بالتناوب، سواءً في المعسكرات أو في الأماكن الحسّاسة والمراكز المهمّة داخل المدن، وبمحض الإحساس بالخطر،

---

١. «كفة» جمعها «كفاف» بمعنى الشيء المدوّر، وكفّة الميزان يراد بها هذا المعنى أيضاً حيث تكون بشكل دائري.

يجب عليهم إنذار القيادة وإخبارها بتفاصيل الحدث، وهذا هو ما يطلق عليه في هذا العصر بقوى الحراسة.

وفي التوصية السابعة والأخيرة يوجّه الإمام عليه السلام خطابه إلى جميع أفراد الجيش بأن لا يغرقوا أثناء الاستراحة الليلة في نوم عميق كما هو حال النائم في بيته، ويقول: «وَلَا تَذُوقُوا النَّوْمَ إِلَّا غِرَاراً أَوْ مَضْمَضَةً» كما يتمضمض الإنسان بالماء جرعة بعد جرعة.

وهذا بالضبط كما ينتظر الشخص مسافراً أو ضيفاً عزيزاً يريد القدوم عليه ليلاً، فنراه لا ينام بشكل عميق، بل تأخذه سِنة وينتبه، ثمّ يعود إلى النوم بشكل خفيف، ثمّ ينتبه أيضاً، فينبغي على جيش الإسلام أن يكون كذلك في استراحته الليلية في مقابل العدوّ لئلاّ يباغته العدو ويُغير عليه ويستطيع إنزال أكبر الضرر والخسائر في صفوف الجيش، وهذا هو معنى تشبيه النوم بالغرار أو المضمضة حيث يدير الشخص الماء في فمه ولا يرتوي منه تماماً.

وطبعاً إنّ هذه النقاط السبعة الدقيقة في بيان الإمام عليه السلام تمثّل توصيات لمقدّمة الجيش وكيفية حركته باتّجاه المواجهة، وأمّا التوصيات والتعاليم التي تتّصل بميدان الحرب والقتال، فقد سبق أن بيّنها الإمام عليه السلام في الخطب والرسائل السابقة (انظر الخطبة ١١ في الجزء ١، ص ٤٨٧، والخطبة ٦٦ في الجزء ٣، ص ٩١ فصاعداً، والخطبة ١٢٤، الجزء ٥، ص ٢٥٧ فصاعداً).

ꕥ

١٢

ومن كلام له عليه السلام

وَصّىٰ بِهٰا مَعْقِلِ بْنِ قيسِ الرِّيٰاحي حينَ أنفَذَهُ إلَى الشّامِ في ثَلاثَةِ آلافٍ مُقَدِّمةً لَهُ[١]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة التي كتبها الإمام عليه السلام لأحد قوّاد جيشه تبتدىء كما في سائر الرسائل الأخرى لقادة الجيش، في التوصية بالتقوى والورع، والتأكيد على التقوى التي تمثّل أصلاً وأساساً لسعادة الإنسان ومسيرته المعنوية في الحياة، ثمّ يبيّن الإمام بعض التوصيات فيما يتصل بتعبئة القوى وكيفية حركة الجيش باتّجاه العدو وبداية الإلتحام معه في الميدان.

---

١. سند الرسالة:
جاء في كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ الحرب بين الإمام عليه السلام وأهل الشام عندما وصلت إلى المدائن أرسل الإمام عليّ عليه السلام معقل بن قيس الرياحي مع ثلاثة آلاف مقاتل كمقدمة للجيش باتجاه الشام وأوصاه بوصايا عدّة اختار منها الشريف الرضي بعضها، والبعض الآخر ذكره نصر بن مزاحم في كتاب صفين، ولا شك أنّ السيد الرضي نقل هذه الوصية من مصدر آخر غير كتاب صفين لنصر بن مزاحم. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص٢٢٦).
ثم أضاف: إنّ المرحوم ابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة نقل إضافات لما أورده السيد الرضي، وهذا يشير إلى وجود مصدر آخر غير نهج البلاغة للشريف الرضي (شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ج ٤، ص ٣٨٠٩.
والعجب أنّ كتاب نهج البلاغة الكامل أورد كلمتين اضافيتين فقط على ما ذكره السيد الرضي في نهاية هذه الوصية (نهج البلاغة الكامل، ص ٧٤٤).

ثمّ يؤكد الإمام عليه السلام في هذه الرسالة كراراً أن لا يبتدىء جيش الإسلام بالقتال وأن لا يقتربوا من العدو بحيث يتصوّرون أنّهم يريدون أن يهجموا عليهم ولا يبتعد عنهم بحيث يتبادر إلى ذهن العدوّ أنّ هذا التباعد ناشيء من الضعف والجبن، ويوصي أيضاً بعدم إنهاك الجنود في المسير، فلابدّ من أخذ قسط من الراحة في بداية الليل وفي أوقات السحر، وكذلك القيلولة في وسط النهار حيث ترتفع درجات الحرارة و...، وهناك وصايا أخرى في هذه الرسالة كلّها تشير إلى الروح العالية للإمام عليه السلام وحبّه للصلح واستتباب الأمن وضرورة رعاية الأخلاق الإسلاميّة حتى في مقابل العدوّ الغاشم.

۞۞

اتَّقِ اللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَىٰ لَكَ دُونَهُ. وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ. وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ، وَغَوِّرْ بِالنَّاسِ، وَرَفِّهْ فِي السَّيْرِ، وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقَاماً لَا ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، وَرَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَىٰ بَرَكَةِ اللهِ. فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ أَمْرِي، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ عَلَىٰ قِتَالِهِمْ، قَبْلَ دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ.

الشرح والتفسير

تعليمات ضرورية قبل التوجّه إلى الميدان

في بداية هذه الرسالة يوصي الإمام عليه السلام قائد جيشه «معقل بن قيس» بتقوى الله تعالى ويقول: «اتَّقِ اللهَ الَّذِي لَا بُدَّ لَكَ مِنْ لِقَائِهِ، وَلَا مُنْتَهَىٰ لَكَ دُونَهُ».

وهذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من التعاليم القرآنية حيث يقول تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ﴾[1] و يقول في آية أخرى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾[2].

أجل، فأينما تكونوا ومَن تكونوا فإنّه لابدّ أن تكون العاقبة لقاء الله عزّ وجلّ والحضور في محكمة العدل الإلهيّ حيث يحاسب الإنسان على ما قدّم وأخّر في حياته من أعمال وأقوال وسلوكيات في حركة الحياة.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٢٣.

٢. سورة النجم، الآية ٤٢.

وعندما يبتدىء الإمام عليه السلام رسالته بالتوصية بتقوى الله والتفكير بالمعاد، فإنّه يترتّب على ذلك آثار مختلفة، فإنّه من جهة يؤدّي إلى تطبيق وترجمة التعاليم والتوصيات الواردة في هذه الرسالة بدقّة، ومن جهة أخرى، بما أنّ محتوى هذه الرسالة والبرنامج العسكري للجيش هو الجهاد في سبيل الله والسير إلى الله، فإنّ التوصية بالتقوى من شأنها أن تبعث الروحية والمعنوية في أفراد الجيش ويكونوا على استعداد تام لمقاتلة العدوّ والتصدّي لقوى الانحراف والضلالة بشكل أقوى.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى عشر نقاط عسكرية فيما يتّصل بإرسال القوّات إلى ميدان القتال وكيفية مقاتلة الأعداء ومجابهة قوى الباطل والتي هي في الحقيقة تعتبر من مقدّمات النزال فيما يخصّ الاستعداد للحرب، ويقول في البداية: «وَلَا تُقَاتِلَنَّ إِلَّا مَنْ قَاتَلَكَ».

هذا هو الدستور الأول في تعاليم الإسلام العسكرية، ويبيّن روحية الصلح وطلب السلم للإنسان المسلم الذي لا يحبّ البدء بالقتال، فما لم يبدأ العدوّ بالحرب والقتال فلا ينبغي للمسلمين أن يسبقوهم بالقتال، يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[1].

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى الدستور الثاني والثالث والرابع ويقول: «وَسِرِ الْبَرْدَيْنِ[2]، وَغَوِّرْ[3] بِالنَّاسِ، رَفِّهْ[4] فِي السَّيْرِ»، أي أنّ المسير بالجيش ينبغي أن يتزامن مع الأجواء المناسبة في وقت الصباح والعصر حيث يبرد الهواء نسبياً في هذين الوقتين، فيما تكون الاستراحة عند وقت الظهيرة حيث ترتفع حرارة الجو، ومن

---

١. سورة الانفال، الآية ٦١.

٢. «بردين» تثنية «برد» بمعنى البرودة ضد الحر، وهذا إشارة إلى الصبح والعصر حيث يبرد الهواء نسبياً وتنخفض درجة الحرارة.

٣. «غوّر» من مادة «غور» على وزن «قول» وردت في المصادر اللغوية بمعنيين، الأول، النوم في منتصف النهار والذي يعبر عنه بالقيلولة، والثاني، التوغل إلى باطن الشيء وعمقه، وفي الجملة يراد بها الأول، وأحياناً يقصد بهذه المفردة الحملة والهجوم والإغارة أيضاً.

٤. «رفّه» من «الترفيه» و «رفوه» بمعنى الراحة والهدوء في الحياة، والرفاه يرد أيضاً كأحد المصادر لهذه المفردة.

البديهيّ أنّ السير السريع والاستعجال في لقاء العدوّ بدون ملاحظة حرارة الجوّ وبرودته ووقت الاستراحة من شأنه أن يثير في أفراد الجيش التعب والضعف وبالتالي عدم مقاومة العدو ومجالدته بالشكل المطلوب.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى الدستور الخامس والسادس من هذه التوصيات ويقول: «وَلَا تَسِرْ أَوَّلَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ اللهَ جَعَلَهُ سَكَناً، وَقَدَّرَهُ مُقاماً لَا ظَعْناً، فَأَرِحْ فِيهِ بَدَنَكَ، رَوِّحْ ظَهْرَكَ. فَإِذَا وَقَفْتَ حِينَ يَنْبَطِحُ[1] السَّحَرُ، أَوْ حِينَ يَنْفَجِرُ الْفَجْرُ، فَسِرْ عَلَى بَرَكَةِ اللهِ».

وهذا الكلام إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم في أكثر من مورد حيث يؤكّد على أنّ الله تعالى جعل الليل مصدراً للسكون والدعة والراحة: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً﴾[2]، ومثل هذا المضمون ورد في سورة يونس في الآية ٦٧، وسورة القصص، الآية ٧٣، وسورة غافر، الآية ٦١ وغير ذلك من الآيات الشريفة.

وهنا ربّما يفرض هذا السؤال نفسه وهو أنّ القرآن الكريم ذكر حقيقة أنّ الليل مصدر السكون والراحة للإنسان، في حين أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن بداية الليل واستثنى وقت السحر.

والجواب على هذا السؤال يتبيّن من خلال الإلتفات إلى هذه الحقيقة وهي أنّ المراد من الليل جميع ساعاته باستثناء السحر وهو الوقت القليل من آخره، ويستفاد من التعاليم الإسلاميّة في العبادات فيما يتصّل بصلاة الليل أنّ آخر الليل مستثنى من هذا الوقت، وهو وقت التنبه واليقظة والحركة والجديّة والاستغفار والتوبة، فلا يشمله مفهوم الليل الذي جعله الله سكناً كما ورد في الآية الشريفة: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾[3].

---

١. «ينبطح» من مادة «بطح» على وزن «فتح» بمعنى الامتداد والتوسع، وجملة «يَنْبَطِحُ السَّحَرُ» يعني امتداد السحر وظهور علاماته، وهذه المفردة تأتي أحياناً بمعنى الاضطجاع على الأرض.

٢. سورة الأنعام، الآية ٩٦.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٧.

وعندما يؤكّد الإمام عليه السلام على أوّل الليل، فالظاهر أنّ الكثير من الناس عندما يبتدئون بعمل معين وقت العصر، فإنّهم يستمرّون بالعمل إلى ساعات من الليل، فيقول الإمام عليه السلام: عندما يبتدىء الليل توقّف عن المسير، وقف للصلاة، ثمّ عليك بأخذ قسط من الراحة.

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ جملة «رَوِّحْ ظَهْرَكَ» إشارة إلى لزوم إراحة الخيل والجمال التي يطلق عليها بالظهر لمناسبة الركوب، وذهب البعض الآخر إلى أنّه إشارة إلى الجمال المحمّلة بما يحتاجه الجيش من المؤن ولوازم السفر، ولكن لا مانع من أن يكون المراد كلا هذين الأمرين.

وينبغي الالتفات إلى أنّ أحد معاني «الظهر» الحيوانات التي يحمل عليها الإنسان لوازمه وحاجاته أويستخدمها للركوب أيضاً، وأمّا ما ذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ معنى الظهر يختصّ بالإبل التي تحمل المؤن، أو بالخيل التي يركب عليها الإنسان، فلا وجه له.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى الأمر السابع والثامن والتاسع من هذه التوصيات ويقول: **«فَإِذَا لَقِيتَ الْعَدُوَّ فَقِفْ مِنْ أَصْحَابِكَ وَسَطاً، وَلَا تَدْنُ مِنَ الْقَوْمِ دُنُوَّ مَنْ يُرِيدُ أَنْ يُنْشِبَ[1] الْحَرْبَ. وَلَا تَبَاعَدْ عَنْهُمْ تَبَاعُدَ مَنْ يَهَابُ الْبَأْسَ، حَتَّى يَأْتِيَكَ أَمْرِي»**.

عندما يقف قائد الجيش في الوسط والمحور من القوّات العسكرية فإنّ ذلك من شأنه أن يمنح أفراد الجيش قوّة وعزماً واستقامة في مواجهة العدو، ومن جهة أخرى يتيح له إيصال أوامره وتوصياته إلى أفراد الجيش كافّة.

وفي الدستور العاشر يقول الإمام عليه السلام: **«وَلَا يَحْمِلَنَّكُمْ شَنَآنُهُمْ[2] عَلَى قِتَالِهِمْ، قَبْلَ**

---

١. «ينشب» من «النشوب» على وزن «سجود» بمعنى المواجهة والتدخل في عمل الشيء، وأحياناً تأتي بمعنى بدء اشتعال نار الحرب، و «انشاب» من باب إفعال بمعنى غرز المخالب في بدن الطرف المقابل، وأحياناً تأتي بمعنى إشعال نار الحرب.

٢. «شنآن» مصدر بمعنى الخصومة والعداوة.

دُعَائِهِمْ وَالْإِعْذَارِ[1] إِلَيْهِمْ»، أي أنّ حالة العداء والبغض والكراهية للعدو لا ينبغي أن تكون الدافع على قتالهم قبل الإعذار ودعوتهم للصلاح وإتمام الحجّة عليهم.

تأمّل

من هو معقل بن قيس؟

ذكر بعض المؤرّخين أنّ معقل كان رجلاً شجاعاً من أهل الكوفة، وكان قائداً لأحد جيوش الإسلام في زمن عمر بن الخطّاب، وكان من شيعة أميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام، وقد اختاره الإمام ليكون قائداً على إحدى الكتائب في الجيش وفي معركة الجمل كان أحد أمراء الجيش أيضاً. وأمّا بالنسبة لإيمانه وإخلاصه فيكفي أنّ أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام عندما اجتمع بالجيش قبل معركة صفّين في منطقة النخيلة في منزل (على مقربة من الكوفة) ألقى الإمام عليه السلام خطبة بجيشه فيما يتّصل بالجهاد ضد المتمرّدين من أهل الشام، فقال معقل: «وَاللهِ يا أَميرَ الْمُؤْمِنينَ لا يَتَخَلَّفُ عَنْكَ إِلّا ظَنينٌ وَلا يَتَرَبَّصُ بِكَ إِلّا مُنافِقٌ».

وورد في بعض الروايات أنّ أحد الخوارج ويدعى «مستورد» برز لمعقل في إحدى المعارك وكان بيد هذا الخارجيّ رمح وبيد معقل سيف، فطعن مستورد معقلاً برمحه، لكنّ معقل استطاع ضربه بالسيف على رأسه، وسقط الرجلان على الأرض صريعين، وفاز معقل بالشهادة وذهب مستورد إلى جهنّم وبئس المصير.

---

١. «اعذار» بمعنى اتمام الحجة وايصاد طريق الاعتذار على الطرف المقابل.

١٣

ومن كلام له عليه السلام

إلى أميرَيْنِ مِنْ أُمَرَاءِ جَيْشِهِ[1]

نظرة إلى الرسالة

تبيّن هذا الرسالة في الحقيقة أمرين: الأول: التوصية التي أمر بها الإمام هـذين القائدين في الجيش في اتّباع مالك الأشتر والحركة ضمن أوامره وقيادته، والآخر: تبيّن بعض صفات مالك الأشتر التي جعلته جديراً ولائقاً لقيادة الجيش.

---

١. سند الرسالة:

وردت هذه الرسالة في تاريخ الطبري (ج ٣، ص ٥٦٤) وفي كتاب صفين لنصر بن مزاحم ص ١٥٣.

وأورد صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذين المؤرخين كانا يعيشان قبل السيد الرضي، وجاء في تاريخ الطبري أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة لزياد بن النضر وشريح بن هانيء من قادة مقدّمة جيشه عندما كانا يتوجهان إلى صفّين، وعندما اقتربا من جيش معاوية التقيا بأحد أفراد جيشه ويدعى أبو الأعور السلمي ودعياه للالتحاق بجيش الإمام علي عليه السلام والطاعة له، ولكنه لم يقبل بذلك، فوصل خبر هذا اللقاء إلى الإمام عليه السلام فأرسل الإمام مالك الأشتر وجعله قائداً للجيش ومعه هذه الرسالة إليهما.

وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَىٰ مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا، وَاجْعَلَاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَىٰ مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير

مالك الأشتر القائد الفذّ

يشير الإمام عليه السلام في هذه الرسالة التي كتبها إلى زياد بن النضر و شريح بن هانىء أنّ الوظيفة الأُولى والمهمّة لهما هي اتّباع مالك الأشتر وأنّه منصوب من قِبل الإمام عليّ هما وعلى سائر أفراد الجيش، ويقول: «وَقَدْ أَمَّرْتُ عَلَيْكُمَا وَعَلَىٰ مَنْ فِي حَيِّزِكُمَا[1] مَالِكَ بْنَ الْحَارِثِ الْأَشْتَرَ، فَاسْمَعَا لَهُ وَأَطِيعَا».

ثمّ يضيف عليه السلام: «وَاجْعَلَاهُ دِرْعاً وَمِجَنّاً[2]، فَإِنَّهُ مِمَّنْ لَا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلَا سَقْطَتُهُ[3] وَلَا بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ[4]، وَلَا إِسْرَاعُهُ إِلَىٰ مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ[5]».

يستفاد من تعبير الإمام عليه السلام أعلاه أنّ قائد الجيش ينبغي أن يكون مطّلعاً محافظاً بشكل تامّ على أفراد جيشه كما يكون الدرع حافظاً لصاحبه من ضربات الحديد، وبذلك يتمكّن الجيش من التقليل من خسارته للحدّ الأدنى في القتلى والجرحى.

---

١. «حيّز» تعني المكان والناحية، وهي من مادة «الحيازة» بمعنى تملّك الشيء والاستيلاء عليه وإحراز الأولوية في التصرّف به.

٢. «مجنّ» بمعنى الدرع، من مادة «جنّ» على وزن «فن» بمعنى التغطية.

٣. «سقطة» بمعنى الانحراف والسقوط.

٤. «احزم» من مادة «حزم» على وزن «نظم» بمعنى تحكيم العمل واتقانه.

٥. «امثل» بمعنى أفضل.

والنقطة الأخرى في هذه توصية أنّ الإمامعليه السلام ذكر فيها أربع خصوصيات يتمتّع بها مالك الأشتر، بحيث إنّ القائد العسكري لو اجتمعت فيه هذه الخصال فإنّه يكون جديراً بالقيادة ولائقاً بإمرة الجيش:

١. أن لا يشعر بالضعف والوهن في مقابل هجوم العدوّ والظروف الصعبة التي يفرضها الواقع العسكري عليه، بل يتحلّى بالجرأة والاستقامة كالجبل الراسخ أمام العواصف العاتية.

٢. أن لا يخطىء في الحسابات العسكرية بل يأخذ بنظر الاعتبار جميع المواقع لقوّاته وقوّات العدو ويتحرّك وفقاً لما يمليه عليه الواقع الميداني لإحراز النصر على العدو.

٣. إنّ الدقائق وحتى اللحظات ربّما تكون مصيرية في حسم المعركة وإحراز النصر، وينبغي للقائد أن يتحرّك بدقّة وبسرعة تامة في الوقت المناسب دون أدنى تأخير أو استعجال، فالقائد الفذ يجب أن يعرف هذه اللحظات والدقائق المصيرية ويتحرّك وفقاً لهذه الخبرة والتجربة الميدانية.

٤. وقد تأتي لحظات في ميدان القتال يكون فيها التباطؤ والتمهّل أفضل من العجلة والتسرّع، مثلاً عندما يتربّص أفراد الجيش في الكمين لإيقاع العدو في المصيدة، فلو تسرّعوا في إيقاعه فربّما يفلت من المصيدة ويحسّ بوجود كمين له، ففي مثل هذه الموارد ينبغي التعامل مع الحدث بأعصاب باردة.

ومعلوم أنّ القائد الذي يتمتّع بهذه السمات الأربع هو قائد فذّ ولائق لتسنّم قيادة الجيش وإحراز النصر، وهذه هي الصفات التي كان مالك الأشتر يتمتّع بها مضافاً إلى الصفات الأخرى أيضاً.

تأمّلان

١. مالك الأشتر المدير والمدّبر الشجاع

بالنسبة لمالك الأشتر وسيرته وحالته فسنتحدّث عنه بإذن الله في شرح الكتاب

المرقم ٥٣ من نهج‌البلاغة وهو الكتاب المعروف بعهد مالك الأشتر، وهنا نشير فقط إشارة موجزة إلى بعض صفاته وخصائصه الكريمة.

يتحدّث ابن أبي‌الحديد في نهاية هذه الرسالة تحت عنوان «نُبَذٌ مِنَ الأَقْوالِ الْحَكيمَةِ» عن بعض المسائل المتعلّقة بالإدارة وتدبير أمور المجتمع، ونقل في هذا المجال كلمات عن شخصيّات متعدّدة، ثم قال في ختام كلامه: لقد جمع أميرالمؤمنين عليه السلام من أصناف الثناء والمدح ما فرّقه هؤلاء في كلماتهم بكلمة واحدة في الأشتر وهي قوله: «لا يُخَافُ وَهْنُهُ وَلاَ سَقْطَتُهُ وَلاَ بُطْؤُهُ عَمَّا الْإِسْرَاعُ إِلَيْهِ أَحْزَمُ، وَلاَ إِسْرَاعُهُ إِلَىٰ مَا الْبُطْءُ عَنْهُ أَمْثَلُ».

وفي ذيل هذا الكتاب يقول: وقد روى المحدّثون حديثاً يدلّ على فضيلة عظيمة للأشتر رحمه الله، وهي شهادة قاطعة من النبيّ بأنّه مؤمن. وذلك عندما كان أبوذرّ في الربذة وقد حان أجله وكانت زوجته قد احتارت في أمر موته وتجهيزه وغسله ودفنه وهي ترى نفسها وحيدة في الصحراء القاحلة. فقال أبوذر لها: ما يبكيكِ، فقالت: ما لي لا أبكي وأنت تموت في فلاة من الأرض.. فقال: أبشري ولا تبكي فإنّي سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «لا يموت بين امرأين مسلمين ولدان أو ثلاثة فيصبران ويحتسبان فيريان النار أبداً» وسمعت أيضاً رسول الله صلى الله عليه وآله: ليموتن أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك النفر أحد إلّا وقد مات في قرية وجماعة وأنا لا أشك في ذلك الرجل، والله ما كذبت ولا كُذبت، فانظري الطرق.

قالت أُم ذرّ: قلت: أنّى وقد ذهب الحاجّ وتقطّعت الطرق! فقال: اذهبي فتبصّري، قالت: فكنت أشتدّ إلى الكثيب، فأصعد فانظر، ثم أرجع إليه فأمرّضه، فبينا أنا وهو على هذه الحال إذ أنا برجال على ركابهم كأنّهم الرَّخم تخبّ بهم رواحلهم، فأسرعوا إليّ حتّى وقفوا عليّ وقالوا: يا أمة الله! ما لكِ؟ فقلت: امرء من المسلمين يموت تكفّنونه؟ قالوا: ومن هو؟ قلت: أبوذرّ، قالوا: صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله؟

قلت: نعم، ففدّوه بآبائهم وأمهاتهم، وأسرعوا إليه حتّى دخلوا عليه، فقال لهم: أبشروا، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: لنفر أنا فيهم: ليموتنّ أحدكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين، وليس من أولئك النفر أحد إلّا وقد هلك في قرية وجماعة، والله ما كذبت ولا كُذّبت، ولو كان عندي ثوب يسعني كفناً أو لامرأتي لم أُكفّن إلّا في ثوب لي أو لها، وأني أنشدكم الله ألّا يكفّنني رجل منكم كان أميراً أو عريفاً أو بريداً أو نقيباً!

قالت: وليس في أولئك النفر أحد إلّا وقد قارف بعض ما قاله، إلّا فتىً من الأنصار قال: أنا أُكفّنك ياعمّ في ردائي هذا، وفي ثوبين معي في عيبتي من غزل أُمّي، فقال أبوذرّ: أنت تكفّنني، فمات فكفّنه الأنصاريّ وغسّله النفر الذين حضروه وقاموا عليه ودفنوه....

ثم ينقل ابن أبي‌الحديد عن ابن عبدالبرّ في كتاب «الاستيعاب»، أنّ تلك الجماعة حضروا فجأة بعد وفاة أبي‌ذرّ وكان من جملتهم «حجر بن عديّ» و«مالك الأشتر» وحجر بن عديّ هو الذي قتله معاوية وكان من كبار رموز الشيعة ورجالهم[1].

وهذا الحديث الشريف يدلّ دلالة واضحة على عظمة أبي ذرّ وكذلك مالك الأشتر، وسيأتي لاحقاً تفصيل أكثر عن هذه الشخصية الإسلاميّة العظيمة والذي يعدّ من أخلص أصحاب الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام وقد ذكره الإمام في أربعة مواضع أخرى من «نهج‌البلاغة»، منها ما ورد في الكتاب ٣٤ و ٣٨ و الكلمات القصار ٤٤٣ وذيل الكتاب ٥٣ (عهد مالك الأشتر) الذي سوف يأتي تفصيل ذلك لاحقاً إن‌شاءالله.

٢. شريح بن هانىء الحارثي وزياد بن النضر

سبق وأن ذكرنا أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة الموجزة والزاخرة بالمعاني لرجلين من قادة جيشه عندما أرسلهما إلى ميدان معركة صفّين، بالنسبة للشخص

---

[1]. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٠٠ (مع تلخيص).

الأول، يعني شريح بن هانيء، يقول ابن عبدالبر في «الاستيعاب»: كان من الأشخاص الذين أدركوا الجاهلية والإسلام وهو من صحابة النبيّ الأكرمﷺ ومن كبار أصحاب الإمام عليّعليه السلام وأنصاره المقرّبين الذين رافقوا الإمام في جميع ميادين الحرب[1].

وذكر الذهبي في تاريخه: وفي سنة ثمان وسبعين ولّى الحجاج عبيدالله بن أبي بكرة سجستان فوجّه أبابرذعة، فأخذ عليه (على شريح) المضيق، وقتل شريح بن هانيء، وقال القاسم بن مخيمرة: ما رأيت حارثياً أفضل من شريح بن هانيء[2].

أمّا بالنسبة لزياد بن النظر القائد الثاني من قادة جيش الإمامعليه السلام فالمرحوم المحقّق النمازي الشاهرودي يقول عنه في «مستدرك علم رجال الحديث»: كان من أركان أصحاب أميرالمؤمنينعليه السلام أمّره أميرالمؤمنين على مذحج والأشعريين وأوصاه بوصايا، فقال: أوصيت ياأميرالمؤمنين حافظاً لوصيّتك مؤدّباً بأدبك، يرى الرشد في نفاذ أمرك والغيّ في تضييع عهدك، فبعث أميرالمؤمنين مع شريح ابن هانيء اثني عشر ألفاً على مقدّمته، فلما سارا اختلفا وكتب كلّ منهما إليه يشكو صاحبه.

ويقول الطبري في تاريخه أنّهعليه السلام قال للأشتر: اجعل على ميمنتك زياداً، وعلى ميسرتك شريحاً.. وارسال أميرالمؤمنينعليه السلام إيّاه للاحتجاج مع الخوارج. وأضاف: ويستفاد من ذلك كلّه علمه وكماله وديانته وعدالته[3].

---

١. الاستيعاب، ج ٢، ص ٧٢.

٢. تاريخ الإسلام الذهبي، ج ٥، ص ٤٢٣.

٣. مستدركات علم رجال الحديث، ج ٣، ص ٤٥٥.

١٤

ومن كلام له عليه السلام

لِعَسْكَرِهِ قِبَلَ لِقاءِ الْعَدُوِّ بِصِفِّين[1]

نظرة إلى الرسالة

هذه الرسالة حالها حال الرسائل السابقة تتضمّن سلسلة من التعاليم الأخلاقية والمثل الإنسانية فيما يتّصل بالحرب مع العدو، والتعاليم المذكورة هنا تبيّن روح العطف الإنساني والرأفة الإسلاميّة، وتدلّ على أنّه لا ينبغي الغفلة عن القيم الأخلاقية في جميع الموارد، حتى في ميدان الحرب، والتوصيات المتداولة في العالم المعاصر بعد مرور أربعة عشر قرناً تعدّ بداية المسير في طريق الأخلاق

---

١. سند الرسالة:

صرّح صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة أنّ هذه الرسالة نقلت عن الإمام عليه السلام بالتواتر. فقد تحدّث الإمام عليه السلام عدّة مرات بهذه التوصيات لأصحابه وأنصاره، ومن المؤرخين الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضي، الطبري في تاريخه المعروف في سنة ٣٧ عن عبد الرحمن بن جندب عن أبيه بأنّ الإمام عليّ عليه السلام كان يوصي أنصاره بهذه التوصيات في كل مواجهة وقتال مع الأعداء، وكذلك نقلها نصر بن مزاحم في كتاب صفين بهذا المضمون، وذكرها المرحوم الكليني أيضاً في كتاب فروع الكافي في كتاب الجهاد من الراوي نفسه (عبدالرحمن بن جندب عن أبيه)، وكذلك نقلها المسعودي في مروج الذهب وابن أعثم الكوفي في كتاب الفتوح؛ ثم أضاف مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ كل هؤلاء الرواة كانوا يعيشون قبل السيد الرضي فلا نحتاج لذكر اسماء الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة عن الإمام عليه السلام بعد السيد الرضي (مصادر نهج البلاغة، ج٣، ص٢١٧).

والمعنوية، وتتضمن بعض ما ورد في هذه الرسالة القيمة من توصيات أخلاقية، مع أنّ هذه التعاليم المعاصرة لم تترجم على أرض الواقع العملي إطلاقاً.

وسنلاحظ أنّ الإمامعليه السلام يؤكّد كثيراً على رعاية النساء وأن لا يلحق بهنّ أيّ ضرر أو أذى حتّى لو شتمن أفراد الجيش الإسلامي، ونطقن بكلمات لا مسؤولة عن قادة الإسلام، وفي هذه التوصيات والإرشادات نرى أنّ أول ما يؤكّد الإمامعليه السلام عليه هو أن لا يبتدىء أصحابه بالقتال والحرب، وهذه التوصية نراها في توصيات الإمامعليه السلام لأصحابه وأتباعه.

٭٭٭

لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَءُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِ اللهِ عَلَىٰ حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ. فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً، وَلَا تُجْهِزُوا عَلَىٰ جَرِيحٍ، وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ، فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَىٰ وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ؛ إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ؛ وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفِهْرِ أَوِ الْهِرَاوَةِ فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

الشرح والتفسير

فصل آخر من القيم الأخلاقية في الحرب

ثمّة خلاف بين شرّاح «نهج البلاغة» والمؤرّخين في المخاطبين لهذه الرسالة هل هم أتباعه في معركة الجمل أم في صفّين، المرحوم العلّامة المجلسي في بحار الأنوار[1] يرى أنّ هذه الوصيّة ترتبط بمعركة الجمل رغم أنّه نقلها في مورد آخر في ما يتّصل بمعركة صفّين، ويرى المسعودي في مروج الذهب أنّ هذه الرسالة تعود إلى معركة الجمل.

وقد ذهب ابن ميثم في شرح نهج البلاغة لإيجاد حلٍّ لهذه المشكلة وقال: «إنّه عليه السلام كان يوصي أصحابه في كلّ موطن يلقون العدوّ فيه بهذه الوصية».

وذكر نصر بن مزاحم في كتاب صفين والطبري في تاريخه قبل ابن ميثم هذا المعنى أيضاً، وبما أنّ محتوى هذه الرسالة يمثّل دستوراً عاماً للجيش الإسلامي،

---

١. بحار الأنوار، ج ٣٢، ص ٣١٣.

فلا يبعد أن يكون هذا الكلام صحيحاً.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام في هذه الرسالة يؤكّد على خمسة أمور:

الأوّل: يقول عليه السلام: «**لَا تُقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَءُوكُمْ، فَإِنَّكُمْ بِحَمْدِاللهِ عَلَىٰ حُجَّةٍ، وَتَرْكُكُمْ إِيَّاهُمْ حَتَّىٰ يَبْدَؤُوكُمْ حُجَّةٌ أُخْرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ**»، فأنتم من أتباع إمام يتفق على مشروعيته وحقانيته الباري تعالى وجميع المؤمنين، فلا يكون بدؤكم بالقتال حجّة لهم ضدّكم، وترككم لهم حتى يكون البادىء هو العدو يمثّل حجّة أخرى تدعم موقفكم ومشروعيتكم وحقانيتكم.

وهذه التوصية قد تقدّم بها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أيضاً لجيش الإسلام وكانت نتيجة ذلك كما بيّنه الإمام عليه السلام في هذا الكلام أنّ جيش الإسلام يمتلك حجتّين وبرهانين ضدّ العدو، الأوّل أنّه تابع للنبيّ الأكرم أو الإمام الذي يتمتّع بمشروعية وحقانية تقوم على أساس الموازين الصحيحة والمنطقية، والآخر أنّ العدو عندما يبتدىء الحرب والقتال يقدّم عمليّاً دليلاً آخر ضدّه، لأنّه يكون سبباً في قتل الأبرياء والسعي في إشعال نار الفتنة وإيجاد الفساد في الأرض وبالتالي يكون مصداقاً لمن حارب الله ورسوله، لأنّ كلّ شخص جرّد السلاح على الأبرياء من الناس وسفك الدماء، فهو محارب، وحينئذٍ سيكون مشمولاً للآية الشريفة: «**إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً...**»[1].

ومضافاً إلى ذلك يكون مصداقاً للآية الشريفة: «**فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ**»[2].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتحدّث عن ثلاث توصيات مهمّة في هذه المجال ويقول: «**فَإِذَا كَانَتِ الْهَزِيمَةُ بِإِذْنِ اللهِ فَلَا تَقْتُلُوا مُدْبِراً، وَلَا تُصِيبُوا مُعْوِراً**[3]، **وَلَا**

١. سورة المائدة، الآية ٣٣.

٢. سورة البقرة، الآية ١٩٤.

٣. «معور» في الأصل من مادة «عار» و «عور» على وزن «غور» بمعنى العيب والنقص، ثم اطلقت على المناطق ☜

تُجْهِزُوا[١] عَلَىٰ جَرِيحٍ».

إنّ هذه التوصيات الثلاثة تتّسم بالطابع الأخلاقي بشكل كامل لأنّ الغرض من الحرب هو كسر مقاومة العدو والتصدّي لحركته، لا مجرّد الانتقام، فالشخص الذي فرّ من الميدان وترك القتال فلا معنى لقتله، وكذلك الشخص العاجز الذي عجز عن المقاومة فإنّ الاجهاز عليه وقتله يتنافى مع المثل الإنسانية والقيم الأخلاقية، كالشخص الذي فقد سلاحه في المعركة أو عجز عن القتال وحمل السلاح ضدّ الجيش الإسلامي، فلا يمثّل خطراً على أفراد الجيش، ومن هذا القبيل الجريح الذي سقط ولم تبق له قدرة على المقاومة والقتال، فالإجهاز على مثل هؤلاء يتقاطع مع المبادىء الإنسانية.

ويثير العلّامة التستري في شرح نهج‌البلاغة هذا السؤال هنا، وهو أنّه يستفاد من بعض الروايات كالرواية التي ينقلها الكليني في (الجزء الخامس من الكافي) أنّ الإمام عليّ عليه السلام أصدر مثل هذا الأمر في معركة الجمل وأصدر أمراً بخلافه في معركة صفّين وأذن بقتل الهاربين والمجروحين.

ولكن ورد في رواية أخرى الجواب عن هذا السؤال، فالإمام الصادق عليه السلام يقول: «لَيْسَ لِأَهْلِ الْعَدْلِ أَنْ يَتْبَعُوا مُدْبِراً وَلَا يَقْتُلُوا أَسِيراً وَلَا يُجْهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ وَهَذَا إِذَا لَمْ يَبْقَ مِنْ أَهْلِ الْبَغْيِ أَحَدٌ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِئَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، فَإِذَا كَانَ لَهُمْ فِئَةٌ يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا فَإِنَّ أَسِيرَهُمْ يُقْتَلُ وَمُدْبِرَهُمْ يُتْبَعُ وَجَرِيحَهُمْ يُجْهَزُ عَلَيْهِ»[٢].

وخلاصة الكلام أنّ رعاية هذه المبادىء الإنسانية والقيم الأخلاقية في الحرب، ترتبط في موارد يكون جيش العدو قد مُنيّ بالهزيمة وتبعثرت قواه وقدراته القتالية

الضعيفة والنقاط القابلة للنقص، والمعور: الشخص الذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه ويتعرّض للضرر في مقابل هجوم مخالفه، وسميت الآلة التناسلية بالعورة لأنّ اظهارها يورث العيب والعار لصاحبها.

١. «لا تُجهزوا» من «الإجهاز» بمعنى التسريع وقتل المجروحين وإنهاء حياتهم، وهذا يشبه ما يطلق عليه حالياً برصاصة الرحمة.

٢. الكافي، ج ٥، ص ٣٣، ح ٢.

ولا يحتمل في شأنه العودة إلى الحرب والهجوم مرّة أخرى، ونعلم أنّ العدو في معركة الجمل كان قد مُني بالهزيمة بحيث لا يحتمل أن يعود للقتال مرّة أخرى.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه ويتعرّض لبيان التوصية الخامسة حيث يقول: «وَلَا تَهِيجُوا النِّسَاءَ بِأَذًى، وَإِنْ شَتَمْنَ أَعْرَاضَكُمْ، وَسَبَبْنَ أُمَرَاءَكُمْ».

ويبيّن الإمام عليه السلام بعد ذلك علّة هذه التوصية ويقول: «فَإِنَّهُنَّ ضَعِيفَاتُ الْقُوَى وَالْأَنْفُسِ وَالْعُقُولِ».

بما أنّ النساء يفقدن القدرة على القتال والمواجهة العسكريّة، فذلك من شأنه أن يكرّس الحقد في قلوبهنّ فينطلقن بالسبّ والشتم للتنفيس عن هذا الحقد وإبراز العداء للطرف المقابل، وبما أنّ النسوة يتمتّعن بنفس ضعيفة وعقل ضعيف فستكون ترجمة انتقامهنّ من خلال السبّ والشتم والكلمات البذيئة، ولذلك لا ينبغي على ذوي العقل والحجى أن يردّوا عليهنّ بالمثل ويطلقوا ألسنتهم بالسبّ والشتم أيضاً، والمفروض أن يسمحوا لهنّ بتفريغ شحنات الغضب والحقد المكبوت من خلال السبّ والشتم حتّى تهدأ نفوسهنّ وتسكن عواطفهنّ، ومعلوم أنّ مواجهة مثل هذه النسوة بكلام مماثل في مقابل كلماتهنّ من شأنه أن يثير في أنفسهنّ العداوة والبغضاء أكثر ويهيج انفعالهنّ ضدّهم وربّما يدفعهنّ إلى الكفر.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى سيرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسنّته في مقابل نساء المشركين ويقول: «إِنْ كُنَّا لَنُؤْمَرُ بِالْكَفِّ عَنْهُنَّ وَإِنَّهُنَّ لَمُشْرِكَاتٌ» أي في زمان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة ثالثة في هذ المجال ويقول: «وَإِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَتَنَاوَلُ الْمَرْأَةَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ بِالْفَهْرِ[1] أَوِ الْهِرَاوَةِ[2] فَيُعَيَّرُ بِهَا وَعَقِبُهُ[3] مِنْ بَعْدِهِ».

---

١. «فهر» بمعنى قطعة من الحجر الصافي والأملس بمقدار قبضة اليد، و«فهر» على وزن «شعر» تطلق على الأحجار التي تطحن بها الأدوية.

٢. «هراوة» بمعنى قطعة من الخشب كالعصا الغليظة.

٣. «عقب» الولد سواء كان ذكراً أم انثى.

فإذا كان الناس في عصر الجاهلية يقفون هذا الموقف من المرأة، وعندما يؤمر المسلمون بحفظ النفس وعدم الانفعال في مقابل المشركين، ففي عصر ظهور الإسلام وفي مقابل النسوة المسلمات الجاهلات يكون من الضروريّ ضبط النفس واللسان بطريق أولى.

وعندما يأمر الإمام عليه السلام أفراد جيشه بهذا الأمر الأخلاقي في مقابل النساء، فإنّه بنفسه قد سبق الآخرين بالعمل بهذه التوصية وتجسيدها على أرض الواقع، فقد ورد في تاريخ معركة الجمل أنّه عندما انتصر الإمام عليّ عليه السلام وجيشه على المتمرّدين والناكثين، وبينما كان عليه السلام يسير في أزقّة البصرة، كانت زوجة عبدالله بن خلف (أحد رجال البصرة المعروفين) واقفة أمام باب بيتها فالتفتت للإمام وقالت: «يَا قَاتِلَ الأَحِبَّةِ لا مَرْحَباً بِكَ أَيْتَم اللهُ مِنْكَ وَلَدَكَ كَمَا أَيْتَمْتَ بَنِي عَبْدِاللهِ بْنِ خَلَف» فلم يرد عليه السلام عليها، ولكنّه وقف وأشار إلى ناحية من دارها، ففهمت إشارته، فسكتت وانصرفت، وكانت قد سترت عندها عبدالله بن الزبير ومروان بن الحكم، فأشار إلى الموضع الذي كانا فيه، أي لو شئت أخرجتهما! فلمّا فهمت انصرفت، وكان الإمام عليه السلام حليماً كريماً[١].

تأمّلان

١. مكانة المرأة في نهج البلاغة

يلاحظ القارىء لكتاب نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام يذمّ النساء في عدّة موارد من الخطب والرسائل والكلمات القصار، وقد فسرّ بعض الجهلاء ذلك على أساس الضدّية للنساء وأنّ الإمام عليه السلام يتّخذ موقفاً سلبياً منهنّ، في حين أنّ الشواهد والقرائن التي تقترن مع كلمات الإمام عليه السلام تشير إلى أنّ الإمام كان ناظراً لمجموعة خاصة من النسوة، مثلاً وردت بعض هذه العبارات بعد معركة الجمل حيث كانت إحدى

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٠٥.

زوجات النبيّ قد عملت على إشعال نيران هذه الحرب الضروس، وهذا يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان ناظراً لمثل هذه المرأة التي انحرفت عن مسارها الصحيح وأضحت آلة بيد الانتهازيين والعاملين في الشأن السياسي كطلحة والزبير وهو الأمر الذي أدّى إلى سفك دماء آلاف المسلمين، وبعد أن خمدت نيران الحرب قام الإمام عليه السلام بإرسال هذه المرأة بغاية التكريم احتراماً للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله مع أخيها وجماعة من الحرس إلى المدينة.

وفي الرسالة مورد البحث أيضاً يتحدّث الإمام عليه السلام عن النسوة اللاتي يفتحن أفواههنّ بالسبّ والشتم وينطلقن من مواقع الانفعال ومواجهة جنود الإسلام بكلمات بذيئة، ويصفهنّ بأنّهن ضعاف العقول والنفوس.

فلو أخذنا بنظر الاعتبار القرائن الحالية والمقالية في مثل هذه الموارد، فسوف يتبيّن الجواب عن هذه الإشكالات وعلامات الاستفهام.

ولذلك ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام في كتاب أصول الكافي أنّه قال بعد الإشارة إلى وجود العيب والنقص في طائفة من النسوة: «**إِلَّا الْمُسْلِمَاتُ مِنْهُنَّ**»[1].

وفي آخر عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**الإمْرَأةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ رَجُلٍ غَيْرِ صَالِح**»[2].

وجاء في حديث مفصّل عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الكافي تقسيماً جليّاً للنساء، حيث يقرّر الإمام الصادق عليه السلام أنّ فئة من النسوة سبب لسعادة الرجال، وفئة أخرى منهنّ يورثن الندم والخسران يقول: «**فَمَنْ يَظْفَرْ بِصَالِحِهِنَّ يَسْعَدْ وَمَنْ يُغْبَنْ فَلَيْسَ لَهُ انْتِقَام**»[3].

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٥٠٥، ح ٤.

٢. وسائل الشيعة، باب ٨٩ من أبواب مقدمات النكاح، ح ٢.

٣. الكافي، ج ٥، ص ٣٢٣، ح ٣ باب أصناف النساء.

وهذه الروايات الثلاث المذكورة أعلاه، وكذلك روايات أخرى في هذا الباب من كتاب الكافي (باب أصناف النساء) تشكل قرينة واضحة على ما اخترناه من تفسير كلام الإمام عليّ عليه السلام في نهج البلاغة فيما يتّصل بخصال النساء وأخلاقهنّ.

٢. الخلق الإسلامي في مقابل العدو

إنّ ما ورد في الرسالة أعلاه وبعض الرسائل السابقة واللاحقة أيضاً يبيّن بوضوح منهج الإسلام في مواجهة العدو والأخلاق التي ينبغي للمجاهد المسلم أن يتحلّى بها في ميدان المعركة، وهذا المنهج الذي يؤكّد على المعايير السليمة والقيم الأخلاقية في مقاتلة الأعداء يتقاطع مع ما نراه في المناهج الماديّة ومنهج أعداء الإمام عليه السلام الذين لا يراعون أيّ قيد وشرط في ميدان القتال، ولا يلتزمون بأيّة قيمة أخلاقية في ساحة المواجهة، فنراهم يستخدمون أسوأ الوسائل ويرتكبون أبشع الأعمال من أجل الوصول لغاياتهم وتحقيق أهدافهم، ويسحقون أعلى المثل الإنسانية والأخلاقية تحت أقدامهم إذا لم تتحقّق لهم طموحاتهم، وهذا التباين والتفاوت يمكن ملاحظته بوضوح من خلال نمط وأُسلوب الإمام عليّ عليه السلام وأُسلوب معاوية في السجال التاريخي بينهما.

وقد ذهب بعض المحللين في الماضي والحاضر من الذين تأثّروا بالمذاهب المادية والمصلحيّة أنّ هذا التفاوت يعدّ دليلاً على أفضليّة سياسة معاوية على سياسة الإمام عليه السلام.

وهنا لا بأس بالإشارة إلى كلام للجاحظ في هذا المجال حيث يقول: ربّما رأيت بعض من يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز وهو من العامة، ويظنّ أنّه من الخاصّة، يزعم أنّ معاوية كان أبعد غوراً من عليّ عليه السلام وأصحّ فكراً وأجود رؤية وأبعد غاية وأدقّ مسلكاً، وليس الأمر كذلك وسأرمي إليك بجملة تعرف بها موضع غلطه والمكان الذي دخل عليه الخطأ من قبله، كان عليّ عليه السلام لا يستعمل في حروبه

إلّا ما وافق الكتاب والسنّة، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنّة كما يستعمل الكتاب والسنّة، ويستعمل جميع المكائد حلالها وحرامها، ويسير في حروبه بسيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى، وسيرة خاقان إذا لا قى رتبيل، وعليّ يقول في حروبه: «لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم، ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً» هذه سيرته في ذي الكلاع وأبي الأعور السلمي وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشية والحشو والاتّباع والسفلة، وأصحاب الحروب إن قدروا على البيات بيّتوا وإن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه إلىٰ ساعة، وإن كان الحرق أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخّروا الحرق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدم لم يتكلّفوا الحصار، ولم يدعوا أن نصبوا المجانيق والعرادات، والنقب والتسريب والدبابات والكمين، ولم يدعوا دسّ السموم ولا التضريب بين الناس بالكذب وطرح الكتب في عساكرهم بالسعايات وتوهيم الأمور ويجاش بعض من بعض وقتلهم بكلّ آلة وحيلة، وكيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال، فمن اقتصر من التدبير على ما في الكتاب والسنّة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وما لا يتناهى من المكائد، والكذب أكثر من الصدق، والحرام أكثر من الحلال.

فعليّ عليه السلام كان ملجماً بالورع عن جميع القول إلى ما هو لله رضى، وممنوع اليدين من كلّ بطش إلّا ما هو لله رضى، ولا يرضى الرضا إلّا فيما يرضاه الله ويحبّه، ولا يرى الرضا إلّا فيما دلّ عليه الكتاب والسنّة، دون ما يقول أصحاب الدهاء والنكراء والمكائد والآراء، فلما أبصرَت العوامّ كثرة غرائب معاوية ظنّوا بقصر عقولهم وقلّة علومهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصان عند عليّ عليه السلام[1].

والنقطة المهمّة هنا والتي لا ينبغي الغفلة عنها، هي أنّ الإمام عليّ عليه السلام وجميع

١. شرح نهج البلاغة العلّامة التستري، ج ١٣، ص ٥١٤.

الأولياء الإلهيين كانوا يهدفون في سلوكياتهم في الشأن السياسيّ والاجتماعيّ إلى حفظ القيم والمثل الإنسانية، ويرجّحونها حتّى على النصر في ميدان القتال، لأنّ مثل هذا النصر على العدو مؤقّت، بينما القيم والمثل الإنسانية باقية، فلو نظرنا من هذه الزاوية إلى منهج الأنبياء والأولياء فسيتبيّن الجواب عن الكثير من الأسئلة وعلامات الإستفهام في هذا المجال.

على سبيل المثال يتساءل البعض: لماذا لم يقتل الإمام عليّ عليه السلام عمرو بن العاص وبسر بن أرطاة عندما تمكّن منهما وكان قادراً على أن يخلّص المجتمع الإسلامي من وجودهما، لمجرّد أنّ هذين الرجلين كشفا عن عورتهما؟

الجواب: إنّ الإمام عليّ عليه السلام يرى أنّ حفظ القيم الأخلاقية في هذه الأمور أولى من قتل العدو، وربّما لا يستطيع الكثير من الناس تحمّل مثل هذا الموقف وحفظ التعاليم الإلهيّة والإنسانية من موقع الوعي والالتزام.

وفي عالمنا المعاصر نسمع الكثير من لزوم حفظ القيم والمبادىء الإنسانية في ميادين الحرب، ولكن الكثير من الأسلحة التي تعتبر من جملة الأسلحة الممنوعة والمحرمة دولياً، وقد صدر المنع من استخدامها ضدّ المدنيين ومنع التعامل غير الإنساني مع الأسرى، ولكننا نرى مراراً في تاريخنا المعاصر عدم الالتزام بأيّ من هذه القوانين في حالات الحرب من قبيل استخدام أسلحة الدمار الشامل كالقنابل الذرّية والأسلحة الكيمياوية ضد المدنيين والعزّل من الناس وتعذيب الأسرى بمختلف صنوف العذاب، ويمكن القول إنّ مثل هذه الأعمال تصدر من قِبل الفئات والجهات التي تدّعي الدفاع عن حقوق الإنسان أكثر من الفئات التي لا تعترف بها، وهذا بذاته يعتبر عملاً شنيعاً ومنكراً، لأنّ الإنسان عندما يدّعي الدفاع عن القيم وحقوق الإنسان ثمّ يرتكب خلاف ذلك على مستوى العمل والطبيق، فهذا يعني النفاق، وأنّ مثل هؤلاء الأشخاص هم منافقون.

❧

١٥

ومن كلام له عليه السلام

كَانَ يَقُولُ إذا لَقِيَ الْعَدوَّ مُحارِباً[1]

نظرة إلى الرسالة

يتحدّث الإمام عليّ عليه السلام في هذا الدعاء عن خلجات روحيّة تجاه الحرب ويبرز استياءه الشديد منها، ويشكو إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله من كثرة الأعداء وتفرّق المسلمين عن حقّهم، وأخيراً يسأل الله تعالى إقامة الصلح والعدالة وإنهاء الحروب والاقتتال.

هذا كلّه يشير إلى أنّ الإسلام لا يؤيّد الحرب إطلاقاً، ويعتبر أنّ الحرب أمر مفروض على البشر، لأنّ الأضرار والخسائر الوخيمة للحرب ربّما تمتدّ لتنال الأجيال اللاحقة أيضاً، وخاصّة في الحروب المعاصرة التي تتّسع آثارها المدمّرة

---

١. سند الدعاء:

هذا الدعاء ورد في عدّة مصادر معروفة قبل المرحوم السيّد الرضي، ومنها كتاب صفين لنصر بن مزاحم حيث نقله بأربعة أسانيد عن الإمام عليّ عليه السلام وفيه اضافات معتبرة أكثر مما أورده السيد الرضي.

وقد ذكر المرحوم الشيخ المفيد أيضاً في كتاب النصرة وقال: إنّ الإمام عليه السلام دعا بهذا الدعاء يوم الجمل.

وفي كتاب صفين لعبد العزيز بن يحيى الجلودي أيضاً طبقاً لنقل المرحوم العلّامة المجلسي. (والسيّد ابن طاووس في مهج الدعوات). أنّ الروايات أعلاه تشير أحياناً إلى أنّ هذا الدعاء ورد في معركة الجمل وأحياناً أخرى في معركة صفين ويوم الهرير، ويستفاد من بعضها أنّ الإمام عليه السلام كان عندما يريد الورود إلى ميدان القتال في كل مرّة يقرأ هذا الدعاء (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٢٠).

إلى مديات قصوى أكثر بكثير من الماضي.

على سبيل المثال؛ نرى أنّ الحرب العالمية قد انتهت قبل عقود من الزمان ولكن لحدّ الآن يوجد الملايين من المعلولين والمتضرّرين من هذه الحرب في مختلف بلدان العالم.

ﮋﮊ

اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ الْقُلُوبُ، وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ، وَشَخَصَتِ الْأَبْصَارُ، وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ، وَأُنْضِيَتِ الْأَبْدَانُ. اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ مَرَاجِلُ الْأَضْغَانِ. اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ، وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾.

الشرح والتفسير

دعاء جامع في ساحة القتال

كما تقدّمت الإشارة إليه أنّ الإمام عليه السلام كان يقرأ هذا الدعاء عندما يواجه العدو في ميدان الحرب، وهذا يدلّ على أنّ الإمام عليه السلام يهدف من ذلك لفت نظر أتباعه إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الغرض من الحرب ليس تحقيق الغلبة والنصر على العدوّ للتوصّل إلى الثروة والمقام ونيل المطامع الدنيوية، بل هو جهاد في سبيل الله ومن أهم العبادات الدينية، وينبغي أن يبتدىء المجاهد في حركته في ميدان القتال باسم الله عزّ وجلّ ويطلب منه النصر على العدوّ، ويخطو في هذا السبيل بنيّة خالصة وبقلب مفعم بالعشق الإلهيّ، ويهجم على العدو من موقع الاستقامة والإيمان والإخلاص.

يقول الإمام عليه السلام في مطلع الدعاء: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَفْضَتِ[1] الْقُلُوبُ وَمُدَّتِ الْأَعْنَاقُ وَشَخَصَتِ[2] الْأَبْصَارُ وَنُقِلَتِ الْأَقْدَامُ وَأُنْضِيَتِ[3] الْأَبْدَانُ».

---

١. «أفضت» من «الإفضاء» و «فضاء» بمعنى الوصول إلى الشيء، وكأنّه ورد في دائرة فضائه وأجوائه.

٢. «شخصت» من «الشخوص» بمعنى تحديق العين بالشيء بحيث أنّ سواد العين ثابت والجفن لا يتحرك.

٣. «أنضيت» من «الإنضاء» بمعنى إضعاف بدن الإنسان أو الحيوان وجعله نحيفاً، وتأتي بمعنى الاستنزاف والاستهلاك والإساءة أيضاً.

وهذا إشارة إلى أنّ الهدف النهائي للحرب مع قوى الباطل هو طلب رضا الله تعالى، وأننا في كلّ خطوة نخطوها في هذا الطريق، فهي من أجلك وباتّجاهك.

أجل، فالمجاهدون المسلمون يهدفون من جميع أعمالهم وبرامجهم نيل رضا الله تعالى وامتثال أمره، ولذلك يقول القرآن الكريم:

﴿ما كانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفّارَ وَلا يَنالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وادِياً إِلّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في سياق هذا الدعاء يشير إلى الباعث لهذه الحرب لدى العدو ليعلم أفراد الجيش الإسلامي بحقيقة الأمر فيكونوا على بيّنة من مواقعهم وغاياتهم ويقول: «اللَّهُمَّ قَدْ صَرَّحَ مَكْنُونُ الشَّنَآنِ، وَجَاشَتْ[2] مَرَاجِلُ[3] الْأَضْغَانِ[4]».

وهذا إشارة إلى أنّ عناصر الحقد والبغضاء لدى هؤلاء الأعداء، والتي بقيت مكبوتة منذ زمان الجاهلية وصدر الإسلام بسبب ما حقّقه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله من النصر المؤزّر عليهم، قد تجلّت وظهرت في هذا الوقت، لأنّهم وإن أظهروا الإسلام وادّعوا الإيمان حسب الظاهر، ولكنّهم مازالوا يخفون الحقد والعداوة في قلوبهم وقد وجد هؤلاء المنافقون الأرضية الخصبة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لإبراز حقدهم الدفين وإظهار ضغائنهم ضدّ الإسلام والمسلمين.

فمن ينكر أن معاوية وهو ابن أبي سفيان العدو الأوّل للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وابن هند

---

١. سورة التوبة، الآيتان ١٢٠ و ١٢١.

٢. «جاشت» من مادة «جيش» على وزن «عيش» بمعنى الغليان، وهذا المفردة تطلق على الغليان الظاهري للأشياء وكذلك الغليان المعنوي والباطني، مثل غليان الغم والحزن في داخل الصدور.

٣. «مراجل» جمع «مرجل» على وزن «منبر» بمعنى القدور.

٤. «أضغان» جمع «ضغن» وهو الحقد.

المعروفة بآكلة الأكباد، وأنصاره وأتباعه من المنافقين وأعداء الإسلام كانوا في عصر ظهور الإسلام يواجهون الرسالة الإلهيّة من موقع الحقد والعداء الشديد وقد خلّفت المعارك فيهم أحقاداً بدرية وحنينية وغيرها.

وهذه الحقيقة بمثابة الدرس لأصحاب وأنصار الإمامعليه السلام ليعلموا من يقاتلون ولأيّ غرض يجاهدون.

وفي ختام هذا الدعاء يلتجيء الإمامعليه السلام مرّة أخرى إلى رحمة الله ولطفه ويعكس ذلك صفاء قلبه ونورانية باطنه وحبّه لجميع الخلائق حتى الأعداء منهم، ويقول: «اللَّهُمَّ إِنَّا نَشْكُو إِلَيْكَ غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا ﴿رَبَّنَا افْتَحْ[1] بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[2]».

وهذه العبارات تعتبر غاية ما يعيشه الإمام عليّعليه السلام من حالات اللطف والمحبّة حتّى بالنسبة للأعداء والمنحرفين والضالّين حيث يعبّر عنهم: «قَوْمِنَا» وقوله: «غَيْبَةَ نَبِيِّنَا، وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا» بدلاً من قوله «ربنا انصرنا» وكذلك ما ورد من هذه العبارات «غَيْبَةَ نَبِيِّنَا» و«وَكَثْرَةَ عَدُوِّنَا» و«وَتَشَتُّتَ أَهْوَائِنَا» كلّها تشير إلى أنّ الغرض الأقصى للإمام عليّعليه السلام يتلخّص إلى جذبهم إلى طريق الحقّ والصواب وأن يتّحد المسلمون صفّاً واحداً في مقابل الأعداء.

٭٭٭

١. «افتح» من مادة «فتح» تأتي أحياناً بمعنى النصر وأخرى بمعنى فتح الباب أو القفل، وثالثة بمعنى التحكيم، وكلّها تشترك بنوع من فتح الشيء المغلق.

٢. سورة الأعراف، الآية ٨٩.

١٦

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

لِأَصْحَابِهِ عِنْدَ الْحَرْبِ[1]

نظرة إلى الرسالة

إنّ هذه الرسالة، والأصحّ هذا الكلام، لأمير المؤمنين عليه السلام الذي تحدّث فيه لأصحابه في ميدان الحرب يهدف لبيان فنون القتال وأسرار المجابهة والنصر على العدوّ لأصحابه وأنصاره، وقد رأينا فيما تقدّم من التوصيات العسكرية أنّها تمثّل تعاليم لكيفية الحركة والتوجّه إلى ميدان القتال واتّخاذ المواقع الحسّاسة في مقابل العدو، والإمام في هذه الكلام يبيّن فنون الحرب والقتال لأنصاره وجنوده، وفي المقطع الأخير من هذا الكلام يطرح الإمام عليه السلام في الحقيقة جواباً عن سؤال ربّما يثيره البعض من أصحابه أو يدور في خلجات قلبه، ويجيب عنه بأننا عندما نقاتل معاوية وأعوانه وأنصاره فإنّ ذلك لا يعتبر حرباً ضدّ المسلمين، فلو أنّ بني أُمية

---

١. سند الرسالة:

هذا الكلام في الحقيقة يمثّل مقطعاً من كلام الإمام عليه السلام لأصحابه في أحد أيّام معركة صفين، ويستفاد من كلام ابن أبي الحديد أنّه استمرار للخطبة ٦٢ (وفقاً للترقيم الوارد في نهج البلاغة لصبحي الصالح الخطبة ٦٤).

وعلى أية حال فمن جملة الأشخاص الذين نقلوا هذه الخطبة قبل السيد الرضي المرحوم الشيخ الكليني في كتاب الكافي، كتاب الجهاد في عدّة عبارات، وذكر نصر بن مزاحم أيضاً في كتاب صفين مقطعاً منه، والعجب أنّ الوارد في كتاب نهج البلاغة الكامل مقطع من هذا الكلام لا كله. (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٢).

وعلى رأسهم أبا سفيان أظهروا الإسلام في الماضي فإنّهم في الحقيقة يتظاهرون بالإسلام ويتقنعون بالإيمان، ولذلك عندما وجدوا أعواناً وأنصاراً لإظهار الكفر والشرك ونزع رداء الإسلام لم يمتنعوا من الإعلان عن نواياهم والبوح بمكنوناتهم.

لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ بَعْدَهَا كَرَّةٌ، وَلَا جَوْلَةٌ بَعْدَهَا حَمْلَةٌ، وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا وَاذْمُرُوا أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ الدَّعْسِيِّ، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ، وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ. فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ.

الشرح والتفسير

تقوية عزائم الجند

يبيّن الإمامعليه السلام في هذا الكلام الدقيق والزاخر بالمضامين العميقة، ستّ توصيات عسكرية مهمّة وبعبارات بليغة ومقتضبة.

يقول الإمامعليه السلام في التوصية الأُولى والثانية: «لَا تَشْتَدَّنَّ عَلَيْكُمْ فَرَّةٌ[1] بَعْدَهَا كَرَّةٌ[2]، وَلَا جَوْلَةٌ[3] بَعْدَهَا حَمْلَةٌ».

والمقصود من الجملة الأُولى أنّ المقاتلين أحياناً تفرض عليهم الظروف والتحديّات الصعبة التراجع والانسحاب المؤقّت فيتوهّم العدو وجود ثغرة وضعف فيكم فيسارع في ملاحقتكم، وفجأة يعود أفراد الجيش إلى تماسكهم ويحملوا

---

١. «فرّة» وتعني المرّة من الفرار.

٢. «كرّة» بمعنى المرّة من العودة الهجوم على العدو، ومن هنا سمي الإمام علي عليه السلام بالكرّار لأنّه كان يكثر من العودة إلى العدو والهجوم عليه.

٣. «جولة» بمعنى الدوران في الميدان والتحرك من هذه الجهة إلى تلك. (وهذه المفردة تأتي بمعنى المصدر واسم المصدر أيضاً، وذهب بعض إلى أنّ «جولة» تعني الفرار لمدّة قصيرة، ولكن مع الالتفات إلى سياق كلام أمير المؤمنينعليه السلام أعلاه فإنّ هذا المعنى مستبعد.

حملة واحدة على العدو ويحطّموا قواه ويبعثروا صفوفه، وهذا في الحقيقة نوع من الانسحاب التكتيكي المتداول في الحروب المعاصرة، وأحياناً يكون الإصرار على المقاومة والثبات في أرض المعركة يكلّف الجيش غالياً ولذلك يقول الإمام عليه السلام: لاتأسفوا على مثل هذا الفرار والتراجع الذي يستتبع الهجوم الصولة على العدو، ويشير الإمام عليه السلام في الجملة الثانية إلى حالات الجولة من هذه الجهة قبل ابتداء الهجوم، لأنّ الفارس الشجاع أحياناً يضطرّ لتغيير مواقعه في ميدان القتال للعثور على موقع مناسب للهجوم على العدو، فيعثر على المنفذ المناسب للحملة أو يتراجع لغرض إنهاك العدو واستنزاف طاقاته وأتعابه، وعلى ضوء ذلك فلا إشكال في الفرار الذي يتبعه هجوم، ولا في الجولات وتغيير المواقع التي تستتبع إيجاد ثغرة في صفوف العدو والنفوذ منها لتحطيم قواه وقدراته الدفاعية.

وبعبارة أخرى أنّ بعض الأشخاص المغرورين تصوّروا أنّ الفرار يعدّ عيباً ونقصاً كيف ما كان، وكذلك تأخير الهجوم على العدوّ بجولات متعددة، في حين أنّ كلّاً من هذه الأمور لا يعدّ عيباً أو نقصاً، بل هو نوع من أساليب المواجهة التي تضمن في الكثير من الموارد النصر على العدو.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يأمر في التوصية الثالثة والرابعة ويقول: «**وَأَعْطُوا السُّيُوفَ حُقُوقَهَا، وَوَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ مَصَارِعَهَا**[1]».

يعدّ السيف أهم سلاح يستخدم في ميدان القتال في ذلك العصر، فعندما يواجه الفارس العدو بسيفه فينبغي الاستفادة القصوى من هذا السلاح وأداء حقّه في الضرب والطعن.

وجملة «**وَطِّئُوا لِلْجُنُوبِ ...**» إشارة إلى أنّ ضرباتكم للعدو يجب أن تكون من الشدّة بدرجة تستتبع سقوط العدو على الأرض في الضربات الأُولى وكأنّكم بهذا الضرب المتوازي والشديد قد أعددتم سلفاً مصارع أفراد العدو وأماكن سقوطهم

١. «مصارع» جمع «مصرع» بمعنى محل سقوط الشخص.

على الأرض صرعى.

واحتمل البعض أنّ هذا الكلام إشارة إلى مواطن أفراد الجيش الإسلامي، يعني أنّكم في الوقت الذي ترومون تحقيق النصر على العدو ينبغي أن تكونوا مستعدين للشهادة في سبيل الله وتوطّنوا لأنفسكم مكاناً لمصرعكم وسقوطكم على الأرض شهداء في سبيل الله.

ولكن مع الالتفات إلى ما ورد في الجملة السابقة والجملة اللاحقة فإنّ هذا المعنى بعيد، لأنّ كلتا الجملتين تدعوان الجند إلى بانزال ضربات قاصمة بالعدو.

وفي التوصية الخامسة والسادسة، التي تقع أيضاً في سياق الحديث عن الضربات القاصمة على العدو يقول الإمامعليه السلام: «**وَاذْمُرُوا[1] أَنْفُسَكُمْ عَلَى الطَّعْنِ[2] الدَّعْسِيِّ[3]، وَالضَّرْبِ الطِّلَحْفِيِّ[4]**».

الواقع أنّ الإمامعليه السلام في هذه العبارة يدعو المقاتلين للاستفادة من جميع الأدوات المتداولة في ذلك الزمان فتطعنوا بالرماح جسد العدو بحيث ينهار تماماً ويسقط على الأرض مضرّجاً بدمه وتضربوا بسيوفكم على هامات القوم بحيث يلفظوا أنفاسهم مغها، ومن أجل تحقيق هذا الغرض لابدّ من تهييج أحاسيسكم وتفوير مشاعركم من خلال الاستعانة بالله تعالى لأنّ النصر الحاسم إنّما يكون من نصيب الجماعة التي تقاتل بشدّة وتنزل ضربات سيوفها ورماحها على العدو بأشدّ قوّة.

وفي التوصية السابعة والأخيرة يقول: «**وَأَمِيتُوا الْأَصْوَاتَ، فَإِنَّهُ أَطْرَدُ لِلْفَشَلِ**».

---

١ . «اذمُرُوا» فعل أمر من مادة «ذمر» على وزن «أمر» بمعنى التثوير وتهييج النفس على فعل معين.

٢ . «الطَّعْن» بمعنى ادخال الرمح في بدن العدو، وهذه المفردة تأتي كناية أيضاً ويراد بها إبراز عيوب الشخص والتنقيص من شخصيته.

٣ . «دعسيّ» من مادة «دعس» على وزن «درس» بمعنى إملاء، وتأتي أحياناً بمعنى التأثير، وهذا المفردة عندما تأتي بمعنى إدخال الرمح في بدن العدو وكأنّ الرمح قد ملأ جوف العدو وأثر في بدنه.

٤ . «طلحف» بمعنى الشديد.

الأشخاص الذين يمارسون الصراخ والصياح في ميدان القتال ربّما يتبادر إلى ذهن العدو أنّ ذلك ناشيء من خوفهم ووحشتهم، وبالتالي يؤدّي ذلك إلى رفع معنويات العدو من جهة، ومن جهة أخرى ربّما يفضي الصياح إلى استنزاف القوى الجسمية والفكرية لهؤلاء الرجال ويقلّل من قدرتهم علىٰ مقاومة العدو، ولهذا السبب يأمر الإمامعليه‌السلام بعدم صرف الطاقات في الصياح والصراخ، والالتفات بشكل كامل إلى مواجهة العدو في ميدان العمل والممارسة.

وطبعاً هذا العمل لا يتنافى مع رفع الأصوات بالتكبير عند تحقّق النصر، وحتى التكبير ينبغي أن يكون محدوداً ومحسوباً ولا ينبغي الإفراط فيه لأنّ ذلك مخالف لهذا التوصية.

ولهذا السبب ورد في كتب التاريخ عن واقعة بدر أنّ المشركين عندما شاهدوا جيش الإسلام بعددهم القليل في مقابل جيش الكفر والشرك، تصوّروا أنّ مجموعة من المسلمين تكمن لهم خلف التلال حتى تسنح لهم الفرصة المناسبة ويهجموا على قوى الشرك، ولذلك أرسلوا عمر بن وهب للتحقّق في هذا الأمر والبحث عن الكمين في نواحي المنطقة، فتوجّه عمر بن وهب لاستطلاع الموقف ورأى أنّ مواقع جيش الإسلام مستحكمة ورصينة فرجع إلى موقعه وقال لقادة جيش الشرك: إنّ المسلمين ليس لديهم أيّ كمين أو مدد غير الثلّة الحاضرة في الميدان، ولكنني أظنّ أنّ إبل يثرب المحمّلة ستحمل الموت لكم، ثم أضاف: «أَمَا تَرَوْنَهُمْ خُرْسٌ لَا يَتَكَلَّمُونَ يَتَلَمَّظُونَ تَلَمُّظَ الْأَفَاعِي مَا لَهُمْ مَلْجَأٌ إِلَّا سُيُوفَهُمْ وَمَا أَرَاهُمْ يُوَلُّونَ حَتَّى يُقْتَلُوا وَلَا يُقْتَلُونَ حَتَّى يَقْتُلُوا بِعَدَدِهِمْ فَارْتَئُوا رَأْيَكُم»[١].

ثم يبيّن الإمامعليه‌السلام في ختام هذا الكلام نقطة أخرى وهي في الواقع تعتبر جواباً عن سؤال مقدّر أو مذكوراً في كلمات أصحابه عندما تصوّروا أنّ معاوية وأتباعه هم

١. بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٢٥٢.

من المسلمين، فكيف نقاتل المسلمين؟ فيقول الإمامعليه السلام: «فَوَ الَّذِي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ[1]، مَا أَسْلَمُوا وَلَكِنِ اسْتَسْلَمُوا، وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ، فَلَمَّا وَجَدُوا أَعْوَاناً عَلَيْهِ أَظْهَرُوهُ».

وعندما يختم الإمامعليه السلام بصفات الله تعالى ويؤكّد على انشقاق الحبّ تحت التراب وخلق الإنسان، ذلك يعود إلى أنّ هذه المظاهر في عالم الخلقة تعتبر من أعجب الأفعال الإلهيّة، فالحبوب عندما توضع تحت التراب وهي مغلفة بقشرة قوية وصلبة وتصل إليها رطوبة التراب، فيكفي ذلك لأن تبعث فيها الروح والحركة في داخلها حيث تبدأ النطفة بالنموّ وتظهر بعد ذلك السيقان الناعمة للنبات، هذه الساق اللطيفة عندما واجهت الضيق في داخل إطار الحبّة كسرت هذا الإطار والقشرة وأخرجت رأسها من التراب وانفصلت عن أُمّها وأصلها واتّخذت سبيلها للنموّ والارتفاع إلى أن تصير بعد ذلك شجرة باسقة، وهكذا الحال في نطفة الإنسان في رحم الأم، حيث يعيش الجنين خلقاً آخر ويتكامل تدريجياً ويتخذ لنفسه شكلاً جديداً من خلال سلسلة من التحوّلات المعقّدة والدقيقة والسريعة في ذات الوقت ويتبدل الجنين إلى إنسان كامل، وعندما يجد الجنين أنّ رحم الأم لا يكفي في استمرار حياته ورشده ونموّه فإنّه يعزم على الخروج من الرحم ويغادر رحم أُمّه بهيجان ويخطو الخطوة الأُولى نحو الولادة والمجيء إلى الدنيا.

إنّ التمعن في ظاهرة نموّ النباتات وولادة البشر من شأنها أن تعرّف الإنسان أكثر على عظمة الله وقدرته اللامتناهية، ومن هنا نرى أنّ النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله والأئمة المعصومينعليهم السلام يقسمون أحياناً بهذه الصفات الإلهيّة، ولا ينبغي الغفلة عن أنّ هذه العبارات وردت في زمن لم يتولد علم النبات وعلم الإجنّة.

---

١ . «نسمة» بمعنى الإنسان وأحياناً تأتي بمعنى الروح، وأخرى تطلق على كل موجود ذي روح، وأصلها من النسيم وهو الريح الخفيفة والناعمة.

تأمّلان

١. شواهد حيّة على عقائد بني أُميّة الواقعية

في آخر كلمة من كلام الإمام عليه السلام مورد البحث يصرّح الإمام عليه السلام بأنّ مخالفه (معاوية وأتباعه)، لم يقبلوا بالإسلام طرفة عين، بل خضعوا له من موقع الإجبار والإكراه، ولذلك عندما وجدوا أنصاراً وأعواناً أظهروا كفرهم الباطني.

وربّما يكون قبول هذا الكلام صعباً بالنسبة لبعض المسلمين من أهل السنّة، ولكن إلقاء نظرة إلى كتب الصحاح وسائر المصادر لأهل السنّة يدلّ على هذه الحقيقة الحاسمة، ونحن هنا نستعرض بعض الروايات المذكورة في مصادرهم المعروفة عن عقائد معاوية وأعماله دون أن نضيف إليها شيئاً، ونترك الحكم عليها بعهدة القراء الأعزاء:

١. ورد في صحيح مسلم أنّ عبدالرحمن بن عبد ربّ الكعبة يقول: «دخلت المسجد (المسجد الحرام) فإذا عبدالله بن عمرو بن العاص جالس في ظلّ الكعبة والناس مجتمعون عليه، فأتيتهم فجلست إليه، فقال: كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سفر، فنزلنا منزلاً، فمنّا من يصلح خباءه... فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ...﴾ وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ...﴾[1] قال فسكت ساعة ثم قال: إطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله[2].

٢. ورد في تاريخ الطبري أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله رآه (أباسفيان) مقبلاً على حمار ومعاوية يقود به ويزيد (أخو معاوية) يسوقه به، قال صلى الله عليه وآله: «لَعَنَ اللهُ الْقَائِدَ وَالرَّاكِبَ وَالسَّائِقَ»[3]. (وفي رواية أخرى أنّ الذي كان قابضاً على زمام الدابة هو عتبة أخو

---

١. سورة النساء، الآية ٢٩.

٢. صحيح مسلم، ج ٦، ص ١٨.

٣. تاريخ الطبري، ج ٨، ص ١٨٥، مطبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت.

معاوية ومعاوية كان يسير خلفهم).

٣. وكذلك ورد في تاريخ الطبري أنّ رسول الله ﷺ أشار يوماً إلى مكان وقال: يطلعُ من هذا الفج، رجل من أُمّتي يحشر على غير ملّتي، فطلع معاوية[1].

٤. نقل ابن أبي‌الحديد في شرح نهج‌البلاغة عن كتاب أخبار الملوك: إنّ معاوية سمع مؤذّناً يقول: «أَشْهَدُ اَنْ لاٰ اِلٰهَ إلّاٰ اللهُ» فقالها ثلاثاً. فقال المؤذّن: «أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللهِ» قال معاوية: لله أبوك ياابن عبدالله! ولقد كنت عالي الهمّة، ما رضيت لنفسك إلّا أن يقرن اسمك باسم ربّ العالمين[2].

٥. ويروي أحمد بن حنبل في مسنده عن عبدالله بن بريدة أنّه قال: «دخلت أنا وأبي على معاوية فأجلسنا على الفرش ثمّ أُتينا بالطعام فأكلنا ثم أُتينا بالشراب، فشرب معاوية ثمّ ناول أبي (ثمّ قال:) ما شربته منذ حرّمه رسول الله ﷺ»[3].

٦. يقول ابن أبي‌الحديد في شرح نهج‌البلاغة: «قَدْ طَعَنَ كَثيرٌ مِنْ أَصْحابِنا في دينِ مُعٰاوِيَةَ وَلَمْ يَقْتَصِرُوا عَلىٰ تَفْسيقِهِ وَقٰالُوا عَنْهُ: إنّه كٰانَ مُلْحِداً لاٰ يَعْتَقِدُ النُّبُوَّةَ وَنَقَلُوا عَنْهُ في فَلَتٰاتِ كَلاٰمِهِ وَسَقَطٰاتِ أَلْفاظِهِ مٰا يَدُلُّ عَلىٰ ذٰلِكَ»[4].

٧. ولم تقتصر إشكالية إيمان معاوية وأعماله على هذا الحدّ. فطبقاً لما ذكره ابن عبد ربه في العقد الفريد أنّ الحسن البصري قال: «علم معاوية والله إن لم يبايعه عمرو لن يتمّ له أمر، فقال له: ياعمرو، اتبعني، قال: لماذا؟ للآخرة؟ فوالله ما معك آخرة، أم للدنيا فوالله لا كان حتى أكون شريكك فيها، قال: فأنت شريكي فيها. قال: فاكتب لي مصر وكورها، فكتب له مصر وكورها، وكتب في آخر الكتاب: وعلى عمرو السمع والطاعة. قال عمرو: إنّ السمع والطاعة لا ينقصان من شرطه شيئاً، قال معاوية: لا ينظر الناس إلى هذا، قال عمرو: حتى يكتب، قال فكتب، والله ما يجد بدّاً

١. تاريخ الطبري، ج ٨، ص ١٨٦، مطبعة مؤسسة الأعلمي، بيروت.

٢. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٠، ص ١٠١.

٣. مسند أحمد، ج ٥، ص ٣٤٧.

٤. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ٥، ص ١٢٩.

من كتابتها.

ودخل عتبة بن أبي سفيان على معاوية وهو يكلّم عمراً في مصر، وعمرو يقول له: إنّما أُبايعك بها لديني، فقال عتبة: ائتمن الرجل بدينه فإنّه صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم»[١].

٨. وينقل ابن الأثير أيضاً في كامل التواريخ عن الحسن البصري أنّه قال:

أربع خصال كنّ في معاوية، لو لم تكن فيه إلاّ واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الأُمّة بالسيف حتىٰ أخذ الإمرة من غير مشورة وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة، واستخلافه بعده إبنه سكّيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»! وقتله حجراً.[٢]

٩. وطبقاً لما أورده البيهقي في كتاب المحاسن والمساوي أنّ رجلاً من أهل الشام سأل ابن عباس وقال: من الناكثون، قال: الذين بايعوا عليّاً بالمدينة ثم نكثوا، فقاتلهم بالبصرة وهم أصحاب الجمل، والقاسطون معاوية وأصحابه والمارقون أهل النهروان ومن معهم، فقال الشامي: يابن عباس ملأت صدري نوراً وحكمة وفرّجت عنّي فرّج الله عنك، أشهد أنّ عليّاً رضي الله عنه مولاي ومولى كلّ مؤمن ومؤمنة[٣].

١٠. ونختم هذا المقطع من البحث بكلام عجيب أورده المسعودي في مروج الذهب ونقله الزبير بن بكار في الموفقيّات وابن أبيالحديد في شرح نهجالبلاغة (والملاحظ من بين هؤلاء الثلاثة نرى أنّ الزبير بن بكار لا يوافق الشيعة في عقائدهم فحسب بل من المخالفين لهم) أنّ مطرف بن المغيرة بن شعبة يقول: دخلت مع أبي على معاوية وكان أبي يأتيه، فيتحدّث معه ثم ينصرف إليّ ويذكر معاوية

---

١. العقد الفريد، ج ٥، ص ٨٧.

٢. كامل التواريخ، ج ٣، ص ٤٨٧.

٣. المحاسن والمساوىء، ص ٤٣ طبعة بيروت (مطابق نقل شرح إحقاق الحق، ج ١٥، ص ٦٢).

وعقله ويعجب ممّا يراه منه، إذ جاء ذات ليلة وأمسك عن العشاء ورأيته مغتّماً فانتظرته ساعة وظننت أنّه لأمر حدث فينا، فقلت: ما لي أراك مغتماً منذ الليلة؟ فقال: يا بني جئت من عند أكفر الناس وأخبثهم، قلت: ماذا؟ قال: قلت له وقد خلوت به: إنّك قد بلغت سناً ياأميرالمؤمنين، فلو أظهرت عدلاً وطففت خيراً، إنّك قد كبرت ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم، فوصلت أرحامهم فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه، وإن ذلك ممّا يبقى لك ذكره وثوابه، فقال: هيهات هيهات، أيّ ذكر أرجو بقاءه، ملك أخو تيم فعدل، وفعل ما فعل، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: قال أبوبكر، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين، فما عدا أن هلك حتى هلك ذكره، إلّا أن يقول قائل: عمر، وإنّ ابن أبي كبشة ليصاح به كلّ يوم خمس مرات: (أَشْهَدُ أَنَّ مُحَمّداً رَسُولُ اللهِ) فأيّ عمل يبقى؟ وأيّ ذكر يدوم بعد هذا لا أباً لك «لَا وَاللهِ إِلَّا دَفْناً دَفْنا»[1]، (أي لابدّ من العمل لدفن هذا الاسم أو لدفن بني هاشم إلى الأبد) .

ومرّة أخرى نعيد القول أنّ جميع هذه الموارد المذكورة أعلاه ليست من مصادرنا، بل هي عين عبارات علماء أهل السنة في شأن معاوية ولم نضف أيّ شيء عليها.

٢. فضائل الامام عليّ عليه السلام على لسان أعدائه

بالرغم من أنّ عمرو بن العاص كان مؤيّداً لمعاوية بشكل كامل ولولا حيلته الشيطانية لم ينتصر معاوية في حربه مع الإمام عليه السلام قطعاً، ولكنّه مع ذلك كان أصرح منه في الكلام، وفي بعض المواقع يذكر بشكل صريح أفضلية الإمام عليّ عليه السلام على معاوية ويتحدّث عن شجاعة جيش الإمام عليه السلام في أكثر من مورد.

---

١ . الموفقيات، ص ٥٧٦، طبعة وزارة الاوقاف بغداد، سنة ١٣٩٢؛ مروج الذهب، ج ٢، ص ٤٢٩، طبعة بيروت، سنة ١٩٨٢؛ شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد، ج ٥، ص ١٢٩.

ينقل نصر بن مزاحم في كتابه صفين أشعاراً عجيبة لعمر بن العاص يحقّر فيها معاوية بشدّة ويتحدّث فيها عن جيش الإمام عليّ عليه السلام يقول:

فَــإِنْ وَرَدَتْ فَـأَوَّلُهَا وُرُوداً فَإِنْ سَدَّتْ فَلَيْسَ بِذِي صُدُود

أي أنّ فرسان جيش معاوية عندما يردون ميدان المعركة فسوف نـجدهم فـي المقدّمة، فإذا تصدّوا لجيش العدو فلا أحد يستطيع مواجهتهم والوقوف أمامهم.

ثم يضيف:

وَمَا هِيَ مِنْ أَبِـي حَسَـنٍ بِـنُكْرٍ وَلا هُـوَ مِـنْ مَسَـائِكَ بِـالْبَعِيدِ

أي أنّ فضائل عليّ ليست بالشيء المجهول وغير المعروف ونقاط ضعفك ليست بالبعيدة عن الأنظار.

ثم يشير عمرو بن العاص إلى طلب معاوية من أميرالمـؤمنين عـليّ بـن أبـي طالب عليه السلام فيما يتّصل بحكومة الشام ويقول:

وَقُـلْتَ لَـهُ مُـقَالَةَ مُسْـتَكِينٍ ضَعِيفِ الرُّكْنِ مُنْقَطِعِ الْوَرِيدِ
دَعَنَّ الشَّامَ حَسْبُكَ يَا ابْنَ هِنْدٍ مِنَ السَّوْءاتِ وَالرَّأْيِ الزَّهِيدِ
وَلَوْ أَعْطَاكَهَا مَا ازْدَدْتَ عِـزّاً وَلا لَكَ لَو أَجابَكَ مِـنْ مَـزِيدٍ

فلمّا بلغ معاوية قول عمرو دعاه فقال: ياعمرو، إنني قد أعلم ما أردت بهذا، قال: ما أردت؟ قال: أردت تقبيح رأيي، وإعظام عليّ، وقد فضحك، قال: أمـا تـقبيحي رأيك فقد كان، وأمّا إعظامي عليّاً فإنّك بإعظامه أشدّ معرفة منّي، ولكنك تطويه وأنا أنشره، أمّا فضيحتي فامرؤ لقي أبا الحسن[1].

---

١. وقعة صفين، ص ٤٧٢.

١٧

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إِلىٰ مُعاوِيَةَ جَواباً عَنْ كِتابٍ مِنْهُ إِلَيْهِ[١]

نظرة إلى الرسالة

روى نصر بن مزاحم في كتاب صفين، إنّ الإمام عليّ عليه السلام قال يوماً: سأتوجّه غداً إلى الميدان وأُقاتل هؤلاء القوم، فانتشر هذا الكلام في صفوف جيش معاوية واستولى عليهم الخوف والذعر.

فكتب معاوية إلى عليّ عليه السلام مع رجل من السكاسك، يقال له: عبدالله بن عقبة وكان من ناقلة أهل العراق:

«أما بعد فإنّي ما أظنّك أن لو علمت أنّ الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا لم يحبّها بعضنا على بعض، وإن كنّا قد غلبنا على قولنا فقد بقي لنا منها ما نندم على

---

١. سند الرسالة:

يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: ذكر هذه الرسالة جماعة من المؤرخين قبل السيد الرضي في كتبهم، منهم: نصر بن مزاحم في كتاب صفين، البيهقي في المحاسن والمساوىء، ابن قتيبة في الإمامة والسياسة، المسعودي في مروج الذهب وابن اعثم الكوفي في كتاب الفتوح، وطبقاً لما ذكره نصر بن مزاحم أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة قبل ليلة الهرير بيومين أو ثلاثة أيّام (وليلة الهرير هي الليلة الأخيرة من معركة صفين حيث استمر القتال وخلافاً للمعتاد حتى الليل واستمرت الحرب بين الطرفين إلى الصباح من يوم غد وظهرت علائم الهزيمة على جيش معاوية) (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٤).

ما مضى ونصلح به ما بقي، وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمني لك طاعة ولا بيعة فأبيت ذلك عليَّ، فأعطاني الله ما منعت، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس، فإنّي لا أرجو البقاء إلّا ما ترجو، ولا أخاف من الموت إلّا ما تخاف وقد والله فارقت الأجناد وذهبت الرجال، ونحن بنوعبدمناف فضل الأفضل لا يستذل به عزيز، ولا يسترق به الحرّ، والسلام».

فلما انتهى كتاب معاوية إلى عليّ عليه السلام قرأه ثم قال: العجب من معاوية ولكتابه، ثم دعا عبيد بن أبي رافع كاتبه وقال له: اكتب إلى معاوية...[1].

وطبعاً فإنّ السيد الرضي كما هو دأبه وعادته لم يذكر مطلع هذه الرسالة، ولكنّه أورد القسم المهم منها[2].

١. مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٨.

٢. انظر إلى كتاب نهج البلاغة الكامل، ص ٨٥٢.

القسم الأول

وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ إِلَّا حُشَاشَاتِ أَنْفُسٍ بَقِيَتْ، أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الْحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ. وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَىٰ عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ. وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ، وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ، وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ، وَلَا الصَّرِيحُ كَاللَّصِيقِ، وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ. وَلَبِئْسَ الْخَلْفُ خَلْفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَىٰ فِي نَارِ جَهَنَّمَ.

الشرح والتفسير

المدين في هيئة الدائن

سبق أن ذكرنا أنّ هذه الرسالة تعدّ جواباً لرسالة كتبها معاوية للإمام عليه السلام وتحدّث فيها عن بعض مطالبه، وحسب القاعدة فإنّ معاوية بقراءة مثل هذه الرسائل على المنابر أو على الجند إنّما يبغي تبرئة نفسه من الإثم الذي ارتكبه بحقّ المسلمين، وكذلك حسب القاعدة أنّ هذه الرسالة إن وصلت لأصحاب الإمام عليه السلام أيضاً ربّما يتأثر بها بعض السذّج من الناس، ومن هنا لم يجد الإمام عليه السلام بدّاً من كتابة رسالة جوابية للردّ على ما جاء فيها بشكل حاسم.

ولذلك نرى أنّ الإمام عليه السلام أشار في هذه الرسالة إلى أربعة أمور محورية في

مقابل أربعة ادّعاءات لمعاوية.

في البداية يقول الإمام عليه السلام: «**وَأَمَّا طَلَبُكَ إِلَيَّ الشَّامَ فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُعْطِيَكَ الْيَوْمَ مَا مَنَعْتُكَ أَمْسِ**»، وكما هو معلوم أنّ معاوية طلب الشام دون أن يبايع أو يلتزم بطاعة أوامر الإمام عليه السلام.

ومنع الإمام عليه السلام بدوره يقوم على أساس الحكم الإلهي الذي يقرر منع الظالمين والمفسدين من تولّي أمور البلاد الإسلاميّة، وأنّه لا ينبغي أن تكون أيّ منطقة أو إمارة في الحكومة الإسلاميّة بيد المنحرفين وقوى الفسق والجور، وهذا الحكم الشرعيّ لازال باقٍ على قوّته، فليست هذه المسألة من المسائل السياسية التي تتغيّر وفقاً لتغيّر الظروف وتبدّل المصالح.

وهذا الكلام في الواقع يعدّ جواباً للأشخاص الذين يقولون: ألم يكن الأفضل أن يدع الإمام الشام بيد معاوية بشكل مؤقت ثم يعزله عن هذا المقام بعد استقرار حكومته واستتباب الأمن فيها؟

إنّ هؤلاء لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الإمام عليه السلام إذا أذعن لطلب معاوية وأوكل حكومة الشام إليه، (وطبقاً لبعض الروايات أنّ معاوية طلب حكومة مصر أيضاً) وفسح المجال لمعاوية لتقوية أركان سلطته وسيطرته على منطقة الشام فإنّ إزاحته بعد ذلك ستكون مستحيلة. والحال نرى أنّ الإمام عليه السلام في حرب صفّين كان قد اقترب من النصر الحاسم على جيش معاوية وشارف على دفع هذه الفتنة والشرّ من البلاد الإسلاميّة لولا سلوك بعض الجهلاء والانتهازيين ممّن كانوا في جيش الإمام عليه السلام ظاهراً.

ثم يتحدّث الإمام عليه السلام في المقطع الثاني من هذه الرسالة جواباً عن كلام معاوية الآخر ويقول: «**وَأَمَّا قَوْلُكَ: إِنَّ الْحَرْبَ قَدْ أَكَلَتِ الْعَرَبَ**[1] **إِلَّا حُشَاشَاتِ**[2] **أَنْفُسٍ بَقِيَتْ**،

---

١. طبقاً لبعض الروايات أنّ عدد القتلى في حرب صفين من جيش معاوية ٤٥ ألفاً، ومن جيش الإمام عليه السلام ٢٥ ألفاً.

٢. «حُشاشات» جمع «حشاشة» بمعنى النفس الأخير.

أَلَا وَمَنْ أَكَلَهُ الحَقُّ فَإِلَى الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَكَلَهُ الْبَاطِلُ فَإِلَى النَّارِ».

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى الجواب الثالث لمعاوية الذي قال في رسالته: أنا وأنت في هذه الحرب سيّان (وأننا كلينا نتبع هدفاً واحداً ونطلب أمراً واحداً. يقول الإمام في مقام الجواب: «**وَأَمَّا اسْتِوَاؤُنَا فِي الْحَرْبِ وَالرِّجَالِ فَلَسْتَ بِأَمْضَى**[1] **عَلَى الشَّكِّ مِنِّي عَلَى الْيَقِينِ، وَلَيْسَ أَهْلُ الشَّامِ بِأَحْرَصَ عَلَى الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ عَلَى الْآخِرَةِ**».

وهذا الكلام إشارة إلى وجود أمرين مختلفين بين أصحابي وأصحابك، فأصحابي يسيرون مع إمام عادل وعالم بتكليفه الشرعيّ وأنّهم يسيرون على بصيرة من حركتهم ودينهم، في حين أنّك لا تملك هدفاً واضحاً سوى التوصّل إلى المال والمقام.

والآخر أنّ أصحابك حريصون على الدنيا وأنّك استطعت جرّهم إلى الميدان بالوعود المادية والمغريات الدنيوية عسى أن يصيبوا من الغنائم في هذه المعركة، في حين أنّ قادة جيشي لم يتحرّكوا طمعاً بالجائزة ولم يفكّروا في هذا الأمر أيضاً.

وبتعبير آخر، أنّك لا تملك اليقين على استحقاقك للخلافة والرئاسة على الناس، في حين أنني على يقين من ذلك، وأنّ أتباعك يقاتلون طلباً للدنيا، في حين أنّ أتباعي لا يهدفون من قتالك سوى نيل رضا الله تعالى وإقامة الحكومة الإلهيّة العادلة على الأرض، ولهذين السببين نحن أكثر عزماً وأمضى سعياً منكم في هذا المسير المعنوي، في حين أنّك وأتباعك لا تملكون هذه الروحية والمعنوية، ونتيجة ذلك أننا لسنا سواء في هذا الأمر وأنّ النصر النهائي سيكون من نصيبنا قطعاً، وهكذا تحقّقت نبوءة الإمام عليه السلام ووصل جيش الإمام إلى مشارف النصر النهائي، ولكن للأسف فإنّ جماعة من الجهلة ومن بينهم ثلّة من المنافقين أجهضوا هذا النصر ولم يتحقّق ما كان الإمام يصبو إليه.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض للجواب عن الإدعاء الرابع لمعاوية ويقول: «**وَأَمَّا**

---

١. «امضى» بمعنى شدة التأثر والنفوذ في الإقدام والعمل وهي من «المضي» بمعنى العبور والمرور.

قَوْلُكَ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ مَنَافٍ، فَكَذَلِكَ نَحْنُ»، فهنا يتعرّف الإمام بهذه الحقيقة، وهي أننا جميعاً أبناء عبدمناف وهذا صحيح لا ريب فيه.

ثم إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض للفوارق بينه وبين معاوية ويذكر منها خمسة أمور.

ففي البداية يشير إلى الشرف في النسب، ويقول: «وَلَكِنْ لَيْسَ أُمَيَّةُ كَهَاشِمٍ، وَلَا حَرْبٌ كَعَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَلَا أَبُو سُفْيَانَ كَأَبِي طَالِبٍ».

وهذا إشارة إلى أنّ جدّك الأعلى هو أمية وجدّك الأدنى هو حرب، وأباك أبو سفيان، وكلّهم معروفون بين العرب بالشرّ والدناءة والخسّة، في حين أنّ جدّي الأعلى هاشم وجدّي الأدنى عبدالمطلب وأبي أبو طالب، وكلّهم من سادات العرب ومن كرمائهم وأشرافهم، فكيف يمكن مقايسة هؤلاء بأولئك، والحال أنّهم ليسوا سواء.

ثم يشير الإمام عليه السلام إلى التفاوت الثاني والثالث، ويقول: «وَلَا الْمُهَاجِرُ كَالطَّلِيقِ[1]، وَلَا الصَّرِيحُ[2] كَاللَّصِيقِ[3]».

وهو إشارة إلى أنني كنت من أوائل المهاجرين من مكة إلى المدينة مع رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنّك وأبا سفيان كنتما تعيشان في ظلمات الشرك والكفر في مكّة إلى أن فتحها جيش الإسلام وحكم النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بإطلاق سراحك وسائر الأسرى من قومك عندما قال: «إذْهَبُوا فأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ».

ومن جهة أخرى، فإنّ نسبنا معروف وصريح، ولكن نسبك غامض وفيه الكثير من الكلام، فبعض لا يرى أنّك ابن أبي سفيان بل الابن غير المشروع لمسافر بن أبي عمرو وهو من عبيد أبي سفيان، وطبعاً هذا الكلام لا يتنافى مع ما ذكره الإمام عليه السلام من أبي معاوية يعني أبا سفيان لأنّ تلك الجملة قالها الإمام عليه السلام وهو يتماشى مع

١. «طليق» بمعنى الأسير المتحرر من «الطلاق» بمعنى التحرر والإنفلات.

٢. «صريح» تطلق على الشخص الذي يملك نسباً خالصاً وواضحاً.

٣. «لصيق» يقع على الضد من صريح، ويعني الشخص غير واضح النسب والذي ينسب لشخص أو قبيلة ويلتصق به.

الأُمور بحسب الظاهر، وهذه الجملة إشارة إلى أنّه لو تمّ البحث والتدقيق في نسبك، فهناك كلام كثير في ذلك.

ومع هذا فإنّ ابن أبيالحديد لا يرى هذا التفسير منسجماً مع الجملة الأخيرة وذهب لتفسير آخر لهذا العبارة وقال: المراد من الصريح هو الشخص الذي اعتقد بالإسلام اعتقاداً راسخاً، واللصيق هو الشخص الذي اعتنق الإسلام خوفاً من السيف أو بدافع حبّ الدنيا[1].

وهذا التفسير وإن كان خلاف ظاهر العبارة، ولكن على فرض أن يكون صحيحاً فذلك يعني أيضاً وجود تفاوت جليّ بين الإمامعليه السلام ومعاوية في هذا المجال.

ثمّ يتعرّض الإمامعليه السلام لذكر الفرق والاختلاف في الصفات والأفعال الدينية والإنسانية بين الطرفين ويقول: «**وَلَا الْمُحِقُّ كَالْمُبْطِلِ، وَلَا الْمُؤْمِنُ كَالْمُدْغِلِ**[2]».

وهذا إشارة إلى أنّ الاختلاف بيننا لا ينحصر بانتسابنا إلى بني هاشم وانتسابك إلى بني أُمية، فإنّ صفاتنا وأفعالنا أيضاً لا تقبل القياس والمقارنة، فنحن نسير دوماً في خطّ الحقّ والخير والإيمان، بينما بنو أُمية يسيرون في خطّ الباطل والشرّ، ونحن آمنّا بالإسلام والنبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله من موقع الإخلاص، ولكنكم أظهرتم الإيمان والإسلام من موقع النفاق (والحوادث التاريخية تثبت ذلك).

ويقول الإمامعليه السلام في نهاية هذه الفقرة: «**وَلَبِئْسَ الْخَلَفُ خَلَفٌ يَتْبَعُ سَلَفاً هَوَىٰ**[3] **فِي نَارِ جَهَنَّمَ**».

والجدير بالذكر أنّ الإمامعليه السلام لا يذمّ معاوية على انحراف أسلافه وجدّه وأبيه فقط، بل يؤكّد في كلامه على أنّ هذا الابن يسير في طريق آبائه الضالّين الذين ينتهي مصيرهم إلى النار.

---

١. انظر: شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١١٨.

٢. «مُدغل» بمعنى المفسد والمثير للفتنة من مادة «دغل» بمعنى الفتنة والفساد.

٣. «هوى» من «الهُوِيّ» بضم الهاء وتشديد الياء، وهي في الأصل السقوط من مرتفع، وبما أنّ نتيجته الهلكة والموت، فلذلك تطلق هذه المفردة على الهلكة أيضاً.

القسم الثاني

وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَ نَعَشْنَا بِهَا الذَّلِيلَ. وَلَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً، عَلَىٰ حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الْأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ. فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلَا عَلَىٰ نَفْسِكَ سَبِيلاً، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

النبوّة افتخار كبير

ويشير الإمام عليه السلام في هذا القسم من كتابه إلى ما ذكره معاوية في رسالته حيث قال: «لِبَعْضِنَا فَضْلٌ عَلَىٰ بَعْضٍ»، وأنّه لا فضل لأحدنا على الآخر، وعلى فرض وجود فضيلة فهي جزئية لا تعزّ الذليل ولا تذلّ العزيز، فيجيبه الإمام عليه السلام جواباً حاسماً ويقول: «وَفِي أَيْدِينَا بَعْدُ فَضْلُ النُّبُوَّةِ الَّتِي أَذْلَلْنَا بِهَا الْعَزِيزَ، وَنَعَشْنَا[1] بِهَا الذَّلِيلَ».

وهذا إشارة إلى أنّ الإسلام عندما انتشر في الجزيرة العربية كان أمثال أبي‌سفيان وأبي جهل الذين حكموا الناس سنين متمادية من موقع الظلم والجور، أضحوا أذلّاء، بينما أعزّ الإسلام أمثال سلمان والمقداد وعمّار وياسر وبلال الذين

---

١. «نعشنا» من مادة «نعش» بمعنى رفع الشيء، ويقال للتابوت نعش الميت لأنّه مرتفع عن الأرض أو أنّه مرفوع على الأيدي، والمراد من الجملة أعلاه أنّ الأشخاص الذين يعيشون الذلة والمهانة أضحوا بالإسلام وفي ظل الإيمان أعزاء.

كانوا غالباً يعيشون أجواء الأسر والذلة والعبودية، فرفعهم الإسلام إلى أوج العزّة، وبذلك كيف تقول أنّ نبوّة نبيّ الإسلامﷺ لم تؤثّر أثراً في هذا المجال.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام أخذ بيد معاوية وأرجعه إلى عصر النبيّ الأكرمﷺ وكيف كان اعتناقهم للإسلام هو وأهل بيته، وقال: «وَلَمَّا أَدْخَلَ اللهُ الْعَرَبَ فِي دِينِهِ أَفْوَاجاً، وَأَسْلَمَتْ لَهُ هَذِهِ الْأُمَّةُ طَوْعاً وَكَرْهاً، كُنْتُمْ مِمَّنْ دَخَلَ فِي الدِّينِ: إِمَّا رَغْبَةً وَإِمَّا رَهْبَةً».

وهو إشارة إلى فتح مكة كما يتحدّث القرآن الكريم عن ذلك ويقول: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾[1]. في ذلك اليوم دخل الكثير من الناس الإسلام بدافع الإخلاص والإيمان وطهّروا قلوبهم من لوث عبادة الأصنام، ولكنّ المشركين المتعصّبين والانتهازيين الذين كانوا يحاربون الإسلام والدعوة الإلهيّة سنين متمادية اضطرّوا إعتناق الدين الجديد ظاهراً وأذعنوا مكرهين لهذه الحقيقة، فأبوسفيان وهو العدوّ الأول للإسلام وأبو معاوية كان من الأشخاص الذين اعتنقوا الإسلام ظاهراً، وكذلك أظهر أهل بيته وأقربائه الإسلام من موقع الإكراه ولم تؤمن قلوبهم.

ومنذ ذلك اليوم تغيّرت الخارطة وأخذ أعداء الإسلام يفكرون في إيجاد ثغرة في صفوف المسلمين، والنفوذ من خلالها إلى مواقع القرار والحكم، وليجلسوا في مجلس النبيّ الأكرمﷺ، وعبارة «رغبة» المذكورة أعلاه إشارة إلى هذا المعنى، وهذه الرغبة لا تتنافى مع وجود «الرهبة» يعني أنّ قبولهم للإسلام اقترن فيه الخوف مع الأمل والرغبة في الوصول إلى المقام وسدّة الحكم في المستقبل.

فهل يمكن مقارنة مثل هذا الإسلام بإسلام أميرالمؤمنين الإمام عليّعليه السلام الذي أسلم منذ بداية بعثة النبيّ الأكرمﷺ وتصدّى للدفاع عن الرسالة والرسول في تلك الظروف الصعبة وصاحب النبيّﷺ في أيّام الوحدة والغربة؟

---

١. سورة النصر، الآيات ١-٣.

وعلى هذا الأساس يقول الإمام عليّ عليه السلام بعد ذلك: «عَلَىٰ حِينَ فَازَ أَهْلُ السَّبْقِ بِسَبْقِهِمْ، وَذَهَبَ الْمُهَاجِرُونَ الأَوَّلُونَ بِفَضْلِهِمْ».

وهذا الكلام يشير إلى تقسيم المسلمين إلى عدّة طوائف كما ورد ذلك في القرآن الكريم: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[1]، فهناك طائفة من السابقين في اعتناق الإسلام، والإمام عليه السلام من بين هؤلاء يعتبر من أسبق السابقين، وطائفة أخرى اعتنقوا الإسلام وهاجروا من مكة إلى المدينة، والطائفة الثالثة من أهالي المدينة الذين نصروا الدين والنبيّ واعتنقوا الإسلام وساروا في خطّ الرسالة، والطائفة الرابعة هم الجيل اللاحق الذين التحقوا بالمسلمين الأوائل عن رغبة وطواعية، وهنا أين نجد مكان معاوية في هذا الطوائف الأربع؟ نقول في مقام الجواب: لا مكان له إطلاقاً، والعجيب أنّ معاوية مع هذا الحال يقيس نفسه مع الإمام عليه السلام وبني هاشم ويرى نفسه في الإسلام في عرض الإمام عليّ عليه السلام! ولكن تاريخ الإسلام مليء بأمثال هذه العجائب والغرائب.

وفي الختام يحذّر الإمام عليه السلام معاوية ويقول: «فَلَا تَجْعَلَنَّ لِلشَّيْطَانِ فِيكَ نَصِيباً، وَلَا عَلَىٰ نَفْسِكَ سَبِيلاً، وَالسَّلَامُ».

وهذا إشارة إلى أنّك بهذا الكلام تخدع نفسك، وأنّك بهذا القياس وبهذه المقارنة غير السليمة تفتح الباب للشيطان ليتسلّط على نفسك، وبالتالي تعيش الغفلة عن حقيقة موقعك، وتريد أن تنصّب نفسك بمكان رسول الله صلى الله عليه وآله وبذلك تخسر دنياك وآخرتك.

تأمّل

أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله

يستفاد من الآية الشريفة ١٠٠ من سورة براءة أنّ أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله على عدّة طوائف:

الطائفة الأولى: السابقون، وهم الذين سبقوا للإيمان واعتناق الإسلام والذين

---

١. سورة التوبة، الآية ١٠٠.

آمنوا بالنبيّ الأكرمﷺ أيّام وحدته وغربته في بداية الدعوة، وبايعوه على ذلك، ومن بين الأوائل من هؤلاء السابقين من النسوة خديجة الكبرىعليها السلام، ومن بين الرجال عليّ بن أبي طالبعليه السلام، ثمّ التحق بهم جماعة آخرون، وهذا العنوان يعدّ افتخاراً كبيراً للإنسان لأنّه قدّم نفسه على طبق الإخلاص للإسلام والنبيّﷺ في الظروف الصعبة التي عاشها المسلمون الأوائل.

الطائفة الثانية: المهاجرون، وطبعاً في السابقين مَن هم من المهاجرين أيضاً، وهؤلاء هم المسلمون الذين آمنوا بالنبيّ الأكرمﷺ في مكة وعندما ضاق عليهم الخناق ومارس المشركون في حقّهم أنواع التعذيب والتضييق حتّى بات الخطر يهدّد النبيّﷺ، هاجروا مع النبيّ إلى المدينة، وهذا يعني أنّهم تركوا جميع ما لديهم من أموال ودور ولوازم المعيشة والحياة وهاجروا مع أهلهم إلى المدينة التي ليس لهم فيها بيت ولا وسائل المعيشة وبقوا هناك لسنين عديدة وهم يواجهون المشكلات والتحدّيات إلى أن فتح الله عليهم وسارت الأمور على ما يرام.

وطبعاً هناك جماعة أخرى من المسلمين هاجروا إلى الحبشة قبل هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة هرباً من بطش قريش والمشركين، وبعد استقرار الإسلام في المدينة عادوا من الحبشة والتحقوا بالنبيّ الأكرمﷺ والمسلمين في المدينة المنورة.

الطائفة الثالثة: الأنصار، وهم أهل المدينة الذين أسلموا واستقبلوا المهاجرين برحابة صدر وأسكنوهم في بيوتهم رغم الحياة الصعبة التي كانوا يعيشونها غالباً في المدينة وتواصلوا مع المهاجرين من موقع المواساة واقتسموا معهم كلّ ما لديهم من شؤون الحياة.

وطبعاً يوجد في الأنصار سابقون وغير سابقين، والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة ويقول: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ**[1]﴾، يعني أنّ الأنصار الذين آمنوا بالنبيّ الأكرمﷺ في البداية أو آمنوا به قبل ذلك في مكة وفي منطقة

---

١. الجدير بالذكر أنّ القراءة المشهورة أن تقرأ كلمة الأنصار بالكسر لأنّها عطف على المهاجرين لا بالضمة على أساس أنّها عطف على السابقين.

تسمى «العقبة» على مقربة من مكة، وبايعوه ﷺ قبل الهجرة، وهؤلاء الطوائف من المهاجرين والأنصار والسابقين يطلق عليهم عنوان: الصحابة.

الطائفة الرابعة: الأشخاص الذين لم يروا النبيّ الأكرم ﷺ وفي الحقيقة يمثّلون الجيل اللاحق من المهاجرين والأنصار، وهذا الجيل يطلق عليه في المصطلح «التابعين» وهم الذين اتّبعوا الأنصار والمهاجرين في الإيمان والإسلام، وذكرهم القرآن الكريم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [١] وبقوله: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾ [٢] و بقوله أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [٣]، وأفراد هذه الطائفة ـ كما ذكرنا آنفاً ـ لم يدركوا النبيّ الأكرم ﷺ ولم يروه، ولكنهم أدركوا الصحابة.

الطائفة الخامسة: تابعو التابعين؛ وهم الأشخاص الذين لم يدركوا الصحابة ولم يشاهدوا أحداً منهم، ولكنّهم في الحقيقة تلامذة التابعين.

وهناك كلام كثير في أنّ أفراد هذه الطوائف الخمس هل هم صالحون وعدول جميعاً، أو أنّ البعض منهم كان في بداية الأمر من الصالحين والأخيار ولكنّه لم يستقم في هذا المسار بعد ذلك وخاصّة بعد رحلة النبيّ الأكرم ﷺ؟ وقد بحثنا هذا الموضوع في تنزيه الصحابة.

ومن المعلوم وجود أشخاص من هؤلاء المسلمين الأوائل كانوا في وقت قد بلغوا ذروة الفضيلة والإيمان والالتزام بالمبادىء الإسلاميّة، ولكنّهم بعد ذلك اتبعوا هوى النفس وساروا في خطّ الضلالة وحبّ الدنيا وسقطوا في وحل الانحراف وشرك الشيطان [٤].

---

١. سورة التوبة، الآية ١٠٠.

٢. سورة الجمعة، الآية ٣.

٣. سورة الحشر، الآية ١٠.

٤. أوردنا بحثاً كافياً في موضوع تنزيه الصحابة في التفسير الأمثل، ذيل الآية ١٠٠ من سورة التوبة تحت عنوان: هل أنّ جميع الصحابة صالحون؟ وكذلك في ذيل الخطبة الشقشقية الخطبة الثالثة من نفحات الولاية، ج١، تحت عنوان «هل أنّ جميع الصحابة سلكوا طريق رسول الله عليه السلام؟»، وكذلك في هذا الجزء من شرح نهج البلاغة، وللمزيد من الاطلاع يمكنكم مراجعة كتاب «الشيعة تجيب» في بحث تنزيه الصحابة.

١٨

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إلىٰ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبّاسٍ وَهُوَ عامِلُهُ عَلَى الْبَصْرَةِ[١]

نظرة إلى الرسالة

يقول المرحوم ابن ميثم في مقدّمة شرحه لهذه الرسالة أنّ ابن عباس بعد أن عيّنه أميرالمؤمنين عليه السلام على البصرة، أخذ يتعامل مع بني تميم بأسلوب العنف والغلظة، لأنّه كان يتذكر عداوتهم للإمام عليه السلام وجيش الإمام عليه السلام في يوم الجمل، فقد كانوا من أتباع طلحة والزبير وعائشة في ذلك اليوم، وقد هجم عليهم ابن عباس وأبعدهم عن البصرة، وكان يطلق عليهم أنّهم أتباع الجمل وأنصار عسكر (عسكر اسم جمل عائشة) وحزب الشيطان، ولكن هذا التعامل السيّء من ابن عباس ثقل على جماعة من الشيعة من بني تميم، ومنهم جارية بن قدامة الذي كتب إلى الإمام عليه السلام رسالة

---

١. سند الرسالة:

ذكر صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة حول هذه الرسالة: إنّ ابن الميثم نقل هذه الرسالة في شرح نهج‌البلاغة ولكن سياق كلامه يدلّ بوضوح على أنّه نقل هذه الرسالة من مصدر غير نهج‌البلاغة، وكذلك نقل بعض مقاطع هذه الرسالة أبوهلال العسكري في كتاب الصناعتين والباقلاني في إعجاز القرآن والسيّد أمير يحيى العلوي في كتاب الطراز، ومع الالتفات إلى التفاوت الموجود بين هذه المنقولات يتبين وجود مصادر غير نهج‌البلاغة (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٤١).

يشكو فيها ابن عباس، وهذا هو الذي دعا الإمام عليه السلام أن يكتب لابن عباس هذه الرسالة مورد البحث.

وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه الرسالة إلى عدّة أمور:

الأول: أنّ بني تميم قبيلة معروفة بالرجال الشجعان الذين كانوا من الشجاعة والجرأة بحيث لم يسبقهم إليها أحد لا في زمان الجاهلية ولا في صدر الإسلام.

والآخر: يقول الإمام عليه السلام أنّهم يتّصلون معنا بالرحم والقرابة، وصلة الرحم توجب علينا الإحسان إليهم والتعامل معهم من موقع الإكرام والاحترام.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى هذه النقطة، وهي أنّ ما يصدر منك على لسانك ويدك من خير وشرّ وما يترتّب عليها من نتائج حسنة وسيّئة، فإنّه سيمتد إليّ أيضاً لأنّنا شريكان في ذلك، وعلى ضوء ذلك لابدّ من التعامل بآليّات الأخلاق الكريمة مع بني تميم.

وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ، فَحَادِثْ أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ، وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ لِبَنِي تَمِيمٍ، وَغِلْظَتُك عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ، وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَىٰ صِلَتِهَا وَمَأْزُورُونَ عَلَى قَطِيعَتِهَا، فَارْبَعْ أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللهُ، فِيمَا جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

إطفاء نار الفتنة بماء المداراة

عندما جاء طلحة والزبير ومعهم عائشة إلى البصرة مع جماعة من الفاسدين والانتهازيين، ورفعوا هناك لواء التمرّد والمخالفة ضدّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، استقبلهم أهل البصرة وانضمّوا إليهم وشكّلوا معهم جيشاً كبيراً لمحاربة أميرالمؤمنين عليه السلام وأشعلوا نار الفتنة، ولكنّهم اندحروا وهُزموا على يد جيش الإمام عليّ عليه السلام في واقعة الجمل، ولعلّهم كانوا يتوقّعون من الإمام بعد تحقيق النصر أن يأمر بقتل جماعة منهم، ولكنّ الإمام تعامل معهم بمنطق الحبّ والمودّة كما سبق أن تعامل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله مع قريش في فتح مكة، وهذا الأمر هو الذي أدّى إلى عودة الاستقرار والهدوء لمدينة البصرة، وفي بداية هذه الرسالة التي كتبها الإمام لواليه على البصرة ابن عباس يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة. «وَاعْلَمْ أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ

إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ[1] الْفِتَنِ، فَحَادِثْ[2] أَهْلَهَا بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ، وَاحْلُلْ عُقْدَةَ الْخَوْفِ عَنْ قُلُوبِهِمْ».

أما قوله: «أَنَّ الْبَصْرَةَ مَهْبِطُ إِبْلِيسَ، وَمَغْرِسُ الْفِتَنِ» فهو إشارة إلى وجود أقوام من مختلف الأنحاء تعيش في البصرة وتوجد بينهم مشاكل، وكذلك يواجهون مشاكل من القادمين إلى هذه المنطقة، ولعلّه لهذا السبب اختار طلحة والزبير وعائشة البصرة لإشعال نار الفتنة ضدّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام، وخاصّة أنّ البصرة تعدّ أهم ميناء للعراق، والموانيء عادة تكون مستقرّ أقوام ومجاميع مختلفة ممّن يأتون إلى هذه المدينة من مناطق مختلفة، وهذا بدوره يؤدّي إلى وجود بعض الخلل والاشكاليّات في أجواء هذه المناطق من الناحية الثقافية والاجتماعية، إلّا أن يخضع أهالي هذه المناطق إلى التعليم الأخلاقيّ والثقافي المستمرّ، وقد ذهب البعض إلى أنّ إبليس عندما هبط إلى الأرض كانت البصرة أوّل محلّ حطّ فيه قدمه، ولكن لا يوجد لدينا دليل لإثبات صحّة هذا المطلب.

المهم أنّ الإمام عليه السلام أمر ابن عباس أن يتّخذ أفضل الطرق لإعادة الهدوء والاستقرار انطلاقاً من مضمون الآية الشريفة: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[3]. وهذا يعني أنّ ابن عباس ينبغي له أن يستخدم أُسلوب الإحسان معهم في مقابل موقفهم السيّء يوم الجمل، لكي يغسل درن الأحقاد والكراهية ويجعلهم يعيشون الندم والخجل على ما بدر منهم، وربّما كانت مخالفتهم له بسبب خوفهم من العقوبة والانتقام، فعندما يتعامل معهم ابن عباس بالرأفة والرحمة، فهذا من شأنه أن يعيد إليهم روح الهدوء والطمأنينة ويزيل حالات الخوف والقلق.

---

١. «مغرس» في الأصل بمعنى محلّ غرس الأشجار. ثم اطلق على محل ظهور كلّ شيء.

٢. «حادث» صيغة أمر من «المحادثة» بمعنى المراقبة والتحقيق وإزالة الصدأ، يعني غسل القلوب وتطهيرها من درن الأحقاد ورسوبات النزاعات السابقة.

٣. سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

ويقرّر الإمام عليه السلام هذا المعنى في كلماته القصار، في إشارة إلى أصل كلّي حيث يقول: «عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ»[١].

ثمّ يدخل الإمام عليه السلام بعد ذكر هذه المقدّمة إلى أصل المطلب ويقول: «وَقَدْ بَلَغَنِي تَنَمُّرُكَ[٢] لِبَنِي تَمِيمٍ، وَغِلْظَتُك عَلَيْهِمْ».

ثم يذكر الإمام عليه السلام بعض الصفات والخصال لقبيلة بني تميم تدلّ لياقتهم للعفو والصفح والاحترام.

يقول الإمام في بيان الصفة الأولى منهم: «وَإِنَّ بَنِي تَمِيمٍ لَمْ يَغِبْ لَهُمْ نَجْمٌ إِلَّا طَلَعَ لَهُمْ آخَرُ».

والتعبير بالنجم إشارة إلىٰ أنّهم يتمتّعون دوماً بوجود شخصيات كبيرة وجديرة بالاحترام بحيث إنّه لو مات أحد فسيحلّ نجم آخر محلّه، ولهذا تتوفّر في القبائل العربية دوماً رجال مدراء ومفكرون.

وفي الخصلة الثانية يشير الإمام عليه السلام إلى شجاعتهم ويقول: «وَإِنَّهُمْ لَمْ يُسْبَقُوا بِوَغْمٍ[٣] فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ».

ومع الالتفات إلى أنّ كلمة «وَغْم» تعني في اللغة الحرب، وكذلك تعني الحقد والحسد، فهذا الاحتمال الأخير وارد في تفسير الجملة المذكورة وأنّهم جماعة تستبطن الحقد، ولو تصدّى لهم مَن يثير أمامهم الأذى والضرر فإنّهم يواجهونه بالمثل ويثيرون الفتنة حينئذٍ، ولكن بالنظر إلى ما تقدّم من كلام الإمام عليه السلام في مدحهم فإنّ هذه التفسير بعيد عن سياقات الكلام.

وفي الخصلة الثالثة والأخيرة لهم يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنَّ لَهُمْ بِنَا رَحِماً مَاسَّةً[٤]، وَقَرَابَةً خَاصَّةً، نَحْنُ مَأْجُورُونَ عَلَىٰ صِلَتِهَا، وَمَأْزُورُونَ[٥] عَلَىٰ قَطِيعَتِهَا».

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٥٨.

٢. «تنمّر» بمعنى الغضب الشديد وسوء المعاملة، من مادة «نمر» على وزن «كبد» وهو الحيوان المعروف.

٣. «وغم» وهذه المفردة تأتي بمعنى الحرب وكذلك بمعنى الحقد.

٤. «ماسّة» بمعنى القريبة والحميمة من مادة «مسّ» وهو إتصال الأبدان.

٥. «مأزورون» بمعنى المذنبون من مادة «وزر» وهو الذنب.

وقد ذهب شرّاح نهج‌البلاغة إلى أنّ العامل للقرابة النسبية والرحم بين بني تميم وبني هاشم أنّهما يشتركان في الجد الأعلى وهو (إلياس بن مضَر)، وطبقاً لهذا الكلام فإنّ هاشم يصل إلى إلياس بثلاثة عشر واسطة، وكذلك بني تميم أيضاً يصلون إليه بوسائط كثيرة، ولكن بما أنّ الرحم في الإسلام تحظىٰ بأهمية بالغة، فالإمام عليه السلام يؤكّد على أنّ هذا المقدار من الوسائط الكثيرة بيننا وبينهم لا يمنع من اعتبارهم من الأرحام والأقرباء، أضف إلى ذلك أنّ البعض ذهب إلى وجود رابطة سببية بين هاشم وتميم من طريق الزواج العائلي، وذهب بعض أيضاً إلى أنّ أحد زوجات الإمام عليّ عليه السلام واسمها ليلى بنت مسعود الحنظلية من بني تميم؛ ولكن مع الالتفات أنّ الارتباط السببي لا يسمّى رحماً بل يقتصر الرحم على الرابطة النسبية، فإنّ هذين التفسيرين يبتعدان عن الحقيقة.

ويرى ابن أبي‌الحديد وبعض آخر من المؤرّخين فضائل الأخرى لبني تميم حيث يستفاد من مجموعها أنّ هذه القبيلة تحظى بامتيازات كبيرة في الواقع الاجتماعي العربي.

ويستفاد من سياق كلام أمير المؤمنين عليه السلام أنّ مسألة صلة الرحم تحظى بأهمية كبيرة في الإسلام بحيث إنّ هذا الحكم الإسلامي يمتدّ من الأرحام ويتناول حتّى من كان يرتبط بفاصلة بعيدة من الآباء والأجداد، يقول الإمام عليه السلام: إنّك لو لم تحفظ هذه القرابة والرحم فستكون أمام الله مسؤولاً ومحكوماً وإن وصلتها فستكون مصدر الخير والبركة.

وفي ختام هذه الرسالة يأمر الإمام عليه السلام ابن عباس بمداراة المخالفين بشكل عامّ وبني تميم بشكل خاصّ ويقول: «**فَارْبَعْ[1] أَبَا الْعَبَّاسِ، رَحِمَكَ اللهُ، فِيمَا جَرَىٰ عَلَىٰ لِسَانِكَ وَيَدِكَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ! فَإِنَّا شَرِيكَانِ فِي ذَلِكَ، وَكُنْ عِنْدَ صَالِحِ ظَنِّي بِكَ، وَلَا يَفِيلَنَّ[2] رَأْيِي فِيكَ، وَالسَّلَامُ**».

---

١. «أربع» من «الربوع» بمعنى المداراة وضبط النفس.

٢. «يفيل» من مادة «فيل» على وزن «ميل» بمعنى الخطأ أو الضعف.

ويراد من الخير والشرّ: النفع والضرر، وهي الأعمال التي يمكن أن يترتب عليها الظلم أو الضرر، فالشرّ هنا ليس بمعنى الظلم والجور لأنّ ابن عباس لم يكن الوالي الظالم الذي يتعامل مع الناس بالظلم وسحق الحقوق.

واللافت للنظر أنّ الإمامعليه السلام في هذه التوصية بمداراة المخالفين ورعايتهم يشير إلى هذه الحقيقة وهي أنّك وكيل عنّي، وأنّ كلّ عمل يصدر منك فسوف يكتب عليّ فكأنه صدر منّي، وعلى هذا الأساس ينبغي الاحتياط والتدبر في الأمر، وهذا الكلام من قبيل أن يقال لعلماء الدين: انتبهوا إلى أعمالكم وتصرّفاتكم لأنّ كلّ عمل يصدر منكم سيكون منسوباً للدين والإسلام أيضاً.

وفي الجملة الأخيرة يحذّر الإمامعليه السلام ابن عباس أيضاً ويقول أنّك لو لم تسلك سبيل المداراة والمراعاة فربّما يتغيّر نظر إمامك عنك، وهذا دليل آخر على ضرورة العمل بتوصيات الإمامعليه السلام.

في العبارة الواردة أعلاه يخاطب الإمامعليه السلام ابن عباس بكلمة «أبوالعباس» واستخدام الكنية متداول عند العرب وأنّهم إذا أرادوا أن ينادوا شخصاً باحترام فإنّهم لا يذكرون اسمه الأصليّ بل ينادونه بكنيته أو بلقبه، فهنا راعى الإمامعليه السلام هذا الجانب في احترام ابن عباس وخاطبه بكنيته.

تأمّل

خصائص أهل البصرة

ورد في الخطب المتعدّدة من نهج البلاغة ومنها الخطبة ١٣ و ١٤، توبيخ وذمّ شديد لأهل البصرة، وكما رأينا في الرسالة أعلاه أنّ أميرالمؤمنينعليه السلام يتحدّث عن البصرة بأنّها معقل الشيطان ومحلّ نزول إبليس ومكان إثارة الفتن، ولكن بقرينة ما ورد في بعض الروايات التي تمدح أهل البصرة كثيراً أعمّ من الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، فكلام الإمامعليه السلام هنا ناظر لمقطع خاصّ من الزمان، وهو الزمان

الذي وقعت فيه معركة الجمل وسارع أهل البصرة لحماية الناكثين والمتمرّدين بقيادة طلحة والزبير، وأسفر ذلك عن مقتل الكثير من المسلمين.

وعلى ضوء ذلك فإنّ هذا الذمّ المذكور لا يدلّ على كلّ من دخل تلك المدينة أو كان من أهالي البصرة، فإنّه يملك تلك الصفات الذميمة على امتداد التاريخ وأنّه ليس من أهل الفلاح والسعادة، وخاصّة عندما نرى وجود الكثير من العلماء والعرفاء والقرّاء والموالين لأهل البيت عليهم السلام في هذه المدينة.

وللتوضيح أكثر راجع الجزء الأول، ذيل الخطبة ١٣.

١٩

ومن كلام له عليه السلام

إلى بعض عمّاله[1]

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من تاريخ اليعقوبي و تاريخ البلاذري أنّ المخاطب بهذه الرسالة هو عمر بن أبي سلمة (مسلمة) الأرحبي الذي قيل إنّه كان والياً على فارس والبحرين[2]، وأنّه كان يستخدم اسلوب العنف والشدّة مع بعض الفئات التي تحت ولايته من طائفة المجوس، وهؤلاء كتبوا رسالة يشكون فيها هذا الوالي، فاستاء الإمام عليه السلام من ذلك وكتب هذه الرسالة مورد البحث ودعاه لرعاية الاعتدال وترك اسلوب الشدّة معهم.

واللافت أنّ توصية الإمام عليه السلام في هذه الرسالة تخصّ غير المسلمين وهم الذين يطلق عليهم «أهل الذمّة» الذين يعيشون داخل البلاد الإسلاميّة بصورة سلمية، فينبغي أن يتعامل معهم الوالي والمسلمون من موقع الرأفة والمحبّة الإسلاميّة

---

١. سند الرسالة:
نقلت هذه الرسالة في الكتب والمصادر التاريخية قبل السيد الرضي، ومن جملة هذه المصادر ما أورده البلاذري (المتوفى ٢٧٩) في كتاب انساب الأشراف البلاذري، وابن واضح (المعروف باليعقوبي المتوفى ٢٨٤) في تاريخه مع تفاوت وإضافات يسيرة لما ورد في نهج البلاغة (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٤٢).

٢. شرح نهج البلاغة لابن ميثم، ذيل الرسالة المذكورة.

ويحفظوا لهم نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، فالإمامعليه السلام لا يقبل أيّ شكل من أشكال العنف والشدّة في التعامل معهم.

ولكن بما أنّ الاقتراب منهم والتواصل معهم أكثر من اللازم ربّما يثير مشاكل أخرى في الجو الثقافي والاجتماعي فإنّ الإمامعليه السلام أمر هذا الوالي بضرورة التعايش بالاعتدال في هذا الشأن.

ﮋﮊ

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ، فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشرح والتفسير

شمول الرأفة الإسلاميّة لجميع الناس

رأينا فيما تقدّم آنفاً أنّ المخاطب بهذه الرسالة والي الإمام عليه السلام على فارس والبحرين وأنّه كان يستخدم اسلوب الشدّة والقسوة مع جماعة من المجوس الذين كانوا يعيشون في تلك المنطقة، وبما أنّ هؤلاء كانوا يعتقدون بعدالة الإمام عليه السلام وأخلاقه الحسنة، فلذلك كتبوا إليه هذه الرسالة يشكون من سوء معاملة الوالي، وفي هذه الرسالة العميقة المضمون والتي تعتبر دستوراً لجميع الولاة والأمراء، يقول الإمام عليه السلام: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ دَهَاقِينَ[1] أَهْلِ بَلَدِكَ شَكَوْا مِنْكَ غِلْظَةً وَقَسْوَةً، وَاحْتِقَاراً وَجَفْوَةً، وَنَظَرْتُ فَلَمْ أَرَهُمْ أَهْلاً لِأَنْ يُدْنَوْا لِشِرْكِهِمْ، وَلَا أَنْ يُقْصَوْا وَيُجْفَوْا لِعَهْدِهِمْ».

وقد أشار الإمام عليه السلام في هذه العبارات إلى أربع نقاط تتّصل بأعمال الوالي السيئة

---

١. «دهاقين» جمع «دهقان»، وأصل هذه الكلمة فارسية «دهكان»، أو «دهبان» بمعنى كبير القرية الرئيس، الزعيم، وأحياناً تطلق على كل فلاح، ولكن الأنسب في العبارة أعلاه المعنى الأول، لأنّ الرؤساء وكبار القرية هم الذين يكتبون الشكاوى.

وسوء معاملته للرعيّة، في البداية أشار الإمام عليه السلام إلى العنف، والأخرى إلى القساوة وعدم الشفقة، والثالثة تحقير هؤلاء الرعية، والرابعة سوء معاملته لهم، وبالرغم من أنّ هذه المفاهيم تتماثل وتقترب في المضمون، لكن هناك فروق دقيقة بينها، ولذلك أشار الإمام عليه السلام إلى جميع هذه الأمور وأعلن بعد ذلك عن رأيه المبارك في القضية، وهو أنّه من جهة ينبغي الالتفات إلى أنّ هؤلاء مشركون، لأنّ المجوس يعتقدون بالثنوية والمصدرين للخلق، وهما يزدان وأهريمن مصدرا الخير والشر، ورغم أنّ الزرادشتين في هذا العصر يدّعون أنّهم موحّدون وغير مشركين، ولكن المنابع الدينية لهم تقرّر خلاف ذلك، وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام مع ملاحظة التفاوت الاعتقادي بينهم وبين المسلمين، ينهى عن الاقتراب منهم أكثر من الحدّ اللازم، وفي ذات الوقت يذكّر الوالي بهذه النقطة، وهي أنّ هؤلاء من أهل الذمّة يعني أنّهم يعيشون مع المسلمين من موقع الصلح والسلم ويتعهدون باحترام الإسلام وأحكامه الإلهيّة، والحكومة الإسلاميّة بدورها تتعهد بالدفاع عنهم وعن أعراضهم وأموالهم وتتعامل معهم بلغة العطف والإحسان، وعلى هذا الأساس فإنّ استخدام القسوة وسوء التعامل معهم يعتبر منافياً للشرع والخلق الإسلامي.

ثم يبيّن الإمام عليه السلام هذه الحقيقة ويقول: «**فَالْبَسْ لَهُمْ جِلْبَاباً[1] مِنَ اللِّينِ تَشُوبُهُ بِطَرَفٍ مِنَ الشِّدَّةِ، وَدَاوِلْ[2] لَهُمْ بَيْنَ الْقَسْوَةِ وَالرَّأْفَةِ، وَامْزُجْ لَهُمْ بَيْنَ التَّقْرِيبِ وَالْإِدْنَاءِ، وَالْإِبْعَادِ الْإِقْصَاءِ. إِنْ شَاءَ اللهُ**».

وبديهيّ أنّ مثل هذا الأسلوب في التعامل مع غير المسلمين الذين يعيشون في

---

١. «جلباب» بكسر وفتح الجيم. ذكروا لهذه الكلمة معانٍ مختلفة فتارة تأتي بمعنى العباءة والملحفة، وأخرى المقنعة وغطاء الرأس، والثالثة الثوب الطويل والواسع، وفي الرسالة مورد البحث قصد بها الكناية، والمراد الغطاء واللباس المعنوي الذي يرتديه المدير والقائد لجماعة من الناس حيث يوصيه الإمام عليه السلام بلزوم التحلّي بحالة تقترن فيها الشدة باللين.

٢. «داوِل» صيغة أمر من «المُداولة» بمعنى تحويل الأمر من شخص لآخر بإدارته وإدارة الأمر واستبدال شيء بشيء أو شخص بدل شخص آخر، والمراد من هذه المفردة من العبارة أعلاه أن تتعامل معهم أحياناً بالمودة والمحبة وأخرى بشيء من القسوة والشدّة.

ظلّ الحكومة الإسلاميّة بصلح وسلام يعتبر من أفضل أساليب المعاملة، ومن جهة يثير في نفوسهم الطمأنينة والأمن ويزيح من أذهانهم أيّ تفكير في التمرّد والطغيان، ومن جهة أخرى فإنّ هذا الاسلوب في التعامل من قِبل الحاكم الإسلامي لا يمكن حمله على الضعف والعجز في مواجهة المشاكل والتحدّيات والتي ربّما تكون مصدراً لإثارة القلاقل وتفعيل روح المشاكسة، ومن هذا المنطلق يرسم الإمام عليه السلام الأسلوب الأمثل في التعامل مع الأقليات الدينية في المجتمع الإسلامي.

ومن المعلوم أنّ ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الرسالة لا ينحصر بأشخاص معيّنين ولا يختصّ بزمان ومكان، بل هو منهج مدروس ويمكن ترجمته على أرض الواقع الاجتماعي في كلّ مورد ومجتمع إسلامي، بل يمكن القول إنّ الحكومة يجب أن تتعامل مع المسلمين أيضاً بمثل هذه المعاملة، فلو أظهرت في مقابل الرعية الكثير من الليونة والتساهل أكثر من الحدّ، فربّما يحمل ذلك على ضعف هذه الحكومة، وبالتّالي يتجرّأ جماعة على القانون ولا يلتزموا بالمقرّرات الرسمية، ولو كان تنفيذ القوانين وإجراؤها بأسلوب الشدّة والعنف، فإنّ ذلك ربّما يثير في الناس الاعتراض والنفرة من الحكومة، وتنقطع بالتالي طبيعة التواصل بين الناس وبين الحكومة الإسلاميّة، وعلى أيّة حال فإنّ الإعتدال بين الرأفة والقسوة يعتبر أحد الأصول الثابتة للإدارة الناجحة وقيادة المجتمع.

بل نرى مثل هذا الأصل حتى بالنسبة للذات المقدّسة والسياسة الإلهيّة مع العباد، حيث أنّه تعالى قد جعل الناس يعيشون بين الخوف والرجاء، يقول القرآن الكريم: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾[1].

ونقرأ في دعاء الافتتاح المعروف: «وَأَيْقَنْتُ أَنَّكَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فِي مَوْضِعِ الْعَفْوِ وَالرَّحْمَةِ وَأَشَدُّ الْمُعَاقِبِينَ فِي مَوْضِعِ النَّكَالِ وَالنَّقِمَةِ».

وأثار بعض شرّاح نهج البلاغة هنا هذا السؤال، وهو كيف أنّ الإمام عليه السلام أصدر

---

١. سورة الحجر، الآيتان ٤٩ و ٥٠.

مثل هذا الأمر بالنسبة لغير المسلمين وأنّه لا ينبغي تقريبهم أكثر من اللازم في حين أنّ القرآن الكريم يقول بصراحة: ﴿لاٰ يَنْهٰاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقٰاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيٰارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[1].

والجواب عن هذا الإشكال واضح، وهو أنّ الإمام عليّ عليه السلام لا ينهى عن الإحسان إليهم، بل يأمر برعاية الإعتدال فيهم والتعامل معهم، فلا يقتربوا من الحاكم أكثر من الحدّ ويتجرّأوا على المخالفة، ولا يبعدهم عنه إلى حدٍّ يتسبّب في امتعاضهم وطغيانهم.

تأمّل

الإسلام وأهل الذمّة

يمكننا تلخيص علاقة الإسلام والمسلمين بغيرالمسلمين في أربع صور:

١. أهل الذمّة: وهم أصحاب الكتب السماوية الذين يعيشون داخل البلاد الإسلاميّة على شكل أقلّيات دينية، وهؤلاء إذا لم يتظاهروا بالأمور المخالفة للقوانين الإسلاميّة، وتعاملوا مع المسلمين من موقع الاحترام، فيجب على المسلمين أيضاً أن يعاملوهم باحترام كذلك. الحكومة الإسلاميّة أيضاً مكلّفة بحفظ نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، والذمّة تعني العهد والميثاق، وهو في الحقيقة عهد منهم أن يعيشوا مع المسلمين بصلح وسلام، وأحد شروط الذمّة دفع ضرائب وجيزة تدعى بـ «الجزية» وفي مقابل هذه الضريبة القليلة فإنّ الحكومة الإسلاميّة تقدّم لهم خدمات هامّة وجليلة كما تقدّم في الرسالة أعلاه، ورأينا أنّ أميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام يكتب إلى أحد ولاته رسالة يعترض بها عليه من سوء معاملته لأهل الذمّة ويدعوه لتحسين سلوكه ومعاملته لهم.

وقد وردت أحكام أهل الذمّة في الكتب الفقهية ذيل كتاب الجهاد بشكل مفصّل.

٢. الكفّار الحربيون: وهؤلاء كما يتبادر من اسمهم، الأشخاص الذين يعيشون

---

١. سورة الممتحنة، الآية ٨.

حالة الحرب ضدّ المسلمين، ولهذا السبب ليس فقط لا يجب احترامهم، بل إنّ المسلمين مأمورون بجهادهم والتصدّي لهم ومقاتلتهم.

وقد وردت أحكام الكفّار الحربيين أيضاً في الفقه الإسلامي في كتاب الجهاد بشكل مفصّل أيضاً.

٣. الكفّار المعاهدون: وهم الذين لا يعيشون داخل البلاد الإسلاميّة، ولكنّهم تربطهم علاقات تجارية وسياسية وغير ذلك مع المسلمين، حيث يحترم كلّ طرف حقوق الطرف الآخر، والمصداق البارز لهؤلاء ما نراه في الحال الحاضر من وجود علاقات سياسية بين المسلمين وبين جميع البلدان الأخرى في العالم، حيث يتبادلون السفراء والخبراء وأمثال ذلك، وهؤلاء ينبغي التعامل معهم من موقع الاحترام أيضاً، سواء سافروا إلى داخل البلاد الإسلاميّة أو كانوا في الخارج.

وقد وردت أحكام هذه الطائفة أيضاً في كتاب الجهاد وفي كتب التفسير، وخاصّة في تفسير سورة براءة.

٤. الكفّار المهادنون: وهم الأشخاص الذين يعيشون خارج البلاد الإسلاميّة ولا تربطهم مع المسلمين رابطة سياسية خاصة أو معاهدة معينة، ولكن في ذات الوقت لا يواجهون المسلمين بالحرب والقتال، وقد أمر الإسلام بالنسبة لهؤلاء أن يتعامل معهم المسلمون بالإحسان وحسن الخلق، ومن ذلك ما ورد في الآية ٨ من سورة الممتحنة حيث أكّد القرآن الكريم على أنّ الله لا ينهى عن الإحسان لمثل هؤلاء الكفّار الذين لا يقاتلونكم ولا يخرجوكم من دياركم.

٨٠٠٣

٢٠

ومن كلام له عليه السلام

إلىٰ زِيادِ بْنِ أَبيهِ وَهُوَ خَليفَةُ عامِلِهِ عَبْدِاللهِ بْنِ عَبّاسٍ عَلَى الْبَصْرَةِ، وَعَبْدُاللهِ عامِلُ أميرِالْمُؤْمنينَ عليه السلام يَوْمَئِذٍ عَلَيْها وَعَلىٰ كُورِ الأَهْوازِ وَفارِسٍ وَكِرْمانٍ وَغَيْرِها[1]:

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من هذه الرسالة الواردة في تاريخ اليعقوبي، وخاصة مع الالتفات إلى ما ورد في مطلعها، أنّ «زياد» كان قد قصد خيانة بيت المال والامتناع من دفع جميع الخراج، فاطّلع الإمام عليه السلام على هذه القضية من خلال بعض جواسيسه وعيونه وكتب له هذه الرسالة الشديدة وأمره بدفع الخراج لبيت المال بشكل كامل وإرساله إلى الإمام عليه السلام وقد هدّده الإمام عليه السلام بأنّه إذا امتنع عن هذا العمل فإنّه سيواجه عقوبة شديدة.

وهذه الرسالة وأمثالها تبيّن أنّ الإمام عليه السلام قد جعل عمّال ومراقبين على جميع

---

١. سند الرسالة:
ذكر هذه الرسالة قبل السيد الرضي، البلاذري في كتاب انساب الأشراف، واليعقوبي في تاريخه (مع تفاوت يسير) وقد أشار كتاب مصادر نهج‌البلاغة إلى الكتاب الأول ثم أضاف أن هذه الرسالة نقلها البيهقي في المحاسن والمساوىء (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٣).

الولاة والمسؤولين في الحكومة حيث ينقلون له باستمرار ما يجري في الولايات من مسائل مهمّة، فلو أنّ أحد المسؤولين تجاوز حدود صلاحيته فإنّ الإمام سيتولّى تنبيهه.

8003

وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ، ضَئِيلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

إنذار شديد للمتخلّفين

يستفاد من تاريخ اليعقوبي أنّ الإمام عليه السلام في بداية هذه الرسالة كتب إلى واليه زياد يقول: «إِنَّ رَسُولِي أَخْبَرَنِي بِعَجَبٍ، زَعَمَ أَنَّكَ قُلْتَ لَهُ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ: إِنَّ الأَكْرَادَ هَاجَتْ بِكَ فَكَسَرَتْ عَلَيْكَ كَسِيراً مِنَ الْخَرَاجِ وَقُلْتَ لَهُ: لَا تُعْلِمْ بِذٰلِكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ».

ويستفاد جيداً من هذا المقطع من الرسالة أنّ زياداً تواطأ مع بعض الأكراد على تقليل الخراج، وكان يريد ـ من خلال الادّعاء بأنّ الأكراد قد امتنعوا من دفع الخراج بشكل كامل ـ أن يختلس بعض الخراج لحسابه الخاصّ ولا يرسله إلى بيت المال، فعلم الإمام عليه السلام بهذه المؤامرة وكتب له هذه الرسالة الشديدة وقال: «وَإِنِّي أُقْسِمُ بِاللهِ قَسَماً صَادِقاً، لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ خُنْتَ مِنْ فَيْءِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئاً صَغِيراً أَوْ كَبِيراً، لَأَشُدَّنَّ عَلَيْكَ شَدَّةً تَدَعُكَ قَلِيلَ الْوَفْرِ، ثَقِيلَ الظَّهْرِ ضَئِيلَ الْأَمْرِ، وَالسَّلَامُ».

إنّ تعبير الإمام عليه السلام في مطلع هذا القسم حيث يقسم بالله قسماً صادقاً، لا يعني أنّه ربّما يصدر قسم غير صادق من الإمام عليه السلام بل هو نوع من التأكيد على جدّية الإمام عليه السلام في هذا الأمر.

والملاحظة الأخرى أنّ الإمام عليه السلام لم يصرّح له في هذه الرسالة بأنّك ارتكبت

الخيانة، بل ذكر كلاماً مشروطاً بهذا المضمون، وهو أنّه إذا بلغني أنّك ارتكبت مثل هذه الخيانة... لأنّه إذا أراد كشف الحجاب في مثل هذه الموارد عن عمل الشخص المتخلّف، فإنّ ذلك يدعوه للجرأة أكثر، فبلاغة الكلام تستدعي أن يكشف قليلاً عن الستار ويذكر الموضوع بشكل مشروط لئلاّ يتجرّأ أكثر، ويعزم على الفرار بالأموال من تلك المنطقة.

وهنا نقطة جديرة بالالتفات في كلام الإمامعليه السلام حيث يقول: إنّني سأُعاقبك عقوبة شديدة بحيث يترتّب عليها ثلاث بلايا: الأُولى: أنّك ستعيش في حياتك قليل الوفر من المال، والآخر ستكون سيّء السمعة فلا يأتمنك أحد على عمله وماله.

الثالث: أن تكون ثقيل الظهر، وربّما يكون مقصودهعليه السلام من ذلك ثقل المسؤولية في الدنيا، أي أنّه يحمل على ظهره مسؤولية الخيانة وما يترتّب عليها من عقوبة، أو أن يعيش بصعوبة بالغة بسبب الفقر فلا يستطيع إدارة أموره الشخصية والمعاشية، واحتمل بعض الشرّاح أيضاً أنّ المراد من ثقل الظهر هنا المسؤولية الأُخروية، كما ورد هذا المضمون في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[1].

والظاهر أنّ هذا الاحتمال بعيد عن المقصود، لأنّ الإمامعليه السلام يقول: إنّني سأُعاقبك بما يترتّب عليه هذه العواقب الثلاث، ونعلم أنّ المسؤولية يوم القيامة بسبب الخيانة حتمية ولا تحتاج لتشديد الإمامعليه السلام ولا ترتبط بإنزال العقوبة بحقّه.

وجملة «ضَئِيلَ الأَمْرِ» مع الالتفات إلى أنّ كلمة «ضَئِيل» تأتي بمعنى الحقير والضعيف والمهين، فإنّ مفهومها هو أنّك إذا ارتكبت الخيانة وعرف الناس منك ذلك، فسوف تعيش بعد ذلك بين الناس حقيراً ومهيناً وذليلاً.

وأساساً فإنّ الخيانة، لاسيّما الخيانة في الأموال وخاصّة في بيت المال، منشأ الفضيحة في الدنيا والآخرة، وهذه الحقيقة لا تنحصر بزياد بن أبيه في صورة خيانته

---

١. سورة العنكبوت، الآية ١٣.

لبيت المال وما يترتّب على ذلك من العواقب الثلاث التي ذكرها الإمام عليه السلام له في رسالته، بل هي المصير الذي ينتظر جميع الخائنين وخاصّة خونة بيت المال، فإنّ ظهورهم ستكون مثقلة بوزر الذنب والمسؤولية والعقوبة، وأنّ انتفاعهم في هذا الحياة سيكون ضئيلاً وستكون شخصيتهم حقيرة ويعيشون الذلّة والمهانة بين الناس.

تأمّل

لماذا اختار الإمام عليه السلام زياداً لهذا المنصب

بالنسبة لسيرة «زياد بن أبيه» وتاريخ حياته، تطرح عدّة أسئلة وعلامات استفهام، الأولى: لماذا يقال عنه: زياد بن أبيه، والذي يحكي عن عدم مشروعية ولادته ونسبه، والآخر: لماذا اختاره الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام لهذا المنصب في أيّام خلافته، أو على الأقلّ اختاره عبدالله بن عباس لمثل هذا المقام مع معرفته بشخصيته معرفة دقيقة، بحيث انتهى به الأمر إلىٰ ما انتهى إليه، وكان له ولأُسرته دور تخريبيّ في تاريخ الإسلام؟

والجواب عن هذه الأسئلة سيأتي إن شاء في ذيل الرسالة ٤٤ حيث يتناسب هذا الموضوع معه أكثر.

ജ്ഞ

٢١

ومن كلام له عليه السلام

إلى زيادٍ أيضاً[1]

نظرة إلى الرسالة

يستفاد من صدر هذه الرسالة الواردة في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري، أنّ بعض الأشخاص كتب إلى الإمام عليه السلام أنّ زياداً ارتكب أعمالاً مخالفة، ومن ذلك أنّه كان يجلس على موائد تكثر فيها أنواع الأطعمة وأنّه كان يتعامل مع الآخرين من موقع التكبّر والغرور، والإمام عليه السلام في هذه الرسالة حذّره من الإسراف والتكبّر وطلب الدنيا وأكّد له أن يهتمّ في حياته بالآخرة.

---

١. سند الرسالة:
نقل هذه الرسالة البلاذري في كتاب انساب الأشراف، وفي الحقيقة أنّ ما ذكره السيد الرضي في نهج‌البلاغة يعتبر قسماً من رسالة مطولّة أرسلها الإمام عليه السلام لزياد بن أبيه، وقد أورد كتاب مصادر نهج‌البلاغة هذا المصدر فقط للرسالة (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٣).
ونقلها ابن أبي‌الحديد في شرح نهج‌البلاغة ذيل الرسالة ٤٤ عن البلاذري في أنساب الأشراف مع اختلافات عدّة، وبما أنّ هذا التفاوت كبير نسبياً فمن البعيد حمله على اختلاف النسخ، ولعلّ ابن أبي‌الحديد كان يملك مصدراً آخر لهذه الرسالة حيث نقلها بكلّ تفاصيلها وشرحها.

فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً، وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً، وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ، وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ. أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ! وَتَطْمَعُ -وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ فِي النَّعِيمِ؛ تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ- أَنْ يُوجِبَ لَكَ ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟ وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

الإمام عليه السلام يحذّر «زياد» مرّة أخرى

تقدّم آنفاً أنّ لهذه الرسالة مقدّمة يمكن من خلالها فهم ما أورده المرحوم السيّد الرضيّ لشرحها وتفسيرها، فقد ورد في مقدّمة هذه الرسالة، أنّه كان بين سعد وزياد ملاحاة ومنازعة، وعاد سعد فشكاه إلى عليّ عليه السلام وعابه، فكتب عليّ عليه السلام إليه، أما بعد فإنّ سعداً ذكر أنّك شتمته ظلماً وهددته وجبهته تجبّراً وتكبراً، فما دعاك إلى التكبّر وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «الكِبْرُ رِدَاءُ اللهِ فَمَنْ نَازَعَ اللهَ رِدَاءَهُ قَصَمَهُ»، وقد أخبرني أنّك تكثر من الألوان المختلفة في الطعام في اليوم الواحد، وتدّهن كلّ يوم، فما عليك لو صمت لله أيّاماً، وتصدّقت ببعض ما عندك محتسباً، وأكلت طعامك مراراً قفاراً، فإنّ ذلك شعار الصالحين! أفتطمع وأنت متمرّغ في النعيم، تستأثر به على الجار والمسكين والضعيف والفقير والأرملة واليتيم، أن يحسب لك أجر المتصدّقين! وأخبرني أنّك تتكلّم بكلام الأبرار، وتعمل عمل الخاطئين، فإن كنت تفعل ذلك فنفسك ظلمت، وعملك أحبطت، فتب إلى ربّك يصلح لك عملك، واقتصد في أمرك

وقدّم إلى ربّك الفضل ليوم حاجتك، وادّهن غبّاً، فإنّي سمعت رسول الله ﷺ قال: «ادّهِنُوا غَبّاً وَلا تَدَّهَنُوا رَفَهاً»[1].

ثمّ يأمره الإمام عليه السلام بالتصدّق في سبيل الله على الفقراء والمحرومين ويقول له أيضاً: إنّ كلامك كلام المحسنين ولكنّ عملك عمل المذنبين والعاصين، فلو كان هذا الأمر حقيقة فإنّك قد ظلمت نفسك وأحبطت عملك[2].

ومع الالتفات إلى ما تقدّم أعلاه، نصل إلى شرح الرسالة طبقاً لما ذكره السيّد الرضيّ، فالإمام عليه السلام يأمر زياد بن أبيه بأربعة أمور في عبارة موجزة وزاخرة بالمعنى، فيقول في البداية: «فَدَعِ الْإِسْرَافَ مُقْتَصِداً».

وهو إشارة إلى ما كان زياد يهتمّ به من جلب ألوان الأطعمة على مائدته ويتّخذ سبيل المترفين، وهذا الأمر يعتبر مذموماً لجميع المسلمين ولا سيّما للحكّام والولاة المنصوبين من قِبلهم.

وطبعاً فإنّ الإسراف لا ينحصر بالإكثار في الأطعمة وأمثالها، بل الإسراف في كلّ شيء مذموم في الإسلام حتّى في العبادات، حيث توجب أحياناً التعب والملل وزوال الرغبة في العبادة والطاعة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «وَ إِنَّ الْقَصْدَ أَمْرٌ يُحِبُّهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَإِنَّ السَّرَفَ أَمْرٌ يُبْغِضُهُ اللهُ حَتَّى طَرْحَكَ النَّوَاةَ فَإِنَّهَا تَصْلُحُ لِلشَّيْءِ وَحَتَّى صَبَّكَ فَضْلَ شَرَابِكَ»[3].

ثمّ يذكر الإمام عليه السلام التوصية الثانية ويقول: «وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً».

وهذا هو ما ورد في القرآن الكريم مراراً كقوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ

---

١. نقل المرحوم الحرّ العاملي صاحب كتاب وسائل الشيعة في الجزء الأول، الباب ١٠٢ في آداب الحمام روايات كثيرة حول كيفية الاستفادة من أنواع الدهون لتسبيط الشعر وتنعيم الوجه والبدن بما كان متداولاً في ذلك الزمان ومستحباتها ومكروهاتها، ويستفاد من تعبير الإمام عليه السلام في التعبير أعلاه أنّ الإكثار من استخدام هذه الدهون كان مسلك الأشراف والأثرياء والمترفين في ذلك العصر.

٢. ذكر هذا المضمون البلاذري في انساب الأشراف، وابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة (ج ١٦، ص١٩٦).

٣. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ٣٤٦.

خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ﴾[١].

ومورد آخر يقول تعالى:﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ﴾[٢].

ومعلوم أنّ الإنسان إذا اعتقد بوجود حياة أُخرى بعد هذه الحياة وأنّ احتياجه إلى الأموال والثروات في ذلك الوقت أشدّ بكثير من حاجته في الدنيا، من الواضح أنّه سيترك حالات الإسراف والتبذير والتجمّل، وينعطف على أعمال الخير ولا ينفق من هذه الأموال أكثر من الحدّ اللازم في هذه الدنيا ويقوم بإرسالها أمامه إلى ذلك اليوم.

ثمّ يوصي الإمامعليه السلام بالأمر الثالث والرابع ويقول: «وَأَمْسِكْ مِنَ الْمَالِ بِقَدْرِ ضَرُورَتِكَ وَقَدِّمِ الْفَضْلَ لِيَوْمِ حَاجَتِكَ».

والواقع أنّ ما أشار إليه الإمامعليه السلام في جملة: «وَاذْكُرْ فِي الْيَوْمِ غَداً» بشكل إجماليّ، قد فصّله في الجملتين الأخيرتين، وفسّر جملة ذكر الغد في هذه العبارة بإمساك المال إلّا بمقدار الضرورة والحاجة ولزوم إرسال الفضل إلى آخرتك، وهو اليوم الذي تحتاج فيه إلى هذا المال بشدّة، وخاصّة أنّ الثروة ستتعرّض للفناء في حياته، وإن لم يصبها شيء من النقصان والفناء، فإنّ الإنسان سيتركها عند الموت ولا يمكنه أن ينتفع بها بأدنى شيء ولا يستطيع أن يحملها معه إلى القبر، وحتّى أنّ بعض الأقوام الماضية الذين كانوا يدّخرون الكثير من الأموال النفيسة للسلاطين والملوك ويدفنونها معهم، فإنّهم في الواقع يدّخرون كنوزاً من هذه الثروات للأجيال اللاحقة دون أن تعود بالنفع على أصحابها الموتى.

ومثل هذا المضمون ورد بتعبيرات شيّقة وعميقة المعنى في وصيّة الإمام عليّعليه السلام لابنه الحسنعليه السلام (الكتاب ٣١ من نهج البلاغة) حيث يقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَى ظَهْرِكَ

---

١. سورة البقرة، الآية ١١٠.

٢. سورة الحشر، الآية ١٨.

فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ».

إنّ ما ورد من الصفات الأربع أعلاه هو في الواقع إشارة إلى ما ذكره بعض المطّلعين عن إسراف زياد بن أبيه وخيانته لبيت المال.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة أخرى من نقاط ضعف زياد، وهي التكبّر والغرور في مقابل المحرومين والمستضعفين من الناس ويقول: «أَتَرْجُو أَنْ يُعْطِيَكَ اللهُ أَجْرَ الْمُتَوَاضِعِينَ وَأَنْتَ عِنْدَهُ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ!».

وبديهيّ أنّ الشخص الذي يتوقّع أن ينال ثواب المؤمنين، يجب عليه أن يعمل عملهم ولا يعيش التناقض والازدواجية في السلوك والميول الباطنية، وهذا بالضبط كالمزارع الذي يطمع بالحصول على محاصيل وفيرة من أرضه الزراعية في حين أنّه لم يبذر فيها ولم يسقها الماء.

وهنا يضع الإمام عليه السلام اصبعه على نقطة حسّاسة جدّاً، وهذا هو ما ورد في كلامه عليه السلام في كتاب غرر الحكم حيث قال: «اِحْذَرِ الْكِبْرَ فَإِنَّهُ رَأْسُ الطُّغْيَانِ وَمَعْصِيَةُ الرَّحْمٰنِ»[1].

وفي كلام آخر للإمام عليه السلام يقول: «أَقْبَحُ الْخُلُقِ التَّكَبُّرُ»[2].

وقد ورد في رواية أخرى عن الإمام الباقر والإمام الصادق عليهما السلام قالا: «لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[3].

ثمّ يعود الإمام عليه السلام ليتحدّث مرّة أخرى عن مسألة الإنفاق في سبيل الله ويقول: «وَتَطْمَعُ ـ وَأَنْتَ مُتَمَرِّغٌ[4] فِي النَّعِيمِ، تَمْنَعُهُ الضَّعِيفَ وَالْأَرْمَلَةَ[5] ـ أَنْ يُوجِبَ لَكَ

---

١. غرر الحكم، ح ٢٦٠٩.

٢. المصدر السابق، ح ٢٨٩٨.

٣. الكافي، ج ٢، ص ٣١٠.

٤. «المتمرّغ» هو الشخص الذي اضطجع على التراب وألصق بدنه به، من «التمرّغ» بمعنى التقلّب في التراب.

٥. «أرملة» المرأة التي توفي زوجها، و«أرمل» الرجل الذي توفيت زوجته، وتأتي أحياناً بمعنى فقدان الزاد ☜

ثَوَابَ الْمُتَصَدِّقِينَ؟».

وهذه الحالة لا تختصّ بزياد بن أبيه فقط، فالكثير من الأشخاص عندما يدعون الله تعالى فإنّهم يسألونه ثواباً جزيلاً، ولكنّهم في مجال العمل الذي ينتج مثل ذلك الثواب نراهم مقلّين ولا شيء لديهم في مقابل هذا الطلب الكبير، وفي الحقيقة أنّ مثل هذا الطلب والدعاء هو نوع من النّفاق والازدواجية بين الرغبات والأعمال، وينبغي قلع هذه الحالة من وجود الإنسان للتوصّل إلى السكينة والانسجام الروحيّ التام، فعندما تكون رغبات الإنسان متجانسة ومتناغمة مع سلوكياته وأعماله، يستطيع أن يكون الدعاء حينئذٍ مقبولاً حتى لو طلب من الله أكثر من ذلك.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يختم هذه الرسالة ببيان قاعدة كلّية تستوعب جميع التوصيات السابقة وتزيد عليها، ويقول: «وَإِنَّمَا الْمَرْءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ وَقَادِمٌ عَلَىٰ مَا قَدَّمَ، وَالسَّلَامُ».

تأمّلان

١. العلاقة بين الأعمال والجزاء

يستفاد من التعاليم القرآنية ومفاهيم الوحي أنّ الأصل في يوم القيامة والحساب هو العلاقة الموجودة بين الأعمال وما يترتب عليها من الثواب والعقاب أو مشاهدة الأعمال ونتائجها: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[1] في حين أنّ الكثير من الناس يعتقدون بأنّ الأصل في ذلك اليوم هو العفو الإلهيّ والشفاعة، ولهذا السبب لا يهتمّون بالأعمال كما ينبغي، وهذا النمط من التفكير يقودهم أحياناً إلى ترك الواجبات وارتكاب المحرّمات والتساهل في

☜ والمتاع، وفي الأصل بمعنى «رمل»، وكأنّ مثل هؤلاء الأشخاص ولشدّة عجزهم وفقرهم وحاجتهم التصقوا بالأرض وبالرمل، وتطلق مفردة «أرامل» على المساكين أيضاً.

١. سورة الزلزال، الآيتان ٧ و ٨.

الالتزام الواعي بمقتضيات الرسالة والمسؤولية، فالشفاعة حقّ وأنّ العفو الإلهيّ حقيقة لا ريب فيها، ولكنّ هذه الأمور لا تمثّل أصلاً وأساساً للنجاة يوم القيامة، فذلك اليوم يسمىّ يوم الدين، أي يوم الجزاء واستلام نتائج الأعمال.

والإمام عليه السلام في الرسالة مورد البحث يؤكّد على هذه المسألة أيضاً ويقول: إنّ الإنسان يرى جزاء الأعمال التي قدّمها لهذا اليوم في الماضي، ويرد على أمور كان قد ادّخرها له في الدنيا.

فلو أنّنا جعلنا هذا المعنى أساساً وأصلاً في حركة الحياة والفكر الديني، فمن البديهيّ أنّ أعمالنا ستكون أنقى وأطهر بكثير.

٢. زياد ابن أبيه الانتهازي

لقد تحدّث المؤرّخون كثيراً عن زياد وابنه عبيدالله وعقائدهما المنحرفة وأعمالهما السيئة، وسيأتي بعض التفصيل عن سيرتهما في ذيل الكتاب ٤٤ إن شاء الله، ولكن من المناسب هنا أن نشير إشارة مقتضبة إلىٰ ما أورده ابن أبي‌الحديد في هذا المورد، يقول:

«قلت: قبّح الله زياداً، فإنّه كافأ إنعام عليٍّ عليه السلام وإحسانه إليه واصطناعه له بما لا حاجة إلى شرحه من أعماله القبيحة بشيعته ومحبّيه والإسراف في لعنه، وتهجين أفعاله، والمبالغة في ذلك بما قد كان معاوية يرضىٰ باليسير منه، ولم يكن يفعل ذلك لطلب رضى معاوية، كلاّ، بل يفعله بطبعه، ويعاديه بباطنه وظاهره، وأبى الله إلّا أن يرجع إلى أمّه ويصحّح نسبه، وكلّ إناء ينضح بما فيه، ثمّ جاء ابنه بعده فختم تلك الأعمال السيئة بما ختم، وإلى الله ترجع الأمور»[1].

---

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٣٩، ذيل الكتاب ٢١.

٢٢

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إلىٰ عَبْدِاللّٰهِ بْنِ الْعَبّاسِ رَحِمَهُ اللّٰهُ تَعالىٰ، وَكانَ عَبْدُاللّٰهِ يَقُولُ: «مَا انْتَفَعْتُ بِكَلامٍ بَعْدَ كَلامِ رَسُولِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، كَانْتِفاعي بِهٰذا الْكَلامِ!»[1]

نظرة إلى الرسالة

الغرض الأصليّ من كتابة هذه الرسالة هو أنّ الإمام عليه السلام يلفت نظر مخاطبه ابن عبّاس، وبعبارة أخرى جميع السائرين في طريق الحقّ، إلى هذه النقطة المهمّة وهي أنّ الإنسان لا ينبغي أن يفرح بما حصل عليه من مواهب مادّيّة وخيرات دنيوية عاجلة، ولا ينبغي أن يحزن على ما فقده منها، بل ينبغي أن يكون فرحه وسروره في نيل المواهب المعنوية والأخروية، ويكون أسفه وحزنه على ما فقده من هذه

---

١. سند الرسالة:

يقول صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة: إنّ هذه الرسالة وردت في روايات متواترة، وقد نقلها كثيرون قبل السيد الرضي وبعده في كتبهم، ومن الأشخاص الذين نقلوا هذه الرسالة قبل السيد الرضي، نصر بن مزاحم في كتابه صفين، والمرحوم الكليني في روضة الكافي والبلاذري في انساب الأشراف واليعقوبي في تاريخه وبعد المرحوم السيّد الرضي جماعة أخرى أيضاً. ويستفاد من مجموع ذلك أنّ هذه الرسالة مشهورة ومعتبرة جدّاً (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٣٤).

الأمور المعنوية.

إنّ روح هذه الرسالة هي انعكاس لما ورد في القرآن الكريم في سورة الحديد: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1]، وعلىٰ ضوء ذلك فإذا تحرّك الإنسان في واقع الحياة على مستوى تجسيد هذه التوصية الغالية والعمل بها، فإنّ ذلك سيمنحه القدرة والثبات والاستقامة، بحيث لا يتزلزل ولا يصيبه الاهتزاز أمام العواصف العاتية والتحدّيات الصعبة التي يفرضها الواقع .

٭٭٭

١ . سورة الحديد، الآية ٢٣.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرْكُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ، فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنْهَا، وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ.

الشرح والتفسير

السرور والحزن الموهومان

في هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام في مطلعها إلى نقطتين مهمّتين ومصيريّتين في حياة الإنسان ويقول: «أَمَّا بَعْدُ ـ أي بعد الحمد والثناء ـ فَإِنَّ الْمَرْءَ قَدْ يَسُرُّهُ دَرَكُ[1] مَا لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ وَيَسُوؤُهُ فَوْتُ مَا لَمْ يَكُنْ لِيُدْرِكَهُ».

إنّ مواهب الدنيا على نحوين، فبعضها يحصل عليها الإنسان بسعيه وعمله ويفقدها بتكاسله وتماهله، والنحو الآخر، يحصل عليه الإنسان بدون سعي وبذل جهد، وأحياناً يفقد الإنسان مثل هذه المكاسب الدنيوية حتى لو سعى وبذل الجهد في سبيل تحصيلها والاحتفاظ بها.

والقسم الأول يدخل في دائرة اختيار الإنسان: والآية الشريفة: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[2] ناظرة إلى هذا المعنى، ولكن القسم الآخر يدخل في دائرة القضاء والقدر الحتميين، وهو خارج عن دائرة اختيار الإنسان.

---

١. «درك» وردت هذه الكلمة في أكثر نسخ نهج البلاغة «دَرَك» على وزن «سَنَد» ولكن وردت في بعض النسخ «دَرْك» على وزن «عَذْل» وكليهما يقصد بهما معنى واحد وهو تحصيل الشيء ونيل المراد.

٢. سورة النجم، الآية ٣٩.

والواقع أنّ الإمامعليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ الكثير من الأمور التي توجب السرور والفرح للإنسان هي من القسم الثاني، وعلى أيّة حال، فالإنسان يحصل عليها وفقاً لما قدّر له في دائرة القضاء والقدر الإلهيين، وعلى هذا الأساس فالفرح والحرص عليها لا مبرّر له، كالشخص الذي يفرح بطلوع الشمس، وفي النقطة المقابلة هناك أمور لا يحصل عليها الإنسان مهما بذل من جهد وسعي في سبيل ذلك، فلو أنّ الشخص عاش الحزن والغمّ بسبب ذلك فإنّ حزنه سيكون موهوماً ولا مبرّر له، كالشخص الذي يحزن لغروب الشمس واختفائها في الأُفق.

والمواهب الماديّة أعمّ من الأموال، والثروات، والمقامات والمناصب، والنجاحات والإخفاقات، فقدان بعض الإمكانات والحصول عليها؛ هي من هذا القبيل غالباً، فلا يكون نيلها والحصول عليها اختيارياً ولا فقدانه وزوالها، ومن هنا لا ينبغي أن يكون الحصول عليها سبباً للفرح والسرور ولا فقدانها سبباً للتأسّف والحزن.

عندما ننظر إلى الحياة الدنيا بهذا المنظار ونرى النجاحات والإخفاقات من هذه الزاوية، فسوف لا تكون تلك النجاحات موجبة للفرح والسرور، ولا تكون الإخفاقات والفشل مصدراً للحزن والهمّ.

ثمّ يستمرّ الإمامعليه السلام في بيان هذه الحقيقة ويقول: «**فَلْيَكُنْ سُرُورُكَ بِمَا نِلْتَ مِنْ آخِرَتِكَ، وَلْيَكُنْ أَسَفُكَ عَلَىٰ مَا فَاتَكَ مِنْهَا**».

والدليل على ذلك واضح، فالمواهب المادية، الاختيارية منها أم غير الاختيارية، تسير بسرعة نحو الزوال والفناء، ولا يمكن الاعتماد عليها في زمان وجودها، فهي معرّضة دوماً للآفات والنقصان وكذلك الحرمان منها معرّض للانتهاء وسرعة الزوال، فما يبقى للإنسان في واقع الحياة هو المواهب الأُخروية والمعنوية، فلذلك ينبغي أن يتأسّف علىٰ فقدانها ويحرص علىٰ نيلها واكتسابها.

ويقول الإمامعليه السلام في ختام هذا الكلام وكنيتجة جليّة لما تقدّم: «**وَمَا نِلْتَ مِنْ**

دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً، وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً، وَلْيَكُنْ هَمُّكَ فِيمَا بَعْدَ الْمَوْتِ».

وفي الختام ينبغي الالتفات إلى هذه الحقيقة وهي أنّ مواهب الدنيا على قسمين، وأمّا مواهب اللآخرة فنوع واحد لا أكثر. فأمّا مواهب الدنيا فتارة يحصل عليها الإنسان بالسعي وبذل الجهد، وأحياناً بدون سعي وعمل، وعلى حدّ تعبير البعض: «بما أنّ الإنسان عندما يحصل على نعم ومواهب أو يفقد هذه النعم فلا يعلم أنّها من أيّ القسمين هي، هل هي من القسم الأول أم الثاني، ولهذا السبب يقول الإمام عليه السلام: «وَمَا نِلْتَ مِنْ دُنْيَاكَ فَلَا تُكْثِرْ بِهِ فَرَحاً»، فربّما تكون هذه النعم والمواهب من الأمور غير الاختيارية التي لا يحرم منها الإنسان أبداً، وكذلك «وَمَا فَاتَكَ مِنْهَا فَلَا تَأْسَ عَلَيْهِ جَزَعاً» فلا خوف على حرمانك منها فربّما تكون من النوع الذي سيبقى معك إلى الأبد، ولكن ليكن همّك واهتمامك لما تقدّمه لآخرتك من سعي وعمل صالح، ففي ذلك اليوم لا تحصل على شيء إلّا من خلال ما تقدّمه لنفسك، فإن ليس للإنسان إلّا ما سعى، وكما يقول الإمام عليه السلام في موضع آخر من نهج البلاغة: «لَا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجُو الْآخِرَةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ»[1].

تأمّلان

١. الجواب عن سؤال

ورد في كلام الإمام عليه السلام في الرسالة مورد البحث أنّ فرح الإنسان ينبغي أن يكون منصبّاً على ما يحصل عليه في الآخرة، في حين أننا نعلم أنّ الآخرة ستقع في المستقبل لا في الدنيا، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّه، أولاً: إنّ الكثير من الأمور المعنوية يحصل عليها الإنسان في الحياة الدنيا وتمثّل نوعاً من الأمور الأخروية، من قِبل النجاح والتوفيق في مسيرته المعنوية في السلوك إلى الله.

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار ١٠٥.

ثانياً: إنّ هذه العبارة ناظرة إلى الأسباب والعوامل التي تؤدّي إلى الحصول على المواهب الأخروية، فالشخص الذي قدّم أعمالاً صالحة وتحلّى بصفات محمودة في هذه الدنيا يمكن القول أنّه قد حصل على المواهب الأُخروية، كأنّه وفّر أسبابها في هذه الدنيا، وبعبارة أخرى قد حصل على أسباب تلك المواهب الأُخروية، وتحصيل الأسباب هو نوع من نيل المسببات.

٢. الإنسان فاعل مختار

لقد ثبت في بحث الجبر والاختيار، وطبقاً للأدلّة العقلية والآيات الكثيرة الواردة في القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام، أنّ الإنسان فاعل مختار في أعماله، ومن المحال أن يكون الإنسان مجبوراً على المعصية والإثم، وأنّ الله تعالى عادل في حكمه وسيجزيه الجزاء العادل على ما قدّم من أعمال وسلوكيات، ولا يمكن أن يجبر الإنسان على الأعمال الصالحة، ثمّ يثيبه عليها بوصفه مستحقّاً للثواب، ولكن لا شكّ في وجود بعض الأمور في حياة الإنسان خارجة عن اختياره، والله تعالى لا يعاقبه ولا يثيبه عليها بسبب ذلك، من قبيل الخصوصيات البدنية في الإنسان ومنشأ ولادته ومَن هو أبوه وأُمّه وفي أيّ زمان ومكان يولد ،وأمثال ذلك، فهذه الأمور ربّما تؤثّر في صياغة عمل الإنسان وشخصيته، ولكنّ هذا التأثير لا يكون حتمياً وغير قابل للاجتناب، وبعبارة أخرى أنّ هذه الأمور ربّما توفّر للإنسان الأرضية المناسبة للأعمال الصالحة والطالحة ولكن الإنسان هو الذي سيفرض إرادته في النهاية ويقوم بعمل معيّن أو يختار سلوك خاصّ بإرادته واختياره.

وبديهيّ أنّ الأشخاص الذين تتوفّر فيهم الأرضيّة المناسبة للأعمال الصالحة سيكون ثوابهم أقلّ من الأشخاص الذين لم تتوفّر لهم مثل هذه الأرضية، والعكس صحيح، فالأشخاص الذين تتوفّر فيهم الأرضية المساعدة لارتكاب الذنب إلّا أنّهم يجتنبون التورّط بالإثم ويعصمون أنفسهم من الذنب، فإنّهم يستحقّون الثواب أكثر

من الأشخاص الذين لم تتوفّر فيهم هذه الأرضية، ولتوضيح هذا المعنى يمكننا الاستعانة بمثالين في هذا المجال، فالكثير من الناس يتوجّهون إلى المساجد، ولكنّ جار المسجد ليس على حدّ سواء من الثواب مع الشخص الذي يبتعد عن المسجد مسافة بعيدة.

المسلمون يصومون رمضان، ولكن ثواب الشخص الذي يملك مزاجاً قوياً وبنية مساعدة ليس على حدّ سواء مع الشخص الذي يملك بنية ضعيفة، وقد وردت تفاصيل هذا الموضوع في الكتب الدينية المختصّة.

٭٭٭

٢٣

ومن كلام له عليه السلام

قالَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلىٰ سَبيلِ الْوَصِيَّةِ لَمّا ضَرَبَهُ ابْنُ مُلْجَم لَعَنَهُ اللّهُ[١]

الوصية في نظرة عامة

هذه الوصيّة تتضمّن مع كونها موجزة، على أربعة أقسام:

القسم الأول: يوصي الإمام عليه السلام بالتمسّك بركني الإسلام الأساسيين، وهما التوحيد والنبوّة ويقول: لا تسمحوا للشرك أن ينفذ في ثنايا حياتكم، ولا تغفلوا العمل بسنّة نبيّكم.

القسم الثاني: يتحدّث الإمام عليه السلام عن مسيرته في هذه الحياة ويقسّمها إلى ثلاث مراحل، كلّ مرحلة منها تمثّل عبرة ودرساً للمخاطب، ويقول: في الماضي كنت

---

١. سند هذا الكلام:

ذكر هذه الوصية المرحوم الكليني في كتاب الكافي مع بعض التفاوت وقال: عندما ضُرب الإمام عليه السلام بالسيف في محرابه، تجمّع بعض المصلين حول فراشه فقال أحدهم: ياأمير المؤمنين عليه السلام أوصنا، فقال: اتوني بوسادة لأتكيء عليها ثم تحدّث بكلام معروف ومذكور في المصادر وقد أورد السيد الرضي قسماً منه.

وأورد قسماً من هذه الوصية المسعودي في مروج الذهب وكذلك في كتاب إثبات الوصية وابن عساكر في تاريخه، الحوادث التي تتعلق باستشهاد الإمام علي عليه السلام.

أعيش بينكم سالماً، واليوم أنام في فراش المرض، وغداً أُفارقكم، فهذه الأيّام الثلاثة عبرة لكم.

القسم الثالث: يشير الإمام عليه السلام إلى كيفية التعامل مع قاتله وأنّه ينبغي أن يقترن ذلك بكامل المحبّة والعطف، فلو أنّ الإمام عليه السلام بقي حيّاً فسيكون العفو لقاتله قربة له، وإذا نال الشهادة فإنّ أولياء الدم يمكنهم الاقتصاص من القاتل ومع ذلك يوصي الإمام عليه السلام بالعفو عنه.

وفي القسم الرابع: يبيّن الإمام عليه السلام كيفية مواجهته للموت ويقول: إنني لم أكره الموت أبداً بل كنت متعطّشاً له وفرحاً باستقباله.

ﮋﮊ

وَصِيَّتِي لَكُمْ: أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ! أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغداً مُفَارِقُكُمْ. إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ، فَاعْفُوا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ؛ وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾.

الشرح والتفسير

وصايا مهمّة

كما أشرنا في ما سبق أنّ ما ذكره المرحوم السيد الرضي هنا يمثّل مقطعاً من كلام مفصّل تحدّث به الإمام عليه السلام في آخر ساعة من عمره الشريف، حيث تمثّل هذه الوصية رأسمال معنويّ وفكريّ ثمين لجميع أفراد الأمّة الإسلاميّة. ففي القسم الأول من هذه الوصيّة يقول عليه السلام: «وَصِيَّتِي لَكُمْ أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئاً؛ وَمُحَمَّدٌ ﷺ فَلَا تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ. أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْبَاحَيْنِ، وَخَلَاكُمْ ذَمٌّ!».

ومع الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد في هذه الوصية اجتناب الشرك مطلقاً، فإنّ ذلك يشير إلى نفي جميع مظاهر وحالات الشرك، سواء الشرك في الذات والصفات والأفعال، أو الشرك في العبادة وغيرها، فلو أنّ الإنسان عاش التوحيد الخالص من جميع أشكال الشرك، فإنّ ذلك من شأنه إضاءة وتنوير جميع أركان روحه

وشخصيّته، بحيث يكون وجوده ملكوتياً وروحانياً بكلّ ما في الكلمة من معنى.

وفي الوصية الثانية يؤكّد الإمام عليه السلام على ضرورة عدم تضييع سنّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ولزوم العمل بجميع ما ورد فيها، خلافاً للأشخاص الذين يتعاملون مع سنّة النبيّ من موقع الانتقاص، فيأخذون ببعض ويتركون بعضاً، فهم في الواقع يخدعون أنفسهم، مثلاً لا يلتزمون بحكم الجهاد الواجب والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلّا أنّهم يقيمون صلاة والليل ويلتزمون بالنوافل، ولا يتورّعون عن ارتكاب المحرّمات والمنكرات، ومع ذلك يقيمون العزاء على سيّد الشهداء.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام يشبّه هذين الأصلين الأساسيين أحياناً بعمود الخيمة، وأخرى بأنّهما سراجان يضيئان طريق الحقّ أمام الإنسان، فالخيمة الصغيرة تحتاج عادة إلى عمود واحد، ولكن الخيمة الكبيرة ربّما تحتاج إلى أكثر من عمود وعلى كلّ عمود ينصب سراج للإنارة، وكما يقول البعض أنّ النور يخرج من تلك الأعمدة، وعلى أية حال فإنّ خيمة الدين لا يمكن إقامتها بدون هذين الأصلين والعمودين، ولا يمكن إنارة أجواء الحياة المعنوية للإنسان بدون هذين السراجين.

أمّا عبارة: «خَلَاكُمْ ذَمٌّ» وكما ذكرنا في الخطبة ١٤٩ من الجزء الخامس أنّ العرب كان يضربون المثل بهذه الجملة ومفهومها، أنّه لا ذمّ ولا لوم عليكم لأنّكم أدّيتم تكليفكم وأنجزتم وظيفتكم، يعني أنّكم عملتم بما أوصيتكم به، فلا إشكال يرد عليكم، وأمّا القائل الأول لهذه العبارة ولهذا المثل من هو؟ فقد ذكرنا تفصيل الكلام في الجزء المذكور.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض في القسم الثاني من هذه الخطبة وفي عبارات موجزة وعميقة المعنى، لبيان سيرة حياته وأنّها تعدّ درساً وعبرة لكم ويقول: «أَنَا بِالْأَمْسِ صَاحِبُكُمْ، وَالْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وَغَداً مُفَارِقُكُمْ».

يعني أنا الذي فتحت خيبر وخضت معركة بدر والأحزاب وكنت في ذلك الوقت رجلاً قوياً أذبّ عن الإسلام والمسلمين، وأُدافع عنكم، ولكنّ مرور الزمان قد أثّر

فيَّ وغيّرني، واليوم أرقد في فراش الموت برأس دامٍ من ضربة ابن ملجم، وهذا الرأس المصاب يعتبر درساً لكم على عدم وفاء الدنيا، وغداً عندما ترون مكاني خالياً بينكم ستشعرون بحقيقة هذه الدنيا وتلمسون عدم اعتبارها، فإنّها أعرضت بكلّ سهولة عن ذلك الرجل الشجاع والبطل المقدام وسلّمته إلى أجله.

التاريخ البشريّ نرى فيه الكثير من هذه الوقائع، وأنّ شخصيات كبيرة أو مجاميع قوية تغيّرت بمرور الزمان وبمدّة قليلة كلياً، ولم يبق لديهم من إمكانات وقدرات إلّا القليل الذي لا يفي بشيء، ويتحدّث لنا التاريخ أنّ نادر شاه كان في ذروة العظمة عندما قصد الهجوم على بعض البلدان، فنام في فراشه فجاءه الطبّاخ الذي كان مستاءً من نادر بشدّة ومعه سكين فقطع به رأسه وذبحه على فراشه وانتهى كلّ شيء في الصباح الباكر.

والأوضح من الجميع تاريخ الأقوام السالفة الذي تحدّث عنه القرآن الكريم كراراً كالفراعنة ونمرود وقوم عاد وثمود، حيث عاشوا العظمة والقدرة إلّا أنّ ذلك لم يمنع من وقوعهم مورد الغضب الإلهيّ، وفي لحظات أصبحوا أثراً بعد عين ودفنتهم أمواج المشيئة الإلهيّة وسحقتهم الصيحة السماوية أو تحطّمت عروشهم وقصورهم بالزلزلة وأمثال ذلك.

وهذه المسألة لا تنحصر بالأشرار من هذا العالم، بل إنّ الأخيار والأبرار مشمولون لهذه السنّة الإلهيّة على السواء، وأنّ الدنيا لا تمثّل للجميع سوى وهماً زائلاً وهباء منثوراً.

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام في القسم الثالث عن نظرته لقاتله ويوصي أبناءه وأصحابه وصيّة مفعمة بالمحبّة والشهامة ويقول: «**إِنْ أَبْقَ فَأَنَا وَلِيُّ دَمِي، وَإِنْ أَفْنَ فَالْفَنَاءُ مِيعَادِي، وَإِنْ أَعْفُ فَالْعَفْوُ لِي قُرْبَةٌ، وَهُوَ لَكُمْ حَسَنَةٌ. فَاعْفُوا ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾**[1]».

---

١. سورة النور، الآية ٢٢.

وما ذكره الإمام عليه السلام في الجملة الأخيرة مقتبس من الآية الشريفة من سورة النور، الواردة في ذيل الآيات «الإفك» عندما اتّهمت جماعة من المنافقين زوجة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وتصدّى القرآن الكريم لتبرئة ساحتها من التهمة الشنيعة، فكان أن أقسم بعض أثرياء الصحابة أنّهم لا يمدّون يد العون بعد الحادثة إلى الأشخاص الذين ساهموا في نشر هذه الشائعة الموهنة، فنزلت الآية الشريفة وأمرتهم بما ذكر آنفاً: ﴿أَلا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾، يعني أنّكم كما تتوقّعون من الله العفو والصفح فإنّ الآخرين أيضاً يتوقّعون منكم العفو والصفح في مقابل العمل السيء الذي ارتكبوه في حقّ زوجة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

ومعلوم أنّ القصاص في الإسلام يعدّ أصلاً في الأحكام والتعاليم السماوية على حدّ تعبير القرآن الكريم وأنّه بمثابة الحياة للمجتمع: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، ولكن في ذات الوقت ترك القصاص والعفو عن الجاني الذي يستحقّ العفو، يعتبر فضيلة كبيرة ومرتبة عالية من السموّ الأخلاقي والإنساني.

وأخيراً يتحدّث الإمام عليه السلام، في القسم الرابع والأخير من وصيّته، عن موقفه من الموت والشهادة، وهذا هو الموقف الذي انعكس في موارد عديدة من نهج البلاغة أيضاً وهو أنني ليس فقط لا أخشى من الموت بل أنني أعيش العشق للشهادة في سبيل الله ويقول: «وَاللهِ مَا فَجَأَنِي مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ، وَلَا طَالِعٌ أَنْكَرْتُهُ، وَمَا كُنْتُ إِلَّا كَقَارِبٍ وَرَدَ، وَطَالِبٍ وَجَدَ؛ ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾».

والعبارة الأخيرة مقتبسة من الآية الشريفة ١٩٨ من سورة آل عمران، حيث يتحدّث القرآن الكريم في مطلع الآية عن ثواب المتّقين ويختمها بالجملة المذكورة آنفاً.

وما جاء في المقطع الأخير من هذه الوصية هو ما تحدّث عنه أمير المؤمنين عليّ عليه السلام مرّات عديدة كما في نهج البلاغة وغيره، وهذا ليس شأن الإمام عليه السلام فحسب

---

١. سورة القصاص، الآية ١٧٩.

بل المؤمنين العاديين أيضاً لا يخافون الموت، وخاصّة إذا كان الموت مقترن بالشهادة، والأشخاص الذين يخافون من الموت إمّا أنّهم لا يؤمنين بالحياة بعد الموت ويتصوّرون أنّ الموت يعني الفناء وزوال كلّ شيء ولذلك يخافون منه، أو يؤمنون بالحياة بعد الموت لكنّ صحيفة أعمالهم إلى درجة من الظلمة والتلوّث بحيث يعلمون أنّ مصيرهم بعد الموت هو بداية العذاب والألم، وأمّا الأشخاص الذين يؤمنون بالآخرة ويملكون صحيفة أعمال بيضاء ونقية، فلا مبرّر لخوفهم من الموت، بل على حدّ تعبير الإمام عليه السلام في الخطبة ٥ من نهج البلاغة تكون علاقتهم بالموت أشبه بعلاقة الطفل الرضيع بثدي أمّه، أو أكثر: «وَاللهِ لَابْنُ أَبي طَالِبٍ آنَس بِالْمَوْتِ مِنَ الطِّفْلِ بِثَدْيِ أُمِّهِ».

وطبقاً لما ورد في الرواية المشهورة أنّ عبدالرحمن بن ملجم المرادي عندما ضرب الإمام عليه السلام في محراب العبادة على أمّ رأسه، قال الإمام عليه السلام: «فُـزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَة».

ومع الالتفات إلى أنّ كلمة «قارب»، كما ورد في لسان العرب وبعض الكتب اللغوية تعني الشخص الذي يبحث عن الماء ليلاً أو الشخص الذي تفصله عن عين الماء مسير ليلة واحدة، فيستفاد من جملة «كَقَارِبٍ وَرَدَ وَطَالِبٍ وَجَدَ» الإشارة إلى أنني بالنسبة للموت والشهادة كالضمآن الذي يريد الوصول إلى منهل الماء أسرع، وقد نلت بغيتي ووجدت ضالّتي التي كنت أنتظرها سنين متمادية.

وما أشدّ التفاوت بين هذا الكلام وكلام المستكبرين الذين يعيشون بعيداً عن الله عزّ وجلّ والآخرة عندما يحين أجلهم ويقعون في شباك الموت، فنراهم يرتجفون خوفاً ويصرخون هلعاً ويتمنّون العودة إلى الدنيا وهم في حالة الذلّة والمهانة.

يقول السيد الرضي في ختام هذه الرسالة: «قَالَ السَّيِّدُ الشَّرِيفُ رَحْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ: أقولُ: وَقَدْ مَضىٰ بَعْضُ هٰذا الْكَلامُ فيما تَقَدَّمَ مِنَ الْخُطَبِ، إلّا أَنَّ فيهِ هٰاهُنا زِيادَةٌ أَوْجَبَتْ تَكْريرَهُ».

تأمّلات

١. القصاص أو العفو؟

رأينا آنفاً أنّ تشريع حكم القصاص في الإسلام من أجل حفظ المجتمع البشريّ من شرّ الأشرار، وكما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1] والأشخاص الذين يعيشون في زماننا هذا ويخالفون حكم القصاص فهم في الواقع يترحّمون على الذئاب العاوية، ويسمحون للأبرياء أن يقعوا في مصائد هذه الذئاب والوحوش الكاسرة ولا يهتمّون بذلك، فهناك أفراد من الأشرار في المجتمع إذا شعروا بالأمن من القصاص فلا أحد يستطيع منعهم من ارتكاب أيّة جريمة في حقّ الأبرياء، وأحد عوامل زيادة نسبة القتل في بعض المجتمعات البشرية يعود إلى إلغاء حكم القصاص في تلك المجتمعات.

ولكنّ الإسلام، ومن أجل التصدّي للعنف والعداون بالمقدار الممكن، يمنح الأشخاص الذين ارتكبوا جريمة القتل بدافع من الانفعال العفويّ أو الغرور فرصة أخرى، حيث ضمّ إلى جانب حكم القصاص حكم العفو، وخيّر أولياء الدم بين القصاص والعفو، ولكن أولياء الله يختارون دائماً الخيار الثاني، ولهذا السبب فقد أوصى الإمام عليه السلام أبناءه وأصحابه في وصيّته مورد البحث العفو عن القاتل، ونعلم أنّ القاتل هو ابن ملجم.

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أنّ أولاد الإمام عليه السلام بعد توصية الإمام عليه السلام بالعفو عن القاتل لماذا رجّحوا خيار القصاص؟

الجواب عن هذا السؤال يتبيّن من خلال الالتفات إلى هذه النقطة وهي أنّ مشاعر الناس وعواطفهم الجيّاشة في مقابل هذه الجريمة كانت إلى درجة من الشدّة بحيث أنّ العفو عن ابن ملجم سيتسبّب في إثارة الاضطراب في ذلك المجتمع، وعشّاق الإمام عليه السلام لا يملكون القدرة على تحمّل مثل هذا العفو، أضف إلى ذلك أنّهم

---

١. سورة البقرة، الآية ١٧٩.

لو سجنوا ابن ملجم فإنّ الجماهير ستهجم حينئذٍ على السجن، وإذا أطلقوا سراحه فسيقطّعونه إرباً إرباً، إذن فالأفضل إجراء حكم القصاص عليه ليعود الهدوء إلى المجتمع.

٢. معنى «لاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ»

إنّ أساس الإسلام يتمثّل في ما ذكره الإمام عليه السلام في هذه الوصيّة مورد البحث، حيث أكّد على التوحيد وحفظ سنّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فالالتزام الواعي بمتطلّبات التوحيد في جميع أبعاده وخاصة التوحيد في العبودية والأفعال، من شأنه أن يكون مصدراً لجميع الخيرات والبركات، فاللجوء إلى ساحة كبريائه ورحمته الواسعة من شأنه أن يفعّل شفاعة الشفعاء أيضاً، فالله تعالى هو الذي بيده مصائر العباد وأرزاقهم وموتهم وحياتهم، يعزّ من يشاء ويذلّ من يشاء، وهو على كلّ شيء قدير.

وأمّا حفظ سنّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كذلك لا يكون بالكلام فقط، بل لابدّ من تجسيدها على أرض الواقع والممارسة، ولكن للأسف الشديد فإنّ جماعة من المسلمين اكتفوا باسم الإسلام وغفلوا عن سنّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله تماماً.

وجماعة أخرى فرضوا آراءهم وما توحي إليهم أهواؤهم على السنّة الشريفة من خلال القراءات الجديدة وأنماط التفسير بالرأي، ووضعوا أنفسهم وأفكارهم مكان السنّة النبوية، حتّى أنّ الإمام عليه السلام في وصيّة أخرى له وهو على فراش الشهادة يقول: «وَاللهَ اللهَ فِي الْقُرْآنِ، لاَ يَسْبِقُكُمْ بِالْعَمَلِ بِهِ غَيْرُكُمْ»[١]. فأنتم قد تربّيتم في ظلّ القرآن الكريم والتعاليم السماوية، فلا ينبغي الغفلة عنها ويعمل بها غيركم، ويتحلّى الآخرون بالأمان والصدق وتتلوّثون أنتم بالخيانة والكذب، وغيركم متّحدون فيما بينهم على أمر الدنيا، وأنتم مختلفون ومتفرّقون في أمر دينكم.

ومن هنا فنحن نخشى أن يأتي ذلك اليوم الذي «لاَ يَبْقَىٰ مِنَ الإِسْلاَمِ إِلاَّ إِسْمُهُ وَلاَ يَبْقَىٰ مِنَ الْقُرْآنِ إِلاَّ رَسْمُهُ»[٢].

---

١. نهج البلاغة، الكتاب ٤٧.

٢. كمال الدين وتمام النعمة: ٦٦، كفاية الأثر: ١٥.

٢٤

ومن كلام له عليه السلام

بِمَا يُعْمَلُ في أموالِهِ، كَتَبَهَا بَعْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ صِفّين[1]:

نظرة إلى الرسالة

يتبيّن من هذه الرسالة أن القسم الأكبر منها، ـ كما يفهم من سياقها، ـ وقف لا وصيّة، والوصيّة تشكّل قسماً صغيراً منها، وخلاصة ما ورد فيها أنّ متولّي الوقف هم أبناء أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وبعده الإمام الحسين الشهيد عليه السلام، وبيان صارف الموقوفة وكيفية تقسيمها وإدارة بساتين النخيل ويستفاد من مجموع هذه الوصيّة أنّ الإمام عليه السلام كان يملك بساتين نخل عديدة في مناطق مختلفة، وامتلكها إمّا من خلال نصيبه من الغنائم الحربية أو بسعيه وجهده، وقد أوقفها جميعاً في موارد الوقف العام ليتسنّى للجميع الاستفادة منها.

---

١. سند الوصيّة:
طبقاً لما ورد في مصادر نهج‌البلاغة أنّ الشيخ الكليني نقل هذه الوصية في كتاب فروع الكافي، ج ٧، ص ٤٩ عن عبدالرحمن بن الحجاج (ولكن ما ورد في الكافي يختلف كثيراً عمّا أورده السيد الرضي في نهج‌البلاغة) ونقلها الشيخ الطوسي بعد الشريف الرضي في كتاب التهذيب. (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٥٤).
ويستفاد من كتاب نهج‌البلاغة أنّ هذه الوصية أكثر بكثير ممّا أورده السيد الرضي، وفي الحقيقة أنّ ما ورد في نهج‌البلاغة يعتبر مقطعاً صغيراً من هذه الوصية، ولكن هذا المقطع عميق في المعنى ودقيق في العبارات والمضمون. (ولمزيد من الاطلاع انظر كتاب نهج‌البلاغة، ص ٩٨٨).

ويشير الأخير منها إلى الجواري وكيفية فتح الباب أمام تحريرهنّ وعتقهنّ.

ويستفاد أيضاً من كلام السيد الرضيّ في ذيل هذه الرسالة أنّه كان شديد الاهتمام بهذه الرسالة حيث تتضمّن فصاحة عالية وبلاغة رائعة.

هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُاللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ. مِنْهَا: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذَلِكَ الْحَسَنُ ابْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ، وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ. وَإِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ، وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ. وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَى أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ، وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقُرَى وَدِيَّةً حَتَّى تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً. وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي - اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ - لَهَا وَلَدٌ، أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسَكُ عَلَى وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ.

الشرح والتفسير

توصيات مدروسة لإدارة الموقوفات

سبق وأن أشرنا آنفاً إلى أنّ هذه الوصيّة تتّخذ شكل الوقف في الأصل، ولذلك ورد فيها أركان الوقف، الموقوف عليهم، المتولّي و... واحداً بعد الآخر.

بداية يتحدّث الإمام عليه السلام عن الوقف والغرض من الوقف، ويقول: «هَذَا مَا أَمَرَ بِهِ عَبْدُاللهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَالِهِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، لِيُولِجَهُ بِهِ الْجَنَّةَ، وَيُعْطِيَهُ بِهِ الْأَمَنَةَ».

ويستفاد جيّداً من هذه العبارة أنّ أحد شروط الوقف قصد القربة حيث ذُكر هذا الشرط في سند الوقف، وبعد ذلك مباشرة ذكر اسم الواقف.

أمّا الوصف بكلمة أميرالمؤمنين بعد أن ذكر الإمام عليه السلام اسمه المبارك، فهذا يشير إلى أنّ كتابة هذا السند من الوقف كان في أيّام حكومته وخلافته رغم أنّ الإمام عليّ عليه السلام كان يعرف بأميرالمؤمنين من قِبل المطّلعين وأولوالألباب بعد رحلة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن في قسم آخر من هذه الوصيّة «سند الوقف» أربع نقاط، والسيّد الرضيّ فصّلها بعبارة، «منها»: بيان الشخص المتولّي وحقّ التولية ومصارف الوقف والأشخاص الذين يتولّون الوقف بعد وفاة أو استشهاد المتولّي الأول وهو القائم مقامه ويقول: «مِنْهَا: فَإِنَّهُ يَقُومُ بِذلِكَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ، فَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ، قَامَ بِالْأَمْرِ بَعْدَهُ وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ».

وجملة: «يَأْكُلُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» يمكن أن يكون إشارة إلى حقّ التولية وربّما تكون إشارة إلى استفادة الموقوف عليهم منها، ولكنّ الاحتمال الأوّل أقرب إلى سياق العبارة مع الالتفات إلى أنّ الأفعال في الجمل المذكورة للمستقبل.

وجملة: «وَيُنْفِقُ مِنْهُ بِالْمَعْرُوفِ» أنّ هذه الموقوفة تتمتّع بجهة الوقف الخاص والوقف العام أيضاً، فبعضها يتعلّق بأبناء الإمام عليه السلام والقسم الآخر يتعلّق بجميع المحتاجين والمسلمين.

وجملة: «وَأَصْدَرَهُ مَصْدَرَهُ» إذا كان ضمير «مصدره» يعود إلى الموقوفة فإنّ مفهومها أنّ الإمام الحسين عليه السلام يعمل في منتوج ومحصول هذه الموقوفة عمل الإمام الحسن عليه السلام، وإذا كان الضمير يعود إلى الإمام الحسن عليه السلام فإنّ مفهومه أنّ الإمام الحسين عليه السلام يتبع سيرة الإمام الحسن عليه السلام فيها، ورغم أنّ نتيجة كلا هذين الاحتمالين واحدة، إلّا أنّهما مختلفان في المفهوم من السياق، وعلى أيّة حال فالاحتمال الأوّل

يبدو أقوى من الثاني[١].

ثم يبيّن الإمام عليه السلام شرحاً أوفى للموقوف عليهم ويقول: «وَإِنَّ لِابْنَيْ فَاطِمَةَ مِنْ صَدَقَةِ عَلِيٍّ مِثْلَ الَّذِي لِبَنِي عَلِيٍّ».

ولهذه العبارة تفسيران: الأوّل، كما أشرنا إليه آنفاً أنّ انتفاع الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام من حقّ التولية لا يمنع انتفاعهما من محصول تلك الموقوفة على أنّهما من الموقوف عليهم، فالحسن والحسين عليهما السلام هما المتوليين للوقف وكذلك من زمرة الموقوف عليهم.

التفسير الثاني: أنّه لا يوجد أيّ امتياز وخصوصية للاستفادة من الموقوفة من أبناء الإمام عليّ عليه السلام، سواء كانوا من أبناء فاطمة عليها السلام أم من نسل الزوجات الأُخريات لأميرالمؤمنين عليه السلام.

فالإمام عليه السلام في هذه الجملة لم يقل: «أبنائي من نسل فاطمة» بل قال: ابني فاطمة عليها السلام وهذا يشير إلى غاية الاحترام للمقام الشامخ للزهراء عليها السلام.

وبعد ذلك يبيّن الإمام عليه السلام هذه النقطة، وهي أنّه لماذا جعل تولية الموقوفة بيد أبناء فاطمة لا سائر أبنائه الآخرين: «وَإِنِّي إِنَّمَا جَعَلْتُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَى ابْنَيْ فَاطِمَةَ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ، وَقُرْبَةً إِلَى رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله، وَتَكْرِيماً لِحُرْمَتِهِ، وَتَشْرِيفاً لِوُصْلَتِهِ».

والحقيقة أنّ الإمام عليه السلام بيّن في هذه العبارة أربعة أدلّة مرتبطة ببعضها على هذا الاختيار: ابتغاء وجه الله، التقرّب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، إكراماً واحتراماً له ولحرمته، والتشرّف بقرابته.

وعلى حدّ قول ابن أبي‌الحديد أنّه عندما يتمّ تسليم الأمور إلى أقرب المقرّبين من الأشخاص الذين يتمتّعون باللياقة والجدارة الكاملة، فإنّ قبول ذلك من قِبل

١. إنّ الرواية المذكورة في كتاب الكافي بدل هذه الرواية تشير إلى أنّ التفسير الثاني أنسب، لأنّ المذكور في الكافي: «وَإِنْ حَدَثَ بِحَسَنٍ حَدَثٌ وَحُسَيْنٌ حَيٌّ ... وَإِنَّ حُسَيْناً يَفْعَلُ فيهِ مِثْلَ الَّذي أَمَرْتُ بِهِ حَسَناً»، ومفهومه أنّ الإمام الحسين عليه السلام يسلك في إجراء هذه الوصية بالنسبة للوقف، ذات البرنامج والمنهج الذي يسلكه الإمام الحسن عليه السلام. (الكافي، ج ٧، ص ٥٠).

سائر الناس سيكون أقرب وأيسر، لأنّ الأقربون أكثر من أيّ شخص آخر على معرفة بسنّة النبيّ الأكرمﷺ ودينه وسنّته وأنّهم أجدر من الآخرين لحفظ هذه الرسالة والقيام بمتطلّباتها والدفاع عنها.

يقول ابن أبي‌الحديد في شرح هذا الكلام: «ثم قال: إنّما فعلت ذلك لشرفهما برسول اللهﷺ، فتقرّبت إلى رسول اللهﷺ، بأن جعلت لسبطيه هذه الرئاسة، وفي هذا رمز كناية إلى من صرف الأمر عن أهل بيت رسول اللهﷺ، مع وجود من يصلح للأمر، أي كان الأليق بالمسلمين والأولى أن يجعلوا الرئاسة بعده لأهل قرابة رسول اللهﷺ وتكريماً لحرمته، وطاعة له، وتعظيماً لقدرهﷺ أن تكون ورثته سوقة يليهم الأجانب، ومن ليس من شجرته وأصله، ألاترى أنّ هيبة الرسالة والنبوّة في صدور الناس أعظم إذا كان السلطان والحاكم في الخلق من بيت النبوّة، وليس يوجد مثل هذه الهيبة والجلال في نفوس الناس للنبوّة إذا كان السلطان الأعظم بعيد النسب من صاحب الدعوة عليه السلام»[١].

وهنا ربّما يثير البعض هذا السؤال، وهو: لماذا لم يعيّن الإمامؑ المتولين للوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسينؑ؟

الجواب: إنّ الإمامؑ بيّن ذلك في الروايات التي تذكر جميع هذه الوصيّة بشكل مفصل، ولكن السيد الرضي الذي انتهج منهج الانتقاء في نقل كلمات الإمامؑ حذف هذا القسم من الوصيّة، والخلاصة أنّ الإمام عليّؑ جعل تولية الوقف بعد الإمام الحسن والإمام الحسينﷺ بيد سائر أبنائه، ولو لم يوجد بينهم شخص مناسب لهذا الأمر، فإنّه ينبغي أن يتولّى هذه الموقوفة رجال آخرين من آل أبي طالب، وإنّ فُقد من بينهم الشخص المناسب لتولّي هذا الأمر فتنتقل التولية إلى شخص آخر من بني هاشم[٢].

---

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٤٩.

٢. وللمزيد من الاطلاع راجع فروع الكافي، ج ٧، ص ٥٠.

وفي المقطع الأخير من هذا السند والوصيّة بالوقف يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفية حفظ هذه الموقوفات ورعاية أمورها، ويأمر بأمرين في هذا المجال، فيقول أوّلاً: «وَيَشْتَرِطُ عَلَى الَّذِي يَجْعَلُهُ إِلَيْهِ أَنْ يَتْرُكَ الْمَالَ عَلَىٰ أُصُولِهِ، وَيُنْفِقَ مِنْ ثَمَرِهِ حَيْثُ أُمِرَ بِهِ وَهُدِيَ لَهُ».

ويعتبر ما ذكره الإمام عليه السلام هنا قاعدة كليّة في جميع الموقوفات، فينبغي أن يبقى أصل المال سالماً ويتمّ الانتفاع فقط من محصوله وثمرته في الوقف، وهذا التعبير أحياناً يقال عند إجراء صيغة عقد الوقف، فيقال: «أنْ لاَ يُبَاعَ وَلاَ يُوهَبَ»، ويقول كذلك في تعريف الوقف: «اَلْوَقْفُ حَبْسُ الْعَينِ وَتَسْبيلُ الثَّمَرَةِ»، ولكن الإمام عليه السلام بيّن هنا هذا المطلب للتأكيد ولئلاّ يفكّر الأشخاص من الموقوف عليهم ببيع أصل النخيل وينتفعوا من أثمارها.

التوصية الثانية يقول الإمام: «وَأَلَّا يَبِيعَ مِنْ أَوْلَادِ نَخِيلِ هَذِهِ الْقُرَىٰ وَدِيَّةً حَتَّىٰ تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً».

كلمة: «وَدِيَّةَ» تعني الفسائل الصغيرة التي تنمو إلى جانب النخلة وتمدّ جذورها تدريجياً وتشتدّ وتنمو حتّى يتمّ فصلها واقتطاعها من الأصل وغرسها في مكان مناسب آخر، ولذلك ورد التعبير عنها بـ «أَوْلَادِ نَخِيلِ»، وهذا العمل له فائدتان، الأُولى: أن يتمّ إشغال الفضاءات الفارغة من بساتين النخيل بهذه الأغراس كما يقول الإمام عليه السلام: «تُشْكِلَ أَرْضُهَا غِرَاساً».

ومفهوم هذه العبارة، كما بيّن ذلك المرحوم السيد الرضي في ختام هذه الوصية، أنّه يستفاد من هذه الأغراس الجديدة للنخيل بحيث يتمّ اشغال جميع أراضي بساتين النخيل بحيث يشكل تشخيصها على الناظر وهل أنّها هي النخيل السابقة، أم نخيل جديد؟

وعلى أيّة حال فإنّ تأكيد الإمام عليه السلام لإعمار هذه الموقوفات واتّساع رقعة الأراضي الزراعية جدير بالالتفات.

والفائدة الأخرى، ما يقال من أنّ فسيل النخيل لو لم تقطع وتفصل من أصلها في الوقت المناسب ويتمّ بيعها، فإنّها ربّما تسبب ضرراً للنخلة نفسها، ومن هذا المنطلق ينبغي حفظ هذه الأغراس إلى زمن معيّن ثمّ يتمّ اقتطاعها طبقاً لتوصية الإمام عليه السلام ومفاد سند الوقف وغرسها في الأرض الزراعية ويتمّ الاستفادة منها في ذلك البستان الموقوف.

وهذه التوصية لا تختصّ بموقوفات الإمام عليه السلام فقط، بل تشمل جميع الموقوفات من هذا القبيل، رغم أنّ المتولّين النفعيين وللأسف يتصرّفون خلاف ذلك ويعرّضون بساتين النخيل للأضرار والآفات، لأنّ بساتين النخيل لو لم تمتلىء من النخيل فإنّ الحرارة والبرودة في الفصول المختلفة من شأنها أن تعرّض النخيل للضرر أسرع، ولكن عندما تمتلىء بساتين النخيل من أشجار النخيل فإنّها قلّما تصاب بالآفات وأشكال الضرر الأخرى.

وهذا الكلام لا يعني غضّ النظر عن إيجاد فواصل لازمة بين أشجار النخيل فربّما يتسبّب عدم رعاية الفاصلة أيضاً إلى إضعاف النخيل والإضرار بهذه البساتين.

وضمناً ينبغي الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ أغراس النخيل يمكن أن تعدّ جزءاً من المنافع، فلا تشملها حرمة بيع الوقف، ولكن مع ذلك فالإمام عليه السلام يقول: إنّ بستان النخيل مادام يحتاج إلى هذه الأغراس فلا ينبغي بيعها إلى خارج البستان.

وفي ختام هذه الوصية، وبعد بيان المسائل المتعلّقة بالموقوفات، تعرّض الإمام عليه السلام للمسائل المتعلّقة بزوجاته من الجواري، ويتحدّث عن بيان وضعهنّ ومصيرهنّ، بحيث يتمّ تحريرهنّ بعد وفاته، يقول: «**وَمَنْ كَانَ مِنْ إِمَائِي ـ اللَّاتِي أَطُوفُ عَلَيْهِنَّ[1] ـ لَهَا وَلَدٌ أَوْ هِيَ حَامِلٌ، فَتُمْسَكُ عَلَىٰ وَلَدِهَا وَهِيَ مِنْ حَظِّهِ، فَإِنْ مَاتَ**

١. عبارة «أطوف عليهن» تعبير كنائي جميل للمواقعة الجنسية، لأنّه يفهم من كلمة الطواف نوع من الإلتواء والدوران وعندما تأتي هذه الكلمة مع على يقصد بها الدروان حول الشيء وخاصة أنّ هذا التعبير طبقاً لما

وَلَدُهَا وَهِيَ حَيَّةٌ فَهِيَ عَتِيقَةٌ، قَدْ أَفْرَجَ عَنْهَا الرِّقُّ، وَحَرَّرَهَا الْعِتْقُ».

وفي ذلك الزمان كان للإمام عليه السلام عدّة جواري بحكم الزوجات، وكان له منهنّ أبناء أيضاً. ولعلّ غرض الإمام عليه السلام من زيادة الأبناء وكثرة النسل أن يزداد آل عليّ وبنو هاشم، وبذلك يتمّ الوقوف أمام تهديد الأعداء لهذا النسل المبارك ولا تتسبّب مؤامرات الأعداء في انقراض هذه الذرّية الطاهرة.

وعلى أيّة حال فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية بيّن حكم الجواري اللاتي لهنّ ولد منه أو حاملات منه، وطبقاً للقاعدة الفقهية المعروفة التي يتّفق عليها جميع الفقهاء أنّ مثل هذه الجواري والإماء يتمّ عتقهنّ من سهم الأولاد، أو بتعبير آخر إنهنّ جزء من نصيب الأبناء من الإرث فيتمّ عتقهنّ مباشرة بعد موت المالك، لأنّه لا يحق لأحد أن يملك أباه أو أمّه.

وأمّا بالنسبة للإماء اللائي ليس لهنّ ولد، فلم يذكر لهنّ حكم في هذه الوصية، ولكن ورد حكمها أيضاً في روايات أخرى ذكرت هذه الوصية بشكل مفصّل كما وردت في كتاب الكافي، وأنّ الإمام عليه السلام أمر بعتقهنّ جميعاً، ولكنّ السيد الرضيّ وبسبب منهجه في التلخيص والانتقاء اكتفى بهذا المقطع من الوصية.

وهذا يشير إلى أنّ الإمام عليه السلام كان يهتمّ بتحرير والعبيد والجواري، وأنّه كان طيلة تاريخ حياته المباركة، وطبقاً لما ورد في بعض الروايات اشترى وأعتق من كدّ يده ألف عبد «أَنَّهُ عليه السلام أَعْتَقَ أَلْفَ نَسَمَةٍ مِنْ كَدِّ يَدِهِ»[1].

وهذه المسألة، أي اهتمام الإسلام في تحرير العبيد تدريجياً، تعتبر مسألة كثيرة الأبعاد والتفاصيل، وتشير إلى أنّ الإسلام يرى أنّ الأصل في الإنسان الحرية حتّى في المجتمع الذي يعيش ثقافة العبودية والرّق، ولكن من اللازم إيجاد برنامج

☜ ذكره لسان العرب يستخدم عادة في الحركات الليلة، وإذا كان القصد منها الحركة في النهار لابدّ من المجيء بقرينة.

١. بحار الأنوار، ج ٤١، ص ٣٢، ح ٣.

مدروس وطويل الأمد للوصول إلى هذا الهدف وتحقيق هذه الغاية الإنسانية، لأنّ الإعلام الفوري عن عتق جميع العبيد والإماء من شأنه إيجاد الخلل وخلق جوّ من الأزمة في مفاصل المجتمع، وربّما يتسبّب أيضاً في الإضرار وإهلاك الكثير من العبيد[١].

وجملة: «فَإِنْ مَاتَ وَلَدُهَا» إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أن لا يتصوّر أحد أنّ الجارية الحامل أو ذات الولد التي مات ولدها بعد موت المولى، فإنّ تلك الجارية تعود إلىٰ حالتها السابقة من الرّق والعبودية، فالإمام عليه السلام يقول: (فإن مات ولدها وهي حيّة فهي عتيقة قد أفرج عنها وحرّرها العتق) يعني أنّه لا يمكنها العودة إلى الحالة السابقة.

٨٠٠٣

وفي ختام هذه الوصية يقول المرحوم السيّد الرضيّ: «قَالَ الشَرِيفُ: قَوْلُهُ عليه السلام في هٰذِهِ الْوَصِيَّةِ: «وألاٰ يَبيعَ مِنْ نَخْلِهٰا وَدِيَّة»، اَلْوَدِيَّةُ: اَلْفَسيلَةُ، وَجَمْعُهٰا وَدِيٌّ. وَقَوْلُهُ عليه السلام: حتّىٰ تُشْكِلَ أَرْضُهٰا غِراساً» هُوَ مِنْ أَفْصَحِ الْكَلاٰمِ، وَالْمُرٰادُ بِهِ أَنَّ الْأَرْضَ يَكْثُرُ فيهٰا غِرٰاسُ النَّخْلِ حَتّى يَرٰاهٰا النٰاظِرُ عَلىٰ غَيْرِ تِلْكَ الصِّفَةِ الَّتي عَرَفَهٰا بِهٰا فَيُشْكِلُ عَلَيْهِ أَمْرُهٰا وَيَحْسَبُهٰا غَيْرُهٰا». وتعبير الإمام عليه السلام بكلمة «وَدِّيِة» تعني غرس النخلة وجمعها «وَدي» (على وزن علي).

وأمّا العبارة الأخرى للإمام عليه السلام وهي قوله: «حَتّى تُشْكِلَ أَرْضُهٰا غِراساً» فهي من أفصح الكلام، ومفهومها أنّ الأغراض والنخيل ينبغي أن تكون بدرجة من الكثرة بحيث تغطّي أجواء بستان النخيل، فكلّ شخص قد شاهد هذا البستان في السابق يصعب عليه تشخيص هذه النخيل والبستان ويتصوّر أنّه يشاهد بستاناً آخر ويسير في حقل آخر.

---

١. وللمزيد من الاطلاع انظر: تفسير الأمثل، ذيل آيات ١-٣ من سورة محمّد.

تأمّلان

١. الجواب عن سؤالين

قد تثار بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام على هذه الوصية ويقال:

١. يستفاد من التعبير بالوصيّة أنّ الإمامعليه السلام كان يملك أموالاً طائلة بحيث أنّه وقفها في حياته، ولكن مع الالتفات إلى زهد الإمامعليه السلام المعروف، فمن أين حصل على مثل هذه الأموال؟

وكما أشرنا قبل قليل أنّ الإمامعليه السلام كان يملك ثلاثة مصادر ماليّة، أحدها: حصّته من الغنائم التي تعود لجميع جنود الإسلام وأحياناً تشكّل مبلغاً كبيراً، الآخر: خراج الأراضي الخراجية الذي يتعلّق بعامّة المسلمين ولا يختصّ بالمحاربين، ومقدار هذا الخراج بعد الفتوحات الإسلاميّة ازداد بشكل كبير، وللإمامعليه السلام حصّته من هذا المورد المالي.

الثالث: أنّ الإمامعليه السلام كان يعمل سنين متمادية بزراعة الأشجار وغرس النخيل وقد أوجد بساتين عديدة بذلك، ثمّ جعله وقفاً خاصّاً وعامّاً، فبعض هذه البساتين والحقول أوقفها على أبنائه وذريته من آل أبي طالب وبني هاشم، وبعضها الآخر أنفقه في سبيل الله، وما تبقّى من مال للإمامعليه السلام بوصفه ميراثاً له يعدّ مبلغاً ضئيلاً.

وقد ورد في الروايات أيضاً أنّ النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله كان يملك أموالاً وبساتين جعلها الخلفاء من جملة أموال بيت المال بذريعة أنّ الأنبياء لا يورثون.

يقول ابن عبدربه في الاستيعاب: «قُتِلَ عَلِيٌّ وَلاَ مَالَ اخْتَجَبَهُ وَلاَ دُنْيا أَصَابَهَا»[١].

وينقل ابن أبي‌الحديد أيضاً عن بعض المخالفين الذين اعترضوا على الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام وقالوا: «إنّ أبا بكر رحل من الدنيا دون أن يترك ديناراً ولا درهماً، ولكن الإمام عليّ عندما غادر الدنيا ترك الكثير من بساتين النخل، ثمّ يجيب ابن أبي‌الحديد عن قولهم هذا ويقول: قد علم كلّ أحد أنّ عليّاًعليه السلام قد أستخرج عيوناً

---

١. الاستيعاب، ج ٣، ص ١١٢٦.

بكدّ يده في المدينة وينبع وأحييٰ بها مواتاً كثيرة، ثمّ أخرجها عن ملكه وتصدّق بها على المسلمين، ولم يمت وشيء منها في ملكه، ألا ترى إلى ما تتضمّن كتب السير والأخبار من منازعة زيد بن عليّ وعبدالله بن الحسن في صدقات عليّ عليه السلام ولم يورّث عليّ عليه السلام بنيه قليلاً من المال ولا كثيراً إلّا عبيده وإماءه وسبعمائة درهم من عطائه، تركها ليشتري بها خادماً لأهله قيمتها ثمانية وعشرون ديناراً»[١].

٢. السؤال الآخر: كيف يقول الإمام عليّ عليه السلام: إنّي جعلت الحسن متولّياً على الوقف فإذا مات وكان الحسين عليه السلام لا يزال على قيد الحياة فيقوم مقامه، فهل أنّ الإمام عليّ عليه السلام لم يكن يعلم عن طريق الغيب أنّ شهادة الإمام الحسين عليه السلام تقع بعد شهادة الإمام الحسن عليه السلام بعدّة سنوات؟

والجواب عن هذا السؤال وأسئلة كثيرة أخرى من هذا القبيل يمكن اختصاره بجملة واحدة، وهي أنّ الأئمّة في أعمالهم العادية كانوا يعتمدون على علمهم الشخصيّ الذي يكتسبونه من الوسائل الطبيعية لا من علم الغيب، كما كان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يعيش حياته الطبيعية كذلك، وكان أصحابه يعتمدون على العلم الحاصل من القنوات العادية، ولم يكن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أو الإمام يستخدم علم الغيب سوى في بعض الموارد الاستثنائية.

٢. أهمّية الوقف في الإسلام

إنّ اهتمام الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام بأمر الوقف، وسبقه الآخرين في هذا العمل الخيّر، يشير بوضوح إلى الأهميّة البالغة للوقف في الإسلام.

ورغم أنّ الإسلام لم يبتدع مسألة الوقف، حيث كانت موقوفات كثيرة قبل الإسلام في المذاهب والأديان الأخرى، ولكنّ الإسلام أولى أهميّة لهذه المسألة وأكّد عليها بوصفها صدقات جارية.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٤٦.

ونقرأ في حديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله مرّ برجل يغرس غرساً في حائط له فوقف عليه فقال: «ألا أدُلّك على غَرسٍ أَثبَتُ أصلاً وأسْرَعَ إيَناعاً وأطْيَب وأنْقىٰ؟ قال: بلى فِدَاك أبي وأُمّي يارسولَ الله، فقال صلى الله عليه وآله: إذا أصْبَحْتَ وَأمْسَيْتَ فَقُلْ: سُبْحانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ ولا إلهَ إلّا اللهُ واللهُ أكبَرُ، فإنّ لكَ بذلِكَ إن قُلْتَهُ بِكُلِّ تَسبيحَةٍ عَشْرَ شَجَراتٍ في الجنَّةِ مِن أنواعِ الفَاكِهَةِ وَهُنّ مِنَ الباقِيات الصّالِحات».

قال الراوي: فقال الرجل: أشهدك يارسول الله أنّ حائطي هذا صدقة مقبوضة على فقراء المسلمين من أهل الصّفة، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾[1].وعلى ضوء ذلك فإنّ الوقف يعتبر سنّة إسلاميّة حسنة لمجمل الأعمال والأحكام الدينية.

وجاء في بعض الروايات عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ أنّ بعض الصحابة الصحابة كانوا يملكون أموالاً، تركوها وقفاً لهم بعد موتهم.

ونقل الشيخ الطوسي في الأمالي عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «خَيْرُ مَا يُخَلِّفُهُ الرَّجُلُ بَعْدَهُ ثَلاثَةٌ: وَلَدٌ بَارٌّ يَسْتَغْفِرُ لَهُ وَسُنَّةُ خَيْرٍ يُقْتَدَى بِهِ فِيهَا وَصَدَقَةٌ تَجْرِي مِنْ بَعْدِهِ»[2].

والأحاديث الشريفة في هذا المجال كثيرة، وينبغي الالتفات إلى أنّ أحد الطرق للحيلولة دون تراكم الثروات وتكديس الأموال، الاهتمام بإشاعة ثقافة الوقف، لأنّ الوقف من شأنه إخراج الأموال من قبضة أفراد معدودين ووضع منافعها وخيراتها تحت اختيار المحرومين والمحتاجين من الناس.

---

١ . بحارالأنوار، ج ١٠٠، ص ١٨٢، ح ٤، والآيات ٥-٧ من سورة الليل.

٢ . وسائل الشيعة، ج ١٣، كتاب الوقوف والصدقات، باب ١، ح ١٠.

٢٥

ومن كلام له عليه السلام

كَانَ يَكْتُبُهَا لِمَنْ يَسْتَعْمِلُه عَلَى الصَّدَقَاتِ

قَالَ الشريفُ: وَإنّما ذَكَرنا هَنا جُمَلاً لِيُعْلَمَ بِها أنَّهُ عليه السلام كَانَ يُقيمُ عِمَادَ الْحَقِّ، وَيَشْرَعَ أمْثِلَةَ الْعَدْلِ، في صَغيرِ الأُمُورِ وَكَبيرِهَا وَدَقيقِهَا وَجَليلِهَا[1]

نظرة إلى الرسالة

هذه الوصيّة التي كان الإمام عليه السلام يقدّمها عادة للعاملين على جمع الزكوات وتشتمل على نكات دقيقة ونقاط مدروسة تشير إلى رعاية الأدب الإسلامي ورعاية العدالة القصوى في شأن جميع أفراد المجتمع الإسلامي، بل تمتد لتشمل حتى الحيوانات أيضاً.

في المقطع الأوّل من هذه الوصيّة، يأمر الإمام عليه السلام العاملين على الزكاة أن

---

١. سند الوصيّة:

نقل هذه الرسالة بسند معتبرة المرحوم الكليني في كتابه الكافي في باب «آدب المصدّق» من كتاب الزكاة، وكذلك شيخ الطائفة الشيخ الطوسي في باب «الزيادات في الزكاة» بنفس سند الكليني، ونقلها صاحب كتاب الغارات (إبراهيم الثقفي) بسنده عن الإمام الصادق عليه السلام. يقول صاحب كتاب مصادر نهج البلاغة: إنّ هذه الوصية كانت معروفة بين العلماء قبل السيد الرضي ومن جملة الأشخاص الذين أشاروا إليها الشيخ المفيد في المقنعة. ثم أضاف: من الأشخاص الذين نقلوها بعد السيد الرضي ابن إدريس في السرائر عن المقنعة، والزمخشري في ربيع الأبرار مع تفاوت يسير (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٢٥٧).

يتحرّكوا في عملهم بنيّة خالصة ومن موقع الالتزام بالتقوى، ولا يستخدموا أُسلوب التهديد والإرعاب في جباية الحقوق الشرعية، ولا يأخذوا من أيّ شخص أكثر من الحقّ الإلهيّ المفروض عليه.

وفي القسم الثاني من الوصيّة يشير الإمام عليه السلام إلى نقاط دقيقة فيما يتّصل بتعاملهم مع الأشخاص الذين وجب عليهم دفع الزكاة من أموالهم، وأن يكون تعاملهم معهم في غاية اللطف والمحبّة ورعاية الأدب الإسلامي.

وفي القسم الثالث يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفية فرض حقّ الله من أموال الناس عن طريق القرعة حتى لا يقع أيّ إجحاف لأحد من الناس في شأن.

وفي القسم الرابع يذكر الإمام عليه السلام توصيات متعدّدة بشأن حكم المعاملة مع الحيوانات التي أُخذت من المالكين بوصفها زكاةً، وهذه التوصيات كما سنرى، أعلى وأسمى ممّا تدّعيه منظّمات حقوق الحيوان في حماية الحيوانات.

ويضيف المرحوم الكليني بعد نقل هذه الرسالة عن الإمام الصادق عليه السلام عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أنّ الإمام الصادق عليه السلام بكى، ويقول الراوي بريد بن معاوية: سمعت أبا عبدالله الصادق عليه السلام يقول: بعث أميرالمؤمنين عليه السلام صلوات الله عليه صدقة من الكوفة إلى باديتها، فقال له: «**انْطَلِقْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ...**»، ثمّ بكى أبوعبدالله عليه السلام وقال: «**يابريدُ واللهِ ما بقيتْ لله حرمةٌ إلّا انتُهِكتْ، ولا عُمِلَ بكتابِ اللهِ، ولا بسُنَّةِ نَبيّهِ في هذا العالَم، ولا أُقيمَ في هذا الخَلْقِ حَدٌّ مُنذُ قُبِضَ أميرُالمُؤمِنين صَلوات الله وسَلامه عليه، ولا عُمِلَ شَيْء مِن الحَقِّ إلى يَومِ النّاس هذا**».

واللافت للنظر أنّ كاتب المصادر بعد أن ذكر هذا المقطع من كلام الإمام الصادق عليه السلام يقول: أُقسم بالله تعالى أنّني بكيت أكثر من مرّة عندما قرأتها في نهج‌البلاغة قبل أن أطّلع على ما رواه صاحب الكافي من بكاء الإمام الصادق عليه السلام عند روايتها، والحمد لله ربّ العالمين[1].

---

١. مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٥٨.

القسم الأول

انْطَلِقْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ مُسْلِماً وَلَا تَجْتَازَنَّ عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ، فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَىٰ الْحَيِّ فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ، ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ؛ حَتَّىٰ تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ، ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لِآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ؟ فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ أَوْ تُرْهِقَهُ فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ.

الشرح والتفسير

الثقة بالجمهور في جمع الضرائب الإسلاميّة

يقدّم الإمام عليّ عليه السلام في هذه الرسالة دستوراً كلياً وشاملاً في البداية وفي عبارات موجزة للعاملين على جمع الزكوات، ثمّ يتطرّق إلى الجزئيات والتفاصيل، وهذا بذاته أحد أساليب الفصاحة والبلاغة، يقول: «انْطَلِقْ عَلَىٰ تَقْوَىٰ اللهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلَا تُرَوِّعَنَّ[1] مُسْلِماً وَلَا تَجْتَازَنَّ[2] عَلَيْهِ كَارِهاً، وَلَا تَأْخُذَنَّ مِنْهُ أَكْثَرَ مِنْ حَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ».

---

١. «لا تروعنّ» من مادة «روع» على وزن «قول» بمعنى الخوف والرعب، وذهب بعض العلماء إلى أنّ «روع» ربّما تعني شدّة الخوف.

٢. «تجتازنّ» من «الاجتياز» وتعني العبور.

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذا العبارات، مضافاً إلى الأمر بتقوى الله، عن ثلاثة أمور مهمّة، الأول: إنّ العاملين على الزكاة لا ينبغي لهم ترويع الناس واستخدام أساليب العنف والغلظة، لأنّ المأمورين على أخذ الضرائب في الماضي كانوا عندما يدخلون إلى منطقة معيّنة فإنّ أهالي تلك المنطقة يصيبهم الخوف والوحشة لئلاّ يطلب منهم المأمورون مبالغ باهظة يعجزون عن دفعها ولا يطيقونها، ولكن عندما يستخدم المأمور أُسلوب الرفق ويتعامل معهم بحسن الخلق، فليس فقط لا يخافون منه بل يستقبلونه بكلّ رحابة صدر.

وفي التوصية الثانية يقول الإمام عليه السلام ليس فقط عدم ترويعهم، بل أن تتصرّف بشكل يفرحون بقدومك، فأنت مأمور من قِبل أمير رحيم ورؤوف، جواد وكريم، ومن هذا الموقع يفتحون لك صدورهم وقلوبهم ويكرمون قدومك إليهم.

وفي الجملة الثالثة يتحدّث الإمام عليه السلام، قبل أن يأمره بأخذ حقّ الله منهم بشكل كامل، يقول: لا تأخذ منهم أكثر من حقّ الله من أموالهم، وهذا تأكيد على الالتزام بالتقوى واجتناب أخذ أموال الناس بدون مبرّر شرعيّ.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بعد أنّ بيّن هذا الدستور الكلّي يتطرّق إلى التفاصيل، ويتحدّث عن كيفية تعامل العاملين على الزكاة مع الناس في جباية الحقوق الإلهيّة وكيفية التعامل معهم في هذا المجال ويقول: «فَإِذَا قَدِمْتَ عَلَى الْحَيِّ[1] فَانْزِلْ بِمَائِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخَالِطَ أَبْيَاتَهُمْ».

وهذه إشارة إلى أنّه ينبغي لك أن لا تفرض نفسك على الناس وتكلّفهم بما ليس من واجبهم، فربّما لا يكونوا في سعةٍ من الحال بحيث يتقبّلون استضافتك، في حين أنّ طبيعتهم استقبال الضيف حتّى لو لم يكن لديهم ما يقدّمونه، أو ربّما لا يريدون أن تطّلع على وضعهم المالي عن قرب، أو أنّك لو دخلت على أحدهم ضيفاً فربّما

---

١. «حي» تأتي أحياناً بمعنى ذي الروح، وأخرى بمعنى القبيلة، لأنّ مجموع القبيلة بمثابة الإنسان الحي الواحد، وتستعمل أيضاً في اللغة المتداولة بمعنى المنطقة السكنية من المدينة.

يفضي ذلك إلى امتعاض الآخرين ويتصوّرون أنّ مبعوث الإمام عليه السلام تربطه مع صاحب الدار رابطة خاصّة ولذلك ترك القدوم عليهم والدخول إلى بيوتهم، وعلى ضوء ذلك يأمر الإمام عليه السلام عامله أن ينزل إلى جانب عيون الماء أو الآبار ويختار منها ما يقع في طريقهم ومورد عبورهم، والواقع أنّ هذا المكان يمثّل مركزاً لالتقاء جميع أفراد الحيّ، والظاهر أنّ المأمور على جمع الصدقات لا يتوجّه إلى هذه المناطق منفرداً، بل يصطحب معه بعض الأفراد الذين يعينونه على أموره ويحملون معه الخيمة ولوازمها، والعلف وما إلى ذلك، فينصبونها إلى جانب غدير الماء أو العين ويقيمون في ذلك المكان.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «ثُمَّ امْضِ إِلَيْهِمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، حَتَّىٰ تَقُومَ بَيْنَهُمْ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِمْ، وَلَا تُخْدِجْ بِالتَّحِيَّةِ لَهُمْ».

ومعلوم أنّ التوجّه إلى القوم بسكينة ووقار وإلقاء السلام والتحيّة عليهم يثير في قلوبهم الطمأنينة ويتسبّب في شرح صدورهم وزوال كلّ أشكال الخوف والرهبة من قلوبهم.

والغرض من هذه التوصيات تطهير الذهنية في العرف العامّ من الرسوبات التي اختزنتها الذاكرة عن العشّارين وجباة الضرائب في عصر الملوك وأُمراء الظلم والجور، حيث يأمرون جباتهم وأزلامهم بأخذ الضرائب والعشور والخراج من الناس بأساليب خشنة، فكان الناس يتصوّرون أنّ وجود هؤلاء الجباة والعشّارين بمثابة البلاء السماويّ عليهم.

ومع الأخذ بنظر الاعتبار جملة «لَا تُخْدِجْ» من «الخداج» (على وزن علاج) تعني في الأصل الجمل الذي يولد ناقص الخلقة أو قبل موعده، ثمّ اطلقت هذه الكلمة على كلّ أمر ناقص، ويستفاد من هذه العبارة أنّ الإمام عليه السلام يروم التأكيد على هذه الحقيقة، وهي أن لا يقصّر مبعوثه في التحيّة والسلام وحسن الخلق في التعامل مع المواطنين ولا يتعامل مع الناس كما يتعامل الكثير من المأمورين والمسؤولين

الحكوميين مع الجمهور من موقع الفوقية والتعالي وحتى أنّهم لا يردون عليهم جواب سلامهم، وبعبارة أخرى أنّ تعامل المأمورين مع الناس يجب أن ينطلق من موقع الودّية والصداقة وعلى مستوى واحد بينهما.

ثمّ ينطلق الإمام عليه السلام لبيان الجزئيات المتعلّقة بكيفية المطالبة بالزكاة بطريقة شيّقة فيقول في البداية: «ثُمَّ تَقُولَ: عِبَادَ اللهِ، أَرْسَلَنِي إِلَيْكُمْ وَلِيُّ اللهِ وَخَلِيفَتُهُ، لآخُذَ مِنْكُمْ حَقَّ اللهِ فِي أَمْوَالِكُمْ، فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ مِنْ حَقٍّ فَتُؤَدُّوهُ إِلَى وَلِيِّهِ».

واللافت أنّ الإمام عليه السلام يؤكّد في هذه العبارة على ثلاثة أمور: أحدها: أنّ الناس هم عباد الله، الثاني: إنّ العاملين على جمع الزكوات هم مبعوثون من قِبل وليّ الله وخليفة الله، الثالث: أنّ ما يطلبونه من الناس هو حقّ الله الموجود في أموالهم.

إنّ مثل هذه العبارات من شأنها تحريك عواطف الإنسان وتجعلهم مستعدين لدفع الزكاة، بل يتحرّك المستمع تحت تأثير هذه العبارات لدفع ما عليه من الزكاة والضريبة من موقع العشق والشوق، ويفكّر في نفسه أنّ مبعوث وليّ الله قد جاء إليّ ودعاني بوصفي عبدالله ولم يطلب منّي شيئاً سوى حقّ الله في مالي.

وجملة: «فَهَلْ للهِ فِي أَمْوَالِكُمْ» مع العبارات اللاحقة تعتبر بحدّ ذاتها أحد الأساليب الراقية في أخذ الضرائب، وأحياناً نرى في بعض المناطق في العالم المعاصر الإشارة إلى هذا الأُسلوب المتحضّر، ويتلخّص في الثقة بالناس والاعتماد على صدقهم، يعني أنّ الجمهور يتعامل مع المسؤولين بصدق وأمانة ولذلك يسأل المأمور أفراد الشعب عن وجود زكاة في أموالهم دون المطالبة بها مع إنكارهم، والتجربة أثبتت أنّ مثل هذا الاعتماد والثقة المتبادلة لها أثر مهمّ في توطيد العلاقة بين الجمهور والمسؤولين، وعلى العكس من ذلك إذا افترض المسؤول الحكومي أنّ الناس يتعاملون معه بآليات الكذب والتزوير وبالتالي يتعامل معهم كالدائن في مطالبته من المدين، فإنّ ذلك من شأنه تقويض الثقة والعلاقة بين الطرفين ويتسبّب في دفع الناس لإخفاء أموالهم والتمويه على المسؤولين في محاسباتهم لكي يتهرّبوا

من دفع مستحقّاتهم المالية للحكومة، وبعبارة معاصرة: ينبغي أن يفتحوا لهم دفترين: دفتر لمحاسبة الأموال بمقدارها الحقيقيّ، ودفتر لمحاسبة المبالغ التي يدفعونها للمأمورين والعاملين على الزكاة.

وممّا يجدر ذكره أنّ الأعوام الأخيرة في بلدنا (ايران) وفي عصرنا الحالي شهدت هذه التجربة الحضارية لأخذ الضرائب من قِبل العاملين، وكانت النتيجة تضاعف حجم الدخل السنويّ لبيت المال من الضرائب.

وفي الأُسلوب التقليدي الذي يتّبع في مسألة الخمس يتمّ مراعاة هذا المطلب بشكل دقيق، وهو أنّ المؤمنين يتوجّهون لعلماء الدين بدوافع إلهيّة ونوايا صادقة ويقدّمون لهم ورقة حساب أموالهم ليعيّنوا لهم مقدار الخمس الواجب دفعه منها بدون أيّ إكراه وإجبار.

وطبعاً فإنّ ما قيل آنفاً، يعتبر أصلاً عامّاً بالنسبة لجميع من وجب عليه دفع الزكاة في أموالهم، ولكن ربّما توجد بعض الاستثناءات في الموارد أيضاً، فبعض الإنتهازيين وأصحاب النفوذ والقوّة ربّما يواجهون الحكومة الإسلاميّة من موقع الرفض ويمتنعون عن دفع زكاتهم، وفي مثل هذه الموارد يجب على الحكومة التصديّ لهم وأخذ حقّ الله منهم بالقوّة لئلاّ يتجرّأ الآخرون على الاقتداء بهم ويرفعوا لواء المعارضة، ولكن كما قلنا آنفاً فهذه تعدّ استثناءً من القاعدة.

ويستمرّ الإمام عليه السلام في كلامه عن كيفية أخذ الزكاة: «**فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: لَا، فَلَا تُرَاجِعْهُ، وَإِنْ أَنْعَمَ[1] لَكَ مُنْعِمٌ فَانْطَلِقْ مَعَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ تُخِيفَهُ أَوْ تُوعِدَهُ أَوْ تَعْسِفَهُ[2] أَوْ تُرْهِقَهُ[3]**».

---

١ . «أنعَم» من «الإنعام» تأتي أحياناً بمعنى اعطاء النعمة، وأخرى بمعنى قول كلمة نعم، وفي الجملة مورد البحث جاءت بالمعنى الأخير، بقرينة الجملة ما قبلها: «فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ لَا».

٢ . «تَعْسِف» من مادة «عسف» على وزن «كسب» وفي الأصل بمعنى سلوك طريق المتاهة، ثم اطلق على الظلم والجور، لأنّه مصداق سلوك طريق المتاهة.

٣ . «ترهق» من «الإرهاق» وأصلها من مادة «رهق» على وزن «شفق» وهي في الأصل بمعنى التغطية أو تغطية

والأمر الجميل هنا أنّ الإمام عليه السلام يتحدّث بغاية اللطف والمحبّة عن الشخص الذي يعترف بوجود زكاة في أمواله ويبيّن كيفية التعامل معه في أربع جمل قصيرة تتضمّن توصيات للعامل على جباية المال، الأولىٰ: يقول: إنّه لا ينبغي لك أن تخيفه، مثلاً تقول له: إذا لم تدفع زكاتك بشكل كامل فسوف تتعرّض للعقوبة، والأُخرىٰ: أن لا تأخذ منهم شيئاً بأُسلوب التهديد، والثالثة : أن لا تتشدّد في أمر جباية الزكاة، والرابعة: أن لا تثير له مشاكل ولا ترهقه في المطالبة والحساب، يعني يجب عليك أن تتعامل معه كالشريك الودود الذي يتعامل مع شريكه بآلية الصفح وغضّ الطرف، فعندما يعترف الطرف المقابل بوجود حقّ الله في أمواله فإنّ هذا الاعتراف منه يستحقّ كلّ احترام ويعتبر بحدّ ذاته قيمة أخلاقية وإنسانية ينبغي الردّ عليها والتعامل معها بالمثل.

تأمّل

آداب جمع الزكاة وحقوق بيت المال

إنّ ما ورد أعلاه يمثّل جانباً من تعاليم الإسلام في ما يتّصل بجمع الزكاة وأموال بيت المال وكيفية التعامل مع أصحاب الأموال.

ونقرأ في الآيات شريفة أنّ القرآن الكريم الذي أسّس لهذا مفهوم، يأمر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بأن يأخذ من المُتموّلين صدقة وزكاة تطهّرهم وتزكّيهم من لوث حبّ الدنيا والتكالب على الأموال والثروات، ثمّ يأمره بعد دفع الزكاة أن يصلّي عليهم ويدعو لهم لتكون صلاته ودعاءه لهم سكناً لنفوسهم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾[1].

الشيء بالقوة والغلبة، وتأتي في كثير من الموارد بمعنى التعسير والأخذ بشدّة، وفي الجملة مورد البحث جاءت بهذا المعنى.

١. سورة التوبة، الآية ١٠٤.

وفي هذا المجال وردت في المصادر الحديثية روايات عديدة تبيّن جزئيات وتفاصيل أخرى لآداب أخذ الزكاة، منها ما أورده العلّامة المجلسي في (الجزء ٩٣ من بحار الأنوار في الباب ٩ تحت عنوان أدب المصّدّق) وفيها أحاديث كثيرة في عشر صفحات ٨٠ إلى ٩٠).

ومن ذلك أنّه ينقل: «أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ نَهَى أَنْ يُخلَفَ النَّاسُ عَلَى صَدَقَاتِهِمْ وَقَالَ: هُمْ فِيهَا مَأْمُونُونَ يَعْنِي أَنَّهُ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَالٌ تَجِبُ فِيهِ زَكَاةٌ وَلَمْ يُوجَدْ ظَاهِراً عِنْدَهُ لَمْ يُسْتَحْلَف»[1].

وفي حديث آخر يرويه عن أميرالمؤمنين عليه السلام حيث أمر أحد أصحابه والمسؤول عن جمع الزكاة بتوصيات متعدّدة منها أنّه قال: «أَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِبَسْطِ الْوَجْهِ وَلِينِ الْجَانِبِ وَأَمَرَهُ أَنْ يَلْزَمَ التَّوَاضُعَ وَيَجْتَنِبَ التَّكَبُّر»[2].

وفي حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أيضاً أنّه قال: «وَإِذَا كَانَ الْجَدْبُ أُخِّرُوا حَتَّى يُخْصِبُوا»[3].

ونقل المرحوم الشيخ الحرّ العاملي أيضاً في كتابه وسائل الشيعة الجزء ٦ في كتاب الزكاة الباب ١٤ أحاديث متعدّدة في هذا المجال، ويستفاد من مجموع هذه الأحاديث أنّ الإسلام ينهى عن استخدام أيّ شكل من أشكال القوّة والإكراه في عملية جمع الضرائب والزكاة، ويوجب على العاملين استخدام أسلوب الرفق والمداراة لمن تجب عليهم الزكاة في أموالهم، وبعبارة أخرى أنّ دفع الزكاة في الإسلام يدخل في إطار المسألة الإنسانية والأخلاقية، حيث يتسابق في دفعها وأدائها المؤمنون لينتفعوا من بركاتها الماديّة والمعنوية، لا أنّ الزكاة تمثّل ديناً يتمّ أخذه من المدين بأيّ نحو من الأنحاء.

---

١. بحار الأنوار، ج ٩٣، ص ٨٥.
٢. المصدر السابق.
٣. المصدر السابق.

وطبعاً يتسبّب هذا النمط من التعامل الودود والإنساني ببعض الأضرار، وقد أساء الإستفادة منه بعض الأشخاص الانتهازيين الذين لا يروق لهم دفع الحقوق المالية، ولكنّ التجربة أثبتت أنّ البركات الماديّة والمعنوية في هذا الأسلوب الإنساني في التعامل أكثر من ضرره ولاسيّما أنّنا نعلم أنّ دفع الزكاة وأمثالها يعتبر في الإسلام نوعاً من العبادة حيث يعتبر الإسلام قصد القربة وهذا القصد إنّما يتحقّق في واقع الإنسان إذا اندفع الإنسان في هذه العبادة من موقع الاختيار والرغبة وأسداها طواعية.

ينقل المرحوم الكليني في الجزء الثالث من الكافي في باب «أدب المصدّق» ثمان روايات في هذا المجال تعكس في مضامينها الرحمة والرأفة الإسلاميّة، ومن ذلك أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام عندما نصّب رجلاً من قبيلة بني ثقيف والياً على منطقة في ضواحي الكوفة، أمره بمحضر من الناس أن لا يقصّر في جمع الخراج ولا يترك منه ولو درهماً واحداً، ثمّ قال له: إذا أردت التوجّه إلى تلك المنطقة أن تقدم عليّ. يقول ذلك الرجل: عندما ذهبت إليه قال لي: إنّ ما قلته لك فيما يخصّ الخراج إنّما هو لحفظ الظاهر: «إيّاكَ اَنْ تَضْرِبَ مُسْلِماً أوْ يَهُودِيّاً أوْ نَصْرانِيّاً في دِرْهَمِ خَراجٍ أوْ تَبيعَ دابّةَ عَمَلٍ في دِرْهَمٍ، فَإنَّما أمِرْنا اَنْ نَأخُذَ مِنْهُمُ الْعَفْوَ»[1].

---

١. الكافي، ج ٣، ص ٥٤٠، ح ٨.

القسم الثاني

فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ، فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ، فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ بِهِ. وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا، وَلَا تَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا، وَاصْدَعِ الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ. فَإِنِ اسْتَقَالَكَ فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّى تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ. وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ، وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ.

الشرح والتفسير

غاية الاحترام لمطالب الدافعين للزكاة

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام إذا كانت الزكاة، على الذهب والفضة أي الدرهم والدينار أو قيمة زكاة الغلاّت منها، فخذ منها ما أعطاك ولا تناقشه في زيادة أونقيصة في المقدار، لأنّه قد وثق بك، فينبغي عليك أيضاً أن تثق به.: «فَخُذْ مَا أَعْطَاكَ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ».

وإن كان يملك ماشية وبقراً وإبلاً فلا تدخل عليها إلّا بعد أن تستأذنه في ماله،

لأنّ أكثر هذه الأنعام ملك له سوى ما تعلّقت به الزكاة وهو قليل: «فَإِنْ كَانَ لَهُ مَاشِيَةٌ[١] أَوْ إِبِلٌ فَلَا تَدْخُلْهَا إِلَّا بِإِذْنِهِ فَإِنَّ أَكْثَرَهَا لَهُ».

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «فَإِذَا أَتَيْتَهَا فَلَا تَدْخُلْ عَلَيْهَا دُخُولَ مُتَسَلِّطٍ عَلَيْهِ وَلَا عَنِيفٍ[٢] بِهِ، وَلَا تُنَفِّرَنَّ بَهِيمَةً وَلَا تُفْزِعَنَّهَا[٣]، وَلَا تَسُوأَنَّ صَاحِبَهَا فِيهَا».

والمقصود من هذه العبارة ضرورة احترام ملكية المالكين لهذه الأنعام، فلا تدخل على مكان الشياه أو الابل بشكل عنيف بحيث تنفر هذه البهائم وتفزع منك، بل يجب عليك مداراتها ورعايتها فلا تتحرّك بشكل يبعث على خوفها وفزعها، لأنّ هذه الحيوانات وكذلك أصحابها يمكن أن يستاءوا من هذا الاسلوب، وهذا كلام يعبّر عن غاية الأدب والخلق الذي ورد في توصية الإمام عليه السلام لعمّاله، بحيث إنّه لا يهمل حتّى حقوق الحيوانات عند جمع الزكاة، فكيف الأمر فيما يتّصل بحقوق الإنسان واحترام مشاعره وعواطفه؟!

ثمّ إنّ الإمام ومن أجل أن يقع التقسيم عادلاً في اختيار الأغنام أو الابل للزكاة ولا يثير اعتراض أصحاب الأموال، يوصي عامله بأن يستخدم القرعة في انتخاب مورد الزكاة حتّى لا يكون هناك إجحاف على المالك ولا على بيت المال وعندما يقترع على الشياه أو الابل يخيّر صاحب المال في هذا المال ويقول: «وَاصْدَعِ[٤] الْمَالَ صَدْعَيْنِ ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. ثُمَّ اصْدَعِ الْبَاقِيَ صَدْعَيْنِ، ثُمَّ خَيِّرْهُ، فَإِذَا اخْتَارَ فَلَا تَعْرِضَنَّ لِمَا اخْتَارَهُ. فَلَا تَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَبْقَى مَا

---

١. «ماشية» في الأصل الطريق الذي يُسار عليه، من مادة «مشى»، ثم اطلقت على الدواب والأنعام من الإبل والبقر والغنم، ولكن تطلق غالباً على الأغنام وجمعها مواشي، وفي العبارة مورد البحث المقصود منها البقر والغنم بقرينة ذكر الإبل بعدها.

٢. «عنيف» بمعنى الخشن والصعب، من مادة «عنف» على وزن «قفل».

٣. «لا تفزعنّ» من مادة «فزع» بمعنى خاف وارتعد، وعندما تأتي من باب إفعال تكون متعدّية وتعني التخويف والترهيب.

٤. «اصدع» من مادة «صدع» على وزن «صبر» وتعني الشق والفصل بين شيئين، وهذه المفردة «صدع» تأتي اسم مصدر وتعني القسم المنفصل عن الشيء.

فِيهِ وَفَاءٌ لِحَقِّ اللهِ فِي مَالِهِ؛ فَاقْبِضْ حَقَّ اللهِ مِنْهُ».

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: فإذا طلب صاحب المال أن تقيله حتّى يجري اقتراع جديد، فاقبل طلبه وأعد القرعة بعد أن تخلط الأنعام وتجري عليها مرّة أخرى التقسيم والاقتراع حتّى تأخذ منها حقّ الله: «فَإِنِ اسْتَقَالَكَ[1] فَأَقِلْهُ، ثُمَّ اخْلِطْهُمَا ثُمَّ اصْنَعْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعْتَ أَوَّلاً حَتَّىٰ تَأْخُذَ حَقَّ اللهِ فِي مَالِهِ».

وهنا ينبغي الالتفات إلى نقطتين هامتين: الأولى: أنّ مفهوم العبارة أعلاه لا يعني أنّك في حال التقسيم تعمل على فصل الأغنام أو الإبل وتجعل الجيّدة منها في جانب والمتوسّطة في جانب آخر ثم تخيّر المالك بانتخاب أحدهما لأنّ الأغنام أو الإبل من جهة متداخلة ومخلوطة في الظروف العادية، ومن الطبيعي أنّه عند تقسيمها سيكون قسم منها إلى جانب والقسم الآخر في جانب آخر، ومن جهة أخرى أنّ هذا العمل نوع من الاقتراع، وتدخل في مفهوم القرعة هذه الحقيقة، وهي أنّ التقسيم ينبغي أن يكون عادلاً، فلابدّ من إختيار أحدىٰ الجهتين من خلال القرعة.

والنقطة الأخرى، أننا نعلم أنّ عمر الإبل دخيل في مقدار زكاتها، وليست كزكاة الأغنام، وعلى هذا الأساس يجب مراعاة عمرها في عملية التقسيم، أو نقول أنّ هذا التقسيم ناظر إلىٰ الأغنام والبقر.

ضمناً يستفاد من مجموع هذ الكلام أنّ دفع الزكاة يمكن أن يتمّ حسابه على أساس القيمة (بقرينة التعبير بالذهب والفضة في مطلع هذا الكلام)، لأنّ هذا الكلام لا يتحدّث فقط عن زكاة الدرهم والدينار بل ناظر إلى مطلق الزكاة، ويمكن أن تؤخذ الزكاة من عين المال الذي تعلّقت به الزكاة.

ولابدّ من الالتفات إلى هذه النقطة، وهي أنّ الوارد في الروايات الإسلاميّة

---

١ . «استقال» من «الإستقالة» بمعنى طلب فسخ العقد أو ما اتفق عليه، وأصلها من القيلولة وهو النوم القليل في وسط النهار للاستراحة، وبما أنّ الإنسان عندما يندم على عقد معين فإذا فسخه وألغاه فربما يؤدي ذلك إلى استعاضه وتأثره فاستخدمت كلمة «إقالة» والمطالبة بهذا العمل يدعى «استقالة».

وكلمات الفقهاء أنّ الحيوانات الممتازة كالغنم والإبل الغالية والأنعام الحامل والذكر منها الخاصّ بعملية التلقيح مستثناة من ذلك، يعني أنّ العاملين على جمع الزكاة لا ينبغي أن يستثنوا هذه الأنعام من الزكاة لكسب رضا أصحاب هذه الحيوانات، بل يفوّضون أمرها لهم ليدفعونها عن طيب خاطر[1].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يوصي عامله على الزكاة أن لا يأخذ من الحيوانات من تشكو عيباً ويختار الناقص والزهيد منها ويقول: «وَلَا تَأْخُذَنَّ عَوْداً وَلَا هَرِمَةً وَلَا مَكْسُورَةً وَلَا مَهْلُوسَةً[2]، وَلَا ذَاتَ عَوَارٍ[3]».

ومع الالتفات إلى أنّ كلمة «عَوْد» و «هَرِم» مترادفتان في المعنى ويقصد بهما الحيوان المسنّ، ولكن «عود» تعني الحيوان الذي تقدّم في السن، و«هرم» بمعنى المتقدّم في السنّ إلى درجة كبيرة بحيث لا يصلح لشيء.

أمّا «مهلوسة» فتارة تأتي بمعنى الحيوان المريض والمسلول وأخرى بمعنى كلّ حيوان مريض، والأنسب المعنى الثاني، أمّا «ذات عوار» فتعني الحيوان الذي يشكون عيباً ونقصاً، بأن يكون فاقداً للعين أو الأذن وما إلى ذلك.

والجدير بالذكر أنّ الفقهاء ذهبوا إلى أنّ المقصود من هذا الحكم أنّه لو كان النصاب سالماً بأجمعه، فلا يمكن أخذ حيوان غير سليم من مكان آخر للزكاة بدل السليمة، ولكن إذا كان جميع النصاب مريضاً أومعيباً فلا مانع من أخذ الزكاة منها، ولا يشترط أن يأخذ للزكاة حيواناً سالماً، وكذلك إذا كان بعض النصاب معيباً

---

١. انظر: جواهر الكلام، ج ١٥، ص ١٦٠.

٢. «مهلوسة» من «الهُلاس» على وزن «غبار» و«هَلْس» على وزن «درس» بمعنى مرض السل، وعلى ضوء ذلك فإنّ «مهلوس» هو الحيوان المبتلى بهذا المرض، ولكن تارة يراد بهذه المفردة كل نوع من المرض، ويذهب بعض أرباب اللغة إلى أنّ «هلاس» تعني الأمراض التي تسبب الضعف والنحافة في البدن، وبما أنّ مرض السل الذي يصيب الإنسان يجعله نحيفاً وضعيفاً فاطلقت هذه الكلمة على هذا المرض.

٣. «عَوار» من مادة «عار» و«عور» على وزن «غور» بمعنى العيب والنقص، وبما أنّ اظهار العضو التناسلي يعد عيباً للشخص فاطلقت كلمة «عورة» على هذا العضو، وتطلق هذه المفردة أيضاً على الدار غير المصبوغة واللباس المعيوب.

والبعض الآخر سالماً فتؤخذ الزكاة من السالم والمعيب، وهذا يدلّ على رعاية العدالة الإسلاميّة في المسائل المتعلّقة بأمور الزكاة[1].

ومن المناسب أنّ نذكر هنا أن الإسلام من جهة ينهى عن أخذ الحيوانات المعيبة والمسنّة والمريضة للزكاة، لأنّ ذلك يتنافى مع كون الزكاة أمراً عبادياً وبمقتضى قوله تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[2]، ينبغي على الإنسان المسلم أن يخرج لزكاته الشيء الطيّب والسليم، ومن جهة أخرى يأمر الإسلام بوضع الأموال النخبة والممتلكات الثمينة بيد أصحابها ولا يؤخذ منها شيء للزكاة، لأنّ الكثير من الناس ربّما يمتعضون ويستاؤون من هذا العمل ويكونون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾[3]، وعلى هذا الأساس يراعي الحكم الإسلامي عملية التعادل والتوازن في مسألة دفع الزكاة بشكل كامل.

---

١. انظر: جواهر الكلام، ج ١٥، ص ١٣٥.

٢. سورة آل عمران، الآية ٩٢.

٣. سورة محمد، الآية ٣٧.

القسم الثالث

وَلَا تَأْمَنَنَّ عَلَيْهَا إِلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى يُوَصِّلَهُ إِلَى وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ، وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إِلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ وَلَا مُجْحِفٍ، وَلَا مُلْغِبٍ وَلَا مُتْعِبٍ. ثُمَّ احْدُرْ إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ بِهِ، فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ بَيْنَ فَصِيلِهَا، وَلَا يَمْصُرَ لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً؛ وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ بِالنَّقِبِ الظَّالِعِ، وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ، وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ وَالْأَعْشَابِ، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ، لِنَقْسِمَهَا عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشرح والتفسير

الرأفة الإسلاميّة بالحيوانات

سبق أن رأينا أنّ الإمام عليّ ؈ ذكر بعض التوصيات اللازمة في كيفية أخذ الزكاة من الأشخاص الذين تعلّقت الزكاة في أموالهم، وفي هذا المقطع من الرسالة يتحدّث الإمام ؈ عن كيفية حفظ هذه الأموال وشكل التعامل مع الحيوانات التي أُخذت بعنوان الزكاة.

بداية يطرح الإمام ؈ صفات الأشخاص المأمورين بنقل الزكاة إلى بيت المال، ويستعرض عدّة خصال لهم، ففي الخصلة الأولى والثانية يقول الإمام ؈ «وَلَا تَأْمَنَنَّ

عَلَيْهَا إلَّا مَنْ تَثِقُ بِدِينِهِ، رَافِقاً بِمَالِ الْمُسْلِمِينَ حَتَّىٰ يُوَصِّلَهُ إِلَىٰ وَلِيِّهِمْ فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ».

وعلى ضوء ذلك فإنّ أهمّ شرط في مثل هذا الموارد رعاية الأمانة وأن يكون العامل موثوقاً بدينه، والشرط الثاني أن يعيش الرفق والمداراة بهذه الأنعام، فإذا توفّر في المتصدّي لبيت المال والخزانة هذان الشرطان، فلا مجال لظهور مشكلة في الأمور المالية، ولا يتوقّع خيانة، ولا حدوث حيف وإفراط وتفريط في مال المسلمين.

يواصل الإمام عليه السلام استعراضه لصفات المسؤولين والمأمورين لنقل هذه الأمور فيطرح ثمانية أوصاف لهم، ويقول: وَلَا تُوَكِّلْ بِهَا إلَّا نَاصِحاً شَفِيقاً وَأَمِيناً حَفِيظاً، غَيْرَ مُعْنِفٍ[1] وَلَا مُجْحِفٍ[2]، وَلَا مُلْغِبٍ[3] وَلَا مُتْعِبٍ[4]».

وبديهي أنّ هذه الصفات الثمانية منسجمة فيما بينها ومقتربة المعنى، فالراعي الناصح والمشفق لا يشدّ على الحيوانات في المسير ولا يتعبها، لأنّه من جهة ستصيب هذه الأنعام مشقّة، ومن جهة أخرى فإنّ هذا الأُسلوب مخالف للعدالة الإسلاميّة وربّما يؤدّي إلى التقليل من وزنها أو مرضها وبالتالي سيلحق الضرر بالمستهلكين أيضاً.

والجدير بالذكر أنّ هذه التوصيات من قِبل الإمام عليه السلام قد صدرت في وقت لم يكن هناك أيّ كلام عن حقوق الحيوان بين العلماء والمفكّرين في العالم، ولا كلام عن حقوق الإنسان أيضاً، ولكنّ الإسلام بوصفه ديناً زاخراً بالقيم الأخلاقية والمثل المتعالية فإنّه قرّر لزوم رعاية حرمة الحيوانات وحقوقها في أحكامه وتعاليمه وأكّد على لزوم الرأفة بها (وسيأتي توضيح أكثر في هذا المجال في بحث التنبيهات).

---

١. «مُعنف» من مادة «عنف» على وزن «قفل» وتعني أخذ الشيء بشدة وعنف.

٢. «مُجحف» من «الإجحاف» وأصله من «جحف» على وزن «حرف» بمعنى الإصرار على إضرار الطرف المقابل.

٣. «مُلغب» من «اللغوب» وتعني التعب والإرهاق، وعندما تأتي من باب إفعال تكون متعدية وتعني إتعاب الآخر.

٤. «مُتعب» من مادة «تعب» ومعناها واضح، ولكن إذا جاءت من باب إفعال فإنّها تكون متعدّية وبمعنى إتعاب الآخر، وهي قريبة المعنى من «ملغب»؛ ولكن ذهب بعض إلى أنّ «لغوب» تعني التعب النفسي والارهاق الروحي في حين أنّ التعب يقصد به ما يشمل التعب البدني أيضاً.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام يتعرّض لبيان توصية أخرى ويقول: «ثُمَّ احْدُرْ[1] إِلَيْنَا مَا اجْتَمَعَ عِنْدَكَ نُصَيِّرْهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ بِهِ».

وتنطلق هذه التوصية من دليلين: الأوّل: أنّه ربّما يوجد بعض المحتاجين والمحرومين الذين ينتظرون المساعدة من بيت المال، فلو أبطأ إيصال حقّهم إليهم فسيواجهون العسر والضيق ولا يمكنهم حلّ مشاكلهم، والآخر: أنّ تأخير إيصال هذه الأموال سيعرّضها للآفات، ومن أجل وقايتها من تلك الآفات لابدّ من الإسراع في حملها إلى بيت المال وإيصالها إلى وليّ أمر المسلمين.

وذهب بعض الشرّاح لنهج البلاغة إلى أنّ المستفاد من هذه العبارة عدّة أحكام فقهية، الأوّل، جواز نقل الزكاة من مدينة إلى أخرى، والآخر: أنّه لا يحقّ للمأمورين والعاملين على جمع الزكوات تقسيمها برأيهم، والثالث: أنّ الزكاة يجب إيصالها إلى وليّ أمر المسلمين ويتمّ تقسيمها تحت نظره وإشرافه.

وبديهيّ أنّ هذا الحكم يتعلّق بالمناطق القريبة من مركز الحكومة والخلافة، وأمّا المناطق البعيدة التي لا يمكن نقل مال الزكاة إلى المركز إلّا بصورة نقود، فلها حكم آخر، يعني أنّ وكلاء الإمامعليه السلام يستطيعون جمع تلك الأموال وتقسيمها في مراكزهم ومحلّ ولايتهم.

ثمّ يبيّن الإمامعليه السلام كيفية نقل حيوانات الزكاة ويأمر عامله على الزكاة بعشرة أوامر دقيقة ويقول:

«فَإِذَا أَخَذَهَا أَمِينُكَ فَأَوْعِزْ[2] إِلَيْهِ أَلَّا يَحُولَ بَيْنَ نَاقَةٍ وَبَيْنَ فَصِيلِهَا[3]، وَلَا

---

١. «أحدُرْ» من مادة «حدر» على وزن «حرف» بمعنى التحرك بسرعة، وكذلك تعني جرّ الشيء من الأعلى إلى الأسفل، وهنا المراد بها المعنى الأول يعني جمع زكاة الحيوانات والإتيان بها بسرعة إلينا لنوصلها إلى المستحقين.

٢. «أوعِز» من مادة «وعز» على وزن «وعظ» بمعنى الاقتراح والتوصية لآخر بعمل معين.

٣. «فصيل» بمعنى ولد الإبل الذي فطم عن الرضاع، ومن مادة «فصل» وهو فصل الطفل عن أمّه في الارتضاع، ☜

يَمْصُرَ[١] لَبَنَهَا فَيَضُرَّ ذَلِكَ بِوَلَدِهَا؛ وَلَا يَجْهَدَنَّهَا رُكُوباً، وَلْيَعْدِلْ بَيْنَ صَوَاحِبَاتِهَا فِي ذَلِكَ وَبَيْنَهَا، وَلْيُرَفِّهْ عَلَى اللَّاغِبِ، وَلْيَسْتَأْنِ[٢] بِالنَّقِبِ[٣] وَالظَّالِعِ[٤]».

ما ذكر أعلاه من كلام الإمام عليه السلام يتضمّن ستّة أقسام من توصيات الإمام عليه السلام فيما يتّصل برعاية حال حيوانات الزكاة، وهي توصيات إنسانية وأخلاقية وتدلّ على أنّ الإسلام يرى لزوم مراعاة حال الحيوانات أيضاً، فهذه الحيوانات لا تملك لساناً لبيان حالها، ولا قدرة على الدفاع عن نفسها.

ثمّ بيّن الإمام عليه السلام عدّة توصيات أخرى في هذا المجال ويقول: «وَلْيُورِدْهَا مَا تَمُرُّ بِهِ مِنَ الْغُدُرِ[٥]، وَلَا يَعْدِلْ بِهَا عَنْ نَبْتِ الْأَرْضِ إِلَى جَوَادِّ[٦] الطُّرُقِ، وَلْيُرَوِّحْهَا فِي السَّاعَاتِ وَلْيُمْهِلْهَا عِنْدَ النِّطَافِ[٧] وَالْأَعْشَابِ[٨]، حَتَّى تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدَّناً[٩] مُنْقِيَاتٍ[١٠]، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ».

في هذه التوصيات الأربع الأخيرة يتحدّث الإمام عليه السلام عن مأكل ومشرب هذه الحيوانات، والغرض من ذلك أن لا تشعر هذه الحيوانات بالعطش والجوع في مسيرها إلى مركز الخلافة وبيت المال، فينبغي أن تشرب في مسيرها من الماء

☜ ولكن مع الالتفات إلى أنّ الإمام عليه السلام أمر بعد هذه الجملة أن لا يحلب جميع ما في الضرع من اللبن لينتفع به الفصيل، فيستفاد من ذلك أنّ المقصود من الفصيل هنا ولد الناقة الذي على وشك أن يفصل ويفطم ولكنه لحدّ الآن لم يفطم (وعلى حدّ تعبير الأدباء هو مجاز بعلاقة الأول والمشارفة).

١. «لا يمصر» من مادة «مصر» على وزن «نصر» بمعنى حلب جميع ما في الضرع من اللبن.

٢. «يَسْتأنِ» من مادة «أني» على وزن «امر» وتعني الإمهال، وعندما تأتي من باب الاستفعال فتعني الانتظار والمداراة.

٣. «نقب» هو الجمل الذي يصعب عليه المشي لتهرؤ باطن خفه.

٤. «ظالع» من مادة «ظَلع» على وزن «زرع» وتعني الناقة العرجاء.

٥. «غدر» جمع «غدير» تعني بركة الماء.

٦. «جوادّ» جمع «جادة» تعني الطريق الواسع.

٧. «نطاف» جمع «نطفه» بمعنى الماء الزلال.

٨. «الأعشاب» جمع «عُشب» على وزن «قفل» بمعنى النباتات الخضراء.

٩. «بُدّن» جمع «بادن» بمعنى الحيوان البدين.

١٠. «مُنقيات» جمع «مُنقية» بمعنى الحيوان الكثير الدسم.

بالمقدار الكافي ويسار بها في الطرق التي تكثر فيها الأعشاب والنباتات لتأكل منها.

وهذه التوصيات مضافاً إلى الطابع الأخلاقي والإنساني لها، تعود بالنفع إلى بيت المال والمحتاجين والمستحقّين لهذه الحقوق المالية، ولذلك يقول الإمام عليه السلام في نهاية هذا الكلام: «حَتَّىٰ تَأْتِيَنَا بِإِذْنِ اللهِ بُدَّناً مُنْقِيَاتٍ، غَيْرَ مُتْعَبَاتٍ وَلَا مَجْهُودَاتٍ»، أي تأتي هذه الحيوانات سالمة ونشطة وغير مجهدة من تعب الطريق.

وفي ختام هذه الرسالة يشير الإمام عليه السلام إلى الغرض النهائي من هذه التوصيات، ويقول: «لِنَقْسِمَهَا عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله»، بين المحرومين والمستضعفين دون تدخّل المنافع الشخصية في هذه العملية.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «فَإِنَّ ذَلِكَ أَعْظَمُ لِأَجْرِكَ، وَأَقْرَبُ لِرُشْدِكَ، إِنْ شَاءَ اللهُ».

تأمّلان

١. التأكيد على إيصال أموال الزكاة إلى المحرومين

يؤكّد الإمام عليه السلام في هذه الرسالة النورانية ثلاث مرات على هذا الأمر، وهو أنّ أموال الزكاة بعد جمعها يجب تقسيمها بين المحرومين والمستضعفين، ففي مورد يقول الإمام عليه السلام: «مَالُ الْمُسْلِمِينَ»، وفي مورد آخر يقول: «فَيَقْسِمَهُ بَيْنَهُمْ»، وفي مورد ثالث يقول: «نُصَيِّرُهُ حَيْثُ أَمَرَ اللهُ»، في ختام هذه الرسالة يقول: «نَقْسِمَها عَلَىٰ كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ». وهذا التكرار، وإن كان على حدّ قول ابن أبي الحديد: مخالف إبتداءً لمقتضيات البلاغة والفصاحة، ولكن نظراً إلى أنّ الناس كانوا يعيشون في ذلك الوقت ذكريات زمان عثمان الذي كان يوزّع بيت المال على فئة معينة من الأشخاص ويحرم منه المحتاجين والمعوزين، وأدّى ذلك إلى إشتعال نار الفتنة والثورة عليه، فالإمام عليه السلام في هذا المورد يكرّس حالة الطمأنينة والثقة في قلوب الناس بتكرار هذه العبارة ثلاث مرات في هذه الرسالة وأنّ غرضنا من ذلك و تقسيم مال المسلمين بينهم وإيصال حقوق المستحقّين إليهم.

٢. حماية الحيوانات في الإسلام

إنّ المجتمعات البشرية كانت منذ قديم الأيّام تتعامل مع الحيوانات التي تـنتفع منها من موقع الاحترام ومراعاة بعض الأصول والآداب في ذلك، وفي بعض الموارد ربّما تصل هذه العلاقة والتعامل إلى حدّ الإفراط وتتّخذ شكلاً من أشكال العبادة كما يلاحظ ذلك في هذا الزمان بين جماعة من الهندوس، حتّى تشكّلت في هذا العصر جمعيات الدفاع عن حقوق الحيوانات وقرّروا لذلك قوانين ومقرّرات لضمان عدم تجاوز هذه الحقوق ضدّ الحيوانات، والأشخاص الذين لا يراعون هذه المـقرّرات يتمّ الاعتراض عليهم، وبالرغم من أنّ هذا الموضوع حاله حال سائر المواضيع التي تتعلّق بحقوق الإنسان أو الدفاع عن المعتقلين أو الأطفال وأمثال ذلك، اتّخذت في الكثير من الموارد صبغة سياسية وتبدّلت إلى عصا غليظة لتـخويف المـعارضيين السـياسيين، وأحياناً نراهم يغصبون حـقوق آلاف الأبـرياء مـن النـاس ويـنفقون مليارات من الدولارات على صناعة وتطوير أسلحة الدمار الشامل، ولا يرتفع أيّ صوت بالاعتراض عليهم، ولكنّهم عندما يتعرّض حيوان للأذى مثلاً فإنّهم يرفعون عقيرتهم بالصراخ والعويل.

ولكنّ الإسلام راعى في هذه المسائل حدّ الاعتدال منذ البـدايـة وأكّـد عـلى توصيات دقيقة بالنسبة للحيوانات، بحيث أنّ كلّ إنسان مـنصف يـرى فـي هـذه التوصيات والمقرّرات جمالية وتعامل أخلاقي في غاية اللطف.

وقد ورد في كتبنا الروائية، أحاديث كثيرة في هذا الباب، منها ما ورد في الأبواب المتعلّقة بالحجّ فيما يتّصل بكيفية الاستفادة من الحيوانات للركوب في مسير الحجّ تحت عنوان «أَبْوابُ أَحْكامِ الدَّوابِّ فِي السَّفَرِ وَغَيْرِهِ».

وقد أورد المرحوم الشيخ الحر العاملي في كتاب وسائل الشيعة في الجزء الثامن تحت هذا العنوان روايات كثيرة في أكثر من خمسين باباً، وفيما يـلي نسـتعرض بعض هذه الروايات التي أوردها في الباب الأول:

قال رسول الله ﷺ: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا خِصَالٌ: يَبْدَأُ بِعَلَفِهَا إِذَا نَزَلَ وَيَعْرِضُ عَلَيْهَا الْمَاءَ إِذَا مَرَّ بِهِ وَلَا يَضْرِبُ وَجْهَهَا فَإِنَّهَا تُسَبِّحُ بِحَمْدِ رَبِّهَا وَلَا يَقِفُ عَلَى ظَهْرِهَا إِلَّا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يُحَمِّلُهَا فَوْقَ طَاقَتِهَا وَلَا يُكَلِّفُهَا مِنَ الْمَشْيِ إِلَّا مَا تُطِيقُ»[١].

وهذا إشارة إلى أنّ بعض الأشخاص الذين يركبون هذه الدوابّ عندما يتقابلون فيما بينهم أو يمرّون على أحد المشاة يتوقّفون للسلام والتحية والحديث مع بعضهم، فينبغي للراكب أن ينزل عن ظهر الدابة إلى أن ينتهي من كلامه مع صاحبه ثمّ يركب دابته ويكمل مسيرته، لأنّ مثل هذا التكليف إتعاب للدابة في حال توقّف الراكب بدون مبرّر، ولكن مثل هذا التوقّف وعدم نزول الفارس إذا كان في ميدان القتال، له ما يبرّره لوجود الخطر في نزول الفارس من مركبه.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قال بما يشبه هذا المضمون: «لِلدَّابَّةِ عَلَى صَاحِبِهَا سِتَّةُ حُقوق»[٢] وفي رواية أخرى ذكر سبعة حقوق.

إنّ العبارات الدقيقة الواردة في هذه الرواية تعكس هذا الحقيقة الحاسمة، وهي أنّ الإسلام لم يغفل عن أدقّ التفاصيل وجزئيات المسائل في هذا الموضوع، وأنّه قدّم أفضل التوصيات والتعاليم الإنسانية في هذا المجال، والكثير من الأشخاص عندما يواجهون بعض القصور من دوابّهم فإنّهم يسارعون في ضربها بالسوط، ولكنّ الإسلام أكّد على لزوم التعامل مع الدواب بأسلوب حسن وعدم إلحاق الضرر والأذى بها، فنقرأ في حديث عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه توجّه أربعين مرّة من المدينة إلى مكة لزيارة بيت الله الحرام وكان يركب الناقة، وفي طيلة هذه المدّة لم يضرب ناقته ولا سوطاً واحداً[٣].

وفي حديث معروف ومذكور في مصادر الشيعة وأهل السنّة: «إنّ امرأةً عُذِّبَتْ

١. وسائل الشيعة، ج ٨، أبواب أحكام الدواب، باب ٩، ص ٣٥٠، ح ١.
٢. الكافي، ج ٦، ص ٥٣٧، ح ١.
٣. المصدر السابق، باب ١٠، ص ٣٥٣، ح ٩.

في هِرَّةٍ قَد رَبَطتها حتّى ماتَتْ عَطشاً»[1].

بل يستفاد من بعض الروايات أنّه لا ينبغي سبّ الحيوانات وشتمها[2] وهذا يدلّ على أنّ الحيوانات تملك شعوراً وفهماً بحيث تتألم من السبّ والشتم، مضافاً إلى أنّ هذا الكلام البذيء من شأنه تلويث لسان الإنسان وفمه وربّما يصير تدريجياً عادة له ويتعامل مع الناس أيضاً بمثل هذا التعامل السيء.

---

١. كنزالعمال، ح ٤٣٦٩٥؛ وسائل الشيعة، باب ٥٣ من أحكام الدواب. ص ٣٩٧.

٢. تهذيب الأحكام، ج ٤، ص ١٦٤، ح ٤.

٢٦

ومن كلام له عليه السلام

إلى بعض عماله وقد بعثه على الصدقة[1]

نظرة إلى الرسالة

يحذّر الإمام عليه السلام في هذه الرسالة «مخنف بن سليم» من النفاق والإزدواجية في الشخصية، وينهاه عن سوء التعامل مع الناس وعدم الاهتمام والعناية بهم، وفي مقطع آخر من الرسالة يؤكّد الإمام عليه السلام على أنّك عامل لجمع الزكاة ولك سهم منها سندفعه إليك، ولكن الباقي يتعلق بالمحتاجين والمستحقّين من هذه الأُمّة، فينبغي إيصاله لهم.

وفي ختام الرسالة يحذّر الإمام عليه السلام من أيّ شكل من الأشكال الخيانة في الأمانة وأنّ خيانة الأُمّة وإمام الأُمّة تعدّ من أشنع الخيانات.

---

١. سند الرسالة:
طبقاً لما أورده القاضي النعمان المصري (المتوفى ٣٦٣) في كتاب دعائم الإسلام، أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة إلى «مخنف بن سلَيم الازدي» أحد قادة جيشه، وما ذكره القاضي النعمان في كتابه المذكور يعتبر متناً مختصراً بالنسبة لما أورده السيد الرضي في نهج‌البلاغة، والحاج النوري في كتابه مستدرك الوسائل في كتاب الزكاة الباب ١٢ الحديث ٣، والظاهر أنّ مؤلف كتاب مصادر نهج‌البلاغة لم ينقل عن مصدر آخر قبل السيد الرضي غير هذين المصدين.

القسم الأول

أَمَرَهُ بِتَقْوَىٰ اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَا شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ. وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ، وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّىٰ الْأَمَانَةَ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ وَأَمَرَهُ أَلَّا يَجْبَهَهُمْ وَلَا يَعْضَهَهُمْ، وَلَا يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَىٰ اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ.

الشرح والتفسير

التعامل الحسن مع دافعي الضرائب الإسلاميّة

يأمر الإمامعليه السلام في المقطع الأول من هذه الرسالة بثلاثة أوامر لعامله على جمع الزكاة، وتبدأ كلّ واحدة من هذه التوصيات بجملة «أَمَرَهُ».

بداية يأمره الإمامعليه السلام بلزوم تقوى الله تعالى في الظاهر والباطن، العلانية والسرّ ويقول: «أَمَرَهُ بِتَقْوَى اللهِ فِي سَرَائِرِ أَمْرِهِ وَخَفِيَّاتِ عَمَلِهِ، حَيْثُ لَا شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ».

والجدير بالذكر أنّ الإمامعليه السلام في هذه الجملة يشير إلى أحد أهمّ مصاديق التقوى، يعني التقوى في الأمور الخفية، أعمّ من النيّة الباطنية والأعمال الظاهريّة التي لا يراها سوى الله تعالى، وهذا الأمر يعدّ من أهم الأمور التي لا يمكن تحقيقها وتحصيلها إلّا من خلال الإيمان بالله والاعتقاد بحضوره في كلّ مكان وزمان، إنّ المشكلات التي تعيشها المجتمعات البشرية، والأزمات التي تصيب الناس، تتعلّق غالباً بهذه المسألة، فتؤخذ القرارات بمعزل عن أهل الخبرة وتنجز الأعمال بعيداً

عن أنظار الناس ويتمّ التضحية بالمنفعة العامة لصالح المنافع الشخصية غير المشروعة.

وعبارة: «حَيْثُ لَا شَهِيدَ غَيْرُهُ، وَلَا وَكِيلَ دُونَهُ» ناظرة قطعاً للأشخاص العاديين غير الحاضرين في خلوة الإنسان، ولكنّ الملائكة المأمورين بكتابة أعمال الإنسان يعيشون معه في كلّ مكان وزمان ويراقبون أعماله وسلوكياته في جميع الأوقات، والأعلى من الجميع الذات المقدّسة الحاضرة في جميع أرجاء عالم الوجود ولا يخفى عليها شيء من صغائر الأمور وكبائرها.

ثمّ يأمره الإمام عليه السلام بالأمر الثاني ويقول: «وَأَمَرَهُ أَلَّا يَعْمَلَ بِشَيْءٍ مِنْ طَاعَةِ اللهِ فِيمَا ظَهَرَ فَيُخَالِفَ إِلَىٰ غَيْرِهِ فِيمَا أَسَرَّ».

وهذا يعني أنّ الإنسان يجب أن يكون موحَّداً في شخصيته حيث يتطابق ظاهره مع باطنه، لأنّ اختلاف الظاهر والباطن، والخلوة والجلوة، تعتبر مصداقاً بارزاً للنفاق، والمسلم ينبغي أن يكون بريئاً ونقيّاً من النفاق.

ثمّ يذكر الإمام عليه السلام كلاماً هو بمثابة الدليل على تلك التوصية ويقول: «وَمَنْ لَمْ يَخْتَلِفْ سِرُّهُ وَعَلَانِيَتُهُ، وَفِعْلُهُ وَمَقَالَتُهُ، فَقَدْ أَدَّىٰ الْأَمَانَةَ، وَأَخْلَصَ الْعِبَادَةَ».

ومفهوم هذا الكلام أنّ الأشخاص الذين يختلف ظاهرهم عن سريرتهم، ولا تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، هؤلاء خونة وغير مخلصين في طاعة الله، وهذه هي الحقيقة، فهل توجد خيانة أفضع من أن يقوم الإنسان بمزاولة أعمال حسنة بقصد الرياء أمام الناس، ولكنّه عندما يخلو بربّه يسلك سلوكاً آخر، أو يقول بلسانه كلاماً مهذّباً ويعد الآخرين بوعود جميلة ويتحدّث عن الطهر والتقوى للناس ولكنّه على مستوى العمل والممارسة يتحرّك في خطّ الهوى والانحراف ويتسبّب بالتالي بعدم ثقة الناس بالدّين وإضعاف الإيمان في قلوبهم؟! إنّ مثل هذه الأعمال السيئة مرفوضة ومذمومة من أيّ شخص، ولكنّها إذا صدرت من المسؤولين والمتولّين لأمور الناس فستكون أقبح وأشنع.

ويشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية في مسألة الإخلاص والأمانة إلى أمرين: أحدهما: التجانس والإنسجام في السرّ والعلن، والآخر: الإنسجام في القول والفعل، والحقيقة أنّ الإخلاص يقوم على أساس هذين الركنين وأنّ المرائين من الناس يفقدون الإلتزام بأحد هذين الركنين أو بكليهما.

وطبعاً فإنّ رعاية هذا الأصل بالنسبة للمسؤولين على بيت المال أهمّ وأشدّ من الآخرين حيث يجب أن يتحلّى المسؤولون بهاتين الصفتين، وهما الحفظ والأمانة.

ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «مَنْ خَالَفَتْ سَرِيرَتُهُ عَلاَنِيَتَهُ فَهُوَ مُنَافِقٌ كَائِناً مَنْ كَانَ وَحَيْثُ كَانَ وَفي أيِّ أرْضٍ كَانَ وَعَلىٰ أيِّ رُتْبَةٍ كَانَ»[1].

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن لقمان الحكيم أنّه قال: «لِلْمُنَافِقِ ثَلاَثُ عَلاَمَاتٍ: يُخَالِفُ لِسَانُهُ قَلْبَهُ وَقَلْبُهُ فِعْلَهُ وَعَلاَنِيَتُهُ سَرِيرَتَه»[2].

ثمّ يطرح الإمام عليه السلام في توصيته الثالثة ثلاثة أوامر لعامله ويقول: «وَأَمَرَهُ أَلاَّ يَجْبَهَهُمْ وَلاَ يَعْضَهَهُمْ، وَلاَ يَرْغَبَ عَنْهُمْ تَفَضُّلاً بِالْإِمَارَةِ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمُ الْإِخْوَانُ فِي الدِّينِ، وَالْأَعْوَانُ عَلَىٰ اسْتِخْرَاجِ الْحُقُوقِ».

وهذه ملاحظات نفسية مهمّة جدّاً في مسألة جمع الضرائب وحقوق بيت المال وترتبط بشكل خاصّ بجميع أمور الإدارة والحكومة، فالتعامل الجيّد مع الناس من شأنه تعميق أواصر المودّة والثقة المتبادلة بين الحكّام والمحكومين، وبالتالي تشجّع الناس على أداء الحقوق المالية والوظائف الشرعية عليهم وتجعل من المكلّفين أن يتقدّموا طواعية لدفع ما عليهم من تكاليف في مقابل الحكومة أو المدراء، من دون حاجة لجهاز مخابرات ومأمورين غلاظ شداد ومحاكم تفتيش وما إلى ذلك، بعد أن يتحرّك الناس في خطّ الإستقامة والمسؤولية والرسالة من موقع الوعي الكامل

١. بحار الأنوار، ج ٦٩، ص ٢٠٧.

٢. المصدر السابق، ص ٢٠٦، ح ٧.

بالوظيفة الشرعية، والتجارب الحديثة في العصر الحاضر تؤيّد صدق هـذا الكـلام وصحّة هذا البيان.

صحيح أنّ البعض ربّما يسيء الاستفادة من هذه المسألة ولا يؤدّي ما عليه من حقوق لبيت المال، ولكنّ الخسارة المترتّبة على مثل هذا السلوك الحسن أقلّ بكثير ممّا لو كان التعامل معهم بآليّات الشدّة والعنف.

القسم الثاني

وَإِنَّ لَكَ فِي هٰذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ، وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَبُؤْسَى لِمَنْ -خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ- الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ وَالْغَارِمُونِ وَابْنُ السَّبِيلِ! وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ وَرَتَعَ فِي الْخِيَانَةِ وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَى! وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ الْغِشِّ غِشُّ الْأَئِمَّةِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

اعمل بحيث لا يشكوك المحرومون يوم القيامة

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة مهمّة في هذا الشأن بإمكانها أن تكون بمثابة الدليل على الكلام السابق، وهي أنّ عامل جباية الزكاة لا ينبغي له الغفلة عن هذه الحقيقة، وهي أنّه بوصفه عاملاً على جمع الزكوات له حقّ معيّن وسهم خاصّ من هذا المال، وأنّ الطوائف الأخرى من المستحقّين للزكاة هم شركاء معه في هذا المال، فإنّ لم يراعِ حقّهم في هذا المال فإنّ مصيره يوم القيامة سيكون وخيماً، يقول الإمام عليه السلام: «وَإِنَّ لَكَ فِي هٰذِهِ الصَّدَقَةِ نَصِيباً مَفْرُوضاً، وَحَقّاً مَعْلُوماً، وَشُرَكَاءَ أَهْلَ مَسْكَنَةٍ، وَضُعَفَاءَ ذَوِي فَاقَةٍ، وَإِنَّا مُوَفُّوكَ حَقَّكَ، فَوَفِّهِمْ حُقُوقَهُمْ».

وهذا الكلام إشارة إلى عدم معاملة أموال الزكاة كالمعاملات الخصوصية أو الشخصية، فطبقاً لصريح القرآن الكريم، أنّ هذه الأموال مشتركة بين ثمان طوائف من الناس.

ويبيّن الإمام عليه السلام الآثار السيّئة والمضرّة للتخلّف عن هذه التوصيات ويقول: «وَإِلَّا تَفْعَلْ فَإِنَّكَ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ خُصُوماً يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

وهو إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يقف في محكمة العدل الإلهيّ فربّما يواجه بعض الشاكين والمخالفين، ويستطيع أحياناً كسب رضاهم بشكل من الأشكال وأحياناً أخرى يواجه آلافاً مؤلّفة من الشاكين والساخطين عليه بحيث لا يستطيع كسب رضا الجميع، والأشخاص الذين يخونون بيت المال ويسرقون من الزكاة هم من هذه الفئة من الناس.

ويستمرّ الإمام في بيان توصياته في هذا الشأن ويقول: «وَبُؤْسَى[1] لِمَنْ ـ خَصْمُهُ عِنْدَ اللهِ ـ الْفُقَرَاءُ وَالْمَسَاكِينُ وَالسَّائِلُونَ وَالْمَدْفُوعُونَ[2]، وَالْغَارِمُونَ وَابْنُ السَّبِيلِ».

ومفردة «الفُقَراء»، «المَساكين»، «السائِلون» و «المَدْفُوعُون» كلّها تشير إلى جماعة المحتاجين والمحرومين مع هذا الفارق، وهو أنّ الكثير من المفسّرين للقرآن يعتقدون بأنّ المسكين هو أسوء حالاً من الفقير، وكأنّه من شدّة فقره بلغ حدّاً أن جلس على الأرض،(لأنّ المسكين من السكون) فيجب على المسؤولين أن يهتمّوا بشكل خاصّ برعاية هذه الشريحة من الناس، لأنّهم ربّما لا يظهرون حاجتهم ويمدّون أيديهم إلى الناس وحتّى إلى بيت المال حياءً وخجلاً، في حين أنّ السائلين أزاحوا ستار الخجل والحياء واضطرّوا لسؤال الناس ومدّوا أيديهم لطلب المعونة والمساعدة، و(المدفوعون) هم الأشخاص الذين يعيشون الغنى وعدم الحاجة بالقوّة لا بالفعل، يعني يملكون أموالاً كافية، ولكنّ الغاصبين قد أخذوا منهم أموالهم وحرموهم من حقّهم وجعلوا منهم فقراء ومحتاجين.

وأمّا «الغارِمُون» فتعني المدينين الذين عجزوا عن تسديد ديونهم إلى أصحابها،

---

١. «بؤسى» يعني شدّة المحنة وسوء الحالة وتكون ناتجة أحياناً من الفقر وأحياناً بسبب عوامل أخرى، وهذه الكلمة من قبيل «بأساء» و«بؤس» على وزن «قفل».

٢. «مدفوعون» يعني الأشخاص الذين منعوا عن حقّهم.

أو الذين أعلنوا إفلاسهم، من الكسبة والتجّار، بدون تقصير منهم.

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة، إلى أنّ «مَدْفُوعون» تعادل كلمة «فی سَبيلِ الله» الواردة في مصارف الزكاة باعتبار أنّ هؤلاء مدفوعون لأعمال معينة بمنطلقات دينية إلهيّة، و«السائلون» تقع في مقابل «في الرقاب» الواردة في الآية الشريفة باعتبار طلبهم التحرّر من الرّق والعبودية، وعلى ضوء ذلك مصارف الزكاة الثمانية الواردة في الآية الشريفة ذكرت ستّة منها في هذه الرسالة، وأحد مصارف الزكاة هو «العاملون عليها»، أي العاملين على جمع الزكاة، فالإمام أشار إلى ذلك سابقاً، وبقي المورد الثامن من المستحقّين للزكاة وهو المؤلفة قلوبهم حيث لم يرد فيه كلام الإمام عليه السلام بسبب أنّ هذا المورد لم يكن محلّ ابتلاء في ذلك الوقت، مضافاً إلى أنّ العلّامة المجلسي ذكر بأنّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام لم يكن بصدد ذكر جميع الموارد الثمانية لمصارف الزكاة حتّى يتكلّف البعض تأويل كلمات الإمام عليه السلام بما يتّفق مع ما ورد في الآية الشريفة.

ويطرح الإمام عليه السلام في سياق كلامه استدلالاً متيناً في ما يؤول إليه خونة بيت المال ومصيرهم السيّء في الدنيا والآخرة ويقول: «وَمَنِ اسْتَهَانَ بِالْأَمَانَةِ، وَرَتَعَ[1] فِي الْخِيَانَةِ، وَلَمْ يُنَزِّهْ نَفْسَهُ وَدِينَهُ عَنْهَا، فَقَدْ أَحَلَّ[2] بِنَفْسِهِ الذُّلَّ وَالْخِزْيَ فِي الدُّنْيَا، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَذَلُّ وَأَخْزَىٰ».

أمّا الذلّة والفضيحة في الدنيا فتعود إلى أنّ الخيانات المتكرّرة لا تكاد تخفى على الآخرين فعاجلاً أم آجلاً سيفتضح الخائن وينظر إليه الناس بنظر الإزدراء والاحتقار ويلبس ثوب المذلّة والمهانة في واقع الحياة والمجتمع، وأمّا في الآخرة وعندما تقدّم للناس صحائف أعمالهم فذلك «يوم البروز» حيث تبرز الأعمال

---

١. «رَتَعَ» من مادة «رتع» على وزن «فتح» بمعنى تناول الطعام والشراب الكثير وخاصة في فصل الربيع وفي القرى والأرياف، ولكن المعنى الواسع للكلمة يطلق على كل أكل وشرب حتى ما أكلت الحيوانات في الصحراء، ومن هنا اطلقت كلمة مرتع على المناطق التي يكثر فيها علف المواشي.

٢. «أحَلَّ» من «الحلول» بمعنى الدخول، وعندما تأتي من باب إفعال فتعني إدخال.

الخفية وتنشر الملفّات وتذاع الأسرار على أهل المحشر، وهنا ستكون الفضيحة العظمى والخزي الأنكى.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام لم يكتفِ هنا بالتعبير بالخيانة في الأمانة فقط، بل إنّه اعتبر أنّ الاستخفاف و«اسْتَهَانَ بِالْأمَانَةِ» يعدّ منقصة كبيرة وعيباً أخلاقياً، وهذا يعكس الأهمية الفائقة للأمانة.

يشير الإمام عليه السلام في ختام هذه الرسالة إلى نقطة أخرى، وهي أنّ الخيانة تارةً تكون بالنسبة لشخص معيّن، وأحياناً أخرى ترتكب في حقّ الأمّة، ومعلوم أنّ الخيانة في حقّ الأُمّة أقبح وأخطر من الأولى، يقول: «وَإِنَّ أَعْظَمَ الْخِيَانَةِ خِيَانَةُ الْأُمَّةِ، وَأَفْظَعَ[1] الْغِشِّ[2] غِشُّ الْأَئِمَّةِ، وَالسَّلَامُ».

والعلّة في ذلك واضحة، لأنّ الإنسان إذا ارتكب خيانة في حقّ شخص أو عدّة أشخاص فربّما يندم يوماً ويتحرّك على مستوى البحث عن هؤلاء الأشخاص والاعتذار منهم وكسب رضاهم، ولكن إذا كانت الخيانة متوجّهة إلى الأمّة فإنّ جبرانها سيكون عسيراً جدّاً وقد يكون محالاً، أضف إلى ذلك أنّ خيانة الأمّة تفضي إلىٰ الخيانة لإمام الأمّة، وكسب رضا الإمام لا يعدّ أمر يسيراً.

وقد استفادالإمام عليه السلام في هذه العبارة من مفردتين، احداهما: الخيانة، والآخرى: الغشّ، وذلك من جهة أنّ الكثير من الخونة يستخدمون أُسلوب الغشّ لإخفاء خيانتهم، وفي الحقيقة أنّهم يرتكبون مخالفتين، إحداهما الغشّ والأخرى الخيانة، ومن هذه الجهة أشار الإمام عليه السلام إلى كلا الأمرين، والسبب في أنّ الإمام عليه السلام ذكر الغشّ فيما يتّصل بالأئمّة، هو أنّ الخونة يخشون من الإمام وقادة الأمّة، ولهذا السبب يخفون أعمالهم الشائنة وخيانتهم بطريقة الغشّ والخداع.

---

۱. «أفظع» من «الفظاعة» بمعنى القبيح جداً.

۲. «الغش» تأتي أحياناً بكسر العين وأخرى بفتحها، فعندما تأتي بكسر العين تكون اسم مصدر وتعني الخداع والحيلة والخيانة، وإذا جاءت بفتح العين فتكون مصدراً وتعني عمل الخيانة والمكر.

تأمّلان

١. الأصناف الثمانية لمستحقّي الزكاة

ورد في القرآ الكريم في الآية ٦٠ من سورة التوبة بيان للموارد الثمانية لمصرف الزكاة، تقول الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، ويمكن اختزال هذه المصارف والموارد الثمانية في ثلاثة أصول كليّة:

الأول: المحتاجون ويشمل الفقراء المساكين والعبيد الذين يعيشون التعب والإرهاق من شدّة العمل، والغارمين ومن واجه الضيق والإفلاس في تجارته وعمله بدون تقصير منه، وكذلك من بقي في طريق السفر بدون مؤنة أو مال، وهذه الطوائف الخمسة تعتبر من المحتاجين، فبعضهم يحتاج لمعاشه اليوميّ من الطعام والملبس والمسكن، وبعضهم يحتاج للمال لتسديد دينه، وثالث يحتاج للمال بسبب عجزه عن مواصلة سفره لعدم المال وفقدان المتاع (وإن كان في وطنه غنياً وغير محتاج)، وبعضهم يحتاج لإنقاذ نفسه من قيود الرقّ والعبودية.

الطائفة الثانية: الأشخاص الذين يعملون في شأن الضرائب وجمع الزكوات وحفظها وإيصالها إلى بيت المال فيجب أن يدفع لهم أُجرة المثل لعملهم.

الطائفة الثالثة: المنافع العامة للمسلمين، نفقات الجهاد في سبيل الله، بناء المساجد، تأسيس المدارس، نشر وتبليغ الرسالة الإلهيّة، ولتأليف قلوب غير المسلمين وجذبهم نحو الإسلام، فهذه المصارف تتمّ تغطيتها من مال الزكاة، وهذه الطوائف الثلاث وردت في القرآن الكريم على شكل ثمانية موارد، وفي الحقيقة أنّ هذا الحصر في استحقاقات الزكاة يستوعب جميع حاجات المجتمع الإسلامي، ولو تمّ دفع الزكاة (وكذلك الخمس) بشكل دقيق ومدروس، فإنّ قسماً مهمّاً من المشاكل المالية سيتمّ حلّها وسدّ أشكال الخلل الاقتصادي بهذه الطريقة، كما ورد هذا المعنى

في الروايات الشريفة، يقول الإمام الصادق عليه السلام «لَوْ أَنَّ النَّاسَ أَدَّوْا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ مَا بَقِيَ مُسْلِمٌ فَقِيراً مُحْتَاجاً... وَإِنَّ النَّاسَ مَا افْتَقَرُوا وَلَا احْتَاجُوا وَلَا جَاعُوا وَلَا عَرُوا إِلَّا بِذُنُوبِ الْأَغْنِيَاءِ»[١].

٢. الأمانة، أصل القيم الأخلاقية في الإسلام

تعتبر الأمانة وإلى جانبها الصدق، أصلان مهمّان في التعاليم الدينية والمفاهيم القرآنية، ولا ينعكس هذان الأصلان الأخلاقيّان بشكل كبير في القرآن الكريم والروايات الإسلاميّة فحسب، بل يعدّان من جملة تعاليم ومبادىء جميع الأنبياء عليهم السلام، فنقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَبْعَثْ نَبِيّاً إِلَّا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ إِلَى الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ»[٢].

وهذان الأصلان إلى درجة من الأهمية بحيث أنّهما يعدّان من علائم الإيمان والتقوى الرئيسية، كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لَا تَنْظُرُوا إِلَى كَثْرَةِ صَلَاتِهِمْ وَصَوْمِهِمْ وَكَثْرَةِ الْحَجِّ وَالْمَعْرُوفِ وَطَنْطَنَتِهِمْ بِاللَّيْلِ، وَلَكِنِ انْظُرُوا إِلَى صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»[٣].

وفي حديث مماثل يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لَا تَغْتَرُّوا بِصَلَاتِهِمْ وَلَا بِصِيَامِهِمْ فَإِنَّ الرَّجُلَ رُبَّمَا لَهِجَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ حَتَّى لَوْ تَرَكَهُ اسْتَوْحَشَ وَلَكِنِ اخْتَبِرُوهُمْ عِنْدَ صِدْقِ الْحَدِيثِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ»[٤].

وقد وردت مثل هذه المضامين المثيرة في روايات أخرى كذلك.

والعلّة في كلّ هذه التأكيدات لا تحتاج إلى كثير بيان، لأنّ أهمّ رأسمال المجتمع الإسلامي هو الاعتماد المتقابل والثقة المتبادلة بين أفراده، فلو انعدم هذا الاعتماد

---

١. وسائل الشيعة، ج ٦، ص ٤، باب ١، ح ٦، من أبواب الزكاة.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، ح ١.

٣. الأمالي، الشيخ الصدوق، ص ٣٠٠، ح ٦.

٤. الكافي، ج ٢، ص ١٠٤، ح ٢.

وزالت الثقة بين الأفراد، فإنّ ذلك من شأنه إضعاف حالة التعاون وتوهين عنصر التكاتف بين الناس، والعامل الأساس في تقوية الاعتماد والتكاتف بين الناس يتمثّل في مبدأ الأمانة والصدق في التعامل والتواصل في فضاء المجتمع، لأنّ الخيانة والكذب يؤدّيان إلى انهدام صرح الاعتماد والثقة المتبادلة فيتحوّل المجتمع البشريّ في النهاية إلى صحراء مقفرة من المعنويات وتسود حينئذٍ شريعة الغاب فلا يجد الإنسان مفرّاً من الجفاف المعنويّ، وتتعمّق حالات الكراهية المتولّدة من حالات الصراع.

ومن أشنع أشكال الخيانة، كما أشار الإمام عليه السلام إلى ذلك في هذه الرسالة، خيانة الأُمّة وخيانة بيت المال والحكومة الإسلاميّة، والتي تترتّب عليها آثار مدمّرة وعواقب وخيمة أشدّ بكثير من الخيانات الفردية.

৯০৫

٢٧

وَمِنْ كَلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلامُ

إلىٰ مُحَمَّدِ بْنِ أبي بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ حينَ قَلَّدَهُ مِصْرَ[١]

نظرة إلى الرسالة

ورد في كتاب الغارات أنّ عليّاً عليه السلام لما أجاب محمّد بن أبي بكر رضي الله عنه بهذا الكتاب كان محمّد ينظر فيه ويتعلّمه ويقضي به، فلّما ظهر عليه عمرو بن العاص أخذ كتبه أجمع فبعث بها إلى معاوية بن أبي سفيان، وكان معاوية ينظر في هذا الكتاب ويعجبه، فقال الوليد بن عقبة وهو عند معاوية لمّا رأى إعجاب معاوية به: مر بهذه الأحاديث أن تحرق، فقال له معاوية: مه، يابن أبي معيط أنّه لا رأي لك، فقال له الوليد: إنّه لا رأي لك، أتريد أن يعلم الناس أنّ أحاديث أبي تراب عندك؟! تتعلّم منها وتقضي بقضائه؟! فعلام تقاتله؟! فقال معاوية: ويحك أتأمرني أن أحرق علماً مثل هذا؟! والله ما سمعت بعلم أجمع منه ولا أحكم ولا أوضح، فقال الوليد: إن كنت

---

١. سند الرسالة:

ذكر صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّ هذا العهد نقله قبل السيد الرضي، إبراهيم بن هلال الثقفي في كتابه الغارات وابن شعبة الحراني صاحب كتاب تحف العقول في كتابه هذا، ونقله بعد السيد الرضي الشيخ الطوسي في الإمالي والطبري في بشارة المصطفى وآخرون. (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٦٥).

ويستفاد من كتاب الغارات وكتاب نهج‌البلاغة الكامل أنّ هذا العهد المطول أكثر بكثير ممّا أورده السيد الرضي، حيث اقتصر السيد الرضي على نقل مقطع خاص منه.

تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله؟ فقال معاوية: لولا أنّ أبا تراب قتل عثمان ثمّ أفتانا لأخذنا عنه، ثم سكت هنيئة ثم نظر إلى جلسائه فقال: إنّا لا نقول: إنّ هذه من كتب عليّ بن أبي طالب، ولكن نقول: إنّ هذه من كتب أبي بكر الصديق كانت عند ابنه محمّد بن أبي بكر.

فلم تزل تلك الكتب في خزائن بني أُمية حتى ولّي عمر بن عبدالعزيز فهو الذي أظهر أنّها من أحاديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

ويضيف صاحب الغارات: فلما بلغ ـ يعني استشهاد محمّد بن أبي‌بكر ـ عليّ ابن أبي طالب عليه السلام وأنّ ذلك الكتاب صار إلى معاوية اشتدّ ذلك عليه (يعني لماذا مثل هذا الكتاب الرائع الزاخر باللؤلؤ والمرجان يقع بيد من ليسوا أهلاً لذلك)[1].

وكيف كان، فإنّ هذه الرسالة طبقاً لما ذكره المرحوم السيد الرضي، تتضمّن عدّة مقاطع: الأول: أنّ الإمام عليه السلام يأمر بلزوم رعاية التواضع وإقامة العدل في معاملة الناس والتواصل معهم من موقع الرأفة والمحبّة، وفي ذات الوقت الإهتمام بإبراز القوّة والقدرة في مقابل قوى الجور والثروة.

وفي المقطع الثاني: يتحدّث الإمام عليه السلام بشكل كلّي وشامل عن إحدى صفات المتّقين في تعاملهم مع الدنيا والنعم المادية في عبارات بليغة وزاخرة بالمعاني العميقة، ويبيّن كيف أنّ هؤلاء المتّقين يستخدمون هذه النعم الإلهيّة في الدنيا دون أن يتورّطوا في مهاوي الخطيئة ويقعوا في شباك حبّ الدنيا.

ويشير الإمام عليه السلام في المقطع الثالث، إلى نهاية الحياة وحلول الأجل ويتحدّث بكلمات بليغة بحيث أنّ التدقيق في مضامينها والتمعّن في معانيها من شأنه إيقاظ كلّ إنسان من سبات الغفلة.

ويلفت الإمام عليه السلام في المقطع الرابع نظر محمّد بن أبي بكر إلى أهميّة وخطورة

---

١. الغارات، ص ٢٥١؛ وهذا الكلام نقله ابن أبي‌الحديد بشكل مختصر في شرحه لنهج البلاغة (ج ٦، ص ٧٩) وصاحب كتاب نهج‌البلاغة الكامل، در ص ٩٠٣، بعد ذكره لهذا العهد بشكل كامل.

هذه المهمّة التي كلّفها به (أي حكومة مصر)، ويشير عليه ببعض التوصيات اللازمة في هذ المجال.

وفي المقطع الخامس والأخير، يعود الإمام لبيان تحليل كلّي وشامل في الحديث عن الفرق بين قادة الهدى والحقّ وقادة الضلال والباطل ويشير إلى خطر المنافقين في المجتمع الإسلامي.

وبعد الالتفات إلى أنّ وثيقة العهد هذه مطوّلة بدرجة كبيرة لم يتمكّن السيد الرضيّ من ذكرها كلّها في كتابه، ولذلك اختار بعض الفقرات والمقاطع منها، وقد وردت هذه الرسالة كلّها في كتاب الغارات ونهج البلاغة الكامل وغيرهما.

القسم الأول

فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ وَالنَّظْرَةِ، حَتَّىٰ لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَىٰ يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ.

الشرح والتفسير

حسن الخلق مع جميع الأفراد

كما تقدّمت الإشارة إليه آنفاً فإنّ القسم الأول من هذا الرسالة ناظر إلى سلسلة من التوصيات الأخلاقية التي أمر الإمامعليه السلام واليه محمّد بن أبي بكر بالالتزام بها في تواصله وتعامله مع الناس، والواقع أنّ المسلمين جميعاً يجب أن يكونوا كذلك في توثيق وشائج المودّة والعلاقة بينهم، وهذه التوصيات تتمثّل في أربعة أمور:

الأوّل: لزوم رعاية المودّة والمحبّة لجميع الأفراد في المجتمع، يقول الإمامعليه السلام: «**فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ**».

وهذا التعبير مقتبس من القرآن الكريم في رسم كيفية تعامل النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله مع المؤمنين حيث تقول الآية الشريفة: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[1]، وهذا تعبير كنائيّ مستوحىً من سلوك الطير مع فراخه، فعندما تأتي الفراخ إلى أُمّها فإنّ هذه الأمّ ستفتح جناحها لهم وتجمع هؤلاء الفراخ تحت جناحيها إظهاراً

---

١. سورة الشعراء، الآية ٢١٥.

للمحبّة لها وحماية لهذه الفراخ من الأذى.

والأمر الثاني يقول الإمام عليه السلام: «وَأَلِنْ[١] لَهُمْ جَانِبَكَ».

وهذا التعبير أيضاً من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ﴾[٢].

وفي الأمر الثالث يقول الإمام عليه السلام: «وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ».

فلا ينبغي التعامل مع أيّ فرد من أفراد المجتمع بوجه عبوس وظاهر متجّهم، والحديث معهم بمنطق الاستعلاء والغرور، فإنّ هذا من شأنه إبعاد الناس عنك وتشتّتهم عن مركز القيادة، كما ورد هذا المعنى في القرآن الكريم حيث يأمر نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله ويقول: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾[٣].

والأمر الرابع ناظر إلى إقامة العدل في جميع مناحي الحياة حتى في جزئيات الأمور، يقول الإمام عليه السلام: «وَآسِ[٤] بَيْنَهُمْ فِي اللَّحْظَةِ[٥] وَالنَّظْرَةِ، حَتَّى لَا يَطْمَعَ الْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ[٦] لَهُمْ[٧]، وَلَا يَيْأَسَ الضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ[٨]».

وهذا إشارة إلى أنّه لو حضر عندك رجل ثريّ وذو نفوذ مع رجل ضعيف ومعدم لتقضي بينهم، أو لغرض آخر، فينبغي عليك مراعاة العدالة بينهما إلى حدّ أنّك إذا نظرت لحظات معدودة لأحدهما فيجب أن تنظر إلى الآخر بهذا المقدار أيضاً ولا

---

١. «ألِن» من «اللين» على وزن «حين» بمعنى السهولة.

٢. سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٥٩.

٤. «آس» من «المواساة» وتعني التساوي بين الأطراف من جميع الجهات.

٥. «لحظة» النظرة الخاطفة من زاوية العين، خلافاً لـ «نظرة» التي تعني النظر بجميع العين، والعبارة أعلاه تشير إلى أنّ الحاكم ليس فقط يساوي بين الرعية بالنظر المباشر وبجميع العين، بل حتى باللحظات وبطرف العين.

٦. «حيف» الانحراف عن الحق والظلم والجور، سواء في مقام القضاء أو الحكم أو في الأمور الأخرى.

٧. الضمير في «لهم» يعود إلى «العظماء» والجملة تعني أنّ الأقوياء لا ينبغي أن يطمعوا في حكمك لصالحهم على حساب حقوق الآخرين وظلم الرعيّة، وأمّا عودة الضمير إلى «الرعيّة» فبعيد جداً لأنّ «اللام» ينبغي أن تكون بمعنى على، مضافاً إلى أنّ كلمة «الرعيّة» و«ضعفاء» لم تردا في العبارات السابقة لتسويغ عودة الضمير عليهما، ولو كان المقصود ما ورد في بداية الرسالة فستكون الفاصلة بعيدة.

٨. ضمير «عليهم» يعود إلى «ضعفاء» و «على» جاءت هنا بمعنى اللام، يعني أنّ الضعفاء لا ييأسون من مراعاة العدالة في حقوقهم، وجاء في بعض النسخ حرف الباء بدلاً من «على» وهو أنسب ظاهراً.

تهتمّ وتصغي للغنيّ أكثر من اهتمامك وإصغائك للفقير والضعيف، فلو أنّك راعيت مقتضيات العدالة في هذه الجزئيات الصغيرة فسوف تستطيع بطريق أولى رعاية العدالة في الأمور الأهمّ ولا يتوقّع منك الظلم والجور والانحياز لفئة خاصّة على حساب فئة أخرى.

وهذا هو الحكم الشرعي في باب القضاء الإسلامي وفي مورد رعاية القاضي للعدالة بين المتخاصمين حيث يجب عليه مراعاة المساواة والعدالة بين المتخاصمين فيما لو حضرا عنده، فلو أرادا الجلوس فعليهما أن يجلسا معاً، وإذا عزما على الوقوف، عليهما الوقوف سويّة، فلو أنّ القاضي سلّم على أحدهما فيجب عليه أن يسلّم على الآخر، وإذا نظر إلى أحدهما لحظات فعليه أن ينظر للآخر بذلك المقدار، وإصرار الإسلام على رعاية مثل هذه التوصيات والمقرّرات إنّما هو لمنع أيّ شكل من أشكال الظلم والجور، ولا نتصوّر أنّ مثل هذا القانون في رعاية أصل العدالة موجود في أيّ من القوانين القضائية في عالمنا المعاصر وبمثل هذه الدقّة.

وقد ورد في حديث نقله الكليني في الكافي عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَنِ ابْتُلِيَ بِالْقَضَاءِ فَلْيُوَاسِ بَيْنَهُمْ فِي الْإِشَارَةِ وَفِي النَّظَرِ وَفِي الْمَجْلِسِ»[1].

ومثل هذا المعنى ورد أيضاً في الرسالة ٤٦ من نهج البلاغة والتي كتبها الإمام عليه السلام لأحد عمّاله.

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه وتوصياته ويذكر علّة هذا الحكم ويقول: «فَإِنَّ اللّهَ تَعَالَىٰ يُسَائِلُكُمْ مَعْشَرَ عِبَادِهِ عَنِ الصَّغِيرَةِ مِنْ أَعْمَالِكُمْ وَالْكَبِيرَةِ، وَالظَّاهِرَةِ وَالْمَسْتُورَةِ، فَإِنْ يُعَذِّبْ فَأَنْتُمْ أَظْلَمُ، وَإِنْ يَعْفُ فَهُوَ أَكْرَمُ».

١. الكافي، ج ٧، ص ٤١٣، ح ٣.

القسم الثاني

وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ؛ سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ، فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ؛ ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ؛ وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ غَداً فِي آخِرَتِهِمْ. لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ.

الشرح والتفسير

الدنيا والآخرة لمن يعيش البساطة والزهد

في هذا المقطع من الرسالة تحدّث الإمام عليه السلام عن موضوع شامل في بيان صفات المتقّين وامتيازاتهم وخصالهم ليكون ذلك درساً لمحمّد بن أبي بكر ولسائر أهالي مصر، يقول الإمام عليه السلام بداية:

«وَاعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ الْمُتَّقِينَ ذَهَبُوا بِعَاجِلِ الدُّنْيَا وَآجِلِ الْآخِرَةِ، فَشَارَكُوا أَهْلَ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَلَمْ يُشَارِكُوا[1] أَهْلَ الدُّنْيَا فِي آخِرَتِهِمْ».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام تعرّض لشرح وتوضيح هذا العبارة فقال: «سَكَنُوا الدُّنْيَا بِأَفْضَلِ

---

١. الضمير في «لَمْ يُشارِكُوا» يعود إلى المتقّين، ومفهوم الجملة أنّ المتقّين في الآخرة لا يشاركون في عذاب أهل الدنيا والمجرمين، ولكن ورد في بعض النسخ وكذلك النسخة المصححة لنهج البلاغة «لَمْ يُشارِكْهُم» وهي أكثر تناسباً مع المضمون، وتعني أنّ أهل الدنيا لا يشاركون في الآخرة المتقين في نعيمهم في حين أنّ أهل الدنيا يشتركون مع المتقين في دنياهم بشكل معقول.

مَا سُكِنَتْ، وَأَكَلُوهَا بِأَفْضَلِ مَا أُكِلَتْ. فَحَظُوا مِنَ الدُّنْيَا بِمَا حَظِيَ بِهِ الْمُتْرَفُونَ[1]، وَأَخَذُوا مِنْهَا مَا أَخَذَهُ الْجَبَابِرَةُ الْمُتَكَبِّرُونَ». (أي بعيداً عن التكلّف والتكالب على زخارف الدنيا في تنميق المساكن وتزيين القصور). وأكلوها بأفضل ما أُكلت (الطعام الحلال والبسيط والبعيد عن التلوّث والإسراف).

ومفهوم هذا الكلام لا يعني أنّ المتقّين الزاهدين يهتمّون بالجلوس على الموائد الملوّنة والسكن في القصور المجللة وارتداء الملابس الأنيقة، بل المراد من ذلك أنّ هؤلاء في حياتهم البسيطة يتنعّمون منها كما يتنعّم أهل الدنيا، لأنّهم من جهة يسعون لتوفير ما يحتاجون إليه من المأكل والملبس والمسكن، وبالتالي فإنّهم يتنعّمون بها أيضاً، لأنّ الإنسان المحتاج عندما يحصل على مقصوده ويحقق مراده فإنّه يشعر باللذّة والراحة، كالإنسان الجائع عندما يأكل طعاماً بسيطاً، ومن جهة أخرى أنّهم يعلمون أنّ ما يملكونه قد حصلوا عليه من طريق حلال وأنّ الله رزقهم هذه النعم بطريق مشروع، فلا تترتّب عليه العقوبة الأُخروية، وبالتالي ينتفعون من هذه النعم والمواهب بروح هادئة وقلب مطمئن ومشاعر منفتحة.

والكثير من الأشخاص الذين يعيشون في بيوت صغيرة ويملكون وسائل بسيطة من الأثاث ويأكلون ويلبسون ما توفّر لهم من الطعام الزهيد الثمن واللباس المناسب، يعيشون في ذات الوقت معنويات عالية ولا يجدون في أنفسهم امتعاضاً أو شكاية من حالهم، وبذلك يحسّون بالطمأنينة والهدوء النفسيّ في واقع الحياة ويشعرون بالسعادة وطيب الخاطر، في حين أنّ غالبية الأثرياء الذين يسكنون القصور المجللة ويملكون أفضل وسائل العيش ويجلسون على موائد ملوّنة وتجلب لهم أنواع الأطعمة؛ يعيشون الاضطراب والقلق في حياتهم، وأحياناً تصيبهم الكآبة المزمنة والأمراض النفسية. والتجارب في هذا الموضوع تؤكّد صحة ما ذكره الإمام عليّ عليه السلام في العبارة أعلاه.

---

١. «مُتْرَف» تعني، كما تقدم في شرح الرسالة ١٠، الأثرياء المغرورين الذين يعيشون حالة الطغيان.

أضف إلى ذلك أنّ المتقين وبسبب حياتهم البسيطة والبعيدة عن الترف والتجمّل، عندما يحين أجلهم ويتركون الدنيا فإنّهم لا يشعرون بالحسرة في قلوبهم عليها، ولكن المستهترين المتكبّرين والمترفين الذين عاشوا حياة الترف والتكالب على ملذّات الدنيا وزخارفها عندما يحين أجلهم فسوف يعيشون أشدّ الحسرات على ما سيتركونه من نعيم ولذّة، وبخاصّة إذا كانوا يعتقدون باليوم الآخر ويعلمون أنهم سيحملون وزر هذه الثروات والخطايا على أعناقهم يوم القيامة.

غِنى النَّفسِ يُغنيها إذا كُنتَ قانِعاً ... وَلَيسَ بِمُغنيكَ الكَثيرُ مِنَ الحرصِ

وَإنَّ اعتِقادَ الهَمّ للخَيرِ جامعٌ ... وقِلّةَ هَمِّ المَرءِ تَدعُو إلىٰ النَّقصِ

ويستمرّ الإمام عليه السلام في كلامه عن خصال المتقّين ويقول: «ثُمَّ انْقَلَبُوا عَنْهَا بِالزَّادِ الْمُبَلِّغِ[1]، وَالْمَتْجَرِ الرَّابِحِ أَصَابُوا لَذَّةَ زُهْدِ الدُّنْيَا فِي دُنْيَاهُمْ، وَتَيَقَّنُوا أَنَّهُمْ جِيرَانُ اللهِ[2] غَداً فِي آخِرَتِهِمْ، لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ، وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ».

جملة: «لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ» إشارة إلى ما ورد في الآية الشريفة: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدَّعُونَ﴾[3].

وجملة: «وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ» إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[4].

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ عبارة: «لَا تُرَدُّ لَهُمْ دَعْوَةٌ وَلَا يَنْقُصُ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنْ لَذَّةٍ» ناظرة لحال المتقين في هذا الدنيا، فإنّهم وبسبب إيمانهم وحسن يقينهم وصلاح عملهم مستجابو الدعوة، فلا ينقص لهم شيء من لذّات الدنيا، ولكن هذا التفسير بعيد عن الصواب، لأنّ الجملة بعد هذه العبارة تتحدّث عن الآخرة، وأمّا

---

١. «المبلّغ» تعني في الجملة الزاد والمتاع الذي يوصل الإنسان إلى مقصده وهو من «البلوغ» بمعنى الوصول.

٢. «جيران الله» كناية عن علوّ المقام، لأنّ الله تعالى ليس له دار خاصّة ليكون له جيران، فالعبارة تشير إلى القرب المعنويّ من الله تعالى.

٣. سورة يس، الآية ٥٧.

٤. سورة فصلت، الآية ٣١.

حال المتقّين في الدنيا فقد ورد في العبارات والجمل السابقة، وكـما أسـلفنا فـإنّ هاتين الجملتين إشارة إلى ما ورد في الآيات القرآنية بهذا المضمون.

☙❧

القسم الثالث

فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، خَطْبٍ جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا! وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا! وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ؛ وَالدُّنْيَا تُطْوَىٰ مِنْ خَلْفِكُمْ. فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ، وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ. دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلهِ.

الشرح والتفسير

تحذيرات متوالية

يتحدّث الإمامعليه السلام في المقطع من هذه الرسالة مرّة أخرى عن موضوع كلّي وعامّ يشمل مخاطبه محمّد بن أبي بكر وكذلك جميع الناس، وجاء في مطلع هذه الرسالة التي ينقلها السيد الرضي، أنّ الإمامعليه السلام يأمر محمّد بن أبي بكر أن يقرأها على جميع الناس، يقول: «فَاحْذَرُوا عِبَادَ اللهِ الْمَوْتَ وَقُرْبَهُ، وَأَعِدُّوا لَهُ عُدَّتَهُ، فَإِنَّهُ يَأْتِي بِأَمْرٍ عَظِيمٍ، وَخَطْبٍ[1] جَلِيلٍ، بِخَيْرٍ لَا يَكُونُ مَعَهُ شَرٌّ أَبَداً، أَوْ شَرٍّ لَا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرٌ أَبَداً».

وقد قلنا مراراً أنّ الإنسان حتى لو شكّ في أيّ أمر من الأمور فإنّه لا يشكّ في

---

١. «خطب» بمعنى الحادثة المهمّة، ولكن تأتي غالباً للحوادث المؤلمة.

الموت ونهاية الحياة، حيث يشمل جميع أفراد البشر بدون استثناء، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ الموت يمثّل بداية الحركة باتّجاه الآخرة، فينبغي للإنسان أن يأخذ العدّة ويتهيّأ لهذا السفر الطويل ويعمل على توفير ما يحتاجه لضمان سلامة مسيرته الأبدية.

ومن هذا المنطلق يعتبر الإمام عليّ عليه السلام الموت مرحلة مصيرية ومنعطف خطير في حياة الإنسان حيث يقوده إلى إحدى جهتين، فإمّا الحياة الطيّبة الزاخرة بالسعادة والحبور والسلامة وهي الجنّة الخالدة التي جعلها الله تعالى للصالحين من عباده، أو جهة العذاب الأليم والمصيرالسيّء الذي لا يمكن الخلاص منه والنجاة من آلامه أبداً، وكما أنّ الإنسان لا يعلم من أيّ الطائفتين سيكون مصيره فلذلك ينبغي له التزام الحذر والاحتياط في هذا السفر الخطير.

وبالنسبة للفرق بين «أمرٍ عظيمٍ» و «خَطْبٍ جَليل» ففي حين أنّ هاتين العبارتين متقاربتان في المعنى فإنّ شرّاح نهج البلاغة على حدّ علمنا واطّلاعنا لم يتحدّثوا في هذا المجال، ولكن ربّما تكون عبارة «أمر عظيم» إشارة إلى الانتقال من هذه الدنيا والسفر إلى العالم الآخر بدون إمكانية العودة، أمّا بالنسبة «خطب جليل» إشارة إلى حساب الأعمال وما يترتّب عليها من جزاء ومثوبة، ويحتمل أيضاً أنّ «أمر عظيم» إشارة إلى جملة «خَيْرٌ لايَكُونُ مَعَهُ شَرّ أبداً» و«خطب جليل» الذي يوحي في مفهومه بالمصيبة الكبيرة، هو إشارة إلى جملة «شَرّ لا يَكُونُ مَعَهُ خَيْرُ أبداً».

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارة قسّم الناس إلى طائفتين فقط، فطائفة ينعمون بالسعادة الأبدية ويعيشون حالات الخير والبركة التي لا يمتزج معها شرّ أبداً، وطائفة على العكس من ذلك، وهم الغارقون بالشرور المصائب، ولا يتاح لهم الحصول على خير أبداً، في حين أننا نعلم بوجود طائفة ثالثة أيضاً وفقاً لما ذكره القرآن الكريم حيث يقول: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

١. سورة التوبة، الآية ١٠٢.

وقد أجاب شرّاح نهج‌البلاغة عن هذا السؤال بإجابات مختلفة، وأحياناً تكون مقترنة بالكثير من التعسّف والتكلّف، ولكن أوضح جواب هو أنّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام ناظر إلى أفراد متميّزين يسيرون في خطّ الطاعة أو العصيان، وليس ناظراً إلى جميع الأفراد، وبعبارة أخرى أنّ مثل هذا الحصر هو حصر إضافيّ ناظر إلى المؤمنين الكاملين في الإيمان الذين بلغوا الذروة في مراتب الإيمان والإخلاص، وكذلك رموز الكفر والظلم، لا أنّه حصر حقيقيّ يشمل جميع الأفراد.

وقد ورد في القرآن الكريم عبارات من هذا القبيل أيضاً، مثلاً نقرأ في سورة هود: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ * فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِى النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا... * وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِى الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا﴾[1].

وجاء في حديث عن الإمام الجواد عليه السلام عن آبائه الكرام عليهم السلام: قيل لأميرالمؤمنين عليه السلام: صف لنا الموت فقال: «هُوَ أَحَدُ ثَلَاثَةِ أُمُورٍ يَرِدُ عَلَيْهِ إِمَّا بِشَارَةٌ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ وَإِمَّا بِشَارَةٌ بِعَذَابِ الْأَبَدِ وَإِمَّا تَحْزِينٌ وَتَهْوِيلٌ وَأَمْرُهُ مُبْهَمٌ، لَا تَدْرِي مِنْ أَيِّ الْفِرَقِ هُوَ فَأَمَّا وَلِيُّنَا الْمُطِيعُ لِأَمْرِنَا فَهُوَ الْمُبَشَّرُ بِنَعِيمِ الْأَبَدِ»[2].

وفي آخر هذه الرواية ورد أيضاً أنّ بعض أفراد الطائفة الثالثة سيمكثون مدّة معينة في النار ثمّ تشملهم شفاعة أهل البيت عليهم السلام، وطائفة منهم سينالون الشفاعة بعد مدّة طويلة.

ومن هنا يتبيّن ما ذهب إليه ابن أبي‌الحديد في تفسير هذه العبارة بما يؤيّد مذهبه، حيث قال: «قوله: فإنّه يأتي بأمر عظيم... نصّ صريح في مذهب أصحابنا في الوعيد، وأمّا من دخل النار من جميع المكلّفين فليس بخارج، لأنّه لو خرج منها لكان الموت قد جاء بشرّ معه خير، وقد نفى نفياً عاماً أن يكون مع الشرّ المعقب للموت خير البتة»[3]، وهذا الكلام غير سديد ولا يتوافق مع سائر كلمات الإمام عليه السلام

---

١. سورة هود، الآيات ١٠٥-١٠٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٥٤.

٣. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٦٦.

والآيات القرآنية الشريفة، والمراد هنا بيان حال طائفتين من المؤمنين الخالصين والكافرين كذلك، أمّا الأشخاص الذين ورد ذكرهم في الآية الشريفة من سورة التوبة: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً﴾، فإنّهم قطعاً لم يكونوا مورد نظر الإمام عليه السلام في هذه العبارة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بيّن شرط دخول الجنّة وسبب دخول النار في جملتين قصيرتين: «فَمَنْ أَقْرَبُ إِلَى الْجَنَّةِ مِنْ عَامِلِهَا، وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَىٰ النَّارِ مِنْ عَامِلِهَا».

وهذا يشير إلى أنّ الأصل في تعيين مصير الإنسان هو العمل والسعي، لا الآمال والتمنّيات، فالأعمال هي التي تقود الإنسان إلى الجنّة أو إلى النار، فحتّى شفاعة الشفعاء تقع في الهامش ولا تشكلّ أصلاً أساسياً في النجاة.

والجدير بالذكر أنّ الإمام عليه السلام يقول هنا أنّ العاملين للجنّة هم أقرب الناس إليها، والعاملين للنار، أي السائرين في خطّ المعصية والضلالة، هم أقرب الناس إلى النار، ولم يقل إنّ العاملين للأعمال الصالحة والأعمال السيئة، وهذا يعدّ كناية لطيفة عن أنّ العمل الصالح كأنّه هو الجنّة، والمعصية والذنب والعمل الطالح كأنه هو النار.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى هذه النقطة المهمّة، وهي أنّ الموت لا يترك أحداً ينجو منه ويتخلّص من الوقوع في مصيدته، وبما أنّ الأمر كذلك فينبغي التزام الجدّية والاهتمام بهذا الأمر، يقول: وَأَنْتُمْ طُرَدَاءُ[1] الْمَوْتِ، إِنْ أَقَمْتُمْ لَهُ أَخَذَكُمْ، وَإِنْ فَرَرْتُمْ مِنْهُ أَدْرَكَكُمْ، وَهُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ[2]، وَالدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ».

---

١. «طرداء» جمع «طريد»، وقيل إنّها جمع «طريدة» من «الطرد» بمعنى الإبعاد، وتأتي للشخص المحكوم بالنفي والتبعيد عن المنطقة، أو الصيد الذي يتبعه الصياد ولا يزال يبعده عن مكانه الأصلي.

٢. «نواصي» جمع «ناصية» بمعنى الشعر في مقدم الجبين (ولا تعني الجبين نفسه) وذكر بعض أرباب اللغة وهم قلة أنّ «ناصية» تعني القسم المقدم من الرأس أو الشعر، وبعضهم ذهب إلى أنّ الأصل فيها مقدّم الرأس والشعر في مقدم الرأس يطلق عليه ناصية بمناسبة نموه على هذا القسم المقدم، ولكن موارد استعمال هذه الكلمة في القرآن الكريم يشير بوضوح إلى أنّ المعنى الأول أنسب، لأنّ الوارد في القرآن في الكثير من الأدعية استعمال كلمة الناصية بهذا المعنى وخاصة مع كلمة أخذ، ومعلوم أنّ ما يمكن أخذه والامساك به هو الشعر ☜

وأحد معاني عبارة «طُرَدَاءُ الْمَوْتِ» هو أنّ الناس بمثابة الصيد الذي يتبعه الصياد، ومفهومها أنّ الصياد بدرجة من الخبرة والقدرة بحيث يصيد البشر سواءً هربوا منه أو لم يهربوا، فلا أحد يستطيع الخلاص من شراكه ومصائده، كما ورد هذا المعنى في القرآن الكريم: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[1].

وجملة «هُوَ أَلْزَمُ لَكُمْ مِنْ ظِلِّكُمْ» إشارة إلى أنّ عوامل الموت تصحب الإنسان دوماً كالظلّ الذي يتحرّك مع الإنسان أينما ولّى، لأنّ للموت عوامل كثيرة في عمق وجود الإنسان، أحدها السكتة القلبية أو انقطاع أحد الأوردة الدقيقة في المخّ، أو دخول مقدار من الغذاء إلى جهاز التنفّس، وكلّ من هذه العوامل يمكن أن يؤديّ بالإنسان إلى الموت، وفي خارج الإنسان هناك عوامل كثيرة للموت أيضاً منها الحوادث الأليمة كالزلازل والصواعق،السيول، الحشرات المضرّة، الحيوانات المفترسة، وما إلى ذلك من الأمور التي تهدّد حياة الإنسان بالخطر فلا يستطيع أن يهرب إلى مكان لا يوجد فيه شيء من هذا العوامل الخارجية والداخلية للموت.

وعبارة «ألزم» ربّما تكون بسبب أنّ الظلّ لا يصاحب الإنسان في ظلمات الليل، ولكن عوامل الموت متوفّرة ليل نهار.

وجملة: «الْمَوْتُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيكُمْ» كناية عن أنّكم لا تملكون أيّة مقاومة في مقابل سلطة الموت القاهرة كما هو حال الشخص الذي أُخذ من شعر مقدّم رأسه بحيث يسلبه ذلك أيّ نوع من الحركة.

ويقرّر القرآن الكريم هذه الحقيقة فيما يتّصل بمصير المجرمين في يوم القيامة ويقول: ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾[2].

☜في مقدم الرأس بحيث يضطر صاحبه للتسليم والاذعان لا الجبين نفسه الذي لا يمكن الامساك والأخذ به، وضمناً فقد وردت عبارة الأخذ بالناصية في كثير من الموارد كناية عن التسلط على الطرف المقابل.

١. سورة النساء، الآية ٧٨.

٢. سورة الرحمن، الآية ٤١.

وجملة: «الدُّنْيَا تُطْوَى مِنْ خَلْفِكُمْ» إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان يتجاوز كلّ مرحلة من مراحل الحياة وكأنّها كالفراش الذي يطوى خلف الإنسان، بحيث يمكن إعادته لحالته السابقة، فالشيوخ لا يعودون إلى مرحلة الشباب، والشباب لا يعودون لمرحلة الطفولة، وعلى ضوء ذلك فإنّ كل لحظة تمثّل للإنسان موتاً وحياةً جديدة، الموت الذي لا يمكن معه العودة إلىٰ الحالة السابقة.

وبعد أن بيّن الإمام عليه السلام ما سيواجهه الإنسان في نهاية الحياة وبعد الموت من حوادث مهولة ومشاكل جسيمة، تحدّث عن عذاب النار والعاقبة الوخيمة لأهل الضلالة في ذلك اليوم، وقال: «فَاحْذَرُوا نَاراً قَعْرُهَا بَعِيدٌ وَحَرُّهَا شَدِيدٌ، وَعَذَابُهَا جَدِيدٌ».

وبالنسبة لعمق وادي جنّهم يكفي أن ننقل هذا الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كان مع أصحابه في المسجد، فجأة سمعوا صوتاً مدوياً، استولى عليهم الخوف، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أتَعْرِفُونَ مَا هٰذِهِ الهدَّة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «حَجَر أُلْقِي مِنْ أعْلىٰ جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعينَ سَنَةٍ، الآنَ وَصَلَ إلىٰ قَعْرِها»[١].

وبالنسبة لشدّة حرارة جهنّم يكفي أن ننقل ما ورد في حديث شريف يقول عليه السلام: «إِنَّ نَارَكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءاً مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ وَقَدْ أُطْفِئَتْ سَبْعِينَ مَرَّةً بِالْمَاءِ ثُمَّ الْتَهَبَتْ وَلَوْ لَا ذَلِكَ مَا اسْتَطَاعَ آدَمِيٌّ أَنْ يُطِيقَهَا»[٢].

وعن أنواع العذاب وشدّته يوم القيامة يتحدّث القرآن الكريم ويقول: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾[٣].

ثم يضيف الإمام عليه السلام في بيان عذاب النار: «دَارٌ لَيْسَ فِيهَا رَحْمَةٌ، وَلَا تُسْمَعُ فِيهَا دَعْوَةٌ وَلَا تُفَرَّجُ فِيهَا كُرْبَةٌ».

---

١. منهاج البراعة، ج ١٩، ص ٨٩ ومثله في المعنى ورد في عوالي اللئالي، ج ١، ص ٢٨٠.

٢. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٢٨٨، ح ٢١.

٣. سورة النساء، الآية ٥٦.

ونقرأ هذا المضمون في القرآن الكريم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْماً مِّنَ الْعَذَابِ... قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾[1].

وفي مورد آخر يقول القرآن الكريم: «﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ﴾[2].

وكذلك في آية أخرى يتحدّث القرآن الكريم عن أمنيات أصحاب النار: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾[3].

ويستفاد من رسالة الإمام عليه السلام هذه، والتي ذكرها بتمامها صاحب نهج البلاغة الكامل أنّ الإمام عليه السلام بعد أن ذكر الظروف الصعبة والعذاب الأليم لأهل النار، تعرّض لذكر بعض النعم الإلهيّة والرحمة الواسعة لأهل الجنّة ولم يذكرها السيد الرضي في نهج البلاغة تبعاً لنهجه في التلخيص والانتقاء.

وفي هذا السياق يتحدّث الإمام عليه السلام بعد أن يذكر العذاب الأليم لأهل النار، عن المواهب والنعم الإلهيّة والنعيم الخالد في الجنّة، وبذلك يقرّر الأصل الإسلاميّ المهمّ في التعاليم الإلهيّة، وهي أن يعيش الإنسان بين حالات الخوف والرجاء، ويقول: «وَإِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ يَشْتَدَّ خَوْفُكُمْ مِنَ اللهِ، وَأَنْ يَحْسُنَ ظَنُّكُمْ بِهِ، فَاجْمَعُوا بَيْنَهُمَا، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِنَّمَا يَكُونُ حُسْنُ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ عَلَىٰ قَدْرِ خَوْفِهِ مِنْ رَبِّهِ، وَإِنَّ أَحْسَنَ النَّاسِ ظَنّاً بِاللهِ أَشَدُّهُمْ خَوْفاً لِلهِ».

فهنا يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة مهمّة في التعاليم الدينية، وهي مسألة الخوف والرجاء وضرورة أن يعيش الإنسان حالة التعادل والتوازن في ذلك، وكما سنرىٰ في بحث التذييل أنّ هذا المفهوم من شأنه أن يخلق في الإنسان حالة من التوازن

---

١. سورة غافر، الآية ٤٩ و ٥٠.

٢. سورة الزخرف، الآية ٧٧.

٣. سورة فاطر، الآية ٣٧.

فلاييأس من رحمة الله عندما يسمع كلام الإمام في وصف جهنّم وما فيها من العذاب الأليم، ولا يعيش حالة الأمن من العذاب عندما يسمع كلام الإمام عليه السلام في وصف النعم والمواهب الإلهيّة لأهل الجنّة.

تأمّل

التعادل بين الخوف والرجاء

يعتبر الرجاء عاملاً أساسياً لتفعيل حركة الإنسان في خطّ الصلاح والسعادة ويعدّ بمثابة المحرّك الذي يدفع الإنسان بهذا الاتّجاه، ويمثّل الخوف عاملاً كابحاً لعناصر الطغيان والانحراف في مسيرة الإنسان ونوازعه النفسية، فكما أنّ وسائل النقل من العجلات والسيارات إذا كانت فاقدة للمحرّك فسوف تمتنع عليها الحركة، وإذا كانت فاقدة للكوابح فسوف يقودها ذلك إلى مهاوي خطيرة وعدم القدرة على تجنّب المطبّات والعوائق، فكلا هذين الأمرين يعدّان أصلان رئيسيان في حركة الإنسان في خطّ الصلاح والفلاح، ولابدّ أن يتوفّر فيهما عنصري التعادل والتوازن بحيث يتحرّك الإنسان في خط الطاعة والإيمان من جهة ويتجنّب المعاصي والذنوب من جهة أخرى.

إنّ أهمية هذين العاملين في وجود الإنسان وفي حياته تتجلّىٰ بوضوح عندما نقرأ في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يتحدّث فيه عن وصايا لقمان عليه السلام ويذكر منها أموراً عجيبة ونصائح قيّمة، يقول الحارث بن المغيرة، عن أبيه، عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت له: ما كان في وصيّة لقمان؟ قال: كان فيها الأعاجيب، وكان وأعجب ما كان فيها أن قال لابنه: «خَفِ اللهَ عزَّ وجَلّ خِيفَةً لو جِئْتَهُ بِبِرِّ الثَّقَلَينِ لَعَذَّبَكَ، وَارْجُ اللهَ رَجاءً لَوْ جِئْتَهُ بِذُنوبِ الثَّقَلَينِ لَرَحِمَكَ»، ثم قال أبوعبدالله عليه السلام: كان أبي (يعني الإمام الباقر عليه السلام) يقول: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُورَانِ: نُورُ خِيفَةٍ وَنُورُ رَجَاءٍ، لَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا وَلَوْ وُزِنَ هَذَا لَمْ يَزِدْ عَلَى هَذَا»[١].

١. الكافي، ج ٢، ص ٦٧، باب الخوف والرجاء، ح ١.

يقول ابن أبي‌الحديد بعد شرحه لكلام الإمام عليه السلام المذكور آنفاً: إنّ علياً عليه السلام أمر محمّد بن أبي بكر أن يجمع بين حسن الظنّ بالله والخوف منه، وأنّ هذا المقام السامي هو مقام لا يناله إلّا الصالحون والأبرار، وينقل حديثاً عن الإمام عليّ بن الحسين عليه السلام يقول: «لَوْ أَنْزَلَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ كِتاباً أَنّه مُعَذِّبٌ رَجُلاً واحِداً لَرَجَوْتُ اَنْ اَكُونَهُ اَوْ اَنَّهُ راحِمٌ رَجُلاً واحِداً لَرَجَوْتُ اَنْ أَكُونَهُ»[1].

وهذه الكلمات تشير بوضوح إلى أنّ عدم التواصل وعدم التعادل بين حالات الخوف والرجاء في واقع الإنسان يتسبّب في تكريس حالات الغرور في الإنسان والاغترار بسعة رحمة الله أو يقوده إلى اليأس من رحمة الله، وهذا بدوره يعدّ مانعاً يعيق الإنسان عن الحركة في خطّ الطاعة والعبودية.

---

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٦٧.

القسم الرابع

وَاعْلَمْ -يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ- أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ، فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ أَنْ تُخَالِفَ عَلَىٰ نَفْسِكَ، وَأَنْ تُنَافِحَ عَنْ دِينِكَ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ، وَلَا تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ. صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ. وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ.

الشرح والتفسير

المهمّة الثقيلة

يتحدّث الإمامعليه السلام، في هذا المقطع من الرسالة مخاطباً محمّد بن أبي بكر، عن أربع توصيات مهمّة، في البداية يستعرض الإمامعليه السلام مقدّمة.ويقول: «**وَاعْلَمْ - يَا مُحَمَّدُ بْنَ أَبِي بَكْرٍ - أَنِّي قَدْ وَلَّيْتُكَ أَعْظَمَ أَجْنَادِي فِي نَفْسِي أَهْلَ مِصْرَ**».

«أجناد» جمع «جُند» وفي الأصل تعني الجيش، ولكن أحياناً تطلق على المناطق في البلد الإسلامي، أو على أهالي تلك المناطق، وعلى أيّة حال فإنّ هذه العبارة تشير بوضوح إلى أنّ الإمامعليه السلام كان ينظر إلى أهل مصر بعين الإحترام ويرى أنّهم من أكبر شعوب الأُمّة الإسلاميّة، لأنّ مصر أرض كبيرة وتاريخية وتملك حضارة قديمة ويعيش فيها أُناس واعون وأذكياء وكادحين.

ثمّ يبيّن الإمامعليه السلام أوّل وأهمّ توصية له، ويقول: «**فَأَنْتَ مَحْقُوقٌ**[1] **أَنْ تُخَالِفَ عَلَى**

---

1. «محقوق» من مادة «حق» تعني في هذا المورد الجدير واللائق.

نَفْسِكَ»، أي أنّ المفروض بك أن تجاهد نفسك وتخالف هواك.

وجهاد النفس فرض على الجميع، ولكنّه أكثر وأشدّ لزوماً على الولاة والقادة ومن بيدهم القرار، لأنّ هؤلاء يعيشون دوماً الوساوس النفسانية والشيطانية، فلو أنّهم غلبوا في هذا المجال وسيطرت عليهم الأهواء والشهوات فإنّ ذلك من شأنه إشاعة الظلم والفساد في المناطق التي تحت إمرتهم وولايتهم.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام التوصية الثانية ويقول: «**وَأَنْ تُنَافِحَ**[1] **عَنْ دِينِكَ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لَكَ إِلَّا سَاعَةٌ مِنَ الدَّهْرِ**».

وبديهيّ أنّ الإنسان المؤمن ينبغي أن يتحرّك بعد الجهاد الأكبر، وهو جهاد النفس، في طريق الجهاد الأصغر والتصديّ لقوى الكفر وأعداء الأُمّة لحفظ الدين وصيانة المقدّسات والمنافحة عن التعاليم السماوية، وفي هذا الأمر يؤكّد الإمام عليه السلام على أنّه لو لم تكن لدى الإنسان سوى ساعة من عمره أو من تواجده في سدّة الحكم، فينبغي أن لا يكفّ عن الدفاع عن الدّين، ولا يبخل في بذل الغالي والنفيس في هذا السبيل.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام التوصية الثالثة ويقول: «**وَلَا تُسْخِطِ اللهَ بِرِضَىٰ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّ فِي اللهِ خَلَفاً مِنْ غَيْرِهِ، وَلَيْسَ مِنَ اللهِ خَلَفٌ فِي غَيْرِهِ**».

فأحياناً يجد الإنسان نفسه بين طريقين، فطريق يتوجّه به إلى الله تعالى وكسب رضاه، وطريق آخر يقوده لتحقيق رضا الناس، وفي هذا الطريق يطلب منه الناس أموراً أكثر من حقّهم، وهنا يتميّز المؤمنون الخلّص من غير المؤمنين، فالمؤمنون يتحرّكون دوماً في خطّ الطاعة وطلب رضا الله تعالى، لأنّهم يعلمون أنّ نيل رضا الله ورعايته من شأنه أن يمنحهم القوّة والحيوية ويمنع عنهم أيّ ضرر ولا يستطيع أيّ شخص أن يلحق بهم الإساءة، في حين أنّ السعي لكسب رضا بعض المتزلفين

---

١. «تنافح» من «المنافحة» بمعنى الدفاع عن الشيء، وأصله من «نفح» على وزن «فتح» التي تأتي دائماً بمعنى النسيم الملائم والرائحة العطرة، وأحياناً أخرى بمعنى دفع الشيء، وجاءت «منافحة» بهذا المعنى.

والمتملّقين، والإعراض عن رضا الله تعالى، سيجعلهم مكشوفين أمام البلايا وغير قادرين على الدفاع عن أنفسهم.

إنّ ما ذكره الإمام عليه السلام في توصيته الثالثة لمحمّد بن أبي بكر، ورد أيضاً في رواية أخرى بوصفه أحد علامات الإيمان الخالص، فقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «مِنْ صِحَّةِ يَقِينِ الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ أَنْ لَا يُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ»[1].

والتجربة أثبتت أنّ من يسلك هذا الطريق ويرجّح رضا المخلوق على حساب رضا الخالق سيُحرم رضا الخالق ورضا المخلوق أيضاً، وأمّا من يتحرّك في طريق نيل رضا الله تعالى، فربّما يتسبّب أحياناً في غضب البعض وسخطهم عليه، ولكنّه في النهاية سيحصل على رضا الله ورضا المخلوق أيضاً.

والأهمّ من ذلك ما ورد في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ طَلَبَ رِضَا مَخْلُوقٍ بِسَخَطِ الْخَالِقِ سَلَّطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ ذَلِكَ الْمَخْلُوقَ»[2].

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام للتوصية الرابعة لمحمّد بن أبي بكر في مسألة الصلاة والتي تعتبر أهمّ ركن من أركان الإسلام، يقول: «صَلِّ الصَّلَاةَ لِوَقْتِهَا الْمُؤَقَّتِ لَهَا، وَلَا تُعَجِّلْ وَقْتَهَا لِفَرَاغٍ، وَلَا تُؤَخِّرْهَا عَنْ وَقْتِهَا لِاشْتِغَالٍ اعْلَمْ أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِنْ عَمَلِكَ تَبَعٌ لِصَلَاتِكَ».

وذكر الكثير من شرّاح نهج البلاغة أنّ الإمام عليه السلام في هذه التوصية بالصلاة، ناظر إلى عدم التعجيل بالصلاة قبل وقتها، مثلاً يصلّي صلاة الظهر قبل الزوال ويصلّي صلاة الصبح قبل طلوع الفجر، بسبب ما يجده من فراغ في الوقت، ولكن مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ من النادر أن نرى أو نسمع شخصاً يصلّي صلاة الظهر قبل وقتها أو يصلّي صلاة الصبح قبل الفجر، لأنّ هذا المعنى مرفوض وغير مقبول من قِبل جميع الأفراد، فلا معنى لأن يصلّي المكلّف الصلاة قبل وقتها وهو يعلم ببطلانها، ولذلك

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٥٧، ح ٢.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ١٥٦، ح ١٣٢.

يوجد هناك احتمال آخر في تفسير هذه العبارة، وهو أنّ كلام الإمامعليه السلام ناظر إلى أوّل الوقت وآخر الوقت، فيقول: إنّك لا تكن كالشخص الذي يصليّ أوّل الوقت بسبب الفراغ، وإن كان مشغولاً في عمل معيّن يؤجّل صلاته لوقت آخر، بل عليك بأن تقيم الصلاة لوقتها على كلّ حال وتترك عملك من أجل الصلاة.

وهذا في الواقع إشارة إلى ما هو متداول من الشعار المعروف، وهو أنّ الإنسان لا ينبغي أن يقول لصلاته أنني مشغول بعمل، بل يقول لعمله إنني مشغول بالصلاة.

وبديهيّ أنّ الإلتزام بالصلاة في أوّل وقتها من شأنه أن يمنح الروح طراوة ونورانية وأنّ نجاحه في أعماله الأخرى يعود إلى إتيانه بالصلاة في وقتها حيث تضفي هذه الصلاة بركاتها على حياة المرء وفكره وروحه.

جاء في حديث عن الإمام الباقرعليه السلام أنّه يقول: «**إِنَّ الصَّلَاةَ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيْضَاءُ مُشْرِقَةٌ تَقُولُ حَفِظْتَنِي حَفِظَكَ اللهُ وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا بِغَيْرِ حُدُودِهَا رَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللهُ**»[1].

وجملة: «وَاعْلَمْ...»، كما أشرنا إلى ذلك آنفاً يحتمل فيها معنيان، أحدهما: أنّ جميع أعمال الإنسان في الدنيا تبع لصلاته، فإن أدى الصلاة بشرائطها، فإنّ بركة هذه الصلاة ستمتدّ لتشمل سائر أعماله وحياته، والآخر: أنّ آثار هذه الصلاة ستتجلّى في الآخرة، كما ورد في الروايات: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ الصَّلَاةُ فَإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ مَا سِوَاهَا**»[2].

ﮰﮯ

---

١. الكافي، ج ٣، ص ٢٦٨، باب من حافظ على صلاته، ح ٤.

٢. المصدر السابق.

القسم الخامس

وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَا سَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَىٰ وَإِمَامُ الرَّدَىٰ وَوَلِيُّ النبيّ، وَعَدُوُّ النبيّ. لَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ اللهُ بِشِرْكِهِ. لَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ.

الشرح والتفسير

الخوف على الأمّة من فئة معينة

وفي آخر مقطع من هذه الرسالة، طبقاً لما أورده السيّد الرضيّ وما يستفاد من كلمة «منه»، أنّ ما ورد من كلام الإمام عليه السلام نهج البلاغة في لا يمثّل جميع كلامه وتمام رسالته، بل يمثّل مقطعاً منها، والإمام يلفت النظر في هذا المقطع إلى هذه الحقيقة الحاسمة والرئيسية ويقول: «وَمِنْهُ: فَإِنَّهُ لَا سَوَاءَ، إِمَامُ الْهُدَىٰ وَإِمَامُ الرَّدَىٰ[1] وَوَلِيُّ النبيّ، وَعَدُوُّ النبيّ».

ومن المعلوم أنّ التعبير بـ«إِمَامُ الْهُدَى» في هذه العبارة إشارة إلى نفسه الشريفة، وكلمة بـ«إِمَامُ الرَّدَى» إشارة إلى معاوية الذي رفع لواء المخالفة والتمرّد خلافاً لأمر النبيّ الأكرم ﷺ وإرادة جميع المسلمين، وخاض غمار حروب دامية أدّت إلى سفك دماء المسلمين.

ومفردة «إمام» يراد بها في الغالب إمام الحقّ، ولكن أحياناً تستعمل في قادة الضلالة والباطل، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

---

١. «الردى» من مادة «ردى» على وزن «رأى» بمعنى الهلكة أو السقوط من مرتفع، المقترن مع الهلكة.

النَّارِ»[١]، أي الفراعنة.

والشاهد على أنّ المراد من كلمة «إِمَامُ الرَّدَى» معاوية، فمضافاً إلى القرائن الحالية، هناك شواهد مذكورة في موارد أخرى من هذه الرسالة لم ينقلها السيّد الرضيّ، وطبقاً لما ورد في هذ الرسالة المذكورة في كتاب نهج البلاغة الكامل، يقول الإمام عليه السلام: «إِيّاكُمْ وَدَعْوَةُ الْكَذّابِ ابْنِ هِنْد».

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستند في كلامه هذا إلى حديث عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «وَلَقَدْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: إِنِّي لَا أَخَافُ عَلَىٰ أُمَّتِي مُؤْمِناً وَلَا مُشْرِكاً؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَمْنَعُهُ اللهُ بِإِيمَانِهِ، وَأَمَّا الْمُشْرِكُ فَيَقْمَعُهُ[٢] اللهُ بِشِرْكِهِ. وَلَكِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ[٣]، عَالِمِ اللِّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ، وَيَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ».

وهذه هي الحقيقة، فالمؤمنون الحقيقيون يمثّلون درعاً واقية للإسلام والأمّة الإسلاميّة، والمشركون يمثّلون خطّ الباطل والضلالة، الذين عرفهم الناس بالانحراف وابتعدوا عنهم، فلو أنّ هؤلاء المشركين أرادوا التآمر على الإسلام، فالمؤمنون سيتصدّون لهم بإذن الله ويقمعونهم، ولكنّ المشكلة الكبيرة التي يبتلى بها المجتمع الإسلاميّ وكل مجتمع بشريّ تتمثّل في الأعداء الذين يرتدون لباس الصداقة والمحبّة ويتظاهرون بتقديم الخدمة للآخرين، هؤلاء هم الانتهازيون والمنافقون الذين أظهروا للناس وجهاً جميلاً وأخفوا الوجه القبيح في باطنهم وتستّروا بقناع الخير والصلاح، وبذلك تسنّى لهم النفوذ في صفوف المسلمين والاطّلاع على أسرارهم، وأتاح لهم ذلك أن يسدّدوا ضربتهم متى وجدوا الفرصة سانحة بالتمسّك بالآيات الإلهيّة وسنّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله في الظاهر والكلام، ولكنّهم

---

١. سورة القصص، الآية ٤١.

٢. «يقمع» من مادة «قمع» على وزن «منع» بمعنى التغلب على الطرف المقابل وإذلاله وكبته.

٣. «جَنان» بفتح الجيم تعني القلب، و«جِنان» جمع «جنة» بمعنى البستان والزاهر والحديقة الغناء، وكلّها تعود في الأصل لكلمة «جن» على وزن «فن» بمعنى المغطى والمختفي، وبما أنّ القلب يختفي في باطن الصدر، وأرض بستان تختفي تحت الأشجار الباسقة فاطلقت هذه الكلمة على هذه الموارد.

على مستوى العمل يتحرّكون خلاف هذه التعاليم السماوية.

والمصداق البارز لهذا الكلام في ذلك الزمان هو معاوية وأعوانه الذين رفعوا لواء المطالبة بدم عثمان الذي يعدّ خليفة النبيّ الأكرمﷺ، وفي حال الاضطرار رفعوا المصاحف فوق الرماح، هؤلاء كانوا يقيمون الصلاة ويتحدّثون في خطب صلاة الجمعة بكلام معسول وموافق نصوص الكتاب والسنّة، ولكنّهم في ذات الوقت يعملون على إضعاف عقيدة الناس بإمام الهدى المنصوب من قبل الله تعالى، ومن قبل المسلمين، ولا يتركون أيّ وسيلة إلّا واستخدموها في تحقيق مآربهم وأغراضهم الذاتية من قتل الأبرياء ونهب أموال المسلمين والإغارة على المناطق الحدودية للعراق، وباستخدامهم لهذا الاسلوب استطاعوا أخيراً أن يصلوا إلىٰ سدّة الحكم ويجلسوا مجلس رسول اللهﷺ ويتحدّثوا بخلاف ما أنزل الله تعالى من تعاليم وأحكام.

تأمّلان

١. خطر المنافقين

يتحدّث الإمامعليه السلام في هذه الرسالة عن وجود خطر مهمّ يهدّد محمّد بن أبي بكر وأهالي مصر، بل جميع شعوب وأقوام المجتمع الإسلامي، أي خطر المنافقين، ويقسّم الناس إلى ثلاث طوائف: المؤمنين، المشركين والمنافقين، ثمّ يقول: إنّ المؤمنين لا يشكّلون أيّ خطر للمجتمع الإسلامي لأنّ إيمانهم يمنعهم من أي عمل يثير الخلل ويورث الضرر بالإسلام والمسلمين، أمّا المشركون المعاندون الذين يتحرّكون في خطّ التآمر والحرب ضدّ المجتمع الإسلامي، فخطر هؤلاء ليس بالمقدار المهم، ويمكن التصدّي لهم لإنّهم معروفون، والمؤمنون يأخذون حذرهم من حركات هؤلاء ويتصدّون لتآمرهم ويدفعون الخطر بذلك عن الأُمّة، ولكنّ المشكلة العسيرة تتمثّل في المنافقين الذين يعيشون في الوسط الديني ويخالفون

المؤمنين ويتظاهرون بالتديّن إلّا أنّهم يخفون سيوفهم تحت ثيابهم كما في المثل، فيتحدّثون بحديث يجذب قلوب المؤمنين وأفكارهم وعواطفهم فيظنّون أنّ هؤلاء المنافقين منهم وعلى ملّتهم، ولكنّهم في اللحظات الحساسة وعندما تسنح الفرصة يقومون بإلقاء سمومهم وتسديد ضربة للإسلام والمسلمين.

وعلى رغم أنّهم يكتمون نفاقهم ويتحرّكون في خطّ التخريب والتآمر بشكل خفيّ، فإنّ معرفتهم وتشخيصهم ليست بالأمر العسير، فالقرآن الكريم ذكر علامات عديدة لمعرفة أهل النفاق في سورة البقرة وسورة المنافقون وبإمكان المؤمنين التعرّف عليهم واجتناب خطرهم ودسائسهم.

وقد تقدّمت بحوث مفصّلة عن جذور النفاق وطريقة عمل المنافقين على امتداد التاريخ، والأخطار التي تشكّلها هذه الفئة على الأُمّة الإسلاميّة، في الخطبة ١٩٤ (الجزء السابع من ص ٦٠٦ إلى ٦١٩) وكذلك في ذيل الخطبة ٢١٠.

٢. رسالة غريبة من المعتضد العباسي

من غرائب العصر العبّاسيّ أنّ المعتضد العباسيّ أرسل رسالة إلى جميع الأقضية والنواحي، وقد ذكرها المؤرّخ المعروف الطبري في تاريخه في حوادث سنة ٢٨٤ وأشار إليها ابن الأثير في تاريخه الكامل (مع بعض الاختلاف في التعبير) وبدورنا نقلها من شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد الذي استعرضها بشكل مختصر.

يقول ابن أبي‌الحديد في الجزء ١٥ من شرح نهج‌البلاغة في ذيل هذه الرسالة أنّ الإمام عليه السلام كتب هذه الرسالة لمحمّد بن أبي بكر، ويقول الطبري: وفي (سنة ٢٨٤) عزم المعتضد على لعن معاوية بن أبي سفيان على المنابر، وأمر بإنشاء كتاب يقرأ على الناس، فخوّفه عبيد الله بن سليمان (وزيره) اضطراب العامّة، وأنّه لا يأمن أن تكون فتنة، فلم يلتفت إليه، فكان أوّل شيء بدأ به المعتضد من ذلك الأمر بالتقدّم إلى العامّة بلزوم أعمالهم، وترك الاجتماع والعصبية، والشهادات عند السلطان إلّا أن

يسألوا، ومنع القُصّاص عن القعود على الطرقات، وأنشىء هذا الكتاب وعملت به نسخ قرئت في الجانبين من مدينة السلام في الأرباع والمحالّ والأسواق، يوم الأربعاء لستٍ بقين من جمادي الأُولى من هذه السنة، ثمّ منع يوم الجمعة لأربع بقين منه، ومنع القصّاص من القعود في الجانبين، ومنع أهل الحلق من القعود في المسجدين، ونودي في المسجد الجامع بنهي الناس عن الاجتماع وغيره، وبمنع القصّاص وأهل الحلق والقعود، ونودي:

إنّ الذمّة قد برئت ممّن اجتمع من الناس في مناظرة أو جدال، وتقدّم إلى الشراب الذين يسقون الماء في الجامعين ألاّ يترحّموا على معاوية، ولا يذكروه، وكانت عادتهم جارية بالترّحم عليه.

وتحدّث الناس أنّ الكتاب الذي قد أمر المعتضد بإنشائه بلعن معاوية يقرأ بعد صلاة الجمعة على المنبر، فلمّا صلّى الناس بادروا إلى المقصورة ليسمعوا قراءة الكتاب، فلم يقرأ.

قيل: إنّ عبيدالله بن سليمان صرفه عن قراءته، وإنّه أحضر يوسف بن يعقوب القاضي، وأمره أن يعمل الحيلة في إبطال ما عزم المعتضد عليه، فمضى يوسف فكلّم المعتضد في ذلك، وقال له: إنّي أخاف أن تضطرب العامّة، ويكون منها عند سماعها هذا الكتاب حركة، فقال المعتضد: إن تحركّت العامّة أو نطقت، وضعت السيف فيهم، فقال: ياأميرالمؤمنين، فما تصنع بالطالبيين الذين يخرجون في كلّ ناحية، ويميل إليهم خلق كبير، لقربهم من رسول الله ﷺ، ومافي هذا الكتاب من إطرائهم ـ أو كما قال ـ وإذا سمع الناس هذا كانوا إليهم أميل، وكانوا هم أبسط ألسنة، وأثبت حجّة منهم اليوم، فأمسك المعتضد فلم يرد إليه جواباً، ولم يأمر بعد ذلك في الكتاب بشيء، وكان من جملة الكتاب بعد أن قدّم حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله ﷺ:

أما بعد، فقد انتهى إلى أميرالمؤمنين ما عليه جماعة العامّة من شبهة قد دخلتهم

في أديانهم، وفساد قد لحقهم في معتقدهم، وعصبية قد غلبت عليها أهواؤهم، ونطقت بها ألسنتهم، على غير معرفة ولا رويّة، قد قلّدوا فيها قادة الضلالة بلا بيّنة ولا بصيرة، وخالفوا السنن المتّبعة، إلى الأهواء المبتدعة، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[1]. خروجاً على الجماعة، ومسارعة إلى الفتنة، وإيثاراً للفرقة، وتشتيتاً للكلمة، وإظهاراً لموالاة من قطع الله عنه الموالاة، وبتر منه العصمة، وأخرجه من الملّة، وأُوجبت عليه اللعنة، وتعظيماً لم صغّر الله حقّه، وأوهن أمره، وأضعف ركنه، من بني أُميّة، الشجرة الملعونة، ومخالفة لمن استنقذهم الله من الهلكة، وأسبغ عليهم النعمة من أهل بيت البركة والرحمة ﴿وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[2].

فأعظم أميرالمؤمنين ما انتهى إليه من ذلك، ورأى ترك إنكاره حرجاً عليه في الدين، وفساداً لمن قلّده الله أمره من المسلمين، وإهمالاً لما أوجبه الله عليه من تقويم المخالفين، وتبصير الجاهلين، وإقامة الحجّة على الشاكّين، وبسط اليد على المعاندين، وأميرالمؤمنين يخبركم معاشر المسلمين، أنّ الله جلّ ثناؤه لمّا ابتعث محمّداً صلّى الله عليه وآله بدينه، وأمره أن يصدع بأمره، بدأ بأهله وعشيرته فدعاهم إلىٰ ربّه، وأنذرهم وبشّرهم، ونصح لهم وأرشدهم، فكان من استجاب له، وصدّق قوله، واتّبع أمره نفر يسير من بني أبيه، من بين مؤمن بما أتى به من ربّه، وناصر لكلمته وإن لم يتبع دينه إعزازاً له، وإشفاقاً عليه، فمؤمنهم مجاهد ببصيرته، وكافرهم مجاهد بنصرته وحميّته، يدفعون من نابذه، ويقهرون من عازّه وعانده، ويتوثّقون له ممّن كانفه وعاضده، ويبايعون من سمح بنصرته، ويتجسّسون أخبار أعدائه، ويكيدون له بظهر الغيب كما يكيدون له برأي العين، حتّى بلغ المدى، وحان وقت الاهتداء، فدخلوا في دين الله وطاعته وتصديق رسوله والإيمان به بأثبت بصيرة، وأحسن

---

١. سورة القصص، الآية ٥٠.

٢. سورة البقرة، الآية ١٠٥.

هدى ورغبة، فجعلهم الله أهل بيت الرحمة، وأهل بيت الدين، أذهب عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، معدن الحكمة، وورثة النبوّة، وموضع الخلافة، أوجب لهم الفضيلة، وألزم العباد لهم الطاعة، وكان ممّن عانده وكذّبه وحاربه من عشيرته العدد الكثير والسواد الأعظم، يتلقّونه بالضرر والتثريب، ويقصدونه بالأذى والتخويف، وينابذونه بالعداوة، وينصبون له المحاربة، ويصدّون من قصده، وينالون بالتعذيب من اتّبعه، وكان أشدّهم في ذلك عداوة، وأعظمهم له مخالفة، أوّلهم في كلّ حرب ومناصبة، ورأسهم في كلّ إجلاب وفتنة، ولا يرفع على الإسلام راية إلّا كان صاحبها وقائدها ورئيسها أباسفيان بن حرب صاحب أحد والخندق وغيرهما، وأشياعه من بني أُميّة الملعونين في كتاب الله، ثمّ الملعونين على لسان رسول الله ﷺ في مواطن عدّة، لسابق علم الله فيهم، وماضي حُكمه في أمرهم، وكفرهم ونفاقهم، فلم يزل لعنه الله يحارب مجاهداً، ويدافع مكايداً، ويجلب منابذاً، حتى قهر السيف، وعلا أمر الله وهم كارهون، فتعوّذ بالإسلام غير منطوٍ عليه، وأسرّ الكفر غير مقلع عنه، فقبله وقبل ولده على علمٍ منه بحاله وحالهم، ثمّ أنزل الله تعالى كتاباً فيما أنزله على رسوله يذكر فيه شأنهم، وهو قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾[1]، ولا خلاف بين أحد في أنّه تبارك وتعالى أراد بها بني أُمية.

وممّا ورد من ذلك في السنّة، ورواه ثقات الأُمّة، قول رسول الله ﷺ فيه وقد رآه مقبلاً على حمار ومعاوية يقوده ويزيد يسوقه، فقال ﷺ: «لَعَنَ اللهُ الرَّاكِبَ وَالْقَائِدَ وَالسَّائِق».

ومنه ما روته الرواة عنه من قوله يوم بيعة عثمان: «تَلَقَّفُوهَا يَا بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ تَلَقُّفَ الْكُرَةِ فَوَ اللهِ مَا مِنْ جَنَّةٍ وَلَا نَار» وهذا كفر صُراح يلحقه اللعنة من الله كما لحقت الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون.

---

١. سورة الاسراء، الآية ٦٠.

ومنه ما يُروى من وقوفه على ثنيّة أُحد من بعد ذهاب بصره وقوله لقائده، هاهنا رمينا محمداً وقتلنا أصحابه.

ومنها الكلمة التي قالها للعبّاس قبل الفتح وقد عرضت عليه الجنود: «أصبح ملك ابن أخيك عظيماً» فقال العباس: ويحك، إنّه ليس بملك، إنّها النبوّة.

ومنها قوله يوم الفتح (فتح مكة) وقد رأى بلالاً على ظهر الكعبة يؤذّن ويقول: «أشْهَد أنّ مُحَمّداً رَسُولُ الله»؛ فقال أبو سفيان: لقد أسعد الله عتبة بن ربيعة إذ لم يشهد هذا المشهد.

ومنه الرؤيا التي رآها رسول اللهﷺ فوجم لها: قالوا: ما رئي بعدها ضاحكاً، رأى نفراً من بني أُميّة ينزون على منبره نزوة القردة.

ومنها طرد رسول اللهﷺ الحكم بن أبي العاص لمحاكاته إيّاه في مشيته، وألحقه الله بدعوة رسول اللهﷺ آفة باقية حين التفت إليه فرآه يتخلج يحكيه، فقال: «كُن كَما أنتَ»، فبقي على ذلك سائر عمره.

وهذا إلى ما كان من مروان ابنه في افتتاحه أوّل فتنة كانت في الإسلام، واحتقابه كلّ دم حرام سُفك فيما قبلها أو أُريق بعدها.

ومنها ما أنزله الله تعالى على نبيهﷺ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[1]، قالوا: ملك بني أُميّة.

ومنها أنّ رسول اللهﷺ قال: «يَطلعُ مِنْ هذا الفَجّ رَجلٌ مِن أُمّتي يُحشرُ علىٰ غيرِ مِلّتي»، فطلع معاوية.

ومنها أنّ رسول اللهﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمْ مُعَاوِيَةَ يَخْطُبُ عَلَىٰ مِنْبَرِي فَاقْتُلُوه» وذكر في هذا الكتاب روايات قاصمة على معاوية الواردة في الكتب التاريخية المشهورة.

ومنها افتراؤه بالمحاربة لأفضل المسلمين في الإسلام مكاناً، وأقدمهم إليه سبقاً،

١. سورة القدر، الآية ٣.

وأحسنهم فيه أثراً وذكراً، عليّ بن أبي طالب، ينازعه حقّه بباطله، ويجاهد أنصاره بضلالة أعوانه، ويحاول ما لم يزل هو وأبوه يحاولانه من إطفاء نور الله، وجحود دينه ﴿وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾[1]، ويستهوي أهل الجهالة، ويموّه لأهل الغباوة بمكره وبغيه اللذين قدّم رسول الله ﷺ الخبر عنهما، فقال لعمار بن ياسر: «تَقتُلُكَ الفِئةُ الباغِيةُ، تَدعُوهُم إلى الجَنَّةِ وَيَدْعُونَك إلىٰ النّارِ»، مؤثراً للعاجلة، وكافراً بالآجلة، خارجاً من ربقة الإسلام، مستحلّاً للدم الحرام، حتّى سفك في فتنته، وعلى سبيل غوايته وضلالته ما لا يحصى عدده من أخيار المسلمين، الذّابين عن دين الله، والناصرين لحقّه، مجاهداً في عداوة الله، مجتهداً في أن يعصى الله فلا يُطاع، وتُبطل أحكامه فلا تقام، ويخالف دينه، فلابدّ أن تعلو كلمة الضلال وترتفع دعوة الباطل، وكلمة الله هي العليا، ودينه المنصور، وحكمه النافذ، وأمره الغالب وكيد من عاداه وحادّه المغلوب الداحض، حتّى احتمل أوزار تلك الحروب وما تبعها، وتطوّق تلك الدماء وما سفك بعدها، وسنّ سنن الفساد التي عليه إثمها وإثم من عمل بها، وأباح المحارم لمن ارتكبها، ومنع الحقوق أهلها، وغرّته الآمال، واستدرجه الإمهال.

وكان ممّا أوجب الله عليه به اللعنة قتله من قتل صبراً، من خيار الصحابة والتابعين، وأهل الفضل والدين، مثل عمرو بن الحمق الخزاعيّ، وحجر بن عديّ الكنديّ، وفيمن قتل من أمثالهم، على أن تكون له العزّة والملك والغلبة، ثمّ ادّعاؤه زياد بن سميّة أخاً، ونسبته إيّاه والله تعالى يقول: ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ...﴾[2]، ورسول الله ﷺ يقول: «مَلْعُونٌ مَن ادَّعىٰ إلى غيرِ أبيهُ أو انْتَمىٰ إلى غَيرِ مَوالِيه»، وقال ﷺ: «الْوَلَدُ لِلفِرَاشِ ولِلعَاهِرِ الحَجَر»، فخالف حكم الله تعالى ورسوله جهاراً، وجعل الولد لغير الفراش و الحجر لغير العاهر، فأحلّ بهذه الدعوة

---

١. سورة التوبة، الآية ٣٢.

٢. سورة الأحزاب، الآية ٥.

من محارم الله ورسوله....

ومن ذلك إيثاره لخلافة الله على عباده ابنه يزيد السكّير والخمير صاحب الديكة والفهود والقردة، وأخذ البيعة له من خيار المسلمين بالقهر والسطوة والتوعّد والإخافة، والتهديد والرهبة، وهو يعلم سفهه، ويطّلع على رهقه وخبثه، ويعاين سكراته وفعلاته، وفجوره وكفره، فلما تمكّن ـ قاتله الله ـ فيما تمكّن منه، طلب بثارات المشركين وطوائلهم عند المسلمين، فأوقع بأهل المدينة في وقعة الحرّة، الوقعة التي لم يكن في الإسلام أشنع منها ولا أفحش، فشفى عند نفسه غليله، وظنّ أنّه قد انتقم من أولياء الله، وبلغ الثأر لأعداء الله، فقال مجاهراً بكفره ومظهراً لشركه:

لَيتَ أَشْيَاخِي بِبَدْرٍ شَهِدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ مِنْ وَقْعِ الأَسَل[1]

ثمّ أغلظ ما انتهك، وأعظم ما اجترم، سفكه دم الحسين بن عليّ عليه السلام، مع موقعه من رسول الله ﷺ ومكانته ومنزلته من الدين والفضل والشهادة له ولأخيه بسيادة شباب أهل الجنّة، اجتراءً على الله، وكفر بدينه، وعداوة لرسوله، ومجاهرة لعترته، واستهانة لحرمته، كأنّما يقتل منه ومن أهل بيته قوماً من كفرة الترك والديلم، ولا يخاف من الله نقمة، ولا يراقب منه سطوة، فبتر الله عمره، وأخبث أصله وفرعه، وسلبه ما تحت يده، وأعدّ له من عذابه وعقوبته ما استحقّه من الله بمعصيته....

ثمّ أضاف: أيّها الناس، إنّما أمر ليطاع، ومثل ليتمثّل، وحكم ليفعل، قال الله سبحانه وتعالى: «إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيراً»[2] وقال: «أُولٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ

---

١. هذا الشعر لـ«عبدالله بن زبعراء» الذي كان من ألد أعداء رسول الله ﷺ وأنشد هذا الشعر مع أشعار أخرى يوم أحد بعد استشهاد طائفة من المسلمين من قبيلة الخزرج، وقد أنشده يزيد في حادثة كربلاء، ومقصوده أنّ بني أمية ليتهم كانوا أحياء ليسمعوا بكاء وعويل أهل البيت وذراري الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه.

وقد نقل الطبري في تاريخه أبياتاً أخرى ليزيد في رسالة المعتضد العباسي رغم أنّ ابن أبي الحديد حذف منه بعض الأبيات منها:

فَأَهَلّوا وَاسْتَهَلّوا فَرَحاً ثُمَّ قالُوا يا يَزيدُ لا تُشَلْ

لَعِبَتْ هاشِمُ بِالْمُلْكِ فَلا خَبَرٌ جاءَ وَلا وَحْيٌ نَزَلْ

٢. سورة الأحزاب، الآية ٦٤.

وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾[1]، فالعنوا أيّها الناس من لعنه الله ورسوله، وفارقوا من لا تنالون القربة من الله إلّا بمفارقته اللَّهُمَّ الْعَنْ أباسُفْيانَ بْنَ حَرْبِ بْنَ أُمَيَّةَ، وَمُعَاوِيَةَ بْنَ أبي سُفْيانَ، وَيَزِيدَ بْنَ مُعاوِيةَ، وَمَرْوانَ بْنَ الحَكَمِ وَوِلْدَهُ وَوِلْدَ وُلْدِه! اللَّهُمَّ الْعَنْ أَئِـمَّةَ الْكُفْرِ وَقَادَةَ الضَّلَالِ وَأَعْدَاءَ الدِّينِ مُجَاهِدِي الرَّسُولِ وَمُعَطِّلِي الأَحْكَامِ وَمُـبَدِّلِي الْكِتَابِ وَمُنْتَهِكِي الدَّمِ الْحَرَامِ».

إلى قوله: ولا قوّة الا بالله العليّ العظيم»[2].

ما ورد أعلاه يمثّل جانباً من الكتاب المطوّل الذي كتبه «المعتضد العبّاسيّ»، وجاء هذا الكتاب في المصادر الإسلاميّة والتاريخية المعروفة.

وبديهي أنّ نقل رسالة المعتضد بالله العباسيّ لا تعني تأييد جميع أعماله في أيّام خلافته.

ونرى من اللازم الإشارة إلى هذه النقطة، وهي أنّ مخالفة وزير المعتضد «عبيدالله بن سليمان» لنشر هذه الرسالة كان بسبب انحرافه عن عليّ وآله عليهم السلام فإنّ المؤرّخين ذكروا عنه في ترجمة حياته: «كَانَ مُنْحَرِفاً عَنْ عَلِيٍّ عليه السلام» فكان خوفه من ثورة الناس ليس سوى ذريعة.

---

١. سورة البقرة، الآية ١٥٩.

٢. تاريخ الطبري، ج ٨، ص ١٨٢-١٨٩ و شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ١٧٣-١٨٠.

٢٨

وَمِنْ كِلامٍ لَهُ عَلَيْهِ السَّلام

إلىٰ مُعاوِيَةَ جَواباً[١]
قالَ الشَّريفُ: وَهُوَ مِنْ مَحاسِنِ الْكُتُبِ

نظرة إلى الرسالة

رأينا أنّ هذه الرسالة، كما ورد في مطلعها في نهج‌البلاغة، تمثّل جواباً على أحد كتب معاوية إلى الإمام عليّ عليه السلام، وفيه يتحدّث معاوية بشكل غير مؤدّب مع الإمام عليه السلام ولم يترك أيّ حرمة إلّا وانتهكها، وفي القسم الأول من رسالته يتحدّث عن عظمة نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله والرسالة الإلهيّة، ويجعل ذلك مقدّمة لبيان فضائل أصحاب النبيّ وأنصاره، ثمّ يتطرّق إلى فضائل الخليفة الأوّل والثاني والثالث ويتحدّث عن مقام الأول والثاني وعن مظلوميّة الثالث ويتّهم الإمام عليه السلام بالمساهمة في قتل عثمان،

---

١. سند الرسالة:

يقول مؤلف كتاب مصادر نهج‌البلاغة (المرحوم السيّد عبد الزهراء الحسيني الخطيب): إنّ هذه الرسالة من الرسائل الشهيرة للإمام علي عليه السلام والنص بليغ إلى درجة أنّه يغنينا عن البحث في سندها (وبديهي أنّ مثل هذا النص لا يصدر من غير الإمام) مضافاً إلى أنّ ابن اعثم الكوفي الذي كان يعيش قبل السيد الرضي ذكر هذه الرسالة في كتابه الفتوح مع بعض الإضافات. (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٨)، وفي مكان آخر يقول بالنسبة لهذه الرسالة: وقد نقلها بعض الكتّاب قبل السيد الرضي مع بعض التفاوت من مصادر أخرى غير نهج‌البلاغة، منهم القلقشندي في كتاب صبح الأعشى والنويري في نهاية الارب (المصدر السابق، ص ٢٧٥).

وكذلك يتّهمه بالحسد لأبي بكر وكراهيته لخلافة عمر، وفي جميع هذه الرسالة يستخدم معاوية تعبيرات نابية وكلمات موهنة، وفي ختامها يتّهم الإمام عليه السلام بوقاحة بأنّه معاند ولجوج ويقول: ادفع لنا قتلة عثمان واعمل على تشكيل شورى لانتخاب خليفة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فنحن لا نقبل ببيعتك ولا نطيعك، وسيكون جوابك هو السيف ونحن ماضون على ذلك إلى النهاية.

ويتبيّن من عبارات هذه الرسالة أنّ معاوية كان يهدف إلى أمرين: الأوّل: أن يثير غضب الإمام عليه السلام وإحساساته ليجيبه بكلام مماثل ويتّخذ ذلك ذريعة أخرى إلى جانب قميص عثمان لقتال الإمام، وكذلك إغراقه في بيان فضائل الخلفاء الثلاثة واتّهام الإمام عليه السلام بالحسد لهم ليجيبه الإمام عليه السلام على الضدّ من ذلك، وبالتالي يكون بيده حجّة ضدّ الإمام عليه السلام إلى جانب قميص عثمان.

وهذا الكلام ليس استنباطاً ممّا ورد في رسالة معاوية، بل هو أمر ورد بصراحة في التاريخ الإسلامي على لسان عمرو بن العاص، يقول ابن أبي‌الحديد: إنّ عمرو ابن العاص قد أشار إلى معاوية أن يكتب كتاباً ثانياً مناسباً للكتاب الأول ليستفزّا فيه الإمام عليّ عليه السلام ويستخفّاه ويحمله الغضب منه أن يكتب كلاماً يتعلّقان به في تقبيح حاله وتهجين مذهبه، وقال له عمرو بن العاص: إنّ عليّاً رجل نزق تيّاه، فاستطعم منه الكلام بمثل الثناء على أبي بكر وعمر، فكتب معاوية الرسالة التي ذكرنا شيئاً منها آنفاً.

أمّا مضمون رسالة الإمام عليه السلام بنظرة عامة:

إنّ هذه الرسالة تشتمل على عدّة محطّات، فالإمام في المحطّة الأُولى يتعرّض لفضح ادّعاءات معاوية الواهية، ويقول في جوابه: إنّ الله تعالى بعث محمداً لرسالته ونشر دينه وأيّده بأنصاره، والإمام في هذه المقطع يبرز تعجّبه الشديد ويقول: وما أنت وهذه الأمور، فقصّتك مثل قصّة الشخص الذي يحمل التمر إلى هجر، وهذا المثل معروف لدى العرب، كما يدعو التلميذ أُستاذه إلى مسابقة علميّة مثلاً، فيقول له

الإمامعليه السلام إنّه يحسن بك أن تكفّ عن هذه الأقاويل ولا تحدّث بها أهلنا وقبيلتنا، فنحن أعلم منك بذلك.

وفي المحطّة الثانية، وبقصد التذكير بنعم الله تعالى، لا من أجل اطّلاع معاوية الذي يعلم بهذه الأمور، يتعرّض الإمامعليه السلام لبيان فضائل بني هاشم وذكر حمزة سيّد الشهداء وجعفر الطيار، وفي الختام يقول: لو لم ينهَ الله تعالى عن مدح النفس، لذكرت لك فضائل كثيرة تعرفها قلوب المؤمنين ولا تمجّها آذان السامعين.

وفي المحطّة الثالثة من هذه الرسالة يشير الإمامعليه السلام إلى نقطة أساسية في ادّعاءات معاوية، ويتعرّض للمقارنة بين بني هاشم وبني أُميّة، ويقول: نحن تربطنا رابطة رحم مع النبيّ ونحن أهل بيته، وقد اعتنقنا رسالته ودينه قبل جميع الناس ونحن على معرفة بها أكثر من الآخرين، وبالتالي نحن أحقّ بالخلافة، فالمهاجرون يوم السقيفة استندوا إلى قرابتهم من رسول اللهصلى الله عليه وآله ليدعموا موقفهم ضدّ الأنصار الذين كانوا يطمحون إلىٰ الخلافة، فلو كان هذا الأمر دليلاً على الأولوية فنحن أحقّ منهم.

وفي المحطّة الرابعة من هذه الرسالة يتعرّض الإمامعليه السلام لنقد بعض عبارات معاوية غير المؤدّبة في رسالته ويقول: لقد ذكرت في رسالتك أنّني كنت أُقاد كالجمل المغشوش للبيعة، ولكنّك بهذا الكلام قد فضحت نفسك، لأنّ المسلم لا يجد في نفسه غضاضة أن يقع مظلوماً مادام يجد نفسه مستقيماً في حركته في خطّ الرسالة والإيمان والمسؤولية، وأنّك تحدّثت عن عثمان وكيف كان سلوكي معه، فمَن هو الأكثر عداوة لعثمان؟ هل هو الشخص الذي انطلق للدفاع عنه ولمدّ يد العون له ونصيحته بتلبية حاجات الناس لإطفاء نار الفتنة وتهدئة الأُمور (إشارة إلى توصيات الإمامعليه السلام لعثمان) أو الشخص الذي طلب منه عثمان المعونة وامتنع منها وقبع ينتظر موته (إشارة إلى حال معاوية وموقفه من قتل عثمان).

وفي المحطّة الخامسة والأخيرة من هذه الرسالة يقول الإمامعليه السلام في مقام

الجواب عن تهديد معاوية بالهجوم والحرب: لقد أثرت في نفسي الضـحك، فأنت تهدّد أبناء عبدالمطّلب بالموت والحرب، فمتى رأيت أبناء عبدالمطّلب يهربون من القتال أو يخافون من السيف؟

٭٭٭

القسم الأول

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً ﷺ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً؛ إِذْ طَفِقْتَ تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ اللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَىٰ هَجَرَ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ إِلَىٰ النِّضَالِ. وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ، وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ! وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، وَالتَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ! هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا! أَلَا تَرْبَعُ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَىٰ ظَلْعِكَ، وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ، وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ! فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!

الشرح والتفسير

كيف يجلس المحكوم للحكم والقضاء؟

كما تقدّمت الإشارة إليه، فإنّ هذه الرسالة التي يقول عنها الشريف الرضي من أبلغ وأجمل الرسائل، يتحدّث فيها أميرالمؤمنين عليه السلام عن مسائل مهمّة بعبارات بليغة وحاسمة لمعاوية.

في البداية يشير الإمام عليه السلام إلى حديث معاوية عن عظمة النبيّ الأكرم ﷺ ورسالته السماوية ويقول: «أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ أَتَانِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ فِيهِ اصْطِفَاءَ اللهِ مُحَمَّداً ﷺ لِدِينِهِ، وَتَأْيِيدَهِ إِيَّاهُ بِمَنْ أَيَّدَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ؛ فَلَقَدْ خَبَّأَ لَنَا الدَّهْرُ مِنْكَ عَجَباً؛ إِذْ

طَفِقْتَ[١] تُخْبِرُنَا بِبَلَاءِ[٢] اللهِ تَعَالَىٰ عِنْدَنَا، وَنِعْمَتِهِ عَلَيْنَا فِي نَبِيِّنَا، فَكُنْتَ فِي ذَلِكَ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَىٰ هَجَرَ، أَوْ دَاعِي مُسَدِّدِهِ[٣] إِلَىٰ النِّضَالِ[٤]».

والإمام عليه السلام هنا لغرض بيان فساد وقبح كلام معاوية فيما يتّصل بوصف الإسلام وعظمة النبيّ الكريم صلى الله عليه وآله، وللإمام عليّ عليه السلام الذي يعتبر أوّل مسلم وأنّه نفس النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والنقطة المحورية للإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يذكر مثلين كلّ واحد منهما أبلغ وأقوى من الآخر، في البداية يذكر المثل العربي المعروف: «فُلَانٌ كَنَاقِلِ التَّمْرِ إِلَى هَجَرٍ» وهذا المثل يعود إلى تاجر كان قادماً من منطقة هجر (وهي إحدى مناطق البحرين) وفيها تكثر زراعة النخيل ويأتي إلى البصرة يشتري له بضاعة وينقلها إلى هجر، وكلّما بحث عن شيء يشتريه لم يجد أزهد سعراً من التمر، فاشترى برأسماله كلّه تمراً من البصرة وجاء به إلى هجر وادّخره في مخزنه انتظاراً لغلاء سعر التمر، ولكن لسوء حظّه كان سعر التمر يهبط يوماً بعد آخر حتى فسد جميع التمر في مخزنه، وتلف بذلك رأس ماله، فضرب به المثل ويقال لكلّ من يحمل شيئاً أو يتحدّث بأمر من الأمور عند من هو أعلم منه وأخبر به، وحال معاوية أيضاً يشبه ذلك التاجر الأحمق حيث أراد أن يبيّن للإمام علي عليه السلام عظمة الإسلام والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله فصدق عليه هذا المثل المعروف.

والمثال الثاني يشبّه الإمام عليه السلام معاوية بالرامي الناشيء الذي تعلّم الرماية عند أُستاذه ثمّ وقف أمام أُستاذه وأخذ يدعوه للبراز والمسابقة في الرماية ليخبر استاذه ويمتحنه في تسديد الرمية، وهذا هو ما يثير الضحك والسخرية.

---

١. «طفقت» من مادة «طفق» على وزن «طبق» بمعنى الابتداء بعمل معين والشروع به.

٢. «بلاء» يعني الامتحان والاختبار، وبما أنّ البلاء يأتي أحياناً بواسطة النعمة، وأخرى بواسطة المصيبة، هذه المفردة تأتي بمعنى النعمة والمصيبة كليهما، وفي الجملة مورد البحث جاءت بمعنى النعمة.

٣. «مسدِد» من مادة «سداد» على وزن «نهاد» يعني المحكم والثابت القوي، ومن هنا اطلقت هذه الكلمة على السد لأنّه يمثّل جداراً ثابتاً وقوياً، ومسدد تعني الشخص الذي يعلم الآخر الثبات والاستقامة.

٤. «نضال» يعني المجابهة بالرمي بين شخصين، ثم اطلقت على كلّ أشكال المبارزة والمجابهة والنزاع.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة إلى أنّ الإمامعليه السلام تحدّث من موقع التواضع بهذا التشبيه حيث شبّه معاوية بالتلميذ رغم سوء أدب معاوية وجرأته على الإمامعليه السلام.

وعلى أيّة حال، فمَن يريد الاطّلاع على سيرة النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله وحقيقة الإسلام ورسالته الإلهيّة، فينبغي أن يستوحي ذلك من كلمات الإمامعليه السلام وسلوكياته، وما أقبح أن يطلب معرفة الإسلام من الطلقاء والبعيدين عن أجواء الرسالة والإيمان كمعاوية.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام يتعرّض لقسم آخر من رسالة معاوية وحديثه عن صحابة النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله ويشير إلى الخليفة الأول والثاني والثالث، ويقول: «وَزَعَمْتَ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ فِي الْإِسْلَامِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ؛ فَذَكَرْتَ أَمْراً إِنْ تَمَّ اعْتَزَلَكَ كُلُّهُ، وَإِنْ نَقَصَ لَمْ يَلْحَقْكَ ثَلْمُهُ[1]. وَمَا أَنْتَ وَالْفَاضِلَ وَالْمَفْضُولَ وَالسَّائِسَ وَالْمَسُوسَ!».

وكما تقدّمت الإشارة إليه أنّ هدف معاوية من ذكر اسم الخليفة الأول والثاني والثالث وفضائلهم أن يثير حفيظة الإمامعليه السلام بحيث يجيبه بجواب من موقع الغضب فيتّخذه ذريعة ويتمسّك بها ضدّ الإمامعليه السلام، ولكنّ الإمامعليه السلام أجابه بكلام متين ومدروس جدّاً، بحيث أخرجه كلياً من دائرة القرار وأبعده عن هذا الشأن، والحقيقة أنّ الإمامعليه السلام يريد أن يقول له: أنت ابن أبي سفيان جرثومة الكفر ومحور الشرك والوثنية، والعدوّ الأوّل للإسلام والأصل لإشعال نيران الحروب والفتنة ضد النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله والمسلمين، وأنت قد رُبّيتَ في حضن هند آكلة الأكباد وأنّ أُسرتك غريبة عن الإسلام والرسالة، والآن تريد أن تتحدّث عن صحابة النبيّ وتعيّن الفاضل والمفضول، وتجعل نفسك واحداً ممّن يرتبط بهذا الشأن!

ويضيف الإمامعليه السلام في إدامة كلامه بشكل أبين وأقوى ويقول: «وَمَا لِلطُّلَقَاءِ وَأَبْنَاءِ الطُّلَقَاءِ، التَّمْيِيزَ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، وَتَرْتِيبَ دَرَجَاتِهِمْ، وَتَعْرِيفَ طَبَقَاتِهِمْ!».

---

١. «ثلم» في الأصل بمعنى الكسر والشق، ومعنى الاسم المصدري لهذه المفردة هو الشق والعيب، ثم اطلقت على كل شكل من الاضرار والخسارة، وفي الجملة أعلاه وردت بمعنى الضرر والخسارة.

وكأنّك قد نسيت أنّك يوم فتح مكة وانتصار المسلمين واستيلائهم على آخر معقل للكفر والشرك، كنت تحت رحمة سيوف المجاهدين ولم يكن لديك طريق للفرار، ولذلك أسلمت أنت وأبوك أبوسفيان من موقع التسليم والرضوخ، وقد منّ رسول الله ﷺ عليكم وجعلكم من الطلقاء، والآن نصّبت نفسك على كرسي التحكيم بين صحابة النبيّ وجعلت من نفسك عارفاً بدرجاتهم ومكانتهم بين المهاجرين الأوّلين، والحقيقة أنّ من المخجل جدّاً أن يقوم شخص يملك هو وأسرته مثل هذه السابقة السيّئة، بالتدخّل بمثل هذه الأمور ويجعل نفسه حكماً في هذا الشؤون.

والواقع ينبغي توجيه حربة النقد إلى الأشخاص الذين جعلوا من معاوية يحتلّ هذه المكانة بعد النبيّ الأكرم ﷺ ونسوا سوابقه وجعلوه والياً على مقاطعة كبيرة من البلاد الإسلاميّة، أجل، فمعاوية نُصّب والياً على الشام في زمان الخليفة الثاني ويتوجّه اللوم أيضاً إلى المسلمين الذين نسوا سوابق أُسرة بني أمية بهذه السرعة والفاصلة الزمنية القليلة، ورضخوا لحكومتهم ولم ينتفضوا ضدّهم، كلّ ذلك مع وجود روايات كثيرة عن النبيّ الأكرم ﷺ مذكورة في المصادر الإسلاميّة المختلفة في ذمّ بني أُمية وبالتحديد معاوية، وبيان الخطر الذي يهدّد الإسلام والأُمّة الإسلاميّة من حكومتهم.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستمرّ في كلامه ويقول من موقع التأكيد: «هَيْهَاتَ لَقَدْ حَنَّ[1] قِدْحٌ[2] لَيْسَ مِنْهَا، وَطَفِقَ يَحْكُمُ فِيهَا مَنْ عَلَيْهِ الْحُكْمُ لَهَا».

وجملة: «حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا» مثل معروف بين العرب يعود أصله إلى أنّ طائفة من بني الحنان أرادوا أن يلعبوا القمار فيما بينهم، وهيّأوا لذلك النصال، وكان نصيب جدّهم منها نصل غير صالح للرمي، فرمى بنصله من بين تلك النصال، وكان المقسم للنصال رجل أعمى، وعندما أصابت الرمية سهم من هذه السهام انتبه من الصوت أنّ

---

١. «حنّ» من «الحنين» بمعنى اطلاق الصوت بالتأوه من موقع الحزن.

٢. «قدح» بمعنى السهم قبل أن يكتمل صنع رأسه المدبب.

تلك النصال زائفة أيضاً، فقال: «حَنَّ قِدْحٌ لَيْسَ مِنْهَا» أي أنّ هذا النصل ليس من جنس النصال الأصلية، من خلال صوته، وانكشف بذلك زيف هذه النصال، ثمّ ضرب به المثل لكلّ شخص أدخل نفسه في جماعة لم يكن جديراً بهم، وجعل نفسه في عرض فئة ليس من مستواهم، والإمام عليه السلام استخدم هذا المثل المعروف في مورد معاوية، وأنّك تخلط نفسك مع جماعة لست منهم، فأنت من الكفّار الطلقاء الذين أطلق سراحهم النبيّ يوم فتح مكة، فما أنت والمجاهدين والمهاجرين الأولين؟[1].

واللافت للنظر أنّ الإمام عليه السلام في العبارة المذكورة أعلاه يقول بصراحة: أنت بهذه السوابق السيّئة تعتبر من زمرة المحكومين ومن الرعيّة، فكيف تجلس على كرسيّ الحكّام وتدّعي التحكيم فيما بينهم؟

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام للتأكيد ويقول: «أَلَا تَرْبَعُ[2] أَيُّهَا الْإِنْسَانُ عَلَى ظَلْعِكَ[3] وَتَعْرِفُ قُصُورَ ذَرْعِكَ[4] وَتَتَأَخَّرُ حَيْثُ أَخَّرَكَ الْقَدَرُ فَمَا عَلَيْكَ غَلَبَةُ الْمَغْلُوبِ، وَلَا ظَفَرُ الظَّافِرِ!».

وفي الجُمَل الثلاث يحذّر الإمام عليه السلام معاوية في البداية أن يعرف قدره ولا يمدّ رِجلَه أكثر من لحافه كما يقول المثل.

وفي الجملة الثانية يأمره الإمام عليه السلام بمعرفة نفسه: وعليك أن تعرف أنّك لست من أهل هذا الميدان وأنّك أعجز من أن تطلب زمام الحكومة والولاية على منطقة من البلاد الإسلاميّة أو تروم التمييز بين مراتب المهاجرين والأنصار وتقضي في هذا الشأن، إذن الأفضل أن تجلس في سلك المرتبة التي تليق بشأنك وإمكاناتك ولا تتجاوز عن حدودك (أي تجلس في صفّ النعال ومكان الأحذية لا في صدر المجلس).

---

١. اقتبس من بحار الأنوار، ج ٣٣، ص ٦٥.

٢. «تَرْبَعُ» من مادة «ربع» على وزن «رفع» بمعنى التوقف والإنتظار، وجملة «ألا تَربع» يعني لماذا لا تتوقف وتترك الأمر.

٣. «ظَلْع» بمعنى مشي الأعرج، وجملة «اِرْبَعْ عَلى ظَلْعِكَ» مثل سائد بين العرب يقال للشخص الذي لا يستطيع عمل معين ويتجه عبثاً لتحقيقه، فيقال له اسكن ولا تتلف وقتك.

٤. «ذَرْع» بمعنى فتح اليد والفاصلة بين اليدين، و«قُصُورِ ذَرْع» كناية عن الضعف والعجز.

وفي الجملة الثالثة يقول: صحيح أنّ المهاجرين والأنصار استطاعوا تحقيق النصر والغلبة في مواجهاتهم الحاسمة لقوى الكفر والشرك والوثنية، وأنّ أعداء الإسلام والمشركين انهزموا من الميدان، ولكن ذلك يتعلّق بالنبيّ الأكرمﷺ والصحابة، وما أنت وهؤلاء حتّى تتحدّث عن انتصار المسلمين وهزيمة الكفّار بوصفها أحد افتخاراتك!

وجملة: «فَمَا عَلَيْكَ...» التي تبتدىء بفاء التفريع، إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّك امرؤ تعيش التخلّف والتأخّر في مراتب الإسلام حيث أسلمت ظاهراً أنت وأبوك أبوسفيان في آخر لحظات الدعوة الإسلاميّة وانتصار الرسالة على قوى الشرك، فمن هذا المنطلق فأنت تقع كلياً خارج هذا البحث ولا يمكن أن تجلس للتحكيم بين المهاجرين الأولين وتعيين مراتبهم ودرجاتهم.

وفي الجملة الرابعة والأخيرة يضيف الإمامعليه السلام: «وَإِنَّكَ لَذَهَّابٌ فِي التِّيهِ، رَوَّغٌ عَنِ الْقَصْدِ».

«التيه» في الأصل بمعنى الحيرة، ثمّ أُطلق على الصحراء التي لا يوجد فيها طريق للخروج منها، بحيث يبقى الإنسان حائراً فيها لا يهتدي سبيلاً، كما هو الحال في صحراء سيناء في سنوات «تيه» بني اسرائيل حيث بقوا في هذا التيه أربعين سنة.

والإمامعليه السلام في هذه الجملة الأخيرة يرى أنّ مسار معاوية في هذه القضية على خطأ من جهتين: الأُولى: أنّه قد أوصل نفسه إلى وادٍ لا يمكن الخروج والنجاة منه وأنّ طريقه ومقصده غير معلوم، والأخرى: أنّه على فرض وضوح الطريق والمقصد، فإنّ معاوية لم يختر لنفسه الطريق القويم، بل انحرف عن هذا المسير وتوغّل في دروب الضلالة والانحراف والتيه.

«روّغ» صيغة مبالغة من مادة روغ (على وزن ذوق) وتعني الحركات الانحرافية التي تقود صاحبها تارة إلى هذه الجهة وأخرى إلى تلك، فيقال: إنّ الثعلب يتحرّك بمثل هذه الحركة حتى لا يقع في المصيدة، والإمام يقول لمخاطبه هنا: أنت تتحرّك دوماً من هذه الجهة إلى تلك الجهة من موقع المكر والحيلة ولا تتحرّك أبداً في

المسار الصحيح والطريق المعتدل، فأحياناً تدافع عن صحابة النبيّ، وأخرى تـقف أمامهم وترفع لواء التمرّد ضدّهم وتدعو الناس للحرب وسفك الدماء.

القسم الثاني

أَلَا تَرَىٰ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ، وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ! أَوَلَا تَرَىٰ أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ لِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّىٰ إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ!» وَلَوْ لَا مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا آذَانُ السَّامِعِينَ. فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا.

الشرح والتفسير

الامتيازات النادرة

تبيّن في المقطع السابق أنّ الإمام عليه السلام خيّب معاوية في بلوغ هدفه من الرسالة، لأنّ معاوية أراد من خلال استعراض سيرة الخلفاء الثلاثة أن يثير الإمام عليه السلام ليتحدّث بكلام ضدّهم ويجعل من هذا الكلام حجّة وذريعة كقميص عثمان، ولكنّ الإمام عليه السلام ذكر له بأنّك أجنبيّ وغريب عن الدخول في مثل هذه المسائل فلا يحقّ لك أن تنصب نفسك حكماً بين المهاجرين والأنصار.

ثمّ إنّ الإمام في هذا المقطع من هذه الرسالة يستعرض فضائل أهل البيت عليهم السلام بأفضل تعبيرات وأبلغ الكلمات فيبطل ادّعاءات معاوية بشكل غير مباشر، يقول الإمام عليه السلام: «أَلَا تَرَى ـ غَيْرَ مُخْبِرٍ لَكَ، وَلَكِنْ بِنِعْمَةِ اللهِ أُحَدِّثُ ـ أَنَّ قَوْماً اسْتُشْهِدُوا

فِي سَبِيلِ اللهِ تَعَالَىٰ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَلِكُلٍّ فَضْلٌ، حَتَّىٰ إِذَا اسْتُشْهِدَ شَهِيدُنَا قِيلَ: سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَخَصَّهُ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله بِسَبْعِينَ تَكْبِيرَةً عِنْدَ صَلَاتِهِ عَلَيْهِ».

وقد ورد في الروايات الإسلاميّة أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان كلّما كبّر تكبيرة في صلاته على جثمان حمزة كبّرت جماعة من الملائكة معه، وعلى ضوء ذلك جاءت أربعة عشر طائفة من الملائكة بصورة متتالية وصلّوا خلف رسول الله صلى الله عليه وآله على جنازة حمزة[١].

على أية حال فإنّ غرض الإمام عليه السلام من هذا الكلام أنّنا لو شرعنا بذكر الفضائل وبدأنا من الشهادة، فإنّ هذه الفضيلة تعدّ من أبرز امتيازات قبيلتنا، لأنّ حمزة سيّد الشهداء منّا، فصحيح أنّ جميع الشهداء يملكون مقاماً شامخاً عند الله وعند المؤمنين، ولكن مقام هذا الشهيد من بني هاشم أعلى وأسمى من الجميع.

وطبعاً فإنّ هذا اللقب لحمزة وهو سيّد الشهداء كان بالنسبة لشهداء عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وإلّا فإنّ مقام أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام في شهادته وشهادة الإمام الحسين عليه السلام وشهداء كربلاء أعلى من ذلك، اللافت أنّ ابن أبي‌الحديد يتحدّث بمثل هذه الكلام عن شهادة أميرالمؤمنين عليه السلام[٢].

ثمّ إنّ الإمام يستمرّ في بيان فضائل أهل البيت عليهم السلام وبني هاشم ويذكر فضيلة أخرى لشهداء بني هاشم وهي شهادة جعفر الطيار ويقول لمعاوية: «أَوَلَا تَرَىٰ أَنَّ قَوْماً قُطِّعَتْ أَيْدِيهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ـ وَلِكُلٍّ فَضْلٌ ـ حَتَّىٰ إِذَا فُعِلَ بِوَاحِدِنَا مَا فُعِلَ بِوَاحِدِهِمْ قِيلَ: «الطَّيَّارُ فِي الْجَنَّةِ وَذُو الْجَنَاحَيْنِ».

وقد جاء في شرح نهج‌البلاغة للمرحوم التستري نقلاً عن المغازي للواقدي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله دخل على أسماء ـ زوجة جعفر بن أبي طالب بعد استنشهاده ـ فنعاه

---

١. ورد هذا الحديث (سبعين تكبيرة) بشكل إجمالي في الكافي (ج ٣، ص ١٨٦، باب من زاد على خمس تكبيرات، ح ٣)، ولكن ما ورد أعلاه من أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله صلّى أربعة عشر صلاة بأربعة عشر من الملائكة ورد في شرح نهج‌البلاغة لابن ميثم.

٢. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٩٣.

إيّاها ـ إلى أن قال ـ ياأسماء ألا أُبشّركِ؟ قالت: بلى، بأبي أنت وأُمّي، قال ﷺ: فإنّ الله عزّ وجلّ جعل لجعفر جناحين يطير بهما في الجنّة، قالت: بأبي أنت وأُمّي يارسول الله، فأعلم الناس ذلك، فقام رسول الله ﷺ وأخذ بيدي يمسح بيده على رأسي حتى رقى على المنبر، وأجلسني أمامه على الدرجة السفلى، والحزن يعرف عليه، فتكلّم وقال: «إنّ المَرْءَ كَثِيرٌ بأخِيهِ وابنِ عَمِّه، ألا إنّ جَعْفراً قَدِ اسْتُشْهِدَ وَقَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُ جَناحَيْنِ يَطِيرُ بِهِما فِي الْجَنَّةِ»[1].

وبعد أنّ يستعرض الإمام عليّ عليه السلام هذين الموردين المتميّزين من فضائل بني هاشم، يتحدّث ببيان كلّي، ويقول: «وَلَوْ لَا مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ مِنْ تَزْكِيَةِ الْمَرْءِ نَفْسَهُ، لَذَكَرَ ذَاكِرٌ فَضَائِلَ جَمَّةً، تَعْرِفُهَا قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا تَمُجُّهَا[2] آذَانُ السَّامِعِينَ».

وهذا إشارة إلى أنّ فضائلنا أهل البيت عليهم السلام قد ملأت الخافقين وليست فضيلة واحدة أو عدد قليل من الفضائل، بل هي من الشهرة والشياع إلى درجة أنّه لا يعرفها المؤمنون فحسب، بل حتّى المنافقين والغرباء عن الإسلام على معرفة بها وقد سمعها الكثير من النبيّ الأكرم ﷺ، وإن كنت (معاوية) لا تعرفها، ولكن نظراً لحمل البعض بذكر هذه الفضائل، على مدح الذات وتزكية النفس، فأنا أكتفي بهذا المقدار وأغضّ النظر عن سائر الفضائل الكثيرة، وأترك الحكم إلى المؤمنين وأصحاب النبيّ ﷺ الخاصين حيث يتواجد الكثير منهم لحدّ الآن بين المسلمين.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام في نهاية هذا المقطع من الرسالة يهيب بمعاوية ويقول: «فَدَعْ عَنْكَ مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ[3] فَإِنَّا صَنَائِعُ رَبِّنَا، وَالنَّاسُ بَعْدُ صَنَائِعُ لَنَا».

---

١. شرح نهج البلاغة للتستري، ج ٣، ص ١١١؛ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٥، ص ٧١.

٢. «تمجّ» من مادة «مج» على وزن «حج» بمعنى قذف شيء من السوائل من الفم، ثم استخدمت هذه المفردة في سماع الكلام غير الملائم، والجملة أعلاه تعني أنّ الآذان لا تمتنع ولا تأبى استماع هذه الفضائل بل تقبلها.

٣. «رَمِيّة» بمعنى الصيد الذي يناله الإنسان بالرمي، وجمعه «رمايا»، وجملة «مَنْ مَالَتْ بِهِ الرَّمِيَّةُ» إشارة إلى الشخص الذي يطلب صيداً ويجعله ذلك الصيد ينحرف عن مساره الأصلي وربّما يتيه في الصحراء، فيقول

ويعترف شرّاح نهج البلاغة أنّ هذه الجملة بليغة جدّاً وعميقة المحتوى وتمثّل جواباً حاسماً وردّاً قاطعاً لكلام معاوية المتهاوي والهزيل.

لأنّه مع الالتفات إلى أنّ كلمة «صَنائع» جمع صنيعة وتعني الشيء المختار والمصطفى، ومن حاز بتربية واهتمام بالغ، يقول الإمام عليه السلام: لا شك، أنّ شمس النبوّة طلعت من دورنا، فإنّ الله تعالى قد اختار نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله من أسرتنا واصطفاه للرسالة واصطنعه وربّاه وتحمّل هذه المسؤولية الثقيلة في ظلّ الوحي، وعندما بلغ ذروة الكمال والعلم والهداية، بعث لهداية الناس وتعليمهم، ونحن بدورنا ممّن اصطفاهم الله لسلوك هذا الطريق، وعلى ضوء ذلك فنحن ممن اصطفاهم الله وربّاهم واصطنعهم لتربية الناس وتعليمهم وإصلاح نفوسهم، ولذلك لا مجال لمقارنتنا بالآخرين، وأنت حينما تذكر بعض الأشخاص الذين ساروا في خطّ الهداية والإيمان فإنّهم قد اهتدوا بهدايتنا وبنورنا.

وفي معنى جملة «صَنائِعُ لَنا» سلك البعض مسلك الإفراط في ذلك وذهب إلى أنّ الناس مخلوقون ومصنوعون من قِبل أئمّة الهدى عليهم السلام أو أنّهم عبيد لهم، في حين أنّ هذا الكلام لا يتناغم ولا يتجانس مع آيات القرآن الكريم، فالقرآن الكريم يتحدّث عن موسى عليه السلام ويقول: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسي﴾[1]، وفي مورد آخرى يقول: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنّي وَلِتُصْنَعَ عَلىٰ عَيْني﴾[2].

وللأسف فإنّ التفسير المذكور آنفاً قد أضحى ذريعة بين المخالفين للتشنيع على أتباع أهل البيت عليهم السلام واللافت أننا نقرأ في حديث معتبر ورد في كتاب عيون أخبار الرضا عليه السلام أنّ أبا الصلت دخل على الإمام الرضا عليه السلام وقال: يابن رسول الله ما هذا الذي ينقل الناس عنكم؟ فقال له الإمام الرضا عليه السلام: ماذا يقولون؟ فقال: «إنّكم

☜الإمام عليه السلام بهذا الكلام لمعاوية إنّ أشخاصاً مثل عمرو بن العاص يطلبون صيداً من المقام والمال والجاه، ولذلك انحرفوا عن جادة الحق ولا ينبغي أن تسلم زمام أمورك بيد هؤلاء الظالمين.

١. سورة طه، الآية ٤١.

٢. سورة طه، الآية ٣٩.

تَدَّعُونَ أَنَّ النَّاسَ لَكُمْ عَبِيدٌ» فتعجّب الإمام عليه السلام من ذلك وقال: «اللّٰهُمَّ فَاطِرَ السَّمٰاوٰاتِ وَالْأَرْضِ عٰالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهٰادَةِ أَنْتَ شٰاهِدٌ بِأَنّي لَمْ أَقُلْ ذٰلِكَ قَطُّ وَلٰا سَمِعْتُ أَحَداً مِنْ آبَائِي عليهم السلام قَالَ قَطُّ وَأَنْتَ الْعَالِمُ بِمٰا لَنٰا مِنَ الْمَظَالِمِ عِنْدَ هٰذِهِ الْأُمَّةِ وَانَّ هٰذِهِ مِنْهَا»[1].

تأمّلان

فضائل حمزه سيّد الشهداء

بالنسبة لشخصية حمزة عليه السلام وخدماته الجليلة للإسلام والمسلمين وشهادته الأليمة، فقد أورد المؤرّخون في المصادر الإسلاميّة بحوثاً كثيرة في هذا المجال ونشير هنا إلى جملة منها:

١. جاء في تفسير فرات الكوفي: «يُدْفَعُ يَوْمَ الْقِيامَةِ إِلىٰ عَلِيٍّ لِواءُ الْحَمْدِ وَإِلىٰ حَمْزَةَ لِواءُ التَّكْبيرِ وَإِلىٰ جَعْفَرَ لِواءُ التَّسْبيحِ»[2].

٢. جاء في تفسير الإمام الحسن العسكري عليه السلام: «يَأْتي بِالرُّمْحِ الَّذي كٰانَ يُقٰاتِلُ حَمْزَةُ أَعْداءَ اللهِ فِي الدُّنْيا فَيُنٰاوِلَهُ إِيّٰاهُ وَيَقُولُ: يٰا عَمَّ رَسُولِ اللهِ ذِدِ الْجَحيمَ عَنْ أَوْلِيٰائِكَ بِرُمْحِكَ»[3].

٣. وأورد ابن حجر العسقلاني في كتابه الاصابة في تمييز الصحابة: «حمزة بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف القرشيّ الهاشميّ، أبوعمارة، عمّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأخوه في الرضاعة، أرضعتهما ثويبة مولاة أبي لهب كما ثبت، وقريب من أمّه أيضاً لأنّ أمّ حمزة هالة بنت أهيب بن عبدمناف بن زهرة، بنت عمّ آمنة بنت وهب بن عبدمناف أمّ النبيّ صلى الله عليه وآله».

---

١. عيون أخبار الرضا عليه السلام، ج ٢، ص ١٨٤.

٢. سفينة البحار، مادة حمزة.

٣. المصدر السابق.

ولد قبل النبيّ ﷺ بسنتين، وقيل: أربع، وأسلم السنة الثانية من البعثة، ولازم نصر رسول الله ﷺ وهاجر معه... ولقبّه النبيّ ﷺ أسد الله، وسمّاه سيّد الشهداء، وقف على حمزة حين استشهد وقد مُثّل به، فجعل ينظر إليه منظراً كان أوجع قلبه فقال: «رَحِمَكَ اللهُ أَيْ عَمّ لَكُنْتَ وَصُولاً لِلرَّحِمِ فَعُولاً لِلْخَيْراتِ»[1].

٤. وجاء في كتاب أُسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير: «ولمّا عاد النبيّ ﷺ إلى المدينة سمع النّوحَ على قتلى الأنصار، (والحال كانت دار حمزة قفرة لأنّه كان من المهاجرين) فقال ﷺ: «لٰكِنَّ حَمْزَةَ لاٰ بَوٰاكِيَ لَهُ». فسمع الأنصار، فأمروا نساءهم أن يندبن حمزة قبل قتلاهم، ففعلن ذلك، قال الواقدي (المؤرّخ المشهور): فلم يزلن يبدأن بالندب لحمزة حتّى الآن»[2].

٥. وجاء في كتاب مكارم الأخلاق أن فاطمة الزهراء عليها السلام صنعت من تراب قبر حمزة مسبحة وكانت تذكر الله بها[3].

والروايات في فضائل سيّد الشهداء حمزة عليه السلام وتضحياته ودفاعه عن النبيّ الأكرم ﷺ والإسلام في أيّام الغربة والمحنة، وشجاعته في ميدان القتال كثيرة، ونختم هذا المختصر بحديث آخر نقله المرحوم الكليني في الكافي عن سدير قال: كنّا عند أبي جعفر (الباقر عليه السلام) فذكرنا ما أحدث الناس بعد نبيّهم ﷺ واستذلالهم أميرالمؤمنين عليه السلام فقال رجل من القوم: أصلحك الله فأين كان عزّ بني هاشم وما كانوا فيه من العدد؟ فقال أبوجعفر (الباقر) عليه السلام: «وَمَن بَقِيَ مِنْ بَني هاشِم إنّما كانَ جَعفَرُ وَحَمزَةُ فَمَضَيا وَبَقِيَ مَعَهُ رَجُلان ضَعِيفان ذَليلان حَديثا عَهدٍ بِالإسلام، عَباسُ وعَقيلُ، وَكَانا من الطُّلقاء، أمَا وَاللهِ لَوْ أنَّ حَمْزَةَ وَجَعْفَراً كَانَا بِحَضْرَتِهِما ما وَصَلاَ إلَى مَا وَصَلاَ إلَيْهِ، وَلَو كَانا شَاهِدَيْهِما لأتْلَفا نَفسَيْهِما»[4].

---

١. الإصابة، ج ١، ص ٣٥٤.
٢. أسد الغابة، ج ٢، ص ٤٨.
٣. مكارم الأخلاق، ص ٢٨٠؛ بحار الأنوار، ج ٨٢، ص ٣٣٣، ح ١٦.
٤. الكافي، ج ٨، ص ١٨٩، ح ٢١٦ (مع تلخيص يسير).

المرتبة السامية لجعفر بن أبي طالب

وقد أشار الإمام عليه السلام في رسالته مورد البحث إلى مقام جعفر بن أبي طالب عليه السلام بين شهداء الإسلام بكلمات دقيقة وعميقة المعنى، وقد ورد في الروايات الإسلاميّة أيضاً عبارات مهمّة في هذا الصدد، منها:

١. ما ورد في كتاب الكافي عن يوسف بن أبي سعيد قال: كنت عند أبي عبدالله الصادق عليه السلام ذات يوم فقال لي: «إذا كَانَ يَومُ القِيامة وَجَمعَ اللهُ تبارك وَتعالىٰ الخَلائِقَ كَانَ نُوحُ صلّى الله عليهِ أوّلَ مَن يُدْعى بِهِ فيُقالُ لَهُ: هَل بَلّغتَ؟ فيقول: نَعم. فَيُقال لَهُ: مَنْ يَشهَد لَك؟ فيقول: مُحمَّدُ بنُ عبدِالله صلى الله عليه وآله. قال: فَيَخرُج نُوحُ عليه السلام فَيتخطّى النّاسَ حتّى يَجيءَ إلىٰ مُحمَّدٍ صلى الله عليه وآله وهُو عَلىٰ كَثِيبِ المِسْكِ وَمَعَهُ عليٌّ عليه السلام وَهو قَولُ اللهِ عزّ وَجلّ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾[1]، فَيقول نُوحُ لِمُحمّدٍ صلى الله عليه وآله: يامُحمَّدُ إنّ اللهَ تباركَ وَتعالىٰ سَألَنِي: هَلْ بَلّغتَ؟ فَقلت: نَعم. فَقال: مَن يَشْهَدُ لَكَ؟ فَقلتُ: مُحمَّدُ صلى الله عليه وآله، فيقولُ: يا جَعفَرُ يا حَمزَة إذهَبا وأشهَدا لَهُ أنَّهُ قَد بَلّغَ. فقال أبوعبدالله (الصادق) عليه السلام: فَجَعفَرُ وَحَمزَةُ الشّاهِدانِ للأنبياء عليهم السلام بِما بَلّغوا»، فقلتُ: جعلت فداكَ فعليّ أين هو؟ فقال عليه السلام: «هُوَ أعْظَمُ مَنْزِلَةً مِنْ ذَلِكَ»[2].

٢. وينقل ابن أبي‌الحديد عن أبي الفرج الإصفهاني في كتاب مقاتل الطالبيين أنّ لجعفر فضائل كثيرة، وقد وردت أحاديث كثيرة في هذا المجال، منها: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا فتح خيبر قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فالتزمه رسوله الله صلى الله عليه وآله وجعل يقبل بين عينيه ويقول: «مَا أدْرِي بِأيِّهِما اَشَدُّ فَرحاً بِقُدُومِ جَعْفَرٍ أمْ بِفَتْحِ خَيْبَرٍ؟»[3].

٣. ويروي ابن عساكر في تاريخ دمشق أنّ الإمام عليّ عليه السلام كان أوّل رجل اعتنق

---

١. سورة الملك، الآية ٢٧.

٢. الكافي، ج ٨، ص ٢٦٧، ح ٣٩٢.

٣. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي الحديد، ج١٥، ص٧٢. ونقل هذا الحديث ابن عساكر في تاريخ دمشق، ج٦، ص٦٧.

الإسلام وبعده زيد بن حارثة ثمّ جعفر بن أبي طالب[١].

٤. وفي كتاب الاصابة في تمييز الصحابه ورد أنّ جعفر كان يهتمّ كثيراً بالفقراء والمحتاجين ويقدّم يد المعونة لهم ويتحدّث معهم، بحيث أنّ رسول الله سمّاه «أبوالمساكين» وقال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «أَشْبَهْتَ خَلْقِي وَخُلُقِي» ثمّ أضاف ابن عساكر: إنّ هذا الحديث رواه البخاري ومسلم في كتابيهما[٢].

٥. وينقل ابن عساكر في تاريخ دمشق أيضاً عن أنس بن مالك عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «نَحْنُ بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ سَادَةُ أَهْلِ الْجَنَّةِ: رَسُولُ اللهِ وَحَمْزَةُ سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ وَجَعْفَرُ ذُو الْجَنَاحَيْنِ وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ»[٣].

وهناك روايات كثيرة في فضائل جعفر بن أبي طالب عليه السلام، نختم هذا البحث برواية عن الإمام الباقر عليه السلام حيث قال: «أوحىٰ اللهُ عزَّ وجلّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّي شَكَرْتُ لِجَعْفَرَ بنِ أبي طالبٍ أَرْبَعَ خِصالٍ، فَدعاهُ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله فأَخْبَرَهُ، فقال له: لَولا أنَّ اللهَ تَبارَك وتَعالىٰ أخْبَرَك ما أخْبَرْتُك، ما شَرِبْتُ خَمْراً قَطُّ، لأنّي عَلِمْتُ أنّي إنْ شَرِبْتُها زالَ عَقْلِي، ومَاكَذَبْتُ قَطُّ لأنَّ الكَذِبَ يُنْقِصُ المُروّةَ، ومَا زَنَيْتُ قَطّ لأنّي خِفْتُ أنّي إذا عَمِلتُ عُمِلَ بي، ومَا عَبَدْتُ صَنَماً قَطّ لأنّي عَلِمْتُ أنَّهُ لا يَضُرُّولا يَنْفَعُ، قال: فَضَرَب النَّبيُّ صلى الله عليه وآله يَدَهُ علىٰ عاتِقِه و قال: حَقٌّ علىٰ اللهِ عزَّ وَجلَّ أن يَجْعَل لكَ جَناحَيْنِ تَطِيرُ بِهِما مع المَلائِكَةِ في الجَنَّةِ»[٤].

مضافاً إلى كلّ ذلك من افتخارات جعفر وامتيازاته فإنّه كان رئيسَ المهاجرين إلى الحبشة، وعليه فإنّ جعفر كان قد هاجر الهجرتين (الهجرة إلى الحبشة والهجرة إلى المدينة) وصلّى إلى القبلتين (بيت المقدس في بداية الإسلام والكعبة بعد مجيئه

١. مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٦.

٢. الإصابة، ج ١، ص ٢٣٧، ترجمة حياة جعفر بن أبي طالب.

٣. مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٨.

٤. من لا يحضره الفقيه، ج، ٤، ص ٣٩٧، ونقل هذا الحديث ابن عساكر في مختصر تاريخ دمشق، ج ٦، ص ٦٧ أيضاً.

إلى المدينة) وبايع البيعتين مع النبيّ الأكرمﷺ (البيعة في بداية الإسلام والبيعة في فتح مكة) كما ورد ذلك في الأحاديث الشريفة[1].

١ . سفينة البحار، مادة جعفر.

القسم الثالث

لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُّ طَوْلِنَا عَلَى قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَنَكَحْنَا وَأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الْأَكْفَاءِ، وَلَسْتُمْ! هُنَاكَ وَأَنَّى يَكُونُ ذَلِكَ وَمِنَّا النَّبِيّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ! فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ، وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَى بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَى بِالطَّاعَةِ. وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الْأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَلَجُوا عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالْأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ.

الشرح والتفسير

نقاط مهمّة أخرى في فضائل أهل البيت عليهم السلام

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى نقاط مهمّة أخرى، ففي البداية يحذّر معاوية أن مِن تَصَوُّر أن مجرّد الارتباط النسبي والسببي بين بني هاشم وبني أُمية دليل على التساوي في المرتبة والمكانة، بل هو نوع من التفضلّ والإيثار من بني هاشم يقول: «لَمْ يَمْنَعْنَا قَدِيمُ عِزِّنَا وَلَا عَادِيُّ

طَوْلِنَا[١] عَلَىٰ قَوْمِكَ أَنْ خَلَطْنَاكُمْ بِأَنْفُسِنَا؛ فَنَكَحْنَا وأَنْكَحْنَا، فِعْلَ الْأَكْفَاءِ[٢]، وَلَسْتُمْ هُنَاكَ!».

إنّما يتحدّث الإمام عليه السلام بهذا الكلام من جهة أنّ لهجة معاوية في رسالته يستوحى منها أنّ بني أُمية في عرض واحد مع بني هاشم، في حين أنّ بني هاشم يمثّلون مركز النبوّة ومحور الولاية، وأنّ بني أُمية هم أئمّة الكفر وقادة الشرّ، ولكن عندما اعتنقوا الإسلام ظاهراً، فإنّ الإسلام فرض على المسلمين أن يتعاملوا فيما بينهم معاملة الأكفاء والأنداد، ومن هذا المنطلق تزوّج النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أُمّ حبيبة بنت أبي سفيان، وزوّج النبيّ ابنته لعثمان بن عفان.

وينطلق الإمام عليه السلام في كلامه لبيان الدليل الواضح والبرهان القاطع على التفاوت الفرق بين بني هاشم وبني أُمية ويقول: «وَأَنَّىٰ يَكُونُ ذٰلِكَ وَمِنَّا النَّبيّ وَمِنْكُمُ الْمُكَذِّبُ (مثل أبي جهل)، وَمِنَّا أَسَدُ اللهِ وَمِنْكُمْ أَسَدُ الْأَحْلَافِ[٣] (أبو سفيان)، وَمِنَّا سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ (الحسين والحسين) وَمِنْكُمْ صِبْيَةُ النَّارِ (مروان أو عقبة بن أبي معيط)، وَمِنَّا خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (فاطمة الزهراء)، وَمِنْكُمْ حَمَّالَةُ الْحَطَبِ (أم جميل زوجة أبي لهب وأُخت أبي سفيان)، فِي كَثِيرٍ مِمَّا لَنَا وَعَلَيْكُمْ!».

وعلى هذا الأساس يبيّن الإمام عليه السلام مكانة بني هاشم السامية وفضائح بني أُمية وأتباعهم بالشواهد والقرائن التاريخية، بحيث لا يدع لأيّ أحد مجالاً لإنكار هذه الحقائق، وهذا هو معنى الفصاحة والبلاغة في الكلام.

أمّا مقصود الإمام عليه السلام من «المُكذّب»، فهناك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة

---

١. «طَوْل» بمعنى الإمكانات والقدرة المالية، ورد بمعنى الفضل والعطاء أيضاً، وفي الأصل «طول» في مقابل «عرض»، لأنّ القدرة المالية أو الجسمية نوع من الطول وقدرة الإنسان و«ذي الطَول» بمعنى العطاء والجود، وعلى هذا الأساس أنّ عبارة «عادِيّ طَوْلِنا» في الجملة أعلاه بمعنى العطايا الدائمة.

٢. «الأكفاء» جمع «كفؤ» على وزن «قفل» بمعنى الترادف والتساوي في الشخصية.

٣. «الأحلاف» جمع «حلف» على وزن «جلف» بمعنى العهد والميثاق و«حلف» على وزن «حرف» تعني القسم واليمين، وبما أنّ العهد يتمّ توكيده بالقسم فسميت هذه العملية بالحلف.

فذكروا تارة أشخاصاً مجهولين بوصفهم مكذّبين بحيث يتعجّب القارىء من ذلك، في حين أنّ المُكذّب البارز في تاريخ الإسلام هو أبو جهل، سواء قلنا إنّه من بني أُمية أم لا، لأنّ الإمامعليه السلام في هذا الكلام يستعرض فضائح بني أُمية ومن حالفهم من العرب، وكان شريكاً معهم في المواقف السلبية تجاه الدعوة والنبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله.

وأمّا بالنسبة لـ «أسد الله» فلا يوجد أيّ خلاف بين شرّاح نهج‌البلاغة أنّ المقصود منه حمزة سيد الشهداءعليه السلام والذي لقّبه النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله بهذا اللقب، أمّا «أَسَد الأحْلاف» فقد ذكروا احتمالات عديدة، في حين أنّ أوضح مصداق له هو (أبو سفيان) الذي قاد قوى الكفر وجيوش الشرك ضدّ الإسلام في حروب كثيرة وتحالف مع المشركين من العرب ضدّ الإسلام وكان آخرها معركة الأحزاب.

وهكذا بالنسبة للمراد من «صِبْيَةُ النَّارِ» فقد طرح شرّاح نهج‌البلاغة آراء مختلفة، ولكنّ الأنسب من الجميع أنّ المقصود منهم أبناء عقبة بن أبي معيط، وهو الذي تلقّى ضربات كثيرة في معركة بدر وسقط على الأرض فلمّا وقعت عينه على النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله قال بصوت ضعيف: «مَنْ لِلصِبْيَةِ يا مُحَمّد؟» فقال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «النّارُ»[1].

وهو إشارة أنّكم تقتلون المسلمين ولا تفكّرون بأبنائهم وصبيتهم، لكنّك الآن تفكّر بأبنائك وصبيتك وأطفالك وهم الصبية الذين سيتحرّكون في مسير الشرك والكفر تبعاً لأبيهم، ويقفون في صفّ أعداء الإسلام ضدّ النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله ودعوته السماوية، والتاريخ الإسلامي يحدّثنا أيضاً أنّ أبناء عقبة بن أبي معيط كانوا مصدر الشرّ والفتنة في الأُمّة ومنهم الوليد بن عقبة.

والمقصود من «خَيْرُ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» فشرّاح نهج‌البلاغة وسائر علماء الإسلام يتّفقون بالإجماع على أنّها فاطمة الزهراءعليها السلام، لأنّه كما ورد في صحيح مسلم أنّ النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله عندما حانت وفاته قال لفاطمةعليها السلام يواسيها ويطيّب خاطرها: «يا

1. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٩٧.

فَاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ أَوْ سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَـذِهِ الْأُمَّـةِ؟»[١].

ومثل هذا الحديث ورد أيضاً في صحيح البخاري الجزء ٧، ص ١٤٢ وجاء في مسند أحمد و مستدرك الحاكم عبارة «سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ» بدل العبارة السابقة[٢].

أمّا «حمّالة الْحَطَب» فقد وردت الإشارة إليها في القرآن الكريم ويتّفق شرّاح نهج البلاغة ومفسّرو القرآن أنّ المراد بها أُمّ جميل زوجة أبي‌لهب، وأُخت أبي سفيان وعمّة معاوية.

ومن مجموع ما تقدّم آنفاً يتبيّن بوضوح المكانة المرموقة لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله وبني هاشم، وكذلك مكانة بني‌أُمية وأتباعهم، ومن خلال كلام الإمام عليه السلام تستفاد مسائل كثيرة أخرى أيضاً ويتّضح من خلال الملاحظات التي ذكرها الإمام عليه السلام في كلامه هذا الجواب الحاسم لمعاوية وادّعاءاته الواهية.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام من أجل التأكيد على ما سبق يضيف: «فَإِسْلَامُنَا قَدْ سُمِعَ، وَجَاهِلِيَّتُنَا لَا تُدْفَعُ»، الأعمال التي سبق أن قمنا بها في الجاهلية والإسلام لا تخفى على أحد.

وهذا إشارة إلى أنّ الإسلام قد بدأ بنا وأننا كنّا أوّل المسلمين والمدافعين الحقيقيين عن الإسلام، وفي زمان الجاهلية أيضاً كنّا معروفين بحسن السمعة والأعمال الصالحة والأمانة بين جميع العرب قاطبة، ونقرأ في رواية عن أحوال جعفر أنّ الله تعالى قد مدحه للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لأربع فضائل متميّزة له في زمان الجاهلية، خلافاً لبني أُمية والقبائل المتحالفة معهم الذين كانوا معروفين بالمكر والشيطنة والفساد وسفك الدماء.

وينقل المرحوم الشيخ مغنية في شرحه لنهج البلاغة نقلاً عن كتاب عبقرية محمد للكتاب المصري المعروف «العقاد» أنّ بني هاشم كانوا دوماً معروفين

١. صحيح مسلم، ج ٧، ص ١٤٣و١٤٤.

٢. مسند أحمد، ج ٣ ص ٨٠؛ مستدرك الحاكم، ج ٣، ص ١٨٦.

بالفضائل الأخلاقية والقيم الإنسانية والعقيدة السليمة، بعكس بني أُمية المعروفين بالمكر وسوء الخلق، ونحن نرى هذا الإختلاف والتفاوت بين بني هاشم وبني أُمية في كافّة الصفات الأخلاقية والمثل الإنسانية[١].

واللافت أنّ ابن أبي‌الحديد يذكر بحثاً مطوّلاً من مائة صفحة تقريباً في بيان هذه الفروقات، وفي الفصل الأول يتحدّث عن فضائل بني هاشم بالمقارنة مع بني أُمية، أبناء عبدشمس، وفي الفصل الثاني يتحدّث عن الأمور التي يفتخر بها بنوأُمية، وفي الفصل الثالث يجيب عن هذه الافتخارات المزعومة[٢].

ثمّ إنّ الإمام‌عليه السلام بعد أن طرح هذه الأدلّة التاريخية القوية يتوجّه نحو القرآن الكريم ويستعرض آيتين شريفتين لإثبات حقّانية بني‌هاشم ويقول: «وَكِتَابُ اللهِ يَجْمَعُ لَنَا مَا شَذَّ عَنَّا، وَهُوَ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾[٣] وَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهٰذَا النَّبِيّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٤]».

والإمام‌عليه السلام في تفسير وتطبيق هذه الآية يضيف: «فَنَحْنُ مَرَّةً أَوْلَىٰ بِالْقَرَابَةِ، وَتَارَةً أَوْلَىٰ بِالطَّاعَةِ».

وفي الواقع أنّ الإمام‌عليه السلام في ذكره هاتين الآيتين أوصد جميع الطرق على معاوية، فإن كان المعيار في خلافة النبيّ الأكرم‌صلى الله عليه وآله القرابة له، فنحن أولى من الجميع بذلك لأنّنا أقرب للنبيّ‌صلى الله عليه وآله من سائر المسلمين، وإن كان المعيار هو المعرفة بتعاليم الرسالة والطاعة للأحكام والأوامر الشرعية وأوامر النبيّ الأكرم‌صلى الله عليه وآله فنحن أعرف من الجميع بذلك وأطوع له ولدينه من الآخرين، في حين أنّ بني أُمية والأشخاص الآخرين الذين تربّعوا على كرسيّ خلافة النبيّ‌صلى الله عليه وآله لا يملكون مثل

---

١. في ظلال نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٤٧١.
٢. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٩٨ ـ ٢٩٥.
٣. سورة الأنفال، الآية ٧٥.
٤. سورة آل عمران، الآية ٦٨.

هاتين الميزتين لإحراز الأولوية.

وهنا يفرض هذا السؤال نفسه، وهو: هل أنّ القرابة لوحدها تصلح أن تكون دليلاً على الأحقّيّة والصلاحية لخلافة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله؟

الجواب: إنّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام ناظر إلى الاستدلال الذي طرحه أتباع الخليفة الأوّل في سقيفة بني ساعدة، حيث استدلّوا بقرابته للنبيّ لإثبات أولويته للخلافة، فالإمام يقول: إذا كان هذا هو المعيار المقبول فنحن أقرب من الجميع لرسول الله عليه السلام، وبديهيّ أنّ المعيار الأصليّ هو ما ذكره الإمام عليه السلام في العبارة الثانية وهو الطاعة والسير في خطّ الامتثال للأوامر الإلهيّة والتعاليم الرسالية، الطاعة المتولّدة من العلم والإيمان، فالشخص الذي يكون أعرف من الجميع بدين النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ويملك إيماناً أقوى من الآخرين، فإنّه جدير بالخلافة وتولّي هذا المقام، ولهذا نحن نرى أنّ الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أجدر وأليق من الجميع لإحراز هذا المنصب، وأعلى من ذلك أنّ الله تعالى بسبب هذه الامتيازات الفردية واللياقات العالية قد نصبه لهذا المقام واختاره إماماً للمسلمين.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لتوضيح أكثر عن هذه المسألة المذكورة آنفاً ويقول «**وَلَمَّا احْتَجَّ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى الأَنْصَارِ يَوْمَ السَّقِيفَةِ بِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله** (لما احتجّ الأنصار على المهاجرين لإثبات أحقّيتهم لتولّي الخلافة يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وآله) **فَلَجُوا**[١] **عَلَيْهِمْ، فَإِنْ يَكُنِ الْفَلَجُ بِهِ فَالْحَقُّ لَنَا دُونَكُمْ، وَإِنْ يَكُنْ بِغَيْرِهِ فَالأَنْصَارُ عَلَى دَعْوَاهُمْ**».

وفي الحقيقة أنّ الإمام عليه السلام يجيب عن ادّعاءات معاوية فيما يتّصل بالخليفة الأوّل والثاني ويقول: ليس فقط أنّ بني اُمية لا يليقون بخلافة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لأنّهم

---

١. «فَلَجوا» من مادة «فلْج» على وزن «فتح» بمعنى الانتصار والنجاح، و«فَلَج» على وزن «حرج» اسم مصدر بمعنى النصر، ومفردة «فلج» على وزن «خرج» تعني الشق والفاصلة بين شيئين وأحياناً يتسبب في الشلل والقعود عن الحركة والمشي بشكل غير سليم.

ليسوا من المهاجرين وليسوا من الأنصار، بل من الطلقاء، أي المشركين الذين أطلقهم النبيّ الأكرمﷺ يوم فتح مكة، فإنّ الخلفاء الأوائل أيضاً واستناداً إلىٰ كلامهم، غير جديرين لتولّي هذا المنصب، لوجود من هو أجدر منهم، فإن كان معيار اللياقة والجدارة، (وفقاً لاستدلالهم) القرابة للنبيّ فإنّ الإمام عليّعليه السلام هو أقرب منهم للنبي الأكرمﷺ، فهو ابن عم النبيّ وصهره، وإذا كان الآخرون يمثّلون أغصان شجرة النبوّة فالإمام عليّعليه السلام هو ثمرة هذه الشجرة وكذلك الأئمّة من أهل البيتعليهم السلام.

ومرّة أخرى نكرّر أنّ هذا الاستدلال في الواقع هو بمسلّمات الخصم، والذي يعبّر عنه في المنطق بالاستدلال الجدليّ، يعني أنّ المتكلّم يستند إلى مسلّمات الخصم ويخلع سلاحه منه.

تأمّلان

١. قصّة السقيفة المثيرة!

يشير الإمامعليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى قضيّة سقيفة بني ساعدة المثيرة التي تمّ تشكيلها لتعيين الخليفة بعد رسول اللهﷺ، ونحن ذكرناها مع استعراض المقاطع التاريخية الحسّاسة استناداً للمصادر المعتبرة في ذيل الخطبة ٦٧ تحت عنوان «مسألة الخلافة وقصّة سقيفة بني ساعدة» بشكل مفصّل وكشفنا اللثام عن هذه المؤامرة العجيبة، وهنا نضيف عدّة نقاط:

الأولى: أنّ الطبري في تاريخه وابن الأثير في الكامل صرّحا بأنّ جماعة الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة، فقالت جماعة منهم في مقابل اقتراح عمر بالنسبة لبيعة أبي بكر: «لَا نُبَايِعُ إلَّا عَلِيّاً» (في حين أنّ الإمام عليّعليه السلام وبنو هاشم ومنهم الزبير وكذلك جماعة أخرى من المهاجرين لم يكونوا حاضرين في السقيفة، ويقول الطبري بعد ذكر هذا الكلام: بعد ذلك توجّه عمر لدار عليّ وكان فيه طلحة والزبير

وجماعة من المهاجرين وقال: «وَاللهِ لَنُحْرِقَنَّ عَلَيْكُمْ أَوْ لَتَخْرُجُنَّ الَى الْبَيْعَةِ»[١].

ومن الأشخاص الذين اشتركوا مع عمر في هذا الهجوم على دار أميرالمؤمنين عليه السلام أُسيد بن خضير وسلمة بن أسلم[٢].

وجماعة أُخرىٰ من الأنصار سارعوا بيعة أبي بكر عندما توصّلوا إلى بعض المقامات، منهم بشير بن سعد الذي كان من المشاورين للخليفة، والآخر أسيد بن حضير الذي تزعّم الحرس في المدينة، والثالث سلمة بن أسلم الذي حصل على مقام المعاون لأسيد[٣].

٢. فضائل بني هاشم في عصر الجاهليّة والإسلام

تقدّم أنّ ابن أبي‌الحديد في ذيل هذه الرسالة ذكر بحثاً مفصّلاً (من مائة صفحة تقريباً) في بيان فضائل بني هاشم بالمقارنة مع نقاط الضعف والقصور لبني عبدشمس (عبدشمس هو والد أُميّة).

منها: إنّ بني هاشم قدّموا للإسلام شهداء عظام كالإمام عليّ وحمزة وجعفر عليهم السلام، في حين أنّ في بني‌أُمية أفراداً كالحكم بن العاص المعروف، بأنّه كان يسير خلف النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ويقلّد مشيته، فالتفت النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ورآه ولعنه، وبعد ذلك لم يتمكّن من المشي بشكل سليم ومعتدل.

والآخر أنّ أحد المعاهدات الرائعة في عصر الجاهلية (حلف الفضول) وهي المعاهدة التي عقدت من أجل الدفاع عن المظلومين وحماية المستضعفين، وفي هذا المعاهدة اشترك بنو هاشم وقبائل أخرى من العرب، ولكن لم يشترك أيّ فرد من عبدشمس فيها.

---

١. تاريخ الطبري، ج ٢، ص ٤٤٣ (حوادث سنة ١١).

٢. سفينة البحار، مادة أسد.

٣. انظر: كتاب الإمامة والسياسة، ص ٩ وما بعدها.

والثالث، أنّ بني أُمية قد ارتكبوا في زمان الجاهلية أعمالاً شائنة لم يرتكبها أحد من العرب، منها أنّ أُمية زوّج إحدى زوجاته لابنه أبي عمرو، في حين أنّ أُسرة بني هاشم لم تتلوّث بمثل هذه الأعمال السيئة.

وأيضاً كان لعبدالمطّلب ـ وهو من رموز وأكابر بني هاشم ـ فضائل فريدة، فقد حفر بئر زمزم وأدام منهج إسماعيل وهاجر، وأولى أهميّة فائقة لدم الإنسان حيث جعل لديته مائة من الإبل، فلمّا جاء الإسلام أمضى هذا الحكم، وعندما هجم جيش أبرهة على مكة، فرّت عامّة قريش من مكة، ولكنّ عبدالمطلب الذي كان في ذلك الوقت شاباً، قال: «وَاللهِ لَا أَخْرُجُ مِنْ حَرَمِ اللهِ»، وهناك فضائل كثيرة أخرى.

وللمزيد من الاطّلاع، راجع شرح نهج‌البلاغة ابن أبي‌الحديد، ج ١٥، ص ١٩٨ إلى ٢٩٥. وقد أشار ابن أبي‌الحديد في هذه الصفحات إلى بعض ما يزعم من مفاخر بني أُمية ويجيب عنها.

القسم الرابع

وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وَعَلَىٰ كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ.

وَتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُهَا

وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ حَتَّىٰ أُبَايِعَ؛ وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ! وَمَا عَلَىٰ الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ! وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَىٰ غَيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ مِنْ ذِكْرِهَا.

الشرح والتفسير

هذه الأمور لا تخصّك!

يتعرّض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الرسالة إلى مقطع من كلام معاوية الخاوي والمهزوز، حيث ذكر في رسالته للإمام عليه السلام: «أنّك حسدت أبابكر وامتنعت من بيعته وكذلك حسدت عمر وحسدت عثمان أكثر من الجميع وفضحت أعماله على الملأ وكنت شاكاً في دينه وعقله وفهمه للأمور...».

والإمام عليه السلام يردّ عليه هذه الإدّعاءات الواهية ويقول: «وَزَعَمْتَ أَنِّي لِكُلِّ الْخُلَفَاءِ حَسَدْتُ، وعَلَىٰ كُلِّهِمْ بَغَيْتُ، فَإِنْ يَكُنْ ذَلِكَ كَذَلِكَ فَلَيْسَتِ الْجِنَايَةُ عَلَيْكَ، فَيَكُونَ الْعُذْرُ إِلَيْكَ وَتِلْكَ شَكَاةٌ[1] ظَاهِرٌ[2] عَنْكَ عَارُهَا».

---

١. «شكاة» و «شكو» و «شكاء» و «شكوى» في الأصل تعني المرض، ثم اطلقت على كل عيب ونقص، والشكاية تعني اظهار الألم والتظلم.

٢. «ظاهر» عندما تتعدى بحرف عن تعني الزوال والانتهاء، وجملة «ظاهر عَنْكَ عارُها» تعني أنّ ذلك العار والعيب لا يصيبك ولا ينتسب إليك.

من هذا المنطلق يسحب الإمامعليه السلام البساط من تحت معاوية ويخرجه عن هذا الميدان، ويحسب ذلك نوعاً من الفضول والتدخّل في أمور الآخرين، ويقول: إنني إذا كانت لديّ مشكلة مع الخلفاء فيجب عليهم أو أبنائهم أن يدّعو مثل هذا الإدّعاء، وأمّا أنت، فمن الطلقاء وقد قبلت بالإسلام مضطراً في آخر مرحلة، في فتح مكة، فلا حقّ لك في التدخّل في مثل هذه المواضيع.

ويستند الإمامعليه السلام في كلامه هذا إلى عجز بيت لشاعر عربي هو (أبو ذؤيب الهذلي) الذي كان أدرك عصر الجاهلية والإسلام، وعندما هاجر النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله إلى المدينة جاء إليه وأسلم على يده وصار من المسلمين الصالحين، وصدر البيت هو:

وَعَيَّرَهَا الْوَاشُونَ أَنِّي أُحِبُّهَا

فيقول إنّ سعاية الواشين بحبّه لها لا يعدّ عيباً، ولو كان هناك عيب وعار فهو بعيد عنك.

وهذا الشعر أضحى مثلاً يضرب به لمن يحسب أمراً سيّئاً في حين أنّه لا يرتبط به.

وجملة: «زَعَمْتَ» تعني أوّلاً: أنّ هذه النسبة التي تدّعي أنني حسدت الخلفاء نسبة كاذبة وفرية واضحة، ولا سيما أنّك زعمت في كلامك أنني شريك في قتل عثمان، والحال أنني كنت أذبّ عنه وأنهى الناس عن قتله، وثانياً: على فرض أنّ هذه النسبة صحيحة فهي لا تتعلّق بك.

ويستمرّ الإمامعليه السلام في كلامه ويجيب عن قسم آخر ممّا كتبه معاوية في رسالته:

«وَقُلْتَ: إِنِّي كُنْتُ أُقَادُ كَمَا يُقَادُ الْجَمَلُ الْمَخْشُوشُ[1] حَتَّى أُبَايِعَ؛ وَلَعَمْرُ اللهِ لَقَدْ أَرَدْتَ أَنْ تَذُمَّ فَمَدَحْتَ، وَأَنْ تَفْضَحَ فَافْتَضَحْتَ!».

وهو إشارة إلى أنّك أولاً: تعترف بأنني وقعت مظلوماً وأنّ الآخرين ظلموا حقّي

١. «المخشوش» في الأصل يقال للجمل الذي ثقب أنفه وادخل فيه حبل أو خشبة متصلة بحبل، فعندما يسحب ذلك الحبل يميل هذا الحيوان معه حيثما مال، لأنّه لا يستطيع مقاومة الألم الناشيء من جرّ هذا الحبل.

في هذا المجال، فهذا يمثّل مدحاً لي وذمّاً للظالمين، وثانياً: أنّك أثبتّ أنّ خلافتهم لم تكن بإجماع الصحابة، في حين أنّك تدافع عن مثل هـذه الخـلافة وقـلت: أنّ الخليفة الأول أقرب إلى الله من الجميع وأعلى مكاناً، فكيف يمكن ذلك في حين أنّه ارتكب ظلماً بحقّ أوّل مسلم وأقرب النـاس للـنبيّ الأكـرم صلى الله عليه وآله وأعـلمهم بـدينه وأشدّهم دفاعاً عن رسالته؟ وهذا التناقض في كلامك دليل عـلى خـواء ادّعـائك وضحالة فكرك.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام في شرح هذا الكلام: **«وَمَا عَلَى الْمُسْلِمِ مِنْ غَضَاضَةٍ[1] فِي أَنْ يَكُونَ مَظْلُوماً مَا لَمْ يَكُنْ شَاكّاً فِي دِينِهِ، وَلَا مُرْتَاباً بِيَقِينِهِ!»**.

أجل، فالمصلحون والسائرون في طريق الحقّ على إمتداد التاريخ وقعوا بسبب دفاعهم عن الحقّ وعدم استسلامهم وإذعانهم للظالمين، مورد الظلم والجور، وهذا يعدّ افتخاراً لهم.

وهذا يعني أنّ هذا مثل هذه المظلومية لو كانت عيباً فيجب أن تقول إنّ النـبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما جرح في معركة أحد وكسرت رباعيته على يد أنصار أبيك وشقّت بطن حمزة من قِبل اُمّك وأخرجت كبده ومضغته في فـمها، أنّ النـبيّ الأكـرم صلى الله عليه وآله وحمزة عليه السلام يستحقّان الذمّ والتقريع وأنّ أباك ومشركي مكة واُمّك هـند جـديرون بالمدح والتقدير!

ولكن هل يقبل أيّ عاقل مثل هذا الكلام؟ ولو تطلّعنا إلى ماضي التاريخ فـإنّ الأنبياء الكبار إبراهيم ويحيى وزكريا والمسيح عليهم السلام وغـيرهم وقـعوا مـورد الظـلم والجور في طريق الاستقامة والدفاع عن الحق والرسالة الإلهيّة.

وفي ختام هذا المقطع من الرسالة يقول الإمام عليه السلام: **«وَهَذِهِ حُجَّتِي إِلَـى غَـيْرِكَ قَصْدُهَا، وَلَكِنِّي أَطْلَقْتُ لَكَ مِنْهَا بِقَدْرِ مَا سَنَحَ[2] مِنْ ذِكْرِهَا»**.

---

١. «غضاضة» بمعنى النقصان والعيب، وهي من مادة «غض» وتعني التنقيص والتقصير.

٢. «سنح» من «السنوح» على وزن «فتوح» بمعنى التذكر والفهم.

وهو إشارة إلى أنّ المخاطب الحقيقي لكلامي هذا، الخلفاء الذين أجبروني على بيعتهم، ولكن بما أنّك قد طرحت هذه المسألة فرأيت من اللازم أن أُجيب عنها بالمقدار اللازم.

ﮋﮊ

القسم الخامس

ثُمَّ ذَكَرْتَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَىٰ لَهُ، وَأَهْدَىٰ إِلَىٰ مَقَاتِلِهِ! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ اسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَىٰ عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ أَتَىٰ قَدَرُهُ عَلَيْهِ. كَلَّا واللهِ لـ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾. وَمَا كُنْتُ لِأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ عَلَيْهِ أَحْدَاثاً؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ؛ فَرُبَّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ.

وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ

وَمَا أَرَدْتُ ﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

الشرح والتفسير

المقصّر الأصليّ في قتل عثمان

ينطلق الإمام عليه السلام في هذاالمقطع من رسالته من موقع الإجابة عن أحد أوصاف معاوية ويقول: «ثُمَّ ذَكَرْتَ مَاكَانَ مِنْ أَمْرِي وَأَمْرِ عُثْمَانَ، فَلَكَ أَنْ تُجَابَ عَنْ هَذِهِ لِرَحِمِكَ مِنْهُ، فَأَيُّنَا كَانَ أَعْدَىٰ[1] لَهُ، وَأَهْدَىٰ إِلَىٰ مَقَاتِلِهِ[2]! أَمَنْ بَذَلَ لَهُ نُصْرَتَهُ فَاسْتَقْعَدَهُ[3]

---

١ . «أعدى» بمعنى أشد عداوة، وهي في الأصل من مادة عداوة.

٢ . «مقاتل» جمع «مقتل» بمعنى محل القتل أو الموضع الخاص من بدن الإنسان الذي إذا أصيب فإنّه يؤدي إلى موت الإنسان وقتله.

٣ . «فاسْتَقْعَدَه» يستفاد من مجموع القرائن الموجودة في هذه العبارة أنّ ضمير الفاعل يعود إلى عثمان وضمير ☜

وَاسْتَكَفَّهُ، أَمْ مَنِ اسْتَنْصَرَهُ فَتَرَاخَىٰ عَنْهُ وَبَثَّ الْمَنُونَ[١] إِلَيْهِ، حَتَّىٰ أَتَىٰ قَدَرُهُ عَلَيْهِ».

إنّ تاريخ الإسلام يشهد بأنّ هذه التهمة التي نسبها معاوية للإمام عليّ عليه السلام بأنّه شارك في دم عثمان أو لم يدافع عنه بالمقدار اللازم، هي تهمة واهية وكذب وافتراء محض، افتراها معاوية لخداع الناس والتعمية على أفكارهم، ومن هذه الجهة استخدم قميص عثمان الدامي لإثارة أحاسيس الجهلة والغوغاء ضدّ الإمام علي عليه السلام، والحال أنّ الإمام عليّ عليه السلام نصح عثمان مراراً ودعاه لإصلاح أخطائه وتعديل سلوكياته وعدم تقسيم بيت المال بين بني أُمية ومَن لفّ لّفهم وعدم تقليدهم المراكز الحساسة في الحكومة الإسلاميّة، وأن يصغي لنداءات المحرومين، ولكن للأسف لم يقبل عثمان بكلّ هذه النصائح، بل أنّ الإمام عليّ عليه السلام عندما هجمت الجماهير الغاضبة على بيت عثمان أرسل أبناءه للدفاع عنه.

في حين أنّ معاوية لم يتقدّم خطوة للدفاع عن عثمان مع أنّ عثمان كان قد كتب إليه رسالة يطلب منه إرسال قوّة خاصة من الشام إلى المدينة للدفاع عنه.

واللافت أنّ معاوية عندما تربّع على كرسيّ الخلافة، ذكروا أنّه لم يكن أحد أحبّ إلى معاوية أن يلقاه من أبي الطفيل الكناني: وهو عامر بن واثلة، كان فارس أهل صفّين، وشاعرهم، وكان من أخصّ الناس بعليّ كرم الله وجهه، فقدم أبو الطفيل الشام يزور ابن أخ له من رجال معاوية، فأخبر معاوية بقدومه، فأرسل إليه، فأتاه وهو شيخ كبير، فلّما دخل عليه، قال له معاوية: أنت أبو الطفيل عامر بن واثلة؟ قال نعم، قال معاوية: أكنت ممّن قتل عثمان أميرالمؤمنين، قال: لا، ولم أكن ممّن شهده

الفاعل يعود إلى الإمام عليه السلام يعني أنّ عثمان لم يقبل بدعم الإمام عليه السلام ودفاعه عنه، وكان قد طلب من الإمام عليه السلام أن يسكت ويجلس في مكانه ويترك الدفاع عنه، ولكن البعض عكسوا هذا المعنى وقالوا: إنّ الإمام عليه السلام طلب من عثمان أن يجلس ويترك السلوكيات الخاطئة ويستجيب لمطالب الناس، ولكن هذا المعنى بعيد، فعندما ندقق في فاء التفريع في «فاسْتَقْعده» نرى أنّ المعنى الأول أقرب وأوضح.

١. «بث» في الأصل بمعنى نشر وفرق و«منون» بمعنى الموت، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة «بثّ الْمَنون» يعني وفرّ أسباب الموت.

فلم ينصره، قال: ولِمَ؟ قال: لم ينصره المهاجرون والأنصار، فقال معاوية: أما والله! إنّ نصرته كانت عليهم حقّاً واجباً، وفرضاً لازماً، فإذا ضيّعتموه فقد فعل الله بكم ما أنتم أهله، وأصاركم إلى ما رأيتم.

فقال أبو الطفيل: فما منعك ياأميرالمؤمنين (يعني معاوية) إذ تـربّصت بـه ريب المنون أن تنصره ومعك أهل الشام؟ قال معاوية: أو ماترى طلبي بدمه، فضحك أبو الطفيل وقال: بلى ولكنّي وإيّاك كما قال عبيد بن الأبرص:

لا أُلْفِيَنَّكَ بَعْدَ الْـمَوْتِ تَـنْدُبُنِي　　　وَفِي حَيَاتِي مَا زَوَّدْتَنِي زَادِي[1]

ثمّ يتحدّث الإمام عليه السلام للتأكيد ولتوضيح ما تقدّم من كلامه السـابق مـن عـدم استجابة معاوية لدعوة عثمان لنصرته، والآن يلقي باللائمة على الآخرين في عدم الدفاع عنه ويقول: «كَلّا وَاللهِ لـ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ[2] مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوانِـهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنا وَلا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً﴾[3]».

ونعلم أنّ هذه الآية نزلت في شأن طائفتين من المنافقين، إحـداهـما اجـتنبت الجهاد والقتال في معركة الأحزاب ودعوا الآخرين لاجتناب الدخول في الحرب، والأخرى الذين قالوا لإخوانهم من المسلمين هلّمُّ إلينا ولا تقحموا أنفسكم في هذا الخطر، هؤلاء لم يكونوا من أهل الجهاد والقتال الأعداء ولا يشتركون في مواجهة قوى الكفر والشرك إلّا نادراً ومن موقع الإكراه وعدم الرغبة.

ويحتمل أيضاً أنّ هذه الآية الشريفة لا تشير إلى وجود طائفتين من المنافقين، بل تتحدّث عن حالة طائفة معينة تعيش حالتين، أي تشير إلى تلك الطـائفة مـن المنافقين الذين عندما يكونون في صفّ المجاهدين في ميدان القتال يمتنعون من الحرب والجهاد، وعندما يتخلّفون عن الميدان يدعون الآخرين للتخلّف معهم وعدم

---

١. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢١٤.

٢. «المعوقين» من مادة «عَوْق» على وزن «فوق» بمعنى المنع والانصراف عن عمل معين، و «عائق» تعني «المانع» و «معوق» بمعنى ما يمنع من الشيء.

٣. سورة الأحزاب، الآية ١٨.

الاشتراك في الحرب.

على أيّة حال فإنّ استشهاد الإمام عليه السلام بهذه الآية الشريفة إشارة إلى أنّك (معاوية) إذ تستخدم أساليب الدجل والتمويه أمام الناس فيما يتّصل بحادثة قتل عثمان، فإنّ الله تعالى لا يخفى عليه شيء، وأنّه يعلم أنّ عثمان طلب منك النصرة ولكنّك لم تتقدّم خطوة في هذا السبيل (بل كنت مسروراً لمقتله) لعلّ الخلافة تصل إليك.

ومعلوم أنّ معاوية السياسيّ المحترف كان يعلم أنّ المهاجرين والأنصار إذا التزموا الصمت مقابل ثورة الناس ضدّ عثمان ولم يتحرّكوا على مستوى الدفاع عنه، فإن تدخل في هذا الشأن وجاء مع جيشه للدفاع عن عثمان، فسيكون وجهاً لوجه مع المهاجرين والأنصار، وهذا المعنى يكلّفه غالياً في المستقبل، ولهذا السبب لم يهتمّ بدعوة عثمان لنصرته، رغم أنّه بحسب الظاهر كان واليه ومتكاتفاً معه.

وهنا ربّما يثار هذا السؤال، وهو أنّ الآية الشريفة المذكورة أعلاه (الآية ١٨ من سورة الأحزاب) التي تتحدّث عن موقف المنافقين في مقابل النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ربّما تحسب مدحاً ضمنياً لعثمان، لأنّ الإمام عليه السلام في هذا الكلام شبّهه بنبي الإسلام صلى الله عليه وآله.

ولكنّ العبارات اللاحقة تشير إلى أنّ هذا التشبيه ناظر فقط لتشبيه معاوية بالمنافقين، وببيان آخر أنّ التشبيه هنا من طرف واحد، لأنّ الإمام عليه السلام في سياق كلامه يقول: «وَمَا كُنْتُ لأَعْتَذِرَ مِنْ أَنِّي كُنْتُ أَنْقِمُ[1] عَلَيْهِ أَحْدَاثاً[2]؛ فَإِنْ كَانَ الذَّنْبُ إِلَيْهِ إِرْشَادِي وَهِدَايَتِي لَهُ، فَرُبَّ مَلُومٍ لاَ ذَنْبَ لَهُ. وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ[3] الْمُتَنَصِّحُ[4]»، والأحداث تعني البدع التي ارتكبها عثمان في تقسيم بيت المال ووضع مقاليد

١. «انقم» من مادة «نقم» على وزن «قلم» في الأصل بمعنى إنكار الشيء. ثم استخدمت بمعنى الإنتقام والانتقاد، وفي هذا المورد جاءت بالمعنى الثاني.

٢. «احداث» جمع «حدث» على وزن «عبث» وتعني كل شيء جديد، وتأتي بمعنى البدعة، وجاءت هنا بهذا المعنى الأخير.

٣. «الظنّة» بمعنى التهمة من «الظنّة»، بمعنى إساءة الظن.

٤. «المتنصح» تعني الشخص الخيّر والذي ينصح الآخرين بكثرة.

الأمور في الحكومة الإسلاميّة بيد الانتهازيين وغير الجديرين، فيقول الإمام عليه السلام أنّه لا لوم عليَّ من إرشادي وهدايتي له ولو لامني أحد فإنّي أفتخر به.

ويقول الإمام عليه السلام في ختام كلامه: «﴿وَمَا أَرَدْتُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ، وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ إِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1]».

ولا شكّ في أنّ الإمام عليه السلام كان من الأشخاص المعدودين الذين رفضوا قتل عثمان ونهوا الناس عن ذلك، وقد أرسل ولديه (الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام) للدفاع عنه[2].

وجاء في تاريخ ابن عساكر: عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عبّاس قالوا: بعث عثمان بن عفّان المسور بن مخرمة إلى معاوية يعلمه أنّه محصور ويأمره أن يبعث إليه جيشاً سريعاً يمنع عنه، فلمّا قدم على معاوية وأبلغه ذلك ركب معاوية نجائبه ومعه معاوية بن خديج ومسلم بن عقبة، فسار من دمشق إلى عثمان عشراً فدخل المدينة نصف الليل فدقّ باب عثمان فدخل فأكبّ عليه فقبّل رأسه فقال عثمان: فأين الجيش؟ فقال معاوية: لا والله ما جئتك إلّا في ثلاثة رهط، فقال عثمان: لا وصل الله رحمك ولا أعزّ نصرك ولا جزاك عنّي خيراً، فوالله ما أُقتل إلّا فيك ولا ينقم عليَّ إلّا من أجلك.

فقال معاوية: بأبي أنت وأُمّي لو بعثت إليك جيشاً فسمعوا به، عاجلوك فقتلوك قبل أن يبلغ الجيش إليك، ولكن معي نجائب لا تساير ولم يشعر بي أحد فاخرج معي، فوالله ما هي إلّا ثلاث حتّى ترى معالم الشام، فإنّها أكثر دار الإسلام رجلاً وأحسنه فيك رأياً، فقال عثمان: بئس ما أشرت، وأبى أن يجيبه إلى ذلك.

فخرج معاوية إلى الشام وقدم المسور يريد المدينة فلقي معاوية بذي المروة راجعاً إلى الشام، فقدم المسور على عثمان وهو ذامّ لمعاوية غير عاذر له، فلمّا كان

---

١. سورة هود، الآية ٨٨.

٢. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٥٩؛ تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٩، ص ٤١٨.

في حصره الآخير بعث المسور أيضاً إلى معاوية فأغذّ السير حتّى قدم عليه فقال: إنّ عثمان بعثني إليك لتبعث إلى الرجال والخيول وتنصره بالحقّ وتمنع عنه الظلم، فقال معاوية: إنّ عثمان أحسن فأحسن الله به، ثم غيّر فغيّر الله به، فشددت عليه، وقال: يامسور تركتم عثمان حتى إذاكانت نفسه في حنجرته قلتم: إذهب فادفع عنه الموت، ليس ذلك بيدي، ثمّ أنزلني في مشربة على رأسه فما دخل عليّ حتّى قتل عثمان»[١].

وجاء في تاريخ الطبري في حوادث سنة ٣٥ الهجرية أنّ الثوّار حاصروا دار عثمان محاصرة شديدة وقطعوا عنه كلّ مدد حتّى الماء، «وَقَدْ كَانَ يَدْخُلُ بِالشَّيْءِ مِمَّا يُرِيدُ»[٢] أي كان عليّ عليه السلام يأتيه بما يريد من الأمور.

ويذكر الطبري أيضاً في هذا الكتاب: أنّ الناس عندما منعوا الماء والغذاء عن عثمان سخط عليّ عليه السلام بشدّة وقال لهم: ياأيّها الناس إنّ الذي تعملون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمرالكافرين، لا تقطعوا عن هذا الرجل المادّة، فإنّ الروم وفارس عندما تؤسر تطعَم وتُسقى، وما تعرّض لكم هذا الرجل بماتستحلّون حصره وقتله؟[٣].

ويضيف الطبري بعد نقله لهذا الكلام: عندما عزم المسلمون على مهاجمة عثمان منعهم من ذلك الحسن بن عليّ... ومن كان معه من أبناء الصحابة[٤].

ولكن بما أنّ الإمام عليه السلام كان قد انتقد عثمان مراراً عديدة قبل هذه الحادثة بسبب سوء أعماله، ونصحه مراراً أن يكفّ عن تلك التصرّفات الشائنة ويحضر أمام الناس ويستمع ويستجيب لمطالبهم الحقّة، فهذه الأمور أضحت فيما بعد ذريعة بيد معاوية وأمثاله بأنّ الإمام عليه السلام كان يثير الناس ضدّ عثمان، فيقول الإمام: إذا كان الإرشاد والنصيحة ذنباً (والحال أنّ مثل هذا الإرشاد يعدّ مصداقاً بارزاً للأمر بالمعروف

---

١. تاريخ مدينة دمشق، ج ٣٩، ص ٣٣٧.

٢. تاريخ الطبري، ج ٣، ص ٤١٦ إلى ٤١٨.

٣. المصدر السابق.

٤. المصدر السابق.

والنهي عن المنكر) فإنّي أعترف بهذا الذنب، ولكن لا أحد من المؤمنين يعتبر ذلك ذنباً، بل هو فريضة من فرائض الإسلام.

والجدير بالذكر أنّ جملة «رُبَّ مَلُومٍ لاٰ ذَنْبَ لَهُ» هو مثل عربي معروف ويقال إنّ أوّل من نطق بهذه الكلمة «أكثم بن صيفي».

وجملة: «وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الظِّنَّةَ الْمُتَنَصِّحُ» تعني أنّ الشخص أحياناً يصرّ كثيراً على تقديم النصحية إلى أن يكون متّهماً، وهذه العبارة عجز بيت شعر وصدره: «وَكَمْ سُقْتُ في آثارِكُمْ مِنْ نَصيحَةٍ» وقيل إنّ هذا الشعر قاله شاعر يدعى الرياشي[1].

ﷺ

---

١. شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ٩، ص ٦١١.

القسم السادس

وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ! مَتَى أَلْفَيْتَ بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ

فَلَبِّثْ قَلِيلاً يَلْحَقِ الْهَيْجَا حَمَلْ

فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ، سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ، مُتَسَرْبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ؛ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ، وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ، وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾.

الشرح والتفسير

تهدّدني بالحرب!

يشير الإمام عليه السلام في هذا المقطع من رسالته، وهو المقطع الأخير، إلى إحدى عبارات معاوية في رسالته له عليه السلام حيث يهدّده فيها بالحرب، ويقول الإمام عليه السلام: «وَذَكَرْتَ أَنَّهُ لَيْسَ لِي وَلِأَصْحَابِي عِنْدَكَ إِلَّا السَّيْفُ، فَلَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ[1]! مَتَى أَلْفَيْتَ[2] بَنِي عَبْدِالْمُطَّلِبِ عَنِ الْأَعْدَاءِ نَاكِلِينَ[3]، وَبِالسَّيْفِ مُخَوَّفِينَ. فَلَبِّثْ قَلِيلاً

---

١. «استعبار» من مادة «عبر» على وزن «ابر» بمعنى البكاء وذرف الدموع.

٢. «الفيت» من «الإلفاء» بمعنى العثور على الشيء فجأة.

٣. «ناكلين» جمع «ناكل» وهو الإنسان الضعيف والجبان الذي يتراجع عن العمل المقرّر، من «النكول» ويعني الخوف والتراجع.

يَلْحَقِ الْهَيْجَا[1] حَمَلْ».

وجملة: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ» تعتبر مثلاً للشخص الذي يتحدّث بكلام متين وبعبارات قوية إلّا أنّه فجأة يقول كلاماً واهياً وسخيفاً، لأنّ تهديد الإمام عليّ عليه السلام وبني هاشم وعبدالمطّلب بالحرب ممّا يضحك الثكلى، فهؤلاء رجال الميدان وأبناء السيف وأصحاب إقدام وصولة في ميدان القتال، وأنت من جملة المهزومين في معركة بدر والأحزاب وفتح مكة، ويشهد تاريخ الإسلام أنّك من الأشخاص الضعفاء والجبناء، ألا يكون تهديدك لي بالحرب مضحكاً؟ والجدير بالذكر أنّ جملة: «لَقَدْ أَضْحَكْتَ بَعْدَ اسْتِعْبَارٍ» تؤكّد على هذه النقطة، وهي أنّ الشخص إذا كان يضحك لبعض الأمور العادية فهذا ليس بالأمر المهم والمثير، ولكن الشخص الذي يعيش البكاء ويذرف الدموع، لو ضحك في هذه الأثناء من كلمة أو عبارة، فيتبيّن أنّ هذه الكلمة مضحكة جدّاً.

وجملة: «لَبِّثْ قَليلاً يَلْحَقُ الْهَيْجاء حَمَلْ» عجز بيت صدره «مَا أَحْسَنَ الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ».

ويعتبر هذا البيت مثلاً معروفاً لدى العرب، وأصله أنّ رجلاً من قبيلة «قشير» ويدعى «حمل بن بدر» كانت له إبل نهبت في إحدى الحروب في عصر الجاهلية، وكان هذا الرجل شجاعاً، فجاء ليلاً إلى هؤلاء الأعداء وأغار عليهم واستعاد إبله وقال هذا الشعر، ويعني أنّك اصبر قليلاً فسيأتي حمل إلى الميدان، وهو لا يبالي بالموت، لأنّ الموت جميل دفاعاً عن الشرف.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يواصل كلامه ويهدّد معاوية بعبارات حاسمة وكلمات في غاية الفصاحة والبلاغة ويقول: «فَسَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ، وَيَقْرُبُ مِنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ، وَأَنَا مُرْقِلٌ نَحْوَكَ فِي جَحْفَلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ».

وهو إشارة إلى أنني سأقدم عليك في طائفة من المقاتلين الذين أدّوا امتحانهم

١. «هيجاء» بمعنى الحرب، لأنّ الإنسان يعيش حالة الهيجان في الحرب.

في الغزوات الإسلاميّة، وهم ثلاثة طوائف: المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسان، ولكنّ الأشخاص الذين يتبعونك ويأتون معك للميدان هم المهزومون في غزوات الإسلام وأبناؤهم ممّن يعيشون لحدّ الآن رواسب الجاهلية ويسيرون في خطّ الوثنية والضلالة وحبّ الدنيا.

وجملة: «مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ» مقتبسة من الآية الشريفة: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1].

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام يصف أنصاره وأصحابه بأوصاف دقيقة وكلمات بليغة ويقول:

أولاً: «شَدِيدٍ زِحَامُهُمْ».

ثمّ يقولعليه السلام: «سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ[2]»، أي أنّ غبارهم أثناء الحركة يغطّي الأجواء ويمنع رؤية الأفق.

وفي الوصف الثالث يقول: «مُتَسَرْبِلِينَ[3] سَرَابِيلَ الْمَوْتِ أَحَبُّ اللِّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ».

وفي الوصف الرابع يقول: «وَقَدْ صَحِبَتْهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ وَسُيُوفٌ هَاشِمِيَّةٌ، قَدْ عَرَفْتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا[4] فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ وَجَدِّكَ وَأَهْلِكَ ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾».

في هذه الأوصاف الأربعة ذكر الإمامعليه السلام ما ينبغي ذكره في المقام، فهو من جهة ذكر إيمانهم بالله وعشقهم للشهادة ولقاء ربّهم، حيث تعدّ هذه الحالة من أهمّ

---

١. سورة التوبة، الآية ١٠٠.

٢. «قتام» بمعنى الغبار.

٣. «مُتسربلين» في الأصل من «سربال» وهو الثوب، ومتسربل يقال للشخص الذي يرتدي ثوباً، وهنا يشبه الإمامعليه السلام الشهادة بالثوب الذي يرتديه المحاربون من جيشه على أبدانهم، وهو ثوب الافتخار والزينة.

٤. «نصال» جمع «نصل» على وزن «نسل» ويعني رأس السهم أو ذؤابة السيف.

المحفّزات للجهاد في سبيل الله تعالى، والآخر سابقتهم المنيرة في الإسلام من قبيل مساهمتهم في معركة بدر والتصدّي لأعداء الإسلام بسيوف هاشمية، أضف إلى ذلك ما التحق بهم من أعداد غفيرة من المؤمنين، والحقيقة أنّ تعبيرات الإمام عليه السلام في هذه الرسالة تعدّ من أفصح وأبلغ العبارات وأشدّها قوّة وحسماً.

وجملة: «مُرْقِلٌ» تدّل على سرعة الزحف و«جَحْفَل» تطلق على الجيش العظيم الذي يشارك فيه الكثير من الفرسان، وكلمة «سَاطِعٍ قَتَامُهُمْ» تشير إلى أنّ غبارهم قد ملأالخافقين، وكلّ ذلك إشارة إلى أنّ هذا الجيش سيأتيك مسرعاً إلى الميدان ولا يوجد أيّ تردّد في نيّاتهم ولا شكّ في غاياتهم، بل يتحرّكون باتّجاه ميادين الجهاد بعزم راسخ وعشق للشهادة في سبيل الله تعالى.

وكلمة: «ذُرِّيَّةٌ بَدْرِيَّةٌ» تعني أنّ هؤلاء أبناء البدريين، وهم الذين اشتركوا في معركة بدر وكأنّ هؤلاء قد تربّوا في ذلك الميدان، ومع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ جيش الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام يضمّ الكثير من مجاهدي معركة بدر، فهذه العبارة مطابقة للواقع تماماً، وذهب بعض أنّ مفاد هذا العبارة أنّ جيش الإمام عليه السلام يضمّ جماعة من أبناء المحاربين في معركة بدر، في حين أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع سياقات كلام الإمام عليه السلام.

والمراد من «أخيك»: هو أخ معاوية: حنظلة بن أبي سفيان، ومقصوده من «خَالَكَ»: الوليد بن عتبة خال معاوية، والمقصود من «جَدَّكَ»: جدّ معاوية لأمّه وهو عتبة بن ربيعة، ومراده من «أَهْلَكَ»: أسرة معاوية وهم جماعة من أبناء عمومته الذين اشتركوا مع قوى الكفر والشرك في معركة بدر ضدّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والإسلام.

وجملة: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ مقطع من آية ٨٣ من سورةهود، وتشير إلى العذاب الأليم الذي ينتظر قوم لوط، وهم القوم الذين كانوا أشدّ من جميع الأقوام المشركة عذاباً، لأنّ الله تعالى قلب مدنهم وقراهم عاليها سافلها ثمّ أمطر عليهم حجارة من سجّيل، تقول الآية الشريفة: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا

وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[1].

والجدير بالذكر أنّ نصر بن مزاحم ينقل في كتابه صفّين أنّ سعيد بن قيس الصحابيّ المعروف قام يوماً بين أصحابه وخطب فيهم وقال: «إنّ أصحاب محمّد المصطفين الأخيار معنا، وفي حيزنا، فوالله الذي هو بالعباد بصير أن لو كان قائدنا حبشيّاً مجدّعاً ـ إلّا أنّ معنا من البدريين سبعين رجلاً ـ لكان ينبغي لنا أن تحسن بصائرنا وتطيب أنفسنا، فكيف وإنّما رئيسنا ابن عم نبيّنا، بدريّ صدق، صلّى صغيراً وجاهد مع نبيّكم كبيراً، ومعاوية طليق من وثاق الاسار، وابن طليق، إلّا أنّه أغوى جفاةً فأوردهم النار، وأورثهم العار، والله مُحِلّ بهم الذلّ والصغار..»[2].

تأمّل

مدين في لباس دائن!

هناك مثل معروف منذ القديم يقول: «إذا أردت أن لا تقع مديناً فكن دائناً» ومعاوية من الأشخاص الذين استخدموا هذا المثل بكثرة، وتعتبر رسالته للإمام عليه السلام هذه «وتقدّم آنفاً رسالة الإمام عليه السلام له جواباً عليها» مصداقاً بارزاً لهذا المثل، لأنّ معاوية في حين ارتكابه للكثير من السلوكيات الخاطئة، ومع سوء سابقته في الإسلام، أخذ يتبجّح بالحقّانية ويكتب للإمام عليه السلام رسالة فيها الكثير من المطالبة بالحقّ.

ولو استطلعنا قائمة سوابقه الاجتماعية والأخلاقية وتصرّفاته السيئة في مسيرته في خط الضلالة، لرأينا:

١. من حيث الأُسرة، فإنّ معاوية يتمتّع بوضع غريب، فوالده أبوسفيان العدوّ الأول للإسلام، وهو العامل الأساس لإشعال نار الحروب ضدّ المسلمين، وأُمّه هند

---

١. سورة هود، الآيتان ٨٢ و ٨٣.

٢. صفين، ص ٢٣٦.

المعروفة بآكلة الأكباد، المرأة التي جاءت إلى ميدان القتال في معركة أحد وشقّت بطن حمزة بن عبدالمطّلب عليه السلام وأخرجت كبده ولاكته.

٢. من حيث الإيمان بالإسلام فإنّ معاوية أسلم في آخر مرحلة من الدعوة، يعني في سنة فتح مكة، وتحت عوامل الإكراه، حيث أعلن هو وأبوه الإسلام ظاهراً.

٣. امتنع من البيعة لإمام المسلمين عليّ بن أبي طالب عليه السلام الذي بايعه المهاجرون والأنصار وجمهور عظيم من المسلمين.

٤. رفع لواء المخالفة ضدّ الحكومة الإسلاميّة بذريعة الطلب بدم عثمان وجمع حوله مجاميع كثيرة من المنافقين والمطرودين في زمان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

٥. جعل من بيت مال المسلمين وسيلة لتحقيق مآربه ومطامعه، فبنى قصراً عظيماً كقصر القياصرة والملوك، ووزّع أموال بيت المال على وضّاع الأحاديث ورؤساء القبائل والأشخاص المتملّقين والمتزلّفين.

٦. لم يمتنع من سفك دماء الأبرياء، فكان أن قتل محمّد بن أبي بكر الرجل الصالح ومالك الأشتر القائد الإُسلاميّ الفذّ، وعمّار بن ياسر الصحابي المعروف والمقرّب للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله، وكان يأمر جيشه بالإغارة على حدود العراق والقرى والقصبات العراقية ويقتل الكثير من الأبرياء.

٧. بالرغم من تقصيره في الدفاع عن عثمان، ومع طلب عثمان النصرة منه، إلّا أنّه نصب نفسه ومطالباً بدمه وأخذ يطالب بالثأر له.

وهكذا نرى أنّ معاوية على الرغم من هذه الأعمال، يتحدّث في رسالته للإمام عليه السلام بوصفه دائناً لا مديناً، فمن جهة ينبري للدفاع عن أصحاب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والمهاجرين والأنصار ويتحدّث عن أنّ ظهور النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وبعثته هبة إلهيّة عظيمة للناس، وأنّ الإمام عليه السلام كان مقصّراً في نصرة الصحابة، ومن جهة أخرى يتّهم الإمام عليه السلام بالمشاركة في دم عثمان، ومن جهة ثالثة يقول إنّ بيعة الإمام عليه السلام للخليفة الأوّل من موقع الإكراه تعدّ منقصة ومذمّة.

ولكنّ الإمام عليه السلام في جوابه على هذه الأقاويل أجاب عنها بعبارات حاسمة وبليغة جدّاً وأجهض سعي معاوية في التشويش على الذهنية العامة، وألفت نظره إلى ما كان عليه هو وأُسرته في زمان النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ومشاركته هو وأقرباؤه من بني أُمية ضدّ الإسلام والنبيّ في معركة بدر، ومقتل الكثير من أرحامه بيد جنود الإسلام، وقال له بصراحة: إنّ ثناءك على النبيّ صلى الله عليه وآله وبيان أهمية بعثته لشخص مثل عليّ بن أبي طالب إنّما هو من قبيل «حمل التمر إلى هَجَر»، ثمّ بيّن الإمام عليه السلام تقصير معاوية في نصرة عثمان، ورسم بعبارات جلّية وبليغة حدود ومعالم أُسرة بني هاشم وبني أُمية في الجاهلية والإسلام، وجدارته لمقام الخلافة بعد النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بالأدلّة والبراهين الجليّة والقاطعة، ويقول بالنسبة لبيعته لأبي بكر، أنّك أردت الذمّ ولكنّك مدحت من حيث لا تشعر، وأخيراً أجابه عن تهديده بالحرب وقال له: إنّ تهديدك مضحك ولا معنى له بالنسبة لشخص هو وليد الحرب وقد تربّى وترعرع في ميادين القتال والجهاد.

ومن مجموع ما تقدّم من شرح هذه الرسالة، وكما أشرنا إلى ذلك سابقاً، أنّ هذه الرسالة للإمام عليه السلام، كما يؤكّد شرّاح نهج البلاغة أيضاً، تعتبر من أروع الرسائل والكتب التي تبيّن أهداف الإمام عليه السلام وترسم آفاق رؤاه ومواقفه بأفضل وجه.

٢٩

ومن كلام له عليه السلام

إلىٰ أهلِ البَصْرَةِ[١]

نظرة إلى الرسالة

كما أوردنا في بيان سند هذه الرسالة في الهامش، أنّ هذه الرسالة ترتبط بالفتنة التي أثارها معاوية في البصرة، والقصّة بشكل مختصر كالتالي: إنّ بعض أتباع معاوية بعد استيلاء عمرو بن العاص علىٰ مصر ومقتل محمّد بن أبي بكر قالوا له: إبعث رجلاً إلى البصرة لإخراجها من ولاية عليّ بن أبي طالب، فقبل معاوية بهذا الاقتراح ووافق على ذلك. ونقل صاحب كتاب الغارات هذه الواقعة بهذا الشكل:

---

١. سند الرسالة:

تتعلق هذه الرسالة بالفتنة التي أشعل فتيلها معاوية في البصرة بواسطة شخص يدعى ابن الحضرمي، وغايته من ذلك التسلط على البصرة حيث أمر معاوية باستغلال الأحقاد المترسبة لدى أهل البصرة من المهزومين في معركة الجمل وكذلك استغلال قضية مقتل عثمان بن عفان لتثوير الناس في البصرة واخراجها من دائرة حكومة أميرالمؤمنين عليه السلام، ولكن لم يحالفهم التوفيق، حيث قتل ابن الحضرمي في هذه الواقعة، وقد ذكر الواقعة «إبراهيم الثقفي» في كتابه المعروف الغارات، وبعد أن هدأت هذه الفتنة أرسل الإمام عليه السلام هذه الرسالة إلى أهالي البصرة بواسطة بعض أصحابه، وينبغي الالتفات إلى أنّ كتاب «الغارات» تمّ تأليفه قبل السيد الرضي، ومن هنا فإنّه اقتبس هذه الرسالة من مصدر آخر غير نهج‌البلاغة. (وصاحب هذا الكتاب إبراهيم بن هلال الثقفي المتوفى في سنة ٢٨٣) (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٩).

«بعد مقتل محمّد بن بكر واستيلاء عمرو بن العاص على مصر، سيّر معاوية عبدالله بن الحضرمي إلى البصرة وقاله له: إنّ جلّ أهلها يرون رأينا في عثمان، وقد قتلوا في الطلب بدمه، فهم لذلك حانقون، يودّون أن يأتيهم من يجمعهم وينهض بهم في الطلب بثأرهم ودم إمامهم، فانزل في مضر وتودّد الأزد، فإنّهم كلّهم معك، ودع ربيعة فلن يتحرّف عنك أحد سواهم، لأنّهم كلّهم ترابية فاحذرهم، فسار ابن الحضرمي حتّى قدم البصرة، وكان ابن عباس قد خرج إلى الكوفة (ليعزّي أميرالمؤمنين عليه السلام باستشهاد محمّد بن أبي بكر) واستخلف زياد بن أبيه على البصرة، فلمّا وصل ابن الحضرمي إلى البصرة نزل في بني تميم.

فرفع ذلك ابن عباس إلى أميرالمؤمنين عليه السلام فشاع في الناس بالكوفة ما كان من ذلك... ثمّ إنّه عليه السلام دعا أعين بن ضبيعة المجاشعي وقال له: يا أعين ما بلغك أنّ قومك وثبوا على عاملي مع ابن الحضرمي بالبصرة يدعون إلى فراقي وشقاقي ويساعدون الضلّال الفاسقين عليَّ؟.

فقال أعين: لا تستأ ياأميرالمؤمنين ولا يكن ما تكره، ابعثني إليهم فأنا لك زعيم، فنجح أعين تقريباً في مهامّه ولكنّه لما أوىٰ إلى رحله تبعه عشرة نفر يظنّ أنّهم خوارج، فضربوه بأسيافهم فقتلوه، ولمّا وصل خبر استشهاده إلى أميرالمؤمنين عليه السلام، دعا عليه السلام جارية بن قدامة (صاحب الكلمة النافذة) وكتب معه كتاباً فقال له: ياابن قدامة إقرأه على أصحابك، وما جاء في نهج البلاغة سوى قسم من رسالة الإمام عليه السلام إلى الناس.

انهزم المخالفون والتجأ ابن الحضرمي إلى دار، فأحرقها ابن قدامة عليه وعلى أنصاره، فهلكوا جميعاً وخمدت نار الفتنة[1].

---

١. لمزيد الاطلاع انظر: الغارات، ج ٢، ص ٣٧٣-٤١٢.

وَقَدْ كَانَ مِنِ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ وَشِقَاقِكُمْ مَا لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ. فَإِنْ خَطَتْ بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ، وَسَفَهُ الآرَاءِ الْجَائِرَةِ، إِلَىٰ مُنَابَذَتِي وَخِلَافِي، فَهَا أَنَا ذَا قَدْ قَرَّبْتُ جِيَادِي، وَرَحَلْتُ رِكَابِي. وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَىٰ الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ؛ مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَىٰ بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثاً إِلَىٰ وَفِيٍّ.

الشرح والتفسير

إطفاء نار الفتنة في البصرة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذه الرسالة القصيرة والزاخرة بالمضمون العميق والدقيق، من موقع العمل على إطفاء نار الفتنة التي أثارها معاوية في البصرة، وذلك استناداً إلى أصلين: الأول: التهديد الجديّ والأكيد لمَن يتحرّك على مستوى نقض البيعة والعهد، ويذكّرهم أنّهم إذا لم يتركوا تآمرهم ويتخلّوا عن الفتنة فإنّه سيأتي إليهم بجيش كبير وسيقمعهم كما قمعهم في معركة الجمل، ثمّ يتحدّث عن أصل الرحمة والرأفة بالنسبة للأشخاص الذين التزموا بالوفاء للإمام عليه السلام أو أظهروا الندم على أفعالهم السابقة، ويبشّرهم بأنّ أموالهم ونفوسهم وأعراضهم ستكون في أمن وأمان من التعرّض للخطر.

وبداية يقول الإمام عليه السلام: «وَقَدْ كَانَ مِنِ انْتِشَارِ حَبْلِكُمْ[١] وَشِقَاقِكُمْ[٢] مَا لَمْ تَغْبَوْا[٣] عَنْهُ، فَعَفَوْتُ عَنْ مُجْرِمِكُمْ، وَرَفَعْتُ السَّيْفَ عَنْ مُدْبِرِكُمْ، وَقَبِلْتُ مِنْ مُقْبِلِكُمْ».

والحقيقة أنّ الإمام عليه السلام بهذا الكلام يعمل على إبطال حيلة معاوية وإجهاض تآمره هو وأتباعه، فقد كان معاوية عازماً على إثارة أهالي البصرة ضدّ الإمام عليه السلام بتذكيرهم بمعركة الجمل، ولكنّ الإمام عليه السلام بتذكيرهم بنتائج هذه المعركة عَمِل على إطفاء نار الفتنة والفساد، وقال لهم: أنّكم كنتم أهل الشقاق وقد تحرّكتم في خطّ التمرّد والثورة ضدّ الخلافة الإسلاميّة، ولكن بعد أن حلّت بكم الهزيمة لم أصدر الأمر بقتلكم، ولم أسمح بتعقّب الهاربين منكم، وأصدرت العفو العام عنكم وصفحت عن المجرمين منكم، وقبلت الأشخاص الذين جاءوا إليّ نادمين وطويت صفحة الماضي، وتناسيت ما ارتكبوه من أعمال، وعلى هذا الأساس فينبغي أن تكونوا ممّن يلتزم بالقيم الأخلاقية، ولا يردّ الجميل بالإساءة ولا يقيم العلاقة مع أعدائه.

وجاء في بعض الروايات أنّ الإمام عليّ عليه السلام بعد انتصاره في معركة الجمل أمر منادياً ينادي بصوت عالٍ: «لَا تُتْبِعُوا مُوَلِّياً وَلَا تُجهِزُوا عَلَى جَرِيحٍ»[٤].

ثم أمر منادياً ينادي: «مَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ وَمَنْ أَلْقَى سِلَاحَهُ فَهُوَ آمِنٌ»[٥]، وهذا الأمر يشبه ما أصدره رسول الله صلى الله عليه وآله من العفو العام عند فتح مكة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام ولغرض إطفاء نار الفتنة هذه، تحدّث عن الشدّة والحسم في مقابل الأشخاص المعاندين والانتهازيين وقال: فَإِنْ خَطَتْ[٦] بِكُمُ الْأُمُورُ الْمُرْدِيَةُ،

---

١. «حَبْل» أصله بمعنى العهد والذمة، ثم اطلق على كل شيء مفتول، وجملة «إنتِشارُ حَبلِكُم» كناية عن التفرق وتشتت الجماعة.

٢. «شقاق» في الأصل تعني العداوة والكراهية، وهنا جاءت بمعنى نقض العهد وترك البيعة.

٣. «تغبوا» من «الغباوة» بمعنى الجهل والغفلة، وعلى ضوء ذلك فإنّ جملة «لَمْ تَغْبَوْا عَنْهُ» تعني أنّكم لستم غافلين عنه.

٤. الكافي، ج ٥، ص ٣٢.

٥. المصدر السابق، ص ١٢، ح ٢.

٦. «خطت» من «الخَطو» على وزن «ختم» بمعنى تقديم القدم في المشي، و«خطوة» بمعنى تقديم القدم مرّة

وَسَفَهُ الْآرَاءِ الْجَائِرَةِ، إِلَىٰ مُنَابَذَتِي [١] وخِلَافِي، فَـهَا أَنَـا ذَا [٢] قَـدْ قَـرَّبْتُ جِـيَادِي [٣]، وَرَحَلْتُ [٤] رِكَابِي».

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «وَلَئِنْ أَلْجَأْتُمُونِي إِلَى الْمَسِيرِ إِلَيْكُمْ لَأُوقِعَنَّ بِكُمْ وَقْعَةً [٥] لَا يَكُونُ يَوْمُ الْجَمَلِ إِلَيْهَا إِلَّا كَلَعْقَةِ لَاعِقٍ».

وهذا يعني أنني في معركة الجمل لم أكن مستعداً لها من حيث العدّة والعدد وكانت إمكاناتي قليلة في تلك الواقعة، ولكنني اليوم أملك جيشاً منسجماً وكثير العدّة والعدد، ويملك أفراد الجيش كلّ وسيلة قتالية وآلة حربية، وعلى ضوء ذلك فلو وقعت حرب فلا تقبل المقارنة مع تلك المعركة السابقة، وسوف لا يكون محلّ لما بدرَ منّي من محبّة ورأفة بكم في حرب الجمل، لأنّكم تناسيتم تلك الرأفة وتجرّأتم على إمامكم، وكأنّ تلك المودّة وذلك الإحسان زاد من جرأتكم ووقاحتكم.

وجملة: «لَعْقَة لأعِق» مع الالتفات إلى أنّ كلمة «لعقة» (على وزن قهوة) بمعنى اللحس، و«لعقة» (على وزن بقعة)، المقدار من الشيء الذي يحمل بالملعقة، فهذا كناية على أنّ هذا المقدار قليل جدّاً، وفي المثل المتعارف كالقطرة في البحر.

ولكن لئلاّ يستغلّ العدوّ هذا الكلام ويسيء فهمه ويتصوّر أنّ الإمام عليه السلام يهدّد جميع أهالي البصرة ويقول إنني سوف أحرق الأخضر واليابس وأعاقب المحسن

☜ واحدة بحيث توجد فاصلة بين القدم في حال المشي، وهذه المفردة تتعدى بالباء ويكون مفهوم الجملة مورد البحث أنّ الأفكار المهلكة والآراء السخيفة والمفسدة تقودكم إلى المخالفة والتمرد.

١. «مُنابَذَة» بمعنى المخالفة والمجابهة، وهي في الاصل من «النبذ» بمعنى الإلقاء بعيداً وكأنّ الشخص في مخالفته للآخر يدفع به إلى المجابهة بعيداً عن الصلح والمواءمة.

٢. «ها أنا ذا» عبارة مركبة من ثلاث كلمات: «ها» للتنبيه، و«أنا» ضمير المتكلم الواحد و «ذا» اسم إشارة ومفهوم الجملة أنّكم على علم بي وتعرفوني.

٣. «جِياد» جمع «جواد» وهي الخيل الممتازة.

٤. «رَحَلْت» من مادة «رحل» على وزن «نخل» بمعنى وضع القتب على الإبل، و«ركاب» تعني الإبل.

٥. «وَقْعَة» بمعنى الهجمة في الحرب.

والمسيء يضيف الإمام عليه السلام: «مَعَ أَنِّي عَارِفٌ لِذِي الطَّاعَةِ مِنْكُمْ فَضْلَهُ، وَلِذِي النَّصِيحَةِ حَقَّهُ، غَيْرُ مُتَجَاوِزٍ مُتَّهَماً إِلَىٰ بَرِيٍّ، وَلَا نَاكِثاً إِلَىٰ وَفِيٍّ».

وجاء في بعض الروايات أنّ زياد بن أبيه ـ الذي كان أحد المعاونين والمستشارين لابن عباس والي البصرة، وعندما سافر ابن عباس إلى الكوفة لرؤية الإمام عليه السلام وتقديم التعازي بمناسبة استشهاد محمّد بن أبي بكر، واستلم زمام أمور البصرة ـ خطب خطبة حماسيّة وهدّد فيها أهالي البصرة بأنني لا أُميّز بين المذنب والبريء وسوف أخذ الأب بذنب ابنه، والجار بذنب جاره، وسأنزل العقاب الشديد بكم جميعاً إلّا أن تسلكوا في الطريق الصحيح[1].

ويحتمل أنّ هذا الكلام وصل إلى مسامع الإمام عليه السلام، فأراد الإمام عليه السلام بكلامه المذكور آنفاً بيان سعة دائرة العدل الإسلامي وإصلاح ما صدر من زياد بن أبيه من الكلام المتقدّم.

ﷻ

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٤.

٣٠

ومن كلام له عليه السلام

إلىٰ مُعاوِيَة[1]

نظرة إلى الرسالة

لم ينقل المرحوم السيّد الرضيّ مطلع هذه الرسالة، وقد ابتدأت الرسالة وفقاً لما ذكره ابن أبي‌الحديد بعبارة: «أمّا بَعْدُ فَقَدْ بَلَغني كِتابُكَ تَذْكُرُ فيهِ مُشاغَبَتي».

وهذا التعبير يبيّن بوضوح أنّ الرسالة لم تكن سوى رسالة جوابية للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام علىٰ رسالة معاوية له، والتي يتّهم فيها الإمام عليه السلام بخلق الفتنة، والظلم والجور، والإمام عليه السلام يجيبه جواباً قاطعاً أنني أعمل بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتصدّي للظالمين والملحدين والمنافقين على أساس تعاليم القرآن الكريم وأوامر الله تعالى.

---

١. سند الرسالة:

جاء في كتاب مصادر نهج‌البلاغة أنّ ابن أبي‌الحديد في شرحه وابن ميثم في شرحه لنهج البلاغة ذكرا هذه الرسالة مع إضافات قيمة لا توجد في نهج‌البلاغة، وهذه الحقيقة تشير إلى وجود مصادر أخرى لهذه الرسالة كانت بين أيديهما، مضافاً إلى وجود بعض التفاوت بين نقل ابن أبي‌الحديد وابن ميثم مما يشير إلى أنّ لكل منهما مصدر مستقل اقتبس منه هذه الرسالة، وقد أورد العلوي في كتابه الطراز بعض مقاطع هذه الرسالة بتعبيرات متفاوتة عن تعبيرات السيد الرضي، وهذا بدوره يدلّ على وجود مصدر آخر لهذه الرسالة. (مصادر نهج‌البلاغة، ج ٣، ص ٢٧٠).

وبعد أنّ يبرّىء الإمامعليه السلام ساحته من هذه التهم الموهنة يبدأ بتقديم النصح لمعاوية، وهو ما نقله السيد الرضيّ في هذه الرسالة.

يقول الإمامعليه السلام لمعاوية: ينبغي عليك أن تتعرّف على طريق الحقّ الذي وضحت معالمه وتبيّنت سُبله، فلا عذر لك في جهلك به، ولا ينبغي لك أن تنحرف عن مسير الحقّ وتتحرّك في متاهات الحياة وتسلك دروب الضلالة فيسلب الله تعالى نعمه منك وينزل عليك عقابه وعذابه، فحذار من المسير في خطّ الأهواء النفسانية التي تقودك إلى وادي المهالك وتقحمك في مهاوي الكفر وترك الايمان.

فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ، فَإِنَّ لِلطَّاعَةِ أَعْلَاماً وَاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً نَهْجَةً، وَغَايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا الْأَكْيَاسُ، وَيُخَالِفُهَا الْأَنْكَاسُ؛ مَنْ نَكَبَ عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، وَخَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ. فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ، فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَىٰ غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ، فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ غَيّاً، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ.

الشرح والتفسير

ينبغي أن تفكّر بعاقبة أمرك!

من المناسب أن نورد هنا رسالة معاوية للإمام لغرض توضيح أهداف الإمام عليه السلام من رسالته الجوابية لمعاوية، وأنّ جواب الرسالة ناظر إلى النص الوارد في الرسالة الأُولى، ولكن للأسف لم تنقل هذه الرسالة، بحدود اطلاعنا، في أيّ كتاب ومصدر، رغم أنّ رسالة الإمام عليه السلام تبتدىء بمقطع لم ينقله المرحوم السيّد الرضيّ، ومع الالتفات إلى هذا المقطع من الرسالة يتبيّن بشكل إجماليّ مضمون رسالة معاوية أيضاً، لأنّ الإمام عليه السلام في مطلع هذه الرسالة وطبقاً لما ورد في كتاب «نهج البلاغة الكامل» يقول: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ مِنْ عَبْدِاللهِ عَلِيٍّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ.

أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ تَذْكُرُ مُشَاغَبَتِي، وَتَسْتَقْبِحُ مُوَازَرَتِي، وَتَزْعُمُنِي

مُتَجَبِّراً، وَعَنْ حَقِّ اللهِ مُقَصِّراً. فَسُبْحَانَ اللهِ، كَيْفَ تَسْتَجِيزُ الْغِيبَةَ، وَتَسْتَحْسِنُ الْعَضِيهَةَ. فَإِنِّي لَمْ أُشَاغِبْ إِلَّا فِي أَمْرٍ بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيٍ عَنْ مُنْكَرٍ. وَلَمْ أَتَجَبَّرْ إِلَّا عَلَى بَاغٍ مَارِقٍ، أَوْ مُلْحِدٍ كَافِرٍ، وَلَمْ آخُذْ فِي ذَلِكَ إِلَّا بِقَوْلِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾[1] وَأَمَّا التَّقْصِيرُ فِي حَقِّ اللهِ ـ تَعَالَى ـ فَمَعَاذَ اللهِ وَإِنَّمَا الْمُقَصِّرُ فِي حَقِّ اللهِ ـ جَلَّ ثَنَاؤُهُ ـ مَنْ عَطَّلَ الْحُقُوقَ الْمُؤَكَّدَةَ، وَرَكَنَ إِلَى الْأَهْوَاءِ الْمُبْتَدَعَةِ، وَأَخْلَدَ إِلَى الضَّلَالَةِ الْمُحَيِّرَةِ. وَمِنَ الْعَجَبِ أَنْ تَصِفَ، يَا مُعَاوِيَةُ، الْإِحْسَانَ، وَتُخَالِفَ الْبُرْهَانَ، وَتَنْكُثَ الْوَثَائِقَ الَّتِي هِيَ للهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ طَلِبَةٌ، وَعَلَى عِبَادِهِ حُجَّةٌ، مَعَ نَبْذِ الْإِسْلَامِ، وَتَضْيِيعِ الْأَحْكَامِ، وَطَمْسِ الْأَعْلَامِ، وَالْجَرْيِ فِي الْهَوَى، وَالتَّهَوُّسِ فِي الرَّدَى».

أمّا ما أورد السيّد الرضيّ في نهج البلاغة فهو:

إنّ الإمام عليه السلام بعد هذه المقدّمة أخذ ينصح معاوية ويعظه بطرق مختلفة ويتمّ الحجّة عليه، بداية يقول في ثلاث جمل قصيرة وعميقة المعنى: «فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ، وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ، وَارْجِعْ إِلَىٰ مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ».

الجملة الأولى: «فَاتَّقِ اللهَ فِيمَا لَدَيْكَ» ربّما تشير إلى مقام معاوية في ولاية الشام، أو إلى أموال المسلمين في يده، أو جميع نعم الله عليه، فالإمام عليه السلام هنا يحذّره من التمسّك بما ليس لك من المقام ويجب عليك إعادته إلى أصحابه وأن تستخدم نعم الله عليك في طريق طاعته والسعي لنيل رضاه وإمتثال أمره.

والجملة الثانية: «وَانْظُرْ فِي حَقِّهِ عَلَيْكَ» إشارة إلى أنّ الله تعالى له حقّ على عباده في مقابل كلّ هذه النعم والمواهب التي أنعم بها عليهم، وهذا الحقّ الإلهيّ يستلزم أن يسير العبد في خط الطّاعة والعبودية والامتناع عمّا نهى الله عنه، فلو أنّه لم يؤدّ هذا الحقّ فسوف يواجه العذاب الأليم في الآخرة.

والجملة الثالثة: «وَارْجِعْ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا لَا تُعْذَرُ بِجَهَالَتِهِ» ذهب جمع من شرّاح

١. سورة المجادلة، الآية ٢٢.

نهج البلاغة إلى أنّها إشارة لمعرفة الإمام عليه السلام الواجب الإطاعة، فقد ورد في الحديث المشهور: «مَنْ مٰاتَ وَلَمْ يَعْرِفْ إِمٰامَ زَمٰانِهِ فَقَدْ مٰاتَ مَيْتَةً جٰاهِلِيَّةً»[١].

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة أنّها إشارة إلى جميع المعارف الإلهيّة والدينية التي لا يعذر الإنسان في جهله بها، وعلى ضوء ذلك فالإمام عليه السلام يوصي معاوية بأن يتعرّف على أصول دينه وفروعه والتكاليف الشرعية التي يتوجّب عليه القيام بها أمام الله تعالى والناس.

ويتحرّك الإمام عليه السلام بعد ذلك من موقع الاستدلال على ما تقدّم من كلامه (فإنّك غير معذور في حالة الجهل) ويضيف: «فَإِنَّ لِلطّٰاعَةِ أَعْلاٰماً وٰاضِحَةً، وَسُبُلاً نَيِّرَةً، وَمَحَجَّةً[٢] نَهْجَةً[٣]، وَغٰايَةً مُطَّلَبَةً، يَرِدُهَا الأَكْيٰاسُ[٤]، وَيُخٰالِفُهَا الأَنْكٰاسُ[٥]».

والإمام عليه السلام في هذا الكلام يتمّ الحجّة على معاوية بأنّك يوم القيامة لا يمكنك أبداً أن تدّعي أنّ الطريق كان مظلماً وأنّ معالمه غير واضحة، ولذلك لم أعرف الحقّ والحقيقة، فيقول الإمام عليه السلام: إنّ أعلام هذا الطريق واضحة وآياته بيّنة من خلال ما ورد في الآيات القرآنية من جهة، والأحاديث النبوية المعتبرة من جهة أخرى، والبراهين العقلية الساطعة من جهة ثالثة، وكلّها تمثّل علامات هذا الطريق المتوفّرة في كلّ مكان منه، أضف إلى ذلك أنّ الجادة غير مظلمة «سُبُلاً نَيِّرَةً» فالطريق واضح ورحب ليس فيه مآزق ومنزلقات: «مَحَجَّةً نَهْجَةً» والغاية النهائية لهذا المسير نيل

---

١. ورد هذا الحديث الشريف بهذه العبارة في كتب الشيعة، مثل: وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٤٩٢، ح ٢٣، باب ٣٣ من أبواب كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وفي كتب أهل السنّة ورد بتعابير مشابهة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله من قبيل: «مَنْ مٰاتَ وَلَيسَ عَلَيْهِ إمٰامَ فَميتَتَهُ ميتَةً جٰاهِلِيَّةً». (المعجم الكبير، ج ١٠، ص ٢٨٩).
وفي حديث آخر عن معاوية بن أبي سفيان أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ مٰاتَ بِغَيْرِ إِمٰامٍ مٰاتَ مِيتَةً جٰاهِلِيَّةً» (مسند أحمد، ج ٤، ص ٩٦).

٢. «مَحَجَّة» بمعنى الجادة الواسعة والطريق المستقيم والواضح.

٣. «نَهْجَة» تارة تأتي بمعنى اسم المصدر وتعني المنهج، وأخرى بمعناها الوصفي وتعني الواضح والبين.

٤. «أكْيٰاس» جمع «كيس» بمعنى الذكي والمنتبه والحكيم.

٥. «الأَنْكٰاس» جمع «نكس» على وزن «حرص» ويعني الإنسان الضعيف والذليل والجاهل، من مادة «نكس» على وزن «عكس» وتعني المنقلب وجعل عالي الشيء سافله.

السعادة الأبدية، وهذا المعنى لا يخفى على كلّ إنسان.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام ذكر في كلامه كلمة: «**سُبُل**» جمع سبيل، وكذلك «**مَحَجَّة**» وتعني الطريق الواسع والجادّة الواضحة، لأنّ الإنسان عادة يتحرّك من الطرق الفرعية ليوصل نفسه إلى الجادة الأصلية، ثم يتوجّه إلى مقصده وغايته، وإذا وردت «سُبل» بصيغة الجمع و«محجّة» بصورة مفرد فهي ناظرة إلى هذا المعنى وهو أنّ الطرق الفرعية التي يشرع الإنسان فيها حركته، متعدّدة، ولكنّ الجادّة الأصلية واحدة عادة.

أمّا عبارة «**غَايَةً مُطَّلَبَةً**» فتارة تقرأ بتشديد الطاء وأخرى بتشديد اللام، وجاء في بعض النسخ «مطلوبة» وهي كلّها تعني المطلوبة. فالإمام يقول: إنّ طاعة الله تعالى تمثّل هدفاً مطلوباً للإنسان، والمقصود منها نيل القرب من الله تعالى والوصول إلى السعادة الأبدية والنجاة في الآخرة وتحصيل رضا الله تعالى وشمول لطفه ورحمته في الدنيا، فالعقلاء وأولو الألباب يتحرّكون في واقع الحياة لتحقيق هذا الهدف، لأنّهم غير مستعدّين للتضحية بالسعادة الأبدية ورضا الله تعالى لحساب تحصيل الأموال والمقامات والشهوات الدنيوية، كما ورد هذا المعنى في الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال: «**الْكَيِّسُ مَنْ أَحْيَا فَضَائِلَهُ وَأَمَاتَ رَذائِلَهُ**»[1]، ونقرأ في حديث شريف عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «**إِنَّمَا الْكَيِّسُ كَيِّسُ الْآخِرَةِ**»[2].

وفي مقابل ذلك فإنّ الأراذل من الناس لا يتحرّكون باتجاه هذا الهدف، وإنّما يقنعون بتحصل الملذّات الدنيوية الرخيصة ويطلبون الزخارف المادية المهزوزة والعناوين الاعتبارية، ويبيعون أغلى ما لديهم من متاع بأزهد الأثمان، وهذا بذاته دليل على سفاهتهم وحماقتهم.

---

١. غرر الحكم، ص ٣٢٢، ح ٧٤٦٤.

٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٦٢.

ويستمرّ الإمام عليه السلام في كلامه محذّراً معاوية من مغبّة الانحراف عن الصراط المستقيم والإعراض عن طاعة الله تعالى، لأنّه: «مَنْ نَكَبَ[1] عَنْهَا جَارَ عَنِ الْحَقِّ، خَبَطَ فِي التِّيهِ، وَغَيَّرَ اللهُ نِعْمَتَهُ، وَأَحَلَّ بِهِ نِقْمَتَهُ».

فالإمام عليه السلام في هذه الجمل الأربع، يشير في البداية إلى نتيجة الانحراف عن مسير الطاعة، وهو البعد عن الحقّ والتوغّل في دروب المتاهة والحيرة، وبالتالي يعيش الإنسان الحرمان من النعم الإلهيّة ويستحقّ حينئذٍ العقوبة والعذاب.

والجملتان الأوليان في الواقع بمثابة المقدّمة، والجملتين الثالثة والرابعة بمثابة النتيجة وذي المقدمة، وكأنّ كلام الإمام عليه السلام هذا إشارة إلى الآية الشريفة: ﴿ذٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2].

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «فَنَفْسَكَ نَفْسَكَ! فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ، وَحَيْثُ تَنَاهَتْ بِكَ أُمُورُكَ، فَقَدْ أَجْرَيْتَ إِلَىٰ غَايَةِ خُسْرٍ، وَمَحَلَّةِ كُفْرٍ».

وهذا التعبير في الحقيقة مقتبس من القرآن الكريم: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾[3]، وتعبير الإمام عليه السلام إشارة إلى أنّ هذا الطريق الذي سلكته لا يقودك إلّا إلى الشقاء والخسران والكفر، فينبغي عليك الانتباه من نوم الغفلة والعودة إلى أحضان الحقّ وتعاليم الرسالة الإلهيّة.

وجملة: «قَدْ بَيَّنَ اللهُ لَكَ سَبِيلَكَ»، ذهب الكثير من شرّاح نهج البلاغة بأنّ الله تعالى قد بيّن لك سبيل النجاة، في حين أنّ هذا المعنى قد ورد في العبارات السابقة ولا حاجة للتكرار، فالمقصود من هذه العبارة شيء آخر، وهو أنّ الإمام عليه السلام يريد القول بأنّ الله تعالى قد بيّن لك خطأ هذا المسير الذي تسير عليه وبيّن لك عواقبه السيئة، والعبارات اللاحقة أيضاً تؤيّد هذا المعنى.

---

١. «نكب» من «النكب» على وزن «نقب» وتعني الانحراف في المسير، و«ناكب» هو الشخص الذي انحرف عن الطريق وأعرض عنه، ومن هذه الجهة يقال لمن أعرضت الدنيا عنه أنّه منكوب وأصابته نكبة.

٢. سورة الأنفال، الآية ٥٣.

٣. سورة المائدة، الآية ١٠٥.

وفي المقطع الأخير من الرسالة، طبقاً لما ذكره السيد الرضي بيّن الإمامعليه السلام في أربع جمل أخرى العواقب التي تنتظر معاوية والمترتبة على أعماله السيئة، ويقول: «فَإِنَّ نَفْسَكَ قَدْ أَوْلَجَتْكَ[١] شَرّاً، وَأَقْحَمَتْكَ[٢] غَيّاً[٣]، وَأَوْرَدَتْكَ الْمَهَالِكَ، وَأَوْعَرَتْ[٤] عَلَيْكَ الْمَسَالِكَ».

وكلّ جملة من هذه الجمل الأربع تبيّن أحد أبعاد العاقبة السيئة لأعمال معاوية وكلّ من سار على هذا الخطّ، في البداية التورّط في عناصر الشرّ، وأيّ شرّ أشنع من أن تتلوّث يد الإنسان بدم الأبرياء من الناس والتلاعب ببيت المال وإعطاء مال المسلمين إلى غير المستحقّين، وما أشدّ ضلالة الإنسان الذي يتجاوز حدوده ولا يعرف قدره ويدّعي منصب الخلافة وإمامة الأُمّة ويجلس مجلس النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله مع أنّه لا يملك اللياقة الكافية والجدارة لإحراز هذا المقام، وأيّ مهلكة أخطر من حركة الإنسان في الطريق الذي يؤدّي به إلى جهنّم، وأيّ مشكلة أشدّ من أنّ الإنسان يرتكب الذنوب والآثام بحيث يوصد طريق العودة خلفه ويهدم جسور التوبة والإنابة إلى الله ولا يتمكّن بعد ذلك من إصلاح الخلل.

---

١. «أَوْلَجَتْك» من «الإيلاج» و «ولوج» بمعنى دخول شيء وورده، وعلى ضوء فإنّ «أَوْلَجَتْك شَراً» من باب إفعال وتأخذ مفعولين ومفهومها أنّ نفسك جرّتك إلى الشر وادخلتك فيه.

٢. «أَقْحَمَتك» من «الإقحام» بمعنى قذف الشيء في داخل شيء آخر، وهذا الفعل أيضاً يأخذ مفعولين ومعنى الجملة أنّ نفسك قد قذفت بك في طريق الضلالة ومتاهة الفتنة.

٣. «غيّ» بمعنى الضلالة والانحراف.

٤. «أَوْعَرَتْ» من «الإيعار» و «وعر» على وزن «وقت» في الأصل بمعنى الصعوبة والعسر والحرج، وجملة «أَوْعَرَتْ عَلَيْكَ الْمَسَالِك» تعني أنّها صعّبت عليك العثور على طرق النجاة، ولهذا يقال للأرض المليئة بالأحجار والمطبات أنّها أرض وعرة و«وعير».

٣١

ومن وصيّة له عليه السلام

للحسن بن علي عليهما السلام، كتبها إليه «بحاضرين»[1] عند انصرافه من صفين[2]

نظرة إلى الرسالة

تعتبر هذه الوصية بعد عهد مالك الأشتر من أطول الرسائل والكتب للإمام

---

١ . تقرأ هذه المفردة تارة بصورة تثنية (بفتح الراء) وأخرى بصورة جمع (بكسر الراء). وفي الصورة الأولى تشير إلى مكان معيّن بين حلب و قنّسرين من أراضي الشام، وفي الصورة الثانية يمكن أن تكون إشارة إلى ذلك المكان باعتبار حضور أقوام مختلفة فيه.

٢ . سند الرسالة:

تعتبر هذه الرسالة كما يقول صاحب كتاب مصادر نهج‌البلاغة، من أشهر رسائل ووصايا الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام والتي ذكرها جماعة من أبرز علماء الإسلام في كتبهم قبل ولادة السيد الرضي، منهم المرحوم الشيخ الكليني في كتاب الرسائل والمرحوم الحسن بن عبدالله العسكري (من أساتيذ الشيخ الصدوق) في كتاب الزواجر والمواعظ، وصاحب كتاب عقد الفريد في موضعين من كتابه في باب مواعظ الآباء للأبناء، والحسن بن علي بن شعبة في كتاب تحف العقول، ضمن بيانه لكلمات الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام ، والشيخ الصدوق بدوره نقل أيضاً مقاطع من هذه الوصية في موردين من كتاب من لا يحضر الفقيه، ونقلها بعد السيد الرضي جماعة كثيرون في كتبهم منهم: المرحوم السيّد ابن طاووس في آخر كتاب كشف المحجة، ضمن بيان أنّ هذه الوصية وردت بأسناد متعددة، ومجموعة الأسناد التي أوردها هؤلاء العلماء في كتبهم لهذه الرسالة تصل إلى ستة طرق وأسناد (ويتبيّن من مجموعة هذه الطرق والاسناد لهؤلاء العلماء أنّ

عليّ عليه السلام في نهج البلاغة، وهي عبارة عن دورة كاملة من دروس الأخلاق وتهذيب النفس وتزكيتها وبيان معالم السير والسلوك إلى الله، وفي الحقيقة أنّها تتألّف من ثلاثين قسماً ومقطعاً.

والإمام عليه السلام في المقطع الأول يخاطب نفسه وأبناءه بوصفه كاتب هذه الوصية ويعرّف نفسه للمخاطب بعبارات عميقة المضمون ومنسجمة مع روح هذه الوصية.

وفي المقطع الثاني يعرّف هذه الوصية بأنّها وصية والد متحرّق ومحبٌ لأبنه الذي يملك له محبّة شديدة.

وفي المقطع الثالث إلى المقطع العاشر يوصي ولده بالتقوى ومطالعة سيرة الأسلاف وتاريخ القدماء والتوصية بالاحتياط في جميع الأمور والتفقّه في الدين والصبر والاستقامة في مقابل المشكلات والتحديّات والتوكّل على الله وتفويض الأمور إليه، والتوجّه إلى هذه الحقيقة وهي أنّ قلب الشابّ مستعدّ لاستلهام جميع التعاليم والتوصيات، والتأكيد على أنّ أباك قد اختتم تجارب العمر ووضعها تحت اختيارك بدون أن تتعب نفسك في ذلك، ثمّ التوصية بالتمعّن أكثر في كتاب الله ومعرفة الحلال والحرام الإلهيين، وأخيراً الاقتداء بسنّة الصالحين وضرورة اجتناب الشبهات.

والمقطع الحادي عشر إلى المقطع العشرين يتحدّث الإمام عليه السلام عن كثرة مجهولات الإنسان في مقابل معلوماته، ويحذّره من أيّ انحراف عن الحقّ ويؤكّد عليه لزوم اتّباع نبيّ الإسلام صلى الله عليه وآله وأنّ أيّ إنسان لا يصل إلى نتيجة صحيحة بدون التأسيّ به، ثمّ يؤكّد له على مسألة التوحيد وشرح بعض الصفات الإلهيّة، وأخيراً يرسم له معالم القصور في الدنيا وعدم ثباتها بذكر مثال جميل في هذا الشأن.

☜انتساب هذه الرسالة إلى الإمام علي عليه السلام لا يبقي مجالاً للشك والتردد، أضف إلى ذلك أنّ محتوى هذه الرسالة والوصية إلى درجة من القوة والمتانة بحيث لا يمكن صدورها من غير المعصوم). (مصادر نهج البلاغة، ج ٣، ص ٣٠٧-٣١١).

ثمّ يبيّن لولده العزيز هذه الحقيقة، وهي أنّه لابدّ أن تجعل نفسك ميزاناً للحكم على الآخرين، فما كنت تحبّه لنفسك ينبغي أن تحبّه للآخرين وما تكره لها تكره لهم، ثمّ يتحدّث عن الآفات الأخلاقية المهمّة من قبيل الأنانية والعجب ويؤكّد له أنّ خدمة الخلق تمثّل زاداً ومتاعاً للآخرة، ويحذّره من الطريق المليء بالمطبّات والمآزق في سبيل النجاة لنيل السعادة الأخروية ويتحدّث أيضاً عن أهمية الدعاء وأنّه مفتاح جميع الخيرات والبركات، وأنّ الهدف والغاية من خلق الإنسان نيل الحياة الأبدية والسعادة الدائمة في الآخرة، إلّا أن يعيش الإنسان أيّام معدودة في هذه الدنيا ويجعلها هدفاً نهائياً له في حركة الحياة.

وفي المقطع الحادي والعشرين إلى الثلاثين يذكر الإمام مسألة الموت وكيفية الانتباه من الغفلة ويحذره من السير في خطّ أهل الدنيا، ويتحدّث كذلك عن سرعة انقضاء العمر وطرق تهذيب النفس ولزوم التوقّي من الآمال البعيدة والطموحات الزائفة، وضمناً يبيّن له سلسلة من المسائل الأخلاقية المهمّة، ثمّ يتحدّث عن كيفية معاشرة المؤمنين ويتحدّث عن نقاط مهمّة في هذا المجال، ثمّ يتقدّم له بنصائح مهمّة في مجال اجتناب الحرص والطمع في تحصيل الرزق، وبعد ذلك يتحدّث الإمام عن بعض المسائل المهمّة المتعلّقة بحفظ حرمة النساء والتعامل الصحيح معهنّ، ثمّ يتحدّث عن المسائل المتعلّقة بإدارة الحياة والمعيشة وتقسيم العمل بين الأفراد، وأخيراً ينهي الإمام عليه السلام هذه الوصية بتفويض أموره إلى الله عزّ وجلّ ويسأله خير الدنيا والآخرة.

وبالالتفات إلى ما تقدّم آنفاً، فإنّ القرّاء الأعزّاء لهذه الوصيّة سيطّلعون على مضامين عالية وتوصيات سامية فيما يتّصل بتربية النفوس وتهذيب القلوب.

والنقطة الأخرى التي ينبغي الالتفات إليها في هذا المورد، هو أنّ أغلب نسخ نهج البلاغة تقرّر أنّ المخاطب لهذه الوصية هو الإمام الحسن المجتبى عليه السلام وهذا ما ورد في غالبية طرق السند في هذه الوصية (كما يقول العلّامة التستري في شرح

هذه الوصية المهمّة، وطرق السند بلغت خمس طرق)، ولكن هنا طريق واحد لرواية هذه الوصية يقرّر فيها أنّ المخاطب لها هو محمّد بن الحنفية، وبعض شرّاح نهج البلاغة يؤكّدون على المعنى الثاني، وأنّ المخاطب للوصية ليس هو الإمام الحسن المجتبى عليه السلام ويستدلّون لذلك بأنّ بعض عبارات هذه الوصية لا يتناسب مع كون المخاطب هو الإمام المعصوم، في حين أننا نعلم أنّ مثل هذه العبارات في مقام الموعظة والنصيحة من الوالد لابنه هو أُسلوب متداول وشائع، والمهمّ أنّ المخاطب لهذه الوصية وإن كان شخصاً واحداً، إلّا أنّ المقصود هو جميع الشيعة والمسلمين في العالم، بل جميع أبناء آدم، وكأنّ الإمام عليه السلام يتحدّث مع جميع أبناء البشر بوصفه أباً لهم وأنّ المخاطب له، وإن كان الإمام الحسن عليه السلام مباشرة، إلّا أنّ المخاطب الحقيقي جميع أفراد البشر.

وأمّا ما ذكره البعض من أنّ الإمام المعصوم عليه السلام مع توفّر مقام العصمة والإمامة لا يحتاج إلى نصيحة وموعظة، فهو اشتباه كبير لأنّ مقام الإمامة والعصمة الشامخ لا يتنافى إطلاقاً مع التأكيد على المسائل الأخلاقية المهمّة، ولهذا نرى أنّ الإمام عليّ عليه السلام وهو في فراش الوفاة يعظ أبناءه الإمام الحسن والحسين عليهما السلام ويقدّم لهما توصيات وتعاليم لم يكونا غافلين عنها.

وكذلك ما ذكره البعض من أنّ الإمام الحسن عليه السلام في زمان صدور هذه الوصية كان قد بلغ من العمر أكثر من ثلاثين سنة وهو لا يتناسب مع ما ورد في هذه الوصية من عبارة: «وأمّا قلب الشابّ يتقبّل جميع التعاليم والإرشادات» وهذا خطأ أيضاً لأنّ الإنسان في سنّ الثلاثين عاماً لايزال شاباً، أضف إلى ذلك أنّ المخاطب لهذه الوصية جميع أفراد البشر بوصفهم أبناء الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

وقد ورد في كتاب الإمامة والسياسة في قصّة السقيفة أنّ أباعبيدة الجراح عندما أراد إبعاد الإمام عليّ عليه السلام عن تولّي لخلافة قال: «يَابْنَ عَمّ إنّك حَديثُ السّنّ وَهؤُلاءِ مَشيخَةُ قَوْمِكَ»[1]، ونعلم أنّ الإمام عليه السلام كان عمره في ذلك الوقت أكثر من ثلاثين عاماً.

---

١. الإمامة والسياسة، ج ١، ص ٢٩.

القسم الأوّل

مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَىٰ، وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً؛ إِلَىٰ الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ.

الشرح والتفسير

هذه الوصيّة ممّن وإلى من؟

هذا المقطع من الوصية يبيّن في الحقيقة عنوان الوصية والمرسل لها، لأنّ المتداول في كتابة الرسائل أن يكتب في مستهلّ الرسالة عنوان الشخص المرسل والمرسل إليه، ويقال مِنْ فُلانٍ إِلىٰ فُلانٍ؛ فالإمام عليه السلام بدلاً من ذكر اسمه واسم ولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام اكتفى بذكر صفات المرسل والمرسل إليه، ممّا يوفّر الأرضية المساعدة لتقبّل هذه المواعظ والنصائح.

بداية يطرح الإمام عليه السلام ستّ صفات لنفسه، ثمّ يذكر أربعة عشر صفة لولده لغرض تهيئة الأجواء بهذه الصفات، وأن يكون المخاطب على استعداد تامّ لطرح الموضوع.

في البداية يقول: «**مِنَ الْوَالِدِ الْفَانِ، الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ**[1]**، الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ، الْمُسْتَسْلِمِ**

---

١ . «زمان» في الأصل يراد به الوقت المعروف الذي يشمل الأوقات القصيرة والطويلة، ولكن بما أنّ الزمان في هذه الدنيا يقترن بالحوادث المختلفة المرّة والحلوة، فهذه المفردة تشير أحياناً إلى هذا المعنى، و«المُقِرّ لِلزّمان» إشارة إلى الشخص الذي يعيش الإذعان والقبول بهذه الحقيقة وهي أنّ الدنيا دار حوادث ومتغيّرات، ولكنه عملاً لا ينسجم مع هذه الحوادث.

لِلدُّنْيَا[١]، السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَىٰ، وَالظَّاعِنِ[٢] عَنْهَا غَداً».

فالإمام عليه السلام عندما ينطلق بذكر هذه الصفات لنفسه يهدف منها تحقيق عدّة أمور: الأوّل: أن يُفهم ولده بأنّني عندما أكتب هذه الوصية لك فإنّني أحمل معي تجارب كثيرة حصلت عليها بمرور الزمان، والآخر: أنّ القائل لهذه النصائح تحدّث بلغة التواضع ولم يتكلّم من موقع الفوقية والاستعلاء، وهذا من شأنه أن يؤثّر إيجاباً في نفس المخاطب، الثالث: أن يعلم ولده بأنّه عمّا قريب سيكون أباً ولابدّ أن يشعر بمسؤولية الوالد ويدرك هذه الحقيقة، ودرك هذه الحقيقة يجعله مستعدّاً لقبول هذه المواعظ.

والتعبير بـ «فانٍ» (وهي في الأصل «فانّي» ولكن حذفت الياء لمزيد التجانس مع الجمل اللاحقة) إشارة إلى أنّني قضيت الشطر الأكبر من عمري، وأنا الآن في مرحلة الرحيل من هذه الدنيا، لأنّ الإمام عليه السلام تحدّث بهذا الكلام في وقت كان قد بلغ من العمر حسب الظاهر ستّين سنة.

وجملة: «الْمُقِرِّ لِلزَّمَانِ» إشارة إلى الحوادث والأزمات الصعبة والحوادث المرّة والحلوة التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة والواقع.

وجملة: «الْمُدْبِرِ الْعُمُرِ» تأكيد على أنّني أسير في منزلق نهاية العمر، وجملة: «الْمُسْتَسْلِمِ لِلدُّنْيَا» إشارة إلى غلبة الحوادث والوقائع على إرادة الإنسان.

وجملة «السَّاكِنِ مَسَاكِنَ الْمَوْتَىٰ» إشارة إلى أنّ المساكن التي نسكنها هي في الغالب من بناء وتشييد السابقين، فأولئك بنوا هذا الدور ونحن سكنّا فيها وأحياناً نبني ويسكنها اللاحقون.

وأخيراً جملة: «وَالظَّاعِنِ عَنْهَا غَداً» إشارة إلى قرب لحظة الرحيل من هذه الدنيا، يعني أنني عندما أكتب لك هذه الوصية أعلم بجميع هذه الخصوصيات والمفارقات.

---

١. ورد في الكثير من النصوص والشروح لنهج البلاغة بعد هذه الصفة صفة أخرى وهي «الذامُّ لِلدُّنيا» وحينئذٍ تبلغ صفات الدنيا في هذا المقطع إلى سبع صفات.

٢. «الظّاعِن» بمعنى المنتقل، من «الظعن» على وزن «طعن» وتعني الانتقال من مكان إلى آخر.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يصف مخاطبه بدون ذكر اسمه في أربعة عشر صفة ويقول: «إِلَى الْمَوْلُودِ الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ، السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ، غَرَضِ[1] الْأَسْقَامِ، وَرَهِينَةِ[2] الْأَيَّامِ، وَرَمِيَّةِ[3] الْمَصَائِبِ، وَعَبْدِ الدُّنْيَا، وَتَاجِرِ الْغُرُورِ، وَغَرِيمِ الْمَنَايَا، وَأَسِيرِ الْمَوْتِ، وَحَلِيفِ[4] الْهُمُومِ، وَقَرِينِ الْأَحْزَانِ، وَنُصُبِ الْآفَاتِ، وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ، وَخَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ».

وأوّل وصف يصف الإمام عليه السلام ولده، وببيان آخر يصف جميع أفراد البشر هو أنّك في هذا العالم تتحرّك لتحصيل ما لا يمكن تحصيله، لأنّ الإنسان يريد أن يعيش حياة خالية من جميع المشاكل وحالات القصور والألم، في حين أنّ طبيعة الدنيا مقترنة بالمشاكل والآلام والمصائب «الْمُؤَمِّلِ مَا لَا يُدْرِكُ».

وجملة: «السَّالِكِ سَبِيلَ مَنْ قَدْ هَلَكَ» تعني أنّ جميع أفراد البشر يسيرون في طريق ينتهي إلى الموت والهلكة، كما يقول القرآن الكريم: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[5] ولا يوجد أيّ استثناء من هذه القاعدة.

وجملة «غَرَضِ الْأَسْقَامِ» هي في الحقيقة توضيح لما سبق، لأنّ الإنسان شاء أم أبى يواجه في هذا الحياة حالات المرض وأنواع الأسقام في طفولته وفي شبابه وفي شيخوخته بشكل من الأشكال.

والتعبير بـ «وَرَهِينَةِ الْأَيَّامِ» مع الأخذ بالحسبان أنّ «رهينة» تعني الأسر والاختطاف، فهي إشارة إلى أنّ الإنسان يعيش دوماً في أسر الأزمات وأنّ مرّ الزمان يأخذ بيده إلى المجهول ويتركه شاء أم أبى في نهاية العمر ويسلّمه إلى القبر.

---

١. «الغرض» بمعنى الهدف الذي يوضع ليرميه المتسابقون والرماة.

٢. «رهينة» من الرهن وهو الثبات ودوام الشيء، والرهينة جمعها رهائن وهي ما يرهن ويحتسب فيه الشيء في مقابل ثمن.

٣. «رمية» عبارة أخرى عن «غرض» و«هدف» (صفة مشبهة بمعنى المفعول).

٤. «حليف» بمعنى المتفق والذي يجتمع معه بميثاق، من مادة «حلف» على وزن «حرف» وهو القسم واليمين.

٥. سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

وعبارة: «وَرَمِيَّةِ الْمَصَائِبِ» مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمة «رميّة» تعني الشيء الذي يوضع غرضاً وهدفاً لرمي السهام، فهذه العبارة تشير إلى المصائب والبلايا التي تصيب الإنسان في ماله ونفسه وأقربائه وأعزّته حيث تهجم عليه من كلّ جهة وتجعله غرضاً لها، فلا نكاد نرى أحداً لم يواجه طيلة عمره المصائب المختلفة، كما قال الإمام عليه السلام في مورد آخر: «دَارٌ بِالْبَلاءِ مَحْفُوفَةٌ وَبِالْغَدْرِ مَعْرُوفَةٌ»[1].

ومن عجائب الدنيا أنّ الإنسان غالباً لا يرى سهام المصائب وهي تتّجه نحوه ولا يرى مصدرها وكيف ابتلي بها، ولكنّه فجأة يفتح عينه ليرى حلول المصيبة به، وكما قال الشاعر:

وَلَوْ أَنَّني أُرمىٰ بِنَبْلٍ، رَأَيْـتُها ... وَلٰكِنَّني أُرمىٰ بِـغَيْرِ سِـهامٍ[2]

وجملة: «وَعَبْدِ الدُّنْيَا وَتَاجِرِ الْغُرُورِ» إشارة إلى أنّ الإنسان حاله حال العبد يعيش في أسر الأهواء والشهوات ويرفل في قيود الآمال والمطامع الدنيوية، وهذه الأمور تأخذ به من كلّ جانب، أمّا كونه تاجر الغرور، من جهة أنّه يتصوّر أنّ أمواله ورأس ماله الذي أتعب نفسه في جمعه في هذه الدنيا حقيقة موضوعية إلّا أنّه ليس سوى سراب بقيعة وتشكيلة من الخداع الغرور، فسوف يفقد هذه الأموال والثروات وقد يقبع الآخرون في انتظارها.

وعبارة: «غَرِيمِ الْمَنَايَا» تشبيه للإنسان بالشخص المدين الذي يطلبه الموت، فالموت يسلب منه روحه ويضع جسمه في لحد القبر، وكلمة: «أَسِيرِ الْمَوْتِ» تبيّن هذا المضمون بشكل آخر، فأحياناً يقول: غريم الموت، وأخرى يقول: أسير الموت.

وعبارة «حَلِيفِ الْهُمُومِ» و «قَرِينِ الْأَحْزَانِ» إشارة إلى أنّ الإنسان يعيش طيلة حياته مع أنواع الهموم والأحزان، همّ المعيشة والرزق، همّ المرض، همّ فقدان الفرص، همّ خيانة بعض الأقربين والرفقاء، همّ مؤامرات الأعداء، فهل يمكن العثور

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٢٢٦.

٢. القائل هو لبيد بن ربيعة الجعفري، وهو من المعمرين، انظر: كمال الدين و تمام النعمة، ص ٥٦٥، بحار الأنوار، ج ٥١، ص ٢٤٥.

على شخص لم يقع طيلة عمره أسيراً لمثل هذه الهموم والغموم؟

ومن المناسب هنا الإشارة إلى قصّة الإسكندر المعروفة، فعندما حان أجله وكانت أُمّه لا زالت علىٰ قيد الحياة، ويعلم أنّها سوف تحزن عليه بشدّة، فكّر بأمر لتخفيف حزنها وألمها، فقال لها: يا أُمّاه إبكي عليَّ وأقيمي المأتم ولكن لاتبكي لوحدك، بل ادعي معكِ جماعة يشاركونك في هذا الأمر وليبكوا عليَّ لا على مصائبهم ومشاكلهم.

فعملت هذه الأم بوصيته بعد موته وتوجّهت للجيران والأقرباء والأصدقاء وكلّما سألت أحداً منهم: هل أنّك خالٍ من الغمّ والحزن؟ فإنّه يذكر لها بعض همومه وأحزانه، فيقول أحدهم: ماتت زوجتي، والآخر يقول: مات ولدي، والثالث يقول: إنّي خسرت في تجارتي، الرابع يقول: إنني أعيش الأسقام والآلام، ففهمت الأمّ أنّه لا يوجد شخص لا يعيش الحزن ولا تواجه الهموم، وحسب المثل المعروف: «ٱلْبَلِيَّةُ إذٰا عَمَّتْ طٰابَتْ» فخفّت عليها حينئذٍ مصيبة فقد ولدها.

وعبارة: «نُصُبِ الْآفَاتِ وَصَرِيعِ الشَّهَوَاتِ» مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمة «نُصُب» تعني الأغراض التي ينصبها الرماة لتسديد الرمية باتجاها، وكلمة «صَرِيع» تعني الشخص المغلوب على أمره والذي سقط على الأرض، فالعبارة تشير إلى الآفات والبلايا المختلفة التي تصيب الإنسان من كلّ جهة وتجعله هدفاً لها، والشهوات التي تصرعه في حياته ولا يستطيع التصدّي لها ومقاومتها.

وجملة: «خَلِيفَةِ الْأَمْوَاتِ» إشارة إلى أنّك أيّها الإنسان لا تغفل عن أنّك خليفة الأموات وسوف تلتحق بهم في المستقبل القريب وسيحلّ آخرون محلّك، وهكذا تستمرّ هذه المعادلة في حياة البشرية.

واللافت أنّ الإمام عليه السلام قد وصف نفسه بستّ صفات، ولكنّه وصف ولده بأربعة عشر صفة ممّا يواجهه كلّ إنسان في حياته الدنيا من مشاكل وصعوبات، يعني في مقابل كلّ صفة وصف فيها نفسه، فقد وصف ولده بصفتين، وفي مقابل كلّ مشكلة واجهها في حياته، فإنّ مخاطبه سيواجه مشكلتين.

القسم الثاني

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ الدَّهْرِ عَلَيَّ، وَإِقْبَالِ الْآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالْإِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي، غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي رَأْيِي، وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَىٰ بِي إِلَىٰ جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ. وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ.

الشرح والتفسير

علّة كتابة هذه الوصية

في هذه الفقرة من الوصية يتحدّث الإمام عليه السلام فيها بادئاً من نفسه ويذكر الباعث له لكتابة مثل هذه الوصية الأخلاقية والإنسانية، ويقول ما خلاصته: إنّي نظرت إلى نفسي فرأيت كوكب عمري متّجهاً نحو الأفول، وينبغي أن أهتمّ بنفسي وأستعدّ لسفر آخرتي، ولكن بما أنّك تمثّل جزءاً من وجودي بل جميع وجودي، فرأيت من الضروري أن أُقدّم لك هذه التحذيرات والنصائح، ويقول الإمام عليه السلام:

«أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ فِيمَا تَبَيَّنْتُ مِنْ إِدْبَارِ الدُّنْيَا عَنِّي، وَجُمُوحِ[1] الدَّهْرِ عَلَيَّ وَإِقْبَالِ

---

١. «جُمُوح» بمعنى التمرد والطغيان، و «جَمُوح» على وزن «قبول» وفي الأصل تعني الحيوان المتمرد والمنفلت، ثم اطلقت على كل إنسان منفلت ومتمرد بل تطلق أيضاً على الحوادث والقضايا التي تخرج عن اختيار الإنسان.

الآخِرَةِ إِلَيَّ، مَا يَزَعُنِي[1] عَنْ ذِكْرِ مَنْ سِوَايَ، وَالاِهْتِمَامِ بِمَا وَرَائِي[2]».

وفي هذا السياق يستنتج الإمام عليه السلام هذه النتيجة، أنّ هذا الاهتمام دعاني للتفكير في نفسي والانصراف عن سلوك طريق الأهواء النفسية وبيّن لي حقيقة مصيري وأوصلني هذا الأمر إلى مرحلة لا يشوبها اللعب والهزل، بل كلّها صدق وحقّ: **«غَيْرَ أَنِّي حَيْثُ تَفَرَّدَ بِي دُونَ هُمُومِ النَّاسِ هَمُّ نَفْسِي، فَصَدَفَنِي[3] رَأْيِي وَصَرَفَنِي عَنْ هَوَايَ، وَصَرَّحَ لِي مَحْضُ أَمْرِي، فَأَفْضَىٰ[4] بِي إِلَىٰ جِدٍّ لَا يَكُونُ فِيهِ لَعِبٌ، وَصِدْقٍ لَا يَشُوبُهُ كَذِبٌ»**.

وهذا إشارة إلى أنّ الإعراض عن الدنيا يوجب للإنسان اليقظة ويبعث فيه الانتباه لأنّه يرى نفسه في مرحلة الانتقال من هذه الدنيا، وهذا الأمر يقوده لاجتناب السقوط في فخ الأهواء النفسانية، وأن يفكّر بشكل جادّ بمصيره وعاقبته، ويجتنب أشكال اللهو واللعب ويحمل نفسه على الصدق وطلب الحقيقة بعيداً عن كلّ أشكال التعصّب والتساهل، ويهتمّ بمستقبله وحياته بعد الموت فيما يجمع له من زادٍ لسفر الآخرة.

وبهذه المقدّمة يهدف الإمام عليه السلام ظاهراً لتحقيق أمرين: الأوّل: أن يؤمن مخاطبه بشكل تامّ أنّ ما قاله آنفاً ليس بالهزل، بل هو جادّ تماماً في هذا الكلام، ويمثّل نتيجة مطالعات عميقة وتأمّلات في وضعه الحالي والمستقبلي، والآخر أنّه يحذّر ولده من أنّه سيواجه مثل هذه الأمور في المستقبل، ولا يبقى في مرحلة الشباب

---

١. «يَزَع» من مادة «وزع» على وزن «وضع» بمعنى المنع والاعاقة عن شيء.

٢. «ما وَرائي» إشارة إلى أهل الدنيا، المقامات، الثروات وأمثال ذلك، وغرض الإمام عليه السلام من ذلك بيان هذه الحقيقة وهي أنّ الالتفات إلى قرب الانتقال من هذه الدنيا منعني من الميل للأمور الدنيوية وجعلني ملتفتاً لمصيري ومستقبلي، والعجيب أنّ بعض شرّاح نهج البلاغة ذكروا في معنى «ما ورائي» أنّها تعني الآخرة، في حين أنّ مفهوم هذه العبارة يكون بهذه الصورة: إنّ الإلتفات إلى نهاية عمري شغلني عن الاهتمام بأمر الآخرة، وهذا التفسير مجانب للصواب.

٣. «صدف» من مادة «صدف» على وزن «حذف» بمعنى الإعراض عن شيء.

٤. «أفضى» من «الإفضاء» و «فضاء» وتعني الوصول إلى شيء وكأنّه دخل إلى فضائه وجوّه.

دائماً (رغم أنّ الشباب ليس عنصراً يثير الاطمئنان والاعتماد في الحياة) وسوف لا تمضي مدّة إلّا وتقترب قافلة عمرك وحياتك للوصول إلى المنزل الآخير، لئلاّ يعيش ولده حالات الغرور بالشباب وتقوده عناصر الحيوية نحو الطغيان وينسى مستقبله ويغفل عن عاقبة أمره.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يلفت النظر إلى هذه النقطة، وأنّه لماذا فكّر بتقديم النصح الكثير لولده في حين أنّ الإمام عليه السلام يعيش حالة الاهتمام بنفسه، ويقول: «وَوَجَدْتُكَ بَعْضِي، بَلْ وَجَدْتُكَ كُلِّي، حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً لَوْ أَصَابَكَ أَصَابَنِي، وَكَأَنَّ الْمَوْتَ لَوْ أَتَاكَ أَتَانِي، فَعَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِينِي مِنْ أَمْرِ نَفْسِي، فَكَتَبْتُ إِلَيْكَ كِتَابِي مُسْتَظْهِراً[1] بِهِ إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ».

وعندما يعبّر الإمام عليه السلام بأنّك بعض من وجودي فالمعنى واضح، لأنّ الإبن يولد من الأب والأمّ، وتتشكّل أجزاء بدنه من بدن والديه، ولكن عندما يقول: ووجدتك جميع وجودي، يمكن أن يكون إشارة إلى أنّك الإمام بعدي وخليفتي في هذا المقام، وعلى هذا الأساس فإنّ جميع وجودي يتجلّى فيك، وتكون مرآة يتجلّى فيها كلّ وجودي.

ويحتمل أيضاً أنّ هذه الجملة إشارة إلى مجموعة الصفات الجسمانية والروحانية التي تنتقل من الآباء للأبناء بحكم قانون الوراثة، وأنّ الأبناء سيتحلّون بالصفات الجسمانية والروحانية للآباء.

وهنا مثل عربي معروف يمثّل بيت شعر يقول فيه الشاعر:

إنّما أوْلادُنا بَيْنَنا أكْبادُنا تَمْشي عَلَى الأَرْضِ[2]

وجاء في شرح نهج البلاغة للمرحوم التستري أنّ رجلاً أعرابياً مات ابنه فكفّنه ودفنه، ثمّ قال:

---

١. «مستظهرا» من «الإستظهار» بمعنى طلب المعونة والنصرة من شخص أو شيء.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٦١.

دَفَنْتُ بِنَفْسي بَعْضَ نَفْسي فَأَصْحَبَتْ وَلِلنَّفْسِ مِنْها دافِنٌ وَدَفِينٌ[1]

وجملة: «حَتَّىٰ كَأَنَّ شَيْئاً ...» وهي توضيح وبمثابة الدليل على كيفية أن يكون ابنه العزيز بعض وجوده أو كلّ وجوده فيقول: ومن هنا أجد أنّ كلّ مصيبة وكلّ ألم يصيبك فكأنّما يصيبني حتّى لو أنّ الموت جاءك فكأنّه جاءني، لأنّني أرى كلّ شيء في نفسي فيك، فأنت جميع كياني ووجودي، وعلى أيّة حال فهذا الاهتمام من الإمام عليّ بأمر ولده يشكّل الباعث الأصلي لكتابة هذه الوصية المطوّلة التي تعتبر تشكيلة من أفضل المواعظ والإرشادات في مجال التوحيد والمعاد، آداب الحياة، آداب تهذيب النفس، ورسم الطريق القويم والسلوك الصحيح في الحياة مع المجتمع، وبما أنّ الإمامعليه السلام يمثّل أباً لجميع أفراد الأمّة كما هو مقتضى الحديث النبويّ المعروف: «أَنَا وَعَلِيٌّ أَبَوَا هَذِهِ الأُمَّة»[2] فإنّ المخاطب بهذه الوصية في الحقيقة جميع أفراد الأمّة.

وجملة: «إِنْ أَنَا بَقِيتُ لَكَ أَوْ فَنِيتُ» إشارة خلود مضمون هذه الرسالة ودوامها، والواقع هو كذلك، فبالرغم من مضيّ أكثر من ألف عام عليها، فإنّها لا زالت طريّة ويانعة وزاخرة بالحيوية والحركة، وهي المصداق البارز لقول تعالى: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[3].

---

١. شرح نهج البلاغة التستري، ج ٨، ص ٣٣٠.

٢. بحار الأنوار، ج ١٦، ص ٩٥.

٣. سورة ابراهيم، الآيتان ٢٤ و ٢٥.

القسم الثالث

فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ ـأَيْ بُنَيَّ ـوَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالْاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ.وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ.

الشرح والتفسير

أوثق وسيلة للنجاة

يستهلّ الإمامعليه السلام هذا المقطع من الرسالة بنصائح بنّاءة ومفعمة بالإيمان، ويقدّم في أربع جمل قصيرة أربع توصيات لولده، وتمثّل هذه التوصيات عصارة جميع الفضائل ويقول: «فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ ـأَيْ بُنَيَّ ـوَلُزُومِ أَمْرِهِ، وَعِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ، وَالاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ».

إنّ التوصية بالتقوى هي التوصية التي جعلها جميع الأنبياء والأوصياء في سلّم أولويات برامجهم في حركة الحياة بعد الإيمان بالله، التقوى التي تمثّل الزاد والمتاع في طريق الآخرة، ومعيار الفضيلة والامتياز لشخص على سائر الناس، ومفتاح الجنّة، والتقوى تعني الخشية الباطنية والقلبية من الله تعالى واجتناب كلّ أشكال الذنوب وارتكاب الآثام، والشعور والإحساس بالمسؤولية أمام الله، ومن شأنها أنّ تخلق في نفس الإنسان مانعاً وسدّاً يحول بينه وبين الذنوب، والمرتبة الأدنى منها هي العدالة، والمرتبة القصوى هي العصمة.

وفي التوصية الثانية يشير الإمامعليه السلام إلى الالتزام الواعي بالأوامر الإلهيّة، وهذا هو الأمر الذي أكّد عليه القرآن الكريم مراراً بعنوان ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ والذي يعتبر من ثمار شجرة التقوى.

وعبارة: «عِمَارَةِ قَلْبِكَ بِذِكْرِهِ» إشارة إلى أهميّة ذكر الله، لأنّ الغفلة عن ذكر الله تعني خراب القلب وخواء الروح وجفاء العواطف ويصير الإنسان بالتالي ميداناً وملاذاً لجيش الشيطان، يقول القرآن الكريم: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[1] وهذا الإحياء للقلوب لا يتسنّى بالذكر اللفظي فقط، رغم أنّ الذكر اللفظي مهمّ جدّاً، بل الذكر العملي كما ورد ذلك في الروايات الشريفة يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ثَلَاثٌ مِنْ أَشَدِّ ما عَمِلَ العِبادُ: إنصافُ المَرءِ مِنْ نَفسِهِ، وَمُواساةُ المَرءِ مِن أخِيه، وذِكْرُ اللهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ» ثمّ ذكر المقصود من ذلك وقال: «وَهُوَ أن يَذْكُرَ اللهَ عَزَجَلَّ عِنْدَ الْمَعْصِيَةِ يَهُمُّ بِهَا فَيَحُولُ ذِكْرُ اللهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تِلْكَ الْمَعْصِيَةِ وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾»[2].

وعبارة: «الاِعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ» إشارة إلى التمسّك بتعاليم القرآن الكريم والذي يتضمّن مناهج لتحقيق السعادة في واقع الحياة، ويشير القرآن إلى ذلك أيضاً بقوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[3].

ونعلم أنّ المفسّرين ذكروا لكلمة حبل الله في هذه الآية الشريفة معانٍ كثيرة، فذهب بعض المفسرين إلى أنّ المراد منها القرآن الكريم، وذهب آخرون إلى أنّها تعني الإسلام، ويعتقد بعض أنّ المقصود منها أهل بيت النبوّة، ولكن لا يوجد اختلاف وتباين بين هذه التفاسير، لأنّ «حبل الله» تعني الارتباط الوثيق بالله تعالى وتشمل جميع هذه المعاني المذكورة.

ولهذا يقول الإمام عليه السلام في مواصلاً كلامه: «وَأَيُّ سَبَبٍ أَوْثَقُ مِنْ سَبَبٍ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ إِنْ أَنْتَ أَخَذْتَ بِهِ».

والتعبير بالحبل إشارة إلى أنّ الإنسان بدون التربية الإلهيّة يهبط إلى الحضيض

---

١. سورة الرعد، الآية ٢٨.

٢. بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ١٥١، ح ٦ والآية ٢٠١ من سورة الأعراف.

٣. سورة آل عمران، الآية ١٠٣.

ويسقط في بئر الطبيعة، ولذلك لابدّ له من حبل متين يتمسّك به ويرقى بواسطته ليخرج من هذه البئر، وهذا الحبل هو القرآن والإسلام والعترة.

وبالنسبة للتقوى وأهميتها وآثارها في حياة الإنسان وردت بحوث في ذيل الخطبة ١٥٧، الجزء ٦ ص ١٧٢ فصاعداً، والخطبة ١٦١، ص ٢٧٤ فما بعد.

القسم الرابع

أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وِذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ، وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ، وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وَعَمَّا انْتَقَلُوا، وَأَيْنَ حَلُّوا وَنَزَلُوا! فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ.

الشرح والتفسير

أحي قلبك بالموعظة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية ليستعرض اثنتي عشرة موعظة مهمّة تتسبّب في تكامل روح الإنسان وأخلاقه، وتجعله يعيش الحياة المعنوية والمثل الإنسانية.

بداية يقول: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ، وَأَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ، وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ، وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ، وِذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ، وَقَرِّرْهُ[1] بِالْفَنَاءِ».

ويبتدىء الإمام عليه السلام في هذه التوصيات الستّ بإحياء القلب، والقلب في هذا الموارد الروح والعقل والإدراك، فما لم يعش القلب هذه الحياة المعنوية فلن يستطيع

---

١. «قرّر» من «التقرير» وتأتي بمعنيين، الأول، التثبت ووضع الشيء في محلّه، والآخر بمعنى دفع شخص للإقرار والإعتراف بشيء معين، وفي الجملة مورد البحث جاءت بالمعنى الثاني، يعني اجعل قلبك يقرّ ويعترف بفناء الدينا.

الإنسان أن يتقدّم خطوة واحدة باتجاه التكامل والسمّو والتعالي، ويتوقف عن المسير عند هذا الحدّ، فما يوجب الحياة للقلب وينفخ فيه الروح، هو المواعظ والنصائح التي وردت في القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وروايات الأئمّة المعصومين عليهم السلام وما يستوحيه الإنسان من حوادث الدهر وتاريخ الأقوام البشرية.

وحقيقة الموعظة تتمثّل في التوصية بالخيرات والمكرمات والتوقّي من السيئات والقبائح، فإذا انطلقت هذه المواعظ من القلب مقترنة بالأدلة والشواهد، وبنيّة إسداء الخير للآخرين والشفقة عليهم، فإنّها تسكن في القلب وتؤثّر في إحياء الروح والعواطف.

وجملة: «أَمِتْهُ بِالزَّهَادَةِ» المراد القلب الذي يعيش أسير الأهواء والشهوات، فمثل هذا القلب يجب أن يموت بآلية الزهد ويكسب له حياة جديدة بالموعظة، وهذا التعبير بليغ وجذّاب جدّاً حيث يأمر الإمام عليه السلام أوّلاً بإحياء القلب ثمّ يأمر بإماتته، فالأمر الأوّل ناظر للأبعاد الإيجابية في العقل والروح، والأمر الثاني ناظر للأبعاد السلبية وأن يكون العقل أسيراً في براثن الشهوات، وفي الواقع أنّ الإمام عليه السلام يشبّه قلب الإنسان وروحه بالبستان الذي يحتوي على أشجار مثمرة وأغصان زاهرة وأزهار مختلفة الألوان، وفي ذات الوقت هناك أعشاب وأشواك ضارّة كثيرة بين هذه الأشجار، فإحياء هذا البستان يعتمد على تنمية تلك الأشجار والأزهار وقلع هذه الأشواك والأعشاب الضارّة.

وبعد أن يحيى القلب بالموعظة وتتمّ إزالة العوائق والموانع بالزهد، تصل النوبة لتقوية القلب، فيقول الإمام عليه السلام: «وَقَوِّهِ بِالْيَقِينِ»، اليقين الذي يحصل عليه الإنسان من خلال النظر في آفاق الخلق وأسرار الطبيعة، أو من خلال العبادة والعبودية لله تعالى، وبعد تقوية القلب باليقين يشتغل المؤمن بتنويره، وهو قول الإمام عليه السلام: «وَنَوِّرْهُ بِالْحِكْمَةِ» فالحكمة والمعرفة والعلم من شأنها أن تنير طريق السالك إلى الله وتمنحه المعرفة بالمطبّات والعوائق التي تواجه المؤمن في طريق المعنوية.

وبما أنّ نفس الإنسان ربّما تتمرّد عليه وتسلك سبيل الطغيان والعصيان، فالإمامعليه السلام يرشدنا لكيفية كبح جماح هذه النفس، ويقول في الجملة الخامسة والسادسة: «وَذَلِّلْهُ بِذِكْرِ الْمَوْتِ وَقَرِّرْهُ بِالْفَنَاءِ»، لأنّ الموت والإقرار بالفناء يعملان على تذليل هذا الجموح ويتعامل الإنسان مع الواقع والحياة من موقع الإذعان والتسليم، وقد رأينا الكثير من الناس عندما يفقدون عزيزاً لهم في حادثة فجائية ويرون مشاركة الناس من الأقرباء والمعارف في التشييع ويحضرون في مجالس العزاء والمأتم، فإنّ آثار التذلّل والتسليم بادية على وجوه الجميع، وربّما يكون لهذه الحالة تأثير مؤقّت، ولكن على أيّة حال تشير إلى أنّ ذكر الموت والإقرار بالفناء إذا استمر لمدّة طويلة فذلك من شأنه كبح جماح النفس المتمرّدة والسيطرة على نوازعها وشهواتها.

وبعد أن طرح الإمامعليه السلام هذه التوصيات في الجمل والعبارات السابقة، يوصي ولده بأن يتمعّن ويتدبّر في حوادث الدهر والزمان، ويرى المتغيّرات والتقلّبات التي تطرأ بالليل والنهار: «وَبَصِّرْهُ فَجَائِعَ الدُّنْيَا، وَحَذِّرْهُ صَوْلَةَ الدَّهْرِ وَفُحْشَ[1] تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالأَيَّامِ».

أحياناً تسدل الغفلة ستائرها على قلب الإنسان فيغرق في دوّامة الأهواء والشهوات بحيث لا يدرك الحقائق المتعلّقة بالحياة والسعادة، ولا يتحرّك في طريق العقل والسلامة، فمن أجل إزاحة هذه الستائر والحجب وإضاءة زوايا القلب وتنوير العقل، فلا شيء أفضل من التدبّر في الحوادث المرّة والبلايا المؤلمة للدنيا وكثرة التقلبات الفجائية في الحياة وبالأخصّ ما يراه الإنسان في حياة أصحاب القدرة والسلطة في العالم، كلّ ذلك من شأنه أن يفتح نوافذ القلب ويعيد إليه بصيرته.

---

١ . «فحش» يقال لكل عمل خرج عن حدّ الاعتدال واتجه نحو القبح، ولذلك تطلق هذه الكلمة على جميع المنكرات والقبائح الفاضحة. فيقال «فحش» و «فحشاء»، رغم أنّ هذه المفردة تستخدم في عرفنا المعاصر في مورد الانحرافات الجنسية (وأحياناً تأتي كلمة فحش بمعناها المصدري وأخرى يراد منها اسم المصدر).

وعبارة: «فَجَائِعَ الدُّنْيَا» إشارة إلى فجائع الناس في الدنيا، والتي تستتبع متغيّرات وتقلّبات كثيرة، أو الإشارة إلى الحوادث المرّة والأليمة التي يفرضها الواقع الصعب على الإنسان في حركة الحياة.

وعبارة: «صَوْلَةَ الدَّهْرِ» مع الالتفات إلى أنّ «صَوْلَة» بمعنى الهجوم الكاسح والحملة الحاسمة، سواء كانت هذه الحملة من قِبل حيوان مفترس أو إنسان قويّ وغاشم، فالعبارة تشير إلى الآفات والبلايا والأمراض وأشكال الإخفاق التي يواجهها الإنسان في واقع الحياة والتي تهجم عليه كالحيوان المفترس في حين أنّه لا يملك وسيلة للدفاع عن نفسه وغير قادر على التصدّي لها ومقاومتها.

وجملة: «فُحْشَ تَقَلُّبِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ»، مع الإلتفات إلى أنّ «فحش» تعني كلّ عمل قبيح وغير مقبول، فهي تشير إلى أنّ مرور الزمان وتقلّب الليل والنهار من شأنه أن يثير تقلّبات مزعجة وتغيّرات مؤسفة في حياة الفرد والمجتمع البشريّ وتجعل من حياة الإنسان مظلمة ومشوّشة، فلو تمعّن الإنسان في هذه الأمور وتدبّر في هذه الحوادث والتقلّبات، فذلك من شأنه أن يمنحه مزيداً من البصيرة بحقائق هذا العالم، ويدفعه للحركة في الطريق الصحيح.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لشرح هذه الحقيقة ويقول: «وَاعْرِضْ عَلَيْهِ أَخْبَارَ الْمَاضِينَ، وَذَكِّرْهُ بِمَا أَصَابَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وَسِرْ فِي دِيَارِهِمْ وَآثَارِهِمْ، فَانْظُرْ فِيمَا فَعَلُوا وعَمَّا انْتَقَلُوا وَأَيْنَ حَلُّوا[1] وَنَزَلُوا».

وهذا المضمون هو ما ورد في القرآن الكريم في أكثر من آية، حيث قال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ

---

١. «حَلُّوا» من مادة «حلّ» تأتي أحياناً بمعنى فتح العقدة وحل المشكلة، وأخرى الدخول إلى مكان معين، وفي الجملة أعلاه جاءت بالمعنى الثاني.

٢. سورة الروم، الآية ٤٢.

يَسْمَعُونَ بِهٰا فَإِنَّهٰا لاٰ تَعْمَى الْأَبْصٰارُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[1].

المهمّ، أنّ المرء يشاهد في زوايا هذا العالم وفي الكثير من المناطق والمدن والأرياف، آثار القدماء من سكنة هذه المعمورة، الآثار القديمة والأطلال البالية التي عفى عليها الزمن، ولكنّها في ذات كونها صامدة تنطق بألف لسان وتتحدّث معنا من موقع الاعتبار وتبيّن لنا حقيقة هذه الحياة الدنيا، والكثير من الناس عندما يشاهدون هذه الآثار والأطلال يفتخرون بها على اعتبار أنّها آثار تاريخية تدلّ على وجود تمدّن وحضارة لدى أسلافنا وأجدادنا، في حين أنّ المرء ينبغي أن يستوحي منها دروس العبرة ويسترشد بتقلّبات الزمان بما ينفعه في حياته ويكشف له الطريق.

ويتحدّث الإمام عليه السلام بعد ذلك ويبيّن توضيحاً أكثر لهذه الحقيقة: «فَإِنَّكَ تَجِدُهُمْ قَدِ انْتَقَلُوا عَنِ الْأَحِبَّةِ، وَحَلُّوا دِيَارَ الْغُرْبَةِ، وَكَأَنَّكَ عَنْ قَلِيلٍ قَدْ صِرْتَ كَأَحَدِهِمْ».

أجل، فلو شككنا في كل شيء فإنّنا لا نشكّ في هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أنّنا بدون استثناء سائرون على خطى القدماء وسنلاقي نفس المصير، في ذلك اليوم الذي نودّع فيه الزوجة والأبناء الأصدقاء والمقامات وجميع وسائل الحياة ونتركها لغيرنا ونرحل.

تأمّلان

١. الحياة وإعمار القلب

يشير الإمام عليه السلام في مستهلّ هذه الفقرة من الوصية إلى إحياء القلب بواسطة الموعظة، وفي الفقرة السابقة أشار إلى عمران القلب، ومعلوم أنّ المقصود من القلب في هذه العبارات وأمثالها ليس ذلك العضو الخاص من البدن والذي يقع في الصدر، ووظيفته ضخّ الدم إلى جميع أعضاء البدن؛ بل المراد منه روح الإنسان وعقله كما ورد ذلك أيضاً في المصادر اللغوية.

---

١. سورة الحج، الآية ٤٦.

والروح الإنسانية هي التي يجب إعمارها وإصلاح الخلل فيها من خلال سلوك سبيل التقوى والإصغاء إلى المواعظ، لأننا نعلم أنّ الإنسان يملك ثلاث نفوس، وأحياناً أربع نفوس، النفس النباتية والتي تظهر آثارها في نموّ الجسم والتغذية وتوليد النسل، النفس الحيوانية، التي تتولى، مضافاً لما سبق، الإحساس والحركة، فالأظافر وشعر الإنسان تملك روحاً نباتية فقط، ولهذا السبب لا يشعر بها الإنسان عندما تقطع في عملية تقليم الأظافر وقصّ الشعر، ولكن اللحم والعضلات ـ مضافاً إلى أنّها تملك روحاً نباتية، فلها روح حيوانية أيضاً، فأدنى ضرر أو أذى يلحق بالإنسان تحسّ به هذه العضلات وتتألم، أمّا النفس الإنسانية، فإنّ أثرها البارز هو الإدراك والشعور والخلاقيّة والتفسير والتحليل للمسائل المختلفة، وهي حقيقة يملكها الإنسان مضافاً للنفس النباتية والحيوانية، وطبعاً هناك بعض الأشخاص الذين يملكون نفساً رابعة أيضاً وهي التي يطلق عليها بالنفس القدسية، وهذه تدرك الحقائق المجرّدة التي يعجز عن إدراكها الأفراد العاديون (أحياناً تطلق روح القدس على جبرئيل، وأحياناً أخرى على ملك أعظم منه) وقد ورد التعبير عنها في بعض الروايات (روح الإيمان) ولعلّ ذلك إشارة إلى هذه المرتبة العالية للنفس الإنسانية.

وجاء في حديث شريف عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «**إذا زَنَى الرَّجُلُ فارَقَهُ رُوحُ الإيمانِ**»[1]، إلّا أن يتوب ويتحرّك على مستوى جبران الخلل.

وجاء في بعض الروايات أنّ روح القدس أعلى مرتبة من روح الإيمان وقد جاءت الأرواح الخمسة فيها[2].

الروح الإنسانية أحياناً تكون بدرجة من القوّة والنفوذ بحيث تنير كافّة زوايا الإنسان وأبعاد شخصيته، وأحياناً أخرى تكون إلى درجة من الضعف بحيث يقال عنها أنّها ميّتة.

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٨٠، باب الكبائر، ح ١١.

٢. انظر: الكافي، ج ٢، ص ٢٨٢، باب الكبائر، ح ١٦.

يقول الإمام الحسن المجتبى عليه السلام: «التَّفَكُّرُ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ»[١]. وفي حديث آخر عنه عليه السلام يقول: «عَلَيْكُمْ بِالْفِكْرِ فَإِنَّهُ حَيَاةُ قَلْبِ الْبَصِيرِ وَمَفَاتِيحُ أَبْوَابِ الحِكْمَةِ»[٢].

وفي مقابل ذلك ورد عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «أَرْبَعٌ يُمِتْنَ الْقَلْبَ: الذَّنْبُ عَلَى الذَّنْبِ وَكَثْرَةُ مُنَاقَشَةِ النِّسَاءِ ـ يَعْنِي مُحَادَثَتَهُنَّ ـ وَمُمَارَاةُ الأَحْمَقِ... وَمُجَالَسَةُ الْمَوْتَى، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْمَوْتَى؟ قَالَ كُلُّ غَنِيٍّ مُتْرَفٍ»[٣].

وكذلك ورد في الروايات عن الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال: «لِقَاءُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ عِمَارَةُ الْقُلُوبِ وَمُسْتَفَادُ الْحِكْمَةِ»[٤]. وفي رواية أخرى يقول عليه السلام: «عِمَارَةُ الْقُلُوبِ فِي مُعَاشَرَةِ ذَوِي الْعُقُولِ»[٥].

ومن المعلوم، كما ورد في الروايات أعلاه، أنّ قلب الإنسان أحياناً يكون بشكل خربة أو يكون سقيماً، وأحياناً أخرى يفقد جميع ملامح الإنسانية وقد يكون أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، والإمام عليه السلام في وصيته مورد البحث يوصي الإنسان بإحياء قلبه وعمرانه والعمل على تعميره وتقوية معنويته، وذكر الله عامل أساس لإحياء القلب والموعظة بدورها وسيلة وأداة لهذا الإحياء المعنويّ.

٢. الوعّاظ الكثيرون

عندما يدور الحديث عن الواعظ فسوف يتبادر إلىٰ الذهن من هذه الكلمة الإنسان المجرّب والحكيم والمتّقي والسالك سبيل الخير والإيمان، الذي استفاده من آيات القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام وتجارب الآخرين ومطالعاته في زيادة الوعي بحقائق العالم وكيفية السير في طريق معنويات والقيم، في حين أنّ

١. ميزان الحكمة، ح ١٧٠٣٠.
٢. المصدر السابق، ح ١٧٠٣١.
٣. الخصال، ص ٢٢٨.
٤. غرر الحكم، ص ٤٣٠، ح ٩٧٩٥.
٥. المصدر السابق، ص ٤٢٩، ح ٩٧٧٤.

الروايات الشريفة تذكر وعّاظاً آخرين إلى جانب ذلك، ومنهم الحوادث المُرّة والمصائب الأليمة التي تصيب الإنسان في الدنيا، وهو ما يشير إليه الإمام‌عليه السلام في قوله: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ».

والواعظ الآخر للإنسان يتمثّل في تاريخ القدماء وسيرة الأقوام الماضية وأطلال القصور والقبور المندرسة والديار المتروكة، والتي تتحدّث مع الإنسان بألف لسان وهي صامتة، والإمام‌عليه السلام بهذه العبارات يشير إلى هذا الواعظ أيضاً.

الواعظ الآخر الذي يتحدّث عنه الإمام‌عليه السلام في نهج‌البلاغة في (الخطبة ١٨٨) أجساد الموتى ويقول: «فَكَفَى وَاعِظاً بِمَوْتَى عَايَنْتُمُوهُمْ حُمِلُوا إِلَى قُبُورِهِمْ غَيْرَ رَاكِبِين»[١].

وقد نستوحي من كلمات أميرالمؤمنين‌عليه السلام وعّاظاً آخرين يعبّر عنهم بالواعظ الباطني، يعني الوجدان اليقظ والضمير الحيّ في واقع الإنسان وقلبه، يقول: «وَمَنْ كَانَ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَاعِظٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ حَافِظٌ»[٢]، وهذا الواعظ النفساني هو ما ورد في القرآن الكريم في سورة الشمس، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾[٣].

الواعظ الآخر هو ما بيّنه الإمام موسى الكاظم‌عليه السلام لهارون الرشيد عندما طلب هذا الأخير من الإمام‌عليه السلام موعظة، فقال له الإمام‌عليه السلام كلاماً وجيزاً وعميق الغور: «مَا مِنْ شَيْءٍ تَرَاهُ عَيْنَيْكِ إِلَّا وَفِيهِ مَوْعِظَةٌ»[٤].

يعني أنّ النجوم المتلألئة في السماء، والشمس والمضيئة، والقمر المنير، والظهر المحدودب للمسنين، الشعر الأبيض للشيوخ، أوراق الشجر اليابسة في فصل الخريف، والقبور المندرسة للموتى، والقصور المتهاوية للملوك، كلّها تتضمّن دروساً

١. نهج‌البلاغة، الخطبة ١٨٨.
٢. نهج‌البلاغة، الكلمات القصار ٨٩.
٣. سورة الشمس، الآيتان ٧ و ٨.
٤. بحار الأنوار، ج ٦٨، ص ٣٢٤.

وعبراً، وتنطق بالمواعظ في سكوتها المطبق.

فلو أنّ هارون نظر إلى الحوادث المثيرة والتقلّبات المذهلة في تاريخ بني أُمية وبني العباس، فسوف يستوحي منها أفضل الدروس وأعظم العبر.

ومن هذا المنطلق يكون كلام الإمام عليه السلام في هذه الوصيّة: «أَحْيِ قَلْبَكَ بِالْمَوْعِظَةِ» يتضمّن مفهوماً واسعاً بحيث يستوعب جميع عناصر الوعظ وكافّة الوعّاظ.

يقول أبوالفرج الاصفهاني في كتاب الأغاني: كانت الخرقاء بنت النعمان إذا خرجت إلى بِيعَتِها (محلّ العبادة) يفرش لها الطريق بالحرير والديباج المغشّى بالخزّ والوشي، ثمّ تقبل في جواريها حتّى تصل إلى بِيعَتِها، وترجع إلى منزلها. فلمّا هلك النعمان نكبها الزمان، فأنزلها من الرفعة إلى الذلّة. فلمّا وفد سعد القادسية أميراً عليها وانهزم الفرس وقتل رستم، أتته في حفدةٍ من قومها وجواريها عليهنّ المسوح والمقطّعات السود تطلب صِلته، فقال لهنّ: أيتكنّ الخرقاء؟ قال: ها أنا ذي إنّ الدنيا دار زوال ولا تدوم على حال، كنّا ملوك هذا المصر يُجبى لنا خراجه ويطيعنا أهله مدى المدّة والزمان، كذلك الدهر ليس يأتي قوماً بمسرّة إلّا ويعقبهم بحسرة ثمّ قالت:

فبَينا نَسوس الناس والأمر أمرُنا إذا نحنُ فيهم سوقةٌ ليس تعرف
فأُفٍّ لدنيا لا يدوم نعيمها تقلّب تارات بنا وتصرّف[1]

وكذلك ينقل عن محمد بن عبدالرحمن الهاشمي قال: دخلت على أُمّي يوم أضحىً وعندها امرأة في أثواب دنسة، فقالت: أتعرف هذه؟ قلت: لا، قالت: هي عنابة أم جعفر البرمكي، فسلّمت عليها وقلت لها: حدثيني ببعض أمركم، فقالت: أذكر لك جملة فيها عبرة لمن اعتبر، لقد هجم عليَّ مثل هذا اليوم وعلى رأسي أربعمائة وصيفة وأنا أزعم أنّ ابني جعفر عاقّ فيَّ، وقد أتيتكم اليوم أسألكم جلدَي شاتين، شِعار ودثار[2].

---

١. شرح نهج‌البلاغة للعلّامة التستري، ج ٨، ص ٣٣٢.
٢. المصدر السابق، ص ٣٣٣ ونقل هذه القصة أيضاً المرحوم المحدّث القمي في تتمة المنتهى، ص ٢٤٨.

أَيـنَ كِسـرىٰ المُـلوكُ أنُـو شِروان، أم أينَ قَـبلَهُ شَـابُورُ؟
وَأَخُـو الحِـضرِ إذ بَـناهُ وَإذ دجـلةُ تُـجبىٰ إليـهِ والخـابُورُ
شَـادَهُ مَـرمَراً وَجَـلّلهُ كَـا سأً وَللـطّيرِ فِـي ذراهُ وَكُـورُ
وَتَـفكّر ربّ الخَـورنقِ إذ أَشرَفَ يَـوماً وَللـهدى تَـفكِيرُ
سَـرّهُ مُـلكُهُ وَكـثرة مـا يَـمـ لِكُهُ وَالبَحرُ معرضاً والسَّـديرُ
فـارعوى قَـلبهُ وقـال: وَمَـا غِبطة حيّ إلىٰ المَماتِ يَـصيرُ؟
وَبَـنُوا الأصـفرِ الكـرام مُـلُو كِ الأرضِ لَم يبقَ مِنهُم مَذكُورُ
ثُمَّ أضـحَوا كأنّـهُم ورق جـفَّ فَألوت بِـهِ الصّـبا والدّبـورُ[1]

١. آداب النفس، ج ١، ص ١٠٤ و ١٠٥.

القسم الخامس

فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، الْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ. وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ. وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ، وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ. وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ، وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ.

الشرح والتفسير

الاستقامة سبب تحقيق النصر والنجاح

يتحرّك الإمام عليه السلام في مستهلّ هذا المقطع من الوصية ليستنتج ممّا تقدّم في المقطع السابق من التوصية بمطالعة أحوال القدماء والسير في آفاق التاريخ، خمس نتائج ومواعظ مهمّة، ويقول: «فَأَصْلِحْ مَثْوَاكَ، وَلَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ؛ وَدَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ، وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ، فَإِنَّ الْكَفَّ عِنْدَ حَيْرَةِ الضَّلَالِ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْأَهْوَالِ».

جملة «أَصْلِحْ مَثْوَاكَ» مع الالتفات إلى أنّ «مَثْوىٰ» تعني المكان والمنزل والأخير، أي آخرتك، فهي تشير إلى أنّك يجب عليك أن تتحرّك في هذه الدنيا من موقع النظر إلى الآخرة والاهتمام بإعمارها.

ونقرأ في دعاء يوم الثلاثاء من أدعية أيّام الاسبوع للإمام عليّ بن الحسين عليهما السلام: «وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي فَإِنَّهَا دَارُ مَقَرِّي».

وجملة: «لَا تَبِعْ آخِرَتَكَ بِدُنْيَاكَ» إشارة إلى أنّ المتاع الثمين الذي يوصل الإنسان إلى دار السعادة الأبدية لا ينبغي أن تبيعه مقابل ملذّات رخيصة وسريعة الزوال في الدنيا، وهذا هو ما ذمّ عليه القرآن الكريم جماعة من اليهود وشجب أعمالهم حيث قال: ﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾[١].

وجملة: «دَعِ الْقَوْلَ فِيمَا لَا تَعْرِفُ» إشارة إلى أنّ الإنسان قد يتحدّث عن أمور لا يحيط بها علماً، وقد نهى القرآن الكريم عن هذا العمل مراراً، منه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[٢] وفي مورد اتباع وساوس الشيطان يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٣].

وعبارة: «وَالْخِطَابَ فِيمَا لَمْ تُكَلَّفْ» إشارة إلى أنّ لا ينبغي لك أن تتدخل فيما لا يخصّك ولا يعنيك، وبالتعبير المتداول (لا تكن فضولياً في شؤون الآخرين) فما أكثر الأشخاص الذين واجهوا بسبب تدخّلهم في شؤون الآخرين وفيما لا يعنيهم، مشاكل كثيرة وتورّطوا في صراعات وخسروا الكثير ممّا يهمهم، وهذا هو ما أكّد عليه القرآن الكريم: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾[٤].

وآخر جملة: «وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ...» إشارة لضرورة رعاية الاحتياط في الشبهات، وهذا المعنى يعتبر أصلاً عقلائياً مسلّماً، فعندما يجد الإنسان نفسه في مفترق طريقين، طريق يتميز بوضوح، خالي من العثرات والمطبّات، وطريق مظلم ومجهول، فالعقل يقول: لا ينبغي أن تسلك في مثل هذا الطريق، لأنّك سوف تبتلى بعواقب سيئة، وحتّى لو وصلت لمقصدك من هذا الطريق، فإنّ مصيرك محفوف بالخوف والاضطراب، فينبغي للإنسان أن يسير بخطوات مطمئنة في الطريق الواضح

---

١. سورة البقرة، الآية ٨٦.

٢. سورة الاسراء، الآية ٣٦.

٣. سورة البقرة، الآية ١٦٩.

٤. سورة المائدة، الآية ١٠٥.

وبحالة من الطمأنينة ليصل إلى مقصده وينال بغيته.

وهذا الأصل العقلائي ورد في روايات كثيرة، منها ما وردت الإشارة إليه في حديث رسول الله ﷺ: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يُرِيبُكَ»[1] وحديث طويل عن عمر بن حنظلة قال: سألت أباعبدالله الصادق عليه السلام: عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة ... إلى أن قال عليه السلام: «إِنَّما الأُمورُ ثَلاثَةٌ: أَمْرٌ بَيِّنٌ رُشْدُهُ فَيُتَّبَعُ، وأَمْرٌ بَيِّنٌ غَيُّهُ فَيُجْتَنَبُ، وأَمْرٌ مُشْكِلٌ يُرَدُّ عِلْمُه إِلىٰ اللهِ وإِلىٰ رَسولِه، قال رسولُ الله ﷺ: حَلالٌ بَيِّنٌ وحَرامٌ بَيِّنٌ وشُبُهاتٌ بَينَ ذٰلِكَ، فَمَنْ تَرَكَ الشُّبُهاتِ نَجا مِنَ المُحَرِّماتِ وَمَنْ أَخَذَ الشُّبُهاتِ ارْتَكَبَ المُحَرَّماتِ وهَلَكَ مِن حَيثُ لا يَعْلَم»[2].

وبديهيّ أنّ كلّ هذه التوصيات والأوامر لا تتنافى مع مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإرشاد الجاهل، بل ترتبط بالموارد التي لا يملك الإنسان مسؤولية تجاهها، ولذلك يقول الإمام عليه السلام بعد هذه التوصيات: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ، وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ بِيَدِكَ وَلِسَانِكَ، وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ».

الجملة الأولى: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ تَكُنْ مِنْ أَهْلِهِ» إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يأمر الآخرين بالمعروف ولا يكون من أهله فسوف يعيش تأنيب الضمير ويشعر بالخجل أمام وجدانه، أضف إلى ذلك أنّه يخجل من الناس عندما يقولون إنّه يأمر بالمعروف في حين أنّه يرتكب المنكر، ومجموع هذه الأمور يقود الإنسان من خلال الأمر بالمعروف إلى مرتبة أخلاقية بحيث يجد نفسه تدريجيّاً يسير في خطّ العاملين بالمعروف الذين يعيشون أجواء الفضيلة.

وجملة: «وَأَنْكِرِ الْمُنْكَرَ ...» إشارة إلى مراتب النهي عن المنكر، وقد ذكر الإمام عليه السلام هنا مرتبتين لهذه المهمّة، جاء في مورد آخر من كلمات الإمام عليه السلام القصار الإشارة إلى ثلاث مراحل ومراتب لها: الأُولى: الإنكار بالقلب، والامتعاض الباطني

---

١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٢٥٩، ح ٧.

٢. الكافي، ج ١، ص ٦٨، ح ١٠.

من المنكر، وذلك عندما يجد المؤمن نفسه في مناخ غير مناسب ويعيش القهر والظلم من قِبل الظالمين وقوى الشرّ، فيجد يديه مقيّدة وفمه مكتوم.

المرحلة الثانية: الإنكار باللسان.

والمرحلة الثالثة: التصدّي العمليّ لمواجهة المنكرات والعمل على تطهير الإنسان والمجتمع منها، والكثير من الفقهاء يرون أنّ هذه المرحلة من وظائف الحكومة الإسلاميّة والحاكم الشرعيّ، بينما المرحلة الأُولى والثانية تقع على عهدة عامّة المكلّفين.

وجملة: «وَبَايِنْ مَنْ فَعَلَهُ بِجُهْدِكَ» ممكن أن تكون إشارة إلى المورد لا يؤثّر فيه النهي عن المنكر، ففي مثل هذا المورد يجب على الإنسان أن يترك مجالس المنكر ويبتعد عن المرتكبين للمعاصي والمنكرات.

ويحتمل أيضاً أنّ المراد النهي القلبيّ الذي يترك آثاره على ملامح الوجه، وهو أحد المراحل الثلاث للنهي عن المنكر، وقد ورد في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام قال: «أَمَرَنَا رَسُولُ اللهِ أَنْ نَلْقَى أَهْلَ الْمَعَاصِي بِوُجُوهٍ مُكْفَهِرَّةٍ»[1]، ليعلموا من ملامح الغضب المرتسمة على وجوهنا أنّنا ننكر أعمالهم ولا نوافقهم في سلوكياتهم.

ثمّ يستمرّ الإمام عليه السلام في بيان هذه التوصيات والمواعظ ويقول: «وَجَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ. وَخُضِ[2] الْغَمَرَاتِ[3] لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ».

ونعلم أنّ للجهاد مراحل ومراتب متعدّدة، سواءً كان المقصود الجهاد المسلّح ضدّ الأعداء، أو بمعنى السعي وبذل الجهد في مسير الحقّ والعدالة، وبعض هذه المراحل لا تليق بالمجاهدين الحقيقيين، اللائق هم أن يحقّقوا في واقعهم وذواتهم آخر

---

١. الكافي، ج ٥، ص ٥٨، ح ١٠.

٢. «خض» صيغة أمر من «الخوض» على وزن «حوض» في الأصل بمعنى الدخول التدريجي في الماء، ثم استخدم كناية عن الورود أو الشروع في كل عمل.

٣. «غمرات» جمع «غمرة» على وزن «ضربة» وأصلها من «غمر» وتعني زوال أثر الشيء، ثم استخدمت في الماء الكثير الذي يغطي جميع جهات الشيء، يقال: «غمرة» و «غامر» ثم اطلقت على كل ابتلاء شديد وجهل يغمر الإنسان ويحيط به من كل جانب و «غمرات الموت» بمعنى الشدائد التي يواجهها المحتضر في حالات الموت.

مرحلة وأعلى مرتبة من هذا السلوك المعنوي، ويبذلوا كلّ جهدهم وطاقتهم في سبيل الثبات والاستقامة في خطّ الإيمان والعبودية، وجملة: «جَاهِدْ فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ» إشارة إلى هذا المعنى.

أمّا جملة: «وَلَا تَأْخُذْكَ فِي اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ» فهي إشارة إلى أنّه أحياناً يلتّف بعض الأراذل حول الإنسان المجاهد ويلومونه على مسلكه ويعيقون حركته في طريق الحق، والإيمان، فالإمام عليه السلام يقول: لا ينبغي أن يكون هذا الذمّ والتوبيخ مانعاً لك من الاستقامة في هذا الطريق، فعندما يتبيّن لك طريق الحقّ فسر فيه بعزم راسخ وتوكّل على الله، ولا تهتمّ لأقاويل المبطلين، ولا تلتفت للوم اللائمين.

وبما أنّ طريق الحقّ يزخر بالمشكلات الكثيرة والمآزق الخطيرة، وأنّ السالكين في طريق الحقّ لا يصلون إلى مقصدهم بدون مواجهة هذه الأزمات والمآزق، فالإمام عليه السلام يشبّه هذه المشاكل والمآزق بأمواج البحر العاتية «وَخُضِ الْغَمَرَاتِ لِلْحَقِّ حَيْثُ كَانَ» ويأمر بخوض هذه الغمرات وعدم التراجع عن هذه الأمواج للوصول إلى المطلوب ونيل الجواهر الحقيقية.

وهذا الكلام للإمام عليّ عليه السلام مقتبس من الآيات القرآنية الشريفة، فنقرأ في الآية ٧٨ من سورة الحج: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ وفي الآية ٥٤ من سورة المائدة: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾.

وذهب الكثير من المفسّرين أنّ «حقّ الجهاد» تعني إخلاص النيّة، ولكن ينبغي الالتفات إلى أنّ هذا المفهوم لا ينحصر بإخلاص النيّة، بل مراده أنّ أصعب مراحل الجهاد وهو جهاد النفس يتطلّب إخلاص النيّة.

وفي ختام هذه الفقرة يطرح الإمام عليه السلام نصيحتين مهمّتين أيضاً لولده، فيقول: «وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ، وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ[1] عَلَى الْمَكْرُوهِ، وَنِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ».

---

١. «تصبّر» من مادة «صبر» بمعنى الاستقامة وضبط النفس، والفرق بين التصبّر والصبر أنّ الشخص الصبور هو ←

ومع الالتفات إلى أنّ «تفقّه» من مادة «فقه» يعني الفهم والإدراك، فمقصود الإمام عليه السلام من هذه الجملة «وَتَفَقَّهْ فِي الدِّينِ» أنّه لابدّ من الوعي الكامل لحقائق الدين ومعرفة أصوله وفروعه من موقع العمق والتمعّن ولا تقنع بالفهم السطحي لقضايا الدين، بل عليك التعمّق في هذه الأمور.

وجملة: «عَوِّدْ نَفْسَكَ ...» إشارة إلى أنّ الصبر والاستقامة في مقابل المشكلات والتحدّيات لا تتوفّر للإنسان إلّا من خلال التمرّن وتعويد النفس على الثبات في مواجهة الشدائد، فينبغي عليك أن تمرّن نفسك على الثبات والصبر حتّى يضحى لديك عادة وملكة راسخة.

وعبارة: «نِعْمَ الْخُلُقُ التَّصَبُّرُ فِي الْحَقِّ» إشارة إلى أنّ كلّ عمل جيّد ومطلوب يواجه عادة موانع ومشاكل مختلفة، فلو لم يتمسّك الإنسان بآليّة الصبر والاستقامة على الحقّ، فلا يستطيع أن يصل إلى نتيجة مرضية من أيّ عمل إيجابيّ، فقطف الورد لا يتيسّر بدون تحمّل ألم الشوك، والحصول على العسل من خلية النحل يقترن غالباً بلسعات الزنابير، فلو لم يستقم الإنسان في خطّ الحقّ والإيمان مقابل المشاكل والتحدّيات الصعبة التي يفرضها الواقع، فسوف لا يصل إلى أيّ هدف مقدّس في حركة الحياة.

ومن المناسب هنا أن نستعرض بعض أشعار أبي الأسود الدؤلي في هذا الصدد، يقول:

تَعَوّدتُ مَسَّ الضُّرِّ حَتّى أَلِفْتُهُ ... وَأَسْلَمَني طُولُ الْبَلاءِ إِلَى الصَّبْرِ
وَ وَسَّعَ صَدْري لِلأَذىٰ كَثْرَةُ الأَذىٰ ... وَكانَ قَديماً قَدْ يَضيقُ بِهِ صَدْري
إِذا أَنا لَمْ أَقْبَلْ مِنَ الدَّهْرِ كُلَّ ما ... أُلاقيهِ مِنْهُ طالَ عَتْبي عَلَى الدَّهْرِ[1]

واقعاً من أهل الصبر والاستقامة، وأمّا التصبّر فيقال في مورد الشخص الذي لم يصبح من أهل الصبر فعلاً، بل يريد أن يملك هذه الحالة النفسية والفضيلة الأخلاقية.

١. معجم الأدباء، ج ١٢، ص ٣٨ نقلاً عن شرح نهج البلاغة للعلّامة التستري، ج ٨، ص ٣٨١.

تأمّلان

١. رعاية الاحتياط عند الإحساس بالخطر

يعدّ الاحتياط في موارد الشك، أحد الأُصول المسلّمة في مذهبنا، وأحياناً يكون الاحتياط واجباً في بعض الموارد، وأخرى مستحبّاً.

وأصل الاحتياط يمتدّ بجذوره إلى حكم العقل، ويقرّر العلماء في علم الأصول هذا الاحتياط بأنّه دفع الضرر والمحتمل، وهنا بحث في وجوبه بشكل مطلق أو بتوفّر بعض القيود والشروط، فالعقل يحكم بضرورة اجتناب الأضرار المحتملة والابتعاد عنها، والملفت أنّ نفس هذه المسألة وردت في علم الكلام (العقائد) بوصفها ركيزة أساسية للتحقيق في المسائل الدينية والمسائل العقائدية كالمبدأ والمعاد، وعلى هذا الأساس يتمّ البحث عن مسألة وجود الله ومعرفة الله وأنّ ترك التحقيق في هذه المسائل ربّما تترتّب عليه أضرار عظيمة، ولهذا السبب يحكم العقل بضرورة أن يتحرّك الإنسان من موقع البحث والتحقيق فيها.

ولا يكتفي الإمام عليه السلام بمجرّد تقديم النصحية بالاحتياط في هذه الفقرة «وَأَمْسِكْ عَنْ طَرِيقٍ إِذَا خِفْتَ ضَلَالَتَهُ..»، بل يتحرّك على مستوى الاستدلال وبيان هذه النصيحة لولده بآليات الإقناع والبرهان ويقول: إنّ المسير في طريق يخشى فيه من الوقوع في مهاوي الضلالة، وربّما يقود الإنسان نحو الحوادث المهولة والمخوفة؛ فينبغي اجتناب سلوك هذا الطريق، لأنّ التوقّي والكفّ في مثل هذه الموارد أفضل من الوقوع في دوّامة الحوادث الصعبة وركوب الأهوال الخطيرة.

وأساساً فإنّ الاحتياط، مع رعاية الاعتدال فيه وعدم الإفراط، يعتبر في جميع الموارد المعنوية والمادية، عمل منطقيّ ومعقول.

٢. الطريق لنيل الفضائل الأخلاقية

جملة: «وَعَوِّدْ نَفْسَكَ التَّصَبُّرَ عَلَى الْمَكْرُوهِ» إشارة إلى أصل أخلاقيّ مهمّ، وهو أنّ الأشخاص الذين لم يتلقّوا تربية أخلاقية مناسبة في بداية أمرهم سيكون من

الصعب عليهم تقبّل الأصول والقيم الأخلاقية، وينبغي لهم أن يمارسوا فرض هذه القيم على النفس بآلية التكرار والتمرّن على ذلك، وهذا الفعل المتكرّر، من شأنه أن يتسبّب في صيرورة ذلك الأمر الأخلاقيّ عادة مستديمة، والاستمرار على هذه العادة يجعل منها ملكة نفسانية راسخة في واقع الإنسان، يعني أنّ هذا الخلق سينفذ تدريجياً إلىٰ أعماق روح الإنسان بحيث تشهد تحوّلاً في السلوك الأخلاقيّ.

وقد ورد في كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام في كتاب غررالحكم: «الخَيْرُ عَادَةٌ» وأيضاً «العَادَةُ طَبْعٌ ثَانٍ»، وهذه الكلمات إشارة إلى هذا المعنى مورد البحث.

أمّا الفرق بين التصبّر والصبر، فهو أنّ الشخص الصابر هو واقعاً من أهل الصبر والاستقامة، أي يعيش هذه الملكة الراسخة، وأمّا التصبّر فيقال للشخص الذي لا يجد في نفسه ملكة الصبر وليس من الصابرين، بل يدفع نفسه بهذا الاتّجاه.

وأساساً فالكثير من الفضائل الأخلاقية لا يحصل عليها الإنسان إلّا برياضة النفس والتعوّد والتمرّن، وبما أنّ الصبر والاستقامة ومواجهة التحدّيات الصعبة يعتبر رأس مال جميع النجاحات في الحياة، وطبقاً لما ورد في بعض الروايات أنّ الصبر بالنسبة للإيمان كالرأس من الجسد، فلابدّ للإنسان من السعي الجادّ لتحصيل هذه الملكة والفضيلة السامية، وكما يقول الشاعر:

صَبراً لِما تُحدِثُ الأيّام مِن حَدثٍ ... فَالدَّهرُ فِي جَورِهِ جارٍ عَلَى سُننِ
الصَّبرُ أَجمَلُ ثَوبٍ أنتَ لابِسهُ ... لنازلٍ والتَّعزِّي أَحسنُ السُننِ
وَهَوِّنِ الوَجدَ إنّي لا أرى أحَداً ... بِفرقَةِ الإلفِ يَوماً غَير مُمتَحنِ[1]

وممّا ينسب لإميرالمؤمنين عليه السلام:

ألا فاصبِر عَلَى الحَدثِ الجَليلِ ... وَداوِ جَواكَ بالصّبرِ الجَميلِ
وَلا تَيأس فإنّ اليأسَ كُفرٌ ... لَعلَّ اللهَ يُغني مِن قليلِ
وإنّ العُسرَ يَتبعُهُ يَسارٌ ... وَقولُ اللهِ أصدقُ كُلّ قيلِ[2]

---

١. معجم حكمة العرب، ص ٢٣٨.
٢. انظر: تاريخ مدينة دمشق، ج ٤٢، ص ٥٢٤، البداية والنهاية، ج ٨، ص ١١.

القسم السادس

وَأَلْجِئْ نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَىٰ إِلٰهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَىٰ كَهْفٍ حَرِيزٍ، ومَانِعٍ عَزِيزٍ. وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ، أَكْثِرِ الإِسْتِخَارَةَ، وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً، فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ.

الشرح والتفسير

لا تتساهل في هذه الوصيّة

وينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية (القسم السادس) لبيان خمس توصيات مهمّة لولده وثمرة فؤاده.

بداية يطرح مسألة التوكّل على الله ويقول: «وَأَلْجِئْ[1] نَفْسَكَ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا إِلَىٰ إِلٰهِكَ، فَإِنَّكَ تُلْجِئُهَا إِلَىٰ كَهْفٍ[2] حَرِيزٍ[3]، وَمَانِعٍ عَزِيزٍ».

إنّ التوكّل وليد الإيمان بالتوحيد الأفعالي، فعندما يعتقد الإنسان أنّ جميع الأمور في العالم بيد الله تعالى، ويؤمن بأنّ الله مسبّب الأسباب، فمن الطبيعي أن يلتجيء إليه في جميع مشاكله وحاجاته، وتسكن إليه نفسه ويرى فيه ملاذاً آمناً لما يواجهه في واقع الحياة من أزمات وتحدّيات.

والتوكّل لا يعني التكاسل وأن يترك الإنسان السعي والعمل ويجلس بأمل لطف

---

١. «ألجيء» من «الإلجاء» وأصلها من «الجوء» بمعنى الاحتماء بالشيء، و«الجاء» تعني دفعه لطلب اللجوء والحماية من الطرف الآخر.

٢. «كهف» بمعنى الغار الواسع وثم اطلقت على كل شيء ملاذ وملجأ يلجأ إلى الإنسان.

٣. «حريز» بمعنى المحافظ وهو من مادة «حرز» على وزن «فكر» ويعني حفظ الشيء.

الله ورزقه، بل بمعنى أن يستخدم الإنسان جميع طاقاته وقدراته في سبيل الوصول إلى أغراضه، ويتحرّك على مستوى إزاحة الموانع وحلّ المشكلات، ولكن بما أنّ بعض هذه المشاكل والأزمات ربّما يكون حلّها خارج طاقة الإنسان وفوق قدرته وإمكاناته، فإنّه يلتجيء إلى لطف الله تعالى ورحمته الواسعة ويلوذ بقدرته المطلقة ليتسنّى له السيطرة على تلك المشاكل.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى مسألة الإخلاص ويقول: «وَأَخْلِصْ فِي الْمَسْأَلَةِ لِرَبِّكَ، فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ».

الإخلاص بدوره يعدّ من ثمرات الإيمان بالتوحيد الأفعالي أيضاً، لأنّ الإنسان عندما يعلم يقيناً بأنّه: «لا مُؤَثِّرَ في الْوُجُودِ إِلَّا اللهُ» فيكون حينئذٍ الرزق والحرمان بيد الله تعالى، وعندما يؤمن بهذا الأمر من موقع الاطمئنان القلبي فسوف لا يطلب شيئاً من غيره، ويتوجّه إليه بإخلاص وصفاء نيّة ويسأله حاجاته، ومن هنا فقد ورد في الروايات الشريفة أنّ المرائين مشركون، يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ رِيَاءٍ شِرْكٌ إِنَّهُ مَنْ عَمِلَ لِلنَّاسِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى النَّاسِ وَمَنْ عَمِلَ للهِ كَانَ ثَوَابُهُ عَلَى اللهِ»[1].

وتشير هذه الجملة ضمناً إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان لا ينبغي له أن يطلب حاجاته إلّا من الباري تعالى، وإن توجّه لغير الله في بعض الحاجات طبقاً لما يفرضه عالم الطبيعة من أسباب وعلل مادية وطبيعية، فيجب أن يعلم أيضاً بأنّ المؤثر الحقيقي هو الله تعالى، وأنّ إرادته غالبة على كلّ شيء، وأنّ مشيئته مهيمنة على مشيئة عباده، فجملة «فَإِنَّ بِيَدِهِ الْعَطَاءَ وَالْحِرْمَانَ»، تقرّر هذه الحقيقة الغيبية.

وفي التوصية الثالثة يقول الإمام عليه السلام: «وَأَكْثِرِ الاِسْتِخَارَةَ»، أي اطلب من الله الخير والصلاح في الحياة.

وللاستخارة معنيان: أحدهما الاستخارة المتداولة بين الناس في هذه الأيّام، فكلّ مشكلة يواجهها الإنسان ولا يستطيع حلّها بقوّة عقله أو بواسطة التشاور مع

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٢٩٣، ح ٣.

أهله ورفاقه، فإنّه يتوجّه إلى الله تعالى ويستشيره في هذا الأمر، فالاستخارة هنا نوع من المشورة مع الله تعالى، والمعنى الآخر للاستخارة أن يطلب الإنسان من الله تعالى الخير والصلاح في كلّ عمل يقدم عليه، يعني أن يجعل الله تعالى حاكماً على مصيره، فيتحرّك في حياته من أجل الكسب والتجارة والزراعة وما إلى ذلك ولكنّ لسان حاله يقول: (أَسْتَخِيرُ اللهَ بِرَحْمَتِهِ)، يعني أطلب من الله الخير والبركة والرحمة، وهذا النوع من الاستخارة ورد التأكيد عليه كثيراً في الروايات الشريفة، منها ما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا اسْتَخَارَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ إِلَّا خَارَ لَهُ»[1].

ثمّ يوصي الإمام عليه السلام ولده بأن يتعمّق في فهم هذه الوصايا والنصائح، ولا يمرّ عليها مرور الكرام أو يتعامل معها بسطحيّة وتساهل، ويقول: «وَتَفَهَّمْ وَصِيَّتِي، وَلَا تَذْهَبَنَّ عَنْكَ صَفْحاً[2]».

ثمّ يقدّم الدليل لتأييد هذه الحقيقة، ويقسّم العلوم والمعارف إلى ثلاثة أقسام يقول: «فَإِنَّ خَيْرَ الْقَوْلِ مَا نَفَعَ، وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خَيْرَ فِي عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَلَا يُنْتَفَعُ بِعِلْمٍ لَا يَحِقُّ تَعَلُّمُهُ».

فالعلوم النافعة هي العلوم التي تعين الإنسان في مسيرته المعنوية والقرب إلى الله، سواءً كانت في مجال العقائد أو العبادات أو الأخلاق وما شاكل ذلك، وبذلك تحقّق له حياة كريمة في هذه الدنيا وتنقذه من الفقر الذي يعدّ عاملاً رئيسياً للكفر والضلالة والانحراف.

والعلوم غير النافعة هي العلوم التي لا يجد الإنسان فيها خير الدنيا ولا خير

---

١. بحار الأنوار، ج ٨٨، ص ٢٢٤، ح ٤.

٢. «صفح» في الأصل بمعنى الجانب والطرف المواجه للشيء، ومعناه المصدري الإعراض وصرف النظر عن الشيء، وبما أنّ صرف الإعراض عن الشيء تارة بدفاع العفو الصفح وأخرى بسبب الغضب والاستياء، فهذه المفردة تستعمل بكلا المعنيين، وضمناً ينبغي الالتفات إلى أنّ فاعل تذهبنّ هو الوصية، ومعنى الجملة أنّ وصيتي لا ينبغي أن تنسى بسبب الاهمال والإعراض عنها، أي لا تتعامل معها من موقع اللامبالاة والتساهل، وجاء في بعض النسخ كلمة «عنها» بدلاً من عنك، وفي هذه الصورة سيكون فاعل تذهبنّ المخاطب، أي الإمام الحسن عليه السلام.

الآخرة، وأحياناً يستخدمها الإنسان لقضاء الوقت أو اللهو والتفاخر، كما ورد في الحديث المعروف عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: «دَخَلَ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وآله المَسْجِدَ فإذا جَماعةٌ قد أطافوا برَجُلٍ، فقال: ماهذا؟ فقالوا: عَلّامَة. فقال: وما العَلّامَة؟ فقالوا له: أعلَمُ النّاسِ بأنسابِ العَرَبِ ووَقائعِها، وأيّامِ الجَاهليّةِ، والأشعارِ العَربيّةِ، قال: فقالَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: ذاكَ عِلْمٌ لا يَضُرُّ مَنْ جَهِلَهُ وَلا يَنْفَعُ مَنْ عَلِمَهُ، ثمّ قال النَّبيُّ صلى الله عليه وآله: إنَّما العِلْمُ ثَلاثَةٌ: آيَةٌ مُحْكَمَةٌ أَوْ فَرِيضَةٌ عَادِلَةٌ أَوْ سُنَّةٌ قَائِمَةٌ وَمَا خَلاهُنَّ فَهُوَ فَضْلٌ»[1].

وبديهيّ أنّ العلوم والمعارف التي يحتاج إليها الإنسان في إعمار الدنيا وقضاء حاجاته الدنيوية، وتساهم في نجاته من الفقر والمرض ومشكلاته الأخرى، تعتبر من العلوم المفيدة أيضاً، لأنّها في الواقع بمثابة مقدّمة لتلك الطوائف الثلاث من العلوم النافعة.

والقسم الثالث من العلوم، العلوم المضرّة، من قبيل علم السحر والشعوذة والعلوم التي ترتبط بإنتاج الوسائل المحرّمة مثل الخمر والمخدّرات، وفي عالمنا المعاصر نرى أنّ هذه العلوم أكثر بكثير من الماضي، منها العلوم التي تساهم في صناعة أسلحة الدمار الشامل كالقنابل الذرية والأسلحة الكيمياوية وأمثال ذلك، فتعلم مثل هذه العلوم وتعليمها حرام في الإسلام، لأنّها تكون مقدّمة للحرام.

تأمّل

العلوم النافعة وغير النافعة

لا شكّ أنّ العلم نور وضياء في حياة الإنسان، ولكنّ هذا لا يعني أنّ جميع العلوم مفيدة ومطلوبة.

وكما رأينا في وصية الإمام عليه السلام مورد البحث أنّ الإمام قد قسّم العلوم إلى ثلاثة أقسام:

---

١. الكافي، ج ١، ص ٣٢، ح ١.

الأول: العلوم التي تنفع الإنسان في حياته، وأحياناً تكون ذات بعد معنويّ من قبيل العلوم والمعارف الدينية والأحكام الشرعية والأخلاق الإنسانية، وأحياناً ذات بعد مادّي مثل جميع العلوم التي يحتاج إليها الإنسان في حياته الدنيوية ومعاشه، من قبيل علم الطبّ، الزراعة، العلوم الدفاعية، الصناعات الخفيفة والثقيلة، وما إلى ذلك، وأنّه لولا توفّر هذه العلوم والمعارف وما يترتّب على فقدانها من خلل في حياة الإنسان الماديّة، فإنّ ذلك من شأنه أن يفرز مشاكل معنوية كثيرة، وعلى وضوء ذلك فإنّ مثل هذه العلوم تعتبر في الإسلام واجباً كفائياً، يعني يجب على كلّ جماعة أن يتوجّهوا لطلب بعض هذه العلوم لتأمين جميع حاجات المجتمع الإسلامي المادية، ولو لم يتوفّر في فرع من فروع هذه العلوم مَن يتصدّى له بالمقدار الكافي، فسيكون الوجوب عينياً على الأفراد.

وفي هذا السياق لا ينبغي للمسلمين في كلّ عصر وزمان، بخاصّة في عصرنا هذا، أن يتخلّفوا عن الآخرين في هذه العلوم، بل يجب أن يكونوا روّاداً للعلم والمعرفة كما كانوا كذلك في القرون الأُولى للإسلام.

الثاني: العلوم المضرّة، وهي العلوم التي يترتّب عليها تخريب النظام الاجتماعيّ وهدم سلامة المجتمع وإعاقة حركة المجتمع نحو التطوّر والتقدّم والإزدهار، كالعلوم التي تنتج أسلحة الدمار الشامل وتستخدم لصناعة المخدّرات والخمور وأمثالها.

الثالث: العلوم الزائفة وغير المفيدة، أي أنّها غير مضرّة وغير نافعة، وقد ذكرنا نماذج منها في شرح كلام الإمام عليه السلام.

❧

القسم السابع

أيْ بُنَيَّ، إنِّي لَمَّا رَأيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأيْتُنِي أزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إلَيْكَ، وَأوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أنْ يَعْجَلَ بِي أجَلِي دُونَ أنْ أُفْضِيَ إلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أوْ أنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أوْ يَسْبِقَنِي إلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَى وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ. وَإنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ. فَبَادَرْتُكَ بِالأَدَبِ قَبْلَ أنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ، لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلاَجِ التَّجْرِبَةِ، فَأتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ.

الشرح والتفسير

الباعث لكتابة هذه الوصية

في هذاالمقطع من الوصية وهو (المقطع السابع) ينطلق الإمام عليه السلام مرّة أخرى ليبيّن هدفه من كتابة هذه الوصية المطوّلة والزاخرة بالمواعظ النافعة، ويتألّف الهدف الذي يرسمه الإمام عليه السلام من قسمين، قسم يتمثّل في وجود الإمام عليه السلام وإحساساته، وقسم آخر يتجسّد في وجود الإمام الحسن عليه السلام، وخلاصة ما يريد الإمام عليه السلام قوله: إنّني بلغت سنّاً متقدمةً وربّما يكون قد حان أجلي، ولهذا السبب أقدمت على كتابة هذه الوصية لك، ومن جهة أخرى فأنت شابٌ تملك الاستعداد لقبول الحقّ والإصغاء إلى المواعظ، وأخشى أن يتقدّم بك العمر وتفقد مثل هذا الاستعداد،

ولهاتين الجهتين بادرت لكتابة هذه الوصية.

بداية يقول الإمام عليه السلام: «أَيْ بُنَيَّ إِنِّي لَمَّا رَأَيْتُنِي قَدْ بَلَغْتُ سِنّاً، وَرَأَيْتُنِي أَزْدَادُ وَهْناً، بَادَرْتُ بِوَصِيَّتِي إِلَيْكَ».

ومعلوم أنّ عمر الإمام عليه السلام في ذلك الوقت كان قد بلغ ستّين سنة أو أكثر قليلاً من ذلك، وكان عمر الحسن عليه السلام أكثر من ثلاثين عاماً ويملك في ذلك الوقت مشاعر الشباب وإحساسات الفتوّة، وهذا يعتبر درساً لجميع الآباء تجاه أبنائهم، فعندما يتقدّم بهم العمر وقبل أن يحلّ أجلهم، أو يتجاوز الأبناء مرحلة الشباب ويفقدوا الاستعداد لتقبّل النصيحة وتغيير المواقف والسلوكيات، فاللازم على الآباء أن يتقدّموا لهم بمثل هذه التوصيات.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتقدّم بتوضيح أكثر ويقول: «وَأَوْرَدْتُ خِصَالاً مِنْهَا قَبْلَ أَنْ يَعْجَلَ بِي أَجَلِي دُونَ أَنْ أُفْضِيَ[1] إِلَيْكَ بِمَا فِي نَفْسِي، أَوْ أَنْ أُنْقَصَ فِي رَأْيِي كَمَا نُقِصْتُ فِي جِسْمِي، أَوْ يَسْبِقَنِي إِلَيْكَ بَعْضُ غَلَبَاتِ الْهَوَىٰ وَفِتَنِ الدُّنْيَا، فَتَكُونَ كَالصَّعْبِ النَّفُورِ[2]».

وهنا نرى الإمام عليه السلام يتحدّث، لا من موقع كونه إماماً معصوماً ولا أنّ مخاطبه بوصفه ابنه المعصوم، بل بوصفه أباً مسنّاً ومحبّاً لولده الذي يخشى عليه أن يقع في دوّامة الأهواء وفتن الدنيا ووساوس النفس، ويشير إلى أمرين، أحدهما يعود لنفسه، والآخر لولده، ويقول: إنّني من جهة قد بلغ بي العمر سنّ الشيخوخة، وأخشى أن يحين أجلي وأفقد الحديث معك، ومن جهة أخرى أنّ التقدّم في السنّ ربّما يضعف الذهن والفكر كما يضعف أعضاء البدن الأخرى، ومن جهة ثالثة، أخشى عليك الآفات المختلفة والوقوع في شباك الشيطان والأهواء النفسانية ومغريات الدنيا،

---

١. «أفضى» من «الإفضاء»، وأصلها «فضاء» بمعنى الوصول للشيء وكأنّه دخل في جوه وفضائه، ثم اطلقت على مفهوم إلقاء مطلب معين وتعليمه لآخر وكأنّ المتكلّم ألقى هذا المفهوم في فضاء فكر المخاطب.

٢. «نفور» في الأصل بمعنى الحيوان الهارب الذي نفر من شيء مخوف، ثم اطلقت على كل إنسان يهرب من شيء.

وحينئذٍ ستزول الفرصة للموعظة وتقديم النصح.

وعلى أساس هذه الجهات بادرت لكتابة هذه الوصيّة لأصل إلى الغاية المطلوبة قبل فوات الأوان.

والعجيب أنّ ابن أبي‌الحديد في شرح عبارات هذه الوصية، وعندما يبلغ حديث الإمام عليه‌السلام عن نفسه يقول: «إنّ هذه العبارات تشير إلى خلاف ما يعتقده الشيعة الذين يقولون أنّ الإمام معصوم في مثل هذه الأمور ولا يواجه نقصاً في فكره ولا قصوراً في رأيه»[1].

في حين أنّ جميع القرائن، كما أسلفنا ذلك، تشير إلى أنّ الإمام عليه‌السلام عندما يتحدّث بمثل هذا الكلام فإنّه لا ينطلق من موقع الإمامة والعصمة، بل من موقع الأب المسنّ والخبير والمجرّب الذي يتقدّم بالنصح لولده الشابّ الذي لم يجرّب الأمور بعد.

ولو أنّ ابن أبي‌الحديد التفت إلى كلام آخر للإمام عليّ عليه‌السلام في نهج‌البلاغة أيضاً حيث يقول: «فَاسْأَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ»[2]، فسوف يتبيّن له الجواب عن هذا التوّهم.

وأيضاً يقول الإمام عليه‌السلام في كلام آخر في الخطبة ١٨٩: «أَيُّهَا النَّاسُ سَلُونِي قَبْلَ أَنْ تَفْقِدُونِي فَلَأَنَا بِطُرُقِ السَّمَاءِ أَعْلَمُ مِنِّي بِطُرُقِ الْأَرْضِ»، أجل، لو أنّ ابن أبي‌الحديد أخذ بنظر الحسبان هذا الكلام لأميرالمؤمنين عليه‌السلام لما تحدّث بمثل ذلك الكلام.

ثمّ إنّ الإمام عليه‌السلام يبيّن الدليل والعلّة لطرح هذه الوصايا لولده الشاب، ويقول: «وَإِنَّمَا قَلْبُ الْحَدَثِ كَالْأَرْضِ الْخَالِيَةِ مَا أُلْقِيَ فِيهَا مِنْ شَيْءٍ قَبِلَتْهُ».

وهذا الأمر قد ثبت بالتجربة مرّات عديدة، بل هناك رواية صارت كالمثل تقول: «اَلْعِلْمُ فِي الصِّغَرِ كَالنَّقْشِ فِي الْحَجَرِ»[3] أي الخطّ والرسم الثابت والعميق الذي لا

---

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٦، ص ٦٦.

٢. نهج‌البلاغة، الخطبة ٩٣.

٣. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٦، ص ٦٧.

يزول أو يتغيّر بسهولة. ثمّ تضيف الرواية: وَالتَّعَلُّمُ فِي الْكِبَرِ كَالْخَطِّ عَلَى الْمَاءِ»،[١] في سرعة زواله وتغييره.

ثم إنّ الإمام يقدّم دليلين آخرين ويقول: فَبَادَرْتُكَ بِالْأَدَبِ قَبْلَ أَنْ يَقْسُوَ قَلْبُكَ، وَيَشْتَغِلَ لُبُّكَ».

والحقيقة أنّ الإمام بيّن ثلاثة أدلّة لاختياره لهذا الموقع والسنّ لتقديم النصح والموعظة، منها، استعداد قلب الشابّ لتقبل المواعظ، وقساوة القلب بسبب عدم التلوّث بالذنوب وعدم اشتغال الذهن بمشاكل الحياة، وكلّ واحدة من هذه الجهات الثلاث كافٍ لوحده لاختيار هذا الوقت المحدّد، فكيف إذا اجتمعت هذه الجهات مع بعضها!

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام: «لِتَسْتَقْبِلَ بِجِدِّ رَأْيِكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا قَدْ كَفَاكَ أَهْلُ التَّجَارِبِ بُغْيَتَهُ[٢] وَتَجْرِبَتَهُ، فَتَكُونَ قَدْ كُفِيتَ مَئُونَةَ الطَّلَبِ، وَعُوفِيتَ مِنْ عِلَاجِ التَّجْرِبَةِ».

ويشير الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الكلام إلى أهمية الاستفادة من تجارب الآخرين، لأنّ الحياة ليست سوى تجارب، والإنسان العاقل بدلاً من أن يجرّب كلّ شيء بنفسه ويترتّب على ذلك أضرار ومشاكل كثيرة، فإنّه يستفيد من تجارب الآخرين ويتعلّم منهم ما يعينه في مسيرته بدون أن يدفع ثمن هذه التجارب، وبعبارة أخرى، إنّ الأجيال اللاحقة من حيث انتفاعها بتجارب القدماء، تعيش أفضل حالاً منهم من حيث السعادة والخبرة في مواجهة التحدّيات والظروف، فما اكتسبه القدماء بتعب وجهد كبير فإنّ الجيل اللاحق ينتفع منه بدون تعب، وكما يقول الإمام: «كُفِيتَ مَؤُونَةَ الطَّلَبِ وَعُوفِيتَ مِنْ عَلَاجِ التَّجْرِبَةِ».

ولذلك يقول الإمام عليه السلام في ختام هذه الفقرة من الوصية: «فَأَتَاكَ مِنْ ذَلِكَ مَا قَدْ كُنَّا نَأْتِيهِ، وَاسْتَبَانَ لَكَ مَا رُبَّمَا أَظْلَمَ عَلَيْنَا مِنْهُ»، فحصلت عليه بدون أن تتعب نفسك في

---

١. شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٦٧.

٢. «بغية» بمعنى الطلب، من مادة «بغي» على وزن «نفي»، ويقول الراغب في مفرداته إنّ هذه الكلمة تعني أحياناً مفهوماً ايجابياً وهو طلب الخيرات، وأخرى مفهوماً سلبياً وهو تجاوز حدّ العدالة والميل لجهة الظلم والباطل.

تحصيله، بل ربّما كان قد خفي عنك بعض الأمور ولكن بمرور الزمان استبانت لك، وهو إشارة إلى أنّ تجارب القدماء أحياناً تقع بأيدي الجيل اللاحق بشكل كامل فينتفعون بصورة تامّة، وأحياناً يكون القدماء قد سلكوا بعض الطريق وعلى الخلف أن يكمل المسيرة، وقد يحصل على نتائج وثمار لم يحصل عليها القدماء.

وكما أشرنا سابقاً أنّ الإمام عليه السلام في هذه الوصية لا يتحدّث من موقع الإمامة ومقام العصمة، بل بوصفه رجلاً مجرّباً وخبيراً بالأمور الدنيا وتعقيداتها وينقل هذه التجارب من موقع الحرقة والشفقة على ولده الذي يجده في مواجهة التحديات الصعبة وأعاصير الحوادث والمتغيرات لينتفع من هذه التجارب، بل أحياناً يكون الأب قد سار بعض الطريق وحصل على بعض النتائج وعلى الابن إكمال هذه المسيرة والحصول على نتائج أفضل.

تأمّل

معطيات التربية في سنّ الشباب

إنّ تاريخ الأنبياء يشير إلى أنّ الشباب هم الشريحة الاجتماعية الأُولى الذين آمنوا بالرسالة الإلهيّة وتحرّكوا من موقع الدفاع عنها والالتزام الواعي بتعاليمها، ويحدّثنا القرآن الكريم في موارد عدّة عن قصّة نوح عليه السلام وإيمان الشباب به وإعراض المسنّين الأثرياء عنه وعن رسالته السماوية، وكذلك يدلّنا تاريخ الإسلام على أنّ المؤمنين بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كانوا في الغالب من فئة الشباب.

والروايات الإسلاميّة تؤيّد هذه الحقيقة، فالإمام الصادق عليه السلام يقول لأحد أصحابه والذي توجّه إلى البصرة للدفاع عن مذهب أهل البيت عليهم السلام: «**عَلَيْكَ بِالأَحْدَاثِ فَإِنَّهُمْ أَسْرَعُ إِلَىٰ كُلِّ خَيْرٍ**»[1].

---

١. الكافي، ج ٨، ص ٩٣.

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أيضاً: «مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَهُوَ شَابٌّ مُؤْمِنٌ اخْتَلَطَ الْقُرْآنُ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ»[١].

وأيضاً ورد في حديث آخر عنه عليه السلام أنّه قال: «بَادِرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْحَدِيثِ قَبْلَ أَنْ يَسْبِقَكُمْ إِلَيْهِمُ الْمُرْجِئَةُ»[٢]. والمرجئة هم الذين لا يعتقدون بإمامة عليّ بن أبي طالب عليه السلام وأنّه خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله مباشرة.

ويستفاد من الفقرة الأخيرة من وصية الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بوضوح تامّ.

والدليل علىٰ ذلك واضح، لأنّ قلب الشبّان من جهة نقيّ وخالٍ من أدران التلوّث بالعقائد الباطلة وحالات العناد والتعصّب، ولهذا السبب فهو كالأرض الصالحة للزراعة، الخالية من الأشواك والأعشاب الضارّة، فعندما يبذر فيها أيّ نوع من البذور، فإنّه ينمو بسرعة.

ومن جهة أخرى فإنّ الشاب قليل التعلّق بالأمور الدنيوية والماديّة، وقليل الانشغال بالأوهام والعناوين الزائفة التي من شأنها حجب القلب والعقل عن تقبّل الحقّ.

ومن جهة ثالثة فإنّ تعاليم الأنبياء وأحكام الدين الإلهيّ تتقاطع في موارد كثيرة مع مطامع الشيوخ غير المشروعة، فهؤلاء غير مستعدّين للتنازل عن مطامعهم وطموحاتهم بسهولة، في حين أنّ الشباب لا يعيشون هذه المشكلة ولا يواجهون هذا العائق.

يقول أحد الشعراء:

قَدْ يَنْفَعُ الأَدَبُ الأَحْداثَ فِي مَهَلٍ ... وَلَيْسَ يَنْفَعُ عِنْدَ الْكِبَرِةِ الأَدَبُ
إِنَّ الْغُصُونَ إِذا قَوَّمْتَها اعْتَدَلَتْ ... وَلَنْ تَلِينَ إِذا قَوَّمْتَهَا الْخُشُبُ[٣]

---

١. الكافي، ج ٢، ص ٦٠٣، ح ٤.
٢. المصدر السابق، ج ٦، ص ٤٧، ح ٥.
٣. القائل هو سابق البربري، انظر: جامع البيان العلم و فضله، ص ٨٣.

القسم الثامن

أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ، حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ؛ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ، فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ، وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ.

الشرح والتفسير

تجارب الآخرين وإطالة عمر اللاحقين

يشير الإمام عليه السلام في مطلع هذه الفقرة من الوصيّة إلى نقطة في غاية الأهمية، وهي ضرورة مطالعة ودراسة تاريخ القدماء وسيرة الأقوام السالفة فيما يصل إلينا من أخبارهم وأعمالهم ومن خلال ما تتركه لنا آثارهم (ولأطلال والقبور المندرسة والثروات الباقية و...) ويقول: «أَيْ بُنَيَّ، إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عُمِّرْتُ عُمُرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ، وَسِرْتُ فِي آثَارِهِمْ؛ حَتَّىٰ عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ، بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَىٰ إِلَيَّ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عُمِّرْتُ مَعَ أَوَّلِهِمْ إِلَى آخِرِهِمْ».

وهو إشارة إلى أنّ الحياة ليست سوى تجربة، فلو أنّ المرء انتفع من تجارب الآخرين وتدبّر في أعمالهم والنتائج المترتّبة عليها، ونظر بعين العبرة إلى آثارهم وما بقي منهم في مطاوي التاريخ، فإنّه سيعيش طيلة عمره وكأنّه عاش مع جميع

الأقوام والمجتمعات البشرية على امتداد التاريخ، منذ أن خلق الله آدم عليه السلام ولحدّ الآن.

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام، لقد تدبّرت في جميع أخبارهم وآثارهم، واخترت منها الصفوة، وعرفت النافع من الضارّ، والحسن من السيّء: «فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ، وَنَفْعَهُ مِنْ ضَرَرِهِ، فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ[1] وَتَوَخَّيْتُ[2] لَكَ جَمِيلَهُ، وَصَرَفْتُ عَنْكَ مَجْهُولَهُ».

إشارة إلى أنّ مطالعة آثار القدماء والسير في ثنايا تاريخهم وآثارهم لا يكفي في التعلّم والاعتبار، بل ينبغي أن يكون الإنسان كالصرّاف الذي يستخلص من كلّ أمر الجيّد منه ويميّز بين الغثّ والسمين، والحسن والرديء ويلقي بالسيّء والرديء جانباً، وينتفع من الحسن والجيّد، فيقول الإمام عليه السلام: وقد اخترت لك الجميل من أعمالهم وصرفت عنك الرديء وألقيت به بعيداً.

وفي ختام هذه الفقرة من الوصيّة يبيّن الإمام عليه السلام الباعث له على هذه الوصية مرّة أخرى بقوله: «وَرَأَيْتُ حَيْثُ عَنَانِي مِنْ أَمْرِكَ مَا يَعْنِي الْوَالِدَ الشَّفِيقَ، وَأَجْمَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ أَدَبِكَ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ وَأَنْتَ مُقْبِلُ الْعُمُرِ وَمُقْتَبَلُ[3] الدَّهْرِ، ذُو نِيَّةٍ سَلِيمَةٍ، وَنَفْسٍ صَافِيَةٍ».

وهذا إشارة إلى أنّني عندما أتعبت نفسي في جمع تجارب القدماء وما تحدّث به التاريخ عن الأمم السابقة، فقد استخلصت لك منها هذه المواعظ، والباعث لذلك أمران: الأوّل: أنّني والدك الشفيق والمحبّ لك والطالب لسعادتك، والآخر: أنّك

---

١. «نخيل» من «النخل» في الأصل تعني الغربال الذي يستخدم في تطهير الدقيق من الشوائب والنخالة، ثم اطلقت كلمة «نخيل» على كل شيء تمت تصفيته وتنقيته، والمراد من العبارة أعلاه أنني اخترت لك الشيء النقي والمصفى من تاريخ وسيرة القدماء وتركت الأمور المظلمة والكدرة جانباً، وينبغي الالتفات إلى أنّ «نخيل» بهذا المعنى لها جهة وصفية، وهي غير «نخيل» جمع «نخل» وهي شجرة التمر.

٢. «توخيت» من «الوخى» على وزن «نفى» بمعنى قصد الشيء والتوجه إليه، و «توخى» في هذا المورد جاءت بمعنى الانتخاب والاصطفاء.

٣. «مقتبل» بمعنى مطلع وبداية كل شيء، وهي من «الإقتبال» وتعني الشروع بالأمر والابتداء عمل معين.

شابّ وتعيش في بداية العمر وتملك قلباً نقيّاً وروحاً طاهرة، فهذان الأمران يبرّران ما أتعبت نفسي من أجلك وييسّران كلّ عسير من أجل سعادتك وراحتك.

والواقع أنّ الإمام عليه السلام بهذا الكلام يعلّم جميع الآباء والمحبّين لأبنائهم أنّهم إذا كانوا يطلبون السعادة لأبنائهم فعليهم أن يتعاملوا معهم بآلية التربية مادامت قلوب الأبناء صافية ونقية وغير مكدّرة بمشاكل الحياة، ولاسيما أنّ تاريخ القدماء زاخر بالدروس والعبر وتقدّم للإنسان نماذج حسّية للمسير في خطّ القِيَم الأخلاقية والمثل الإنسانية.

تأمّلان

١. تشكيلة منسجمة من أسرار التاريخ

منذ اليوم الذي اخترع فيه الإنسان الخطّ واستطاع تدوين آثاره وتجاربه من خلال الكتابة، ابتدأ التاريخ البشريّ، وانتقلت تجارب الأقوام السابقة إلى الأقوام اللاحقة بوصفها ميراثاً ثميناً مختزناً في مطاوي التاريخ وثنايا القرون، فقد دوّن التاريخ عوامل النجاحات والإخفاقات التي أصابت الأقوام والمجتمعات البشرية، وبيّن أسباب اهتزاز السلطات والحكومات وعوامل انهيار الحضارات والحوادث الحلوة والمرّة التي يزخر بها تاريخ البشرية بحيث أنّ الأشخاص المطّلعين وأهل الخبرة يستطيعون رؤية مسيرة حياتهم الفردية والإجتماعية في مرآة التاريخ دون أن يحتاجوا لخوض غمار تجارب جديدة وتكرار ما واجهته الأقوام السابقة اعتماداً على ما يستوحونه ويستفيدونه من تجارب الآخرين.

ومن هذا المنطلق يستعرض القرآن الكريم في آيات كثيرة تاريخ الأقوام السالفة من موقع كونها عبرة للأحياء، ويتحدّث عن هذه الحقيقة بصراحة: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[1].

---

١. سورة يوسف، الآية ١١١.

ويتحدّث القرآن أيضاً في بعض أخباره التاريخية من موقع كونها تمثّل دروساً وتختزن في مطاويها عبراً يستوحي منها الناس ما ينفعهم في حياتهم ومعيشتهم، ويختار منها ﴿أَحْسَنُ الْقِصَصِ﴾ ويقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾[1].

وأحياناً يحثّ القرآن الكريم مخاطبه على السير في الأرض ومطالعة آثار الأقوام الماضية وما انعكس على حياتهم وسلوكياتهم في التاريخ ويقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[2].

وفي هذه الوصية يشير الإمام عليه السلام إلى نقطة مهمّة فيما يتّصل بالتاريخ البشريّ، وهي أنّ مطالعة تاريخ القدماء من موقع الدّقة والعمق، من شأنه أن يمنح الإنسان عمراً خالداً وكأنّ الإنسان الذي يدرس حوادث التاريخ يعيش مع الأقوام البشرية منذ أن خلق الله آدم وإلى هذا اليوم، ويستوحي من تجاربهم وحالتهم ما يعينه في مسيرته وحياته، ويمثّل له زاداً ومتاعاً لمواجهة الصعوبات والتحدّيات التي يفرضها الواقع عليهم، والحقيقة أنّ مثل هذا التراث الثمين الذي حصل عليه الإنسان المعاصر بنفقات زهيدة جدّاً، يعدّ متاعاً مهمّاً وزاداً ضروريّاً يمنحه الحركة والقدرة على مواصلة المسيرة.

ومن الطبيعيّ أن نجد بعض نقاط القصور والثغرات المهمّة في التاريخ، وذلك بسبب هيمنة قوى الاستكبار والسلطة لتشويه وتحريف حقائق التاريخ بما يصبّ في صالحها، بحيث استطاعوا تلويث مرآة التاريخ في موارد كثيرة و عملوا على إخضاع المؤرّخين بآليات الطمع والتهديد لصياغة التاريخ حسب رؤيتهم لا على أساس ما يعكسه الواقع التاريخي، وكنموذج بارز لهذا التحريف والتشويش ما قام به بنو أُمية من تحوير وتزييف لحقائق التاريخ.

---

١. سورة يوسف، الآية ٣.

٢. سورة الروم، الآية ٤٢.

ولكنّ المحقّقين من أهل الخِبرة والاطّلاع استطاعوا من خلال توخّي الدّقة في ملاحظة البرهان والشواهد المتناثرة في زوايا التاريخ ومطاوي الحوادث التاريخية، أن يميّزوا بين الصحيح والسقيم، الحقّ والباطل، وبما أنّ الكاذب ضعيف الحافظة ويبتلى غالباً بالتناقض في كلامه، استطاع هؤلاء المؤرّخون المخلصون من تمييز الماء الزلال من الكدر وتشخيص الحقيقة من الوهم والزيف.

ونتمنّى على أصحاب السلطة وقوى الهيمنة والاستكبار في عالمنا المعاصر إلقاء نظرة إلى التاريخ، وعلى الأقلّ مطالعة مسيرة الملوك والسلاطين السابقين وما كان مصيرهم ليشاهدوا عن كثب مصيرهم في المستقبل في مرآة التاريخ ويتجنّبوا التعامل مع الشعوب بالظلم والجور والسحق الحقوق.

٢. كيف توصّل الإمامعليه السلام لتاريخ الأقوام الماضية؟

يستفاد من كلمات الإمامعليه السلام في هذا المقطع من الرسالة أنّ الإمامعليه السلام قد توصّل لفهم تاريخ القدماء من خلال أربع طرق: الأوّل: من خلال النظر في أعمالهم، ويمكن أن يكون ذلك إشارة إلى الأعمال والسلوكيات التي انتقلت شفوياً من جيل إلى جيل، ومن الآباء إلى الأبناء حتّى وصلت إليه.

الثاني: من خلال التفكّر والتدبّر في أخبارهم المنعكسة والمدوّنة على صفحات التاريخ بشكل مكتوب.

الثالث: من خلال السير في آثارهم والنظر إلى بقايا مدنهم وأطلال قصورهم، أي القصور الخاوية على عروشها والخرائب والأطلال المتبقّية من مدنهم، القبور المندرسة وما إلى ذلك، حيث تتحدّث هذه الآثار والأطلال وهي صامتة عن الحقائق التي تتعلّق بتلك الأقوام الماضية، وتبيّن ما كانوا عليه من حياة وثقافة وسلوك وفكر، وقد نقل إلينا العرفاء المطّلعون والشعراء المتعمّقون أموراً كثيرة عن تلكم الأقوام من خلال تدبّرهم وتأمّلهم في هذه الآثار المتبقية.

الطريق الرابع الذي استفاده منه الإمام عليه السلام لمعرفة حالات القدماء وتاريخهم يتمثّل في العلم عن طريق الوحي النازل على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وقد نقله النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله إلى أعزّ تلاميذه والوصيّ على رسالته وهو الإمام عليّ عليه السلام.

وبما أنّ المصادر الأخرى غير هذا المصدر الأخير، يقترن عادة بالأخطاء والتحريف واختلاط الأخبار الصحيحة والزائفة، فالإمام عليه السلام يقول: «فَعَرَفْتُ صَفْوَ ذَلِكَ مِنْ كَدَرِهِ... فَاسْتَخْلَصْتُ لَكَ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ نَخِيلَهُ، وَتَوَخَّيْتُ لَكَ جَمِيلَهُ...».

ﮐﮑ

القسم التاسع

وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ. ثُمَّ أَشْفَقْتُ أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَى أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ، وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ، وَأَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ.

الشرح والتفسير

رغم أنّ هذا المقطع من كلام الإمام عليه السلام (القسم التاسع) معطوف على الجملة السابقة أي: (أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ) وينبغي أن يمثّل قسماً شاخصاً، ولكن بما أنّ الإمام عليه السلام استعرض في هذا المقطع المسائل المتعلّقة بالقرآن الكريم والتعاليم الإلهيّة فإنّه جعل ذلك قسماً مستقلاً على حدة وقال: «وَأَنْ أَبْتَدِئَكَ بِتَعْلِيمِ كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَأْوِيلِهِ، وَشَرَائِعِ[1] الْإِسْلَامِ وَأَحْكَامِهِ، وَحَلَالِهِ وَحَرَامِهِ، لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ».

وممّا لا شكّ فيه أنّ أعلى ما ورد من تعاليم الإسلام من العقائد والأحكام والقيم

---

١. «شرائع» جمع «شريعة»، وفي الأصل بمعنى الشاطىء والمحل الذي يرد منه الإنسان إلى النهر ليشرب، لأنّ سطح الأنهار عادة يقع أسفل من سطح الأرض، ولذلك يتمّ تعديل الشاطىء بشكل انسيابي وتدريجي أو على شكل مدرجات ليستطيع الناس من الوصول إلى الماء بسهولة.

ثمّ اطلقت هذه المفردة على الأحكام السماوية والشرعية والتعاليم الإلهيّة للناس، أعمّ من العقائد والأحكام والأخلاق، وارتباطها بالمعنى الأصلي واضح، لأنّ الإيمان والتقوى والعدل والصلح حالها حال ماء الحياة للإنسان وتحقيق السعادة الأبدية والطريق الوصول إليها من خلال الشرعية الإلهيّة.

الأخلاقية، وردت في القرآن الكريم، وأنّ سنّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والمعصومين عليهم السلام بمثابة الشرح على فروع ومسائل تلك الأصول المبيّنة في كتاب الله، ومن هنا فالإمام يبتدىء في تربية ولده من القرآن الكريم، ويوحي لجميع المسلمين أن ينتهجوا بتعليم وتربية أبنائهم هذا النهج من القرآن الكريم، حتّى لا يقعوا فريسة وساوس الشياطين من الجنّ والإنس.

والمقصود من «تأويله» هو تفسير القرآن، لأنّ القرآن الكريم يتضمّن بعض المواضيع المذكورة على سبيل الإجمال، فتحتاج لتوضيح وتفسير النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام والعلماء والمطّلعون على عمق مداليل النصّ القرآنيّ من خلال القرائن الحالية والمقالية، والمراد من «شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ»العقائد الإسلاميّة بقرينة ذكر الأحكام بعده، رغم أنّ الشرائع والشريعة تطلق على الأصول والفروع، وعبارة «حَلَالِهِ وَحَرَامِهِ» توضيح للأحكام، لأنّ العمدة في الأحكام ما يتصّل بمسألة الحلال والحرام، رغم وجود أحكام أخرى من قبيل المستحبّات والمكروهات والأحكام الوضعية أيضاً.

وجملة: «لَا أُجَاوِزُ ذَلِكَ بِكَ إِلَىٰ غَيْرِهِ» إشارة إلى أنّني أرى جميع حقائق الدين بعيدة عن أيّ خطأ واشتباه في القرآن الكريم، وبذلك لا أُسلِمك لسلوك طرق مشكوكة في العقائد والأحكام، لأنّني أعلم أنّ الكثير من المسلمين في صدر الإسلام وبسبب نفوذ الأفكار الزائفة، انجذبوا نحو المذاهب الباطلة في الأصول والفروع، وقد انعكس ذلك على تفسيرهم للآيات القرآنية وأخذوا يفسّرون القرآن برأيهم وبالاستناد لتلك الذهنية المشوّشة، وقد اتّجهوا في معرفتهم لأحكام الإسلام نحو القياس والاستحسان والاجتهادات الظنية التي تفتقد للأساس المحكم والدعامة القوية، وفي المسائل الفرعية وقعوا في أخطاء واشتباهات كثيرة وغرقوا في دوامة البدع. والعبارات اللاحقة في كلام الإمام عليه السلام شاهد على هذه الحقيقة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير إلى نقطة أخرى ويقول: «ثُمَّ أَشْفَقْتُ[١] أَنْ يَلْتَبِسَ عَلَيْكَ مَا اخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ مِنْ أَهْوَائِهِمْ وَآرَائِهِمْ مِثْلَ الَّذِي الْتَبَسَ عَلَيْهِمْ، فَكَانَ إِحْكَامُ ذَلِكَ عَلَىٰ مَا كَرِهْتُ مِنْ تَنْبِيهِكَ لَهُ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ إِسْلَامِكَ إِلَىٰ أَمْرٍ لَا آمَنُ عَلَيْكَ بِهِ الْهَلَكَةَ».

وخلاصة كلام الإمام عليه السلام هو أنّني في هذه الوصية بيّنت بالدليل والبرهان زيف العقائد الباطلة والآراء الموهومة رغم أنّ طرح مثل هذه العقائد الباطلة وشبهات المنحرفين ليس محبّباً، ولكنّ الضرورة تستوجب أن أطرح مثل هذه المقولات وأُجيب عنها، لأنّ هذا العمل أفضل من أن أقوم بإخفائها والتستّر عليها، وربّما تبتلى أنت بها في يوم من الأيّام ولا يمكنك الإجابة عنها.

إنّ هذا الهاجس يعيشه جميع المعلّمين والمربّين من أهل العلم والاطّلاع، فإنّهم لو لم يطرحوا شبهات الضالّين فيخشى على الطرف المقابل ممّن يرومون تربيته وتعليمه أن يقع يوماً في شباك هذه الشبهات، ومن هذا المنطلق يسعون لعرض تلك الشبهات، وعلى الأقلّ المهمّ منها بشكل كلّي والإجابة عنه بشكل حاسم.

وهذه العبارة يمكن أن تكون استمراراً لكلام الإمام عليه السلام حيث يعود إلى القرآن الكريم وبيان أهميته، فيقول: إنّني استوحي من آيات القرآن الكريم الأدلّة والبراهين على بطلان هذه العقائد الفاسدة وأُقدّمها لك لئلاّ تتورّط يوماً بشبهات الفاسدين والمفسدين.

ويحتمل أن تكون هذه العبارة جملة مستقلّة، يعني مضافاً إلى أنني أرى لزوم تعليمك كتاب الله وتفسيره ومعرفة حلاله وحرامه وأحكامه، أرى أيضاً لزوم

---

١. «شفقة» تأتي في مثل هذه الموارد مرادفة للخوف، في حين أنّ معناها الأصلي على حدّ قول بعض الأدباء التوجّه للشيء المقترن بالخوف، أو بعبارة أخرى الخوف مقترن بالحبّ والاحترام والأمل، لأنّ هذه الكلمة في الأصل من مادة «شفق» وهو ضوء الصبح الباكر الممتزج بالظلام، غاية الأمر أنّ هذه المفردة إذا جاءت مع «من» المتعدّية فإنّ جهة الخوف ستكون غالبة في العبارة مورد البحث، وعندما تأتي متعدّية بحرف «في» و «على»، فإنّ المودّة والشفقة ستكون الغالبة، كأن يقول الإنسان لصديقه: «أنا مُشفِقٌ عَلَيْكَ».

الاستعانة بالبرهان والعقل لنقد الآراء الباطلة والعقائد الفاسدة لئلاّ تسقط في مصائد هؤلاء المنحرفين، وعبارة: «ثُمَّ أَشْفَقْتُ» مع الأخذ بالحسبان أنّ كلمة «ثمّ» إشارة لمطلب جديد، فإنّها تتناسب أكثر مع التفسير الثاني.

وعلى حدّ قول الشيخ مغنية في شرحه لنهج البلاغة، أنّ تعبيرات الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية يؤكّد مرّة أخرى على هذه الحقيقة، وهي أنّ الإمام عليه السلام لم يطرح هذه التوصيات من موقع كونه إماماً، وأنّ الإمام الحسن المجتبى عليه السلام بوصفه خليفة وإماماً بعده، بل بوصفه أباً شفيقاً في مقابل ولده المحتاج للتعليم والتربية، لأنّه كما سبقت الإشارة إليه، أنّ الإمام الحسن عليه السلام كان قد بلغ من العمر في ذلك الوقت أكثر من ثلاثين سنة، فهل يحتمل أن يكون الإمام عليّ عليه السلام قد غفل عن تعليم ولده القرآن إلى ذلك الوقت، ولم يطلعه على الآراء الباطلة والمذاهب الفاسدة؟ إنّ الإمام الحسن عليه السلام قد عاش أوّلاً في أحضان والده، ثمّ بقي إلى جانبه كلّ هذه الأعوام الطويلة، مضافاً إلى استماعه لخطب والده الفصيحة والبليغة وما خصّه من علم ومعرفة وتعاليم إلهيّة أيضاً.

وفي آخر جملة من هذا المقطع من الوصية يبرز الإمام عليه السلام أمله في أن تؤثّر هذه الوصايا أثرها بشكل كامل في ولده ويقول: «وَرَجَوْتُ أَنْ يُوَفِّقَكَ اللهُ فِيهِ لِرُشْدِكَ[1]، أَنْ يَهْدِيَكَ لِقَصْدِكَ[2]. فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ».

ويستفاد من عبارة الإمام عليه السلام: «فَعَهِدْتُ إِلَيْكَ وَصِيَّتِي هَذِهِ»، أنّ ما تقدّم من الأقسام التسعة لهذه الوصية تمثّل في الحقيقة مقدّمة لأصل الوصيّة، والغاية منها أن يستعدّ الابن بشكل كامل لتقبّل الوصايا الأصلية التي سيذكرها الإمام عليه السلام لاحقاً، فبدون التمهيد لها لا يمكن تحصيل النتائج المطلوبة المترتبة عليها.

---

١. مفردة «رشد» في الأصل بمعنى السير نحو المقصد، وجملة «راشداً مَهْدياً» دعاء يقال عند توديع المسافر، يعني إن شاء الله ستصل إلى مقصودك وتهتدي إلى مرادك.

٢. «قصد» تأتي أحياناً بمعنى النيّة، وأخرى بمعنى سلوك الطريق المستقيم والمعتدل بعيداً عن الافراط والتفريط، و«قَصْدُ السبيل» تعني الجادة التي يسلكها الإنسان للوصول إلى مقصده.

القسم العاشر

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَىٰ اللهِ وَالاِقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ بِمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، الصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا، فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ. وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالْاِسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَىٰ ضَلَالَةٍ. فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ، وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ، وَتَتَوَرَّطُ الظَّلْمَاءَ. وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ.

الشرح والتفسير

الحذر من سلوك الطرق المشكوكة

يقدّم الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصيّة نصائح مهمّة لولده، وأولها وأهمّها التوصية بتقوى الله والقناعة بامتثال الفرائض والأحكام البيّنة والواضحة واجتناب المسير في الطرق المشكوكة والسُبل المشبوهة. يقول: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَبَّ مَا أَنْتَ آخِذٌ بِهِ إِلَيَّ مِنْ وَصِيَّتِي تَقْوَىٰ اللهِ وَالاِقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ، وَالْأَخْذُ

بِمَا مَضَىٰ عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ مِنْ آبَائِكَ، وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ».

ولا شكّ أنّ تقوى الله تعتبر على رأس الأولويات في وصايا جميع أولياء الله والزاد والمتاع لمسيرة الإنسان إلى الآخرة وجواز دخول الجنّة والمعيار لجميع امتيازات الإنسان وفضائله الأخرى، وعلى ضوء ذلك وردت التوصية بالتقوى في جميع خطب صلاة الجمعة والتأكيد عليها، والتقوى هي حالة الخشية القلبية من الله تعالى وتقبّل المسؤوليات الرسالية، ومن شأنها منع الإنسان من التلوّث بالذنوب والخطايا.

وجملة: «وَالاِقْتِصَارُ عَلَىٰ مَا فَرَضَهُ اللهُ عَلَيْكَ» لا تعني أن يقنع الإنسان بالإتيان بالواجبات ويترك المستحبّات والسنن، وهي ما سيأتي لاحقاً من اجتناب الأمور المسكوت عنها في الشريعة والتي لا يعيش الإنسان المسؤولية تجاهها، أو لا يتيسّر تحقيقها وإنجازها بسهولة، أو يستحيل على الإنسان نيلها، من قبيل المعرفة بحقيقة الذات المقدّسة.

وجملة: «وَالصَّالِحُونَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ» إشارة إلى النبيّ الأكرمﷺ والإمام عليّ عليه السلام وعبدالمطّلب وحمزة وأبي طالب وجعفر عليهم السلام.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يتعرّض لذكر الدليل على هذه الحقيقة، ويقول: «فَإِنَّهُمْ لَمْ يَدَعُوا أَنْ نَظَرُوا لِأَنْفُسِهِمْ كَمَا أَنْتَ نَاظِرٌ، وَفَكَّرُوا كَمَا أَنْتَ مُفَكِّرٌ، ثُمَّ رَدَّهُمْ آخِرُ ذَلِكَ إِلَىٰ الْأَخْذِ بِمَا عَرَفُوا، وَالْإِمْسَاكِ عَمَّا لَمْ يُكَلَّفُوا».

وهذا الكلام أيضاً ناظر إلى أنّ الإنسان ينبغي أن يتحرّك على مستوى التحقيق في المسائل المتعلّقة بالدين والتي لا يعذر في الجهل بها، بل يجب على الجميع الإطّلاع عليها، وهناك بعض الأمور الخارجة عن قدرة الإنسان وقابليته الذهنية والعقلية، كمعرفة الذات المقدّسة، فلا يوجد أيّ نبيّ مرسل قد توصّل إلى هذه الحقيقة، أو بعض الأمور التي وضعها الله تعالى عن عاتق المكلّفين بلطفه وكرمه تخفيفاً منه لعباده، ولكن ربّما يكون الإنسان مكلّفاً بها في حالة الإصرار عليها من

قبيل ما ورد في قصّة بني اسرائيل فيما يتّصل بذبح بقرة خاصّة، فلو لم يصرّ بنو اسرائيل على معرفة الجزئيات والتفاصيل، كان يكفيهم ذبح أيّة بقرة، ولكن إصرارهم أكثر من اللازم أدّى إلى تكليفهم بذبح بقرة خاصّة وبأوصاف معيّنة وكان ذلك سبباً في تورّطهم في العسر والحرج.

وكذلك ما ورد في مسألة الحجّ في الحديث الشريف: خطب رسول الله ﷺ فقال: «إنّ اللهَ كَتَبَ عَلَيكُم الحجّ» فقام عكاشة بن محصن، ويروى سراقة بن مالك، فقال: أفي كلّ عام يارسول الله، فأعرض (رسول الله) عنه، حتّى عاد مرّتين وثلاثاً، فقال رسول الله: «وَيحَكَ وما يُؤمِنكَ أنْ أقولَ: نَعم، وَاللهِ لو قُلتُ نَعم لَوجَبَتْ، وَلَو وَجَبَتْ ما اسْتَطَعْتُم وَلَو تَركتُم كَفَرتُم، فاترُكُونِي ما تَركتُكُم، فإنّما هَلكَ مَن كانَ قَبلَكُم بِكثرَةِ سُؤالِهم واختِلافِهم على أنبيائِهم، فإذا أمَرتُكُم بِشَيْءٍ فأتُوا مِنهُ ما اسْتَطَعتُم، وإذا نَهَيتُكُم عَن شيءٍ فاجْتَنِبُوهُ»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام قال في خطبة له: «إنَّ اللهَ حَدَّ حُدُوداً فَلَا تَعْتَدُوهَا وَفَرَضَ فَرَائِضَ فَلَا تَنْقُصُوهَا وَسَكَتَ عَنْ أشْيَاءَ لَمْ يَسْكُتْ عَنْهَا نِسْيَاناً فَلَا تَكَلَّفُوهَا رَحْمَةً مِنَ اللهِ لَكُمْ فَاقْبَلُوهَا»[2].

ثمّ قال الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصيّة: «فَإِنْ أَبَتْ نَفْسُكَ أَنْ تَقْبَلَ ذَلِكَ دُونَ أَنْ تَعْلَمَ كَمَا عَلِمُوا، فَلْيَكُنْ طَلَبُكَ ذَلِكَ بِتَفَهُّمٍ وَتَعَلُّمٍ، لَا بِتَوَرُّطِ الشُّبُهَاتِ، وَعُلَقِ الْخُصُومَاتِ. وَابْدَأْ قَبْلَ نَظَرِكَ فِي ذَلِكَ بِالاِسْتِعَانَةِ بِإِلَهِكَ، وَالرَّغْبَةِ إِلَيْهِ فِي تَوْفِيقِكَ، وَتَرْكِ كُلِّ شَائِبَةٍ أَوْلَجَتْكَ[3] فِي شُبْهَةٍ، أَوْ أَسْلَمَتْكَ إِلَى ضَلَالَةٍ».

وعصارة كلام الإمام عليه السلام في هذه الفقرة هي أنّ أمامك طريقين للوصول إلى

---

١. بحار الأنوار، ج ٢٢، ص ٣١.

٢. وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ١٢٩، ابواب صفات قاضي، باب ١٢، ح ٦١.

٣. «أوْلجَتك» من «الايلاج» وأصلها «ولوج» بمعنى الدخول في مكان محدود، وعندما تأتي من باب إفعال تكون متعدية، وعليه فإنّ «أوْلَج» يعني ادخال شخص أو شيء آخر.

الحقّ، أحدهما: الطريق الذي سلكه السلف الصالح من أهل بيتك وبإمكانك الاستفادة من تجاربهم الكثيرة، فهؤلاء سلكوا طريقاً سهلاً وبعيداً عن الخطر نسبياً.

الطريق الثاني: الاجتهاد الشخصيّ في المسائل والقضايا التي تواجهها في ميدان الحياة، أي أن تدخل بنفسك الميدان، وتعمل على تشخيص الحقّ من الباطل، وتسلك هذا الطريق بأربعة شروط:

الأوّل: أن تتمعّن في كلّ أمرٍ وتتدبّر عاقبته بدقّة، والثاني: الابتعاد عن التورّط بالشبهات أو التمسّك بحالات التعصّب أو الخصومة، والثالث: أن تستعين بالله تعالى وتطلب منه أن يمدّ لك يد العون في هذا المسير، والرابع: أن تجتنب كلّ أمر مشكوك ربّما يقودك إلى التورّط في الشبهات أو يجرّك إلى مهاوي الضلالة والانحراف.

ثمّ يبيّن الإمامعليه السلام في إدامة كلامه هذه النقطة، وهي أنّ كلامي النافع والمثمر والمؤثّر ليس كافياً، بل ينبغي توفّر الاستعداد والقابلية على التقبّل في وجودك، فإنّ ذلك يعدّ من شروط التأثير في الكلام، وبعبارة أخرى، كما أنّ فاعلية الفاعل تعدّ شرطاً في التأثير، فإنّ قابلية القابل كذلك، ومن هذه الجهة يهيّء الإمامعليه السلام قلب ولده وروحه بتقبّل هذه الوصايا ويقول:

«فَإِنْ أَيْقَنْتَ أَنْ قَدْ صَفَا قَلْبُكَ فَخَشَعَ، وَتَمَّ رَأْيُكَ فَاجْتَمَعَ، وَكَانَ هَمُّكَ فِي ذَلِكَ هَمّاً وَاحِداً، فَانْظُرْ فِيمَا فَسَّرْتُ لَكَ».

وبديهيّ أنّ الأشخاص الذين يعيشون قلوباً مظلمة ومشحونة بحالات التعصّب والأهواء والشهوات، ويعيشون حالة التشتّت في الفكر والذهن، فإنّهم تارة يفكّرون بحفظ مقامهم وأخرى بفكر جمع الأموال، وثالثة بإشباع الرغبات الرخيصة وإرضاء النوازع النفسانية، فمثل هؤلاء لا يقدرون على الانتفاع من هذه المواعظ وإصلاح الخلل في وجودهم وتعديل مسارهم حتّى لو كان الواعظ لهم الإمام المعصوم، ومن هذه الجهة فإنّ الآيات القرآنية التي لا شكّ في تأثيرها القاطع والحاسم، إنّما تؤثّر على جماعة تتوفّر فيهم حالة القبول، ولا تؤثّر في الأشخاص الذين يعيشون

حالات العناد والخصومة، بل ربّما يكون لها أثر عكسي، ونقرأ في الآية ١٢٤ و ١٢٥ من سورة التوبة: ﴿وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾.

وكما يقول الشاعر:

بِقَدرِ الكدّ تُكتَسَبُ المَعالي وَمَنْ طَلبَ العُلى سَهر الليالي
يَغوصُ البحرَ مَنْ طلَب اللئالي ويحظى بالسّيادةِ والنوالِ
ومَنْ طلبَ العُلى مِنْ غيرِ كَدٍّ أضاع العمرَ فِي طلبِ المُحالِ[1]

ويستمرّ الإمام عليه السلام في بيان توصياته لولده ويقول: «وَإِنْ لَمْ يَجْتَمِعْ لَكَ مَا تُحِبُّ مِنْ نَفْسِكَ، وَفَرَاغِ نَظَرِكَ وَفِكْرِكَ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنَّمَا تَخْبِطُ الْعَشْوَاءَ[2]، وَتَتَوَرَّطُ[3] الظَّلْمَاءَ وَلَيْسَ طَالِبُ الدِّينِ مَنْ خَبَطَ أَوْ خَلَطَ، وَالْإِمْسَاكُ عَنْ ذَلِكَ أَمْثَلُ[4]».

فالإمام عليه السلام هنا يحثّ ولده أن يشحذ همّته وإرادته لنيل النتيجة المطلوبة من هذه الوصية ويبتعد مهما أمكن عن تشويش الخاطر والذهن، ويتحرّك بعزم جادّ وخطوات راسخة نحو الميدان، ويسلّم قلبه إلى كلام الإمام عليه السلام ليتسنّى له الوصول إلى برّ الأمان ومرفأ السعادة الأبدية من خلال تجسيد هذه الوصايا والمواعظ على أرض الواقع النفسي والسلوكي، وفي غير هذه الصورة فإنّ الإنسان يتعب نفسه بدون أن يحقّق المقصود وينال بغيته.

---

١. مجاني الأدب، ص ٤٧.

٢. «عشواء» في الأصل بمعنى الجمل الأعشى وضعيف البصر، ولهذا يضل الطريق ويتمايل نحو اليمين واليسار، ثم اطلقت على كل إنسان يسير بهذه الكيفية.

٣. «تتورّط» من «التورط» على وزن «توكّل» وتعني السقوط في مكان يصعب الخلاص منه أو يستحيل الخروج منه.

٤. «أمثل» من «المثول» على وزن «طلوع» بمعنى الأفضل والأحسن و«أماثل» و«مُثل» على وزن «كتب».

القسم الحادي عشر

فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي، وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي، وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالْإِبْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ، فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الْأَمْرِ، يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ! فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ.

الشرح والتفسير

كلّ شيء من الله

يأمر الإمام عليه السلام بدايةً في هذا المقطع من وصيّته لولده أن يتمعّن فيما يقوله له ويتفهّم ما يرد في هذه الوصيّة، ويقول: «فَتَفَهَّمْ يَا بُنَيَّ وَصِيَّتِي».

وهذه الجملة في الحقيقة تشير إلى أهميّة الموضوع الذي سيذكره الإمام عليه السلام لاحقاً حيث يتطلّب من المخاطب تحرّي الدقّة والتدبّر الجاد.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ كلّ ما في هذا العالم من حياة وموت، صحّة وسقم، حوادث حلوة ومرّة، نِعم وبلايا و... كلّها من عند الله تبارك وتعالى الذي يدبّر الأمور بحكمته البالغة ومشيئته القاهرة، فلو لم يتعقّل الإنسان الحكمة من بعض الأمور والظواهر في هذا العالم، فينبغي حملها على قلّة اطّلاعه

وضآلة معلوماته، ويذعن لإرادة الحقّ ومشيئته، ويستسلم أمام قدرته وإرادته:

«وَاعْلَمْ أَنَّ مَالِكَ الْمَوْتِ هُوَ مَالِكُ الْحَيَاةِ، وَأَنَّ الْخَالِقَ هُوَ الْمُمِيتُ، وَأَنَّ الْمُفْنِيَ هُوَ الْمُعِيدُ، وَأَنَّ الْمُبْتَلِيَ هُوَ الْمُعَافِي».

هذا الكلام إشارة للتوحيد الأفعالي وأنّ هذا العالم ليس له سوى مبدأ واحد ومؤثّر فارد: «لاٰ مُؤَثِّرَ فِي الْوُجُودِ إِلَّا اللهُ» لا أنّ العالم يملك مبدأين مبدأ للخير وآخر للشرّ، أو اليزدان والأهريمن كما يتصوّر الثنويون، وأساساً فإنّ الشرّ لا وجود له في عالم الخلقة وكلّ ما هو موجود فهو خير، أمّا الشرّ فأمر نسبيّ، على سبيل المثال: لسع العقرب يعدّ وسيلة دفاعية له في مقابل أعدائه، مضافاً إلى أنّ سمّ الحشرات يحتوي على دواء لشفاء بعض الأمراض، فمن هذه الجهة يكون هذا السمّ خيراً، ولو ابتلي أحد بلدغ العقرب أو بلدغ حشرة فإنّ هذا الشرّ ناشىء من جهله وعدم اطّلاعه على الخطر.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى عدم استقرار الدنيا واختلاط الجيّد والرديء والخير والشرّ فيها، ويقول: «وَأَنَّ الدُّنْيَا لَمْ تَكُنْ لِتَسْتَقِرَّ إِلَّا عَلَىٰ مَا جَعَلَهَا اللهُ عَلَيْهِ مِنَ النَّعْمَاءِ، وَالابْتِلَاءِ، وَالْجَزَاءِ فِي الْمَعَادِ، أَوْ مَا شَاءَ مِمَّا لَا تَعْلَمُ».

أجل، هذه طبيعة الدنيا التي خلقت بهذا الشكل وفقاً للحكمة الإلهيّة، لأنّ الإنسان إذا غرق دوماً في النعمة والحبور فسوف يعيش الغفلة عن المصير، وإذا ابتلي دوماً بالمشاكل والآلام فإنّ اليأس سيهيمن على وجوده ويستولي على فكره ويبتعد بذلك عن الله تعالى، ومن هنا فإنّ الله قد خلط بين هذين الأمرين ليعيش الإنسان حالات اليقظة والانتباه ويتحرّك في مسيرة الحياة المعنوية بالاستمداد من اللطف الإلهيّ.

وبما أنّ بعض الأفراد الجهّال يطلقون أحياناً كلمات الاعتراض بسبب جهلهم وعدم اطّلاعهم على الحكمة من حوادث العالم، يحذّر الإمام عليه السلام ولده ويقول: «فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ ذٰلِكَ فَاحْمِلْهُ عَلَىٰ جَهَالَتِكَ، فَإِنَّكَ أَوَّلُ مَا خُلِقْتَ بِهِ جَاهِلاً ثُمَّ

عُلِّمْتَ، وَمَا أَكْثَرَ مَا تَجْهَلُ مِنَ الأَمْرِ، يَتَحَيَّرُ فِيهِ رَأْيُكَ، وَيَضِلُّ فِيهِ بَصَرُكَ ثُمَّ تُبْصِرُهُ بَعْدَ ذَلِكَ».

وهذا يعني أنّ الشخص الذي بإمكانه الاعتراض على ما يشكل عليه هو الذي يعلم بجميع الأمور ومطّلع على كافّة التفاصيل، ويعرف فلسفة جميع الحوادث والغرض منها، ثمّ يرى أنّ أحد الأمور لا تتوافق مع الحكمة والغرض من الخلقة فيحقّ له أن يفتح فمه بالاعتراض ويضع علامات الاستفهام، في حين أنّ الإنسان ليس كذلك، فمعلوماته بالنسبة لمجهولاته كالقطرة بالنسبة للبحر، فهو في بداية عمره جاء إلى الدنيا ولا يعلم شيئاً، ثمّ تدريجياً يطّلع على بعض الأمور ويعلم ببعض المسائل، وما أكثر الأمور التي لا يعلم الحكمة والغرض منها في بداية الأمر ثمّ بعد ذلك تبيّنت له الحكمة من هذا الشيء والغرض من هذه الظاهرة، فهل يحقّ للإنسان مع هذا العلم المحدود وهذا الكمّ القليل من المعلومات التي يمتلكها، أن يعترض على بعض الأمور التي لا يعلم الغرض منها؟

وفي ختام هذا المقطع من الوصيّة يأمر الإمام عليه السلام ولده بالتمسّك بالألطاف الإلهيّة والالتفات إلى الذات المقدّسة، فإنّه مفتاح للنجاة من كلّ هلكة، يقول: «فَاعْتَصِمْ بِالَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ، وَلْيَكُنْ لَهُ تَعَبُّدُكَ، وَإِلَيْهِ رَغْبَتُكَ، وَمِنْهُ شَفَقَتُكَ».

هذه التوصيات الأربع القصيرة والزاخرة بالمضمون، تضمن قطعاً سعادة كلّ إنسان، فالاعتصام والتمسّك بالألطاف الإلهيّة والتوجّه إليه بالدعاء وطلب الحاجات والخشية من عقابه، كلّ ذلك يقود الإنسان نحو مرفأ السلامة وساحل النجاة.

وقوله: «الَّذِي خَلَقَكَ وَرَزَقَكَ وَسَوَّاكَ» مقتبس من الآيات القرآنية الشريفة: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ﴾[1]، فبداية يشير إلى أمر الخلقة، ثمّ مسألة الرزق، ثمّ التسوية في عملية الخلق، وتنظيم أجهزة الإنسان وأعضائه وقواه البدنية والروحية، في حين أننا نعلم أنّ البداية هو الخلق ثمّ التسوية

١. سورة الأعلى، الآيات ٢-٤.

ثمّ الرزق، ولكن مع الالتفات إلى أنّ العطف في الواو لا يعني دائماً الترتيب، فلا نواجه مشكلة في تفسير هذه العبارة.

ويحتمل أيضاً أنّ نظر الإمام عليه السلام في هذه العبارة بمراحل تكامل الجنين ونموّ الطفل بعد ولادته، لأنّ النطفة عندما تستقرّ في رحم الأم فإنّها تتغذّى على الرزق الإلهيّ المتوفّر في رحم الأم بشكل متناسب، ثمّ يطوي الجنين مراحل تكامله واحدة بعد الأخرى إلى أن تحين ولادته، ويتبدّل غذاؤه من الدم في الرحم إلى اللبن في ثدي الأُم، وهكذا تنطوي مراحل التسوية والتكامل لمدّة طويلة، وعلى هذا الأساس يمكن القول أنّ الرزق الإلهيّ للإنسان يبدأ قبل طيّ مراحل التكامل والنموّ.

تأمّل

المقارنة بين علم الإنسان وجهله

لا شكّ أنّ الإنسان عندما يأتي إلى هذه الدنيا لا يعلم شيئاً من أمر الحياة، رغم أنّه يملك استعداداً عجيباً لتقبّل المعارف واستلهام المعلومات، ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة أيضاً: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[1].

ثمّ إنّ الإنسان يبدأ في التعلّم من خلال ثلاث طرق:

١. طريق التجربة التي تتّخذ أشكال اللعب اللهو في مرحلة الطفولة.

٢. طريق التعليم والتربية من قِبل الوالدين والمعلم.

٣. طريق تفتّح العلوم الفطرية (فطرة التوحيد، الحسن والقبح العقليين، الأمور الوجدانية وأمثال ذلك) حيث تتجلّى يد القدرة الإلهيّة في واقع الإنسان ووجدانه، وكلّما يتقدّم أكثر في مسيرة الحياة فإنّه يدرك سعة مجهولاته أكثر فأكثر، على سبيل المثال أنّ علماء النجوم عندما كانوا ينظرون إلى الكواكب والنجوم في السماء الفسيحة وبالوسائل الابتدائية، كانوا يرون مقداراً محدوداً من هذه النجوم

---

١. سورة النحل، الآية ٧٨.

والكواكب، وكانت تفاصيلها غامضة ومجهولة، وعندما تطوّرت أجهزة الرصد شاهدوا المجرّات العظيمة في الفضاء الفسيح وكلّ واحدة منها تتألّف من ملايين أو مليارات النجوم والكواكب، ومع اكتشاف مجرّة منها فإنّ عالماً من المجهولات يتجلّى لهؤلاء العلماء ويتحدّاهم، فلو استطعنا يوماً أن ننظر إلى بعض هذه النجوم بدقّة كاملة بواسطة التلسكوب، فإنّ عالماً من المجهولات يتجلّى لنا بالنسبة لهذه الكوكب، وعلى ضوء ذلك فكلّما يتقدّم العلم وتتطوّر الأجهزة التقنية فإنّ أُفق معلوماتنا يتضاءل أمام جبل مجهولاتنا إلى أن يصل بنا الأمر إلى حدٍّ يقول عنه أحد الفلاسفة: «بلغت من العلم إلى مرتبة بحيث إنّني علمت بأنّني لا أعلم».

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم وتدبّرنا الآيات التي تشير إلى علم الله تعالى المحيط بعالم الوجود، تقول الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾[1].

وفي هذا السياق يقول القرآن الكريم في مورد آخر: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾[2].

يقول العالم الفيزيائي المعروف أنشتاين: إذا اجتمعت جميع علوم البشر منذ اليوم الأوّل ولحدّ الآن في مكتبة شاملة ووضعناها في مقابل مجهولات البشر فإنّ مقدار هذه المكتبة تكون بالنسبة لتلك المجهولات بمثابة صفحة واحدة من كتاب ضخم.

ومن هنا ندرك جيّداً من خلال النتيجة التي ذكرها الإمام عليه السلام في العبارة أعلاه، أننا لو واجهنا بعض الأسئلة وعلامات الاستفهام بالمسائل المتعلّقة بالمبدأ والمعاد وأسرار الحياة ولم نعثر على جواب، فينبغي حمل ذلك على جهلنا وقصور معلوماتنا ولا نطلق ألسنتا بالإنكار والاعتراض، وهذه هي الحقيقة المؤيّدة من قِبل العقل والمنطق.

---

١. سورة لقمان، الآية ٢٧.

٢. سورة الأسراء، الآية ٨٥.

القسم الثاني عشر

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ فَارْضَ بِهِ رَائِداً، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً، فَإِنِّي لَمْ آلُكَ نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ -وَإِنِ اجْتَهَدْتَ- مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ.

الشرح والتفسير

اجعل من النبيّ الأكرم ﷺ مرشداً لك

يتحرّك الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصيّته لابنه العزيز مشيراً إلى نقطتين مهمّتين، الأُولى: أنّ نبيّ الإسلام ﷺ خير دليل وأفضل قائد يقود الإنسان في طريق الصلاح والنجاح، والآخر: أنّ والده أميرالمؤمنين عليه السلام لم يألُ جهداً في هدايته وإرشاده، ومن هذا المنطلق ينبغي عليه الإصرار في هذا المسير اتّباعاً لهدى هذين القائدين.

يقول عليه السلام: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ أَحَداً لَمْ يُنْبِئْ عَنِ اللهِ سُبْحَانَهُ كَمَا أَنْبَأَ عَنْهُ الرَّسُولُ ﷺ فَارْضَ بِهِ رَائِداً**[1]**، وَإِلَى النَّجَاةِ قَائِداً**».

وهذا التعبير يشير إلى أنّ الوحي السماوي الذي نزل على النبيّ الأكرم ﷺ يمثّل عصارة جميع تعاليم الوحي النازل على الأنبياء السابقين، ففي تلك الأعصار كان الوحي السماوي ينزل على الأنبياء السابقين وفقاً لقابليات أقوامهم ومتناغماً مع

---

١ . «رائد» من مادة «رود» على وزن «عود»، وكما ورد في المتن أنّ الأصل فيها بمعنى السعي وبذل الجهد للعثور على الماء والكلأ، ثم اطلقت على كل سعي للعثور على شيء، والحديث الشريف «الرّائدُ لا يَكْذِبُ أَهْلَهُ»، ناظر إلى هذا المعنى، وبما أنّ النبيّ الأكرم ﷺ كان في صدد تحقيق السعادة لأنصاره وأتباعه فيقال عنه أنّه «رائد».

ثقافة وعقلية ذلك العصر، ولكن في عصر خاتم الأنبياء فقد نزل آخر خطاب إلهيّ للبشرية كافّة على قلبه المبارك.

إنّ المقارنة بين القرآن الكريم والتوراة و الإنجيل الحاليين (رغم امتداد يد التحريف إليهما) شاهد ناطق على هذا التفاوت العظيم، فبالنسبة لمعرفة الله وأدلّة التوحيد والصفات الإلهيّة فإنّ القرآن الكريم طرح قضايا هامة على هذا الصعيد لا توجد في أيّ من الكتب السماوية الأخرى، بل حتّى لا يوجد فيها عُشر معشارها، وبالنسبة للمسائل المتعلّقة بالمعاد، وعلى حدّ قول بعض المحقّقين يوجد ألفي آية في القرآن تتحدّث عن المعاد وتفاصيله وحالاته، فالقرآن الكريم تحدّث في هذا المجال بحيث لا يمكن تصوّر كلام آخر في هذا الشأن، وفي البحوث الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والمسائل التي تتصّل بالحكومة وتاريخ القدماء، فالقرآن الكريم زاخر بهذه البحوث، ومن هنا يستوحي الإمامعليه السلام دليله في كلامه المذكور أعلاه ويقول: لا يوجد أحد كالنبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله بيّن للناس تعاليم الوحي السماوي والمعارف الإلهيّة بهذه الصورة اليانعة، ولهذا ينبغي عليك أن تتمسّك بهذا القائد والمرشد بوصفه أفضل مرشد لطريق الخير والصلاح في واقع الحياة.

وينبغي الالتفات إلى أنّ مفردة «رائد» في الأصل تعني الشخص الذي يذهب للبحث عن المرتع والماء للماشية والدوابّ، وعندما يكتشف وجود ماء وكلأ يعود ليخبر قومه، ثمّ توسّعوا في استخدام هذه الكلمة وأطلقوها على الأشخاص الذين يمسكون بمقاليد الأمور في حياة الناس.

«القائد» في الأصل بمعنى الشخص الذي يمسك زمام الناقة ويقودها في المسير، ثمّ أُطلق على كلّ مَن يقود طائفة من البشر.

ويواصل الإمامعليه السلام تقسيم نصيحته لولده ويقول: «**فَإِنِّي لَمْ آلُكَ[1] نَصِيحَةً. وَإِنَّكَ**

---

١. «آل» صيغة المتكلم الواحد، من مادة «ألو» على وزن «دلو» وهي في الأصل بمعنى التقصير، وجملة «لم آلك ☜

لَنْ تَبْلُغَ فِي النَّظَرِ لِنَفْسِكَ ـ وَإِنِ اجْتَهَدْتَ ـ مَبْلَغَ نَظَرِي لَكَ».

إنّ هدف الإمام عليه السلام من هذا الكلام حثّ ولده لتقبّل هذه النصائح والالتزام الواعي بها من خلال تقديم دليلين: أحدهما: أنّ الإمام، وبسبب شفقته ومحبّته الشديدة له، لم ولن يدع رأياً نافعاً ونظراً مفيداً لولده إلّا وذكره، والآخر: أنّ ولده شابّ لا يمكن أن يحيط بالأمور كإحاطة والده الإمام عليّ عليه السلام، ومن هنا قيل: إنّ ما يراه الشاب في المرآة، يراه الشيخ في الآجر الخام.

ﮩﮨ

☜ نصيحة» تعني لم اقصر في اسداء النصح إليك، واللافت أنّ هذا الفعل لازم لا يأخذ مفعول، رغم أنّ البعض تصور أنّه يأخذ مفعولين، المفعول الأول هو ضمير الخطاب «آلك» والمفعول الثاني «نصيحة»، في حين أنّ النصيحة تمييز وضمير الخطاب متعلق بمحذوف وهو في الأصل «لَمْ آلُ لَكَ».

القسم الثالث عشر

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ، وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ. أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ. عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ. فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ، وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، و عَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ رَبِّهِ، فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ.

الشرح والتفسير

الإيمان بالواحد الأحد

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصيّة عن أحد أدلّة التوحيد الذي يمثّل الركن الأساس والعمود الفقري لجميع منظومة الدين، يقول: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّهُ لَوْ كَانَ لِرَبِّكَ شَرِيكٌ لَأَتَتْكَ رُسُلُهُ، وَلَرَأَيْتَ آثَارَ مُلْكِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَلَعَرَفْتَ أَفْعَالَهُ وَصِفَاتِهِ».

ويستعرض الإمام عليه السلام في قراءة سريعة، الدليل على نفي الشريك وإثبات التوحيد بثلاثة أمور:

الأوّل: إذا كان لله شريك فلابدّ أن يكون حكيماً، والإله الحكيم يجب أن يعرّف نفسه لعباده ويكشف لهم عن تعاليمه وأحكامه بواسطة الأنبياء الذين يرسلهم

للناس، في حين أنّ جميع الأنبياء دعوا الناس لإله واحد، والآيات القرآنية والنصوص السماوية شاهد على هذا المطلب.

ومن جهة أخرى فلو كان هناك إله آخر فيلزم من ذلك أن تظهر آثار ملكه وسلطانه وقدرته على هذا العالم، في حين أنّنا مهما دقّقنا النظر في ظواهر هذا العالم فسنجد الوحدة والانسجام التامّ مهيمناً على جميع أركانه، وهذه الوحدة والتجانس من نواة الذرّة إلى المجرّات العظيمة، كلّها تسير وفق قانون واحد وتتحرّك وفق نظام متجانس ومنسجم، وهذا دليل على وحدة الخالق جلّ وعلا.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يشير في سياق حديثه إلى سبع صفات من صفات الباري تعالى، بداية يقول: «وَلَكِنَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ كَمَا وَصَفَ نَفْسَهُ».

وهذه الصفة للذات المقدّسة تقع نتيجة الاستدلال الذي تقدّم به الإمام عليه السلام آنفاً من أنّه لو كان هناك معبود آخر غير الله تعالى لأرسل رسوله للناس وتجلّت آثار ملكه وسلطانه في جميع أرجاء الكون والطبيعة، ولرأيت أفعاله وصفاته منعكسة على مرآة الخلقة والطبيعة، وبما أنّ الأمر ليس كذلك فنستنتج أنّه إله واحد.

أضف إلى ذلك أنّ الله تعالى في القرآن الكريم وصف نفسه مرّات عدّة بالواحد الأحد، كما ورد نموذج من ذلك في سورة التوحيد، وبما أنّ الله صادق ولا يعقل في كلامه الكذب والغشّ والزيف، والتي هي حالات ناشئة من الحاجة والعجز واتّباع الأهواء، فلذلك يمكننا الاستناد لإثبات هذه الصفة وسائر الصفات على الأدلّة السمعيّة، أي الآيات والروايات القطعية.

الصفة الثانية يقول الإمام عليه السلام: «لَا يُضَادُّهُ فِي مُلْكِهِ أَحَدٌ».

وهذا هو التوحيد في الحاكمية، الذي هو فرع من التوحيد الأفعالي، فالمالك واحد والحاكم واحد أيضاً، والدليل على ذلك واضح، لأنّه عندما نعتقد بأنّ الله هو الخالق، فمن الطبيعيّ أن يكون هو المالك والحاكم لا غير، وبخاصّة أنّ خالقية الله مستمرّة وفيضه دائم، يعني أننا نُخلق لحظة بعد أخرى مثل ضوء القنديل أو السراج،

فلو انقطع ارتباطه بمع منبع الطاقة، فسوف ينطفىء، أجل إنّ الله تعالى خالق في كلّ يوم وكلّ لحظة، إذن فهو الحاكم والمالك دوماً وأبداً.

ثمّ تحرّك الإمام عليه السلام لبيان الصفة الثالثة والرابعة ويقول: «وَلَا يَزُولُ أَبَداً وَلَمْ يَزَلْ».

والدليل على ذلك واضح، لأننا نعلم أنّ الله واجب الوجود، وأنّ واجب الوجود حقيقة ينبع وجودها من ذاتها إذا صحّ التعبير، وعلى هذا الأساس فإنّ هذا الوجود أزليٌّ، ويجب أن يكون أبديّاً أيضاً، والموجودات حادثة لا تستقي وجودها من ذاتها، بل من موجود آخر، وسائر الموجودات فانية لأنّ وجودها لا ينبع من ذاتها بل يصل إليها الوجود من خارج ذاتها.

وتأسيساً على ذلك يمكن استنباط الصفة الخامسة والسادسة ممّا تقدّم آنفاً، يقول الإمام عليه السلام: «أَوَّلٌ قَبْلَ الْأَشْيَاءِ بِلَا أَوَّلِيَّةٍ، وَآخِرٌ بَعْدَ الْأَشْيَاءِ بِلَا نِهَايَةٍ».

وهاتان الصفتان من لوازم أزلية وأبدية الذات المقدّسة، وناشئة من كون الله تعالى واجب الوجود.

وفي الصفة السابعة والأخيرة يقول الإمام عليه السلام: «عَظُمَ عَنْ أَنْ تَثْبُتَ رُبُوبِيَّتُهُ بِإِحَاطَةِ قَلْبٍ أَوْ بَصَرٍ».

والدليل على ذلك بيّن، فربوبية الذات المقدّسة أزلية وأبدية ولا بداية لها ولا نهاية، وأنّها تحيط بعالم الوجود بجميع أبعاده وآفاقه الممتدّة، وعلى ضوء ذلك فإنّ هذه الربوبية الواسعة لا يمكن مشاهدتها بالعين، ولا تصوّرها بالذهن، لأنّ ربوبيته غير محدودة، واللامحدود لا يمكن الإحاط به بفكر الإنسان المحدود.

وبعد أن يبيّن الإمام عليه السلام عظمة الله تعالى وتوحيده وأزليته وأبديته وإحاطة ربوبيته على جميع الكائنات في عالم الوجود، يواصل كلامه في وصيته لولده وينبّهه لصغره وضعفه وحاجاته الكثيرة في مقابل قدرة الله المطلقة، ويقول: «فَإِذَا عَرَفْتَ

ذَلِكَ فَافْعَلْ كَمَا يَنْبَغِي لِمِثْلِكَ أَنْ يَفْعَلَهُ فِي صِغَرِ خَطَرِهِ[١]، وَقِلَّةِ مَقْدِرَتِهِ وَكَثْرَةِ عَجْزِهِ، و عَظِيمِ حَاجَتِهِ إِلَى رَبِّهِ».

إنّ الصفات الأربع التي يصف بها الإمام عليه السلام ولده قابلة للتطبيق على جميع أفراد البشر، فكلّ إنسان في مقابل الله تعالى صغير وحقير وضعيف وكثير الحاجات إلى ربّه، ولكن بشرط أن يعرف الإنسان ذلك في نفسه ولا يغفل عن هذه الحقيقة، وإلّا فإنّه سيخرج عن طريق العبودية ويسلك سبيل الطغيان والغرور، أجل فإنّ معرفة عظمة الله تعالى من جهة، ومعرفة صغر النفس وحقارتها في مقابل الذات المقدّسة من جهة أخرى سبب وعامل أساس في السير في خطّ العبودية والطاعة، ونسيان هذه الحقيقة يعتبر منشأ الطغيان والظلم والعدوان.

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يبيّن معالم الطريق لولده وفلذّة كبده وكيفية الإتيان بالأعمال الصالحة ويقول: «فِي طَلَبِ طَاعَتِهِ، وَالْخَشْيَةِ مِنْ عُقُوبَتِهِ، وَالشَّفَقَةِ مِنْ سُخْطِهِ: فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ إِلَّا بِحَسَنٍ، وَلَمْ يَنْهَكَ إِلَّا عَنْ قَبِيحٍ».

ويلخّص الإمام عليه السلام في هذا الكلام العمل الصالح في ثلاثة أمور: الطاعة لله، والخشية من عقوبته، والشفقة من غضبه وسخطه.

وبديهيّ أنّ الخشية والإشفاق في مقابل عقوبة الله وسخطه يبعثان على الطاعة، ومن هنا فالإمام في البداية يشير إلى طاعة الله تعالى، ثمّ يؤكّد على الدوافع والبواعث النفسية لتحقيق تلك الطاعة، وأمّا الفرق بين الخشية والإشفاق فكما أشرنا أنّ الخشية تعني الخوف، ولكنّ الإشفاق أو الشفقة هي الخوف المقترن بالأمل والرجاء، وعلى ضوء ذلك، فالخوف من العقاب الإلهيّ ليس كالخوف من الحوادث

---

١. «خطر» في هذا المورد يعني القدر والمنزلة.

٢. سورة الحشر، الآية ١٩.

المخوفة التي يفقد الإنسان فيها الأمل، بل هو خوف مقترن بالأمل بلطف الله وعطفه وكرمه.

والمفهوم من جملة: «فَإِنَّهُ لَمْ يَأْمُرْكَ ...» أنّك لا تحسب أنّ إطاعتك لله تعالى ستضيف شيئاً لجلاله وعظمته، أو أنّ الله تعالى يحتاج إلى هذه الطاعة، على العكس، فأنت المحتاج له، لأنّه قد أمرك بما يحقّق لك سعادتك ونهاك عن القبائح والرذائل التي تقودك في دروب الشقاء والمسكنة والذلّة.

وهذه العبارة دليل بيّن على الحسن والقبح العقليين، وللأسف فإنّ جماعة من المسلمين، الذين ابتعدوا عن مدرسة أهل البيتعليهم السلام والتمسك بالكتاب والعترة، تحرّكوا في هذه المسألة من موقع الإنكار والمخالفة، وأنكروا هذه المسألة البديهية والعقلية بسبب بعض البواعث والدوافع السقيمة.

تأمّلان

١. العلاقة بين الآيديولوجية والرؤية الكونية

في هذا المقطع من الرسالة، وبعد أن يبيّن الإمامعليه السلام سلسلة من الحقائق فيما يتّصل بالذات المقدّسة والصفات الأُلوهية، ويبيّن عجز وضعف الإنسان وقصوره عن الإحاطة بالعلوم والمعارف الأنفسية والآفاقية، يستنتج الإمامعليه السلام أنّه ينبغي على الإنسان أن يتحرّك في خطّ العبادة والعبودية بما يليق بمقام الأُلوهية وبعظمة الذات المقدّسة وصغر الإنسان.

وهذا يعني أنّ تكاليف الإنسان مرتبطة بشكل وثيق مع الحقائق الموضوعية، أي أنّ القوانين تنطلق دائماً من قلب الحقائق، وأنّ ما ينبغي وما لا ينبغي وليد الوجود والعدم، وبعبارة أخرى، أنّنا نستنبط من هذه المعرفة والحقائق الموجودة فيما يتّصل بغنى الله وفقر الإنسان، لزوم عبادته والامتثال لأوامره وتطبيق أحكامه، وهذا هو البحث المهم الذي يطرح عادة في موضوع الارتباط بين الآيديولوجية والرؤية

الكونية وحيث يطرح هذا التساؤل: هل هناك ثمّة ارتباط بينهما؟

إنّ الرؤية الكونية هي عبارة عن المعرفة بالحقائق، والآيديولوجية في هذا المورد تعني الأحكام والقوانين الناتجة باعتقادنا من قلب هذا العالم والحقائق الموجودة في الطبيعة.

ومن هنا يتبيّن الجواب عن شبهة من يقول: إنّ الأحكام الشرعية أمور اعتبارية ولا ترتبط بالحقائق أو الأمور التكوينية، فالإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصيّة يشطب بخطّ البطلان على هذه الشبهة، لأنّ الفصل بين هذين الأمرين يلغي أيّ اعتبار للأحكام الشرعية، فالحكم إنّما يكون له قيمة إذا كان مرتبطاً بالحقائق الموضوعية، وهذه هي فلسفة الأحكام التي تمنحها اعتباراً وقيمة، وهذه العلاقة الوطيدة بين الحكم الشرعيّ والحقيقة الموضوعيّة هي التي تعمل على تجسيد الحكم وترسيخه.

والأحكام التعبّدية أيضاً غير مستثناة من هذا القانون، فجميع هذه الأحكام تتوافق مع المصالح والمفاسد الواقعية، رغم أنّنا أحياناً لا نعرف الحكمة منها، لأنّه في غير هذه الصورة نواجه الترجيح بلا مرجّح، وعلماء الشيعة جميعاً يتّفقون على هذا لرأي.

والآيات القرآنية والروايات الشريفة أيضاً تصرّح بوجود مثل هذه العلاقة بين الأحكام الشرعية والواقع الموضوعي.

مثلاً، نقرأ في القرآن الكريم في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾[1]، وهكذا نرى أنّ الله تعالى في هذه الآيات الكريمة بعد يبيّن موارد الضرر الواقعي للأرجاس، كالخمر و القمار، ويذكّر

١. سورة المائدة، الآيتان ٩٠ و ٩١.

المسلمين أنّ هذه الأمور من عمل الشيطان، ويبيّن الحكم الواقعي لها وينهى المؤمنين عن ارتكاب شرب الخمر والميسر، ثمّ يستعرض مرّة أخرى الحقائق الموضوعية التي تساهم في تحقيق السعادة للإنسان وأنّ عمل الشيطان في الحقيقة هو إثارة العداوة والبغضاء والابتعاد عن ذكر الله وترك الصلاة.

وبالنسبة للصوم ورد أيضاً: «صُومُوا تَصِحُّوا»[1] وفي مورد آخر يبيّن القرآن الغاية من الصوم ويقول: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2].

وفي الحقيقة أنّ جميع الروايات الشريفة الواردة في باب علل الشرائع، تعدّ دليلاً واضحاً على هذا المدّعى.

٢. بداية الخلقة ودوام الفيض

رأينا في كلمات الإمام عليه السلام الناطقة في هذا المقطع من الرسالة أنّ الذات المقدّسة تعتبر مبدأ كلّ شيء بدون بداية لها، ونهاية كلّ شيء بدون نهاية لها، ويصطلح على هذا المفهوم الأزلية والأبدية، وهنا يفرض هذا السؤال نفسه: هل أنّ للمخلوقات حدوثاً زمانياً؟ يعني أنّ الله في زمان كان موجوداً ولم تكن المخلوقات موجودة (وطبعاً التعبير بالزمان هنا من باب التسامح، لأنّ الزمان بنفسه إمّا مخلوق أو نتيجة حركة المخلوقات) كما ورد في بعض العبارات: «كانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيْءٌ»[3] فإذا كان الأمر كذلك فإنّ مسألة دوام الفيض يواجه مشكلة هنا، لأنّ مفهوم هذا الكلام أنّ الله تعالى كان فيّاضاً منذ البدء إلّا أنّه كان متوقّفاً عن الفيض، في حين أن الفيض ملازم للذات المقدّسة وعدم الفيض يعدّ نقصاً.

والجواب على هذا السؤال: إنّ العالم له حدوث ذاتيّ، يعني إذا قلنا بوجود

١. بحار الأنوار، ج ٥٩، ص ٢٦٧، ح ٤٦.
٢. سورة البقرة، الآية ١٨٣.
٣. بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٢٣٨.

المخلوقات دائماً وأبداً، فذلك المخلوق بدوره يستند في وجوده إلى الذات المقدّسة ومرتبط بالقدرة الإلهيّة، لا أنّه واجب الوجود، كما أنّ نور الشمس مرتبط بشكل وثيق بالشمس، فإذا كانت الشمس موجودة دائماً وتشعّ بنورها في كلّ آن، فمع ذلك تعتبر الشمس أصلاً ونورها فرعاً.

وبعبارة أخرى أنّ كلمة «مع» في جملة «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ مَعَهُ شَيءٌ» تبيّن هذه الحقيقة وهي أنّ الله تعالى كان منذ الأزل ولم يكن معه شيء بنفس المستوى وبذات الكينونة (لا بواسطته).

القسم الرابع عشر

يَا بُنَيَّ إنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا. إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ، فَأَمُّوا مَنْزِلاً خَصِيباً وَجَنَاباً مَرِيعاً، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ الْمَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ، فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ أَلَماً، وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ. وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَى مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَى مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ.

الشرح والتفسير

السالكون طريق الآخرة

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصيّة لبيان مكانة الدنيا والآخرة في منظار المتألّهين من خلال مثالين جميلين، ويقول: «يَا بُنَيَّ إِنِّي قَدْ أَنْبَأْتُكَ عَنِ الدُّنْيَا وَحَالِهَا، وَزَوَالِهَا وَانْتِقَالِهَا، وَأَنْبَأْتُكَ عَنِ الْآخِرَةِ وَمَا أُعِدَّ لِأَهْلِهَا فِيهَا، وَضَرَبْتُ لَكَ فِيهِمَا الْأَمْثَالَ، لِتَعْتَبِرَ بِهَا، وَتَحْذُوَ عَلَيْهَا».

إنّ للأمثلة دور مهم جدّاً في فهم وإدراك المسائل المعقّدة والمفاهيم الغامضة سواء العقلية منها أو الحسّية، فيستطيع المخاطب من خلال المثال فهم هذه المسائل

من موقع العمق والوضوح في الرؤية، وبذلك يتمّ تشويقه وحثّه لأداء الأعمال المفيدة والخيرة والابتعاد عن الرذائل والقبائح.

والقرآن الكريم يستخدم كثيراً الأمثلة الجميلة والعميقة المغزى، حيث تشكّل الأمثلة قسماً مهماً من الآيات القرآنية، ونرى في كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة أمثلة كثيرة وذات معانٍ عميقة أوردها الإمام عليه السلام في خطبه ووصاياه بغاية الفصاحة والبلاغة.

بعد أن يذكرالإمام عليه السلام هذه المقدّمة يستعرض مثالين للدنيا والآخرة فيقول أوّلاً: «إِنَّمَا مَثَلُ مَنْ خَبَرَ[1] الدُّنْيَا كَمَثَلِ قَوْمٍ سَفْرٍ[2] نَبَا بِهِمْ مَنْزِلٌ جَدِيبٌ[3]، فَأَمُّوا[4] مَنْزِلاً خَصِيباً[5] وَجَنَاباً[6] مَرِيعاً[7]، فَاحْتَمَلُوا وَعْثَاءَ[8] الطَّرِيقِ، وَفِرَاقَ الصَّدِيقِ، وَخُشُونَةَ السَّفَرِ، وَجُشُوبَةَ[9] المَطْعَمِ، لِيَأْتُوا سَعَةَ دَارِهِمْ، وَمَنْزِلَ قَرَارِهِمْ».

فأهل الآخرة يعلمون أنّهم في سفر وأنّ ما يواجهونه من أتعاب وآلام وجشوبة العيش ومعاناة الطريق إنّما هي حالات مؤقّتة وبمثابة الثمن الذي يدفعونه لتحصيل السعادة الدائمة والوصول إلى منزل القرار والاستقرار والراحة الأبديّة فتكون هذه الأمور والصعوبات بالنسبة لهم هيّنة ويسيرة، ولذلك يقول الإمام عليه السلام بعد ذلك:

---

١. «خَبَرَ» فعل ماضي من «الخُبر» على وزن «قفل» بمعنى الاطّلاع على الحدث، وأحياناً تأتي بمعنى الاختبار للاطلاع على الخبر.

٢. «سَفر» جمع مسافر.

٣. «جَديب» بمعنى الجاف وبدون ماء وعلف، وهو من مادة «جَدَب» على وزن «جلب».

٤. «أمّوا» من مادة «امّ» على وزن «غم» بمعنى القصد.

٥. «خصيب» بمعنى كثير النعمة والماء والنبات، من مادة «خصب» على وزن «جسم» وهو زيادة النعمة وكثرتها.

٦. «جناب» بمعنى الناحية.

٧. «مريع» بمعنى كثير النعمة والخير، من مادة «مرع» على وزن «رأي» وهو الكثرة والوفرة، و«أرضٌ مَريعَةٌ» الأرض الكثيرة المحصولات الزراعية.

٨. «وعثاء» من مادة «وعث» على وزن «درس» بمعنى الرمال الناعمة التي تدخل فيها الأقدام وتمنع الشخص من إدامة المسير، أو يعسر عليها المشي، ثم اطلقت على جميع المشكلات التي تعيق الإنسان في حركة الحياة، و«وَعْثاءُ الطَّرِيقِ» إشارة إلى مشكلات السفر.

٩. «جُشُوبة» بمعنى الخشونة والغلظة.

«فَلَيْسَ يَجِدُونَ لِشَيْءٍ مِنْ ذٰلِكَ أَلَماً وَلَا يَرَوْنَ نَفَقَةً فِيهِ مَغْرَماً. وَلَا شَيْءَ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِمَّا قَرَّبَهُمْ مِنْ مَنْزِلِهِمْ، وَأَدْنَاهُمْ مِنْ مَحَلَّتِهِمْ».

أجل، فهذا هو نمط تفكير المؤمنين الصالحين وأولياء الله الذين يسيرون في مسلك الطاعة والمعنوية، لأنّ هؤلاء لا ينجذبون أبداً لزخارف الدنيا ولا ينخدعون ببريقها، بل إنّ الدنيا تمثّل لهم مجموعة من الأتعاب والآلام والهموم والغموم وحالات التوتّر التي تفرضها حالات الصراع والنزاع، في حين أنّ الإيمان بالمعاد والجنّة والنعيم الخالد والاعتقاد بالوعد الإلهيّ يوحي لهم بأنّهم سيواجهون غداً مستقبلاً مشرقاً ويرفلون بالنعيم الماديّ والمعنويّ بعيداً عن كلّ أشكال الهمّ والغمّ والألم، والأهمّ من ذلك أنّهم يصلون إلى مقام القرب الإلهيّ وهذا هو الذي يجعلهم يتقبّلون الصعاب والآلام في هذا المسير بكلّ رحابة صدر ويتحمّلون كلّ مشقّة في هذا الطريق لأنّهم متوجّهون إلى كعبة الحبيب، فجميع ما يجدونه من وخز الأشواك في الطريق يكون بالنسبة لهم كفراش الحرير وتتبدّل المرارة إلى عذوبة.

ثمّ يستعرض الإمام عليه السلام المثال الثاني فيما يخصّ أهل الدنيا والمتشبّثين بزخارفها وملذّاتها ويقول: «وَمَثَلُ مَنِ اغْتَرَّ بِهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا بِمَنْزِلٍ خَصِيبٍ، فَنَبَا بِهِمْ إِلَىٰ مَنْزِلٍ جَدِيبٍ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَهَ إِلَيْهِمْ وَلَا أَفْظَعَ[1] عِنْدَهُمْ مِنْ مُفَارَقَةِ مَا كَانُوا فِيهِ، إِلَىٰ مَا يَهْجُمُونَ عَلَيْهِ، وَيَصِيرُونَ إِلَيْهِ».

أجل، فهم يعلمون أنّ مصيرهم في النهاية النار والعذاب الأليم، فتكون الدنيا بالنسبة لهم بجميع مشاكلها وآلامها عذبة ومريحة جدّاً، ولهذا السبب يخافون من الموت ويخشون حلول الأجل، خوفاً من المستقبل المظلم، كما أخبر القرآن الكريم عن طائفة من بني اسرائيل ممّن يعيشون حبّ الدنيا: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ

---

١. «أفظَع» بمعنى غير مقبول، من «الفظاعة» وهي الشناعة والغلظة.

أَنْ يُعَمَّرَ»[١].

وكذلك ورد في حديث معروف عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ وَالْمَوْتُ جِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَى جِنَانِهِمْ وَجِسْرُ هَؤُلَاءِ إِلَى جَحِيمِهِمْ»[٢].

وفي هذا الصدد رواية عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عندما سأله أحدهم: «مَا بَالُنَا نَكْرَهُ الْمَوْتَ وَلَا نُحِبُّهُ؟». فأجابه: «إِنَّكُمْ أَخْرَبْتُمْ آخِرَتَكُمْ وَعَمَرْتُمْ دُنْيَاكُمْ فَأَنْتُمْ تَكْرَهُونَ النُّقْلَةَ مِنَ الْعُمْرَانِ إِلَى الْخَرَابِ»[٣].

---

١. سورة البقرة، الآية ٩٦.

٢. بحار الأنوار، ج ٦، ص ١٥٤.

٣. معاني الأخبار، ص ٣٩٠.

القسم الخامس عشر

يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ، فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا، وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ، وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ، وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ، وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ.

الشرح والتفسير

نظرة واحدة لمصلحة الفرد والجماعة

يشير الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من وصيّته لأحد أهمّ الأصول الأخلاقية والمثل الإنسانية ويقول: «**يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ**».

والميزان عادة ذو كفّتين، والوزن الصحيح يتمّ عندما تكون الكفّتان متساويتين في الخطّ الأُفقي، وهذا الكلام إشارة إلى أنّه ينبغي عليك أن تحبّ للآخرين ما تحبّه لنفسك، وما تكره لنفسك فينبغي أن تكرهه للآخرين لتتساوى كفّتا الميزان في عرض واحد.

ثمّ يوضّح الإمام عليه السلام هذا الأصل الأخلاقي المهم في سبع جمل ويبيّن أبعاده وزواياه المختلفة:

يقول الإمام عليه السلام في الجملة الأُولى والثانية: «**فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ، وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا**».

وفي الجملة الثالثة: «**وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ**».

وفي الجملة الرابعة: «وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ».

ويقول في الجملة الخامسة: «وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ».

ثمّ يضيف الإمام عليه السلام في الجملة السادسة: «وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ».

وأخيراً وفي الجملة السابعة يقول: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ، وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ».

وهو إشارة إلى أنّك كما لا تحبّ أن يستغيبك الناس أو يتّهمونك بأمر معيّن أو يخاطبونك بكلمات نابية ويذكرونك بألقاب قبيحة، أو يتحدّثون عنك بكلمات تسوؤك وتثير غضبك، فينبغي عليك أن لا تتحدّث عن الآخرين بآليات الغيبة والتهمة والسبّ والشتم وما إلى ذلك، أو تتلّفظ بكلمات لا مسؤولة تؤذي الآخرين وتسيء إليهم.

والحقيقة أنّ هذا الأصل الأخلاقيّ المهمّ بالتفاصيل والأغصان السبعة التي ذكرها الإمام عليه السلام لو طبّق في أيّ مجتمع وعمل به الناس في تواصلهم وتعاملهم فيما بينهم، لساد الصلح والأمن في أجواء ذلك المجتمع وزالت كلّ أشكال النزاع والصراع، ووصلت الملفّات القضائية في المحاكم إلى الحدّ الأدنى، وبلغت المحبّة والتعاون والتكاتف الحدّ الأقصى في واقع الحياة والمجتمع، لأنّ جميع المشاكل الاجتماعية تنشأ من أنّ البعض يريد كلّ شيء لنفسه ولا يفكّر إلّا في نفعه وراحته وسعادته، ويتوقّع من الآخرين أن يتعاملوا معه بالقيم والعدل ولكنّه لا يجد في نفسه أيّ التزام بهذه القيم، ويريد أن يكون حرّاً تجاه الآخرين، أو لا يقيم وزناً لحيثية الآخرين وراحتهم وسعادتهم، أو يهتمّ براحة الآخرين ولكن لا بمقدار ما يهتمّ لنفسه، فيريد لنفسه الحدّ الأقصى من النفع والسعادة والراحة، وللآخرين الحدّ الأدنى.

وما ذكره الإمام عليه السلام في بيان هذا الأصل الأخلاقي لم يرد بهذه السعة والشمول في كلام أيّ شخصية علمية أخرى، رغم أنّ جذور هذا الأصل كما يقول الشيخ

مغنية في شرحه لنهج البلاغة ذيل هذا الكلام للإمام عليه السلام، موجود بشكل إجمالي في تراث القدماء.

يقول مغنية: «ولا نعرف أوّل من نطق بهذه الذهبية... وأيّاً كان فهي لجميع الناس، لأنّ الحبّ معناه الأخوة والإنسانية والتكامل والتضامن والقوة والنجاح، وبالحبّ تستقيم الحياة، ولا معنى لحياة بلا حبّ، وأيضاً لا معنى للكراهية إلّا الحرب والشقاق والفشل والتخلف»[1].

وقد ورد في تعاليم الإسلام هذا المضمون أيضاً وطرحه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بصياغة جميلة ورائعة، فقد ورد في الحديث الشريف أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كان راكباً دابتّه وهو يريد بعض غزواته، فجاء إليه أعرابيّ فأخذ يغمز راحلته فقال: «يا رَسُولَ اللهِ عَلِّمْني عَمَلاً أدْخُلُ بِهِ الْجَنَّةِ».

فقال صلى الله عليه وآله: «مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَأْتِهِ إِلَيْهِمْ وَمَا كَرِهْتَ أَنْ يَأْتِيَهُ النَّاسُ إِلَيْكَ فَلَا تَأْتِهِ إِلَيْهِمْ خَلِّ سَبِيلَ الرَّاحِلَةِ»[2].

وجاء في حديث آخر في سيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّهُ جاء شابٌ إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فقال له: أتأذن لي بالزنا. فنهره الأصحاب وأغلظوا عليه، فأدناه النبيّ صلى الله عليه وآله منه وقال له: «أتُحِبُّ أن يُزْنىٰ بأُمِّكَ أو أُخْتِكَ أو بِنْتِكَ أو خالَتِكَ أو عَمَّتِكَ؟» قال الشاب: لا يارسول الله. فقال له: «كُلُّ النّاسِ كذلِك»، ثمّ وضع يده المباركة على صدره: «اللّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَه وَطَهِّرْ قَلْبَهُ وَحَصِّنْ فَرْجَهُ» وبعد ذلك لم يره أحد وهو جالس إلى امرأة أجنبية[3].

وينبغي الالتفات إلى هذه النقطة أيضاً، وهي أنّ الإمام عليه السلام في العبارة السابعة من الكلام المذكور يقول على سبيل المقدّمة: «وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ». وهذا

---

١. في ظلال نهج البلاغة، ج ٣، ص ٥٠٢.

٢. الكافي، ج ٢، ص ١٤٦، باب الانصاف والعدل، ح ١٠.

٣. مجمع الزوائد للهيثمي، ج ١، ص ١٢٩. وهذا الحديث ذكره المرحوم المحدّث القمي في كتابه منتهى الآمال في فصل الفضائل الأخلاقية للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

إشارة إلى أنّ معلوماتك وإن كانت محدودة وقليلة فاقنع بها ولا تتدخّل في أمور لا تعلم بها، فإنّ ذلك سيقودك إلى متاهات الخطأ والانحراف.

٨٠٠٨

القسم السادس عشر

وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ، فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ، وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ، وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ.

الشرح والتفسير

لا تكن خازناً لغيرك

في هذا المقطع من الوصية النورانية يشير الإمامعليه السلام إلى أربع فضائل أخرى ويوصي بها ولده وفلذّة كبده الإمام الحسن المجتبىعليه السلام.

بداية يقول: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْإِعْجَابَ ضِدُّ الصَّوَابِ، وَآفَةُ الْأَلْبَابِ**».

وهذا يعني أنّ الإنسان المعجب بنفسه لا يدرك الحقائق الموضوعية عن نفسه وعن الآخرين، فهذه الصفة الذميمة تسدل حجاباً على عقله، وليست فقط تغطّي عيوبه بل يرى عيوبه ورذائله نقاط قوّة وعناصر كمال لنفسه، وأحياناً يعيش عمره في هذا الوهم ويغادر الدنيا دون أن يتحرك لإصلاح الخلل والعيب.

وعلى حدّ تعبير الشيخ مغنية في شرحه لنهج البلاغة، أنّ العجب كالخمر من حيث إنّهما يسكران الإنسان، والسكران حاله حال المجانين وينبغي الابتعاد عنه والفرار منه.

وقد ورد في القرآن الكريم والروايات الإسلاميّة في ذمّ العجب والغرور نصوص كثيرة، منها ما ورد الآية ٨ من سورة فاطر: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾، فهذا الشخص بسبب العجب يرى سوء عمله حسناً وكأنّه يرى الحقيقة

والواقع، ولكنّ الله تعالى يقول عنه أنّه ضالّ وغير جدير بالهداية ويوصي النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أن لا يتحسّر ويأسف على مثل هؤلاء.

وقد وردت في كلمات أميرالمؤمنين عليه السلام تعبيرات وكلمات عجيبة عن العجب والغرور، في مورد يقول: «**العُجْبُ آفَةُ الشَرَف**»[1] وفي مورد آخر يقول: «**آفَةُ اللُّبِّ العُجْبُ**»[2].

وفي مورد آخر يقول: «**العُجْبُ يُفْسِدُ العَقْلَ**»[3].

وفي مورد آخر يقول: «**ثَمَرَةُ العُجْبِ البَغْضَاءُ**»[4].

وأخيراً يقول: «**العُجْبُ رَأْسُ الحَمَاقَةِ**»[5].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يواصل كلامه ويستعرض الوصيّة الثانية ويقول: «**فَاسْعَ فِي كَدْحِكَ**».

وهذا هو الأمر الذي ورد التأكيد عليه كثيراً في الروايات الإسلاميّة إلى درجة أننا نقرأ في الحديث النبويّ المعروف: «**مَلْعُونٌ مَنْ أَلْقَى كَلَّهُ عَلَى النَّاسِ**»[6].

لو أنّ جميع المسلمين وبخاصّة الشبّان عملوا بهذه التوصية فلا أحد سيكون محتاجاً للآخرين سوى العجزة والمعوقين، وبديهيّ أنّ المجتمع الإسلامي سيتحرّك في خطّ الرقيّ والتقدّم ويحرز حالة من الإزدهار الاقتصادي والحضاري بدرجات عالية، بل إنّ البلدان الإسلاميّة سوف لا تكون أداة طيّعة للبلدان الأجنبية، لأنّ ذلك لا ينتج لهم سوى الذلّة والمهانة والتبعيّة.

وذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة إلى معنى آخر لهذه العبارة وقالوا: إنّ المقصود

---

١. غرر الحكم، ص ٣٠٩، ح ٧١٠٣.
٢. المصدر السابق، ص ٦٥، ح ٨٤٨.
٣. المصدر السابق، ح ٨٤٦.
٤. المصدر السابق، ص ٣٠٩، ح ٧١٠٦.
٥. المصدر السابق، ح ٧٠٩٦.
٦. الكافي، ج ٥، ص ٧٢، ح ٧.

منها السعي والكدح في طريق الإنفاق، فكلمة «كدح» تعني أنّ الإنسان يكدح ويتعب نفسه في البذل، وفي هذه الصورة تكون هذه العبارة مقدّمة لما يأتي بعدها، ولكن يبدو أنّ التفسير الأوّل أصحّ.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام التوصية الثالثة، ويقول: «وَلَا تَكُنْ خَازِناً لِغَيْرِكَ».

ويشير بذلك إلى أنّ الأشخاص الذين يتعبون أنفسهم في جمع الأموال والثروات ولا ينفقونها في سبيل الله، هم من المساكين الذين يتعبون أنفسهم في جمع وحفظ الأموال وينتفع بها الورثة، وفي القيامة يحاسبون عليها بينما يلتذّ بها وينتفع بها الآخرون، أي الورثة الذين لا يعيشون أحياناً أيّ مودّة واهتمام بالمورث وصاحب المال، ولا ينفقون منها في سبيل الله لحساب صاحبها، بل أحياناً يوبخونه ويذمّونه بأنه لم يترك لهم ثروة كافية، وحتى لو كان الورثة من الأشخاص الصالحين واستثمروا هذه الأموال في طريق الطاعة والصلاح، فمع ذلك ستكون حسرة على صاحب المال لأنّه أتعب نفسه من أجلها بينما ربح ثوابها الآخرون، وهذا هو ما وردت الإشارة إليه في الروايات الإسلاميّة.

يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية الشريفة: ﴿كَذٰلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾[1]. قال: «هُوَ الرَّجُلُ يَدَعُ مَالَهُ لَا يُنْفِقُهُ فِي طَاعَةِ اللهِ بُخْلاً ثُمَّ يَمُوتُ فَيَدَعُهُ لِمَنْ يَعْمَلُ فِيهِ بِطَاعَةِ اللهِ أَوْ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ فَإِنْ عَمِلَ بِهِ فِي طَاعَةِ اللهِ رَآهُ فِي مِيزَانِ غَيْرِهِ فَرَآهُ حَسْرَةً وَقَدْ كَانَ الْمَالُ لَهُ وَإِنْ كَانَ عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ قَوَّاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ حَتَّى عَمِلَ بِهِ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[2].

ثمّ يتعرض الإمام عليه السلام لبيان التوصية الرابعة ويقول: «وَإِذَا أَنْتَ هُدِيتَ لِقَصْدِكَ فَكُنْ أَخْشَعَ مَا تَكُونُ لِرَبِّكَ».

وهذا يعني أنّ جميع النعم والمواهب الإلهيّة تستحقّ من العبد الشكر، وأيّ نعمة

---

١. سورة البقرة، الآية ١٦٧.

٢. الكافي، ج ٤، ص ٤٢، ح ٢.

أعظم على الإنسان من الهداية لطريق الخير والصلاح مع أنّ مجاميع كثيرة من الناس ساروا في خطّ الضلالة والمتاهة، وشكر كلّ نعمة يجب أن يتناسب مع تلك النعمة، وشكر نعمة الهداية يستلزم الخضوع للحقّ تعالى وإطاعة أوامره ونواهيه.

ഊ

القسم السابع عشر

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَأَنَّهُ لا غِنَىٰ بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الارْتِيَادِ، وَقَدْرِ بَلاغِكَ مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ، فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَىٰ ظَهْرِكَ فَوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذَلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ، وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ، فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ، وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ.

الشرح والتفسير

الآخرون يحملون متاعك إلى الآخرة!

في هذه الفقرة من الوصية يتحدّث الإمامعليه‌السلام عن طول سفر الآخرة وحاجة الإنسان الشديدة للزاد والمتاع لهذا السفر من الطاعات وأعمال الخير وخاصّة الإنفاق في سبيل الله.

بداية يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ طَرِيقاً ذَا مَسَافَةٍ بَعِيدَةٍ، وَمَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ».

إنّ طريق الدنيا مهما كانت طويلة وشاقّة فإنّها بالنسبة لطريق الآخرة سهلة وميسورة، وطريق الآخرة مليء بالمنعطفات والمطبّات وتحتاج لمجاهدة النفس وتربيتها على الفضائل الأخلاقية، وأحياناً يستغرق سلوك هذا الطريق سنوات طوال.

وبعد هذا التحذير ينبّه الإمامعليه‌السلام إلى لزوم تهيئة الزاد والمتاع لهذا السفر المليء

بالمخاطر ويقول: «وَأَنَّهُ لَا غِنَى بِكَ فِيهِ عَنْ حُسْنِ الارْتِيَادِ[١]، وَقَدْرِ بَلَاغِكَ[٢] مِنَ الزَّادِ، مَعَ خِفَّةِ الظَّهْرِ».

إنّ الأصل والأساس في هذا الزاد والمتاع هو ما ورد في القرآن الكريم يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ﴾[٣].

وعبارة: «حُسْنِ الْارْتِيَاد» مع الالتفات إلى أنّ كلمة «الارتياد» تعني الطلب، فالمراد من العبارة حسن الطلب، أو بكلمة أخرى التدبير وإبتغاء المنهج الصحيح في سلوك الطريق (أي في تهيئة الزاد والمتاع لسفر الآخرة).

وعبارة: «خِفَّةِ الظَّهْرِ» إشارة إلى ما ذكره القرآن الكريم، حيث يقول: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[٤]. فالإمام عليه السلام يوصي ولده أن لا يكون مثل هؤلاء الأشخاص الذين يحملون أوزارهم وأوزار الآخرين على ظهورهم، فالمؤمن يسعى لتخفيف حمله ما أمكنه ذلك.

وسبق أن ذكرنا في شرح الخطبة الحادية والعشرين أنّ الإمام عليه السلام تحدّث عن هذا المضمون بعبارة وجيزة جدّاً وعميقة المغزى وقال: «تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا»، في الماضي وعندما كانت القوافل تسير في طرق صعبة وتصل إلى منعطفات خطيرة فإنّ المثقلين يعجزون عن مواصلة الطريق، وبما أنّ القافلة لا تستطيع التوقّف بسببهم، فإنّها تستمرّ في مسيرتها، ويبقى هؤلاء وحدهم في الصحراء ويكون مصيرهم نهباً لقطاع الطرق وطعاماً لذئاب البراري.

وبعد هذه المقدّمة الوجيزة والعميقة المعنى يطرح الإمام عليه السلام مسألة الإنفاق في

---

١. «ارتياد» من مادة «رود» على وزن «قوم» في الأصل تعني الذهاب والمجيء مع المداراة والملاءمة في طلب الشيء، وبالنسبة لمشتقاتها تارة تغلب جهة الطلب وأخرى جهة الرفق والمداراة، ومفردة «إرادة» مشتقة من هذا الأصل أيضاً.

٢. «بلاغ» بمعنى الشيء الذي يوصل الإنسان إلى مقصده.

٣. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٤. سورة العنكبوت، الآية ١٣.

سبيل الله وأنّه أهمّ زاد ومتاع ليوم القيامة ويقول: «فَلَا تَحْمِلَنَّ عَلَىٰ ظَـهْرِكَ فَـوْقَ طَاقَتِكَ، فَيَكُونَ ثِقْلُ ذٰلِكَ وَبَالاً عَلَيْكَ».

ويشير بذلك إلى أنّك لا تدّخر لنفسك أكثر ممّا تحتاجه في حياتك ومعاشك بحيث تستطيع الإجابة يوم القيامة عنه، لأنّ ما تجمعه من هذه الدنيا سيكون ثقيلاً عليك في الآخرة، فالحمل الذي لا تنتفع به في هذا المسار سوف لا يجديك سوى التعب والعناء.

ثمّ يدعو الإمام عليه السلام للإنفاق في سبيل الله بعبارات رائعة وجذّابة فيقول: «وَإِذَا وَجَدْتَ مِنْ أَهْلِ الْفَاقَةِ مَنْ يَحْمِلُ لَكَ زَادَكَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَيُوَافِيكَ بِهِ غَداً حَيْثُ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ فَاغْتَنِمْهُ وَحَمِّلْهُ إِيَّاهُ، وَأَكْثِرْ مِنْ تَزْوِيدِهِ وَأَنْتَ قَادِرٌ عَلَيْهِ».

ثمّ يضيف: «فَلَعَلَّكَ تَطْلُبُهُ فَلَا تَجِدُهُ[1]».

وفي ختام هذا المقطع من الوصية يستخدم الإمام عليه السلام عبارات أخرى لترغيب المخاطب إلىٰ الإنفاق في سبيل الله ويقول: «وَاغْتَنِمْ مَنِ اسْتَقْرَضَكَ فِي حَالِ غِنَاكَ، لِيَجْعَلَ قَضَاءَهُ لَكَ فِي يَوْمِ عُسْرَتِكَ».

وحصيلة الكلام أنّ الإنسان العاقل ينبغي أن يستثمر وجود نمطين من الناس: الشخص الذي يتبرّع بحمل زاد الإنسان على كتفه مجاناً ويوصله بفرح وسرور إلى المنزل المقصود، والآخر الشخص الذي يستقرض من الإنسان بعض أمواله في حال عدم حاجته إليه ويسدّده له في وقت هو بأمسّ الحاجة إليه، أجل، هكذا حال الأشخاص الذين يتحرّكون في الإنفاق في سبيل الله، وهذا التعبير عن هؤلاء يعتبر أبلغ وأجمل تعبير يجسّد في طياته القيم الأخلاقية الرفيعة.

---

١. بالنسبة للضمير «تَطْلُبَه» وجملة «فلا تَجِدْهُ» هناك خلاف بين شرّاح نهج البلاغة في عودة هذا الضمير، فالاحتمال الأول أنّه يعود إلى الشخص الفقير والمحتاج فكأنّه يحمل على أكتافه الصدقات والمثوبات ويسلمها يوم القيامة لصاحبها، والاحتمال الآخر أنّه يعود على المال نفسه، يعني سيحين الوقت الذي تطلب مالاً لانفاقه في سبيل الله وليس لديك مال، ولكن التفسير الأول أرجح كما ذكرنا في المتن، وجملة «وَاغْتَنِم» شاهد على ذلك.

والتعبير الثاني مقتبس من القرآن الكريم ويقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً﴾[١]. وطبعاً فالآية الشريفة تضيف نقطة أخرى على مسألة القرض، وهي أنّ الله تعالى هو الذي يستقرض من عباده، ثمّ يسدد لهم أضعافاً مضاعفة.

والتعبير الأول يحتمل أن يكون من الآيات الشريفة في سورة البلد، تقول الآيات: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ...﴾[٢].

والجدير بالالتفات أنّ المرحوم الصدوق ينقل في كتابه علل الشرائع رواية رائعة مناسبة للكلام الوارد في الوصية مورد البحث، يقول سفيان بن عُيَيْنَة قال: رأى الزهريّ (من التابعين المعروفين) عليّ بن الحسين عليه السلام ليلة باردة مطيرة وعلى ظهره دقيق وهو يمشي، فقال له: يابن رسول الله ما هذا؟ قال: «أُرِيدُ سَفَراً أُعِدُّ لَهُ زَاداً أَحْمِلُهُ إِلَى مَوْضِعٍ حَرِيزٍ»، فقال الزهريّ: فهذا غلامي يحمله عنك، فأبى، قال: أنا أحمله عنك فإنّي أرفعك عن حمله، فقال عليّ بن الحسين: «لَكِنِّي لَا أَرْفَعُ نَفْسِي عَمَّا يُنْجِينِي فِي سَفَرِي وَيُحْسِنُ وُرُودِي عَلَى مَا أَرِدُ عَلَيْهِ أَسْأَلُكَ بِحَقِّ اللهِ لَمَّا مَضَيْتَ لِحَاجَتِكَ وَتَرَكْتَنِي». فانصرف عنه، فلمّا كان بعد أيّام قال له: يابن رسول الله لست أرى لذلك السفر الذي ذكرته أثراً، قال: «بَلَى يَا زُهْرِيُّ لَيْسَ مَا ظَنَنْتَ وَلَكِنَّهُ الْمَوْتُ وَلَهُ كُنْتُ أَسْتَعِدُّ إِنَّمَا الِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ تَجَنُّبُ الْحَرَامِ وَبَذْلُ النَّدَى وَالْخَيْرِ»[٣].

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٤٥.
٢. سورة البلد، الآيات ١١-١٤.
٣. بحار الأنوار، ج ٤٦، ص ٦٥، ح ٢٧.

القسم الثامن عشر

وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَئُوداً، الْمُخِفُّ فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ، وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ عَلَىٰ نَارٍ، فَارْتَدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، «فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ»، وَلَا إِلَىٰ الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ.

الشرح والتفسير

ضع عن كتفك همّ يومك!

يعود الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية النورانية ليتحدّث مرّة أخرى في مسألة سفر القيامة الطويل والمليء بالمخاطر والعقبات، ويبيّن معالم هذا المسير بدقّة متناهية، ويتحدّث عن وسيلة النجاة فيه.

بداية يقول: «وَاعْلَمْ أَنَّ أَمَامَكَ عَقَبَةً كَؤُوداً[1]، الْمُخِفُّ[2] فِيهَا أَحْسَنُ حَالاً مِنَ الْمُثْقِلِ[3]، وَالْمُبْطِئُ عَلَيْهَا أَقْبَحُ حَالاً مِنَ الْمُسْرِعِ».

والمراد من العقبة الكؤود والمنعطف الخطير في هذا المسار إمّا الموت وسكراته، أو عالم البرزخ، أو جسر الصراط (ويحتمل أن يكون جميع ذلك).

وبديهيّ أنّه لإحراز السلامة في عملية العبور من هذه المآزق والمنعطفات الخطيرة ينبغي التخفيف من الأثقال، والإسراع في المسير، لأنّه في مثل هذه

---

١. «كؤود» بمعنى الطريق الشاق وصعب العبور، من مادة «كئد» على وزن «عهد» بمعنى شدّة وصعوبة والعسر.
٢. «مخفّ» يعني الشخص الذي يحمل حملاً خفيفاً، من «خفّ» على وزن «صف» بمعنى الخفيف.
٣. «مثقل» يعني الشخص الذي يحمل حملاً ثقيلاً، من مادة «ثقل».

المنعطفات الخطيرة يكثر قطاع الطرق أو الحيوانات المفترسة التي يواجهها الإنسان في هذا الطريق وتعيقه عن إكمال المسير.

وهذا التعبير أيضاً مقتبس من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * مَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ...﴾[1].

وذهب بعض المفسّرين في شرح هذه الآيات أنّ العقبة تعني هوى النفس، وذهب آخرون إلى المآزق والمنعطفات الخطيرة يوم القيامة، وكلام الإمام عليه السلام هنا يتناسب مع الثاني.

ويواصل الإمام عليه السلام حديثه عن هذا المسير المعنوي ويقول: «وَأَنَّ مَهْبِطَكَ بِهَا لَا مَحَالَةَ إِمَّا عَلَىٰ جَنَّةٍ أَوْ عَلَىٰ نَارٍ».

ثمّ يضيف: «فَارْتَدْ[2] لِنَفْسِكَ قَبْلَ نُزُولِكَ، وَوَطِّئِ الْمَنْزِلَ قَبْلَ حُلُولِكَ، فَلَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ[3] وَلَا إِلَىٰ الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ[4]».

والجدير بالذكر أنّ جملة: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ» قالها لأول مرّة رسول الله صلى الله عليه وآله فقد ورد في الحديث الشريف عنه صلى الله عليه وآله: «لَيْسَ بَعْدَ الْمَوْتِ مُسْتَعْتَبٌ أَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَادِمِ اللَّذَّاتِ وَمُنَغِّصِ الشَّهَوَاتِ»[5].

وجملة: «وَلَا إِلَىٰ الدُّنْيَا مُنْصَرَفٌ»، تعكس حقيقة جليلة أشارت إليها الآيات القرآنية والروايات الشريفة بشكل واسع، القرآن الكريم يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا...﴾[6].

---

١. سورة البلد، الآيات ١١ ـ ١٤.

٢. «ارْتَدْ» يعني انتخب واختر لك، من «الارتياد» كما ذكرنا في تفسيرها سابقاً.

٣. «مُسْتَعْتَب» مصدر ميمي، يعني الاعتذار وطلب رضا، من مادة «عتب» على وزن «عطف» وله معانٍ متعددة وأحدها الرضا والبهجة، والشخص الذي يعتذر للشخص المقابل يطلب في الحقيقة رضاه وعفوه، ولذلك تستعمل هذه المفردة بمعنى الاعتذار.

٤. «مُنْصَرَف» مصدر ميمي بمعنى العودة.

٥. مستدرك الوسائل، ج ٢، ص ١٠٤، ح ١٦.

٦. سورة المؤمنون، الآية ٩٩ و ١٠٠. وأشار إليها في الآيات ٢٨ من سورة الانعام و ٣٧ من سورة فاطر أيضاً.

ونقرأ في الخطبة ١٨٨ من نهج البلاغة في حديث الإمام عليه السلام عن الموتى ويقول: «لَا عَنْ قَبِيحٍ يَسْتَطِيعُونَ انْتِقَالاً وَلَا فِي حَسَنٍ يَسْتَطِيعُونَ ازْدِيَاداً».

أجل، إنّ هذا المنزل في يوم القيامة وما بعد الموت غير قابل للعودة، كما أنّ الوليد المعوق لا يستطيع أبداً العودة إلى رحم أمّه لينمو من جديد بشكل صحيح ولا يمكن للثمرة التي انفصلت عن الشجرة أن تعود إلى غصنها، فالأشخاص الذين يغادرون هذا العالم إلى عالم البرزخ لا يستطيعون أبداً العودة إلى الدنيا، وأهل البرزخ بدورهم عندما ينتقلون إلى القيامة لا يستطيعون العودة إلى عالم البرزخ، وهذا تحذير لنا جميعاً بأن نعلم أنّنا ربّما سنواجه لحظة وينتهي كلّ شيء وتوصد أمامنا أبواب التوبة ولا نستطيع تحصيل الزاد والمتاع، فنغادر الدنيا بقلوب مليئة بالحسرات.

القسم التاسع عشر

وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ، وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَى مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ، وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ، وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ، وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى، وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ، وَلَمْ يُنَاقِشْكَ بِالْجَرِيمَةِ وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً، وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الِاسْتِعْتَابِ، فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ، فَأَفْضَيْتَ إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ، وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَى إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ. ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ، فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ رَحْمَتِهِ، فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ. وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً، أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ، فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَى لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَى عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَى لَكَ وَلَا تَبْقَى لَهُ.

الشرح والتفسير

فتح أبواب التوبة والدعاء أمام الإنسان

في هذا المقطع من الوصية النورانية يشير الإمام عليه السلام إلى عدّة مواضيع مهمّة ويقول: ينبغي عليك أن تهتمّ بمسألة الدعاء، فالدعاء يمثّل قضية مصيرية في حياتك: «وَاعْلَمْ أَنَّ الَّذِي بِيَدِهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ أَذِنَ لَكَ فِي الدُّعَاءِ، وَتَكَفَّلَ لَكَ بِالْإِجَابَةِ، وَأَمَرَكَ أَنْ تَسْأَلَهُ لِيُعْطِيَكَ، وَتَسْتَرْحِمَهُ لِيَرْحَمَكَ».

وفي هذه العبارات يشير الإمام عليه السلام إلىٰ نقاط عدّة لتشويق المخاطب للدعاء، فيقول أوّلاً: يجب أن تطلب حاجاتك ممّن يملك جميع الأمور وبيده مقاليد السماوات والأرض ويستطيع أن ينعم عليك بالرزق والعطايا، وبكلمة واحدة أن تدعو من يملك جميع الكائنات، وعلى ضوء ذلك تكون في طلبك ودعائك قريباً من الإجابة.

وفي الجملة الثانية يقول: إنّ الله تعالى أذن لك بالدعاء، أي في الحقيقة أنّه دعاك لتأتي إلى ساحة قدسه وتسأله من فضله وكرمه وتدعوه وتناجيه، وهذا يمثّل غاية اللطف والرحمة بحيث أنّه تعالى دعا المحتاجين إليه وقال: تعالوا إليّ واطلبوا منّي، وهذا المعنى أشارت إليه الآيات القرآنية في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لَا دُعَاؤُكُمْ﴾[1].

وفي الجملة الثالثة يقول: إنّ الله تعالى قد ضمن لك استجابة الدعاء، وهذا أيضاً إشارة لقوله تعالى: ﴿ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] وغيرها من الآيات الشريفة.

وفي الجملة الرابعة يتوسّع الإمام عليه السلام في هذا الموضوع وأنّ الله تعالى قد تجاوز مسألة الإذن في الدعاء، بل أمرك أن تسأله وتدعوه وتطلب من لطفه ورحمته ويعطيك وينعم عليك ويرحمك، وهذا ما ورد في الآيات الشريفة، نظير: ﴿وَاسْئَلُوا

---

١. سورة الفرقان، الآية ٧٧.

٢. سورة غافر، الآية ٦٠.

اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[١].

وفي الجملة الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «**وَلَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مَنْ يَحْجُبُكَ عَنْهُ، وَلَمْ يُلْجِئْكَ إِلَىٰ مَنْ يَشْفَعُ لَكَ إِلَيْهِ**».

وهذا إشارة إلى أنّ الدين الإسلاميّ يقوم على أساس أن البشر يستطيعون إقامة علاقة مباشرة مع الله تعالى بدون توسّط أحدٍ من العباد، كما هو الحال في الصلاة التي نصلّيها كلّ يوم، فإنّنا من بدايتها إلى انتهائها وبخاصّة في سورة الفاتحة نتحدّث مع الله تعالى بشكل مباشر بدون أية واسطة بيننا، وهذا يعدّ افتخاراً كبيراً للإسلام والمسلمين حيث فتح الإسلام طريق الارتباط المباشر مع الله للجميع، والآيات القرآنية شاهدة على هذا المعنى، لا سيّما الآيات الشريفة التي تبتدىء بكلمة «ربّنا».

على العكس من ذلك بعض المذاهب الباطلة التي تشترط وجود واسطة من المرشد وشيخ الطريقة بين العبد وربّه وأحياناً لا يجيدون إقامة ارتباط مباشر مع الله تعالى.

وهنا يثار هذا السؤال، وهو أنّ مسألة الشفاعة في الإسلام، أي شفاعة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام المعصوم عليه السلام وصالح المؤمنين، وردت بكثرة في الآيات القرآنية والروايات الشريفة حيث تدلّ على شفاعة الشفعاء في الدنيا والآخرة، ألا تتنافى مثل هذه الشفاعة مع الارتباط المباشر مع الله تعالى؟

والجواب على هذا السؤال يتّضح بالالتفات إلى نقطتين:

الأُولى: إنّ هذاالمعنى لا ينفي وجود الارتباط المباشر، بل إنّ الارتباط المباشر بالله تعالى محفوظ في محلّه، والمسلمون يرتبطون بالله في كلّ يوم وليلة بشكل مباشر في صلاتهم ودعائهم، والشفاعة بدورها لها مكانة خاصّة وثابتة، وبعبارة أخرى أنّ كلا الطريقين يوصلان الإنسان برحمة الله ولطفه ولا تقاطع بينهما حيث

---

١. سورة النساء، الآية ٣٢.

يجتمعان في إيصال العبد لربّه.

الثانية: وردت في الآيات القرآنية الإشارة إلى هذه النقطة في أكثر من مورد وهي أنّ الشفاعة بدورها إنّما تتحقّق بإذن الله، وعلى ضوء ذلك فالشخص الذي يتوسّل بالنبيّ الأكرمﷺ والأئمّة المعصومينﰈ ويطلب منهم الشفاعة، يجب عليه إلى جانب ذلك أن يطلب من الله الإذن لهم بالشفاعة، فإذن الشفاعة يعتبر مكمل للارتباط المباشر بالله تعالى.

وببيان آخر، إنّني أطلب قضاء حوائجي من الله تعالى مباشرة، ولكن أحياناً تكون الحاجة معقدة ومهمّة، أو إنّني ملوّث بالذنوب بدرجة أشعر معها أنّني لا أستطيع نيل بغيتي وتحقيق مرادي لوحدي ومن خلال الدعاء فقط، هنا أتوسّل بالأولياء الإلهيين الذين لهم مكانة واعتبار عند الله تعالى أن يشفعوا لي عند الله تعالى بإذن الله، على سبيل المثال، نرى أنّ إخوة يوسف بعد ما ارتكبوا تلكم الجرائم في أخيهم شعروا بأنّ ذنبهم عظيم إلى درجة أنّهم لا يستطيعون طلب العفو بشكل مباشر من أخيهم يوسفﰎ أو من الله تعالى، وبذلك توسّلوا بأبيهم وقالوا: ﴿**يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ**﴾[1].

ثمّ إنّ الإمامﰎ بعد أن يطرح مسألة الدعاء يتعرّض لمسألة التوبة ويتحدّث عنها بكلمات بليغة وزاخرة بالمضامين العالية ويبيّن أنّ اللطف الإلهيّ يشمل المذنبين التائبين، ويؤكّد هذا المعنى في ثمان جمل:

١. «**وَلَمْ يَمْنَعْكَ إِنْ أَسَأْتَ مِنَ التَّوْبَةِ**»، حيث فتح أمامك أبواب التوبة مع إساءتك.

٢. «**وَلَمْ يُعَاجِلْكَ بِالنِّقْمَةِ**»، فأخّر العقوبة لعلّك تتوب من ذنبك.

٣. «**وَلَمْ يُعَيِّرْكَ بِالْإِنَابَةِ**»، كما هو حال الأشخاص الذين يعيشون حبّ الانتقام من التائبين ويواجهونهم باللوم والتوبيخ والتقريع.

---

١. سورة يوسف، الآية ٩٧.

٤. «وَلَمْ يَفْضَحْكَ حَيْثُ الْفَضِيحَةُ بِكَ أَوْلَى»، وليس كما يتعامل بعض أصحاب النفوس الضعيفة الذين يتحرّكون على مستوى فضح الطرف المقابل بأدنى زلّة.

٥. «وَلَمْ يُشَدِّدْ عَلَيْكَ فِي قَبُولِ الْإِنَابَةِ»، بخلاف ما يتعامل به أصحاب الشخصيات الهزيلة مع الآخرين.

٦. «وَلَمْ يُنَاقِشْكَ[١] بِالْجَرِيمَةِ»، بل يصفح عنك ومن دون استعتاب ومؤاخذة.

٧. «وَلَمْ يُؤْيِسْكَ مِنَ الرَّحْمَةِ، بَلْ جَعَلَ نُزُوعَكَ[٢] عَنِ الذَّنْبِ حَسَنَةً، وَحَسَبَ سَيِّئَتَكَ وَاحِدَةً، وَحَسَبَ حَسَنَتَكَ عَشْراً»، ومهما كان ذنبك عظيماً ووزرك ثقيلاً فإنّ الله تعالى فتح باب العودة والتوبة والإنابة إليك، وجعل هذه العودة حسنة لك، والأهمّ من ذلك أنّه جعل سيئتك واحدة، وضاعف حسنتك إلى عشر حسنات.

٨. «وَفَتَحَ لَكَ بَابَ الْمَتَابِ، وَبَابَ الاِسْتِعْتَابِ[٣]»، أي أنّ الله تعالى فتح باب العودة إليه دائماً.

هذه العبارات في الحقيقة مقتبسة من الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدّث عن التوبة وآثارها والألطاف الإلهيّة بالنسبة للتائبين والمنيبين.

والقرآن الكريم يقول: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

وفي مورد آخر يتحدّث عن قبول التوبة ويقول: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾[٥].

وفي مورد آخر يتحدّث عن عدم تعجيل العقوبة للمذنبين ويقول: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ

---

١. «لَمْ يُنَاقِشْكَ» من «المناقشة» بمعنى الدقّة والتشدد في الحساب، ومن هنا اطلقت هذه المفردة على المناظرة الدقيقة والمباحثات الكلاميّة الشائكة.

٢. «نُزُوع» بمعنى الانفصال عن شيء، ومن هنا اطلقت كلمة «نزع» على حالة الإنسان في سكرات الموت لأنّها لحظات انفصال الروح عن الجسد.

٣. «الاستعتاب» مرّ تفسيرها في القسم الثامن عشر من هذه الوصية.

٤. سورة النور، الآية ٣١.

٥. سورة الشورى، الآية ٢٥.

ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذابَ﴾[١].

وفيما يخصّ عدم اليأس من رحمة الله يتحدّث القرآن الكريم بعبارات زاخرة باللطف ومفعمة بالمحبّة، يقول للنبيّ ﷺ: ﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلىٰ أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٢].

وبالنسبة لتبديل السيئات بالحسنات يقول تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئاتِهِمْ حَسَناتٍ﴾[٣].

وما يخصّ كتابة السيئات بمقدارها وكتابة الحسنات بعشر أمثالها يقول تعالى: ﴿مَنْ جاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثالِها وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزىٰ إِلاَّ مِثْلَها وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾[٤].

ومن المعلوم أنّ التوبة تعتبر أوّل خطوة في طريق السلوك إلى الله تعالى ومن هنا يعتبر السالكون إلى الله التوبة أوّل منزل من منازل هذا الطريق، وعندما نرى أنّ الإمام عليه السلام يذكر التوبة بعد الدعاء، فذلك لأنّ التوبة أيضاً نوع من الدعاء، أي الدعاء لطلب العفو والرحمة من الله تعالى، وما لم يتقدّم الإنسان بهذه الخطوة، لن يغسل عن روحه وقلبه غبار الذنوب، وما لم يزح حجاب المعصية عن عين قلبه، فإنّ سلوك هذا الطريق يكون عسيراً أو غير ممكن.

ونقرأ في الأدعية وروايات المعصومين عليهم السلام أيضاً إشارات كثيرة وتعبيرات لطيفة عن هذا الموضوع، وذلك ما ورد في مناجاة التائبين (وهي أوّل مناجاة من المناجيات الخمسة عشر للإمام زين العابدين عليه السلام) فنقرأ: «إِلٰهي أَنْتَ الَّذِي فَتَحْتَ لِعِبادِكَ باباً إِلَى عَفْوِكَ سَمَّيْتَهُ التَّوْبَةَ فَقُلْتَ: «تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحاً» فَما عُذْرُ مَنْ أَغْفَلَ دُخُولَ الْبابِ بَعْدَ فَتْحِه».

---

١. سورة الكهف، الآية ٥٨.
٢. سورة الزمر، الآية ٥٣.
٣. سورة الفرقان، الآية ٧٠.
٤. سورة الأنعام، الآية ١٦٠.

أجل، فالإمام عليه السلام بوصفه مرشداً مطّلعاً مجرّباً يأخذ بيد ولده الشابّ ويسير به في هذا الطريق من منزل لآخر إلى حيث الوصول إلى منزل القرب الإلهي.

ثمّ يواصل الإمام عليه السلام كلامه لولده ويوصيه بالدعاء والمناجاة لله وطلب الحاجة إليه، ويقول: «فَإِذَا نَادَيْتَهُ سَمِعَ نِدَاكَ، وَإِذَا نَاجَيْتَهُ عَلِمَ نَجْوَاكَ. فَأَفْضَيْتَ[1] إِلَيْهِ بِحَاجَتِكَ، وَأَبْثَثْتَهُ[2] ذَاتَ نَفْسِكَ، وَشَكَوْتَ إِلَيْهِ هُمُومَكَ، وَاسْتَكْشَفْتَهُ كُرُوبَكَ، وَاسْتَعَنْتَهُ عَلَى أُمُورِكَ».

ففي هذه الفقرة من كلام الإمام عليه السلام يعلّم الإمام ولده كيفية المناجاة والابتهال مع إلى الله تعالى ويقول: اطلب حاجتك منه تعالى وافتح له قلبك وأبرز له هواجسك ومكنوناتك، وتحدّث معه عن معاناتك وهمومك، واطلب منه المعونة في جميع أمورك. فهذه الأمور الخمسة تشكّل محاور مناجاة العباد مع ربّهم وقد أشار إليها الإمام عليه السلام بعبارات بليغة وموجزة.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام بيّن لولده كيفية الطلب من الله تعالى وعدّد له مواهبه ونعمه المهمّة التي ينبغي للإنسان أن يطلبها من الله تعالى دائماً ويقول: «وَسَأَلْتَهُ مِنْ خَزَائِنِ رَحْمَتِهِ مَا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ إِعْطَائِهِ غَيْرُهُ، مِنْ زِيَادَةِ الْأَعْمَارِ، وَصِحَّةِ الْأَبْدَانِ، وَسَعَةِ الْأَرْزَاقِ».

فهنا نرى الإمام عليه السلام بعد أن يؤكّد على أنّ الله تعالى يملك مواهبَ ونعماً في خزائن رحمته ولا يستطيع أيّ مخلوق إعطاء هذه النعم للإنسان، يشير الإمام عليه السلام إلى ثلاث من هذه النعم:

١. العمر الطويل، الذي يتيح للإنسان أن يتحرّك على مستوى بناء ذاته وتزكية نفسه وزيادة حسناته.

٢. الصحّة والسلامة، وبدون هذه الصحّة والسلامة فلا يترتّب على زيادة العمر

---

١. «أفضيت» من «الإفضاء» و «فضاء» وتأتي بمعنى الوصول إلى شيء وكأنّما دخل في فضائه وجوّه.

٢. «ابثثته» من مادة «بثّ» بمعنى فرق ونشر، وهنا جاءت بمعنى نشرت له عن سرّك وأظهرت عن مكنوناتك.

سوى مزيد من الألم والمعاناة وأحياناً يؤدي إلى الابتعاد عن الله والإعراض عن رحمته.

٣. الرزق الوفير، لأنّ الإنسان بدون إمكانات مالية غير قادر على أداء الكثير من الحسنات والخيرات، من قبيل صلة الرحم، كفالة الأيتام، إعانة المحتاجين، بناء المدارس، المستشفيات، نشر علوم الإسلام ومعارف أهل البيت عليهم السلام، ضيافة المؤمنين وما إلى ذلك.

وطبعاً هذا في صورة أن يكون المقصود من الأرزاق في هذه العبارة الأرزاق المادية، ولكن إذا توسّعنا في مفهوم الرزق بحيث يشمل العلوم والمعارف، النفوذ الإجتماعي، القوى الجسمية والنفسية وما شاكل ذلك، فسوف يكون المطلب أوضح وأبين.

وممّا لا شك فيه أنّ طول العمر وصحة البدن وسعة الرزق تتصل بشكل وثيق بسعي الإنسان وجهده بأن يراعي المسائل الصحية ويجتنب عوامل الضرر وموجبات المرض، ويتحرك في واقع الحياة بطلب الرزق، ولكن بشكل عام فإنّ هذه الأمور مرتبة بمشيئة الله تعالى، والعوامل التي يفرضها ويقرّرها الباري في عالم الغيب وهي خافية علينا، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام: إنّها من خزائن رحمة الله تعالى الذي لا يقدر على إعطائك غيره.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا الموضوع أيضاً في حديثه عن دعاء النبيّ إبراهيم عليه السلام وقوله: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ»[1].

ومن المعلوم أنّ المواهب الإلهيّة لا تنحصر بزيادة العمر وصحة البدن وسعة الرزق، ولكن لا شكّ أنّ الأركان الأصلية لهذه النعم والمواهب الإلهيّة تتمحور حول هذه الأمور الثلاثة، لأنّ الأصل والعمدة في أعمال الخير ينبثق من هذه الأمور.

---

١. سورة الشعراء، الآيات ٧٨-٨١.

وفي بيان مفاتيح هذه الخزائن الإلهيّة يقول الإمام عليه السلام: «ثُمَّ جَعَلَ فِي يَدَيْكَ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِهِ بِمَا أَذِنَ لَكَ فِيهِ مِنْ مَسْأَلَتِهِ».

ويتبيّن من هذا الكلام أنّ الدعاء والابتهال إلى الله تعالى له تأثير كبير في نيل المطلوب والانتفاع بالنعم المتوفّرة في هذه الخزائن اللامتناهية ويتبيّن أيضاً دور الدعاء في فتح أبواب هذه الخزائن الغيبية.

وطبعاً فالدعاء يستلزم توفّر شروطه، منها أن يبذل الإنسان جهده بما لديه من إمكانات في هذا السبيل، ثمّ يتوسّل بالدعاء لما ليس له قدرة عليه وما هو خارج عن إمكاناته.

ثمّ يخرج الإمام عليه السلام بهذه النتيجة: «فَمَتَى شِئْتَ اسْتَفْتَحْتَ بِالدُّعَاءِ أَبْوَابَ نِعْمَتِهِ، وَاسْتَمْطَرْتَ شَآبِيبَ[1] رَحْمَتِهِ».

ومعلوم أنّ خزائن الله تمثّل مجموعة النعم المادية والمعنوية للمخلوقات، وأنّ مفتاح أبواب هذه الخزائن هو الدعاء، وبكلمة أخرى أنّ الإمام عليه السلام شبّه نعم الله تعالى بمطر الرحمة حيث يستطيع الإنسان أن يستمطر هذه الرحمة الإلهيّة من سماء القدرة الإلهيّة المطلقة واللطف الإلهيّ العميم على أرض وجوده ويروي ظمأ قلبه وعطش روحه.

وجاء في حديث آخر عن أميرالؤمنين عليه السلام: «الدُّعَاءُ مَفَاتِيحُ النَّجَاحِ وَمَقَالِيدُ الْفَلَاحِ وَخَيْرُ الدُّعَاءِ مَا صَدَرَ عَنْ صَدْرٍ نَقِيٍّ وَقَلْبٍ تَقِيٍّ»[2].

وهنا يثار سؤال مهمّ ومعروف، والإمام عليه السلام يجيب عنه بلا فصل، وهو: لماذا لا تستجاب الكثير من أدعيتنا، أو تتأخّر الإجابة مدّة طويلة، فلو كان الدعاء يفتح أبواب رحمة الله، فلماذا لا يفتح هذا المفتاح الباب أو يستغرق فتحها مدّة من الزمان؟ في حين أنّ الآيات الشريفة التي تعتبر الدعاء مفتاح الإجابة مطلقة وشاملة

---

١. «شآبيب» جمع «شؤبوب» على وزن «بهلول» بمعنى هطول المطر بغزارة وأحياناً تأتي بمعنى كل شدّة.

٢. الكافي، ج ٢، ص ٢٦٨، ح ٢.

لجميع الحالات، ففي مورد يقول القرآن الكريم: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[١]، وفي مورد آخر يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[٢].

ويجيب الإمامعليه‌السلام عن هذا السؤال بالإشارة إلى أربع نقاط:

الأُولى: أحياناً تكون نيّة الداعي ملوّثة ولا يصدر الدعاء عن قلب نقيّ وطاهر من الذنوب، يقول: «فَلَا يُقَنِّطَنَّكَ إِبْطَاءُ إِجَابَتِهِ، فَإِنَّ الْعَطِيَّةَ عَلَىٰ قَدْرِ النِّيَّةِ».

وهذا الحديث الشريف الذي قرأناه آنفاً مذكور في كتاب الكافي وأنّ الدعاء إنّما يستجاب إذا صدر من قلب نقيّ وطاهر، وعلى هذا الأساس إذا لم تستجب بعض الأدعية ويستجاب البعض الآخر، فذلك ناشيء من تلوّث النيّة، والروايات التي تقرّر أنّ أحد شرائط استجابة الدعاء التوبة من الذنوب، تشير إلى هذا المعنى أيضاً.

وأشار الإمامعليه‌السلام إلى المانع الثاني في قوله: «وَرُبَّمَا أُخِّرَتْ عَنْكَ الْإِجَابَةُ، لِيَكُونَ ذَلِكَ أَعْظَمَ لِأَجْرِ السَّائِلِ، وَأَجْزَلَ لِعَطَاءِ الْآمِلِ».

وببيان آخر أنّ الله تعالى قد يؤخّر استجابة دعاء عبده ليبقى العبد فترة أطول أمام باب بيته، وبالتالي يحصل على مواهب أكثر وأوفر وذلك بسبب محبّة الله لهذا العبد.

ثمّ يشير الإمامعليه‌السلام إلى المانع الثالث من استجابة الدعاء ويقول: «وَرُبَّمَا سَأَلْتَ الشَّيْءَ فَلَا تُؤْتَاهُ، وَأُوتِيتَ خَيْراً مِنْهُ عَاجِلاً أَوْ آجِلاً».

وهو إشارة إلى أنّك ربّما تطلب شيئاً قليلاً وتافهاً من الله تعالى ولكنّ الله بمقتضى عظمته وسعة رحمته لا يستجيب لك ولا يعطيك ما تطلب، بل يعطيك خيراً منه عاجلاً أو آجلاً، كالشخص الذي يتوجّه لشخص كريم فيطلب منه داراً وضيعة مثلاً ولكن ذلك الكريم لا يقبل ويمتنع عن إعطائه ما يريد، لأنّه سيعطيه فيما بعد داراً أوسع وأفضل ممّا طلب.

---

١. سورة غافر، الآية ٦٠.

٢. سورة البقرة، الآية ١٨٦.

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام السبب الرابع لعدم استجابة الدعاء، والذي يعتبر أهمّ سبب في ذلك، يقول: «أَوْ صُرِفَ عَنْكَ لِمَا هُوَ خَيْرٌ لَكَ، فَلَرُبَّ أَمْرٍ قَدْ طَلَبْتَهُ فِيهِ هَلَاكُ دِينِكَ لَوْ أُوتِيتَهُ».

فالكثير من الناس وبسبب عدم اطّلاعهم على عواقب الأمور يطلبون مسائل وحاجات من الله تعالى بإصرار وإلحاح، في حين أنّ هذا الطلب فيه هلاكه وفساده، وبما أنّ الله تعالى عالم بعواقب الأمور، فإنّه لا يستجيب مثل هذا الدعاء، ولكنّه لا يخيّب أمل عبده، فيعطيه ما فيه فلاحه ونفعه.

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة أيضاً ويقول: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾[1].

ونقرأ في حديث شريف عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ عِبَاداً لَا يَصْلُحُ لَهُمْ أَمْرُ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَالصِّحَّةِ فِي الْبَدَنِ فَأَبْلُوهُمْ بِالْغِنَى وَالسَّعَةِ وَصِحَّةِ الْبَدَنِ فَيُصْلِحُ عَلَيْهِمْ أَمْرَ دِينِهِمْ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَعِبَاداً لَا يَصْلُحُ لَهُمْ أَمْرُ دِينِهِمْ إِلَّا بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسُّقْمِ فِي أَبْدَانِهِمْ فَأَبْلُوهُمْ بِالْفَاقَةِ وَالْمَسْكَنَةِ وَالسُّقْمِ فَيُصْلِحُ عَلَيْهِمْ أَمْرُ دِينِهِمْ»[2].

وهناك نماذج جليّة على امتداد التاريخ وحتّى في زمان صحابة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام تحكي عن وجود بعض الأفراد من ذوي الذهنية الضيّقة يطلبون من الله تعالى وبإصرار ويتوسّلون إليه بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أو الأئمّة المعصومين عليهم السلام أن يوسّع في رزقهم، وبعد الإصرار والطلب من النبيّ صلى الله عليه وآله أو الإمام أن يدعو لهم بسعة الرزق تفضي بهم سعة الرزق إلى حالة من الطغيان والتمرّد، بل ينطق بعض هؤلاء بكلمات يستشمّ منها الإرتداد عن الدين والإيمان كما في القصة المعروفة عن ثعلبة بن حاطب الأنصاري الذي كان يصرّ على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أن يدعو له بالمال الوفير،

---

١. سورة البقرة، الآية ٢١٦.

٢. أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٠، ح ٤.

وكان النبيّ يعلم بحاله ومستقبله وكان يقول له: «قَلِيلٌ تُؤَدِّي شُكْرَهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ لَا تُطِيقُه»، أليس من الأفضل أن تتأسّىٰ بالنبيّ الأكرمﷺ وتقنع بحياة بسيطة؟ ولكنّ ثعلبة بقي مصرّاً على طلبه، وأخيراً دعا له النبيّ وحصل على ثروة كبيرة من ميراث خلّفه له أحد أرحامه، فاشترى بهذا المال ماشية، وازدادت وكثرت تدريجياً حتّى أصبح من العسير الاحتفاظ بها في المدينة، فاضطرّ ثعلبة إلى الخروج إلى خارج المدينة وعلق بحياته المادية حتّى ترك صلاة الجماعة والجمعة خلف النبيّ الأكرمﷺ خلافاً لعادته السابقة حيث كان يشترك في جميع صلوات النبيّ الأكرمﷺ.

وبعد مدّة أرسل إليه النبيّ من يقبض منه زكاة أمواله، فامتنع ثعلبة من دفع الزكاة واعترض على أصل تشريع هذا الحكم الإلهيّ وقال: هل هذا إلّا الجزية التي تؤخذ من أهل الكتاب، نحن أسلمنا لئلاّ ندفع الجزية، وعندما وصل خبره إلى النبيّ الأكرمﷺ قال: «يَا وَيْحَ ثَعْلَبَةَ»[1].

ثمّ يواصل الإمامعليه السلام كلامه في مسألة الدعاء ويصل إلى نتيجة مهمّة ويقول: «**فَلْتَكُنْ مَسْأَلَتُكَ فِيمَا يَبْقَىٰ لَكَ جَمَالُهُ، وَيُنْفَىٰ عَنْكَ وَبَالُهُ؛ فَالْمَالُ لَا يَبْقَىٰ لَكَ وَلَا تَبْقَىٰ لَهُ**».

تأمّل

شروط استجابة الدعاء

قد يتصوّر البعض أنّ عبارات من قبيل: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾[2] مطلقة وغير مقيّدة بأيّ قيد وشرط وأنّ الإنسان عندما يدعو بأيّ دعاء فعليه أن يتوقّع الإجابة

---

١. انظر: تفسير مجمع البيان والقرطبي والطبري و تفسير الأمثل وكتب أخرى في ذيل الآية الشريفة ٧٥ إلى ٧٨ من سورة التوبة.

٢. سورة غافر، الآية ٦٠.

وأنّ الله تعالى سيستجيب له هذا الدعاء بلطفه وكرمه، في حين أنّ الأمر ليس كذلك، فقد ورد في روايات عدّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام شروط عدّة لاستجابة الدعاء، منها التوبة وصفاء القلب، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«إِيَّاكُمْ أَنْ يَسْأَلَ أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ شَيْئاً مِنْ حَوَائِجِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ حَتَّى يَبْدَأَ بِالثَّنَاءِ عَلَى اللهِ وَالْمِدْحَةِ لَهُ وَالصَّلَاةِ عَلَى النبيّ وَآلِهِ ثُمَّ الْاِعْتِرَافِ بِالذَّنْبِ وَالتَّوْبَةِ ثُمَّ الْمَسْأَلَةِ»[1].

والشرط الآخر أن يعيش الداعي حياة الطهر والنقاء، خاصّة من الأطعمة المحرّمة والكسب الحرام كما ورد عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُسْتَجَابَ دُعَاؤُهُ فَلْيُطَيِّبْ مَطْعَمَهُ وَمَكْسَبَه»[2].

في حين أنّ الكثير من الناس في حال الدعاء لا يعيشون حالة التوبة ولا يجتنبون الأطعمة المحرّمة أو الملوّثة، ثمّ يتوقّعون أن يستجيب الله تعالى لهم دعاءهم.

وكذلك من شروط الدعاء السعي وبذل الجهد في طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالأشخاص الذين يشاهدون مظاهر المنكر والذنب ولا يثير ذلك فيهم أيّ ردّة فعل، فلا يحقّ لهم أن يتوقّعوا استجابة دعائهم، كما ورد في الحديث الشريف عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «وَلَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللهُ شِرَارَكُمْ عَلَى خِيَارِكُمْ فَيَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ»[3].

وجاء في الحديث الشريف أنّ رجلاً جاء إلى أميرالمؤمنين عليه السلام وشكا إليه عدم استجابة دعائه، وقال: لماذا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فذكر الإمام عليه السلام في هذا الحديث الشريف ثمانية شروط لاستجابة الدعاء، وقد ورد بعضها في الأحاديث المذكورة

١. مستدرك الوسائل، ج ٥، ص ٢١٦، ح ١١ وكتب عديدة أخرى.

٢. بحار الأنوار، ج ٩٠، ص ٣٧٢.

٣. أصول الكافي، ج ٥، ص ٥٦، ح ٣.

أعلاه[1].

ولمزيد من التوضيح راجع كتاب «المفاتيح الجديدة» ص ٢١ إلى ٢٥ والتفسير الأمثل في ذيل الآية الشريفة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي...﴾[2].

١. سفينة البحار، ج ١ بحث الدعاء.

٢. سورة البقرة، الآية ١٨٦.

القسم العشرون

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا، وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ، وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ، وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ وَدَارِ بُلْغَةٍ، وَطَرِيقٍ إِلَىٰ الْآخِرَةِ، وَأَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ، فَكُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَىٰ حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ.

الشرح والتفسير

الغاية من الخلق

يتحدّث الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصية عن عدّة أمور مهمّة حول الغاية من خلق الإنسان وحقيقة الدنيا والحياة وموقف الإنسان في مقابل الموت، حيث تمثّل كلّ هذه التوصيات تحذيراً لولده وجميع الأشخاص الذين يقرأون هذه الوصيّة.

بداية يقول: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّكَ إِنَّمَا خُلِقْتَ لِلْآخِرَةِ لَا لِلدُّنْيَا وَلِلْفَنَاءِ لَا لِلْبَقَاءِ وَلِلْمَوْتِ لَا لِلْحَيَاةِ**».

في منظار الإسلام والأديان الإلهيّة أنّ الهدف من خلق الإنسان ليس هو الحياة في هذه الدنيا، بل إنّ هذه الحياة تعتبر ممرّاً وقنطرةً يعبر منها الإنسان إلى الآخرة، وسوقاً للتجارة لكسب الزاد والمتاع، ونهاية هذه الحياة الدنيوية ستنتهي إلى الموت والفناء، ولا يبقى حتى الأنبياء الإلهيّون.

وبالنسبة للغرض من خلق الإنسان وردت تعبيرات مختلفة في الآيات والروايات الشريفة، والقرآن الكريم يقول في سورة الذاريات: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ

وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

وعلى هذا الأساس فإنّ الهدف من خلق الإنسان كما تبيّن الآية الشريفة هو العبوديّة والعبادة لله تعالى.

ويقول في الآية الثانية من سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾.

ومن المعلوم أنّ الاختبار الإلهيّ يهدف إلى تحسين عمل الإنسان في واقع الحياة والعبوديّة لتهذيب النفوس، ونتيجة كلّ ذلك نيل السعادة الأبديّة في الآخرة، ومن هذا المنطلق تعود جميع الأهداف إلى هدف واحد.

ثمّ يشير الإمام عليه السلام إلى النقطة الثانية، يعني حقيقة الدنيا ومكانتها في الرؤية الكونية ويقول: «وَأَنَّكَ فِي قُلْعَةٍ[2] وَدَارِ بُلْغَةٍ[3]، وَطَرِيقٍ إِلَى الْآخِرَةِ».

وهنا يبيّن الإمام عليه السلام الهدف من خلق الإنسان وكذلك ماهية الحياة الدنيوية، فالهدف من خلق الإنسان ضمان الحياة السعيدة في الآخرة لا مجرّد الحياة في هذه الدنيا، ومن هنا فإنّ نهاية الحياة الدنيا هي الفناء لا البقاء، وعلى حدّ تعبير القرآن: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[4]، وهذا المعنى انعكس في الكثير من الآيات القرآنية.

أمّا تعبير الإمام عليه السلام عن الدنيا بأنّها «قُلْعة» (وهي المحلّ والمنزل الذي ينبغي مغادرته)، وعبارة «بُلغة» (المحلّ الذي ينبغي التزوّد منه وتحصيل الزاد والمتاع) فهذه الحقيقة انعكست أيضاً في الآيات القرآنية من قبيل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ

---

١. سورة الذاريات، الآية ٥٦.

٢. «قُلْعة» لها معانٍ كثيرة: وتطلق على الإنسان الضعيف والشخص العاجز عن حفظ نفسه على سرج الجواد، ولا يقدر على حفظ أمواله فلا تبقى بيده، كذلك تطلق كلمة «قُلعة» على المكان الذي ينبغي مغادرته، وفي العبارة أعلاه جاءت بالمعنى الأخير، وأصلها من مادة «قلع» و«يقلع».

٣. «بُلْغة» بمعنى الزاد المتاع الذي يوصل الإنسان إلى مقصده، وهو من «البلوغ» و «بلاغ»، لأنّ الزاد يبلغ الإنسان إلى مقصده.

٤. سورة العنكبوت، الآية ٦٤.

وإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[1].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ﴾[2].

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ﴾[3].

فكلّ هذه الآيات ناظرة إلى هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى:

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزّادِ التَّقْوىٰ﴾[4] يشير أيضاً إلى دار «دار بلغة».

وعندما ننظر إلى الدنيا والآخرة من هذه الزاوية وبهذا المنظار الذي بيّنه الإمام عليه السلام في هذه العبارة، فإنّ رؤيتنا للحياة ستتبدّل، فلا يبقى أثر للحرص والطمع، وسوف تزول الآمال الطويلة والطموحات الموهومة، وينتهي التكالب على حطام الدنيا والنزاع مع أهلها لجمع الأموال والثروات ولا يبقى معنى للبخل واكتناز الأموال، بل كلّ شيء يكون لله وفي سبيل الله ومن أجل نيل رضا الله تعالى ولتحقيق السعادة الأبدية في الآخرة.

ويشير الإمام عليه السلام في النقطة الثالثة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الموت من ورائك وسوف تقع في شباكه حتماً، فلا مفرّ منه لكلّ حيّ: «وَأَنَّكَ طَرِيدُ[5] الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَنْجُو مِنْهُ هَارِبُهُ، وَلَا يَفُوتُهُ طَالِبُهُ، وَلَا بُدَّ أَنَّهُ مُدْرِكُهُ».

والتعبير بـ «طريد» يعني الشخص الهارب ممّن يتعقّبه، أو الصيد الذي يتعقّبه الصيّاد، وهذا تعبير بليغ جدّاً، وكأنّ الإنسان في بداية عمره يفرّ من الموت الذي يريد اصطياده، فتارةً يصطاده في مرحلة الطفولة، وأخرى في مرحلة الشباب، وثالثة في مرحلة الشيخوخة، فلا أحد يستطيع النجاة والهرب من هذا الصياد كما يقول القرآن الكريم: ﴿أَيْنَما تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾[6].

---

١. سورة الزمر، الآية ٣٠.

٢. سورة العنكبوت، الآية ٥٧.

٣. سورة الرحمن، الآية ٢٦.

٤. سورة البقرة، الآية ١٩٧.

٥. «طريد» بمعنى «مطرود» أو الصيد الذي يتبعه الصياد وهو من مادة «طرد» بمعنى دفعه إلى الهرب.

٦. سورة النساء، الآية ٧٨.

وفي آية أخرى يقول: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾[١].

أجل، فالإنسان مهما شكّ في أيّ شيء فإنّه لا يستطيع الشكّ في هذه الحقيقة الحاسمة، وهي أنّه سيأتي اليوم الذي لابدّ أن يرحل من هذا العالم، وهذا اليوم غير معلوم، لا في تاريخه ولا في الساعة أو الدقيقة، فربّما يكون بعيداً وربّما يكون قريباً جدّاً، اليوم أو غد، والملفت أنّه لا يوجد أيّ استثناء لهذا القانون، فأصحاب القدرة والثروة والأطبّاء الحاذقون وحتّى الأنبياء والأولياء يخضعون لهذا القانون، والقرآن الكريم يخاطب النبيّ الأكرمﷺ بقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾[٢].

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام يشير إلى نقطة مهمّة هي آخر تحذير في هذا المقطع من الوصيّة ويقول: «فَكُنْ مِنْهُ عَلَىٰ حَذَرِ أَنْ يُدْرِكَكَ وَأَنْتَ عَلَىٰ حَالٍ سَيِّئَةٍ، قَدْ كُنْتَ تُحَدِّثُ نَفْسَكَ مِنْهَا بِالتَّوْبَةِ، فَيَحُولَ بَيْنَكَ بَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنْتَ قَدْ أَهْلَكْتَ نَفْسَكَ».

وفي هذا التحذير والإنذار يلفت الإمامعليه السلام نظر ولده إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ زمان الموت مبهم وغير معلوم في كلّ الأحوال، فأحياناً يرتكب الإنسان معصيةً وينوي التوبة وتطهير صحيفة أعماله من لوث هذه المعصية بعد ذلك، ولكنّ الموت يفاجئه بغتة ويسلب منه هذه الفرصة، وكلّنا رأينا أو سمعنا في حياتنا بعض الأشخاص الذين أرادوا القيام بأعمال حسنة أو سيئة ولكنّ الموت باغتهم في تلك اللحظة فلم يستطيعوا إنجاز ما عزموا عليه، ولم ينالوا بغيتهم.

وفي هذه الأيّام التي نكتب فيها شرحاً لهذه الوصيّة سمعنا خبراً من أجهزة الإعلام أنّ مهرجاناً أُقيم في بلدنا لأحد العلماء المعروفين، وقد اشترك في ذلك المهرجان جماعة من الشخصيات والمدعوين وجلس ذلك العالم وهو ينتظر بفارغ الصبر استلام الجائزة، وفجأة في ذلك المكان حان أجله وأُصيب بسكتة قلبية، وانتهى كلّ شيء[٣].

---

١. سورة الأحزاب، الآية ١٦.

٢. سورة الزمر، الآية ٣٠.

٣. كان المرحوم الدكتور باقر آية الله زاده الشيرازي استاذاً قديراً في مجال الترميم والعمران، وله إعتقادات ☜

ونقرأ في رواية المفضّل المعروفة أنّ الإمام الصادقعليه السلام يقول للمفضّل: إذا كنت تسأل لماذا جعل الله تعالى مدّة حياة الإنسان مستورة وخفيّة وربّما حان أجله في ساعة يمارس فيها الإثم ويقترف المعصية؟ فالجواب: الغرض من ذلك أنّ الإنسان، مع أنّه لا يعرف زمان موته، إلّا أنّه يتحرّك في خطّ المعصية وارتكاب الإثم، ولو كان يعلم زمان موته وحدود أجله، وكان يأمل بطول البقاء، فإنّه سيتجرّأ على المعاصي أكثر، ومن هنا فإنّ توقّع الموت في كلّ لحظة وعلى أيّة حال أفضل من اطمئنانه بالبقاء، وعندما نرىٰ أنّ هذا الانتظار لا ينفع مع بعض الناس فإنّه مؤثّر قطعاً في البعض الآخر، حيث يبتعدون عن الذنوب والمعاصي ويتحرّكون في خطّ الطاعة والمسؤولية والأعمال الصالحة، وينفقون أموالهم على الفقراء والمساكين ويهتمّون ببناء آخرتهم وإعمارها[1].

﴿﴾

دينية قوية وعميقة، وقد ابتدأ بهذه الآية الشريفة ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (الكهف، الآية ٣٠) في محاضرته في ذلك المهرجان.

١. انظر: بحار الأنوار، ج ٣، ص ٨٤، (مع التلخيص والنقل بالمعنى).

القسم الحادي والعشرون

يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ، وَلَا يَأْتِيَكَ بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ. وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَىٰ مِنْ إِخْلَادِ أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ عَلَيْهَا، فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا، وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا، فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ، يَهِرُّ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا. نَعَمٌ مُعَقَّلَةٌ، وَأُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ، قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا. سُرُوحُ عَاهَةٍ بِوَادٍ وَعْثٍ، لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ يُسِيمُهَا. سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَىٰ وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَىٰ، فَتَاهُوا فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا وَاتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا.

الشرح والتفسير

الدنيا الخدّاعة وأهلها

في هذا المقطع من الوصيّة يحذّر الإمام عليه السلام ولده من الركون إلى الدنيا ويؤكّد عليه أن يذكر الموت ويستعدّ له ولا يغترّ بأفعال وسلوكيات أهل الدنيا.

بداية يقول: «يَا بُنَيَّ أَكْثِرْ مِنْ ذِكْرِ الْمَوْتِ، وَذِكْرِ مَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ، وَتُفْضِي بَعْدَ الْمَوْتِ إِلَيْهِ، حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ وَقَدْ أَخَذْتَ مِنْهُ حِذْرَكَ[1]، وَشَدَدْتَ لَهُ أَزْرَكَ[2]، وَلَا يَأْتِيَكَ

١. «حذر» بمعنى التوقي من الخطر والانتباه في مقابل المستجدات.

٢. «أزر» في الأصل من «إزار» وهو اللباس، وبخاصة اللباس الذي يرتديه الإنسان على وسطه، وبهذه المناسبة توحي هذه الكلمة بالتأييد والقدرة وامتلاك القوة.

بَغْتَةً فَيَبْهَرَكَ[١]».

وهذه هي الحقيقة الواضحة التي يعيش غالبية الناس الغفلة عنها، فالجميع يعلم أنّ عمر الإنسان ليس له تاريخ محدّد حسب الظاهر، وأنّه ربّما يواجه الموت في كلّ لحظة وفي كلّ زمان، بسبب الحوادث الخارجية أو الحوادث الباطنية (الأمراض المفاجئة) على مستوى الفرد والجماعة، والكثير من الناس يدركون هذه الحقيقة ويرون ظاهرة الموت، إلّا أنّهم غافلون عنها، وأحياناً يغرقون في تفكير عميق عندما يشتركون في مجالس العزاء لأحد المفقودين من أعزّائهم وأرحامهم، وربّما قرّروا في تلك اللحظة التهيّؤ لسفر الآخرة والاهتمام لتحصيل الزاد لهذا السفر المصيريّ، ولكنّهم ما أن يخرجوا من ذلك المجلس حتّى يوضع هذا القرار في زاوية النسيان.

ويؤكّد الإمام عليه السلام في كلامه هذا على أنّك لا ينبغي أن تنسى هذه الحقيقة الملموسة، وعليك بالاستعداد لاستقبال الموت، واحذر من أن يباغتك فجأة وأنت غير مستعدّ له.

ومرّ علينا قول الإمام عليه السلام في الخطبة ١١٤ في نهج البلاغة: «فَبَادِرُوا الْعَمَلَ وَخَافُوا بَغْتَةَ الأَجَلِ».

وفي الديوان المنسوب للإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام نقرأ أشعاراً عميقة المعنى في هذا المجال منها:

يا مَنْ بِدُنْياهُ اشْتَغَل ... قَدْ غَرَّهُ طُولُ الأَمَل
اَلْمَوْتُ يَأْتِي بَغْتَةً ... وَالْقَبْرُ صُنْدُوقُ الْعَمَل

ويواصل الإمام عليه السلام كلامه في تحذير ولده من الاغترار بالدنيا والانخداع بأعمال أهلها فإنّهم كالحيوانات المفترسة يتكالبون على ملذّاتها وزخارفها، ويقول: «وَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِمَا تَرَىٰ مِنْ إِخْلَادِ[٢] أَهْلِ الدُّنْيَا إِلَيْهَا، وَتَكَالُبِهِمْ[٣] عَلَيْهَا».

---

١. «يبهر» من «البهر» على وزن «بحر» بمعنى حالة تجعل الإنسان مبهوتاً أمام الشيء.

٢. «إخلاد» من «الخُلد» و «خلود» بمعنى السكون المستمر في مكان واحد. و «الإخلادِ إلى الأرض» بمعنى الالتصاق بها، و «الإخلادِ إلى الدُّنيا» يعني التمسك بأمور الدنيا والتشبث بها.

٣. «تكالب» يمعنى الهجوم لتحصيل شيء، وهي في الأصل من مادة «كلب».

ثمّ يذكر دليلين لهذا الكلام ويقول: «فَقَدْ نَبَّأَكَ اللهُ عَنْهَا وَنَعَتْ[1] هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا».

وهنا آيات عدّة في القرآن الكريم تتحدّث عن وهميّة الدنيا وعدم ثباتها، منها: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[2].

وهذا المثال ناظر للأشخاص الذين يطوون مراحل العمر المختلفة (الطفولة والشباب والشيخوخة)، ولكنّ الكثير منهم لا يصلون لمراحل متقدّمة، بل يحين أجلهم ويغادرون الدنيا في المراحل الأُولى أو المتوسطة لأسباب وعوامل مختلفة.

وأمّا قوله: «وَنَعَتْ هِيَ لَكَ عَنْ نَفْسِهَا، وَتَكَشَّفَتْ لَكَ عَنْ مَسَاوِيهَا»، فالمقصود أنّ الدنيا تحدّثت معك بلسان الحال، وهذا ما ورد في كلام آخر للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال: «أَيُّهَا الذَّامُّ لِلدُّنْيَا الْمُغْتَرُّ بِغُرُورِهَا الْمَخْدُوعُ بِأَبَاطِيلِهَا... مَتَى غَرَّتْكَ! أَ بِمَصَارِعِ آبَائِكَ مِنَ الْبِلَى، أَمْ بِمَضَاجِعِ أُمَّهَاتِكَ تَحْتَ الثَّرَىٰ!»[3].

وكما قال الشاعر:

هِيَ الدُّنْيا تَقُولُ لِمَنْ عَلَيْها حَذارِ حَذارِ مِنْ بَطْشي وَفَتْكي
فَلاَ يَغْرُرْكُمْ حُسْنُ ابْتِسامِي فَقَولي مُضْحِكٌ وَالْفِعْلُ مُبْكي[4]

أجل، فبريق الدنيا يثير في الإنسان النشاط والحركة، ولكن عندما يتعمّق الإنسان في حالاتها، يرى كثرة المتغيّرات فيها، وعدم وفائها وعدم ثباتها على حال، ويقوده التفكّر والتدبّر في أمرها للبكاء والحزن.

ويستطرد الإمام عليه السلام في كلامه في بيان الدنيا وحالاتها، فيقسّم أهل الدنيا إلى

---

١. «نعت» من مادة «نعي» على وزن «سعي» وتعني الإخبار بموت شخص.

٢. سورة الكهف، الآية ٤٥.

٣. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٣١.

٤. إرشاد القلوب، ج ١، ص ٢١.

أربع طوائف ويقول: «فَإِنَّمَا أَهْلُهَا كِلَابٌ عَاوِيَةٌ[١]، وَسِبَاعٌ ضَارِيَةٌ[٢]، يَهِرُّ[٣] بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ، وَيَأْكُلُ عَزِيزُهَا ذَلِيلَهَا، وَيَقْهَرُ كَبِيرُهَا صَغِيرَهَا، نَعَمٌ[٤] مُعَقَّلَةٌ[٥]، وَأُخْرَىٰ مُهْمَلَةٌ[٦]».

والحقيقة أنّ هذا التقسيم رائع ودقيق جدّاً:

إنّ الإمام عليه السلام يشبّه طائفة من الناس من أهل الدنيا بالكلاب التي اجتمعت حول جيفة وكلّ واحد منها يريد الاستحواذ عليها، فينبح على سائر الكلاب ويريد إبعادها عن هذه الجيفة، والمصداق البارز لهذه الطائفة الأثرياء والمترفين الذين يعيشون الغفلة عن الله تعالى ويسعون دوماً لجمع الثروات واكتناز الأموال وإقصاء الآخرين عن طريقهم، فأحياناً يصرخون بوجوههم، وأُخرى يلتجئون إلى المحاكم ويسعون من خلال المحامين المنحازين أن يستحوذوا على أموال الآخرين بصيغ قانونية، ونرى مثل هذه الحالة من التنافس بين الحكومات والدول من خلال الحرب الباردة وأجهزة الإعلام الكاذب حيث يسعون لاحتكار أسواق بلدان العالم الثالث والهيمنة والسيطرة على ثروات الشعوب الأخرى.

وطائفة من أهل الدنيا يتمثّلون في عصرنا بالحكومات الاستكبارية وأصحاب القدرة والنفوذ، (أو الأثرياء الذين يدعمون مثل هذه الحكومات) فنراهم يعيشون دوماً حالات التنافس غير المشروع ويسعون لنهب مصادر الثروة من الآخر، وفي كثير من الأحايين يشعلون الحروب المدمّرة من أجل التوصّل إلى مقصودهم، ويسفكون دماء الآف الأبرياء ويدمّرون المدن والقرى، أجل، هؤلاء الذئاب العاوية

---

١. «عاوِيَة» بمعنى الكلاب التي تعوي.

٢. «ضارِيَة» بمعنى المتوحشة، وهي من مادة «ضرو» على وزن «ضرب» وتعني حالة التوحش في النفس.

٣. «يَهِرّ» من «الهرير» وتعني العواء والنباح.

٤. «نعَم» الدواب وغالباً تطلق هذه الكلمة على الإبل (وتأتي هذه المفردة أحياناً بمعنى المفرد أو أخرى بمعنى الجمع، وفي هذه الجملة تشمل الإبل والبقر والغنم).

٥. «مُعَقّلة» وهي المشدودة بالعقال، والعقال حبل خاصّ تربط به رجل البعير حول ركبته.

٦. «مُهمَلة» يعني المتروكة، وهنا تعني الحيوان المتروك لحاله.

يتصارعون فيما بينهم على جيفة الدنيا، ويسحق الأقوياء منهم حقوق الضعفاء، ويتحرّك الكبار في إزاحة الصغار من طريقهم.

أمّا الطائفة الثالثة، فهم جماعة لا يملكون شيئاً من النفوذ والقدرة، ولكن نراهم لا يمتنعون من أية ذلّة من أجل تحقيق متاع الدنيا، فيتعاملون مع أصحاب النفوذ والمستكبرين من موقع العبودية والخنوع والخضوع.

الطائفة الرابعة تعيش كالحيوانات المتمرّدة والمتوحّشة التي تعيش في البراري والقفار، وعلى حدّ تعبير الإمام عليه السلام في كلامه: «قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا، وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا سُرُوحٌ[1] عَاهَةٍ[2] بِوَادٍ وَعْثٍ[3]».

ثمّ يضيف: «لَيْسَ لَهَا رَاعٍ يُقِيمُهَا، وَلَا مُسِيمٌ[4] يُسِيمُهَا، سَلَكَتْ بِهِمُ الدُّنْيَا طَرِيقَ الْعَمَىٰ، وَأَخَذَتْ بِأَبْصَارِهِمْ عَنْ مَنَارِ الْهُدَىٰ فَتَاهُوا[5] فِي حَيْرَتِهَا، وَغَرِقُوا فِي نِعْمَتِهَا، اتَّخَذُوهَا رَبّاً، فَلَعِبَتْ بِهِمْ وَلَعِبُوا بِهَا، وَنَسُوا مَا وَرَاءَهَا».

هؤلاء هم الفئة التي تعيش في كلّ زمان بخاصّة في عالمنا المعاصر، حيث تتّخذ من العالم ميداناً لجولاتها وتتحرّك في كلّ مكان على مستوى الإفساد والتخريب، ويعيشون حالة الشغف اللامحدود بالمال والثروة والجاه والمقام، قد أعموا عيونهم عن رؤية الحقائق، وأصمّوا آذانهم عن سماعهم كلمة الحقّ وغرقوا في النعم المادية من الذهب والثروات والمجوهرات والدرهم والدينار، وهؤلاء عبدة الدرهم والدينار الذين يشعلون نار الحرب من أجل تحقيق مطامعهم الدنيوية، وأحياناً يصنعون أسلحة الدمار الشامل ويبيعونها بأثمان باهظة لهذا وذاك ويوقدون نار الفتنة بينهم، فهؤلاء أضحوا أُلعوبة بيد الدنيا والدنيا أُلعوبة بيدهم، ومن هذه الجهة نسوا الله

---

١. «سُرُوح» جمع «سرح» على وزن «شرح» وهو الحيوان الذي ترك في الصحراء ليأكل ويرعى.

٢. «غاهة» بمعنى الآفة والعيب.

٣. «وَعْث» يعني الطريق التي يسير فيها الشخص بصعوبة.

٤. «مُسيم» وهو الشخص الذي يسوق الحيوانات للرعي، وهي من «السوْم» على وزن «صوم» ويعني الرعي.

٥. «تاهوا» من «التيه» وهو الحيرة والتيه.

والمعاد واليوم الآخر تماماً.

والإمام عليه السلام في هذه الكلمات يحذّر ولده وفلذة كبده من هذه الطوائف الأربع ويدعوه بالابتعاد عنهم، ليس لكونه ابن الإمام فقط، فالمخاطب للإمام عليه السلام يمتدّ ليشمل جميع أفراد البشر.

و«عقول» في جملة «قَدْ أَضَلَّتْ عُقُولَهَا» جمع عقل وهو الفهم والدراية، ولكنّ البعض ذهب إلى أنّها جمع عقال (وهو الحبل الذي يعقل به الجمل) وحينئذٍ يكون مفهوم العبارة: هؤلاء قد أضلّوا الضوابط التي تضبط أمورهم في الحياة، وبذلك يعيشون الحيرة والتيه في صحراء الحياة، ولكن مع الالتفات إلى الجملة الثانية «وَرَكِبَتْ مَجْهُولَهَا» فإنّ المعنى الأوّل أنسب، مضافاً إلى أنّ «عقول» جمع عقل لا جمع عِقال، لأنّ جمع عقال «عُقل» على وزن قفل و «عُقُل» على وزن كُتب.

وعلى أيّة حال فالتقسيم الذي ذكره الإمام عليه السلام لأصناف أهل الدنيا وطوائفهم المختلفة يعتبر تقسيماً دقيقاً ورائعاً بحيث يستطيع المرء تشخيص هذه الفئات بسهولة ويتحرّك بحذر ويقظة بعيداً عنهم، وهذه الطوائف والفئات:

١. فئة الفوضويين وأصحاب وسائل الإعلام المضلّلة.

٢. فئة الوحوش الذين يتكالبون على ثروات الدنيا ويرومون السيطرة عليها.

٣. فئة العبيد الذين يتحرّكون في خطّ الذلّة والمهانة من أجل التوصّل إلى المال والمقام.

٤. فئة الأراذل وأتباع الشهوات الذين تركوا عقولهم وساروا في متاهات الحياة، وهؤلاء يعبدون الذهب والفضة والدرهم والدينار، وغايتهم من الحياة إشباع الغرائز وطلب الملذّات الرخيصة.

القسم الثاني والعشرون

رُوَيْداً يُسْفِرُ الظَّلَامُ، كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ، يُوشِكُ مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ! وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً.

الشرح والتفسير

السائرون بمركب الليل والنهار

في هذا المقطع من الوصية يحذّر الإمام عليه السلام مرّة أخرى ولده العزيز من هجوم الموت ونهاية العمر، ويقول: رُوَيْداً[1] يُسْفِرُ[2] الظَّلَامُ».

والمقصود من الظلام في هذه العبارة الجهل بحال الدنيا وتقلّباتها حيث يتصوّر بعض الجهّال ثباتها وديمومة حالاتها، ولكن لا تمضي فترة حتّى يواجهون الموت بهيئته الموحشة.

ثمّ يشبّه الإمام عليه السلام، أهل هذا العالم بالمسافرين الذين يتحرّكون باتّجاه المنزل المقصود ويقول: «كَأَنْ قَدْ وَرَدَتِ الْأَظْعَانُ[3]».

---

١. «رُويداً» من مادة «رود» على وزن «غود» في الأصل تعني الغدو والرواح والسعي لأداء عمل معيّن بلطافة وليونة، وهذه المفردة تأتي بمعنى المصدر وتقترب من التصغير، يعني أملهني وفترة وجيزة، والسبب في نصب رويداً أنّها مفعول مطلق لفعل محذوف، وكأنّها في الأصل يقال: «أمهل إمهالاً قليلاً».

٢. «يُسْفِر» من مادة «سفر» على وزن «فقر» وتعني كشف الغطاء وإزاحة اللثام، ولذلك يقال للمرأة غير المحجبة سافرة، وتستعمل هذه الكلمة في طلوع الصبح وكأنّ الصبح يكشف عن لثامه ويزيح نقابه ويشرق، وهنا ظلام فاعل، وفي الحقيقة أنه شبه الصبح بموجود نورانيّ قد حجب بظلمات الجهل ولكن يوشك أن يزاح النقاب عنه.

٣. «أظعان» تأتي أحياناً جمع «ظعينة» بمعنى الهودج الذي يوضع على الجمل أثناء السفر للركوب، وورود الأظعان يعني أنّ المسافرين أوشكوا على الوصول.

ثمّ يضيف: «يُوشِكُ[1] مَنْ أَسْرَعَ أَنْ يَلْحَقَ»، فمن يسير بسرعة في هذا السفر يوشك أن يصل إلى الموت.

والمراد من «مَنْ أَسْرَعَ» جميع أفراد البشر لا طائفة خاصّة، لأنّ جميع الناس يتحرّكون بسرعة باتّجاه المنزل النهائي، وهو نهاية الحياة.

ويطرح الإمام عليه السلام تشبيهاً جميلاً عن الناس في هذا العالم ويقول: «وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ مَنْ كَانَتْ مَطِيَّتُهُ[2] اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، فَإِنَّهُ يُسَارُ بِهِ وَإِنْ كَانَ وَاقِفاً، وَيَقْطَعُ الْمَسَافَةَ وَإِنْ كَانَ مُقِيماً وَادِعاً[3]».

وهو إشارة إلى أنّ الحركة باتّجاه نهاية العمر هي حركة إجباريّة وحتميّة لا اختياريّة، فالجميع يركبون مطيّة الزمان ويتحرّكون بيد التقدير الإلهيّ، وسرعان ما يصلون ـ شاؤوا أم أبوا ـ إلى نقطة النهاية، وإن كان الكثير منهم يعيشون الغفلة عن هذا المصير.

وهناك تعابير أخرى وردت في سائر كلمات الإمام عليه السلام في هذا المجال، منها قوله: «أَهْلُ الدُّنْيَا كَرَكْبٍ يُسَارُ بِهِمْ وَهُمْ نِيَامٌ»[4].

ويقول في مورد آخر: «نَفَسُ الْمَرْءِ خُطَاهُ إِلَى أَجَلِهِ»[5].

وفي حديث آخر يقول أميرالمؤمنين عليه السلام: «إِنَّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ يَعْمَلاَنِ فِيكَ فَاعْمَلْ فِيهِمَا وَيَأْخُذَانِ مِنْكَ فَخُذْ مِنْهُمَا»[6].

وينقل ابن أبي‌الحديد في هذا المورد قصّة جميلة عن أستاذه ويقول: واستقرأني أبو الفرج محمّد بن عبّاد (رحمه الله) وأنا يومئذ حدث، هذه الوصيّة فقرأتها عليه من

١. «يُوشِك» من مادة «وَشْك» على وزن «فقر» وتعني السير السريع، وعلى ضوء ذلك فإنّ مفهوم هذه العبارة أنّ اللحوق سرعان ما يتحقق (والصحيح في يوشك أن تقرأ بكسر الشين وأحياناً تقرأ بفتحها).

٢. «مَطيّة» من مادة «مطو» على وزن «عطف» تعني الحركة الجدية لغرض النجاة في المسير.

٣. «وادع» هو الشخص الذي يجلس بهدوء وسكون، وهذه الكلمة من «الوداعة» أي السكون والهدوء.

٤. نهج‌البلاغة، الكلمات القصار، ٦٤.

٥. المصدر السابق، ٧٤.

٦. غرر الحكم، ح ٢٧٨٩.

حفظي، فلما وصلت إلى هذا الموضع صاح صيحةً شديدة وسقط، وكان جبّاراً قاسي القلب (أي لا يتأثّر بسرعة بالمواعظ)[1].

تأمّل

السالكون إلى العالم الآخر!

في هذه العبارات يشبّه الإمام عليه السلام الناس بالمسافرين الذين يركبون مراكب سريعة، وهذه المراكب تقودهم إلى المنزل المقصود والنهائيّ، ولا شكّ أنّ جماعة من هؤلاء المسافرين يتوقّفون في محطّات وسط الطريق، وجماعة أخرى يستمرّون في مسيرتهم إلى آخر عمرهم الطبيعي، والعجيب أن لا أحد يعلم في أيّ محطة يتوقّف وينزل.

وهناك أمران مسلّمان في هذا السفر، أحدهما: أنّ هذا السفر غير اختياريّ وأنّه يملك نهاية مقرّرة سلفاً، فجماعة يطوون هذا السفر في حال الغفلة والسكر والنوم، وجماعة آخرون يتحرّكون من موقع اليقظة والانتباه، وهناك جماعة ثالثة يتحرّكون بحالة من اليقظة تارة والغفلة تارة أخرى، وبعد نزولهم في محطّات الطريق سيجدون نعماً وفيرة وبركات كثيرة في كلّ محطة، فيتزوّدون منها لمواصلة المسيرة. فأمّا من يطوي طريقه في حال الغفلة والنوم، أو لا يدرك جيّداً مواقعه في هذا الطريق، وكما ورد في الحديث الشريف: «اَلنّاسُ نِيامٌ إذا ماتُوا انْتَبِهُوا»[2]، فإنّهم يصلون إلى المنزل النهائي بأيدٍ خالية وجعبة خاوية.

والأمر الآخر: إنّ الأنبياء والرسل الإلهيين مكلّفون بتحذير هؤلاء المسافرين وإثارة انتباههم في هذا الطريق ويهتفون بالغافلين والنائمين أن يستيقظوا من غفلتهم وينتبهوا من غفوتهم ويتزوّدوا من المنازل والمحطّات في أثناء الطريق بما يحتاجونه

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ٩١.

٢. بحار الأنوار، ج ٤، ص ٤٣.

لمواصلةالمسير، لأنّهم عندما يصلون إلى المقصد فلا يمكنهم حينئذٍ توفير ما يحتاجون من وسائل ومتاع، والأهمّ من ذلك أنّ طريق العودة من هذا المسير موصدة وممتنعة.

فجماعة يؤمنون بهذه التوصيات والنصائح ويستقبلون كلام الأنبياء والأولياء بكلّ عواطفهم وقلوبهم، وجماعة أخرى يتعاملون مع هذه التعاليم السماوية من موقع الانكار، أو يستمعون إليها من غير تطبيق، وعندما يصلون إلى المقصد سيجدون الحقيقة الحاسمة أمامهم، فترتفع أصواتهم بالحسرة ويقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، ولكن، ولات حين مناص.

---

١. سورة الأنعام، الآية ٢٧.

القسم الثالث والعشرون

وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ، وَأَنَّكَ فِي سَبِيلِ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ. فَخَفِّضْ فِي الطَّلَبِ. وَأَجْمِلْ فِي الْمُكْتَسَبِ، فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَى حَرَبٍ؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ. وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَى الرَّغَائِبِ، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً. وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً. وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ؟! وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ. وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ.

الشرح والتفسير

لا تذلّ نفسك أبداً

في هذا المقطع من الوصيّة يشير الإمام عليه السلام إلى ستّ نقاط مهمّة تمثّل كلّ واحدة منها نصيحة للسائرين في طريق الحقّ والمعنوية، ولكن قبل ذلك يذكر الإمام عليه السلام مقدّمة ويقول: «وَاعْلَمْ يَقِيناً أَنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ، وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ»، أنت لا تستطيع أن تتجاوز ما تقرّر من عمرك، فأنت تسير في نفس الطريق الذي سار فيه القدماء، فأولئك ماتوا وذهبوا لحال سبيلهم وأنت سوف تلحق بهم.

ثمّ يستنتج الإمام عليه السلام هذه التوصية: «فَخَفِّضْ[1] فِي الطَّلَبِ وَأَجْمِلْ[2] فِي

---

١. «خفض» من مادة «خفض» يعني جرّ الشيء إلى الأسفل في مقابل رفعه إلى الأعلى، وهنا جاءت بمعنى الطلب القليل وترك الطمع في الكثير.

٢. «أجمل» من «الإجمال» وهو الإعتدال في العمل وعدم الافراط.

الْمُكْتَسَبِ».

جملة: «لَنْ تَبْلُغَ أَمَلَكَ» تبيّن حقيقة واضحة وهي أنّ كلّ إنسان في هذا العالم لن يستطيع أنّ يحقّق جميع آماله وطموحاته في أرض الواقع والحياة، ومن هذا المنطلق لا معنى للحرص في طلب الرزق والإصرار في تحصل المكتسبات الدنيوية.

وجملة «وَلَنْ تَعْدُوَ أَجَلَكَ» إشارة إلى أنّ عمر الإنسان محدود على أيّة حال ولا أحد يستطيع أن يغادر هذا العالم قبل وقته المقرّر وقبل حلول أجله، فإذا كان الأمر كذلك، فلماذا يحرص الإنسان على اكتساب الأموال ويستنزف طاقاته أكثر من اللازم في اقتناء الماديات.

ولفظتا: «خَفِّضْ» و «أَجْمِلْ» كلاهما تشيران إلى هذه الحقيقة، وهي لزوم ترك الحرص لاكتساب الرزق، فالمفروض أن يسلك الإنسان طريق الاعتدال والتأنيّ في الطلب، وهذا التعبير لا يعني أبداً ترك السعي وبذل الجهد لاكتساب الرزق الحلال.

ويواصل الإمامعليه‌السلام كلامه في بيان هذه الحقائق من موقع الاستدلال عليها يقول: «فَإِنَّهُ رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلَىٰ حَرَبٍ[1]؛ فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ بِمَرْزُوقٍ، وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ بِمَحْرُومٍ».

ومثل هذا المضمون ورد في حديث شريف عن النبيّ الأكرمصلى‌الله‌عليه‌وآله أنّه قال: «اَجْمِلُوا في طَلَبِ الدُّنْيا فَإِنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ لِما خُلِقَ لَهُ»[2].

وعبارة: «رُبَّ طَلَبٍ قَدْ جَرَّ إِلىٰ حَرَبٍ» تعتبر على حدّ قول بعض الكتّاب، من أمثال العرب، والمقصود أنّ السعي الكثير ربّما يؤدّي إلى عكس الغرض، وفي ذلك يقول الشاعر:

أُقسمُ باللهِ لَمَصُّ النّوى ... وَشربُ ماء القُلُبِ المالحة

---

١. «حَرَب» وهي الغارة، وهنا جاءت بمعنى الفعل المبني للمجهول يعني من ابتلي بالغارة عليه.

٢. كتاب السنة، عمرو بن ابي عاصم، ص ١٨٢.

أحسنُ بالإنسانِ مِن ذلّةٍ وَمِن سُؤالِ الأوجهِ الكالحة
فاستغنِ بالله تكن ذا غنىً مغتبطاً بالصفقة الرّابحة[1]

ويقول الآخر:

لا تبخَلَنّ بِدُنيا وَهي مُقبلةٌ فَلَيسَ يَنقُصها التَّبذِيرُ والسَّرفُ
وَإن تَولّتْ فَأحرى أن تَجودَ بِها فَالحمدُ مِنها إذا مَا أدبَرتْ خَلفُ[2]

وقوله: «فَلَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ... وَلَا كُلُّ مُجْمِلٍ...» في الواقع بمثابة الدليل على ما ورد في العبارات السابقة في لزوم رعاية الاعتدال في طلب الرزق وتشير إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ السعي الحثيث لا يعني دوماً زيادة الرزق، ولا أنّ رعاية الاعتدال والتأنيّ قلّة الرزق، بل إنّ اللطف الإلهي يقرّر أنّ من توكّل على الله وترك الحرص والطمع وسعىٰ في طلب الرزق بشكل معتدل، فإنّه سيعيش حياة أفضل مقترنة بالسكينة والاستقرار أكثر، ومثل هؤلاء يفتحون المجال للآخرين ليتحرّكوا في طلب الرزق ولا يتعاملون مع الناس من موقع الإقصاء والتهميش أو يضيّقون الخناق عليهم في هذا السبيبل.

ويتحدّث الإمام عليه السلام في التوصية الثانية ويقول: «وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ[3] وَإِنْ سَاقَتْكَ إِلَىٰ الرَّغَائِبِ[4]، فَإِنَّكَ لَنْ تَعْتَاضَ[5] بِمَا تَبْذُلُ مِنْ نَفْسِكَ عِوَضاً».

وهذا إشارة إلى أنّ بعض الرغبات والذنوب النفسانية تتطلّب أحياناً تنازل الإنسان عن كرامته وشخصيّته، فالجدير بالإنسان الذي يعيش الكرامة والحرية أن لا يخضع لمثل هذه الرغبات، ولا يرد نفسه في هذا المسير، فلا ينبغي للإنسان أن

---

١. شرح نهج البلاغة، ج ١٨، ص ٢١٣، والقائل هو بشر بن الحرث المعروف بـ (بشر الحافي) انظر: الكنىٰ والألقاب، ج ٢، ص ١٦٩.

٢. معجم كنوز الأمثال والحكم العربية، ص ٦٢.

٣. «دَنيّة» الشيء الحقير والوضيع، من مادة «الدناءة» بمعنى الوضاعة.

٤. «رغائب» جمع «رغيبة» وتعني الشيء المطلوب والمرغوب.

٥. «تعتاض» من «الإعتياض» وتعني أخذ العوض عن شيء وفي الأصل من «عوض».

يهين نفسه ويحقّق رغباته عن الشخصية أو يتنازل عن طموحاته المعنوية لحساب الميول المادية والدنيوية.

وكما قال الشاعر:

مَا اعْتَاضَ بَاذِلُ وَجْهِهُ بِسُؤَالِهِ عِوَضاً وَلَوْ نَالَ الْغِنىٰ بِسُؤَالِ
وَإِذَا النَّوَالُ إِلَى السُّؤَالِ قَرَنْتَهُ رَجَحَ السُّؤَالُ وَخَفَّ كُلُّ نَوَالِ

وهذا يعني أنّ الإنسان إنّما يريد المال لحفظ حيثيته وسمعته، ولكن لا ينبغي أن ينفق من حيثيته وماء وجهه لكسب المال، ولا يجدر بالإنسان أن يلهث وراء الأمور الماديّة على حساب اهتزاز شخصيته وسمعته.

ويواصل الإمام عليه السلام توصياته لولده ويقول في التوصية الثالثة، ويقول: «وَلَا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِكَ وَقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرّاً».

وهذه العبارة من أهمّ وأروع وصايا الإمام عليه السلام التي ينبغي أن تكتب بماء الذهب وتجعل نصب العين دائماً، أجل إنّ الله تعالى خلق الإنسان حرّاً ولا ينبغي أن يستبدل هذه الحرية بأيّ أثمان ماديّة، بل أحياناً ينبغي أن يعيش الإنسان بإمكانات محدودة ويقنع بالمعاناة والمشقّة حفظاً لماء الوجه ولا يذلّ نفسه ويخضع لمشيئة الآخرين ويتعامل معهم من موقع الخنوع.

وهذا الكلام صادق بالنسبة للأفراد والشعوب كذلك، فما أكثر الشعوب والأقوام الضعيفة والمتخلّفة المستعدّة لبذل حريتها وكرامتها من أجل عوض زهيد، والمستكبرون وقوى الاستعمار يعرفون نقطة الضعف هذه في الشعوب المتخلفة ويعملون على تكريس واقعها المتخلّف للإستيلاء على ثرواتها واستعبادها، بل إنّهم يتحرّكون على مستوى فرض ثقافتهم الخاطئة على هذه الشعوب مقابل بعض المساعدات الاقتصادية الزهيدة، وأحياناً يسلبون منهم دينهم وإيمانهم.

ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون قوّة الشخصية، والشعوب الحرّة يرجّحون الموت على حياة العبودية والذلّة.

وهذه التوصية في الحقيقة من نتائج ولوازم التوصية السابقة التي يقول فيها الإمام عليه السلام: «وَأَكْرِمْ نَفْسَكَ عَنْ كُلِّ دَنِيَّةٍ...».

وأحد المصاديق البارزة لهذا الموضوع هو ما تجلّى في نهضة الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه في كربلاء حيث قال الإمام الحسين عليه السلام في هذه الواقعة التاريخية الهامة «ألاَ وَإنَّ الدعيَّ بْنَ الدَّعي قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ بَيْنَ السِلَّةِ وَالذِّلَّةِ وَهَيْهاتَ مِنَّا الذِلَّةِ»[1].

ويطرح الإمام الصادق عليه السلام هذا المضمون بكامل أبعاده وجهاته ويبيّن أنّ الشخصية الحرّة ينبغي أن تتوفّر فيها خمس خصال قال: «خَمْسُ خِصَالٍ مَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ كَثِيرُ مُسْتَمْتَعٍ: أَوَّلُهَا الْوَفَاءُ وَالثَّانِيَةُ التَّدْبِيرُ وَالثَّالِثَةُ الْحَيَاءُ وَالرَّابِعَةُ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْخَامِسَةُ وَهِيَ تَجْمَعُ هَذِهِ الْخِصَالَ الْحُرِّيَّةُ»[2].

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَمَا خَيْرُ خَيْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِشَرٍّ، وَيُسْرٍ لَا يُنَالُ إِلَّا بِعُسْرٍ».

وهذا يعني أنّ البعض ومن أجل التوصّل إلى غايتهم ومقصودهم يستخدمون كلّ وسيلة تتيح لهم ذلك وتيسّر لهم تحقيق مطلبهم، في حين أنّ تعاليم الإسلام تقرّر أنّ التوصّل إلى الغايات والأهداف لابدّ أن يكون من طريق مشروع وصحيح، وببيان آخر، (الغاية لا تبرّر الوسيلة) وكذلك لا ينبغي لغرض تحصيل السعادة والراحة التوجّه إلى المقدّمات والوسائل التي تضيق الخناق على الإنسان وتجعله يعيش الضغوط النفسية والمالية.

وقد فسّرنا العبارة أعلاه بشكل جملة خبرية، ولكن البعض فسّرها بصيغة الجملة الاستفهاميّة، وطبقاً لهذا التفسير سيكون معنى العبارة: ماذا ينفع ذلك الخير الذي لا يحصل عليه الإنسان إلّا بطريق الشرّ؟ وماذا تنفع الراحة التي تتأتّى بطريق المعاناة

---

١. اللهوف، ص ٩٧؛ بحار الأنوار، ج ٤٥، ص ٨.

٢. الخصال، ج ١، ص ٢٨٤، ح ٣٣.

والعسر؟ ومن الواضح أنّ نتيجة كلا التفسيرين واحد رغم تفاوت البيان وصياغة البلاغة.

ويشبه هذا المعنى ما ورد في كلمات الإمام عليه السلام القصار، حيث يقول: «مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ وَمَا شَرٌّ بِشَرٍّ بَعْدَهُ الْجَنَّةُ»[١].

ويستطرد الإمام عليه السلام في بيان وصيته ويخاطب ولده في خامس توصية من هذه التوصيات: «وَإِيَّاكَ أَنْ تُوجِفَ[٢] بِكَ مَطَايَا الطَّمَعِ، فَتُورِدَكَ مَنَاهِلَ[٣] الْهَلَكَةِ».

وهنا يشبّه الإمام عليه السلام موارد الطمع بمنزلة المطايا والدوابّ الجامحة والمتمرّدة التي إذا ركبها الإنسان فسوف يفقد زمامه واختياره وربّما تقوده إلى وادي الهلكة، والتعبير «مَنَاهِلَ الْهَلَكَةِ» فيه إشارة لطيفة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ الإنسان يتوجّه لمنبع الماء لإرواء عطشه، ولكنّ المنبع الذي تقوده إليه مطايا الطمع ليس فقط لا يروي عطشه منها، بل لا يوجد ماء أساساً وتوجد بدله موارد الهلكة.

وقد جرّبنا في حياتنا مرات عديدة هذا، والتاريخ بدوره يشهد على صحة هذا الكلام وهو أنّ الأشخاص الذين يعيشون حالات الطمع يواجهون الفشل والإخفاق في حياتهم، لأنّ الطمع يعمي عين الإنسان عن رؤية الحقيقة ويصمّ أُذنه عن سماع النصحية، ولا يسمح بتشخيص الطريق القويم من المتاهة، ومحلّ النجاة من الهاوية، بل يمكن القول إنّ أغلب الأشخاص الذين يشتغلون في الشأن التجاري وأمثال ذلك، والذين يواجهون الإخفاق والإفلاس في نهاية المطاف فالسبب في ذلك يعود إلى حالة الطمع والجشع فيهم.

ويشبه هذا المعنى ما ورد الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام المذكور في كتاب بحار الأنوار حيث يقول: «الطَّمَعُ خَمْرُ الشَّيْطَانِ يَسْتَقِي بِيَدِهِ لِخَوَاصِّهِ فَمَنْ

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٨٧.

٢. «تُوجِفُ» من «الإيجاف» وتعني السير بسرعة، وهي في الأصل من «وَجْف» على وزن «حذف» وتعني الحركة السريعة، وبما أنّ هذه الكلمة وردت في العبارة أعلاه متعدية بالباء فتعني الحث على سرعة المسير.

٣. «مَناهل» جمع «مَنْهل» وهو منبع الماء.

سَكِرَ مِنْهُ لَا يَصْحُو إِلَّا فِي أَلِيمِ عَذَابِ اللهِ أَوْ مُجَاوَرَةِ سَاقِيهِ»[١].

وفي حديث آخر يقول رسول الله ﷺ: «اَلطَّمَعُ يُذْهِبُ الْحِكْمَةَ مِنْ قُلُوبِ الْعُلَمَاءِ»[٢].

ونقرأ في حديث آخر عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: «مَا هَدَمَ الدِّينَ مِثْلُ الْبِدَعِ، وَلَا أَفْسَدَ الرَّجُلَ مِثْلُ الطَّمَعِ»[٣].

ثمّ ينطلق الإمام ليبيّن التوصية السادسة والأخيرة في هذا المقطع من الوصية ويقول: «وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ ذُو نِعْمَةٍ فَافْعَلْ، فَإِنَّكَ مُدْرِكٌ قَسْمَكَ، وَآخِذٌ سَهْمَكَ، وَإِنَّ الْيَسِيرَ مِنَ اللهِ سُبْحَانَهُ أَعْظَمُ وَأَكْرَمُ مِنَ الْكَثِيرِ مِنْ خَلْقِهِ وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ».

ويستند الإمام عليه السلام في هذا التوصية إلى مسألة أخلاقية مهمّة وهي أنّ الإنسان مهما أمكن لا ينبغي أن يقيّد نفسه رهن إحسان الآخرين ومنّتهم، بل يجب عليه الاعتماد على ما يملكه من إمكانات وطاقات لينال حصّته من النعم والمقدرات الإلهيّة، فإذا نال نصيباً أقلّ من هذا الطريق، فإنّه أفضل من النصيب الأوفر إذا كان من خلال الاستعانة بالآخرين وقبول منّتهم، وفي الحقيقة النصيب الأقلّ مع حفظ كرامة الإنسان وشخصيته ومقامه يعتبر في الحصيلة أكثر من تلك الحصّة الأخرى، لأنّ الإنسان في هذه الحالة يحفظ شخصيته وكرامته ولا يبذل منها شيئاً لا يمكن إرجاعه بعد ذلك.

وعلى رغم أنّ عبارة الإمام عليه السلام في هذه الفقرة مطلقة وتشمل عدم الخضوع لمنّة أيّ شخص حتّى لو كان من المحبّين والمشفقين عليه، كالأب والابن والأخ الذين يتقبّلون أيّ طلب ويستجيبون لأيّ حاجة برحابة صدر، ولكن من الواضح أنّ

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٦٩، ح ٦.

٢. كنزالعمّال، ج ٣، ص ٤٩٥، ح ٧٥٧٦.

٣. بحارالأنوار، ج ٧٥، ص ٩٢، ح ٩٨.

الإمام عليه السلام في هذا الكلام يرى أنّ شخصية الإنسان تتعرّض بالسؤال والطلب من الآخرين إلى الخلل والاهتزاز، وعادة ما يقترن السؤال مع الذلّة أو المنّة.

والشاهد على هذا الكلام ما ورد في الحديث الشريف عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه: «قَالَ يَوْماً رَجُلٌ عِنْدَهُ: اللَّهُمَّ أَغْنِنَا عَنْ جَمِيعِ خَلْقِكَ. فَقَالَ: أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: لَا تَقُلْ هَكَذَا، وَلَكِنْ قُل: اللَّهُمَّ أَغْنِنَا عَنْ شِرَارِ خَلْقِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَسْتَغْنِي عَنْ أَخِيهِ»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال لولده الإمام الحسن: «يَا بُنَيَّ إِذَا نَزَلَ بِكَ كَلَبُ الزَّمَانِ وَقَحْطُ الدَّهْرِ فَعَلَيْكَ بِذَوِي الْأُصُولِ الثَّابِتَةِ وَالْفُرُوعِ النَّابِتَةِ مِنْ أَهْلِ الرَّحْمَةِ وَالْإِيثَارِ وَالشَّفَقَةِ، فَإِنَّهُمْ أَقْضَى لِلْحَاجَاتِ وَأَمْضَى لِدَفْعِ الْمُلِمَّات»[2].

وببيان آخر أنّ الإنسان كثيراً ما يكون قادراً على أداء عمل معينّ ولكن بسبب الكسل وطلب الراحة فإنّه يطلب المعونة من الآخرين ويضع كلّه عليهم، وهذا العمل مذموم وقبيح، ولكن في بعض الموارد لا يتيسّر العمل ونيل المقصود إلّا بآلية التعاون والتكاتف، ففي مثل هذه الموارد لا إشكال في طلب المساعدة من الآخرين، لأنّ حياة الإنسان مقترنة دوماً بعنصر التعاون في حركة المجتمع.

وجملة: «وَإِنْ كَانَ كُلٌّ مِنْهُ» في الحقيقة إشارة إلى التوحيد الأفعالي للذات المقدّسة وأنّه على فرض أن يطلب الإنسان المعونة والمساعدة من الآخرين (فيما لا ينبغي طلب المعونة فيه) ثمّ يمدّون له يد العون، فلو دقّقنا النظر في هذا المورد أيضاً لرأينا أنّه حتّى هذا المورد من قِبل الله تعالى، لأنّ الإنسان لا يملك شيئاً في واقعه حتى يعطيه لغيره، فما يملك فهو من الله تعالى وما حصل عليه فإنّه قد اكتسبه بإذن الله وبما أودع الله فيه من قوّة وقدرة.

يقول المرحوم مغنية في شرح نهج البلاغة ذيل هذه التوصية لأميرالمؤمنين عليه السلام

---

١. بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٧٢، ح ٥.

٢. المصدر السابق، ج ٩٣، ص ١٥٩، ح ٣٨.

نقلاً عن الشيخ محمد عبده العالم المصري المعروف، في جمل قصيرة وعميقة المضمون، يقول: لا يوجد كلام يقع مؤثّراً في قلب الإنسان أفضل من هذا الكلام، الكلام الذي يتسبّب بقوّة التأثير وإصابة الحقّ بحيث ينقل القارىء المؤمن من هذه الدنيا وأهلها ويجعل جميع همّه متوجّهاً إلى الله تعالى.

وكما يقول الشاعر:

وَيحَكِ يا نَفسُ دَعِي … مَا عِشتِ ذُلَّ الطَّمعِ
وَارضي بِما جرىٰ بِهِ … حُكمُ القَضاءِ واقنَعِي
إيّاكِ والميلَ إلى … شَيطانكِ المُبتَدِعِ
واقتَصِدي واقتَصِري … كي تَرتَوي وَتَشبَعي
أينَ السّلاطِينُ الأُلى … مِنْ حِميَرٍ وتُبّعِ
شَادُوا الحُصُونَ فَوق كُ … لِّ كُلّ شَاهِقٍ مُرتفعِ
لَم يَبقَ مِنْ دِيارهِم … غيرَ رُسُومٍ خُشَّعِ
كَفىٰ بذاك واعظاً … وزاجراً لِمَن يعي
حَسبُكِ يا نَفسُ اقبَلي … نُصحي وَلا تُضيّعي[1].

٭٭٭

١. روضات الجنات، ج ٧، ص ٨٩ و ٩٠.

القسم الرابع والعشرون

وَتَلَافِيكَ مَا فَرَطَ مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ، وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ، وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ. وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَى النَّاسِ، وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَى مَعَ الْفُجُورِ، وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ، وَرُبَّ سَاعٍ فِيمَا يَضُرُّهُ! مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ، وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ. قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ، بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ! وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ! إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً، وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ الْمُسْتَنْصَحُ. وَإِيَّاكَ وَالِاتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ، وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ. بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً. لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَئُوبُ. وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ، وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ. وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ، سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ. التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ، وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ! لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ. سَاهِلِ الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ، وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ، وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ.

الشرح والتفسير

سبع وعشرون موعظة ثمينة

يستعرض الإمام عليه السلام في هذا المقطع من وصيته النورانية مجموعة منسجمة ومتجانسة من النصائح المتنوّعة لولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام والتي تتضمّن كلّ

واحدة منها نقطة مهمّة في حياة الإنسان وسلوكه الأخلاقي، وتشكّل بمجموعها منهاجاً مفصّلاً لتحقيق الحياة السعيدة لكلّ فرد.

بدايةً يقول الإمام عليه السلام: «**وَتَلَافِيكَ[1] مَا فَرَطَ[2] مِنْ صَمْتِكَ أَيْسَرُ مِنْ إِدْرَاكِكَ مَا فَاتَ مِنْ مَنْطِقِكَ**».

وهذا يعني أنّ الإنسان إذا امتنع عن التحدّث بشيء ثمّ علم بعد ذلك أنّ صمته كان خطأً فإنّه يستطيع فوراً تلافي هذا النقص وتدارك هذا الخلل، في حين أنّه إذا كان قد تحدّث بكلام ثمّ فهم بعدُ أنّ هذا الكلام خطأ، فإنّ تدارك هذا الخطأ غير ممكن، كالماء الذي أُريق على الأرض، فإنّ جمعه غير ممكن حينئذٍ.

ويستعرض الإمام عليه السلام في إدامة كلامه الطريق الصحيح للوصول إلى هذا المقصود بذكر المثال، ويقول: «**وَحِفْظُ مَا فِي الْوِعَاءِ بِشَدِّ الْوِكَاءِ**».

«الوِعاء» الظرف الذي يوضع فيه الشيء، والمراد به هنا القلب وروح الإنسان، «الوكاء» الحبل الذي تشدّ به فوهة القربة، وهو إشارة إلى لسان الإنسان وفمه، فلو أنّ الإنسان ملك لسانه ومنطقه، فإنّه لا تصدر منه كلمات نابية ولا مسؤولة قد توجب له الندم بعد صدورها منه.

ثمّ يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثانية ويقول: «**وَحِفْظُ مَا فِي يَدَيْكَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ طَلَبِ مَا فِي يَدَيْ غَيْرِكَ**».

وهو إشارة إلى أنّ الكثير من الناس وبسبب حالات الإسراف والتبذير في الأموال، يفقدون ما لديهم من ثروة، ويضحون محتاجين للآخرين، ويفقدون عزّتهم ومكانتهم، ولو أنّ الإنسان سلك طريق الاعتدال والاقتصاد في حياته فإنّه لا يحتاج إلى الآخرين، ومن هذا المنطلق فإنّه التوصية المذكورة لا تدعو للبخل أبداً، بل تعني الدعوة للاعتدال وترك الإسراف والتبذير.

---

١. «تلافي» من مادة «لفى» على وزن «نفى» وتعني الجبر والتعويض و «القاه» بمعنى وجده وعثر عليه.

٢. «فرط» من «الفرط» على وزن «شرط» يعني التقصير في أداء العمل، و«إفراط» التطرف وتجاوز الحد.

ثمّ يتطرق الإمام عليه السلام للتوصية الثالثة التي ترتبط بما قبلها ويقول: «وَمَرَارَةُ الْيَأْسِ خَيْرٌ مِنَ الطَّلَبِ إِلَىٰ النَّاسِ». أي «اليأس» ممّا في أيدي الناس أفضل من الطلب إليهم.

والمراد من «اليأس» في هذه العبارة هو حالة من قطع الأمل بالآخرين من موقع الاختيار بحيث إنّ الإنسان يوصد على نفسه باب الطلب من الناس، وهذا العمل وإن كان صعباً وشاقاً، ولكنّه يمنح الإنسان العزّة والشرف والكرامة، ولهذا يقول الإمام عليه السلام، إنّ مثل هذه المرارة أفضل من حلاوة الطلب والسؤال إلى الناس.

وعبارة «اَلْيأس عَمّا في أيْدِي النّاسِ» بوصفها قيمة وفضيلة أخلاقية وردت في روايات عدّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام منها ما ورد في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «وَخَيْرُ الْمَالِ الثِّقَةُ بِاللهِ وَالْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ»[1].

وهذا الكلام لا يعني أنّ الإنسان يعرض عن التعاون والتكاتف مع الناس في أمور الحياة، وأنّ الحياة الاجتماعية لا تقوم إلّا على أساس التعاون، بل المراد أن لا ينظر المرء إلى أموال الناس بعين الطمع ولا يجعل الناس كَلّاً، بل يسعى لكسب معاشه بنفسه.

وكما يقول الشاعر:

وَإِنْ كَانَ طَعْمُ الْيَأْسِ مُرّاً فَإِنَّهُ ... أَلَذُّ وَأَحْلىٰ مِنْ سُؤَالِ الْأَرَاذِلِ

ثمّ يبيّن الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة ويقول: «وَالْحِرْفَةُ مَعَ الْعِفَّةِ خَيْرٌ مِنَ الْغِنَىٰ مَعَ الْفُجُورِ».

العفّة في اللغة وموارد استعمالها عند علماء الأخلاق لا تعني ضبط النفس من حيث الغريزة الجنسية، بل ضبط النفس عن كلّ ذنب، وجاءت في الجملة أعلاه بهذا المعنى، لأنّ البعض لا يمتنع من اقتراف أيّ ذنب ومعصية في جمع الثروة والمال من هذه الجهة أو تلك، أمّا المؤمنون الذين يعيشون الطهر والنقاء القلبي ربّما يجمعون

١. تهذيب الأحكام، ج ٦، ص ٣٧٨، ح ٢٧٣.

ثروة أقلّ، من خلال الطرق المشروعة والبعيدة عن كلّ أنواع الإثم والعدوان، والإمام يقول: إنّ هذا الأخير أفضل وأرجح من السابق.

ويستطرد الإمام عليه السلام في بيان التوصية الخامسة ويقول: «وَالْمَرْءُ أَحْفَظُ لِسِرِّهِ»، لأنّ الإنسان أكثر اهتماماً وتشدّداً لحفظ أسراره من الآخرين، لأنّ إفشاء هذه الأسرار يوجب له الضرر والخسارة، وقد يتسبب في هتك حرمته وفضح شخصيته، في حين أنّ الآخرين ربّما لا يتضرّرون من إفشاء سرّه، ومن هذا المنطلق إذا أراد الإنسان حفظ أسراره، فيجب أن يضعها في مكنون صدره ويحكم إغلاق بابه، كما ورد ذلك في كلمات الإمام عليه السلام القصار: «صَدْرُ الْعَاقِلِ صُنْدُوقُ سِرِّهِ».

وفي التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّ سَاعٍ[1] فِيمَا يَضُرُّهُ».

وهذا إشارة إلى أنّ سعي الإنسان يجب أن يكون مدروساً ومحسوباً، وببيان آخر، أنّ السعي يجب أن يقترن بالتدبير، حتى لا ينعكس الأمر عليه ويقطع أصله بسيفه، وهذا يعدّ من أسوء أنواع المصائب.

وفي التوصية السابعة يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَكْثَرَ أَهْجَرَ[2]».

أجل، فأحد فوائد الصمت، عدم التورّط في شباك الكلام الركيك والموهن، وقد ثبت بالتجربة أنّ الأشخاص الثرثارين يتحدّثون بكلمات كثيرة ليس لها معنى ولا مفهوم، لأنّ الكلام المحسوب والمدروس يحتاج إلى فكر ومطالعة، في حين أنّ الثرثارين ليس لديهم مجال للتفكير، والإمام في غرر الحكم يبيّن العواقب السيئة الكثيرة لظاهرة الثرثرة وما يترتّب عليها ويقول: «مَنْ كَثُرَ كَلَامُهُ زَلَّ»[3]، وهذا الأمر يؤدّي إلى سقوط شخصيته من أعين الناس ويتسبّب في ذلّته وفضيحته، بخلاف الأشخاص الذين يتحدّثون بكلام قليل ومدروس، فإنّ ذلك من شأنه أن يمنحهم

---

١. «ساع»، «ساعي» الجاد في العمل، من مادة «سعي».

٢. «اهجر» من «الهجر» على وزن «فجر» وفي الأصل بمعنى الابتعاد والانفصال. ثم استخدمت في معنى هذيان المريض، لأنّ الكلام في تلك الحال غير مطلوب ومبعد.

٣. غرر الحكم، ٤١١٩.

مكانة مرموقة وسمعة حسنة في أنظار الناس وكما يقول الشاعر:

وَالصَّمتُ أجملُ للفتىٰ ... مَا لَم يَكُن عيّ يُشينُه

وَالقَولُ ذو خَطلٍ إذا ... مَا لَم يَكُن لبّ تُعينُه

وفي الوصية الثامنة يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ»، أي أبصر حقائق الحياة وسلك الطريق القويم في حياته.

إنّ أهمّيّة التفكّر في أمور الدنيا والآخرة ليست شيئاً خافياً على أحد، فجميع الأفراد الذين حقّقوا نجاحاً في حياتهم سلكوا هذا الطريق.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال: ﴿كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[1].

وفي التوصية التاسعة يقول الإمام عليه السلام: «قَارِنْ أَهْلَ الْخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ، وَبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ».

وهذا إشارة إلى أنّ تأثير المجالسة والمعاشرة لا يقبل الإنكار، فمجالسة الأشرار تقود الإنسان إلى وادي الهلكة والشقاء، بينما مجالسة الأخيار تقوده نحو فضاء السعادة والنجاة، وفي الآيات القرآنية إشارات جليّة على هذا المعنى، يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾[2].

وجاء في الحديث الشريف المشهور عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله يقول: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ وَقَرِينِهِ»[3].

وهذا هو المعيار الأفضل لمعرفة شخصية الإنسان المعقّدة والغامضة من خلال

---

١. سورة البقرة، الآيتان ٢١٩ و ٢٢٠.

٢. سورة الفرقان، الآيات ٢٧-٢٩.

٣. أصول الكافي، ج ٢، ص ٣٧٥، ح ٣.

النظر إلى قرينه وصديقه، كما ورد ذلك في حديث عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «فَمَنِ اشْتَبَهَ عَلَيْكُمْ أَمْرُهُ وَلَمْ تَعْرِفُوا دِينَهُ فَانْظُرُوا إِلَى خُلَطَائِهِ فَإِنْ كَانُوا أَهْلَ دِينِ اللهِ فَهُوَ عَلَى دِينِ اللهِ وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ دِينِ اللهِ فَلَا حَظَّ لَهُ مِنْ دِينِ اللهِ»[1].

ويقول عليه السلام في التوصية العاشرة: «بِئْسَ الطَّعَامُ الْحَرَامُ».

ويتحدّث القرآن الكريم عن الأشخاص الذين يأكلون أموال اليتامى بأنّهم يأكلون النار في بطونهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً﴾[2]. وهكذا بالنسبة للأطعمة المحرّمة فإنّها تشبه أموال اليتامى من هذه الجهة، وقد ورد في الروايات أنّ من جملة موانع استجابة الدعاء، تناول الأطعمة الحرام، وقد أشرنا قبل ذلك إلىٰ حديث نبويّ في هذا المجال.

ويواصل الإمام عليه السلام بيان توصيات ولده ويقول في التوصية الحادية عشر: «وَظُلْمُ الضَّعِيفِ أَفْحَشُ الظُّلْمِ»، لأنّه غير قادر على الدفاع عن نفسه، وينقل الكليني في كتاب الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّ قال: «لَمَّا حَضَرَ عَلِيَّ بْنَ الْحُسَيْنِ الْوَفَاةُ ضَمَّنِي إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ: يَا بُنَيَّ أُوصِيكَ بِمَا أَوْصَانِي بِهِ أَبِي عليه السلام حِينَ حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ وَبِمَا ذَكَرَ أَنَّ أَبَاهُ أَوْصَاهُ بِهِ، قَالَ: يَا بُنَيَّ إِيَّاكَ وَظُلْمَ مَنْ لَا يَجِدُ عَلَيْكَ نَاصِراً إِلَّا اللهَ»[3].

وبديهيّ أنّ الظلم قبيح تجاه كلّ إنسان، ولكن إذا ظلم رجل شخصاً ثريّاً وسرق مقداراً من ماله، فرغم أنّ هذا العمل يعدّ مخالفة أخلاقية، إلّا أنّه لا يتسبّب في إلحاق أذىً وضرر كبير لصاحب المال، بخلاف ما لو سرق من فقير ماله.

وفي التوصية الثانية عشر يقول الإمام عليه السلام: «إِذَا كَانَ الرِّفْقُ خُرْقاً[4] كَانَ الْخُرْقُ رِفْقاً. رُبَّمَا كَانَ الدَّوَاءُ دَاءً، وَالدَّاءُ دَوَاءً».

إنّ أصل مناهج الحياة يقوم على أساس المداراة والليونة والانعطاف، فأحياناً

---

١. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٩٧، ح ٣١.

٢. سورة النساء، الآية ١٠.

٣. كافي، ج ٢، ص ٣٣١، ح ٥.

٤. «خُرق» وتعني العنف والشدّة (ضد الرفق والمداراة).

يوجد بعض الأشخاص من سيّئي الاستفادة من هذا السلوك الإنساني، فتزداد حالات العنف فيهم، فمع مثل هؤلاء الأشخاص يكون استخدام العنف الطريق الوحيد لإصلاحهم، والجملة اللاحقة في الحقيقة بمثابة علّة لهذه الجملة، فهناك موارد يكون الدواء فيها مزيداً في العلّة والمرض، ويكون تحمّل الألم دواءً وعلاجاً لهذا المريض كما قال الشاعر:

أَلا فاصبِر عَلَى الحَدثِ الجَليلِ ... وَداوِ جَواك بالصّبرِ الجَميلِ
وَلا تَيأس فإنّ اليأسَ كُفرٌ ... لَعلَ اللهَ يُغني مِن قليلِ
وإنّ العُسرَ يَتبعُهُ يَسارٌ ... وَقَولُ اللهِ أصدقُ كُلّ قيلِ

وهذا يعني أنّ الجراح التي يتوقّف علاجها علىٰ الكيّ بالنار، فمن المعلوم أنّ استخدام الرقى والأدوية مرّة أخرى تكون عبثاً، وربّما تتسبّب في زيادة المرض، وبعكس ذلك تارة يكون المرض عارضاً على الإنسان بحيث يتسبّب في شفاء المريض من أمراض أهمّ وأخطر.

وفي الوصية الثالثة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَرُبَّمَا نَصَحَ غَيْرُ النَّاصِحِ، وَغَشَّ[1] الْمُسْتَنْصَحُ[2]».

وهذا إشارة إلى أنّه لا ينبغي إساءة الظنّ بكلام الأشخاص ممّن ليسوا من أهل النصح، وأحياناً تصدر منهم كلمات حكيمة ونصيحة نافعة، على العكس من ذلك تارة يصدر من أهل النصح والصلاح خيانة في نصيحتهم بسبب الخطأ أو الحسد أو عوامل أخرى، وعلى ضوء ذلك لا ينبغي أن نقبل كلامهم بدون تدبّر، بل ينبغي في كلا الحالتين العودة إلى حكم العقل والعمل على تمييز الكلام النافع من غير النافع لهؤلاء الناصحين من خلال الشواهد والقرائن.

ينقل العلّامة المجلسي في بحار الأنوار رواية مشهورة وجميلة في هذا المجال،

---

١. «غشّ» من مادة «غش» (بكسر الغين) بمعنى الخيانة.

٢. «المستنصَح» (إذا جاء بصيغة اسم مفعول) تعني الشخص الذي تُطلب النصيحة منه.

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: لمّا دعا نوح عليه السلام ربّه عزّ وجلّ على قومه أتاه إبليس لعنه الله فقال: يا نوح إنّ لك عندي يداً أُريد أن أُكافيك عليها، فقال له نوح عليه السلام: إنّه يبغض إليّ أن يكون لك عندي يدٌ فما هي؟ قال: بلى، دعوتَ على قومك فأغرقتهم، فلم يبق أحد أُغويه، فأنا مستريح حتّى يظهر قرن آخر وأُغويهم، فقال نوح عليه السلام: ماالذي تريد أن تكافئني به؟ (وفي بعض الروايات أن الله عزّ وجلّ أوحى إلى نوح أن كلّمه واسأله فإنّي سأُنطقه بمحجّة عليه، إلّا أنّ نوح عليه السلام لم يقبل أن يكلّمه)[1] قال إبليس: «اذْكُرْنِي فِي ثَلَاثِ مَوَاطِنَ فَإِنِّي أَقْرَبُ مَا أَكُونُ إِلَى الْعَبْدِ إِذَا كَانَ فِي إِحْدَاهُنَّ: اذْكُرْنِي إِذَا غَضِبْتَ، وَاذْكُرْنِي إِذَا حَكَمْتَ بَيْنَ اثْنَيْنِ، اذْكُرْنِي إِذَا كُنْتَ مَعَ امْرَأَةٍ خَالِياً لَيْسَ مَعَكُمَا أَحَدٌ»[2].

وهذا الحديث في الحقيقة يبيّن أحد المصاديق الواضحة لكلام الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام.

وفي التوصية الرابعة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَإِيَّاكَ وَالاِتِّكَالَ عَلَى الْمُنَى فَإِنَّهَا بَضَائِعُ النَّوْكَى[3]».

المقصود من كلمة «المُنى» الآمال الطويلة والعريضة التي هي إلى الخيالات والأوهام أقرب، والأشخاص الذين يعيشون هذه الحالة من الاعتماد على الآمال البعيدة والطموحات الخيالية فإنّهم يستنزفون قواهم الفعّالة ويهدرون طاقاتهم الحيوية، ثمّ لا يصلون إلى شيء، ومن جهة أخرى الاعتماد على هذه الآمال يستنزف عصارة فكر الإنسان وعمره لحساب الوهم ويصرفه عن التفكير في المعاد والحياة الآخرة.

وهذا ما ورد في الحديث المشهور عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وكذلك عن الإمام

---

١. بحار الأنوار، ج ١١، ص ٢٨٨، ح ١٠.

٢. المصدر السابق، ص ٣١٨، ح ٢٠.

٣. «نوكى» جمع «أنوك» على وزن «ابتر» وهو الشخص الجاهل والأحمق.

أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة، قال: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَانِ اتِّبَاعُ الْهَوَى وَطُولُ الْأَمَلِ فَأَمَّا اتِّبَاعُ الْهَوَى فَيَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ وَأَمَّا طُولُ الْأَمَلِ فَيُنْسِي الْآخِرَةَ»[1].

وفي التوصية الخامسة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَالْعَقْلُ حِفْظُ التَّجَارِبِ».

إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يجمع التجارب التي اكتسبها من واقع الحياة ومن الآخرين، ومع الالتفات إلى القاعدة المعروفة: «حُكْمُ الْأَمْثَالِ فِيمَا يَجُوزُ وَفِيمَا لَا يَجُوزُ وَاحِدٌ»، والحديث المعروف: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يُلْدَغُ مِنْ جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»[2] فإنّ ذلك من شأنه أن يمنح الإنسان القدرة على مواجهة الحوادث والمستجدّات بأساليب صحيحة، ويتعاطى معها من خلال ما اكتسبه من تجارب قديمة، وبالتالي يستطيع تفادي الكثير من الأخطاء والتخلّص من الكثير من الأزمات.

إنّ الكثير من القواعد العقليّة الكليّة مستوحاة من هذه التجارب الجزئية، (وفقاً لقاعدة الاستقراء المنطقية) وطبعاً فهذه التجارب تارة تتعلّق بالإنسان نفسه، وأخرى يستقيها الإنسان من تجارب الآخرين، وهذا كما يسمّى «نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ»، ومن هذه الجهة يهتمّ المدراء والقادة بمطالعة تاريخ القدماء ليستوحوا منه الدروس والعبر.

وخلاصة الكلام أنّ الإنسان إذا تحرّك في حياته على مستوى حفظ تجاربه والاستفادة من تجارب الآخرين، فإنّه يستطيع استخدامها في الموارد المشابهة دون أن يكرّر أخطاءه الماضية، وكذلك يستخلص قانوناً كلياً من الموارد الجزئية لنفسه وللآخرين في جميع شؤون الحياة.

ورد في رسالة الإمام عليه السلام المرقّمة ٧٨ من نهج البلاغة تعبيراً أشدّ في هذا المجال، يقول عليه السلام: «فَإِنَّ الشَّقِيَّ مَنْ حُرِمَ نَفْعَ مَا أُوتِيَ مِنَ الْعَقْلِ وَالتَّجْرِبَةِ».

والتوصية السادسة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَخَيْرُ مَا جَرَّبْتَ مَا وَعَظَكَ».

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ٤٢ وفي بحار الأنوار، ج ٢، ص ٣٥، ح ٣٧ أيضاً مع اختلاف يسير عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله.

٢. بحار الأنوار، ج ١٩، ص ٣٤٥.

وهذا إشارة إلى أنّ التجارب تارة تمنح الإنسان نفعاً مادياً، وأخرى نفعاً معنوياً، وأنّ أفضل التجارب هو ما نفع الإنسان على المستوى المعنوي والأخلاقي.

وفي كلمات الإمام عليه السلام القصار: «لَمْ يَذْهَبْ مِنْ مَالِكَ مَا وَعَظَكَ»[1].

وفي التوصية السابعة عشر يقول عليه السلام: «بَادِرِ الْفُرْصَةَ قَبْلَ أَنْ تَكُونَ غُصَّةً».

والفرصة يعني توفير المقدّمات للتوصّل إلى المقصود، وأحياناً يكون للإنسان مقصد مهمّ ولكن لم تتوفّر مقدّماته، وفجأة وفي لحظة تتهيّأ وتتوفّر هذه المقدّمات، فحينئذٍ ينبغي عليه المسارعة في الاستفادة من هذه اللحظة قبل فوات الأوان، وإيصال نفسه إلى المقصد، فإذا غفل عن ذلك وأفلت الفرصة من يديه، فربّما لا تتوفّر أبداً في المستقبل تلك الظروف لتحقيق الغاية والوصول إلى الهدف، والفرص مثل الرياح الموافقة التي تهبّ باتّجاه المقصد، فلو لم ينتفع الملّاح في السفينة الشراعية من هذه الفرصة، فربّما يبقى ساعات وأيّاماً على سطح البحر دون أن يتحرّك في المسير الصحيح، ويتحوّل ضياع تلك الفرصة إلى غصّة.

وجاء في الحديث المشهور عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «إِنَّ لِرَبِّكُمْ فِي أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٍ أَلَا فَتَعَرَّضُوا لَهَا»[2].

وورد في حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَتَىٰ يُغْلَقُ عَنْهُ»[3].

وقد وردت بهذا المضمون روايات كثيرة عن المعصومين عليهم السلام وفي عبارات الأعاظم، ونختم هذا الفصل بحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «أَشَدُّ الْغُصَصِ فَوْتُ الْفُرَصِ»[4].

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ١٩٦.

٢. بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٢٢١.

٣. كنز العمال، ح ٤٣١٢٤.

٤. غرر الحكم، ١٠٨١٨.

وفي التوصية الثامنة عشر يقول الإمام عليه السلام: «لَيْسَ كُلُّ طَالِبٍ يُصِيبُ، وَلَا كُلُّ غَائِبٍ يَؤُوبُ».

وهاتان الجملتان بمثابة العلّة للتوصية بالمبادرة واستغلال الفرص قبل فوات الأوان، لأنّ الإنسان إنّما يصل إلى مقصوده فيما لو سعى لتوفير الأرضية اللازمة والظروف المناسبة للنجاح، وفي غير هذه الصورة فإنّ سعيه سيكون عقيماً، وكلمة «غائب» يمكن أن تشير إلى الفرص الضائعة التي لا تعود أبداً، وفي ذات الوقت يمكن أن تكون توصية مستقلّة وإشارة إلى أنّ الإنسان لا ينبغي أن يتوقّع أن يصل إلى نتيجة من سعيه وعمله دائماً، وببيان آخر أن لا يصاب باليأس والقنوط ممّا يواجهه من إخفاقات في حركة الحياة.

وفي الوصية التاسعة عشر يقول الإمام عليه السلام: «وَمِنَ الْفَسَادِ إِضَاعَةُ الزَّادِ وَمَفْسَدَةُ الْمَعَادِ».

والمقصود من الزاد هنا هو زاد التقوى والمتاع لسفر الآخرة، فلو أنّ الإنسان أضاع هذا الزاد فإنّه سيفسد معاده وتضيع آخرته.

وفي التوصية العشرين يقول: «وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ».

وذلك إشارة إلى أنّ الإنسان عندما يقدم على أيّ عمل، يجب أن يتدبّر في عاقبته، ولا يتحرّك في طريق ويقوم بعمل دون تفكير ومحاسبة. فلو كانت عاقبته حسنة فإنّه يقدم عليه وإلّا فلا.

وجاء في غرر الحكم عن الإمام أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام هذه العبارة مع إضافة، يقول: «وَلِكُلِّ أَمْرٍ عَاقِبَةٌ حُلْوَةٌ أَوْ مُرَّةٌ»[1].

وفي التوصية الحادية والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَوْفَ يَأْتِيكَ مَا قُدِّرَ لَكَ».

والمقصود أنّه لا ينبغي أن يعيش الإنسان الحرص بدون مبرّر، وهذا لا يعني أنّ الإنسان يترك السعي لطلب المعاش وتحسين ظروف الحياة، بل الغرض من ذلك أن

١. غرر الحكم، ١٠٩١٣.

يجتنب الجهد العقيم والسعي غير المثمر، وجميع الروايات التي تشير إلى تقدير الرزق، ناظرة إلى هذا المعنى.

وفي التوصية الثانية والعشرين يضيف الإمام عليه السلام: «**التَّاجِرُ مُخَاطِرٌ**[1]».

فالتاجر لا ينتفع ويربح من تجارته دائماً، وكما يقال إنّ التجارة نوع من الحظّ، ومن هنا فالإنسان ينبغي أن يتحلّى بالشجاعة ويتوكّل على الله ولا يخشى من الأضرار المحتملة ولا يفقد أمله من مواجهة الضرر والخسارة، فالتاجر يجب أن يسعى ويبذل جهده في هذا السبيل مع التدبّر في معطيات هذا المسير ومخاطره، ولكن إذا واجه ضرراً وخسارة، فلا ينبغي له أن يتألم ويحزن.

ويحتمل أن تكون هذه الجملة إشارة إلى الأبعاد المعنوية للتجارة، لأنّ التاجر تتلوّث أمواله أحياناً بالحرام وتواجه سعادته الخطر من ذلك، وعلى ضوء ذلك يجب عليه الانتباه من الوقوع في هذه الأخطار وخاصّة في عصرنا الحاضر الذي ازدادت فيه الأموال الحرام والتجارة غير المشروعة وأحياناً تسدل الأرباح الوفيرة حجاباً على عقل الإنسان وتقود التاجر إلى التورّط في مهاوي الذنوب والانحراف.

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يستعرض التوصية الثالثة والعشرين ويقول: «**وَرُبَّ يَسِيرٍ أَنْمَى مِنْ كَثِيرٍ**».

إشارة إلى أنّ الإنسان لا ينبغي أن ينظر إلى كمية الأعمال والأفعال، بل المهمّ الكيفية والنوعية، فكم من الأعمال القليلة وبكيفية أفضل وإخلاص أوفر تعطي ثماراً أكثر. يقول القرآن الكريم: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾[2].

وهنا احتمال آخر في تفسير هذه الجملة، وهي أنّ الإنسان لا ينبغي أن يهتمّ في حياته الماديّة بزيادة رأس ماله وثروته، وربّما يكون الرأسمال القليل حلالاً

---

١. «مخاطر» الذي يلقي نفسه في الخطر.

٢. سورة الملك، الآية ٢.

وطاهراً، وفي التالي ينمو ويزداد بشكل أكبر، يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلاَ يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِّنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[1].

ثمّ إنّ الإمام عليه السلام يطرح التوصية الرابعة والعشرين ويقول: «لَا خَيْرَ فِي مُعِينٍ مَهِينٍ[2]، وَلَا فِي صَدِيقٍ ظَنِينٍ[3]»، لأنّ الصديق المهين إذا كان يعيش الحقارة والدناءة فإنّ عمله هذا سيكون مقترناً غالباً بالمنّ، مضافاً إلى أنّ شخصية الإنسان ستواجه الاهتزاز في أنظار الناس، لأنّه يتخّذ من الشخص الدنيء معيناً ورفيقاً، والصديق المتّهم وإن أدّى حقّ الصداقة والزمالة، فإنّهٔ يتسبّب في توجّه التهمة إلى صديقه ويسيء إلى سمعته، وهنا ينبغي على العاقل أن يغضّ نظره عن معونته وعطائه.

وفي التوصية الخامسة العشرين يقول الإمام عليه السلام: «سَاهِلِ[4] الدَّهْرَ مَا ذَلَّ لَكَ قَعُودُهُ».

وهو إشارة إلى أنّه من الممكن أن لا تعود مثل هذه الفرصة في المستقبل، ويحتمل أيضاً في تفسير هذه الجملة أنّ الدهر إذا تعامل معك من موقع المداراة فعليك أن تداريه أيضاً وكما قال الشاعر:

إِذا الدَّهْرُ أَعْطاكَ الْعِنانَ فَسِرْ بِهِ رُوَيْداً وَلاَ تَعْنَفْ فَيُصْبِحُ شامِساً

وفي التوصية السادسة والعشرين يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تُخَاطِرْ بِشَيْءٍ رَجَاءَ أَكْثَرَ مِنْهُ».

فأحياناً تتوفّر نعم كثيرة لدى الإنسان، ولكن حالة الطمع وطلب المزيد تدفعه من أجل اكتساب المزيد من النعم والثروات، أن يخاطر بحياته وبإمكاناته، وهذا العمل يتقاطع مع العقلانية، من قبيل أنّ الإنسان يضع ماله بيد أشخاص لا يعرفون

---

١. سورة الروم، الآية ٣٩.

٢. «مهين» وهو الحقير والضعيف، وأصلها «مهانة».

٣. «ظنين» وهو الشخص المتهم، والأصل من «ظنّ» وتأتي بصيغة اسم المفعول.

٤. «ساهل» فعل أمر من «مساهلة» بمعنى المداراة.

شيئاً من أمر التجارة والمضاربة، طمعاً في ما وعدوه من أرباح وفيرة، فتكون النتيجة أنّه ليس فقط لا يربح شيئاً، بل يفقد أصل رأس ماله أيضاً.

وأخيراً وفي التوصية السابعة والعشرين (في هذا المقطع من الوصيّة) يقول الإمام عليه السلام: «**وَإِيَّاكَ أَنْ تَجْمَحَ[1] بِكَ مَطِيَّةُ اللَّجَاجِ**».

اللجاج هو أن الإنسان يصرّ على كلامه الباطل أو سلوكه المنحرف الذي ثبت له بطلانه، خوفاً من اهتزاز شخصيته أمام الآخرين، في حين أنّ الإنسان في مثل هذه الموارد لو تعامل مع الحقيقة من موضع التواضع والإذعان لها، فإنّه سيكسب المزيد من السمعة في أنظار الناس.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إِيَّاكَ وَاللَّجَاجَةَ فَإِنَّ أَوَّلَهَا جَهْلٌ وَآخِرَهَا نَدَامَةٌ**»[2].

وفي حديث آخر يقول الإمام أميرالمؤمنين عليه السلام: «**لا مَرْكَبَ أَجْمَحَ مِنَ اللَّجَاجِ**»[3].

والحقيقة أنّه لو قرأ الإنسان هذه الوصايا السبع والعشرين فقط في هذه الوصية والتي وردت بعبارات موجزة وعميقة المحتوى، وتحرّك على مستوى تطبيقها وتجسيدها في واقع الممارسة والعمل، فسوف يعيش السعادة المنشودة، ولو أنّ المجتمع جسّد هذه المواعظ والنصائح فلا شكّ أنّ مثل هذا المجتمع سيعيش الحيوية والنشاط والسعادة والإزدهار.

———

١. «تجمح» فعل مضارع من «الجموح» بمعنى التمرد والنفور والعصيان.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٤، ص ٦٩، ح ٦.

٣. غررالحكم، ح ١٠٦٤٣.

القسم الخامس والعشرون

احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَىٰ اللَّطَفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَىٰ الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَىٰ الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَىٰ اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَىٰ الْعُذْرِ، حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ. لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ، وَامْحَضْ أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً، وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَىٰ مِنْهَا عَاقِبَةً، وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً. وَلِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ، فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ، وَخُذْ عَلَىٰ عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَىٰ الظَّفَرَيْنِ. وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْماً مَا. وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ.

الشرح والتفسير

الإحسان في مقابل الإساءة!

ينطلق الإمام عليه السلام في هذا المقطع من الوصية لبيان وظيفة الإنسان في مقابل إخوانه وأصدقائه وكيفية التواصل معهم من موقع حسن الخلق، وذلك بتقديم عدّة توصيات، يقول بدايةً:

«احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ[1] عَلَىٰ الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ[2] عَلَىٰ

---

١. «صَرْم» بمعنى القطع والفصل، وهنا جاء بمعنى قطع العلاقة مع الآخر وهي في مقابل الصلة وتوثيق العلاقة مع الآخر.

٢. «صُدود» مصدر بمعنى المنع.

اللَّطَفِ[1] وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ[2] عَلَىٰ الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَىٰ الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَىٰ اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَىٰ الْعُذْرِ، حَتَّىٰ كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ».

في هذه التوصية يحذّر الإمام عليه السلام ولده من الردّ بالمثل فيما يواجهه من نفور ولامبالاة من أصدقائه، وضمناً يوصيه بستّ جمل بليغة تتضمّن بلاغة الجناس، بأنّ الردّ بالمثل من شأنه أن يهدّد أساس المودّة والصداقة بين الأصدقاء، فيفقد المرء صديقه بسبب ذلك، ولكن كلّما تعامل مع الإساءة بالإحسان ومع اللامبالاة بالمودّة، فسوف يدرك صديقه خطأه ويخجل من نفسه ويتحرّك على مستوى جبر الخلل وتقوية وترسيخ دعائم المحبّة والمودّة أكثر فأكثر.

والعبارات التي يستخدمها الإمام عليه السلام في هذه الفقرات تمثّل في الحقيقة شرحاً لما ورد في القرآن الكريم في قوله: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[3].

ورغم أنّ هذه الآية نزلت في مورد الأعداء، ولكن ممّا لا شك فيه أنّها صادقة على الأصدقاء أيضاً، فسيرة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام وعلماء الدين الكبار تشير إلى هذه الحقيقة أيضاً إلّا في موارد استثنائية، وأنّهم كانوا لا يواجهون العدوان والإساءة من الأصدقاء والأعداء بالمثل، إلّا في موارد خاصّة ونادرة.

وبما أنّ بعض السذّج وذوي الفكر الضيّق ربّما يسيئون هذا السلوك الإنساني معهم، فالإمام عليه السلام استثنى هذه الفئة من هذه القاعدة وقال: «وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ذٰلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ بِغَيْرِ أَهْلِهِ».

والفرق بين جملة «وَإِيَّاكَ أَنْ تَضَعَ ...» وجملة «أَوْ أَنْ تَفْعَلَهُ ...» أنّ الجملة الثانية

---

١. «اللّطَف» على وزن «شرف» وفي بعض النسخ على وزن «قفل» وتعني إظهار المحبّة والإحسان إلى الطرف المقابل.

٢. «جمود» وتعني في هذه العبارة البخل، في مقابل البذل والعطاء.

٣. سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

تشير إلى الأشخاص الذين يعيشون الحقد والعناد، وأنّ الاحسان إليهم في مقابل إساءتهم قد تتسبّب في زيادة جرأتهم وعدوانهم، فيكون الإحسان إليهم كالإحسان إلى الذئب، ولكنّ الجملة الأُولى ناظرة إلى الأشخاص الذين لا يعيشون مثل هذه الحالة، ولكن ربّما يقودهم الإحسان إليهم في مقابل إساءتهم أن يتصوّروا خطأً أنّهم أخيار وأنّ عملهم جيّد وليس فيه إشكال.

والتعبير بـ «احْمِلْ» في بداية هذه التوصية إشارة إلى أنّ عملية الإحسان في مقابل الإساءة وإن كانت صعبة على الإنسان، ولكن ينبغي عليه أن يتحمّل ذلك ويحمل هذه القضية على نفسه.

ويقول الإمام عليه السلام في التوصية الثانية: «لَا تَتَّخِذَنَّ عَدُوَّ صَدِيقِكَ صَدِيقاً فَتُعَادِيَ صَدِيقَكَ».

فهذا العمل يعدّ من جملة النفاق، حيث يطرح الإنسان المودّة مع صديقه ومع عدوّ صديقه أيضاً، فهذا هو أُسلوب الأشخاص الذين لا يعيشون واقع الصداقة وحقيقة المودّة، وغرضهم من ذلك الانتفاع والمصلحة الشخصية من كلا الطرفين، فلا يمتنعون في هذا السبيل من الوقوع في مثل هذا التناقض والسلوك والعواطف.

وطبعاً هذا في مورد تكون عداوة العدوّ ناشئة من ظلمه وعدوانه، لا أنّ الصديق مقصّر وقد ارتكب إساءة في حقّه بحيث أدّى ذلك إلى معاداته.

وكذلك يصدق هذا الكلام في مورد لا يكون الغرض من إقامة علاقة مع عدوّ الصديق إصلاح ذات البين، فإن كان المقصود من المودّة معه إصلاح ذات البين فإنّه ليس فقط عمل غير ذميم بل عمل إنساني ممدوح.

وممّا يجدر ذكره أنّ توصية الإمام عليه السلام في هذا الباب لا تتناول الأشخاص فقط،بل تشمل الفئات والشعوب والدول أيضاً، رغم أنّ الكثير من الدول في العالم المعاصر يطرحون المودّة والصداقة مع كلا طرفي النزاع دون أن يقصدوا من ذلك المصالحة بينهما، بل هدفهم من ذلك استغلال هاتين الدولتين المتخاصمتين لضمان

مصالحهم الشخصية، فيقيمون روابط سياسية واقتصادية مع الأصدقاء ومع الأعداء على حدّ سواء، واللافت للنظر أنّهم لا يخفون ذلك، بل يصرّحون بإقامة مثل هذه العلاقة العميقة معنا، وكذلك مع أعدائنا في ذات الوقت.

ففي رواية أنّ رجلاً قدم على أميرالمؤمنين عليه السلام فقال: ياأميرالمؤمنين إنّي أُحبّك وأُحبّ فلاناً، وسمّى بعض أعدائه فقال عليه السلام: «أمّا الآنَ فأنتَ أعْوَر، فإمّا أنْ تَعْمى وإمّا أن تُبْصِر»[1].

وفي بعض الروايات أنّه ذكر معاوية.

وجاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام قاله له رجل: إنّ فلاناً يواليكم إلّا أنّه يضعف عن البراءة من عدوّكم، فقال الإمام عليه السلام: «هَيْهَاتَ، كَذَبَ مَنِ ادَّعَى مَحَبَّتَنا وَلَمْ يَتَبَرَّأْ مِنْ عَدُوِّنا»[2].

ويقول القرآن الكريم مخاطباً النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُم﴾[3].

ثمّ يقول الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الوصيّة: «وَامْحَضْ[4] أَخَاكَ النَّصِيحَةَ، حَسَنَةً كَانَتْ أَوْ قَبِيحَةً».

وهو إشارة إلى أنّ بعض الأصدقاء يمتنعون أحياناً من بذل النصيحة خوفاً من إزعاجنا وامتعاضنا فيخفون الحقائق عنّا، فهؤلاء في الواقع ليسوا مخلصين في نصحهم ومودّتهم، لأنّه لو نصحوا شخصاً وحذّروه من مغبّة عمل معين واستاء مؤقتاً من ذلك، ولكنّه سلم من خطر أو ضرر بسبب هذه النصيحة، فإنّ ذلك أفضل بكثير

---

١. بحار الأنوار، ج ٢٧، ص ٥٨، ح ١٧.

٢. المصدر السابق، ح ١٨.

٣. سورة المجادلة، الآية ٢٢.

٤. «امحَضْ» من «المحض» على وزن «وعظ» بمعنى إخلاص الشيء وتنقيته، وتستعمل في مورد النصيحة وتعني طلب الخير للطرف المقابل الخالي من أي شائبة وغرض شخصي.

من اختيار السكوت وتركه يواجه المشاكل والأخطار بسبب ذلك السلوك الخاطىء.

وللأسف فإنّ الكثير من الأشخاص، وبسبب هذه الملاحظات، يصرفون النظر عن تقديم النصح في الموقع المناسب، فيبتلون بسخط الله تعالىٰ والخيانة لخلق الله.

ولذا يقول الإمام الصادق عليه السلام في حديث شريف: «أَحَبُّ إِخْوَانِي إِلَيَّ مَنْ أَهْدَى إِلَيَّ عُيُوبِي»[١].

يعني أنّ الإنسان العاقل ليس فقط لا يتألم من بيان عيوبه من قِبل الآخرين، بل ينبغي أن يحثّهم على بيانها وذكرها، ليستطيع إصلاح العيب والخلل.

وفي حديث آخر عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال لأحد أصحابه: «اتَّبِعْ مَنْ يُبْكِيكَ وَهُوَ لَكَ نَاصِحٌ وَلَا تَتَّبِعْ مَنْ يُضْحِكُكَ وَهُوَ لَكَ غَاشٌّ»[٢].

ويقول الإمام عليه السلام في التوصية الرابعة: «وَتَجَرَّعِ الْغَيْظَ فَإِنِّي لَمْ أَرَ جُرْعَةً أَحْلَى مِنْهَا عَاقِبَةً وَلَا أَلَذَّ مَغَبَّةً[٣]».

فهنا نرى أنّ الإمام عليه السلام يشبّه الغضب بالدواء المرّ الذي يتجرّعه الإنسان على مضض ولهذا يتناوله جرعة بعد جرعة، ولكنّ عاقبته الشفاء من المرض، ونهايته حلوة ومريحة، وهكذا حال كظم الغيض وتجرّع الغضب، لأنّه ينقذ الإنسان من الوقوع في هوّة الندم والخجل والأضرار الكثيرة المترتّبة على حالة السخط والحدّة في صورة عدم ضبط الإنسان لنفسه.

وفي الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال: «قالَ لِي أبي: يَا بُنَيَّ مَا مِنْ شَيْءٍ أَقَرَّ لِعَيْنِ أَبِيكَ مِنْ جُرْعَةِ غَيْظٍ عَاقِبَتُهَا صَبْرٌ وَمَا مِنْ شَيْءٍ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِذُلِّ نَفْسِي حُمْرَ

---

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ٦٣٩، ح ٥.

٢. المصدر السابق، ص ٦٣٨، ح ٢.

٣. «مغبّة» العاقبة. وأصلها من «غبّ» وأحياناً تأتي هذه المفردة في مورد الأعمال والتي تعني عدم التوالي أو الانقطاع بين فترة وأخرى، كما ورد في الحديث الشريف عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال لبعض أصحابه: «زُرْ غِبّاً تَزْدَدْ حُبّاً». (مستدرك الوسائل، ج ١٠، ص ٣٧٤، ح ١٢٢١٠).

النَّعَمِ»[١].

وفي حديث آخر عن الإمام الصادقعليه السلام يقول: «مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ مَلَأَ اللهُ قَلْبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رِضَاهُ»[٢].

ويضيف الإمامعليه السلام في التوصية الخامسة ويقول: «وَلِنْ[٣] لِمَنْ غَالَظَكَ[٤] فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ».

الكثير من الأشخاص يسلكون سبيل العنف في حال الغضب والسخط، وتزداد وتيرة الحدّة وتتفاقم حالة الغضب حتّى تصل أحياناً إلى مواقع الخطر، ولكن إذا أمسك الإنسان زمام نفسه وكظم غيظه وضبط حدّة الغضب بإرادته، وبدلاً من استخدام آلية العنف فإنّه يستخدم آلية المداراة والانعطاف، فليس فقط تزول حالة الصراع والنزاع مع الطرف الآخر، بل تحلّ المودّة والمحبّة محلّها، كما ورد هذا المعنى في القرآن الكريم حيث تؤكّد الآية الشريفة على لزوم الإحسان في مقابل الإساءة لتحويل الطرف المقابل من عدوّ إلى صديق وتقول: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٥].

ثمّ يتحدّث الإمامعليه السلام في التوصية السادسة عن التفضّل على العدوّ، ويقول: (وَخُذْ عَلَى عَدُوِّكَ بِالْفَضْلِ فَإِنَّهُ أَحْلَى الظَّفَرَيْنِ»، أي الظفر عن طريق العنف والقوّة، والظفر عن طريق المحبّة والمودّة.

وهذه الجملة في الحقيقة تأكيد على ما تقدّم من توصيات، ولكنّها تتمتع ذات جمال أخّاذ في صياغتها، يقول: ربّما تنتصر على عدوّك بآليات العنف والقوة، ولكن

---

١. الكافي، ج ٢، ص ١١٠، ح ١٠.
٢. المصدر السابق، ح ٦.
٣. «لِن» فعل أمر، من «اللين» على وزن «صين» وتعني المرونة وعدم القساوة.
٤. «غالظ» من «الغلظة» وهي الخشونة (وتقع على الضد من الليونة والانعطاف).
٥. سورة فصلت، الآيتان ٣٤ و ٣٥.

يمكنك أن تحقّق هذا النصر من خلال إبراز المحبّة والمودّة، ومعلوم أنّ الطريق الثاني أحلى وأحسن عاقبة، لأنّك في المستقبل ستعيش فارغ الذهن عن خوف الانتقام من العدوّ في حين أنّك إذا انتصرت عليه باستعمال القوّة، فسوف تتوقّع في كلّ وقت ظهور نزاع جديد باستخدام القوّة من قِبل العدوّ، وبعبارة أخرى، أنّ العدوّ سيبقى في الطريق الأول عدوّاً، في حين أنهّ في الطريق الثاني سيتبدّل إلى صديق.

ينقل أبوالفرج الاصفهاني في كتاب مقاتل الطالبيين قصّة جميلة في هذا المجال عن الإمام موسى بن جعفرعليه السلام قال: إنّ رجلاً من ولد عمر بن الخطّاب كان بالمدينة يؤذي أبا الحسن موسىعليه السلام ويسبّه إذا رآه، ويشتم عليّاًعليه السلام. فقال له بعض جلسائه يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر، فنهاهم الإمام موسى الكاظمعليه السلام عن ذلك أشدّ النهي وزجرهم أشدّ الزجر، فسأل عن العمري، فذُكر له أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به العمري: لا توطئ زرعنا، فتوطّأه أبو الحسن موسىعليه السلام بالحمار حتّى وصل إليه، فنزل وجلس عنده وباسطه وضاحكه وقال له: «كَمْ غَرِمتَ فِي زَرْعِكَ هذا؟» (أي صرفت على زرعك).

فقال العمري: مائة دينار، فقال الإمامعليه السلام: «وَكَمْ تَرجُو أن تُصِيبَ؟» (أي تربح من الزرع).

قال العمري: لست أعلم الغيب، فقال الإمامعليه السلام له: «إنّما قُلتُ لكَ كَمْ تَرجُو أن يَجِيئُكَ فِيه»، قال العمري: أرجو أن يجيئني فيه مائتا دينار.

فأخرج الإمام الكاظمعليه السلام صرّة فيها ثلاثمائة دينار وقال: «هذا زَرْعُكَ على حَالِهِ واللهُ يَرزُقُك فِيه ما تَرْجُو».

فقام العمري فقبّل رأسه وسأله أن يصفح عن فرطه (أي ما فرط في حقّ الإمامعليه السلام) فتبسّم إليه أبو الحسنعليه السلام وانصرف.

قال الراوي: وراح الإمام الكاظمعليه السلام إلى المسجد فوجد العمرّي جالساً، فلمّا

نظر إليه قال: «اَللّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَه»، فوثب أصحاب العمرّي إليه، فقالوا له: ما قصّتك، قد كنت تقول غير هذا؟

قال العمري: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن الإمام الكاظم عليه السلام، فخاصموه وقاطعهم، فلمّا رجع أبوالحسن عليه السلام إلى داره، قال لجلسائه الذين سألوه في قتل العمري: أيّما كان خيراً، ما أردتم أو ما أردت، إنّني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكفيت شرّه[1].

ويقول الإمام في التوصية السابعة: «وَإِنْ أَرَدْتَ قَطِيعَةَ أَخِيكَ فَاسْتَبْقِ لَهُ مِنْ نَفْسِكَ بَقِيَّةً يَرْجِعُ إِلَيْهَا إِنْ بَدَا لَهُ ذَلِكَ يَوْماً مَا».

وهذا يعني أنّ الإنسان ينبغي أن يسير في مسألة الصداقة في خطّ الاعتدال، ولا يفشي أسراره كلّها لصديقه، حتّى لا يتورّط فيما لو انقلبت هذه الصداقة يوماً ما إلى عداوة ويواجه الضرر والخسارة، وهكذا بالنسبة للحالة الأخرى، فالإنسان لا ينبغي أن يقطع صلته تماماً مع صديقه ويهدم كلّ الجسور خلفه، لأنّه ربّما يندم ويريد إعادة العلاقة مع الطرف الآخر، ولكنّه لا يجد طريقاً لمدّ جسور الثقة معه.

وهذا المضمون ورد بشكل أشمل في كلام آخر لأميرالمؤمنين عليه السلام (طبقاً لما ورد في بحارالانوار) قال: «أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْناً مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْماً مَا وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْناً مَا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْماً مَا»[2].

وينقل ابن أبي‌الحديد عن بعض العلماء هذا المعنى ببيان آخر قال: «إِذَا هَوَيْتَ فَلاَ تَكُنْ غَالِياً وَإِذَا تَرَكْتَ فَلاَ تَكُنْ قَالِياً»[3].

وفي التوصية الثامنة والأخيرة من هذا المقطع من الوصية يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ ظَنَّ بِكَ خَيْراً فَصَدِّقْ ظَنَّهُ».

---

١. مقاتل الطالبيين، ص ٣٣٢. وأورد هذه القصة المرحوم العلّامة المجلسي بشكل أوسع في بحار الأنوار، ج٤٨، ص ١٠٢، ح ٧ (مع اختلاف يسير).

٢. بحار الأنوار، ج ٧١، ص ١٧٧، ح ١٤.

٣. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٦، ص ١١٠.

وهو إشارة إلى أنّ شخصاً لو كان يظن أنّك من أهل الخير والبذل والعطاء وطلب منك شيئاً أو استعان بك على أمر، فعليك أن تصدّق ظنّه وتثبت له أنّك عند حسن ظنّه.

ومثل هذا السلوك يمتاز بمزيّتين؛ فمن جهة يكرّس حسن ظنّ الناس بالشخص، ومن جهة أخرى يقوده حسن الظنّ في طريق الخير والصلاح.

وقد يصادف كثيراً أن يأتي بعض الأشخاص لدى المرء ويقولون: إننا نواجه مشكلة ونعتقد أنّ حلّها بيدك، فهنا يجب على الإنسان أن يسعى لحلّ مشكلة هؤلاء ويؤكّد لهم صدق ظنّهم ولا يتبدّل حسن الظنّ إلى سوء الظن.

৯০৫

القسم السادس والعشرون

وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيْسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ. وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَىٰ الْخَلْقِ بِكَ، وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ عَنْكَ، وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَى قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَىٰ الْإِسَاءَةِ أَقْوَىٰ مِنْكَ عَلَىٰ الْإِحْسَانِ. وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ، وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ.

الشرح والتفسير

لا تضيّع حقّ الصديق

في هذا المقطع من الوصية النيّرة يطرح الإمام عليه السلام كما في القسم السابق، ستّ نصائح مهمّة في عبارات موجزة لولده الإمام الحسن المجتبى عليه السلام يقول أوّلاً: «وَلَا تُضِيعَنَّ حَقَّ أَخِيكَ اتِّكَالاً عَلَى مَا بَيْنَكَ بَيْنَهُ، فَإِنَّهُ لَيسَ لَكَ بِأَخٍ مَنْ أَضَعْتَ حَقَّهُ».

وهذا يعني أنّ جميع الإخوة والأصدقاء يتوقّعون من أصدقائهم احترام حقوقهم، ولو شاهدوا خلاف ذلك فإنّ من شأنه تعريض أركان الأُخوّة والصداقة إلى الاهتزاز، ولكن للأسف فإنّ بعض الأشخاص يفكّرون بخلاف هذه الطريقة ويحسبون أنّهم إذا لم يراعوا حقّ الأخ والصديق والرفيق، فذلك ليس بالأمر المهمّ ويتوقّعون من الطرف الآخر القبول والإغماض، في حين أنّ هذا خطأ كبير، لأنّ مثل هذه السلوكيات الجافّة وهذه اللامبالاة للحقوق إذا لم تؤثّر عاجلاً في إضعاف وشائج المودة، فإنّها بالتدريج تعرّض دعائم الأُخوّة والصداقة إلى الضعف والاهتزاز.

وهذا الكلام من قبيل ما لو أنّ شخصاً مديناً لعدد كبير من الناس وكان يسعى

لإرضاء الآخرين وكسب ودّهم، ويغفل عن مطالبات أصدقائه ويعتقد أنّ هذه اللامبالاة بحقوقهم لا يترتّب عليها شيء.

وفي التوصية الثانية يضيف الإمامعليه السلام ويقول: «وَلَا يَكُنْ أَهْلُكَ أَشْقَى الْخَلْقِ بِكَ».

أي لا ينبغي أن تتعامل مع أهلك بآليات الإساءة بحيث يقفون منك موقفاً سلبياً ويتمنّون موتك وزوال النعمة عنك.

وهناك احتمال آخر في تفسير هذه الجملة أيضاً، وهو أنّه لا ينبغي أن تبذل كلّ اهتمامك لأصدقائك وتغفل عن أهلك وأُسرتك وتتركهم يعيشون في حالة من الشقاء والمعاناة.

الكثير من الأشخاص يصرفون جلّ أوقاتهم مع الأصدقاء والزملاء ويعيشون معهم غالباً في أجواء المحبّة ويبذلون لهم كلّ مساعدة، ولكنّهم يحرمون أُسرتهم من هذه المودّة والصفاء أو القيام بمسؤوليات الأُسرة.

ونقرأ في حديث عن الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضاعليه السلام قال: «يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يُوَسِّعَ عَلَى عِيَالِهِ كَيْلَا يَتَمَنَّوْا مَوْتَه»، فجدير بالإنسان عندما يحصل على نعمة أن يرفه على عياله ولا يضيّق عليهم، حتّى لا يقفوا منه موقفاً سلبياً.

ثمّ إنّ الإمامعليه السلام في ذيل هذه الرواية يقول: «الأسيرُ (العائلة) عيالُ الرَّجُلِ وَيَنبغِي للرّجلِ إذا زِيدَ فِي النّعمةِ أنْ يَزيدَ أُسَراءَهُ فِي السِّعةِ عَليهُم، ثمّ قال: إنّ فُلاناً أنعَم اللهُ عَليهِ النّعمةَ، فَمَنعَها أُسَراءَهُ وَجَعلَها عندَ فُلانٍ، فَذهبَ اللهُ بِها»[1].

وفي التوصية الثالثة يقول الإمامعليه السلام: «وَلَا تَرْغَبَنَّ فِيمَنْ زَهِدَ[2] عَنْكَ».

لأنّ مثل هذه العلاقة تقود الإنسان إلى مهاوي الذلّة والمهانة، وصحيح أنّه طبقاً للتوصيات السابقة فأنّه يجب على الإنسان أن يحتفظ بالعلاقة مع الشخص الذي

---

١. الكافي، ج ٤، ص ١١، ح ٣.

٢. مفردة «زهد» سواء كان متعدية بـ«في» أو بـ«عن» تعني في كلا الأمرين عدم الاهتمام والاعتناء، والزاهد إنّما يقال له زاهد لأنّه لا يعتني بزخارف الدنيا ولا يهتم بمتطلباتها.

قطع علاقته به؛ ولكن هذا المعنى إنّما يصحّ فيما لو وقف الطرف المقابل موقفاً إيجابياً منه، ولكن إذا تعامل معه من موقع التحقير واللامبالاة، فلا ينبغي على الإنسان أن يذّل نفسه ويتوجّه إليه ويتوسّل به، بل ينبغي أن يغضّ النظر عنه، فالإنسان كما يقول المثل يجب أن يضحّي لمن يهتمّ به.

وفي التوصية الرابعة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكُونَنَّ أَخُوكَ أَقْوَىٰ عَلَىٰ قَطِيعَتِكَ مِنْكَ عَلَىٰ صِلَتِهِ، وَلَا تَكُونَنَّ عَلَىٰ الْإِسَاءَةِ أَقْوَىٰ مِنْكَ عَلَىٰ الْإِحْسَانِ».

وهذا إشارة إلى أنّ الطرف المقابل مهما سعى لقطع العلاقة معك، فينبغي عليك أن تصرّ على توثيقها وتقويتها، وكلّما رأيت منه إساءة، فيجب أن تقابلها بالإحسان.

وطبعاً هذا في مورد الأشخاص الذين تؤثّر فيهم المحبّة والإحسان، وعلى هذا الأساس لا تتنافى مع الجمل السابقة.

وفي التوصية الخامسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّهُ يَسْعَىٰ فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ».

وهذا يعني أنّ الإنسان لا ينبغي أن يستاء كثيراً في مقابل حالات الظلم التي يواجهها، ولا يدع لليأس أن يتخذ طريقاً له في حياته، بل عليه أن يعتقد بأنّ هذا الظالم الذي قصّر في حقّه وظلمه، إنّما يظلم نفسه وينفع المظلوم في نهاية المطاف حيث يحمل وزر المظلوم على ظهره يوم القيامة، والحقيقة أنّ ضرر الظلم يصيب مرتكبه ويخفّف عن كاهل المظلوم وزره.

وهذا الكلام يشبه ما ورد في الروايات في باب الغيبة وأنّ أحد العلماء سمع رجلاً يغتابه ويتحدّث عنه بسوء، فأهدى إليه هدية، فتعجّب ذلك الرجل فقال له هذا العالم: سمعت أنّ حسناتك قد انتقلت إلى صحيفة أعمالي، وقد تقبّلت سيّئاتي، وأنا بدوري أشكرك على هذه الخدمة وهذا الإحسان إليّ.

وهذا الكلام لا يعني أنّ الإنسان ينبغي أن يلتزم الصمت في مقابل الظالمين ولا يتصدّى لهم بالاعتراض، لأنّنا نعلم أنّ شعار الإسلام هو: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا

تُظْلَمُونَ﴾[١]، ونعلم أنّ الإمام عليّاً عليه السلام ذكر في وصيته لأبنائه وهو في فراش الشهادة قال: «كُونَا لِلظَّالِمِ خَصْماً وَلِلْمَظْلُومِ عَوْناً»[٢] بل المقصود أنّ الإنسان عندما يقع مظلوماً ولا يملك القدرة على ردّ الظلم والتصدّي للظالم، لا ينبغي له اليأس والتشاؤم وإطلاق كلمات اللعن والتأوّه، والشاهد على هذا الكلام ما ورد في الحديث المشهور عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله عندما سرق أحدهم عقد عائشة وأخذت عائشة بلعن السارق، فقال لها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «لاَ تَمْسَحِي عَنْهُ بِدُعَائِكَ»[٣]، أي لا تدرئي عنه العذاب بهذا اللعن، فعليك بضبط نفسكِ ولسانكِ عنه واعلمي أنّه قد ظلم نفسه وإنّ الله تعالى سيثيبكِ على صبركِ وتحمّلكِ.

وهنا توجد نقطة دقيقة ينبغي الالتفات إليها، وهي أنّ الظالم كالسارق مثلاً، عندما يورد الضرر والخسارة المالية على المظلوم من جهة ويجعله يعيش الحزن والألم الروحيّ من جهة أخرى، فإنّ الله تعالى يثيبه على كلا الأمرين، ولكن لو دعا المظلوم على من ظلمه وأخذ يلعنه باستمرار ليشفي غيض قلبه ويهدّىء من غيضه، فمن الطبيعي أن يخفّف ذلك من عذاب الظالم.

فيتبيّن ممّا تقدّم أنّ ما ذهب إليه بعض شرّاح نهج‌البلاغة كابن أبي‌الحديد من اتّخاذ السكوت في مقابل ظلم الظالمين كقاعدة كليّة، خطأ كبير، بل ينبغي القول أنّ هذا المورد يعدّ استثناءً وناظر إلى موارد خاصّة، وأمّا الأصل الكلّي في الإسلام فهو أن لا يقع الإنسان مظلوماً ولا ظالماً.

وأخيراً يقول الإمام عليه السلام في التوصية السادسة من هذا المقطع من الوصية: «وَلَيْسَ جَزَاءُ مَنْ سَرَّكَ أَنْ تَسُوءَهُ».

وهذه النصيحة مقتبسة من القرآن الكريم حيث قال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٧٩.

٢. نهج‌البلاغة، الرسالة ٤٧.

٣. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٦، ص ١١١.

الإِحْسانُ﴾[١].

وذهب بعض الشرّاح إلى أنّ هذه الجملة لا تعتبر كلاماً مستقلاً، وقالوا: إنّها استمرار للتوصية السابقة، وأنّ الإمامعليه السلام يقول: إنّ الظالم إنّما يضرّ نفسه وينفعك، ومن هذا منطلق فالشخص الذي أوصل إليك النفع لا ينبغي أن تسوءه (من خلال الدعاء عليه وإظهار التظلّم بشكل متكرّر).

١. سورة الرحمن، الآية ٦٠.

القسم السابع والعشرون

وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ. مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَىٰ، إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَىٰ مَا تَفَلَّتَ مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَىٰ كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ. اسْتَدِلَّ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الْأُمُورَ أَشْبَاهٌ؛ وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، الْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ. اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ. مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ، وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ، وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ. الْهَوَىٰ شَرِيكُ الْعَمَىٰ وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ، وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ. مَنْ تَعَدَّىٰ الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ، وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَىٰ لَهُ. وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ، بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ. وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ. قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَا كَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً. لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ، وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ، وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَىٰ رُشْدَهُ. أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ، وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ. مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ. لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَىٰ أَصَابَ. إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ. سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ. إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ.

الشرح والتفسير

ثمان وعشرون موعظة أخرى

في المقطع السابع والعشرين من هذه الوصية الرائعة يشير الإمام عليه السلام إلى ثمان وعشرين موضوعاً مهمّاً من موقع النصيحة، وبذلك يزيد من ثراء وعمق هذه الوصية.

الأولى: يتحدّث الإمام عليه السلام أولاً عن مسألة الرزق حيث يتحرّك الكثير من الناس طلباً له بحالة من الحرص والولع ويقول: «**وَاعْلَمْ يَا بُنَيَّ أَنَّ الرِّزْقَ رِزْقَانِ: رِزْقٌ تَطْلُبُهُ، وَرِزْقٌ يَطْلُبُكَ، فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تَأْتِهِ أَتَاكَ**».

وهذه الجملة، بقرينة ما ورد في جملة مشابهة لها وأكثر تفصيلاً في كلمات الإمام عليه السلام القصار[١]، ناظرة إلى أنّ الإنسان لا ينبغي أن يعيش الحرص والوله بالرزق، ولا ينبغي أيضاً أن يتكاسل في طلبه.

ومراد الإمام عليه السلام من الرزق الذي يجب على الإنسان أن يطلبه، هو الكسب والعمل اليوميّ في طلب المعاش، مثل، الزراعة، الصناعة، التجارة وأمثال ذلك، ومراده من الرزق الذي يطلب الإنسان ويأتيه وإن أعرض عنه الإنسان أو لم يطلبه، الهدايا أو التجارة والأرباح التي يصيبها الإنسان من غير احتساب، وعلى ضوء ذلك إذا ضاق عليه القسم الأول من الرزق فلا ينبغي أن ييأس من لطف الله بل يتوقّع، مع استمراره في الحركة والسعي والكسب، أن يرزقه الله من حيث لا يحتسب.

وعندما يرى الإنسان في عالم الخلقة موارد كثيرة من الرزق من النوع الثاني، فإنّ هذا الأمل سيقوى ويتعمّق في قلبه، ففي يوم كان الجنين في عالم الرحم يأتيه رزقه من خلال المشيمة والحبل السرّي المتّصل برحم الأم، وبعد ولادته يأتيه رزقه من صدر أُمّه لإدامة حياته وما يحتاجه بعد ولادته من الغذاء، يقول القرآن الكريم: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[٢].

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٧٩.

٢. سورة هود، الآية ٦.

وعندما يسير الإنسان في خطّ التقوى والورع ويجتنب الأموال والأرباح المحرّمة، فإنّ الله تعالى يبشّره بسعة الرزق ويقول: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبْ﴾[1].

ومن جهة أخرى نشاهد في عالم الخلقة وجود أرزاق كثيرة وضرورية لحياة الإنسان وبشكل وافر، بمقتضى رحمانية الله تعالى لجميع أفراد البشر أعمّ من المؤمن والكافر، فنور الشمس وبركات الأرض، والأمطار، والأُوكسجين في الفضاء ممّا لا يستطيع الإنسان في الحياة بدونها، فكلّها من الأرزاق والنعم الإلهيّة التي أنعم الله بها على الإنسان ممّا لم يطلبه ويتحرّك في سبيل كسبه.

ويقول القرآن الكريم أيضاً: ﴿وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ﴾[2].

ويقول أيضاً: ﴿وَما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها﴾[3].

وبالرغم من أنّ هذه الآية الشريفة، ومن خلال القرائن الموجودة فيها، ناظرة فقط إلى قطرات المطر، ولكن الآية السابقة لها تملك مفهوماً أوسع وأشمل بحيث تشمل نور الشمس الذي يعدّ العلّة الرئيسية لكلّ حركة في الكرة الأرضية كحركة الرياح والهواء الذي يعتبر مصدر حياة جميع الأحياء أيضاً.

وفي تاريخ القدماء نقرأ أحياناً بعض القصص التي تكشف عن الحوادث التي تعتبر مصداقاً حيّاً في الرزق الذي يطلب الإنسان دون أن يطلبه أو يتوقّعه، فمن ذلك ما ذكره ابن أبي‌الحديد في شرحه لهذه الجملة عن عماد الدولة (من سلاطين آل بويه): والقصة هي: دخل عماد الدولة أبوالحسن بن بويه مدينة شيراز بعد أن هزم ابن ياقوت وأجلاه عنها، وهو فقير لا مال له، فساخت إحدى قوائم فرسه في الأرض، فنزل عنها وابتدرها غلمانه وخلّصوها، فظهر لهم في ذلك الموضع نقب

---

١. سورة الطلاق، الآيتان ٢ و ٣.

٢. سورة الذاريات، الآية ٢٢.

٣. سورة الجاثية، الآية ٥.

وسيع، فأمرهم بحفره، فوجدوا فيه أموالاً عظيمة وذخائر لابن ياقوت، ثمّ استلقى يوماً آخر على ظهره في داره بشيراز التي كان ابن ياقوت يسكنها، فرأى حية في السقف، فأمر غلمانه بالصعود إليها وقتلها، فهربت منهم ودخلت في خشب الكنيس، فأمر من يقلع الخشب وتستخرج وتقتل، فلما قلعوا الخشب وجدوا فيها أكثر من خمسين ألف دينار ذخيرة لابن ياقوت.

واحتاج أن يفصّل ويخيط ثياباً له ولأهله، فقيل: هاهنا خيّاط حاذق كان يخيط لابن ياقوت، وهو رجل منسوب إلى الدين والخير، إلّا أنّه أصمّ لا يسمع شيئاً أصلاً، فأمر بإحضاره فأُحضر وعنده رعب وهلع، فلمّا أدخله إليه كلّمه فقال: أريد أن تخيط لنا كذا وكذا قطعة من ثياب، فارتعد الخياط واضطرب كلامه وقال: والله يا مولانا ما له عندي إلّا أربعة صناديق ليس غيرها، فلا تسمع قول الأعداء فيَّ، فتعجّب عماد الدولة وأمر بإحضار الصناديق فوجدها كلّها ذهباً وحلية وجواهر، وديعة لابن ياقوت[1].

الثانية: والنصحية الثانية للإمام عليه السلام يقول: «**مَا أَقْبَحَ الْخُضُوعَ عِنْدَ الْحَاجَةِ، وَالْجَفَاءَ عِنْدَ الْغِنَى**».

وهذا إشارة إلى أنّ الأشخاص من ضعفاء النفوس عندما يحتاجون إلى هذا وذاك، فإنّهم يعرضون حاجتهم بالكثير من حالات الذلّة بحيث تتعرّض شخصيتهم للاهتزاز، ولكن عندما يعيشون القدرة وعدم الحاجة، فإنّهم يتعاملون مع المحتاجين من موقع الازدراء واللامبالاة، وكلا هاتين الصفتين من الرذائل الأخلاقية، فينبغي للإنسان عند الحاجة أن يحفظ مناعة الطبع والعزّة في نفسه، وعند القدرة وعدم الحاجة لا يبخل في اللطف وإظهار المحبّة والتواضع للمحتاجين.

وذهب بعض شرّاح نهج البلاغة[2] إلى أنّ هذا الكلام ناظر إلى مورد في الآية

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١٤.

٢. المصدر السابق، ص ١١٥.

الشريفة: ﴿حَتّٰى إِذٰا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهٰا جٰاءَتْهٰا رِيحٌ عٰاصِفٌ جٰاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكٰانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللّٰهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنٰا مِنْ هٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّٰاكِرِينَ * فَلَمّٰا أَنْجٰاهُمْ إِذٰا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[1].

وعلى هذا الأساس فإنّ العبارات أعلاه ناظرة إلى العلاقة بين الخلق والخالق في حين أنّ الأمر ليس كذلك، والظاهر أنّ هذه الجمل والعبارات ناظرة إلى العلاقة بين المخلوقين أنفسهم، لأنّ الخضوع أمام الخالق محمود على أيّة حال.

ولا يخفى أنّ المراد من الخضوع في هذا المورد ليس هو التواضع المعقول، بل التواضع المقترن بالذلّة والحقارة، والمراد من الجفاء، إظهار الكراهية وعدم الاحترام، وأمثال ذلك.

ونقرأ في الحديث الشريف عن الإمام أميرالمؤمنينعليه السلام قوله: «مَا أَحْسَنَ تَوَاضُعَ الْأَغْنِيَاءِ لِلْفُقَرَاءِ طَلَباً لِمَا عِنْدَ اللهِ وَأَحْسَنُ مِنْهُ تيهُ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْأَغْنِيَاءِ اتِّكَالاً عَلَى اللهِ»[2].

ويقول أحد الشعراء في هذا المجال:

خُلْقَانِ لا أَرْضَاهُمَا لِفَتىً ... تِيهُ الْغِنىٰ وَ مَذَلَّةُ الْفَقْرِ

فَإِذَا غَنَيْتَ فَلا تَكُنْ بَطِراً ... وَ إِذَا افْتَقَرْتَ فَتِه عَلَى الدَّهْرِ

الثالثة: «إِنَّمَا لَكَ مِنْ دُنْيَاكَ، مَا أَصْلَحْتَ بِهِ مَثْوَاكَ[3]».

وهذا إشارة إلى أنّ الثروات الدنيوية تذهب وتروح، وأحياناً قد يترك الإنسان آلافاً مؤلّفة منها للورثة، ويبقى حسابها ووزرها عليه في الآخرة، ويتمتّع بها الآخرون في الدنيا، فهذه الأموال لا تعتبر مالاً حقيقياً للإنسان، والمقدار الذي يعتبر

١. سورة يونس، الآيتان ٢٢ و ٢٣.

٢. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٤٠٦.

٣. «مثوى» كما أشرنا سابقاً أنّها تعني المكان والمنزل، وهنا جاءت بمعنى منزل الآخرة.

ملكه في الحقيقة هو ما استخدمه لإصلاح آخرته وأرسله أمامه إلى حياته بعد الموت.

ونقرأ في الكلمات القصار للإمام عليه السلام قوله: «لِكُلِّ امْرِئٍ فِي مَالِهِ شَرِيكَانِ: الْوَارِثُ وَالْحَوَادِثُ»[1].

ونقرأ في حديث آخر عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله قوله: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي وَهَلْ لَكَ مِنْ مَالِكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَالُ الْوَارِثِ»[2].

يعني أنّ المال الحقيقي للإنسان يكون على قسمين: قسم يستفيد منه بمصارفه ومعيشته في الدنيا، وقسم آخر يجعله ذخيرة لآخرته ويوم معاده، وسائر أمواله موهومة ربّما تسلب منه في بعض الحوادث، ولو بقي منها شيء فهو نصيب الورثة.

الرابعة: يشير الإمام عليه السلام هنا إلى نقطة أخرى، وجدير بالإنسان أن يتذكّرها كلّ يوم وهي قوله: «وَإِنْ كُنْتَ جَازِعاً عَلَىٰ مَا تَفَلَّتَ[3] مِنْ يَدَيْكَ، فَاجْزَعْ عَلَىٰ كُلِّ مَا لَمْ يَصِلْ إِلَيْكَ».

الكثير من الأشخاص عندما يفقدون المال والمقام الذي كانوا يملكونه تراهم يرتفع عويلهم وصراخهم ويتحسّرون على ذلك أيّاماً طوالاً، وربّما شهوراً وأعواماً مديدة، ولكنّهم بالنسبة للأموال والمقامات التي لم يحصلوا عليها أبداً لا يعيشون تجاهها هذه الحالة، في حين أنّنا إذا دقّقنا النظر فإنّ كلا الحالين سواء، فالتقدير الإلهيّ قضى بأنّ هذا المال أو المقام يكون من نصيبي لمدّة سنة أو عدّة سنوات ثم يزول إلى غيري، بحسب الأسباب الظاهرية أو الغيبية، فما الفرق بين البقاء والحدوث؟ فإذا لم نجزع على غير المقدّر حدوثه فلماذا لا نعيش هذه الحالة في حال فقدانه؟ وطبعاً أحياناً يتصوّر الإنسان أنّ هذا المال أو المقام لابدّ أن يبقى عنده

---

١. نهج البلاغة، الكلمات القصار، ٣٣٥.

٢. بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٣٨، ح ٦.

٣. «تفلّت» من «الفلت» على وزن «فقر» وفي الأصل بمعنى الخلاص، وتأتي أيضاً بمعنى الأمور التي تصدر من الإنسان بشكل عفوي وبدون تأمّل.

أكثر من المدّة المقدرّة، ولكن بحسب عالم الأسباب والمسبّبات فإنّ هذا التصوّر مجرّد خيال باطل، والتأسّف عليه مثل تأسّف الشخص الذي رأى في منامه أنّه يملك مالاً ومقاماً وعندما يستيقظ فإنّه يجزع على ما ذهب من يده في منامه.

الخامسة: يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية إلى نقطة مهمة أخرى ويقول: «**اسْتَدِلَّ عَلَىٰ مَا لَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ، فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ**».

وهذا يعني وجود سلسلة من القوانين الكلية الحاكمة على عالم الوجود وعلى المجتمعات البشرية، ولها في كلّ زمانٍ مصاديق في أرض الواقع، ولكن كلّ هذه المصاديق والموارد مشمولة لتلك القوانين الكلية، وعليه فالإنسان بإمكانه ـ من خلال مطالعة حالات القدماء والمجتمعات الماضية بل وحتّى مراجعة ما واجهه من حوادث ومتغيّرات في سنوات عمره الماضية ـ أن يتعرّف على المسائل التي تواجهه في الحاضر والمستقبل من خلال المقارنة، لئلاّ يتورّط بعناصر الخطأ والضرر والخسران.

وهذا الكلام يشبه ما ورد عن الإمام عليه السلام في خطبة أخرى حيث قال: «**عِبَادَ اللهِ إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ**»[1]، وهذا الكلام متداول في تعبيراتنا اليوميّة حينما نقول: التاريخ يعيد نفسه.

وفي ذيل الخطبة يتحدّث الإمام عليه السلام عن كيفية تكرار التاريخ، وقد تحدّثنا في شرحها تحت ستّة عناوين: الزوال السريع للنعم، عدم ثبات الحوادث في العالم، عدم وفاء الدنيا وأهلها، الغرور والإخفاقات الناشئة عنه، تغيّر الحالات والروحيات لدى الأفراد بحيث إنّ أقرب المقرّبين ربّما يتحوّل إلى أخطر الأعداء، وأخيراً أنّ الذي يبقى ويعدّ ذكرى جميلة للإنسان في هذا العالم، أشكال الإحسان والمحبّة والإخلاص، وما يؤدّي إلى اللعن ويسبّب السمعة السيئة للإنسان هو الظلم والجور وسلب الحقوق.

---

١. نهج البلاغة، الخطبة ١٥٧.

أجل، هذه الأمور كلّها تتكرّر حالياً كما وقعت في السابق، ومن هنا فإنّ العقلاء من الناس هم الذين يطالعون ماضيهم وتاريخ القدماء من بعمق وتمعّن ويستلهموا منها الدروس والعبر.

السادسة: يقول: «وَلَا تَكُونَنَّ مِمَّنْ لَا تَنْفَعُهُ الْعِظَةُ إِلَّا إِذَا بَالَغْتَ فِي إِيلَامِهِ، فَإِنَّ الْعَاقِلَ يَتَّعِظُ بِالْآدَابِ، وَالْبَهَائِمَ لَا تَتَّعِظُ إِلَّا بِالضَّرْبِ».

وهو إشارة إلى أنّ الناس على نحوين: فبعض يتّعظ بأدنى تفكير وتنبيه ويلتفت إلى خطئه ويسعىٰ لإصلاحه، هؤلاء هم الأشخاص الواقعيون، ولكنّ البعض الآخر لا يتّعظ بسهولة إلّا إذا وصلت السكّين إلى العظم فما لم يشعروا بالتوبيخ والتحقير والذمّ أو يواجهوا الضرر والخسارة نتيجة أعمالهم، فإنّهم لا يرعون عن غيّهم، فهؤلاء حالهم حال الأنعام والبهائم التي لا تتعلّم إلّا بالضرب، ولا تسكن وتترك الجموح إلّا بالسوط.

السابعة: يشير الإمام عليه السلام إلى توصية مهمّة أخرى ويقول: «اطْرَحْ عَنْكَ وَارِدَاتِ الْهُمُومِ بِعَزَائِمِ الصَّبْرِ وَحُسْنِ الْيَقِينِ».

إشارة إلى أنّ الحياة عبارة عن مجموعة من الحوادث المرّة والحلوة، وكلّ وقت تهجم على الإنسان الغموم والأحزان، تارة على شكل هموم اجتماعية وأخرى سياسية وثالثة مادية أو عائلية، فالإنسان إذا رضخ وخنع أمام هجوم هذه الهموم فسوف يعيش الإخفاق والفشل في حياته، ولكنّه يستطيع التغلّب على هذه الهموم والتحدّيات بالاستعانة بقوّتين:

الأُولى: قوّة الصبر والاستقامة، وأن يعلم أنّه سواء صبر أو لم يصبر، فإنّ مثل هذه الحوادث خارجة عن اختياره، فإذا كانت هذه الهموم ناشئة من جهله وتساهله في الأمور، فعليه تغيير المسار وإصلاح الخلل، فلو التزم بآلية الصبر فإنّه يكون عند الله مأجوراً وسليماً أيضاً، وإن ترك الصبر فإنّ حوادث الدهر تستمرّ في مسيرتها ويفقد الأجر والثواب.

والأخرى، أن يجّهز الإنسان نفسه بقوّة اليقين، وعلى حدّ تعبير القرآن الكريم يقول: ﴿قُلْ لَّنْ يُصِيبَنا إِلاّ ما كَتَبَ اللهُ لَنا﴾[1]، ومعلوم أنّ التقديرات الإلهيّة تنطلق من موقع الحكمة والتدبير الإلهي، سواء علمنا بهذه الحقيقة أم لم نعلم، وبالتالي نستطيع بهاتين القوّتين التصدّي لواردات الهموم وتسكين خلجات النفس وترطيب أجواء الحياة.

ينقل المرحوم مغنية في شرحه لنهج البلاغة قصة مفيدة ويقول: ومن جملة ما قرأت أنّ رجلاً أحس بضعف وانحراف في صحّته، ولمّا عرض نفسه على الطبيب قال له أنّه مريض بسرطان الدم، وأنّه يموت بعد مدة قصيرة، فلم ينزعج وتحدّى المرض، وقال في نفسه: لا فرق بين أن أموت فجأة أو بإنذار سابق، ومضى في عمله كأن لم يكن شيء، استمرّ فيه حتى الآن، ولو أنّه استسلم للوساوس لخارت قواه وأمسى طريح الفراش ينتظر الموت في كلّ لحظة، ومعنى هذا أنّه يموت في اليوم مرّات، ولمّا قيل له: كيف تعمل وأنت على هذه الحال؟ قال: أُجرّب الحكمة القائلة: خير الدواء العمل[2].

ويقول لقمان الحكيم أيضاً في مواعظه الجميلة لولده: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾[3].

الثامنة: يقول: «**مَنْ تَرَكَ الْقَصْدَ جَارَ**».

وهذا يعني أنّ إحراز السلامة في الدين والدنيا يمرّ من خلال الاعتدال، وأنّ كلّ إسراف وتفريط يقود الإنسان إلى دروب الضلالة والشقاء والإخفاق، وأنّ الصراط المستقيم الذي ندعو الله تعالى كلّ يوم في صلاتنا أن يهدينا إليه، هو صراط الاعتدال والاستقامة.

---

١. سورة التوبة، الآية ٥١.
٢. شرح نهج‌البلاغة للشيخ مغنية، ج ٣، ص ٥٢٦.
٣. سورة لقمان، الآية ١٧.

التاسعة: «وَالصَّاحِبُ مُنَاسِبٌ[1]». أي حاله حال أقرباء الإنسان وأرحامه.

وهذا إشارة إلى أنّ رابطة الصداقة تارة تكون قوية إلى درجة أنّها تحلّ محلّ رابطة القرابة والنسب، بل تارة تكون أقوى من ذلك، وهناك مثل معروف يقول أنّه سئل شخص: أيّهما أفضل الصديق أم الأخ؟ فقال: الأخ الصديق أفضل، وهناك مثل معروف أيضاً لدى العرب حيث يقال: «اَلصَّدِيقُ نَسِيبُ الرُّوحِ وَالأَخُ نَسِيبُ الْبَدَنِ»[2].

وقد نستوحي من هذا الكلام هذه النتيجة، وهي أنّ ذات الحقوق المقرّرة للأرحام والأقرباء ينبغي أخذها بنظر الاعتبار من الأصدقاء الجيّدين أيضاً.

العاشرة: يقول: «وَالصَّدِيقُ مَنْ صَدَقَ غَيْبُهُ».

وهو إشارة إلى الأشخاص الذين يظهرون المحبّة والعشق والعلاقة في حضور المرء، ولكن ربّما لا يكون ذلك علامة حقيقية على صدقهم وصداقتهم، فالصديق الواقعي إنّما يتبيّن في غياب صديقه ويراعي حقوقه في غيبته كما في حال حضوره ويتحدّث عنه في غيبته كما يتحدّث أمامه.

الحادية عشر: يشير الإمام عليه السلام في هذه التوصية إلى نقطة مهمّة أخرى ويقول: «وَالْهَوَى شَرِيكُ الْعَمَى»، فكما أنّ الأعمىٰ لا يرى ما حوله من الأجسام حتّى لو كانت قريبة منه ومجاورة له، فإنّ اتّباع الدنيا والسالكين في خطّ الأهواء محرومون من الحقائق الجليّة، لأنّ حجاب الهوى يعتبر أشدّ الحجب ظلاماً ولا توجد آفة للمعرفة أضرّ وأسوء من هذه الآفة.

يقول القرآن الكريم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[3].

---

١. «مناسب» من مادة «نسب» وجاءت هنا بمعنى الأقرباء.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١١٧.

٣. سورة الجاثية، الآية ٢٣.

ويصرّح الإمامعليه السلام في رسالة له لأحد أصحابه بهذه الحقيقة ويقول: «فَارْفُضِ الدُّنْيَا فَإِنَّ حُبَّ الدُّنْيَا يُعْمِي وَيُصِمُّ وَيُبْكِمُ وَيُذِلُّ الرِّقَاب»[١].

الثانية عشر: يقول الإمامعليه السلام: «وَرُبَّ بَعِيدٍ أَقْرَبُ مِنْ قَرِيبٍ، وَقَرِيبٍ أَبْعَدُ مِنْ بَعِيدٍ».

وهو إشارة إلى أنّ العلاقات الجسدية لا تدلّ دائماً على العلاقة القلبية والتجانس الفكري بين الأقرباء، فأحياناً يكون البعيد أقرب إلى الإنسان من قريبه، فالمهمّ وجود ارتباط قلبيّ وعلاقة روحية بين الطرفين، فلو لم يجد الإنسان مثل هذه العلاقة لدى أرحامه وأقربائه فبإمكانه البحث عنها في غيرهم.

ونقرأ في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٢].

الثالثة عشر: يقول الإمامعليه السلام: «وَالْغَرِيبُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَبِيبٌ».

الأمر الذي يخرج الإنسان من عتمة الغربة، المحبّة، والأشخاص الذين لا يعيشون المحبّة من قبل الآخرين يواجهون الوحشة والوحدة، ولهذه الغربة عوامل مختلفة، فأحياناً يقود الكبر والغرور والأنانية صاحبها إلى زاوية الوحدة وتبعد الناس عنه، وأخرى عناصر الحسد والحدّة، وتارة حالات عدم الوفاء وعوامل أخرى.

ومن هذا المنطلق، ولأجل التخلّص من وحشة الغربة، ليس لنا طريق سوى تطهير نفوسنا من الرذائل الأخلاقية والتحلّي بالفضائل التي توفّر لنا أصدقاءً مخلصين وإخوة صالحين.

الرابعة عشر: في هذه التوصية يشير الإمامعليه السلام إلى نقطة في غاية الأهميّة ويقول: «مَنْ تَعَدَّىٰ الْحَقَّ ضَاقَ مَذْهَبُهُ»، لأنّ طريق الحقّ واسع ومعبّد ونوراني، أمّا

---

١. أصول الكافي، ج ٢، ص ١٣٦، ح ٢٣.

٢. سورة التغابن، الآية ١٤.

طريق الباطل فمليء بالعثرات والمطبّات والمنعطفات الخطيرة والمآزق الضيّقة، والسائرون في طريق الحقّ يتحرّكون بسرعة نحو مقصدهم وهدفهم، لأنّ عالم الوجود يتحرّك في طريق الحقّ، ومَن كان منسجماً مع عالم الوجود فإنّه يتحرّك في هذا المسير أيضاً، ولكن السالكون طريق الباطل كمن يسبح عكس التّيار، ومَن يخالف مسار الطبيعة وقوانين الوجود، يوقع نفسه في مآزق عملية ولا يصل إلى نتيجة.

أضف إلى ذلك فإنّ مسير الحقّ كالجادّة الواضحة التي نصبت عليها علامات المرور التي ترشد السالكين فيه لمعرفة وضع المسير، ولكن طريق الباطل يفتقر لكلّ هذه الأمور، ولذلك يقود السالك فيه إلى مهاوي الضلالة ومتاهات الحيرة.

الخامسة عشر: يشير الإمام عليه السلام في هذه الفقرة إلى موضوع معروف ومهمّ ويقول: «وَمَنِ اقْتَصَرَ عَلَىٰ قَدْرِهِ كَانَ أَبْقَى لَهُ».

وبهذا المضمون وردت عبارة أخرى للإمام أميرالمؤمنين عليه السلام في كتاب غرر الحكم، قال: «رَحِمَ اللهُ امْرَءً عَرَفَ قَدْرَهُ وَ لَمْ يَتَعَدَّ طَوْرَهُ»[1].

والتجربة تشير إلى أنّ الأشخاص الذين تجاوزوا حدودهم ولم يعرفوا قدرهم، أثاروا الناس ضدّهم، بحيث أنّ الناس ليس فقط لم يعترفوا لهم بمقامهم الزائف الذي يدّعون، بل سلبوا منهم موقعهم الذي يستحقّون، والسبب واضح، لأنّ الناس يرون في هؤلاء المدّعين الطوبائيين والذين يعيشون حالات النرجسية والغرور أنّهم أشخاص انتهازيون وخونة، وأحياناً حمقى وسفهاء، ولهذا لا يحسبون لهم أية قيمة، ولكنّ الأشخاص الذين يعيشون الصدق والنزاهة والقانعين بحقّهم، يعتبرهم الناس شخصيات محترمة ويمنحونهم المكانة اللائقة ويراعون حقّهم في واقع الحياة الاجتماعية.

السادسة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَأَوْثَقُ سَبَبٍ أَخَذْتَ بِهِ سَبَبٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللهِ سُبْحَانَهُ».

---

١. غرر الحكم، ح ٤٦٦٦.

وهو إشارة إلى أنّ التمسّك بالوسائل الماديّة واللجوء إلى المخلوقين والطلب منهم، طريق لا يعتمد عليه، وربّما لا يوصل إلى نتيجة مطلوبة، فهذه الأسباب لا يوثق بها في تحصل المراد، والأصل الثابت والأساس القائم والخالد هو الباري تعالى الذي لا يمكن لأيّ شيء مخالفة مشيئته وقدرته المطلقة، وعلى ضوء ذلك فالشخص الذي يلتجيء إلى الذات المقدّسة فإنّه يلتجيء إلى حرز حريز وملاذ أمين غير قابل للزوال والاهتزاز، وهذا هو التوحيد الأفعالي الذي يقرّر: «لا مُؤَثِّرَ فِي الوُجُودِ إلّا اللهُ». والقرآن الكريم يقول: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[1].

وذهب بعض إلى أنّ المراد من الوسيلة الإيمان والقرآن الكريم، ولكن من الواضح أنّ الجملة لها مفهوم واسع تشمل جميع الوسائل التي تقرّب الإنسان إلىٰ الله تعالى.

ومعلوم أنّ هذا الكلام لا يعني أن نترك عالم الأسباب والمسبّبات، ولا يعني أيضاً ترك التوسّل بالمعصومين، لأننا إذا توسّلنا بالمعصومين وبالأسباب الطبيعية وكان نظرنا إلى ما ورائها من القدرة الإلهيّة، وكان نظرنا إلىٰ مسبّب الأسباب، فمثل هذا التوسّل وطلب الشفاعة من هؤلاء الأولياء يمثّل تقرّباً إلى الله تعالى وهو من المصاديق البارزة للعلاقة الوثيقة مع الذات المقدّسة.

السابعة عشر: يقول الإمام عليه السلام: «وَمَنْ لَمْ يُبَالِكَ فَهُوَ عَدُوُّكَ».

وطبعاً فالمراد الشخص الذي يرتبط مع الإنسان بنحو من الارتباط، وربّما ادّعى المحبّة والمودّة، ولكن عندما تحين لحظة الدفاع عن الحقّ والعرض والسمعة، فإنّه يواجه هذا الموقف من موقع اللامبالاة وبحالة من البرودة، وهذا يشير إلى أنّه غير صادق في إظهار المحبّة والصداقة، بل يضمر نوعاً من العداوة في داخله ونفسه.

---

١. سورة البقرة، الآية ٢٥٦.

وعلى ضوء ذلك، فلا داعي لحمل هذه الجملة على أنّها ناظرة للعلاقة بين الناس والحكّام، والقول بأنّ بعض الناس ـ فيما يتّصل بالشأن السياسيّ والاجتماعي وما إلى ذلك ـ لا يتحرّكون على مستوى الانسجام مع برنامج الحكومة ويتعاملون مع الخطط والمناهج التي تقرّرها الدولة من موقع اللامبالاة وعدم الاهتمام، فهؤلاء في الحقيقة مخالفون لهذا النظام وأعداء لذلك المنهج[1]، وبخاصّة إذا رأينا أنّ أجواء هذه الوصية لا يرتبط بمقولة العلاقة بين الحاكم والمحكومين، بل بين أفراد المجتمع أنفسهم.

الثامنة عشر: يقول الإمامﷺ في هذه التوصية المثمرة: «قَدْ يَكُونُ الْيَأْسُ إِدْرَاكاً، إِذَاكَانَ الطَّمَعُ هَلَاكاً».

وهذا يعني أنّ الإنسان أحياناً يسعى للتوصّل إلى هدفه وغايته، ويطمع أن ينال بغيته، في حين أنّ الله تعالى يعلم أنّ ذلك مضرٌّ له وفيه خسارته، وبذلك يحرمه من تحقيق غايته، وفي هذا المورد، وإن لم يصل هذا الشخص ظاهراً إلى غايته وهدفه، إلّا أنّه في الحقيقة حصل على الهدف الحقيقي وهو السلامة والمنفعة الحقيقية الكامنة في وجدانه، وعلى ذلك لا ينبغي أن يعيش الإنسان حالات اليأس وفقدان الأمل في عدم الوصول إلى النتيجة ويحسب أنّ ذلك خسارة وإخفاقاً، بل تعدّ هذه الظاهرة في كثير من الموارد نجاحاً وتوفيقاً.

التاسعة عشر: يقول الإمامﷺ: «لَيْسَ كُلُّ عَوْرَةٍ تَظْهَرُ».

هناك احتمالات عدّة في تفسير هذه العبارة: الاحتمال الأول: إنّه إذا كنت تعتقد بأنّ البعض ذو شخصية كاملة حسب الظاهر ولا نقص ولا عيب فيه، فلا تغترّ بهذه الحالة الظاهرية، لأنّه ربّما كانت هناك عيوب خفيّة لم تظهر لك، وعليه ينبغي الاحتياط على كلّ حال، وهذا ما ذهب إليه جماعة من شرّاح نهج البلاغة.

---

١. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد و شرح نهج البلاغة الشيخ مغنية.

الاحتمال الثاني: إنّ الإنسان إذا رأى في نفسه أنّه سليم من كلّ عيب ونقص ظاهراً، فلا يغترّ بذلك، لأنّ الكثير من العيوب لا تظهر للإنسان إلّا بالتأمّل والتفكّر والدقّة، كما ذكروا في حالات بعض العظماء أنّه بعد ثلاثين سنة مثلاً انتبه فجأة ومن خلال حادثة معيّنة، إلى وجود بعض العيوب في نفسه.

الاحتمال الثالث: إذا كانت لديك عيوب ونقاط ضعف وترى أنّك أدنى وأقلّ مرتبة من الآخرين بسبب ذلك، فلا تقلق، بل عليك بإصلاح نفسك وسدّ هذه الثغرات في شخصيتك، لأنّ الآخرين يملكون عيوباً أيضاً ويسعون لإخفائها عن الآخرين.

وبديهيّ أنّ هذه التفاسير لا تتقاطع فيما بينها، وربّما تجتمع كلّها في مفهوم هذه الجملة، وإن كان التفسير الأول أنسب حسب الظاهر.

العشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا كُلُّ فُرْصَةٍ تُصَابُ».

يعني إذا فقدت فرصة فلا تحزن، لأنّ الفرصة أحياناً تأتي بشكل مفاجيء بحيث أنّ الإنسان لا يوفّق للاستفادة منها، رغم أنّه لابدّ من السعي الجادّ لاستغلال الفرص، ولو أنّ الناس استطاعوا استغلال جميع الفرص بدون أن تزول فرصة، فإنّ حياة البشر ستتغيّر وتختلف كثيراً عمّا عليه الآن.

وهذ الكلام النوراني يمنحنا درساً كبيراً، لأننا كثيراً ما رأينا بعض الأشخاص الذين يعيشون التحسّر طيلة عمرهم على فقدان فرصة، ويقولون: إذا كنت قد عملت ذلك العمل في اليوم الفلاني فسأكون كذا وكذا، أو ليت أنّي كنت مستيقظاً في تلك الساعة ولم أفقد تلك الفرصة. هؤلاء وبدلاً من التفكير بالمستقبل يتحسّرون دائماً على الماضي.

الحادية العشرون: في هذا التوصية يطرح الإمام عليه السلام موضوعاً مهمّاً آخر ويقول: «وَرُبَّمَا أَخْطَأَ الْبَصِيرُ قَصْدَهُ، وَأَصَابَ الْأَعْمَىٰ رُشْدَهُ».

وهذا يشير إلى لزوم التدبّر في أعمال أهل الخبرة والمطّلعين من الناس، فلا تتصوّر أنّهم يتحرّكون في مسيرهم بدون ارتكاب خطأ، وكذلك عليك بالدقّة في

أعمال الجهلة والسطحيين من الناس ولا تظنّ أنّهم جميعاً على خطأ في مسيرهم، فربّما لا يصل الخبير إلى مقصوده بسبب بعض العوامل، في حين يحصل الجاهل على غايته.

ونقرأ في رواية عن الإمام عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «كَلِمَتَانِ غَرِيبَتَانِ فَاحْتَمِلُوهُمَا، كَلِمَةُ حِكْمَةٍ مِنْ سَفِيهٍ فَاقْبَلُوهَا وَكَلِمَةُ سَفَهٍ مِنْ حَكِيمٍ فَاغْفِرُوهَا»[١].

وجاء في الأمالي، في ذيل هذا الحديث: «فَإِنَّهُ لَا حَكِيمَ إِلَّا ذُو عَثْرَةٍ وَلَا سَفِيهَ إِلَّا ذُو تَجْرِبَةٍ»[٢].

الثانية والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «**أَخِّرِ الشَّرَّ فَإِنَّكَ إِذَا شِئْتَ تَعَجَّلْتَهُ**».

وهذا يعني أنّ الخير يحتاج إلى مقدّمات، وأنّ الإنسان يجب أن يتعجّل هذه المقدّمات، في حين أنّ الشرّ في كلّ زمان وفي جميع الظروف لا يحتاج إلى مقدّمات بل هو ممكن الصدور من أيّ شخص.

وربّما يراد من هذه العبارة أنّك لا تتعجّل في العقوبة والتوبيخ والمؤاخذة لو كنت على حقّ، لأنّ ذلك متيسّر في كلّ زمان، وستشعر بالندم بعد ذلك، في حين أنّ طريق العودة موصد.

ويحتمل أيضاً في تفسير العبارة مورد البحث أنّ هذه الجملة كناية عن ترك كلّ أشكال الشرّ والإساءة بدون حقّ، من قبيل أن يقول أحد الأشخاص مثلاً: لقد تألمت بشدّة إلى درجة أنّني قرّرت الانتحار، فنحن نقول له: إنّ الانتحار لا يفوتك، وأنّه ممكن في كلّ زمان، فتعال لنعثر على طريق لإصلاح مشكلاتك والبحث عن الحلول الناجعة لها، ومعلوم أنّ مفهوم هذا الكلام لا يعني أنّ عليك الانتحار بعد ذلك، بل هو كناية عن تركه.

---

١. من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٤٠٦، ح ٥٨٧٩.

٢. الأمالي للشيخ الصدوق، ص ٥٨٩، ح ١٠.

الثالثة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «وَقَطِيعَةُ الْجَاهِلِ تَعْدِلُ صِلَةَ الْعَاقِلِ».

هذه العبارة إشارة إلى أنّه كما ينتفع الإنسان من الارتباط مع العقلاء فإنّه ينتفع كذلك من القطيعة مع الجّهال (وطبقاً لهذا المعنى فإنّ الجاهل والعاقل بمنزلة المفعول لقطيعة وصلة).

ويحتمل أيضاً في تفسير هذه العبارة أنّ الجاهل إذا قطع علاقته معك فلا تحزن لذلك لأنّه بمنزلة أن يقوم عاقل بايجاد رابطة معك، وبالتالي فأنت تتخلّص من شرّه وضرره بقطع علاقته معك (وطبقاً لهذا التفسير فإنّ الجاهل والعاقل في هذه العبارة لهما موقع الفاعل).

الرابعة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «مَنْ أَمِنَ الزَّمَانَ خَانَهُ، وَمَنْ أَعْظَمَهُ أَهَانَهُ».

والجملة الأُولى إشارة إلى أنّ أيّ نعمة من نعم الدنيا لا يمكن أن يعتمد عليها، فأشكال النجاحات، والانتصارات، والثروات، والجمال والحُسن، المحبوبية والمكانة الاجتماعية، وسائر المواهب المادية الأخرى معرّضة للزوال في كلّ لحظة، والأشخاص الذين يعتمدون على هذه الأمور فسوف يواجهون فجأة خيانة الدنيا لهم، وستؤخذ منهم هذه النعم والمواهب واحدة بعد الأخرى، وهذا من قبيل أنّ الإنسان يبني في مسير السيل داراً فخمة، يحتمل في كلّ لحظة أن يأتي سيل عظيم ويجرف معه تلك الدار وينقضها، وعلى ضوء ذلك فالمراد من الزمان هنا الدنيا والمواهب المادية والنعم الدنيوية.

والمراد من الجملة الثانية أنّ الإنسان يرى أهميّة الدنيا في عينه ويتحرّك لتحصيل النعم المادية فيها بأيّ طريق كان وبأيّة وسيلة، وبديهي أنّ مثل هذا الشخص سيعيش الذلّة والمهانة ويسقط في أنظار الناس.

ويحتمل أيضاً في تفسير الجملتين أعلاه أنّ المقصود من الزمان، أهل الزمان، يعني أنّ الإنسان لا ينبغي له أن يثق بجميع أهل زمانه، لأنّه ربّما يطعن من الخلف ويواجه الغدر والخيانة، والمراد من تعظيم الزمان هو تعظيم أهل الزمان وبخاصّة

أصحاب القدرة والثروة وصنّاع القرار والمستكبرين، فالاعتماد على هؤلاء وتعظيمهم يتسبّب في إضعاف شخصية الإنسانة وسقوطه، ولذلك نرى أنّ الكثير من الأكابر والعلماء السابقين كانوا يحرّمون الاقتراب من الحكّام الجائرين والطواغيت، ويحذّرون الشخصيات المحترمة من إقامة علاقة وطيدة مع السلاطين، وما نرى في ترجمة حال الأكابر القدماء من شكواهم من فساد الزمان، فمقصودهم فساد أهل زمانهم[1].

ونقرأ في الأشعار المنسوبة لعبدالمطّلب:

يَعِيبُ النَّاسُ كُلُّهُمُ زَمَاناً ... وَمَا لِزَمَانِنَا عَيْبٌ سِوَانَا
نَعِيبُ زَمَانَنَا وَالْعَيْبُ فِينَا ... وَلَوْ نَطَقَ الزَّمَانُ بِنَا هَجَانَا
وَإِنَّ الذِّئْبَ يَتْرُكُ لَحْمَ ذِئْبٍ ... وَيَأْكُلُ بَعْضُنَا بَعْضاً عِيَاناً[2]

الخامسة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام في هذه العبارة من وصيّته الرائعة: «لَيْسَ كُلُّ مَنْ رَمَىٰ أَصَابَ».

وهو إشارة إلى أنّه لا ينبغي للأنسان أن يتوقّع الوصول إلى مقصده وتحقيق هدفه دائماً بحيث لو أنّه لم يحقّق النتيجة المرجوّة يصاب باليأس، أو أنّ الأشخاص الذين يرتكبون بعض الأخطاء التي تعيقهم عن تحقيق هدفهم، يقعون ضحيّة الذمّ والتقريع والتوبيخ، فالبشر غير معصوم ويحتمل في حقّه الخطأ والاشتباه (سوى المعصومين عليهم السلام).

والغرض من هذا الكلام تسلية الخاطر وتقوية الإرادة من بعض الإخفاقات التي يواجهها الإنسان في حركة الحياة والاحتفاظ بالأصدقاء والمدراء وعدم نبذهم بسبب بعض الأخطاء والهفوات.

ويحتمل أيضاً أنّ المقصود من هذه العبارة أنّ كلّ رامٍ لا يوفّق لإصابة الهدف، بل

---

١. ذكرنا مفهوم فساد الزمان أكثر في نفحات الولاية في الجزء الثاني ذيل الخطبة ٣٢.
٢. بحار الأنوار، ج ٤٩، ص ١١١.

الرامي الماهر والمجرّب هو الذي ينجح في إصابة الهدف.

ولا يبعد أن يكون المقصود من هذه العبارة كلا المعنيين المذكورين.

السادسة والعشرون: في هذه التوصية المباركة يتعرّض الإمام عليه السلام لمسألة تغيير الأوضاع وتبدّل الظروف في زمانه ويقول: «**إِذَا تَغَيَّرَ السُّلْطَانُ تَغَيَّرَ الزَّمَانُ**».

وهذا يعني أنّ أوضاع المجتمع تدور حول محور وضع الحكّام وأصحاب السلطة والقدرة، فليس فقط أنّ «**اَلنَّاسُ عَلىٰ دِينِ مُلُوكِهِم**» يمثّل حقيقة واقعية، بل إنّ أغلب حركات وسكنات الناس تدور حول محور نوع الحكومات ونمط إدارة النظام السياسي، فلو كان الحكّام من أهل الخبرة والتقوى والعدالة، فإنّ الناس يتحرّكون في خطّ التقوى والعدالة، وإن كانوا من الظلمة والقساة وأهل الجور، فإنّ ذلك سينعكس على جميع روحيات المجتمع ونفسيات أفراده، ولهذا السبب كان الأنبياء الإلهيون يسعون قبل كلّ شيء لإقامة الحكومة العادلة ليتيسّر لهم إصلاح الناس في ظلّ مثل هذه الحكومة، أمّا الأشخاص الذين يعتقدون بفصل الدين عن السياسة، فهم بعيدون جدّاً عن الحقيقة والصواب، لأنّ ترويج الدين ونشر التعاليم السماوية لا يمكن بدون إصلاح الحكومة، ومن هنا فإنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله تحرّك على مستوى تشكيل الحكومة الإسلاميّة في أوّل فرصة سنحت له ليستطيع التأثير في الأُمّة وتبليغ الرسالة بشكل صحيح من خلال آليات القدرة ويعمل على استبدال الثقافة الجاهلية بثقافة سليمة وإنسانية، وبخاصّة ما نراه في عالما المعاصر من تأثير وسائل الإعلام في أفكار الناس وكذلك البرامج المتعلّقة بالتعليم والتربية من المراحلة الابتدائية إلى المستويات العالية كلّها بيد الحكومات أو العناصر المرتبطة بالحكومة، فهل يمكن بدون الأخذ بزمام هذه الأمور من إصلاح المجتمع وتطهيره من عناصر الفساد والرذيلة؟

ويتبيّن ممّا تقدّم آنفاً أنّ المراد من الزمان، تغيير أفراد المجتمع، والمراد من تغيير السلطان تغيير حالات السلطان.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي إِذَا صَلَحَا صَلَحَتْ أُمَّتِي وَإِذَا فَسَدَا فَسَدَتْ أُمَّتِي، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَنْ هُمَا؟ قَالَ الْفُقَهَاءُ وَالأُمَرَاءُ»[١].

وجاء في بعض المصادر التاريخية أنّ انوشيروان استدعىٰ يوماً عمّاله على القرى والقصبات وبيده درّة ثمينة يقلّبها، فقال: أيّ شيء أضرّ بارتفاع السواد وادّعى إلى محقّه؟ أيّكم قال ما في نفسي جعلت هذه الدرّة في فيه.

فقال بعضهم: انقطاع الشرب، وقال بعضهم: احتباس المطر، وقال بعضهم: استيلاء الجنوب وعدم الشمال، (غلبة رياح الجنوب وعدم هبوبها من الشمال)، فقال لوزيره (بوذرجمهر): قل أنت فإنّي أظنّ عقلك يعادل عقل الرعيّة كلّها أو يزيد عليها، فقال: تغيّر رأي السلطان في رعيّته، وإضمار الحيف لهم والجور عليهم.

فقال: لله أبوك بهذا العقل أهّل آبائي أجدادي لما أهّلوك له، فدفع إليه الدرّة وجعلها في فيه[٢].

السابعة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام: «سَلْ عَنِ الرَّفِيقِ قَبْلَ الطَّرِيقِ، وَعَنِ الْجَارِ قَبْلَ الدَّارِ».

وقد أثبتت التجربة صحّة كلام الإمام عليه السلام هذا، فالناس قد جرّبوا ذلك مراراً لأنّ الستار والحجاب يزول غالباً في السفر وتبرز بواطن الأشخاص ومكنوناتهم، فلو كان رفيق السفر شخصاً وقحاً وغير متورّع أو كان بخيلاً وسيّء الخلق مع الآخرين، فإنّ ذلك من شأنه أن يسلب الراحة والهناء من أصدقائه في السفر، وهكذا بالنسبة إلى الجار السيّء فإنّه يسلب الراحة من الإنسان حتّى وهو في داره.

ونقرأ في حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «كَانَ إِذَا سَافَرَ يَقُولُ: مَنْ كَانَ يُسيءُ إِلَىٰ جَارِهِ فَلا يَصْحَبْنَا لِأَنّ الْجَارَ رَفِيقٌ مُلازِمٌ»[٣].

---

١. بحار الأنوار، ج ٢، ص ٤٩، ح ١٠.

٢. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ج ١٦، ص ١٢١.

٣. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٦٦، ح ٣.

يقول المرحوم التستري في شرحه لنهج البلاغة نقلاً عن كتاب تاريخ بغداد: كان لمحمّد بن ميمون أبي‌حمزة السكري[١] (من مشاهير عصره) جار أراد أن يبيع داره، فقيل له: بكم، قال: بألفين (دينار) عن الدار، وألفين (دينار) عن جوار أبي حمزة، فبلغ ذلك أبا حمزة فوجّه إليه أربعة آلاف (دينار)، فقال: خذ هذه ولا تبع دارك[٢].

الثامنة والعشرون: يقول الإمام عليه السلام في هذه الفقرة الأخيرة من وصيّته الزاخرة بالقيم والنصائح المفيدة: «**إِيَّاكَ أَنْ تَذْكُرَ مِنَ الْكَلَامِ مَا يَكُونُ مُضْحِكاً، وَإِنْ حَكَيْتَ ذَلِكَ عَنْ غَيْرِكَ**».

لأنّ مثل هذا الكلام يزيل هيبة الإنسان من جهة، ومن جهة أخرى يقترن غالباً بالغيبة أو السخرية من الآخرين من ذوي الوجاهة في المجتمع، ومن هنا سيكون مثل هذا الكلام باعثاً للإضرار بالإنسان في الدنيا وفي الآخرة، سواء كان هذا الكلام من عنده أو نقلاً عن شخص آخر، فلا فرق في الغيبة أو السخرية أن تكون من إبداع الشخص نفسه أو حكاية عن غيره.

وطبعاً فإنّ هذا لا يعني أنّ الإنسان يجب أن يترك كلّ أشكال المزاح المشروع والفكاهة اللطيفة، أو أن يجلس في المجالس بوجه عبوس ومكفهرّ، لأننا نعلم أنّ النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأئمّة أهل البيت عليهم السلام والعلماء الكبار كانوا يمزحون فيما بينهم ويتحدّثون باللطائف والفكاهة أحياناً، بل وردت التوصية بالمزاح في السفر أكثر للتخفيف من ضغط المشاكل والصعوبات التي يواجهها الإنسان في سفره، يقول العلّامة السيد بحر العلوم في أشعاره الفقهية:

وَ اَكْثِرِ الْمِزاحَ فِى السَّفرِ إذا ... لَمْ يُسْخِطِ الرَّبَّ وَ لَمْ يَجْلِبْ أذىً

وهذا الكلام مقتبس من الحديث النبويّ الشريف، قال النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «وَأَمَّا

١. كان هذا الشخص في زمانه من شيوخ خراسان وكان عالماً وخبيراً وكريماً وذا فكاهة في كلامه ولهذا لقب بـ «السكري». (اعلام الزركلي).

٢. شرح نهج‌البلاغة العلّامة التستري، ج ٨، ص ٤٥٥ ووردت هذه الرواية أيضاً في كتاب تهذيب الكمال، ج٢٦، ص ٥٤٨ عم تاريخ بغداد.

الَّتِي فِي السَّفَرِ فَبَذْلُ الزَّادِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ وَالْمِزَاحُ فِي غَيْرِ الْمَعَاصِي»[١].

وخلاصة الكلام أنّ هذه الأمور تعتبر حسنة وجميلة إذا كانت في حدّ الاعتدال، وإن تجاوزت الحدّ أو أدّت إلى إهانة الآخرين وظهور المتكلّم بمظهر المهرّج في أنظار الناس أو قاده هذا الكلام إلى ارتكاب الذنوب ممّا يسخط الله تعالى؛ فمثل هذا الكلام والمزاح يكون منهيّاً عنه في الشرع والعرف.

والإنصاف أنّ من بين هذه النصائح الثمانية والعشرين التي ذكرها الإمام عليه السلام في عبارات قصيرة وعميقة المعنى وتمثّل كلّ واحدة منها درساً مهمّاً في حركة الحياة المادية والمعنوية للإنسان؛ تعتبر من أروع ما ورد في النصائح والمواعظ وجدير أن تكتب بماء الذهب وتعلّق أمام أنظار الجميع، سلام الله وصلواته على روحك الطاهرة وكلماتك الزاهرة يا أميرالمؤمنين عليه السلام.

٭٭٭

١. بحار الأنوار، ج ٧٣، ص ٢٦٦، ح ٣.

القسم الثامن والعشرون

وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ، وَعَزْمَهُنَّ إِلَىٰ وَهْنٍ. وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَىٰ عَلَيْهِنَّ، وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ، وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ. وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، لَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ. وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا، وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا. وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَىٰ السَّقَمِ وَالْبَرِيئَةَ إِلَىٰ الرِّيَبِ.

الشرح والتفسير

السلوك العادل والحكيم مع المرأة

وفي القسم الثامن والعشرين من هذه الوصية التاريخية يتحدّث الإمامعليه السلام بالقضايا التاريخية المتعلّقة بالنساء ويوصي ولده بثمان وصايا.

بداية يقول: «وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ النِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَىٰ أَفْنٍ[1] وَعَزْمَهُنَّ إِلَىٰ وَهْنٍ».

ويبيّن الإمامعليه السلام في مطاوي هذه النصائح والتوصيات الثمان العلّة وراء هذه التوصيات والتي بإمكانها الإجابة عن جميع الأسئلة وعلامات الاستفهام التي تثار حول هذه التوصيات، فالإمام يقول: لأنّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة (مديرة ومسيطرة).

ومن المعلوم أنّ مثل هذا الكائن اللطيف لا يستطيع أن يكون طرفاً للمشورة في

---

١. «أفن» بمعنى النقصان وقلّة الفكر والعقل.

المسائل المهمة، ومعلوم أيضاً أنّ كلّ حكم عام له استثناءات، وما من عام إلّا وقد خصّ، وفي هذا المورد ثمة نساء يملكن من العزم والإرادة والرأي الثاقب بحيث يوازين الرجال من أهل الخبرة، أضف إلى ذلك أنّ القضايا العاطفية والأحاسيس النفسانية تتغلّب على النساء، وهذا هو الأمر الذي يؤثّر عليهن في مقام المشاورة.

ثمّ يتعرّض الإمام عليه السلام للتوصية الثانية ويقول: «**وَاكْفُفْ عَلَيْهِنَّ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ بِحِجَابِكَ إِيَّاهُنَّ، فَإِنَّ شِدَّةَ الْحِجَابِ أَبْقَىٰ عَلَيْهِنَّ**».

ومثل هذه التوصية وردت في الآية ٣١ من سورة النور: ﴿**وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾.

وهذا يشير إلى حقيقة مخالفة لتصوّر الكثير من الناس، فجميع أشكال الفتنة وحالات الإرباك في الأخلاق والمجتمع، لا تنطلق من نظر الرجال إلى النساء، بل إنّ الكثير منها ناتج عن نظر النساء إلى الرجال ووسوستهنّ وترغيبهنّ، والإمام عليه السلام قدّم هذه التوصية وأمر بلزوم حجبهنّ لمنع مثل هذه الفتنة.

وبديهي أنّ هذا الأمر السلبي لا يشمل جميع النسوة بل ناظر إلى النسوة الضعيفات الإيمان أو المتحلّلات خلقياً.

وفي التوصية الثالثة يقول: «**وَلَيْسَ خُرُوجُهُنَّ بِأَشَدَّ مِنْ إِدْخَالِكَ مَنْ لَا يُوثَقُ بِهِ عَلَيْهِنَّ**»، فلا ينبغي إدخال الأشخاص غير الموثوقين في خلقهم والتزامهم الديني عليهنّ، فذلك أشدّ وأشنع من خروجهنّ إلى الملأ العام.

وفي التوصية الرابعة التي تعتبر تتّمة للتوصية السابقة يقول الإمام عليه السلام: «**وَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَعْرِفْنَ غَيْرَكَ فَافْعَلْ**».

وهو إشارة إلى هذه الحقيقة، وهي أنّ من الضروريّ أن يطلبن حاجتهنّ منك فقط لا من غيرك، وحتّى لو أردن شيئاً من الآخرين فذلك يكون عن طريقك وبواسطتك، أي أنّ أيّ ارتباط بين النساء والآخرين ربّما يتبدّل في كثير الموارد إلى علاقة فاسدة، ولابدّ من قطع مثل هذا الارتباط، فعليك بتحكيم وتوثيق علاقتك بأهلك

ونسائك في جميع الموارد، ومن هذا المنطلق تتمّ الاستجابة من جهة إلى جميع ما يطلبن، ومن جهة أخرى يتمّ قطع الروابط غير السليمة مع الآخرين.

ويستعرض الإمامعليه السلام التوصية الخامسة بقوله: «وَلَا تُمَلِّكِ الْمَرْأَةَ مِنْ أَمْرِهَا مَا جَاوَزَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ، وَلَيْسَتْ بِقَهْرَمَانَةٍ[1]».

وهذا يعني أنّ النساء وبسبب ما يملكن من الحالات العاطفية واللطائف الروحية لا يستطعن تولي الأمور الصعبة وإدارة القضايا المعقدّة، وعلى ضوء ذلك لابدّ من تحديد دائرة عملهنّ في المسائل الخاصّة بهنّ لا المسائل المتعلّقة بالآخرين وبخاصّة ما يتّصل بالمناصب الحسّاسة والثقيلة في المجتمع الإسلامي.

أمّا العلة التي ذكرها الإمامعليه السلام لمثل هذه التوصيات فهي علّة حسّاسة ودقيقة جدّاً تنسجم وتتناغم مع البناء الروحي والجسمي للمرأة، رغم أنّ بعض المتأثّرين بالغرب غير مستعدّين لقبول هذه الحقيقة، ولكنّهم على مستوى العمل يسعون لتجسيد هذه التوصيات في واقعهم العائلي، حتّى في الغرب ومع طرح شعار المساواة بين الرجال والنساء لعقود من الزمان فإنّهم على مستوى العمل والممارسة يسلكون سبيلاً آخر، بحيث قلّما تستطيع إمرأة استلام مقاليد الأمور في المناصب الحسّاسة، ونسبة النسوة اللاتي يحرزن مثل هذه المناصب الحسّاسة إلى النسوة اللاتي لا يستطعن ذلك، ربّما لا تصل حتّى إلى ٥ ٪.

وخلاصة الكلام أنّ رعاية العدالة بين النساء والرجال ورفع أشكال التمييز والإجحاف رغم أنّه يعتبر حقيقة ملموسة، ولكن لا يمكن تنظيم قوانين المجتمع بحيث تتقاطع مع التكوين النفسي والجسمي للمرأة، وإطلاق الشعارات التي تدعو لمثل هذه المساواة، هي مجرّد شعارات برّاقة ومضلّلة ويقصد بها الرياء والتظاهر ولا تتّصل بالحقائق الموضوعية على أرض الواقع النفسيّ للمرأة.

---

١. «قهرمان» كلمة فارسية في الأصل وانتقلت إلى اللغة العربية وتعني المدير والمدبّر والشخص الذي يتولى أمور النفقة، وأحياناً تأتي بمعنى البطل والشجاع أيضاً.

وفي التوصية السادسة يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تَعْدُ[١] بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا».

وهذا يعني أنّها كلّما تتعامل مع الآخرين من موقع الاحترام والإكرام ربّما تتولّد علاقة عاطفية بينهما، هذه الرابطة يمكن أن تكون منشأ للفساد في المستقبل.

وفي التوصية السابعة التي ترتبط بما سبقها من توصية، يقول الإمام عليه السلام: «وَلَا تُطْمِعْهَا فِي أَنْ تَشْفَعَ لِغَيْرِهَا»، لأنّ مثل هذه الشفاعات ربّما تكون أيضاً منشأ للعلاقة العاطفية، فيكون ضررها وفسادها أكثر من نفسها.

والخلاصة أنّه لابدّ من حفظ احترام المرأة ولكن بحدودها، ولا تتجاوز إلى غيرها، سواءً على مستوى قبول شفاعتها أو بدون ذلك، لأنّ لهذه الأمور آثاراً سلبية على المستوى النفسيّ وتبعث على تشجيعهن لإيجاد العلاقة مع الآخرين.

ويذهب بعض شرّاح نهج‌البلاغة في تفسير جملة: «وَلَا تَعْدُ بِكَرَامَتِهَا نَفْسَهَا» أنّ المقصود أن لا يحترمها الرجل أكثر من اللازم، بل يقتصر تكريمهنّ بمقدار معيّن، ولكن هذا التفسير لا يتناسب مع سياق هذه الجملة وكلماتها، والظاهر أنّ المراد منها هو ما تقدّم آنفاً.

وفي التوصية الثامنة (والأخيرة في هذا المقطع من هذه الوصية) يقول الإمام عليه السلام: «وَإِيَّاكَ وَالتَّغَايُرَ[٢] فِي غَيْرِ مَوْضِعِ غَيْرَةٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ يَدْعُو الصَّحِيحَةَ إِلَى السَّقَمِ، وَالْبَرِيئَةَ إِلَى الرِّيَبِ[٣]».

ممّا لا شكّ فيه أنّ كلّ إنسان وبخاصّة النساء، لا يرتكبون مخالفة حفظاً للسمعة، والاهتمام بالوجاهة لدى الناس، ولكن إذا عاش الأقرباء والأزواج حالات الغيرة اللامبرّرة وأساؤوا الظنّ بهنّ إلى درجة الاتّهام فإنّ ذلك من شأنه خرق حجاب العفّة وخلق حالة من اللامبالاة بالقيم والعرف لديهنّ، فتقول هذه المرأة: الآن وقد فضحتني

---

١. «لا تعد» أي لا تتجاوز الحد، من مادة «عدو» على وزن «سرو» وهو تجاوز الحد.

٢. «التغاير» من «الغيرة» بمعنى الشدة في العمل لحفظ النواميس أو رأس المال المهم للآخرين.

٣. «ريب» (مع الالتفات إلى فتح الياء) جمع «ريبة» على وزن «غيبة» بمعنى الشك وسوء الظن.

واتّهمني زوجي بدون مبرّر فما الداعي لأن أحفظ نفسي واهتمّ بسمعتي وعفّتي، فلأفعل ما أشاء فليكن ما يكون، وهذا الكلام لا يختصّ بالنساء فقط، بل يمتدّ ليشمل الأبناء، الشركاء، الخدم والأصدقاء أيضاً، فكلّ سوء الظنّ غير المبرّر يبعث على تشجيع الطرف الآخر للتلوّث والسقوط في مهاوي الفساد والرذيلة، وسبق أن ذكرنا أنّ كلّ شيء جيّد وحسن إذا كان بصورة الاعتدال حتّى حالات الغيرة والتعصب لحفظ القيم.

تأمّل

مكانة المرأة في المجتمع

وهنا لابدّ من الإشارة إلى أمرين:

١. ثمّة شعارات كثيرة في عالمنا المعاصر بالنسبة لمقولة المساواة بين الرجل والمرأة، حيث تنعقد مؤتمرات دولية ومعاهدات ولوائح تزداد يوماً بعد آخر، والتأكيد علىٰ عدم وجود أيّ تفاوت بين الجنسين، ومن هذا المنطلق بإمكان كلّ من الرجل والمرأة تحمّل المسؤوليات الإجتماعية، سواءً ما يتصل بالقضاء أو قيادة الجيش أو إدارة الحرب، أو الرحلات الفضائية، أو الرحلات العلمية للتحقيق والبحث في أعماق البحار، والخلاصة أن يتولّى الرجل والمرأة جميع أشكال الإدارة على جميع الصعد والمستويات.

والعجيب هنا، أنّهم عندما تصل النوبة لمرحلة التطبيق والعمل فإنّ الفوارق تبرز بشكل جليّ، فالرجال يستلمون الإدارة على المستويات العليا والمتوسطة إلّا في موارد نادرة ومحدودة جدّاً، فلا يسمحون للنساء بتولّي هذه المناصب الحسّاسة والورود إلى هذه الميادين، ولا يختلف الحال أيضاً في البلدان الاوربية والأمريكية، فعندما يسألون أنّ هذه الظاهرة تتضمّن تناقضاً في القول والعمل، ولماذا يختلف مستوى التطبيق عن تلكم الادّعاءات الرنّانة والشعارات البراقة؟ فلا جواب لديهم.

وهذا التناقض وليد التفاوت بين الحقائق الموجودة على الأرض والشعارات التي تطلق في عالمنا المعاصر وفي المحافل والمؤتمرات، فمن أجل كسب آراء النساء في الانتخابات السياسية وإسكات اعتراضهنّ يرفعون شعار المساواة ويصرّون عليه بحجّة الدفاع عن حقوق المرأة، ولكنّهم في مرحلة العمل يجدون أنفسهم مرغمين لقبول هذه الحقيقة، وهي أنّ بنية النساء من حيث المستوى الجسمي والنفسي يختلف عن الرجال، فكلّ واحد من الجنسين خلق لمسؤولية معيّنة وكلّ واحد منهما إنسان يملك حقوقاً فردية واجتماعية، ولكن أن نقول أنّهما يملكان قابليات وملكات متساوية وقادرون على تولّي جميع المسؤوليات، فهو خطأ كبير.

يقول الفيزيائي والجرّاح الفرنسي المعروف (الكسيس كارل) الذي ألّف كتباً معروفة وله شهرة عالمية، يقول في كتابه «الانسان ذلك المجهول»: إنّ الرجل والمرأة بحكم قانون الخلقة، يختلفان في التشكيلة البنيوية، وهذا الاختلاف والتفاوت يسري إلى الوظائف والحقوق... ولعدم الالتفات إلى هذه النقطة الأصلية والمهمّة فإنّ أنصار حقوق المرأة يتصوّرون أنّ كلا الجنسين بإمكانهما امتلاك مستوى واحد من حيث التعليم والتربية و المشاغل والمسؤوليات المختلفة، فالمرأة في الحقيقة تختلف عن الرجل من جهات عدّة، فكلّ خلية من خلايا البدن، وكذلك الأجهزة وخاصّة الشبكة العصبية، تحمل علائم جنس صاحبها، ثمّ يضيف: إنّ القوانين الفسيولوجية أيضاً، حالها حال القوانين الفلكية وعالم الطبيعة، ثابتة وغير قابلة للتغيير، ولا يمكن إيجاد التغيير فيها برغبة البشر، فنحن مجبورون على قبولها كما هي عليه (لا كما نريد).

ثمّ يختتم كلامه بهذه العبارة: ينبغي على النساء أن يتحرّكن باتّجاه مواهبهنّ الطبيعية ويسرن في طريقهنّ الخاصّ بهنّ بعيداً عن حالات التقليد الأعمى للرجال، ووظيفة المرأة في سبيل تكامل البشرية أكثر بكثير من الرجال، ولا ينبغي التسامح

والتساهل في هذا الأمر[١].

والملفت أنّه في سنة ١٩٩٥ اجتمع عشرات الآلاف من أعضاء مؤسّسات الحقوق الرسمية وغير الرسمية في بكّين عاصمة الصين لتدوين وثيقة على أساس المعاهدات الدولية لمحو جميع أشكال التميز ضدّ النساء، وإمضاء هذه المعاهدة التي تمّ تنظيمها مسبقاً، ولكن بعض مواد هذه اللائحة كانت من البطلان والزيف لدرجة أنّ الكثير من المنظّمات والمجامع في العالم اعترضت عليها، وبعض المشتركين في ذلك المؤتمر تركوا الجلسة، ومنهم السيدة شارون هير النائبة في برلمان كندا ورئيسة الهيئة الكندية المشاركة في ذلك المؤتمر، حيث قامت من مكانها وتوجّهت بالخطاب إلى الصحفيين وقالت: «إنّ التساوي المقصود في وثيقة بكّين لا يأتي بالتساوي الحقيقي للنساء، وأنا أعود لبلدي بأوّل طائرة وأسعى لحفظ الفوارق بين الرجل والمرأة (وبتبعها المسؤوليات المختلفة)، فهذا التفاوت موجود في أصل الخلقة، وهذه الفوارق هي التي ستحفظنا»[٢].

وتفصيل هذه المسألة خارج عن عهدة هذا البحث المختصر، ويكفي القول إجمالاً بأنّ هذه الشعارات البرّاقة ليس أنها لاتحلّ مشكلة لنساء العالم، فحسب بل تترتّب عليها آثار مخرّبة أيضاً[٣].

وعلى ضوء ذلك ينبغي القبول بالحقائق المتعلّقة بكلا الجنسين بعيداً عن الشعارات الخاوية وتخطيط المناهج والبرامج على أساسها ووضع كلّ واحد من الجنسين في موقعه الاجتماعي اللائق به بدون أن نقبل بأيّ ظلم وتحقير للنساء.

٢. ما ورد في كلمات الإمام عليّ عليه السلام في هذه الوصية وفي بعض خطبه والكلمات القصار كان مورد بحث ونقاش من جهة بعض الكتّاب والمفكّرين، فهل

---

١. الإنسان ذلك المجهول، ص ١٠٠ وما بعدها.

٢. نقلاً عن تقرير وصفي لمؤتمر بكين، من كتاب الشورى الثقافية الاجتماعية للنساء (شوراى فرهنگى اجتماعى زنان)، ص ١٠.

٣. وللمزيد من الاطلاع انظر: دائرة المعارف للفقه المقارن، ج ١، ص ٨٤ - ٨٩.

أنّ مفهوم هذه العبارات في رسائل الإمام عليه السلام وخطبه يعكس موقفاً سلبياً من المرأة؟

وعندما نبحث في جذور هذه الخطب والرسائل ونقارن بينها وبين الحوداث التاريخية في ذلك الوقت، فسوف يتبيّن أنّ كلّ هذه التعبيرات غير ناظرة لجميع النسوة، بل إشارة لفئة خاصّة من النسوة ممّن كانت مصدر مفاسد اجتماعية وعائلية، وبخاصّة مع الالتفات إلىٰ أنّ بعض كلمات الإمام عليّ عليه السلام في هذا الشأن صدرت بعد واقعة الجمل، ونعلم أنّ حرب الجمل، وهي الحرب التي راح ضحيتها وفقاً لرواية، سبعة عشر ألف مسلم، قد أشعل فتيلها إمرأة أو أنّها اشتركت وساهمت في إشعالها.

وعلى ضوء ذلك، فنظر الإمام عليه السلام في هذه المقولات يتّجه لمثل هؤلاء النسوة، وبكلمة أخرى أنّ خطاب الإمام عليه السلام في هذه الموارد ليس موجبة كليّة بل موجبة جزئية.

والشاهد على هذا الكلام رؤية القرآن في ما يخصّ النساء، وعلى سبيل المثال نشير إلى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[١].

فلو كانت النسوة جميعهنّ ناقصات العقول، فكيف تتحقّق هذه السكينة والمودّة والرحمة بين الزوجين؟

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[٢].

فلو كانت النساء يملكن صفات سلبية فقط فكيف، يعبّر القرآن على أنّهنّ زينة لأزواجهنّ والعامل في حفظ هؤلاء الأزواج؟

وفي آية آخرى نقرأ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً

---

١. سورة الروم، الآية ٢١.
٢. سورة البقرة، الآية ١٨٧.

طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

وفي الآية ٣٥ من سورة الأحزاب يستعرض القرآن الكريم عشر فئات من المؤمنين الصالحين والنساء الصالحات ويعدهم في نهاية المطاف بأجر عظيم: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾.

وثمّة بحوث كثيرة في هذا المجال لا يسع المقام استعراضها لأنّها خارجة عن موضوعنا، ولكنّنا لحسن الختام نعود لكلام الإمام عليّ عليه السلام في هذا المقطع من الوصيّة حيث قال: «إِنّ الْمَرْأَةَ رَيْحَانَةٌ وَلَيْسَتْ بِقَهْرِمَانَةٌ». ونعلم أنّ الورد والرياحين تملك في حدّ ذاتها مزايا كثيرة، فهي عنصر لخلق السكينة والراحة النفسية، وكذلك تعتبر زينة، ولها فوائد كثيرة أخرى، ولكن في ذات الوقت فهي كائن لطيف ورقيق بحيث إذا تركت بدون رعاية كافية فسوف يصيبها الذبول والجفاف، فالحقيقة أنّ هذه الجملة إشارة إلى أنّ المشاعر والعواطف للنساء هي الغالبة، في حين أنّ العقل للرجال غالب على العواطف والأحاسيس، وبديهي أنّ هذين الجنسين بهذه الخصوصيات إذا اجتمعا وعملا سوياً فإنّ ذلك من شأنه تقوية نظام الأُسرة وتعميق وشائج العلاقة بين أفراد المجتمع.

***

١. سورة النحل، الآية ٩٧.

القسم التاسع والعشرون

وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلَّا يَتَوَاكَلُوا فِي خِدْمَتِكَ وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ.

الشرح والتفسير

تقسيم المسؤوليات

في هذا المقطع من الوصية يؤكّد الإمام على توصيتين مهمّتين في مجال الإدارة والتعاون، وفي الحقيقة أنّ هذه التوصية لا تتعلّق بولده البارّ، بل بجميع أفراد البشر بوصفه والداً شفيقاً لجميع الناس.

بدايةً يقول الإمام عليه السلام: «**وَاجْعَلْ لِكُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ خَدَمِكَ عَمَلاً تَأْخُذُهُ بِهِ، فَإِنَّهُ أَحْرَىٰ أَلَّا يَتَوَاكَلُوا[1] فِي خِدْمَتِكَ**».

إنّ تقسيم العمل يعدّ من أهم أصول ومبادىء الإدارة الناجحة، لأنّه بدون ذلك فإنّ العمّال والموظفين يتواكلون غالباً ويتوقّعون من الآخرين أن يقوموا بالمسؤوليات الملقاة على عاتقهم، وعندما يتأخّر العمل ويتباطأ الإنتاج فإنّ كلّ فرد منهم يستطيع تبرير عمله في مقابل مؤاخذة ربّ العمل بأنّه كان يظن أنّ هذا العمل من مسؤولية آخرين، وإذا سئل الآخرون عن ذلك فإنّهم يجيبون بنفس الجواب، ولكن عندما يتمّ تقسيم العمل والمسؤوليات، فإنّ كلّ شخص يعلم أنّه مسؤول عن

---

١. «يتواكلوا» من «التواكل» و «وكالة» و «تواكل» هو أن يعتمد الشخص في أموره وأعماله على شخص آخر ويلقي بالمسؤولية عليه.

عمله الخاصّ ويبذل جهده للقيام به بأفضل وجه، وهذه التوصية تدلّ على أنّ الإمام عليه السلام ملتفت تماماً لمبادىء الإدارة، ويوصي بها ولده.

وفي عصر النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله كانت هذه المسألة على رأس الأولويات، سواء في الحرب أو في غيرها، فيتمّ انتخاب رجل لقيادة ميمنة الجيش وآخر لقيادة الميسرة وثالث يكون مقرّه في قلب الجيش، وهو الذي يعيّن المسؤوليات ويصدر الأوامر، وهكذا بالنسبة لجمع الزكاة، فثمّة عمّال مأمورون بهذه المهمّة، وكذلك لكسب المعلومات عن وضع العدو حيث يتمّ إختيار أفراد خاصّين لهذا الغرض، وهكذا في سائر أمور إدارة البلد الإسلامي في جميع أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية وما إلى ذلك، حيث يتمّ اختيار أفراد واعين وملتزمين يقومون بهذه المهام.

وفي التوصية الثانية يقول الإمام عليه السلام: «**وَأَكْرِمْ عَشِيرَتَكَ، فَإِنَّهُمْ جَنَاحُكَ الَّذِي بِهِ تَطِيرُ، وَأَصْلُكَ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ، وَيَدُكَ الَّتِي بِهَا تَصُولُ**[1]».

ونرى أنّ الإمام عليه السلام في هذه العبارة يشبّه الأقرباء والأرحام بثلاثة أشياء كلّ واحدٍ منها ناظر إلى زاوية خاصّة، فثمّة تشبيه بالجناح وتشبيه بالأصل وثالث باليد.

والتشبيه الأول يشير إلى التقدّم والإزدهار والرقيّ في ظلّ التكاتف والتعاون بين أفراد العشيرة، والتشبيه الثاني يشير إلى عدم الشعور بالوحدة في مقابل التحدّيات المفروضة، والتشبيه الثالث يشير إلى مواجهة الأعداء والتصدّي لهم بمساعدة أفراد العشيرة والأقرباء.

وفي الحقيقة أنّه كما أنّ المجتمع الكبير في ظلّ التكاتف والتعاون بين أفراده يصل إلى مراتب متقدّمة من التطور والرقي والإزدهار، فكذلك المجتمع الصغير المتكوّن من العشيرة والأقرباء الموجودين في قلب المجتمع الكبير، فإنّه بالتعاون والتكاتف بين أفراده، يعيش المجتمع التآخي والنجاح والتغلّب على الصعاب، وحتى القبائل في الجاهلية أيضاً أدركت هذه الحقيقة، ولذلك كانت العلاقة القبلية

---

١. «تصول» من «الصولة» على وزن «دولة» بمعنى الهجوم والحملة في الميدان.

واعتماد الفرد على قبيلته يساهم بشكل أساس في التغلّب على المشاكل والأزمات التي تواجه العرب في عصر الجاهلية، وطبعاً مع فارق أنّ العرب في عصر الجاهلية كانوا يدافعون عن القبيلة، والقبيلة تدافع عن أفرادها بدون النظر إلى مسألة الحقّ والباطل، والعدل والظلم، أي بدون قيد أو شرط، ولكن في الإسلام أضحى هذا الدفاع المتقابل بين الفرد وقبيلته محدوداً بحدود الحقّ والعدالة، فالدفاع عن الباطل أضحى مرفوضاً حتّى في مقابل الأخ والأم والأخت وأمثالهم.

وفي القسم الرابع من الخطبة ٣٢ وفي الجزء الثاني من هذا الكتاب ثمّة بحث متعمّق في هذا المجال.

ويورد ابن أبي‌الحديد بعض النماذج من دفاع القبيلة عن أفرادها المظلومين ويبيّن أنّ هذه الحماية كانت مؤثّرة كثيراً، ومن ذلك أنّ الفرزدق كان لا ينشد بين يدي الخلفاء والأُمراء إلّا قاعداً، فدخل على سليمان بن عبدالملك يوماً، فأنشده فخراً به وبآبائه، وقال من جملته:

تاللهِ ما حمَلتْ مِن ناقةٍ رَجُلاً   مِثلي إذا ريح لفّتني على الكوري

فقال سليمان: هذا المدح لي أم لك؟ قال: لي ولك ياأميرالمؤمنين. فغضب سليمان وقال: قم فأكمل ولا تنشد بعده إلّا قائماً، فقال الفرزدق: لا والله أو يسقط على الأرض أكثري شعراً، فقال سليمان: ويلي على الأحمق ابن الفاعلة، لا يكنّي، وارتفع صوته، فسمع ضوضاء بالباب، فقال سليمان: ما هذا؟ قيل: بنو تميم على الباب، قالوا: لاينشد الفرزدق قائماً وأيدينا في مقابض سيوفنا، قال: فلينشد قاعداً[١].

٭٭٭

١. شرح نهج‌البلاغة لابن أبي‌الحديد، ج ١٦، ص ١٢٨.

القسم الثلاثون (القسم الأخير)

اسْتَوْدِعِ اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ، وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ.

الشرح والتفسير

ضع كلّ وديعة عند الله

وأخيراً يتحدّث الإمام عليه السلام في آخر هذه الوصية وأقصرها مخاطباً ولده ويذكر توصيتين تجمعان كلّ شي في ثناياهما.

يقول الإمام عليه السلام بداية: «اسْتَوْدِعِ[1] اللهَ دِينَكَ وَدُنْيَاكَ».

ثمّ يضيف: «وَاسْأَلْهُ خَيْرَ الْقَضَاءِ لَكَ فِي الْعَاجِلَةِ وَالْآجِلَةِ، وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالسَّلَامُ».

وبديهيّ أنّه لا أحد أفضل وأحسن من الله تعالى لحفظ دين الإنسان ودنياه، ولا أحد أحسن منه في تأمين أفضل المقدّرات والعطايا لدنيا الإنسان وآخرته، فالذات المقدّسة مصدر جميع الخيرات ومنبع كافّة البركات، وكلّ ما يملكه المخلوقون فهو صادر منه، كما نقرأ في القرآن الكريم: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

ولا شكّ أنّ الإنسان يواجه في دنياه ودينه الكثير من الآفات والمزالق والمآزق،

---

١. وردت هذه الكلمة في موارد كثيرة من نهج البلاغة بصيغة المتكلم بدلاً من صيغة الأمر «استَوْدِع» و «اسأل» وتعني أنني أضع دينك ودنياك وديعة عند الله وأسأله تعالى أفضل ما قسم وقدّر لك في الدنيا والآخرة، وطبعاً فإنّ مفهوم كلا العبارتين واحد في الحقيقة، رغم أنّ النسخة الأخيرة أنسب حسب الظاهر وخاصة مع الالتفات إلى كلمة «لك».

٢. سورة آل عمران، الآية ٢٦.

وطبعاً فإنّ الآفات التي تمسّ الدين أكثر، وهذه الآفات إلى درجة من الكثرة والتنوّع بحيث أنّ التغلّب عليها لا يتيسّر للإنسان إلّا بالاستعانة بالذات المقدّسة واللجوء إلى صاحب القدرة المطلقة

قال الشاعر:

تَوكَّل عَلَى الرّحمنِ فِي الأمرِ كُلِّهُ ... فَما خَابَ حَقّاً مَنْ عَلَيهِ تَوكّلا

وَكُنْ وَاثِقاً بِاللهِ وَاصبِرْ لِحُكمِهِ ... تَفُزْ بِالّذي تَرجُوهُ مِنْهُ تَفَضُّلا[1]

٭٭٭

نكتب هذه الكلمات الأخيرة من الجزء التاسع ونحن على أعتاب إطلالة عيد الغدير الأغرّ من سنة ١٤٢٨ هـ ق، وختاماً نترنم بهذا الدعاء الرائع ونقول:

«اَلحَمْدُلِلّهِ الَّذى جَعَلَنا مِنَ الْمُتَمَسِّكِينَ بِوِلايَةِ مَوْلانا أميرِالْمُؤْمِنِينَ وَالأَئِمَّةِ الْمَعْصُومينَ عليهم السلام».

نهاية الجزء التاسع

---

١. مجاني الأدب، ج ٢، ص ٩.

فهرس

مقدّمة ٥

الرسالة ١ .... ٩

نظرة إلى الرسالة ٩

القسم الأول ١١

الشرح والتفسير: حقيقة ما وقع في حادثة قتل عثمان ١١

تأمّلان ١٤

١. حكاية أبي موسى وتعبئة أهل الكوفة لنصرة الإمام عليه السلام ١٤

٢. عند الإمتحان يكرم المرء أو يهان ١٦

القسم الثاني ١٩

الشرح والتفسير ١٩

تأمّل: مصير الناكثين ٢٠

الرسالة ٢ .... ٢٣

نظرة إلى الرسالة ٢٣

الشرح والتفسير: إظهار الإمام عليه السلام رضاه عن أهل الكوفة ٢٥

تأمّل: النصّ الكامل لرسالة الإمام عليه السلام لأهل الكوفة ٢٦

الرسالة ٣ .... **٢٩**
نظرة إلى الرسالة ٢٩
القسم الأوّل ٣١
الشرح والتفسير: من أين لك هذه الدار؟! ٣١
القسم الثاني ٣٥
الشرح والتفسير: وثيقة عديمة النظير ٣٥
تأمّلان ٤١
١. الباعث لكتابة السند ٤١
٢. من هو شريح؟ ٤٢

ꙮ

الرسالة ٤ .... **٤٧**
نظرة إلى الرسالة ٤٧
الشرح والتفسير: يجب إقالة الضعفاء ٤٩
تأمّلان ٥١
١. جرائم الناكثين في معركة الجمل ٥١
٢. على مَن يمكن الاعتماد؟ ٥٣

ꙮ

الرسالة ٥ .... **٥٥**
نظرة إلى الرسالة ٥٥
الشرح والتفسير: المناصب الحكوميّة في الإسلام أمانة إلهيّة ٥٧
تأمّلات ٦٠
١. دستور كامل ٦٠
٢. من هو الأشعث بن قيس؟ ٦١
٣. آذربايجان في خارطة البلاد الإسلاميّة سابقاً ٦٣

الرسالة ٦ .... **٦٥**
نظرة إلى الرسالة ٦٥
الشرح والتفسير ٦٧
تأمّل: لماذا استدلّ الإمام عليه السلام بالشورى والبيعة؟ ٧٠

الرسالة ٧ .... **٧٣**
نظرة إلى الرسالة ٧٣
الشرح والتفسير: موعظة الضالّين! ٧٥
تأمّل: رسالة معاوية لأميرالمؤمنين الإمام عليّ عليه السلام ٧٨

الرسالة ٨ .... **٨٣**
نظرة إلى الرسالة ٨٣
الشرح والتفسير: حلّ المشكل بآليات الصلح ٨٥
تأمّل: من هو جرير بن عبدالله؟ ٨٦

الرسالة ٩ .... **٨٩**
نظرة إلى الرسالة ٨٩
القسم الأوّل ٩٣
الشرح والتفسير: بنو هاشم حماة الإسلام الأوائل ٩٣
القسم الثاني ٩٩
الشرح والتفسير: حماة الإسلام الأوائل ٩٩
القسم الثالث ١٠٧
الشرح والتفسير: ما أنت وقتلة عثمان؟! ١٠٧
تأمّل: كلام عن قتلة عثمان ١١٠

الرسالة ١٠ .... ١١٥
نظرة إلى الرسالة ١١٥
القسم الأول ١١٧
الشرح والتفسير: نظرة إلى الأُفق الغائم ١١٧
القسم الثاني ١٢١
الشرح والتفسير: حذارِ من الغفلة ١٢١
القسم الثالث ١٢٥
الشرح والتفسير: أنا أتحرّك دوماً في خطّ الحقّ والهداية ١٢٥
تأمّلان ١٢٨
١. مقارنة شجاعة الإمام عليه السلام بالأعداء ١٢٨
٢. هل كان معاوية حاضراً في معركة بدر؟ ١٢٩
القسم الرابع ١٣١
الشرح والتفسير: المستقبل المظلم والأُفق المشؤوم للعدو! ١٣١
تأمّل: التنبّؤات الواقعة ١٣٣

الرسالة ١١ .... ١٣٥
نظرة إلى الرسالة ١٣٥
الشرح والتفسير: الاستعداد الصحيح للجيش ١٣٧

الرسالة ١٢ .... ١٤٣
نظرة إلى الرسالة ١٤٣
الشرح والتفسير: تعليمات ضرورية قبل التوجّه إلى الميدان ١٤٥
تأمّل: من هو معقل بن قيس؟ ١٤٩

الرسالة ١٣ .... **١٥١**
نظرة إلى الرسالة ١٥١
الشرح والتفسير: مالك الأشتر القائد الفذّ ١٥٣
تأمّلان ١٥٤
١. مالك الأشتر المدير والمدّبر الشجاع ١٥٤
٢. شريح بن هانيء الحارثي وزياد بن النضر ١٥٦

الرسالة ١٤ .... **١٥٩**
نظرة إلى الرسالة ١٥٩
الشرح والتفسير: فصل آخر من القيم الأخلاقية في الحرب ١٦١
تأمّلان ١٦٥
١. مكانة المرأة في نهج البلاغة ١٦٥
٢. الخلق الإسلامي في مقابل العدو ١٦٧

الرسالة ١٥ .... **١٧١**
نظرة إلى الرسالة ١٧١
الشرح والتفسير: دعاء جامع في ساحة القتال ١٧٣

الرسالة ١٦ .... **١٧٧**
نظرة إلى الرسالة ١٧٧
الشرح والتفسير: تقوية عزائم الجند ١٧٩
تأمّلان ١٨٤
١. شواهد حيّة على عقائد بني أُميّة الواقعية ١٨٤
٢. فضائل الامام عليّ عليه السلام على لسان أعدائه ١٨٧

الرسالة ١٧ .... **١٨٩**
نظرة إلى الرسالة ١٨٩
القسم الأول ١٩١
الشرح والتفسير: المدين في هيئة الدائن ١٩١
القسم الثاني ١٩٧
الشرح والتفسير: النبوّة افتخار كبير ١٩٧
تأمّل: أتباع رسول الله صلى الله عليه وآله ١٩٩

٭٭٭

الرسالة ١٨ .... **٢٠٣**
نظرة إلى الرسالة ٢٠٣
الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة بماء المداراة ٢٠٥
تأمّل: خصائص أهل البصرة ٢٠٩

٭٭٭

الرسالة ١٩ .... **٢١١**
نظرة إلى الرسالة ٢١١
الشرح والتفسير: شمول الرأفة الإسلاميّة لجميع الناس ٢١٣
تأمّل: الإسلام وأهل الذمّة ٢١٦

٭٭٭

الرسالة ٢٠ .... **٢١٩**
نظرة إلى الرسالة ٢١٩
الشرح والتفسير: إنذار شديد للمتخلّفين ٢٢١
تأمّل: لماذا اختار الإمام عليه السلام زياداً لهذا المنصب ٢٢٣

٭٭٭

الرسالة ٢١ .... **٢٢٥**
نظرة إلى الرسالة ٢٢٥
الشرح والتفسير: الإمام عليه السلام يحذّر «زياد» مرّة أخرى ٢٢٧
تأمّلان ٢٣١
١. العلاقة بين الأعمال والجزاء ٢٣١
٢. زياد ابن أبيه الانتهازي ٢٣٢

الرسالة ٢٢ .... **٢٣٣**
نظرة إلى الرسالة ٢٣٣
الشرح والتفسير: السرور والحزن الموهومان ٢٣٥
تأمّلان ٢٣٧
١. الجواب عن سؤال ٢٣٧
٢. الإنسان فاعل مختار ٢٣٨

الرسالة ٢٣ .... **٢٤١**
الوصية في نظرة عامة ٢٤١
الشرح والتفسير: وصايا مهمّة ٢٤٣
تأمّلان ٢٤٨
١. القصاص أو العفو؟ ٢٤٨
٢. معنى «لاُ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ» ٢٤٩

الرسالة ٢٤ .... **٢٥١**
نظرة إلى الرسالة ٢٥١
الشرح والتفسير: توصيات مدروسة لإدارة الموقوفات ٢٥٣

تأمّلان ٢٦١
١. الجواب عن سؤالين ٢٦١
٢. أهمّية الوقف في الإسلام ٢٦٢

الرسالة ٢٥ .... ٢٦٥
نظرة إلى الرسالة ٢٦٥
القسم الأوّل ٢٦٧
الشرح والتفسير: الثقة بالجمهور في جمع الضرائب الإسلاميّة ٢٦٧
تأمّل: آداب جمع الزكاة وحقوق بيت المال ٢٧٢
القسم الثاني ٢٧٥
الشرح والتفسير: غاية الاحترام لمطالب الدافعين للزكاة ٢٧٥
القسم الثالث ٢٨١
الشرح والتفسير: الرأفة الإسلاميّة بالحيوانات ٢٨١
تأمّلان ٢٨٥
١. التأكيد على إيصال أموال الزكاة إلىٰ المحرومين ٢٨٥
٢. حماية الحيوانات في الإسلام ٢٨٦

الرسالة ٢٦ .... ٢٨٩
نظرة إلى الرسالة ٢٨٩
القسم الأوّل ٢٩١
الشرح والتفسير: التعامل الحسن مع دافعي الضرائب الإسلاميّة ٢٩١
القسم الثاني ٢٩٥
الشرح والتفسير: اعمل بحيث لا يشكوك المحرومون يوم القيامة ٢٩٥
تأمّلان ٢٩٩

١. الأصناف الثمانية لمستحقّي الزكاة ٢٩٩
٢. الأمانة، أصل القيم الأخلاقية في الإسلام ٣٠٠

ജ

الرسالة ٢٧ .... ٣٠٣
نظرة إلى الرسالة ٣٠٣
القسم الأول ٣٠٧
الشرح والتفسير: حسن الخلق مع جميع الأفراد ٣٠٧
القسم الثاني ٣١١
الشرح والتفسير: الدنيا والآخرة لمن يعيش البساطة والزهد ٣١١
القسم الثالث ٣١٥
الشرح والتفسير: تحذيرات متوالية ٣١٥
تأمّل: التعادل بين الخوف والرجاء ٣٢٢
القسم الرابع ٣٢٥
الشرح والتفسير: المهمّة الثقيلة ٣٢٥
القسم الخامس ٣٢٩
الشرح والتفسير: الخوف على الأُمّة من فئة معينة ٣٢٩
تأمّلان ٣٣١
١. خطر المنافقين ٣٣١
٢. رسالة غريبة من المعتضد العباسي ٣٣٢

ജ

الرسالة ٢٨ .... ٣٤١
نظرة إلى الرسالة ٣٤١
القسم الأول ٣٤٥
الشرح والتفسير: كيف يجلس المحكوم للحكم والقضاء؟ ٣٤٥

القسم الثاني ٣٥٣
الشرح والتفسير: الامتيازات النادرة ٣٥٣
تأمّلان ٣٥٧
فضائل حمزه سيّد الشهداء ٣٥٧
المرتبة السامية لجعفر بن أبي طالب ٣٥٩
القسم الثالث ٣٦٣
الشرح والتفسير: نقاط مهمّة أخرى في فضائل أهل البيت عليهم السلام ٣٦٣
تأمّلان ٣٦٩
١. قصّة السقيفة المثيرة! ٣٦٩
٢. فضائل بني هاشم في عصر الجاهليّة والإسلام ٣٧٠
القسم الرابع ٣٧٣
الشرح والتفسير: هذه الأمور لا تخصّك! ٣٧٣
القسم الخامس ٣٧٧
الشرح والتفسير: المقصّر الأصليّ في قتل عثمان ٣٧٧
القسم السادس ٣٨٥
الشرح والتفسير: تهدّدني بالحرب! ٣٨٥
تأمّل: مدين في لباس دائن! ٣٨٩

الرسالة ٢٩ .... ٣٩٢
نظرة إلى الرسالة ٣٩٢
الشرح والتفسير: إطفاء نار الفتنة في البصرة ٣٩٤

الرسالة ٣٠ .... ٣٩٩
نظرة إلى الرسالة ٣٩٩
الشرح والتفسير: ينبغي أن تفكّر بعاقبة أمرك! ٤٠١

الرسالة ٣١ .... ٤٠٧
نظرة إلى الرسالة ٤٠٧
القسم الأوّل ٤١١
الشرح والتفسير: هذه الوصيّة ممّن وإلى من؟ ٤١١
القسم الثاني ٤١٧
الشرح والتفسير: علّة كتابة هذه الوصية ٤١٧
القسم الثالث ٤٢١
الشرح والتفسير: أوثق وسيلة للنجاة ٤٢١
القسم الرابع ٤٢٥
الشرح والتفسير: أحي قلبك بالموعظة ٤٢٥
تأمّلان ٤٢٩
١. الحياة وإعمار القلب ٤٢٩
٢. الوعّاظ الكثيرون ٤٣١
القسم الخامس ٤٣٥
الشرح والتفسير: الاستقامة سبب تحقيق النصر والنجاح ٤٣٥
تأمّلان ٤٤١
١. رعاية الاحتياط عند الإحساس بالخطر ٤٤١
٢. الطريق لنيل الفضائل الأخلاقية ٤٤١
القسم السادس ٤٤٣
الشرح والتفسير: لا تتساهل في هذه الوصيّة ٤٤٣
تأمّل: العلوم النافعة وغير النافعة ٤٤٦
القسم السابع ٤٤٩
الشرح والتفسير: الباعث لكتابة هذه الوصية ٤٤٩
تأمّل: معطيات التربية في سنّ الشباب ٤٥٣

القسم الثامن ٤٥٥
الشرح والتفسير: تجارب الآخرين وإطالة عمر اللاحقين ٤٥٥
تأمّلان ٤٥٧
١. تشكيلة منسجمة من أسرار التاريخ ٤٥٧
٢. كيف توصّل الإمام عليه السلام لتاريخ الأقوام الماضية؟ ٤٥٩
القسم التاسع ٤٦١
الشرح والتفسير ٤٦١
القسم العاشر ٤٦٥
الشرح والتفسير: الحذر من سلوك الطرق المشكوكة ٤٦٥
القسم الحادي عشر ٤٧١
الشرح والتفسير: كلّ شيء من الله ٤٧١
تأمّل: المقارنة بين علم الإنسان وجهله ٤٧٤
القسم الثاني عشر ٤٧٧
الشرح والتفسير: اجعل من النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله مرشداً لك ٤٧٧
القسم الثالث عشر ٤٨١
الشرح والتفسير: الإيمان بالواحد الأحد ٤٨١
تأمّلان ٤٨٥
١. العلاقة بين الآيديولوجية والرؤية الكونية ٤٨٥
٢. بداية الخلقة ودوام الفيض ٤٨٧
القسم الرابع عشر ٤٨٩
الشرح والتفسير: السالكون طريق الآخرة ٤٨٩
القسم الخامس عشر ٤٩٣
الشرح والتفسير: نظرة واحدة لمصلحة الفرد والجماعة ٤٩٣
القسم السادس عشر ٤٩٧

الشرح والتفسير: لا تكن خازناً لغيرك ٤٩٧
القسم السابع عشر ٥٠١
الشرح والتفسير: الآخرون يحملون متاعك إلى الآخرة! ٥٠١
القسم الثامن عشر ٥٠٥
الشرح والتفسير: ضع عن كتفك همّ يومك! ٥٠٥
القسم التاسع عشر ٥٠٩
الشرح والتفسير: فتح أبواب التوبة والدعاء أمام الإنسان ٥١٠
تأمّل: شروط استجابة الدعاء ٥٢٠
القسم العشرون ٥٢٣
الشرح والتفسير: الغاية من الخلق ٥٢٣
القسم الحادي والعشرون ٥٢٩
الشرح والتفسير: الدنيا الخدّاعة وأهلها ٥٢٩
القسم الثاني والعشرون ٥٣٥
الشرح والتفسير: السائرون بمركب الليل والنهار ٥٣٥
تأمّل: السالكون إلى العالم الآخر! ٥٣٧
القسم الثالث والعشرون ٥٣٩
الشرح والتفسير: لا تذلّ نفسك أبداً ٥٣٩
القسم الرابع والعشرون ٥٤٩
الشرح والتفسير: سبع وعشرون موعظة ثمينة ٥٤٩
القسم الخامس والعشرون ٥٦٣
الشرح والتفسير: الإحسان في مقابل الإساءة! ٥٦٣
القسم السادس والعشرون ٥٧٣
الشرح والتفسير: لا تضيّع حقّ الصديق ٥٧٣
القسم السابع والعشرون ٥٧٩

الشرح والتفسير: ثمان وعشرون موعظة أخرى ٥٨٠
القسم الثامن والعشرون ٦٠١
الشرح والتفسير: السلوك العادل والحكيم مع المرأة ٦٠١
تأمّل: مكانة المرأة في المجتمع ٦٠٥
القسم التاسع والعشرون ٦١١
الشرح والتفسير: تقسيم المسؤوليات ٦١١
القسم الثلاثون (القسم الأخير) ٦١٥
الشرح والتفسير: ضع كلّ وديعة عند الله ٦١٥

مكتبة الروضة الحيدرية
الرقم/ ١١٤٥١١
التاريخ/ ٢٩/٦/٢٠١٠

دار جواد الأئمة (ع) للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان

حارة حريك - شارع دكاش - بناية شحرور

00961 3 13 73 73

00961 70 69 29 12

00961 70 70 45 67